السلسلة الجامعية

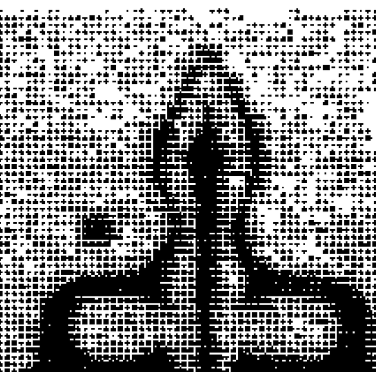
الهادي روجي إدريس

الدَّولةُ الصِّنهَاجيَّة

تاريخ إفريقية في عهد بني زيري
من القرن 10 إلى القرن 12 م

نقله إلى العربية
حمادي الساحلي

الجزء الأول



الدَّولةُ الصِّنهاجيَّة

تاريخ إفريقية في عهد بني زيري
من القرن 10 إلى القرن 12م.

الدَّولةُ الصِّنهاجيَّة

تاريخ إفريقية في عهد بني زيري
من القرن 10 إلى القرن 12 م.

نقله إلى العربيّة

حمّادي السّاحلي

الجزء الأول



هذه الترجمة تصدر للكتاب المنشور باللغة الفرنسية سنة 1962
La Berbérie Orientale sous les Zirides Xe - XIIe siècle
Par Hady Roger Idris
الصادر عن :
Librairie d'Amérique et D'Orient
ADRIEN-MAISONNEUVE
11, Rue Saint-Sulpice, PARIS (6e)

الطبعة الأولى
1992

La traduction de cette thèse est publiée avec l'accord de l'éditeur initial de l'ouvrage.

(ننشر هذه الترجمة باتّفاق مع الناشر الأصليّ للكتاب)

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: 113-5787
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

في نطاق الجهود المبذولة في سبيل نشر البحوث والدراسات الجامعيّة المتعلّقة بتاريخ المغرب العربي، سواء منها المؤلّفة رأسًا باللّغة العربيّة أو المنقولة عن اللّغة الفرنسيّة[1]، قرّرت «دار الغرب الإسلامي»، جزاها الله كلّ خير، تعريب ونشر أطروحة المأسوف عليه الأستاذ الهادي روجي إدريس التي خصّصها لتاريخ الدولة الصنهاجيّة ونشرها بالفرنسيّة في سنة 1962 بعنوان «بلاد البربر الشرقيّة في عهد بني زيري».

والجدير بالملاحظة أنّ مؤلّف هذا الكتاب هو مؤرّخ فرنسي من أصل تونسي وُلد بفرنسا وفقد أباه أصيل مدينة باجة التونسيّة في سنّ مبكّرة، فسهرت أمّه الفرنسيّة الجنسيّة على تربيته تربيةً فرنسيّة خالصة وأضافت إلى اسمه العربي «الهادي» اسمًا فرنسيًّا «روجي». ولكن ذلك لم يمنع الفتى من الحنين إلى وطنه الأصلي. فما إن التحق بالمعهد الثانوي، حتى حرص على حذق لغة آبائه وأجداده، فاختار دراسة اللّغة العربيّة كلغة أجنبيّة ثانية (إلى جانب اللّغة الإنجليزية) واستمرّ خارج المعهد وأثناء أوقات فراغه في إتقان المعلومات الّتي تلقّاها عن أساتذته باللّغة العربيّة، وذلك بواسطة مطالعة أمّهات الكتب العربيّة. وإثر حصوله على البكالوريا التحق بالجامعة حيث زاول دراساته العليا إلى أن أحرز الإجازة في اللّغة والآداب العربيّة، ثم واصل طريقه في هذا الاتّجاه، فأعدّ شهادة الدراسات العليا في اللّغة العربيّة واجتاز مناظرة التبريز (agrégation) فنجح فيها بامتياز. ونزولاً عند رغبته عيّنته وزارة التربية والتعليم الفرنسيّة في مطلع الأربعينات مدرّسًا للّغة والآداب العربيّة بمعهد كارنو بتونس. واستغلّ وجوده في موطن آبائه وأجداده للتعمّق في دراسة الحضارة العربيّة الإسلاميّة والتدرّب على مناهج البحث العلمي، بمساعدة نخبة من المستشرقين الفرنسيّين المقيمين عهدئذ بتونس، وفي مقدّمتهم العالم اللّغوي الشهير الأستاذ ويليام مارسي (William Marçais) مدير مدرسة اللّغة والآداب العربيّة بتونس (المعروفة آنذاك باسم مدرسة

---

1) «الدولة الأغلبيّة»، تأليف محمّد الطالبي وتعريب المنجي الصيّادي، 1985.
«تاريخ إفريقية في العهد الحفصي»، تأليف روبار برنشفيك وتعريب حمّادي السّاحلي، 1988.

العطّارين) . وسرعان ما اتّجهت همّته إلى التعمّق في دراسة فترة من فترات التاريخ التونسي التي لم تحظ بعدُ بدراسة معمّقة ، فاتّصل به الأستاذ روبار برنشفيك الذي كان قد انتهى منذ عهد قريب من إعداد أطروحته ونشرها في شكل كتاب يحمل عنوان «بلاد البربر الشرقيّة في العهد الحفصي» ، وأشار عليه بدراسة تاريخ الدولة الصنهاجيّة الذي ما زال في حاجة إلى دراسة علميّة معمّقة ، ووعده بالإشراف على عمله . فشرع منذ ذلك الحين في إحصاء وجمع المصادر والمراجع والوثائق اللاّزمة للقيام بذلك العمل وأخذ يتأهّب لفحصها ودراستها واستغلالها تحت إشراف الأستاذ برنشفيك . وقد ساعده على ذلك تعيينه أستاذًا مُعيدًا في اللّغة والآداب العربيّة بمعهد الدراسات العليا بتونس الذي أنشئ منذ سنة 1945 وكان تابعًا إداريًّا لجامعة باريس . فما لبث الأستاذ الهادي إدريس أن أقبل على نشر النتائج الأولى لبحوثه على صفحات مختلف المجلاّت والدوريّات المهتمّة بالدّراسات الشرقيّة[2] . وفي الأثناء تمّت نقلته إلى كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بمدينة الجزائر ، فعكف على تحرير رسالته التي أتمّها في آخر سنة 1959 وأصدرها بالجزائر سنة 1962 في شكل كتاب (في جزأين) يحمل إسم «بلاد البربر الشرقيّة في عهد بني زيري» ، وذلك تحت إشراف معهد الدراسات الشرقيّة التابع لكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بمدينة الجزائر.

ويستطيع مطالع هذا الكتاب أن يتبيّن من أوّل وهلة أنّ صاحبه قد سار على نفس المنهج الذي سلكه قبله الأستاذ برنشفيك في تأليف أطروحته المشار إليها أعلاه .

فقد استهلّ المؤلّف كتابه بدراسة تحليليّة ضافية للمصادر والمراجع التي اعتمدها في نقل الأخبار والروايات . ويلاحظ المطالع أنه اعتمد على وجه الخصوص المصادر الأربعة التالية :

1 – ابن خلدون : «كتاب العبر» ، النصّ العربي والترجمة الفرنسيّة التي أصدرها دي سلان في الجزائر ما بين سنة 1852 وسنة 1856 بعنوان «تاريخ البربر»[3] .

2 – ابن عذاري : «البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب» (الجزء الأوّل) .

3 – ابن الأثير: «الكامل في التاريخ» .

4 – «رحلة التجاني» .

وكثيرًا ما نقل المؤلّف عن تلك المصادر فقرات بحذافيرها ، دون زيادة ولا نقصان ، لا سيّما في الجزء الأوّل من الكتاب المخصّص للتاريخ السّياسي . وقد رأينا من الأمانة أن ننقل تلك الفقرات بنصّها العربي الأصلي ، ولم نَرَ فائدة في إعادة صياغتها في لغة عربيّة حديثة ، مثل بقيّة نصوص الكتاب المنقولة من اللّغة الفرنسيّة .

2) أنظر في القسم المخصّص للمصادر والمراجع قائمة البحوث والفصول التي نشرها المؤلّف قبل صدور كتابه .
3) أشار المؤلّف إلى هذه الترجمة في الهوامش بعبارة «البربر» ، اقتداء بالأستاذ برنشفيك .

ولكنّ المؤلّف لم يكتف دائمًا – والحقّ يقال – بنقل الفقرات كما هي، بل كثيرًا ما كان يقارن بين مختلف الروايات ويبرز ما فيها أحيانًا من تناقضات ويردفها بتعاليق وملاحظات تدلّ على إلمامه بالموضوع المطروق وتشبّعه بروح نقديّة عالية، مع ما كان يتحلّى به من نزاهة علميّة جديرة بالتنويه، بالإضافة إلى حرصه الشّديد على الدّقة العلميّة والتحرّي في نقل الأخبار والإشارة دومًا وأبدًا إلى مصادرها.

وقد قسّم المؤلّف كتابه إلى قسمَيْن كبيرَيْن:

1– القسم الأوّل: وهو يبحث في جميع أطوار التاريخ السياسي لكامل المنطقة الممتدّة من طرابلس شرقًا إلى بجاية غربًا، والمعروفة لدى الإخباريّين المسلمين باسم «إفريقية»، وقد أطلق عليها المؤرّخون الغربيّون اسم «بلاد البربر الشرقيّة»، وذلك منذ نشأة الدّولة الصّنهاجيّة (أي إمارة مناد وزيري وتأسيس مدينة أشير في سنة 325 هـ / 935م) حتى دخول الموحّدين إلى إفريقية وانتصارهم على النرمان في سنة الأخماس (555هـ / 1660م). والجدير بالملاحظة أن المؤلّف لم يقتصر على تاريخ دولة بني زيري (كما يمكن أن يدلّ على ذلك عنوان الكتاب)، بل درس أيضًا تاريخ دولة بني حمّاد منذ تأسيس مدينة القلعة (398 هـ/ 1007م) إلى استيلاء عبد المؤمن بن علي على بجاية (547 هـ / 1152م)، وذلك – حسب قوله – «لأنّ تاريخ بني حمّاد مرتبط أشدّ الارتباط بتاريخ أبناء عمومتهم بني زيري، بحيث لا يمكن فصل هذا عن ذاك»[4].

2– القسم الثاني: وقد خُصِّصَ لدراسة شتّى مظاهر الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والفكريّة والدينيّة، ومختلف النُّظُم الإداريّة والسياسيّة والمؤسّسات الاقتصاديّة والاجتماعيّة القائمة الذات عهدئذ في إفريقية، أي كلّ ما يمكن أن يمثّل «الحضارة القيروانيّة» التي بلغت ذروتها في عهد الدّولة الصنهاجيّة.

وبناء على ما يكتسيه هذا التأليف من أهمّيّة تاريخيّة بالغة، فقد أقدمنا بطيبة خاطر على نقله من اللّغة الفرنسيّة إلى اللّغة العربيّة، تلبيةً لطلب صديقنا المحترم الحاج الحبيب اللمسي صاحب «دار الغرب الإسلامي»، وذلك تعميمًا للفائدة ومساهمةً منّا في إثراء المكتبة التاريخيّة العربيّة بالكتب النّفيسة.

وقد قمنا بتعريب الكتاب بجميع أبوابه وفصوله وحواشيه، دون زيادة ولا نقصان، ما عدا إضافة بعض التوضيحات الطفيفة والإحالة على بعض المصادر المطبوعة التي كانت مخطوطة عند تأليف الكتاب أو الطبعات الجديدة لبعض المصادر التي اعتمدها المؤلّف في طبعات قديمة أصبحت غير متوفّرة في الوقت الحاضر. وقد حرصنا على وضع تلك الإضافات بين معقّفين [ ] للتمييز بينها وبين تعاليق وإحالات المؤلّف. كما اختصرنا

---

4) أنظر التوطئة.

عددًا قليلاً من الهوامش ذات الطابع الأكاديمي البحت ، إذ لا يفوتنا أنّ الكتاب هو في الأصل رسالة أعدّها صاحبها لنيل شهادة الدكتوراه.

وختامًا نرجو أن تحظى هذه الترجمة بحسن القبول لدى القرّاء الأفاضل وأن تُساهم في تعريف الناطقين بالضّاد بحقبة هامّة من تاريخنا العربيّ الإسلامي المجيد.

والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

تونس في ١٥ جمادى الثانية ١٤١١ – الموافق لأوّل يناير ١٩٩١.

حمّادي السّاحلي

توطئة

منذ صدور أطروحة جورج مارسي، العرب في بلاد البربر من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر (١٩١٣) التي ما زالت صالحة إلى الآن على نحوٍ جدير بالملاحظة، كان علينا أن ننتظر أطروحة روبار برنشفيك، بلاد البربر الشرقية في عهد بني حفص (١٩٤٠ – ١٩٤٧)، لنظفر بأوّل دراسة تأليفيّة موفّقة حول إحدى فترات تاريخ البلاد التونسيّة في العصر الوسيط.

وإن دراستنا هذه حول بلاد البربر الشرقيّة في عهد بني زيري، التي لم تكن إلى حدّ الآن موضوع بحث معمّق، كان من الممكن أن يكون إعدادها أيْسَر، لو صدرت قبل ذلك دراسة أخرى لتجديد أطروحة فندر هيدن حول الدولة الأغلبيّة، وبالخصوص لو ظهرت دراسة شاملة حول الدولة الفاطميّة بافريقية التي أصبحت الآن معروفة على وجه أحسن[1].

أمّا بالنسبة إلى الفترة الممتدّة من الغزوة الموحّدية إلى قيام الدّولة الحفصيّة، فإن قلّة الوثائق تجعل من الصعب إعداد دراسة جدّيّة حولها.

ومن ناحية أخرى، فإن الجزء الأوّل من كتاب هويسي ميراندا[2] حول تاريخ الدّولة الموحّدية لم يتناول بالدّرس إفريقيّة إلاّ باعتبارها مجالاً للعمليّات الحربيّة التي قامت بها جيوش عبد المؤمن بن علي.

وإن طبيعة المعلومات المتوفّرة لدينا لدراسة تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، لتكفي وحدها لتبرير توسيع مجال دراستنا في المكان والزمان، أي المغرب الأوسط وإفريقيّة بحصر المعنى، خلال أكثر من قرنَيْن، منذ أن تسلّم مقاليد الحكم أمير قبيلة صنهاجة البربريّة التابعة للمغرب الأوسط، بلكّين بن زيري بن مناد (361هـ/ 972م)

---

1) [إثر صدور كتاب الأستاذ إدريس في سنة 1962 ظهرت على التوالي أطروحة الأستاذ محمّد الطالبي حول الدّولة الأغلبيّة في سنة 1966 وأطروحة الأستاذ فرحات الدشراوي حول الدولة الفاطميّة بالمغرب في سنة 1981].

2) [Huici Miranda، التاريخ السياسي للإمبراطوريّة الموحّدية، الجزء الأوّل، تطوان، 1956].

الذي عيّنه المعزّ لدين الله الفاطمي، قبل تحوّله إلى مصر، لتسيير شؤون المغرب، إلى حدوث الغزوة الهلاليّة التي انتهت في حدود سنة 555هـ/ 1160م. ومن ناحية أخرى، فإنه لا مناص من الرّجوع إلى منشإ الدولة الصنهاجيّة (أي إمارة مناد وزيري وتأسيس مدينة أشير في سنة 324هـ/ 935م).

كما أنّ تاريخ بني حمّاد الذين حكموا المغرب الأوسط عمليًّا منذ تأسيس القلعة (398هـ/ 1007م)، إلى احتلال بجاية من طرف عبد المؤمن بن علي (547هـ/ 1152م)، مرتبط أشدّ الارتباط بتاريخ أبناء عمومتهم بني زيري في إفريقية، بحيث لا يمكن فصل هذا عن ذاك، لأنّ أخبارهما متداخلة ضمن المصادر التي هي بين أيدينا.

ولئن كان احتلال النّرمان لمدينة المهديّة (543هـ/ 1143م) إعلانًا عن سقوط بني زيري في إفريقيّة، فإنّ الملحمة الصنهاجيّة ستتواصل بضع سنوات أخرى، بفضل بقاء بني حمّاد على رأس مملكة بجاية، وأخيرًا فهل يمكن التوقّف قبل انتهاء الغزوة الموحّدية التي أزاحت النرمان عن سواحل إفريقيّة وقضت على الفوضى الناشئة عن الغزوة الهلاليّة؟ لا سيّما وأن عبد المؤمن بن علي هو الذي وضع حدًّا لسيطرة بني هلال الذين قضوا على الدولة الصنهاجيّة. ذلك أنّ دخولهم إلى بلاد المغرب، إثر القطيعة التي حصلت بين المعزّ بن باديس ومخدومه الخليفة الفاطمي بالمغرب، يمثّل عقدة الفاجعة التي لا بدّ من ذكر نهايتها.

وخلال الفترة الصنهاجيّة، نلاحظ أن الحضارة التي سنصفها بالقيروانيّة قد بلغت ذروتها ثم انقرضت. لذلك فقد أعطينا للأبواب الستّة المخصّصة للتاريخ السياسي الذي يشتمل عليه الجزء الأوّل من هذا الكتاب العناوين التالية: النشأة – الازدهار – الأوْج – الكارثة – محاولة النهوض – الاحتضار.

وأنه لمن دواعي الغبطة والسّرور أننا استطعنا أن نعطي للجزء الثاني المتعلّق بالمؤسّسات والحياة العامّة نفس الأهمّيّة، وأن نقسّمه أيضًا إلى ستّة أبواب: البلاد والعباد – النظام السياسي والإداري – الحياة الإجتماعيّة – الحياة الإقتصاديّة – الحياة الدينيّة – الحياة الثقافيّة والفنيّة.

ولأوّل وهلة يمكن أن يبدو هذا التوازن اصطناعيًّا، ولكنّنا رأينا أنه مفروض علينا، سواء بالنظر إلى طبيعة الموادّ المتوفّرة لدينا، أو بحسب مقتضيات العرض. إلاّ أنّ هذا التصميم كغيره من التصاميم الأخرى، له ثمنه في المقابل. فلو كنّا وضعنا الباب الأوّل من الجزء الثاني في صدر الكتاب، لربّما كان من الممكن أن يزيد ذلك في توضيح التاريخ السياسي، إذ أنه يمثّل – إن صحّ التعبير – ركيزته الجغرافيّة والعرقيّة، تمامًا مثل الباب ما قبل الأخير المتعلّق بالحياة الدينيّة، والذي يمثّل أحدَ عناصره الأساسيّة. إلا أننا قد حاولنا تدارك هذا الأمر مع التنقيص إلى أقصى حدّ ممكن من التكرار والإحالات التي لا مفرّ منها.

وإنّي انتهز هذه الفرصة لأقدّم أخلص عبارات الودّ والامتنان إلى السيّد روبار

برنشفيك الذي تفضّل عليّ باقتراح موضوع هذه الدراسة والإشراف عليها. كما أتوجّه بعبارات التقدير والاعتراف بالجميل إلى السيدين جورج مارسي وحسن حسني عبد الوهّاب اللّذَيْن لم يبخلا عليَّ بمساعدتهما ونصائحهما، وكذلك إلى السيّديْن ريجي بلاشير وكلود كاهين اللّذيْن أحاطاني برعايتهما. وأخيرًا أشكر صديقي شارل بلاّ على توفير أسباب صدور هذه الدراسة التي هي مدينة إلى حدّ بعيد لحماس الناشر وإخلاصه.

الجزائر، ماي 1959

المؤلّف

المقدّمة ـ المصادر

نظرًا لقلّة المخطوطات وضآلة الوثائق المتعلّقة بالمسكوكات والنقائش والآثار، فقد اضطُرِرْنا اضطرارًا إلى الاعتماد على المعلومات المستمدّة أساسًا من الكتب والمأخوذة بصورة غير مباشرة. وسنحرص في الدراسة النقديّة الموالية المتعلّقة بأهمّ المصادر المعتمَدَة، على التمييز بين الكتب الأصليّة والكتب المركّزة على النقول، وترتيب كلّ منها حسب تواريخها ومواضيعها، وفقًا للتصميم الذي وقع عليه الاختيار. وسوف نتوقّف طويلاً عند كتب الأخبار المفقودة التابعة للعصر الصنهاجي، والتي تُعتَبر مع ذلك من المصادر الأساسيّة للمعلومات المتناقلة، وكذلك عند جميع المؤلّفات الكفيلة بالتعويض عن النّقص في النّصوص التاريخية.

1) الإخباريّون وأشباه المؤرّخين

أ) المصادر الأصليّة:

1– لقد ألّف الطبيب القيرواني الذائع الصيت ابن الجزّار[1] (المتوفّى سنة 395هـ/1004م) ثلاثة كتب تاريخية وهي: **كتاب مغازي إفريقية** (حول الفتح العربي) **وكتاب أخبار الدّولة** (حول الدّولة الفاطمية) **وكتاب التّعريف بصحيح التاريخ** (مجموعة تراجم في 10 أجزاء اطّلع عليها ياقوت). ويُقال إنّه ألّف أيضًا كتاب **طبقات**

---

1) بروكلمان، 237/1 – 274 **والملحق**، 424/1؛ السيوطي، **البغية**، 117؛ **الكشف**، 318/2؛ ابن أبي أصيبع، الجزائر 1958، 8 – 12؛ **الأدباء**، 136/2 – 137؛ **الاتّعاظ**، 132؛ **رياض النفوس**، مخطوط باريس ص 101؛ سعيد الأندلسي، **طبقات الأمم**، الترجمة، 119، **ابن جلجل**، 88 – 91، والإحالة ص 88 (المراجع). هذا وإن الكتاب الأخير لا يمكن أن يكون قد ألّف في أوائل سنة 377هـ لأنه قد جاء فيه ذكر وفاة ابن الجزّار، وعلى كلّ ينبغي تصحيح 377 كما يلي: 397 أو 399، كما جاء في **التكملة**، 297.

القضاة[2] وكتاب **عجائب البلدان** (كتاب في الجغرافيا)[3].

كما اعتمد ابن الجزّار الذي يُعتبَر المصدر الأساسي لمؤلّف **كتاب العيون المجهول**[4]، كاتبان أندلسيّان هما : الجغرافي البكري والإخباري ابن حيّان، وكذلك مؤلّفان آخران من مؤلّفي التراجم وهما : القيرواني أبو بكر المالكي والمشرقي الصفدي.

2– وقد شغل [أبو إسحاق إبراهيم] الرقيق[5] (المتوفّى سنة 418هـ/ 1027 – 1028م) منصب رئيس ديوان الإنشاء في الدولة الصنهاجية مدّة ربع قرن وذلك في عهد كلّ من المنصور وباديس والمعزّ، وقام بعدّة مهمّات ديبلوماسيّة وألّف كتابًا في التاريخ حول أنساب البربر. وقد تناول كتابه **تاريخ إفريقية والمغرب (أو تاريخ القيروان)** بالدّرس الفترة الممتدة إلى سنة 417هـ/ 1026 – 1027م، حسب رواية ابن خلدون[6] الذي كان يوليه، بالنسبة إلى تاريخ إفريقية، نفس المصداقية التي كان يمنحها لابن حيّان (المتوفّى سنة 469هـ/ 1076م)، بالنسبة إلى تاريخ الأندلس[7].

ويبدو أنّ آثار رجل البلاط هذا الذي ربّما كان المؤرّخ الرسمي لمخدوميه، قد كانت المصدر الأساسي للإخباريّين، بالنسبة إلى الفترة المعنيّة بالأمر. ذلك أن ابن حمّاد وابن الأبار وابن عذاري والتجاني والنويري وابن خلدون وابن شدّاد والشمّاخي والصفدي وغيرهم، لم يمتنعوا عن الاستشهاد بتلك الآثار، الأمر الذي يخفّف من وطأة فقدانها[7م].

3– كثيرًا ما نُسب إلى ابن رشيق الشّاعر الذائع الصّيت والناقد والكاتب بديوان الإنشاء ومادح المعزّ بن باديس (المتوفّى سنة 542هـ/ 1147 – 1148م)، كتابًا من كتب الأخبار يحمل عنوان : **تاريخ القيروان** أو **ميزان الأعمال في أيّام (أو: تاريخ) الدّول**[8].

---

2) **الحلل السندسيّة**، [طبعة بيروت، 1984، 707/1].

3) Fagnan، **مقتطفات غير منشورة**، 127؛ وابن الجلجل، 90، الإحالة 3.

4) بروكلمان، 344/7 – 427 **والملحق** 587/1؛ وأماري **تاريخ المسلمين بصقليّة**، 288/2، الإحالة 1.

5) أنظر الباب 12 من هذا الكتاب، **دائرة المعارف الإسلاميّة**، أبو عبد الله الشيعي، 106/1 – 107.

6) البربر، 266/3؛ وفي **البيان**، 272/1 – 273، جاء ذكر الرقيق ضمن أحداث سنة 415هـ.

7) **المقدّمة**، 7/1.

7م) [صدرت قطعة من كتاب الرقيق «تاريخ إفريقيّة والمغرب» تبدأ من أواسط القرن الأوّل إلى أواخر القرن الثاني هـ، تحقيق المنجي الكعبي، نشر السّقطي، تونس 1968].

8) أنظر حول ابن رشيق : بروكلمان، 307/1، **والكشف** رقم 2285، 142/2، **والمقدّمة**، 8/1، الإحالة 2، **والبربر**، 161/2، الإحالة 3؛ وابن **قفطي**، 304/1، الإحالة؛ والصفدي، الترجمة، 1912، 259، الإحالة 2؛ وفندرهيدن، **الأغالبة**، 19. أنظر أيضًا الباب الثاني عشر من هذا الكتاب.

ولأوّل وهلة يبدو أنّ إشارة ابن بسّام (المتوفّى سنة 524 هـ / 1147 – 1148 م) إلى رجوع المعزّ إلى طاعة الخليفة الفاطمي، تؤيّد هذه النسبة[9]. ولكن رغم أنّ الأمر يتعلّق بشاعر من شعراء العصر الصنهاجي، فإنه لا شيء يدلّ على أن ابن بسّام قد اقتبس تلك الفقرة من أحد كتب ابن رشيق الذي لم يشر إليه أي مصدر من المصادر الأصليّة.

وبالعكس من ذلك فإن المؤلّف المجهول لكتاب **مفاخر البربر**، بعدما تحدّث عن ابتداء الدولة الموحّديّة، أشار إلى أن كلّ ذلك قد ذكره العالم الشيخ والباحث الحصيف أبو علي ابن رشيق في كتابه **ميزان الأعمال في أيّام الدّول**[10].

ولم يذكر صاحب **البيان** كتاب ابن رشيق إلاّ في آخر قائمة كتب الأخبار، ولم يشر إليه من بين المؤلفات الصّنهاجية[11]. كما أشار ابن خلدون إلى أنّ ابن رشيق في كتابه **ميزان الأعمال** لم يورد، مثل غيره من الكتّاب الخاملي الذكر، سوى جدول تاريخيّ مقتضب جدًّا[12]. وأخيرًا فقد ذكر السخاوي من بين الإخباريّين القيروانيّين أبا القاسم عبد الرحمان بن محمّد بن رشيق[13]. فلا يمكن حينئذٍ أن ننسب إلى صاحب **العمدة** كتابًا تاريخيًّا ربّما ألّفه فيما بعد كاتب آخر يحمل نفس اللّقب. وربّما يكون قد ألّف كتابًا في الأخبار أهمله أصحاب التراجم الذين اهتمّوا بالخصوص بإنتاجه الأدبي الصرف. وهذا ما يفسّر الإشارة التي أوردها ابن بسّام. ولتأييد هذا الافتراض يمكن أن نؤكّد أنّ ابن رشيق وابن شرف كانا يتنافسان في نفس الميدان، وانّ كثيرًا من المصادر البالغة الأهمّيّة قد أهملت ذكر أحد المتنافِسَيْن.

4– لقد أتمّ الأديب الشهير وشاعر المعزّ بن باديس ابن شرف (المتوفّى سنة 460 هـ / 1068 م)[14] التأليف الذي كان قد وضعه ابن رشيق، وذلك في شكل كتاب يحمل عنوان **الذّيل**.

وقد ذكر ابن عذاري هذا الكتاب من بين مصادره[15] واعتمد عليه في أخبار مدّة ولاية المعزّ حتّى سنة 443 هـ / أوائل 1052 م، وهي السنة التي ينتهي فيها كتاب

---

9) إدريس، حوليّات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر 1953، 25، 39.
10) **مفاخر البربر**، 59 – 60.
11) **البيان**، 3/1.
12) المقدّمة، 8/1.
13) السخاوي، 129.
14) بروكلمان، 268/1 – 315 **والملحق**، 473/1. أنظر أيضًا الباب الثاني عشر من هذا الكتاب.
15) **البيان**، 2/1.

ابن شرف، حسبما يبدو، ويبدأ كتاب أبي الصلت[16]. كما أشار التجاني إلى كتاب ابن شرف عندما ذكر وفاة الفقيه اللّبيدي (المتوفّى سنة 440 هـ / 1048 م)[17]، وتحدّث عن ابنه الذي لا نعرف تاريخ وفاته[18]. كما أشار البرزلي من جهته إلى تاريخ ابن شرف[19].

وعندما تعرّض ابن ناجي لقضيّة محمّد بن عبد الصّمد التي أُثيرَت حوالي سنة 441 هـ / 1049 – 1050م، أورد فقرة من تأليف الشاعر ابن شرف متبوعة بفقرتين بقلم ابنه جعفر بن محمد بن شرف[20]. ويبدو أن هذا الابن الذي كان فيلسوفًا وشاعرًا وناثرًا، لم يكن مؤرّخًا. وليس من المؤكّد أن تكون الفقرة المذكورة مقتبسة مباشرة من تاريخ ابن شرف، بل ربّما يتعلق الأمر بخبر شفوي استقاه أحد الأندلسيّين أو زيادة أضافها ابن الشاعر ابن شرف الذي نقل مؤلّفات والده إلى كاتب السِّيَر الأندلسي ابن بشكوال على وجه الخصوص[21]. وهذه الفقرة تكتسي أهميّة بالغة. إذ فيها إشارة إلى أن هزيمة المعزّ بن باديس كانت عقوبة سلّطها الله على مَنِ اضطهد أحد الأولياء الصالحين [أي ابن عبد الصّمد]. وهذا دليل على ضرورة التحرّي في اعتماد الأخبار المنقولة عن ابن شرف الذي، بعدما مدح المعزّ بن باديس، أصبح أحد الفارّين من إفريقيّة، الخادمين لركاب الأمويّين بالأندلس[22]. وأخيرًا فإنّ لدينا بعض أشعار ابن شرف حول نكبة القيروان[23].

5– لقد تجوّل الفقيه والتاجر القيرواني محمّد بن سعدون[24] (المتوفّى سنة 485 أو 486 هـ / 1092 – 1093م بأغمات)، في بلاد المغرب والأندلس واعتنق المذهب الصوفي في

16) نفس المرجع، 292/1. إنّ سنة 455 هـ / 1063م التي أشار إليها ابن شرف كتاريخ وفاة المعزّ في موضعين من كتابه (**البيان**، 292/1 – 298)، عند ذكر بعض المعلومات العامّة حول المعزّ، لا عند تسلسل الأحداث التاريخيّة، لا تدلّ على أنّ كتاب **الذيل** يمتدّ إلى تلك الفترة.

17) **رحلة التجاني**، 83 : «قال ابن شرف في صلته لتاريخ الرقيق».

18) نفس المرجع : «أخبر عنه ابن شرف في تاريخه».

19) البرزلي، مخطوط ح.ح. عبد الوهاب، ص 39 (قفا الصفحة) : «**الذيل** لابن شرف». نفس المؤلف، **المختصر**، ص 160 (وجه الصفحة) : «تأليف ابن شرف الذي على الرقيق».

20) **معالم الإيمان**، 238/3.

21) **الصلة**، 545/2 – 546 رقم 1208 حول جعفر ابن شرف. أنظر أيضًا : المقري، طبعة القاهرة 1949، 363/4 – 367 ؛ والضبّي 520 – 521، رقم 1557 ؛ والميمني، 116 – 121. أنظر أيضًا الباب 12 من هذا الكتاب.

22) برنشفيك، تحيّة غوديفروا ديمونبين، 147 – 158.

23) **معالم الإيمان**، 13/1 – 15 و240/2 ؛ وابن بسّام، 1/1، 74 و1/4، 109، 177 – 179، 181 – 184 ؛ وياقوت، **معجم الأدباء** ؛ و ح.ح. عبد الوهّاب، **المنتخب المدرسي**، 78 – 81 ؛ والميمني، 98 – 100، 115.

24) إدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر، 1955، 35 – 36.

آخر حياته على وجه الخصوص. وألّف من بين كتبه الأخرى كتاب **تأسّي أهل الإيمان بما طرأ على مدينة القيروان**[25] المعروف أيضًا باسم: **تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلّب الزمن**[26]. وهذا العنوان المثير للذكريات يعني أن موضوع الكتاب يمتدّ إلى تاريخ خراب القيروان.

ولكنّ ابن سعدون لم يُشِر في أوّل الفقرة التي أوردها ابن عذاري[27] حول بني عُبَيْد، من ابتداء دولتهم إلى عهد المستنصر، إلاّ إلى ثلاثة أبواب فقط من كتابه، حيث قال: «فيه باب أذكر فيه أوّل من وضع هذه الدعوة التي شرع فيها عُبَيد الله وذرّيته، والسّبب الذي دعاهم لذلك، وباب أذكر فيه تسييرهم الرّكبان، بدعوتهم ودُعَاتهم إلى البلدان، وباب أذكر فيه عبيد الله ونسبه وانتماءه إلى النّبيّ ﷺ كاذبًا، وسبب مُلْكِه المغرب كلّه».

فيحقّ لنا حينئذٍ أن نتساءل هل أنه ألّف أبوابًا أخرى حول بني زيري ذاتهم؟ وهل أنّه لم يكن سوى كاتب مناهض للدعوة الفاطميّة؟[28].

6– أبو الصّلت أميّة بن عبد العزيز[29] (المتوفّى سنة 529هـ/ 1135م)، هو ذلك العالم الأندلسيّ المتعدّد الموضوعات الذي غادر الإسكندريّة سنة 506هـ/ 1112 – 1113م؛ متوجّهًا إلى المهديّة حيث أقام إلى آخر حياته. وقد مدح الثلاثة خلفاء الصنهاجيّين الأخيرين يحيى وعلي والحسن الذين خصّوه برعايتهم، وألّف للحسن كتابًا في التاريخ، اعتبره التجاني، ذَيْلاً لتاريخ الرقيق[30]. فهل كان عنوان هذا الكتاب: **الديباجة في مفاخر صنهاجة**؟[31] وهو عنوان الكتاب الذي نسبه ياقوت إلى مؤرّخنا. إنّ هذا الافتراض مشكوك فيه، لأنّ المؤلّف المجهول لكتاب **مفاخر البربر** قد ميّز كتاب

---

25) **معالم الإيمان**، 2/245 – 246.

26) **البيان**، 1/281.

27) نفس المرجع.

28) **الديباج**، 273.

29) بروكلمان، 1/486 – 487، 641 **والملحق**، 1/889؛ Pons-Boignes، **المؤرّخون والجغرافيون العرب بالأندلس**، 198 – 201؛ **التكملة**، نشر ابن الشنب، رقم 539؛ ابن خلّكان، 1/80 – 81، 2/241 – 242؛ المقرّي، طبعة القاهرة، 1302هـ، 1/372، 2/193، 205 – 206، 282 – 284، **معجم الأدباء**، 7/52 – 70، **أعمال الأعلام**، 458، الإحالة 3، **البيان**، 1/312، وحسب هذا الكتاب توفّي أبو الصّلت سنة 536هـ؛ **شذرات الذهب**، 4/83 – 85، 144، وحسب هذا الكتاب توفّي سنة 547 و528هـ؛ **تاريخ المسلمين بصقلية**، 1/40؛ مخلوف، 2/201.

30) **رحلة التجاني**، 125.

31) **معجم الأدباء**، 7/64.

الديباجة في أخبار صنهاجة، المطابق – حسبما يبدو – للكتاب السابق الذكر، عن «كتاب أبي الصّلت الذي وضعه للحسن صاحب المهديّة»[32].

وقد سبق أن رأينا أنّ كتاب أبي الصّلت يبدأ حيث توقّف ابن شرف، أي حوالي سنة 443هـ/ 1052م، وذلك حسب رواية ابن عذاري الذي أشار إلى ما يلي :

«إلى هنا انتهى كلام أبي الصّلت في أخبار المهديّة وأميرها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم إلى سنة 517 [1123]»[33]. بل يبدو أنّ أبا الصّلت المطّلع على الأحداث أحسن اطّلاع، قد أورد بعض الوثائق الأصليّة[34] التي استشهد بها كلٌّ من ابن عذاري والتجاني وابن الخطيب وابن خلدون.

7– ابن شدّاد[35] المشهور باسم أبي محمّد عبد العزيز بن شدّاد بن تميم بن المعزّ بن باديس، والمعروف أكثر باسم أبي الغريب عزّ الدّين الصّنهاجي : هو حفيد الخليفة الصّنهاجي الرّابع تميم بن المعزّ (المتوفّى سنة 501هـ/ 1108م). وابن أخي الخليفة الخامس يحيى بن تميم (المتوفّى سنة 509 هـ/ 1160م). وقد كان من رجال حاشية الحسن، حيث صرّح بأنه طالع كتابًا من خزانة كتب «هذا السلطان»[36].

وتشهد على وجوده في صقليّة قصّة تتعلّق بعبد المؤمن بن علي، مفادها أنّ أحد سكّان المهديّة المسلمين، التقى به سنة 551هـ/ 1156– 1157م في بالرمو ورواها له[37].

وممّا لا شكّ فيه أنّه تحوّل إلى سوريا. فقد روى عماد الدين [الأصفهاني]

---

32) **المفاخر**، 51.

33) **البيان**، 309/1.

34) إدريس، تحليل وترجمة نصّين يرجع تاريخهما إلى العصر الصّنهاجي، تونس، 1952.

35) بروكلمان، **الملحق**، 572/1؛ **تاريخ المسلمين بصقليّة**، 40/1 – 41، 486/3؛ فورنال، 207/2؛ كاترميتر، **ترجمة المعزّ**، المجلّة الآسيويّة، أوت 1836، 114– 131؛ فاغنان، **مائوية أماري**، 43/2؛ بيل، **بنو غانية**، 77، الإحالة 2؛ **الاتّعاظ**، 47؛ ابن خلكان، 99/1، 239/2 – 240، **معجم البلدان**، 76/7؛ أبو الفداء، **تاريخ**، 3/1، 96/2– 99 (صقلية) و131– 132 (بنو حمّاد)؛ الصفدي، المجلّة الآسيوية، مارس– افريل 1912، 259، الإحالة 4.

36) ابن خلّكان، 240/2.

37) أماري، **تاريخ المسلمين بصقلية**، ص 486 : يؤكّد المؤلف أنّ ابن شدّاد كان موجودًا في معسكر عبد المؤمن بن علي أثناء المعركة الحربيّة التي دارت بالمهديّة سنة 554هـ/ 1159م. والجدير بالملاحظة أنّ هذه الرواية التي أوردها التجاني في رحلته، ص 348، منقولة عن شاهد عيان. إلاّ أنّ الجملة الوحيدة المحرّرة في صيغة المتكلّم : «قال الحاكي كنت حاضرًا وعبد المؤمن يبكي...»، تفيد – حسبما يبدو – أنّها منقولة على لسان الشخص الذي أخبر ابن شدّاد بما جرى في تلك المعركة، ولعلّه يكون المهدوي المعني بالأمر.

صاحب **خريدة القصر** أنّ الأمير عبد العزيز بن شدّاد بن تميم الذي كان يقيم آنذاك بدمشق، قد أبلغه في سنة 571هـ/ 1176م ديوان جدّه تميم[38].

ومن جهة أخرى، فقد أورد التجاني فقرة من تاريخ ابن شدّاد تتعلّق بشهادة أدلى بها [محمّد بن البرّاء] المهدوي في دمشق سنة 582هـ/ 1186م[39].

وقد ألّف ابن شدّاد كتابًا في أخبار القيروان، كثيرًا ما اقتضب الناقلون عنوانه، وهو: كتاب **الجمع والبيان في أخبار القيروان، فيمن فيها وفي سائر بلاد المغرب من الملوك والأعيان**، أو: كتاب **الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان**[40]. كما ألّف كتابًا آخر في أخبار صقليّة.

ولقد استشهد بابن شدّاد كلٌّ من ابن خلّكان والتجاني وأبو الفداء والنويري والمقريزي. وبعد ذلك بسنين طويلة تأسّف ابن أبي دينار لعدم تمكّنه من استعمال **تاريخ القيروان**[41].

8– وألّف حمّاد بن إبراهيم بن أبي يوسف المخزومي لصاحب بجاية العزيز بن حمّاد (المتوفّى سنة 518هـ/ 1124م) كتابًا في التاريخ، يقول ابن الأبّار إنه اطّلع عليه.

9– أمّا ابن حمّاد (= ابن حمادُو)[43] (المتوفّى سنة 628هـ/ 1231م)، أصيل بلدة

---

38) **الخريدة**، مخطوط باريس رقم 3330، ص 60 (وجه الصفحة). [أنظر القسم المطبوع من الخريدة حول شعراء المغرب (ط 3)، تونس 1986، ص 142].

39) **رحلة التجاني**، 14، والإحالة 1. ولا ينبغي الخلط بين ابن شدّاد حفيد تميم واثنين آخرَيْن يحملان نفس لقبه، أحدهما قاضي حلب (المتوفّى سنة 632هـ/ 1234 – 35م)، وهو مؤلف ترجمة صلاح الدين، والآخر (المتوفّى سنة 128) قد ألّف وصفًا لمدينة حلب. أنظر: ابن خلّكان، 354/2 – 360؛ وسوفاجي، **المقدّمة**، 82 – 147.

40) تمّ العثور مؤخّرًا على المخطوط المزعوم للجزء الثاني من **الجمع والبيان**، الذي كان قد فُقِد من دار الكتب الوطنية بتونس. ومن سوء الحظ فقد تبيّن من دراسته أن الأمر يتعلّق بنسخة جزئية من **تاريخ** أبي الفداء (من سنة 397 إلى سنة 692هـ/ 997 – 1293م)، تبتدئ بفقرة مأخوذة من كتاب ابن شدّاد. وهذا ما يفسّر نسبة المخطوط إلى هذا الكاتب خطأً. أنظر: **تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي**، [الترجمة العربية، ص 405 الإحالة 85]؛ **وتاريخ** أبي الفداء، 131/2، 29/4.

41) **المؤنس**، 39.

42) **التكملة**، تحقيق ابن الشنب، 156.

43) لقد أعطانا الغبريني اسمه الكامل، (128 – 130)، وهو أبو عبد الله محمّد بن علي بن حمّاد بن عيسى بن أبي بكر الصّنهاجي. أنظر: **دائرة المعارف الإسلامية** (الطبعة الثانية)، الفصل الخاصّ بأبي يزيد، 168/1، وقد جاء فيه أنه لا ينبغي الخلط بين ابن حمّاد وابن حمّادو. أنظر: ابن حمّاد، **تاريخ الملوك العبيديّين**، نشر وترجمة فندرهيدن، وليفي بروفنسال، أرابيكا، 25/1 – 26، الإحالة 3، **والمفاخر**، 51 – 65 وبرنشفيك، تحية غوديفروا ديمومبين، القاهرة، 1935 – 1945، ص 156، الإحالة 2 وأماري، نصوص عربيّة، 1857، 317 – 318؛ والصفدي، 157/4 – 158، رقم 1692.

حمزة التابعة لقلعة بني حمّاد ، فقد زاول دراسته في بجاية وطاف في أنحاء المغرب وتولّى القضاء بالجزيرة ثمّ بسلا . وقد ألّف كتاب **النّبذ المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة بإفريقية وبجاية** ، وهو مفقود ، وكتابًا صغيرًا قد وصلنا حول تاريخ العبيديّين . ويبدو أن الكتاب الأوّل الذي اعتمده كلّ من ابن خلدون والمؤلف المجهول **لمفاخر البربر** ، يُعتَبَر مفيدًا بالنسبة إلى تاريخ بني حمّاد بوجه خاصّ وتاريخ بني زيري بوجه عامّ . وقد استشهد التجاني أيضًا بابن حمّاد .

10– كما ألّف سَمِيُّه ابن حمّادُو البرنوسي السبتي (القرن السادس عشر هجري / الثاني عشر ميلادي) كتاب **المقتبس (أو القبس) في أخبار المغرب والأندلس** الذي اعتمده ابن عذاري[44] .

11– وأخيرًا تجدر الإشارة إلى **«مذكّرات»** عبد الله آخر ملوك بني زيري في غرناطة (469–483 هـ / 1076 – 1091 م)[45] .

ب) **كتب الأخبار المغربيّة :**

12– يُعتبَر كتاب **البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمَغْرِب** الذي جمع مادّته الكاتب المغربي ابن عذاري المرّاكشي ، أهمّ مصدر من مصادرنا . فكثيرًا ما يذكر المؤلّف المصادر التي اعتمدها ، وقد أشار إليها في مقدّمته[46] .

13– أمّا كتاب **مفاخر البربر** الذي جمع مادّته مؤلفه المجهول سنة 712 هـ / 1312م ، فهو من المصادر الأصليّة التي اعتمدها ابن خلدون ، وقد أفادنا بكثير من المعلومات الهامّة .

14– يتضمّن كتاب **العبر** للمؤرّخ الكبير ابن خلدون (المتوفّى سنة 808 هـ / 1406م) معلومات وثائقية على غاية من الأهميّة ، إلاّ أنّها تفتقر في أغلب الأحيان إلى المراجع وتتّسم بمزايا ونقائص معروفة حقّ المعرفة . والجدير بالتذكير أنه يتعيّن علينا أن لا

44) **البيان** ، 5/1 – 237 ؛ **أعمال الأعمال** ، 465 ، الإحالة 2 ؛ **المفاخر** ، 64 ؛ ليفي بروفنسال ، أرابيكا ، 25/1 – 26 ، الإحالة 3 ؛ **دائرة المعارف الإسلامية** (الطبعة الثانية) ، الفصل الخاصّ بأبي يزيد ، 168/1 .

45) لقد وضع عبد الله مذكّراته في بلدة أغمات [بالمغرب الأقصى] ، بعدما خلعه يوسف بن تاشفين سنة 483 هـ / 1090م ؛ ليفي بروفنسال ، الأندلس ، 1935/3 ، الجزء الثاني ، 236 – 237 .

46) إنّ النصّ الوارد في المخطوطات ليس دائمًا على أحسن ما يرام ، ويا للأسف ، وذلك بالرّغم من النشرة الجيّدة التي حقّقها دوزي وراجعها وصحّحها وزاد فيها حسب مخطوطات جديدة كولان وليفي بروفنسال . ويبدو أنّ آخر الجزء الأوّل ، وبالخصوص القسم المتعلّق بولاية الحسن – لا سيّما بعد سنة 517 هـ – فيه نقص كبير (من سنة 539 إلى سنة 543 ومن سنة 544 إلى سنة 551) . والجدير بالتذكير أنّ سنة 517 هي التي ينتهي فيها تاريخ أبي الصّلت . فلو كان لدينا النصّ الأصلي لاعتبرنا آخر الكتاب غير مُتقَن .

تجاري بلا رويّة كتابًا يختلف عن كتب الأخبار المعهودة ، ولكن لا ينبغي الاعتماد عليه بصورة مطلقة . كما تجدر الإشارة إلى أنّ ابن خلدون قد اعتمد كتاب المؤرخ الحفصي ابن نخيل ، المفقود[47] ، واستشهد بالكاتب الأندلسي ابن النحوي[48] .

15–16– ويمكن أيضًا استقاء معلومات متفرّقة من **أعمال الأعلام ورقم الحلل** للكاتب الغرناطي الشهير المتعدّد الموضوعات ، ابن الخطيب (المتوفّى سنة 776 هـ / 1374 م) ومن كتاب **المؤنس** لابن أبي دينار (العصر التركي) .

17–18–19– أمّا الكتابان اللّذان وضعهما في العصر التركي كلٌّ من الوزير السرّاج [**الحلل السندسية**] ومحمود مقديش[48م] [**نزهة الأنظار**][49] ، فإنهما لا يتضمّنان معلومات غير موجودة في المصادر الأخرى . فلا يمكن الإشارة إليهما إلاّ على سبيل الذكر ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى «**سيرة بني هلال**»[50] .

ج) **المصادر الموحّدية المختلفة :**

بالنسبة إلى الغزوة الموحّدية ، يمكن الرجوع إلى الوثائق القديمة التي تمّ إثراؤها من حسن الحظّ بفضل ليفي بروفنسال ، كما تمّ إحياؤها منذ عهد قريب بعناية هويسي. ميراندا .

20– **مذكّرات** البيذق المعاصر للمهدي [ابن تومرت] وعبد المؤمن [بن علي] .

21– 37 **رسالة رسميّة موحّدية** .

22– كتاب **نظم الجمان في أخبار الزمان** ، لابن القطّان (المتوفّى سنة 629 هـ / 1230م) ، الذي كان قاضيًا بسجلماسة . وقد ذكره ابن عذاري من بين مصادره[51] ، كما اعتمده في كثير من الأحيان عند الحديث عن وقائع سابقة بكثير لقيام الدولة الموحّدية ، وبعضها يتعلّق ببني زيري[52] .

---

47) **البربر** ، 36/2 ، 288 – 293 . وحول ابن نخيل أنظر : **تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي** [الترجمة العربية ، 405/2] .

48) **البربر** ، 2/2 – 5 .

48م) [لا ابن مقديش كما جاء في النصّ الأصلي] .

49) حول مقديش ، أنظر : نالينو : **مائوية أماري** ، 306/1 – 356 .

50) جورج مارسي ، **العرب في بلاد البربر** ، المقدّمة ، 8 – 10 ؛ بروكلمان ، 62/2 – 72 **والملحق** ، 64/2 ، هارتمان ، **بنو هلال** ، برلين 189 ، 289 ، 315 ؛ بيل ، **الجازية** .

51) **البيان** ، 3/1 ؛ ليفي بروفنسال ، **وثائق لم يسبق نشرها حول التاريخ الموحّدي** ، المقدّمة ، 5 ، الإحالة 1 . ولنفس المؤلف ، تحيّة رُوني باسي ، 335/2 – 393 ، والإعلان عن نشر الجزء 13 من **نظم الجمان** (من سنة 500 إلى سنة 533هـ) . أنظر أيضًا : Pons-Boignes ، ص 275 .

52) **البيان** ، الترجمة 1 ، الفهرس 502 .

23 – كتاب **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** لعبد الواحد المرّاكشي الذي انتهى من كتابته في سنة 621 هـ / 1224 م.

24 – **روض القرطاس** لابن أبي زرع (أوائل القرن الرابع عشر م)، الذي ألّفه سنة 1326 حول تاريخ فاس والمغرب الأقصى، وهو تقليد لكتاب ابن عذاري، **البيان** بالنسبة إلى الفترة التي نبحث فيها.

25 – **تاريخ الدولتين**، المنسوب إلى الزركشي (القرن 15 م).

26 – **الحلل الموشيّة**، وهو كتاب في تاريخ المرابطين والموحّدين، وضعه مؤلّف مجهول في سنة 786 هـ / 1384 م، وينسب إلى ابن الخطيب (المتوفّى سنة 776 هـ / 1374 م).

27 – **المصادر الأباضية**، وأهمّها **كتاب السّيَر** للشمّاخي (المتوفّى سنة 228 هـ / 1521 م)، وهو مجموعة من التراجم، يتضمّن بعض المعلومات التاريخية حول بني زيري وبعض مقتطفات من كتب أباضية مفقودة، ومن كتاب الرقيق[53].

د) المصادر الفاطميّة والمتفرّقة:

خلافًا لما هو متوقّع، فإن المعلومات الممكن استقاؤها من كتب الأخبار الفاطميّة زهيدة، إذ أنّ مؤلّفيها لم يهتمّوا قطّ بإفريقيّة، ولكنّ هذا الميدان الذي هو الآن بصدد الاستكشاف قد يهيّئ لنا مفاجآت سارّة.

28 – إنّ آثار قاضي المعزّ لدين الله الذائع الصّيت، أبي حنيفة النّعمان توضّح لنا المذهب الشيعي بإفريقيّة قبل قيام الدولة الصنهاجيّة، وكذلك تاريخ الفترة الأولى من العهد الفاطمي.

وتتمثّل هذه الآثار في كتاب **الهمّة** وكتاب **دعائم الإسلام** (لم يظهر الجزء الثاني إلى حدّ الآن) وكتاب **المجالس والمسايرات** (لم ينشر بأكمله إلى حدّ كتابة هذه الدراسة[53م]) وكتاب **افتتاح الدعوة**.

29 – توفّر لنا **سيرة الأستاذ جوذر**[54] معلومات على غاية من الأهمّيّة حول بني حمدون.

30 – اعتمد ابن حمّاد وابن عذاري، لدراسة تاريخ الدولة الفاطمية، آثار قاضي مصر

---

53) لم نجنِ أيّ فائدة من مخطوطتَيْ كتاب أبي زكرياء **وطبقات** الدرجيني بالمكتبة الجامعية بالجزائر، لأنّ الشماخي قد استقى من هذين الأثرين السابقين لكتابه بمدّة طويلة، أهمّ المعلومات المتعلقة بالفترة المعنية بالأمر.

53م) [من بين آثار القاضي النعمان التي نُشرت بعد صدور النصّ الفرنسي لهذا الكتاب، نذكر بالخصوص:
- **افتتاح الدعوة**، تحقيق وداد القاضي، بيروت 1970.
- **افتتاح الدعوة**، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس، 1975.
- **المجالس والمسايرات**، نشر كلية الآداب، تونس 1978].

54) لم نستفد كثيرًا من هذا الكتاب.

القضاعي (المتوفّى سنة 454هـ/ 1062م)، وهي كتب عديدة مفقودة.

31- كما استفدنا من تأليف الكاتب بديوان الإنشاء الفاطمي ابن الصيرفي (المتوفّى سنة 420هـ/ 1029م)، وهو يحمل عنوان: **الإشارة إلى من نال الوزارة**.

32- وألّف ابن ميسّر (المتوفّى سنة 677هـ/ 1278م)، المواصل لعمل المؤرّخ الفاطمي المسبحي (المتوفّى سنة 420هـ/ 1029م)، كتاب **قضاة مصر**، **والحوليّات المصرية** التي لم يصلنا منها إلا القسم الثاني[55]، وقد اقتبسنا منه معلومات مفيدة.

33- ومن بين مؤلّفات المقريزي (المتوفّى سنة 846هـ/ 1442م) نذكر: **خطط مصر** وبالخصوص تاريخ الخلفاء الفاطميّين الذي يحمل عنوان **اتّعاظ الحنفاء**، ومن سوء الحظّ فإن المخطوط المنشور يتوقّف في سنة 363هـ[56].

34- كما أنّ تأليف الكاتب أبي المحاسن بن تغري بردي (القرن الخامس عشر م): **النجوم الزاهرة**، يعتبر كتابًا لا يستهان به.

35- ويتضمّن كتاب **سجلاّت منتصريّة** بعض الفقرات المفيدة.

35م- كما اطّلعنا على **ديوان وسيرة** «داعي الدعاة» المؤيّد في الدين (المتوفّى سنة 470هـ/ 1077 – 1078م)[56 م].

هـ) **كتب الأخبار الشرقيّة**:

36- يكتسي كتاب التاريخ العام الذائع الصّيت **الكامل في التاريخ**، الذي ألّفه الكاتب السوري ابن الأثير (المتوفّى سنة 630هـ/ 1234م)، أهميّة بالغة. إلاّ أنّ هذا الكتاب الجامع والمحكم الحبك[57]، الذي يحتوي على عدّة وثائق لم يذكر المؤلف في

---

55) من سنة 439 إلى 553هـ، مع نقص من سنة 362 إلى سنة 378هـ.

56) لقد أدرج المقريزي في كتاب **الخطط** بعض مقتطفات من هذا الكتاب، وقد نقلها حرفيًّا أو لخّصها. كما أضيفت إلى النشرة المصرية من كتاب **الاتّعاظ** في الملحق. ولم نتمكّن من الاّطلاع على المخطوط الكامل الذي يوجد باسطنبول.

56م) [من بين المصادر الفاطميّة التي نُشِرت بعد ظهور النصّ الفرنسي لهذا الكتاب، نذكر بالخصوص كتاب **عيون الأخبار** للدّاعي إدريس عماد الدين:

- السبع الرابع، نشر مصطفى غالب، بيروت 1973.
- السبع الخامس، نفس الناشر، بيروت 1984.
- السبع السادس، نفس الناشر، بيروت 1984.
- مقتطفات، نشر فرحات الدشراوي، تونس 1979.
- تاريخ الخلفاء الفاطميّين بالمغرب، نشر محمد اليعلاوي، بيروت 1985].

57) ليس من النادر أن يتخلّى المؤلّف عن سرد الأحداث حسب تسلسلها التاريخيّ ليجمع في عرض متتابع أحداثًا في فترات متباعدة. أنظر مثلاً ما قاله ابن الأثير إثر الفصل المتعلّق بغزوة بني هلال (442 – 543هـ): . =

أغلب الأحيان مصادرها ، ويا للأسف ، ينبغي تناوله بكلّ حذر ، كما هو الشأن بالنسبة إلى كتاب ابن خلدون.

37- كتاب **نهاية الأرب** ، وهو عبارة عن موسوعة من تأليف الكاتب المصري النّويري (المتوفّى سنة 733 هـ / 1332م) ، تتضمّن بعض الأخبار عن بني زيري ، وهي ليست مجرّد تقليد لتاريخ ابن الأثير.

38- ومن أهمّ مزايا حوليّات الكاتب السوري أبي الفداء (المتوفّى سنة 732 هـ / 1331م) ، أنها تحتوي على استشهادات مقتبسة من تاريخ ابن شدّاد.

و) المصادر غير الإسلاميّة :

39-40- إنّ المصادر المسيحيّة النّادرة والمتفرّقة التي اعتمدها كلٌّ من دي ماس لاتري وأماري وكورتوا وغيرهم[57م] ، لا تكتسي نفس أهميّة الوثائق اليهوديّة العربيّة التابعة لبيعة القاهرة والتي يواصل الباحث غواتين دراستها دراسة منهجيّة[58].

2) الجغرافيّون والرحّالون

أ) المصادر الأصليّة :

لقد جمع بعض المعاصرين للفترة المعنية بالأمر الذين زاروا كلّهم إفريقية – ما عدا واحد منهم فقط – وثائق جغرافية غزيرة المادة تغطّي كامل تاريخ الدولة الصنهاجيّة. ومن حسن الحظّ فهي ما زالت محفوظة إلى حدّ الآن.

41- لا ينبغي إهمال كتاب الجغرافيا الذي ألّفه اليعقوبي (المتوفّى بعد سنة 278 هـ / 891م) ، وهو مؤلّف مشرقي اعتنق المذهب الشيعيّ وطاف في أنحاء بلاد المغرب ، وذلك بالرغم من أنّ الكتاب سابق للعصر الصنهاجيّ.

42- كما أنّ كتاب المؤلّف المشرقي ابن حوقل (المتوفّى بعد سنة 367 هـ / 977م) ، الذي زار المغرب هو أيضًا ، يوفّر لنا معلومات ثمينة حول إفريقية قُبيل قيام الدّولة الصّنهاجيّة.

= «وكان ينبغي أن يأتي كلّ شيء من ذلك في السنة التي حدث فيها ، وإنّما أوردناه متتابعًا ليكون أحسن لسياقه ، فإنه إذا انقطع وتخلّلته الحوادث في السنين لم يُفْهَم» (**الكامل** ، 238/9).

57م) [أنظر قائمة المراجع غير العربية الواردة في آخر الجزء الأوّل من هذا الكتاب].

58) ومن سوء الحظّ بالنسبة إلى موضوع دراستنا ، فإنّ هذا الباحث قد أعطى الأولويّة لبلدان المشرق والشرق الأقصى ، وتأتي الوثائق المغربية الصّميمة في المقام الأخير. ولكنّه تفضّل بإمدادنا بنسخة مرقونة من الدراسة التي سيساهم بها في **تحيّة ليفي بروفنسال** ، وهي تبحث في موضوع له علاقة بدراستنا. ولكن ضيق الوقت لم يسمح لنا باستغلال ذلك الفصل البالغ الأهميّة.

43– من المحتمل أن يكون المقدسي (المتوفّى سنة 378هـ / 588م) قد زار هو أيضًا بلاد المغرب. وتعتبر شهادته على غاية من الأهميّة لأنها صادرة عن رجل محبّ للاطّلاع ومؤهّل للفهم.

44– أمّا البكري (المتوفّى سنة 487هـ / 1094م)، فإنه لم يغادر الأندلس. وقد ألّف في سنة 461هـ / 1068م كتابًا جغرافيًّا نفيسًا جدًّا، بالاعتماد على المعلومات الشفوية أو المنقولة من الكتب. ويتمثّل مصدره الأساسيّ في الكاتب محمّد بن يوسف الورّاق[59] (المتوفّى سنة 363هـ / 974م)، الذي هاجر إفريقية ووضع نفسه في خدمة أمراء بني أميّة بالأندلس، وقد كتب لهم عدّة مؤلّفات تاريخيّة وجغرافيّة، أهمّها كتاب **مسالك إفريقيّة وممالكها**.

والجدير بالملاحظة أن آثار هذا الكاتب الذي تُعتبَر شهاداته المتعلّقة بالقرن الحادي عشر أقلّ قيمة من الشهادات المتعلّقة بالقرن العاشر [ميلاديّ][60]، قد تضمّنت معلومات حول بعض المسالك المضبوطة، واستطرادات تاريخيّة ثمينة.

45– بعد الدّراسات التي زاولها بقرطبة والرّحلات الطويلة التي قام بها، تحوّل الإدريسيّ (المتوفّى سنة 560هـ / 1166م) إلى صقليّة بدعوة من ملكها رُجار الثّاني. وقد ألّف له كتابًا جغرافيًّا غزير المادّة أتمّه في سنة 548هـ / 1154م ثمّ توسّع فيه وأهداه إلى الملك غليوم الأوّل. إلاّ أنّ ذلك الكتاب لم يصلنا إلاّ في شكل مختصر لم يتمّ نشره إلى حدّ الآن. أمّا بالنسبة إلى المغرب فإن **«كتاب رُجّار»** يوفّر لنا معلومات غزيرة مستمدّة في آن واحد من الكتب ومن الملاحظات الشخصيّة. وإننا نجد فيه وصفًا صالحًا في الجملة بالنسبة إلى عهود آخر ملوك بني زيري. وبالمقابلة بينه وبين الكتب الجغرافيّة السابقة، وبالخصوص كتاب البكري، نلاحظ ما انجرّت عن غزوة بني هلال من تغييرات عميقة.

ب) **الكتب المنقولة:**

46– ينبغي الاطّلاع على كتاب **الاستبصار** الذي جمع مادّته كاتب مجهول في سنة 587هـ / 1191م.

47– ومن ناحية أخرى فإن المعجم الجغرافي الذي ألّفه الكاتب المشرقي ياقوت (المتوفّى سنة

---

59) برنشفيك، تحيّة غوديفروا دي مونبين، القاهرة، 1935 – 1945/ 149 – 151.

60) من ذلك مثلاً أنه لم يشر حتى مجرّد الإشارة إلى بني هلال، إلاّ أنه أشار إلى بناء أسوار القيروان في سنة 444هـ من طرف المعزّ بن باديس، ولكنّه ذكر أن نهب تلك المدينة قد تمّ في سنة 425 عوضًا عن 449هـ. كما أنه أشار إلى تلك الواقعة عند الحديث عن القلعة التي أصبحت مركزًا هامًّا للقوافل بعد خراب القيروان، البكري، 25 – 26، 49.

627هـ/ 1229م) لم يهمل ذكر المواقع المغربية التي خصّص لها عدّة فقرات ليست على غاية من الطرافة ولكنّها مع ذلك مفيدة.

48– ويُعتبَر كتاب الرحّالة التونسي [عبد الله] التجاني، **الرحلة** وثيقة تاريخية وجغرافية على غاية من الأهمية. وهو عبارة عن وصف للرحلة التي قام بها المؤلّف في إفريقيّة من سنة 706 إلى سنة 709هـ/ 1037–1309م. ولئن كان من الممكن الاستغناء عمّا وردت فيه من معلومات جغرافيّة موجودة في بعض المصادر الأخرى أو لا تهمّ الفترة التي نتناولها بالدرس، فإنّه لا غنًى لنا عن العروض التاريخيّة التي تتضمّن استشهادات مقتبسة من بعض كتب الأخبار المفقودة، لا سيّما منها التابعة للعصر الصنهاجيّ.

3) التّراجم والمصادر الفقهيّة والأدبيّة

تتمثّل مصادرنا بالنسبة إلى الحياة الدينيّة في كتب التّراجم والسِّيَر[61] التي ألّفها الكتّاب الآتي ذكرهم، وهم كلّهم من أهل السنّة: المالكي (المتوفّى سنة 575هـ/ 1179م)، والدبّاغ (المتوفّى سنة 699هـ/ 1300م)[62]، وابن ناجي (المتوفّى سنة 839هـ/ 1435م)، الذي واصل عمل الكاتب السابق، والغبريني (المتوفّى سنة 800هـ/ 1397م)، وابن الجزري (المتوفّى سنة 833هـ/ 1678م)، وابن مريم (المتوفّى بعد سنة 1011هـ/ 1602م)، وابن العماد (المتوفّى سنة 1089هـ/ 1678م)، ومخلوف [المتوفّى سنة 1941].

كما استفدنا من الاطّلاع على **مناقب** الجبنياني (المتوفّى سنة 369هـ/ 979م)، ومحرز بن خلف (المتوفّى سنة 413هـ/ 1022م).

ومن بين كتب الفقه[63]، نذكر بالخصوص **رسالة** ابن أبي زيد [القيرواني] (المتوفّى سنة 386هـ/ 996م)، التي من المفيد جدًّا مقارنتها مع **دعائم الإسلام** للقاضي النعمان.

كما أنّ الفتاوى العديدة الصادرة في العصر الصنهاجي والتي نقلها لنا كلٌّ من البرزلي

---

61) لم يصلنا كتاب **الافتخار** للتجيبي (المتوفّى سنة 432هـ/ 1030م) والجزء الثّالث (المفترض) من كتاب **رياض النفوس** لأبي بكر المالكي، وكتاب **العوالي**، وغير ذلك من كتب التراجم.

62) وهو مؤلف كتاب **واسطة النظام في تواريخ ملوك الإسلام**، وفيه رأي مصيب ومعتدل حول العبيديّين بإفريقيّة، مقديش، 343/1.

63) هناك كتب فقهية أخرى مثل **النوادر** لابن أبي زيد، ما زالت مخطوطة ولا يسمح المقام بالبحث عنها ودراستها.

والونشريسي وابن الشبّاط ، قد تضمّنت معلومات واضحة كلّ الوضوح حول حقيقة الحياة الاجتماعية والاقتصادية[64].

وبالنسبة إلى الحياة الأدبية ، فقد عوّضنا الكتابَيْن الهامَّيْن المفقودَيْن حول تاريخ الأدب الصنهاجي ، وهما **الأنموذج** لابن رشيق و**حديقة القصر** لأبي الصّلت ، بالمقتطفات التي نقلها عنهما كلٌّ من التّجاني والصفدي وعماد الدين الأصفهاني وابن فضل الله العمري[65].

---

64) لقد اضطُرِرْنا في كلّ إحالة إلى إعادة ذكر اسم الفقيه وتاريخ وفاته ، لوضع كلّ فتوى في إطارها التاريخيّ. وأهملنا ذكر الفتاوى ذات الطابع النظري الصرف التي لا تهمّ إلاّ تاريخ الفقه الإسلامي . وبالنسبة إلى الفتاوى الأخرى ، فإن السؤال المطروح هو الذي يمثّل الوثيقة القابلة للاستغلال ، ولو أن الجواب يوفّر لنا في أغلب الأحيان معلومات مدقّقة ومتداخلة مع بعض الاعتبارات الشرعيّة ، حول القضايا المعروضة . كما يمدّنا أحياناً بنصّ الفتوى والإشارة إلى بعض الفتاوى الأخرى الخ...

ونورد فيما يلي قائمة أهمّ فقهاء العصر الصّنهاجي ، مرتّبين حسب التسلسل الزمني [مع ذكر تاريخ وفاتهم بين قوسيْن] :

– ابن أخي هشام (371–373 / 981–983).
– ابن التبّان (371 / 981).
– ابن أبي زيد القيرواني (386 / 996).
– ابن شبلون (390–91 / 999–1000).
– الداوودي (402 / 1011).
– القابسي (403 / 1012).
– ابن الكاتب (408 / 1017).
– أبو الطيب عبد المنعم الكندي (421 / 1030).
– أبو زكرياء يحيى الشقراطسي (429 / 1038).
– أبو عمران الفاسي (430 / 1038).
– أبو حفص عمر بن العطّار (430 / 1038).
– أبو بكر بن عبد الرحمان (432 – 435 / 1040 – 1043).
– أبو الطيّب بن خلدون (435 / 1040).
– أبو عبد الملك مروان البوني (قبل 440 / 1048).
– ابن الضابط (بعد 440 / 1048 – 1049).
– التونسي (443 / 1051).
– ابن محرز (450 / 1058).
– أبو القاسم عبد الجليل الربعي المعروف باسم الديباجي بن الصابوني تلميذ أبي عمران الفاسي.
– السيوري (460–462 / 1067–1069).
– أبو إسحاق القفصي زميل التونسي والسيوري.
– أبو محمد عبد الله بن أبي زكريا الشقراطسي (466 / 1073).
– اللّخمي (478 / 1085).
– عبد الحميد بن الصايغ (486 / 1093).
– المازري (536 / 1141).
– أبو الفرج التونسي معاصر (؟) للمازري.
– ابن مشكان آخر تلامذة المازري.

65) من ذلك أن الجزء السابع عشر من كتاب **مسالك الأبصار**، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 2327 ، يتضمّن من صفحة 41 إلى صفحة 129 قسمًا لا بأس به من **الأنموذج**. ومن كتاب الصفدي **الوافي** ، لم نطلع إلا على الأجزاء المنشورة. ومن ناحية أخرى تجدر الإشارة إلى أن **خريدة العصر** لعماد الدين الأصفهاني تتضمّن بعض قطع من مختارات الكاتب الصقلي المهدوي ابن بشرون (منتصف القرن الثاني عشر ميلادي).

واستقينا بعض المعلومات حول المبادلات الثقافية بين إفريقيّة من جهة وبين بقيّة بلدان الغرب الإسلاميّ والمشرق من جهة أخرى، من كتب التراجم والفهارس التي ألّفها بعض الكتّاب الأندلسيّين أمثال ابن الفرضي (المتوفّى سنة 403هـ/ 1012م)، والحميدي (المتوفّى سنة 488هـ/ 1095م)، وابن بشكوال (المتوفّى سنة 578هـ/ 1183م)، وابن خير (المتوفّى سنة 575هـ/ 1179م)، والضبّي (المتوفّى سنة 599هـ 1203م)، وابن الأبّار (المتوفّى بتونس سنة 658هـ/ 1260م)، والمقري (المتوفّى سنة 1061هـ/ 1651م)، أو التي ألّفها بعض الكتّاب الشرقيّين أمثال عماد الدين الأصفهاني (المتوفّى سنة 597هـ/ 1201م)، وياقوت (المتوفّى سنة 627هـ/ 1229م)، وابن القفطي (المتوفّى سنة 646هـ/ 1248م)، وابن خلّكان الذي أتمّ تأليف **الوفيات** سنة 673هـ/ 1274م، وابن شاكر الكتبي الذي ألّف كتابه **الفوات** سنة 754هـ/ 1353 – 1354م، والصفدي (المتوفّى سنة 763هـ/ 1362م).

وأخيرًا لا يفوتنا أن نذكر كتابَيْن نفيسَيْن من كتب المختارات الأدبيّة، ألّفهما في العصر الحديث الكاتبان التونسيّان محمّد النيفر [المتوفّى سنة 1912] **عنوان الأريب**، وحسن حسني عبد الوهّاب [المتوفّى سنة 1968] **المنتخب المدرسي**(65م).

وينبغي أن نضيف إلى أبحاث الأستاذَيْن المتخصِّصَيْن في الآثار الإسلاميّة بالمغرب العربي، جورج مارسي وهانري تراس، أبحاث سليمان مصطفى زبيس في تونس ولويس غولفين في الجزائر(66).

وبالنسبة إلى الفنون الصغرى، استقينا معلوماتنا من أعمال جورج مارسي ولويس بوانسو وفرنسوا فيري.

وأمّا فيما يتعلّق بالمسكوكات والنقائش، فقد اعتمدنا على دراسات فرّوجيا دي كنديا وكتاب هازال، بالنسبة إلى المسكوكات، ورجعنا إلى منشورات برنار روا (Roy) ولويس بوانسو وسليمان مصطفى زبيس بالنسبة إلى النقائش.

65م) [بعد ظهور النصّ الفرنسي من هذا الكتاب، صدرت أطروحة الأستاذ الشاذلي بو يحيى التي تحمل عنوان: **الحياة الأدبية في عهد بني زيري**، (باللغة الفرنسية)، تونس 1972].

66) على إثر اندلاع حوادث [الجزائر]، توقّف التنقيب عن المواقع الأثريّة في إفريقيّة الصّنهاجية بعض الوقت، بعدما شهد تقدّمًا كان يبشّر بكلّ خير. أمّا كتاب لويس غولفين الذي صدر أخيرًا بعنوان: **المغرب الأوسط في عهد بني زيري** (باللغة الفرنسية)، فإن قيمته تكمن بالخصوص في القسم الأثري الممتاز.

القِسمُ الأول

التاريخ السياسيّ

البَـابُ الأوّلُ
نشـأة الدّولـة الصّنهاجيّة

الفصل الأوّل
أصل صنهاجة

في مطلع القرن الرّابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي ، وعلى وجه التحديد عندما انتزع الفاطميّون إفريقيّة من أيدي الأغالبة ، بدأ ظهور الصنهاجيّين التابعين لقبيلة بربريّة حضريّة مستقرّة غربيّ المغرب الأوسط ، والذين سيحكمون تلك البلاد فيما بعد ، وقد برزوا من شبه الظلّ الأسطوري الذي يسمح لنا مع ذلك بأن نلمح من خلاله مخاض تلك القوّة الجديدة .

وحول منشإ صنهاجة[1] دافع علماء الأنساب البربر والعرب عن نظريّتيْن متناقضتيْن :

---

1) بالنسبة إلى ابن خلدون ، **العبر**، 152/6 ، فإن كلمة صنهاج هي الصيغة المعرّبة لكلمة زناج وهو اسم الجدّ الأعلى الذي أطْلِقَ على الصنهاجيّين. أمّا المختصّون في اللغة البربرية فإنهم يرون أن هناك وجه شبه بين هذه الكلمات الثّلاث : زناجة وصنهاجة وسينيغال ، أنظر : مارسيل كوهين ، **مجلّة الدراسات العربية**، عدد 33 ، الجزائر ، ماي – جويلية 1947 ؛ والبار لوكلير، نفس المجلة ، عدد 38 ، الجزائر، ماي – جويلية 1948 ؛ **وبنو غانية**، المقدّمة ، 5 – 6 ، الإحالة 3 . فينبغي حينئذٍ رفض هذيان فقهاء اللغة العرب الذين قرّروا قراءة كلمة صنهاجة على النحو التالي : صُنهاجة (بالضمّ) ، حسب ابن دريد الذي لا يعترف بأيّ قراءة أخرى أو صِنهاجة (بالكسر) ، حسب البعض الآخر. أنظر ابن خلّكان ، 87/1 .

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ ليفي بروفنسال الذي يرجع إليه الفضل في نشر وترجمة **مذكّرات عبد الله** التي ألّفها آخر أمراء بني زيري بالأندلس في مدينة أغمات ، بعدما خلعه يوسف بن تاشفين سنة 483هـ/ 1090م ، يفترض أنّ المخطوط الوحيد المستعمل هو مبيّضة النصّ الأصلي التي راجعها هذا الأخير، ويظنّ أنّ الأمر ربّما يتعلّق بالنسخة التي جلبها ابن الخطيب من أغمات سنة 761هـ/ 1359 – 1360م. وبما أنّ حرف «الصّاد» كان مشكولاً بالكسر في كثير من المواضع في المخطوط ، فإن ليفي روفنسال قد اقترح قراءة كلمة صِنْهاجَة الواردة في تلك المواضع =

1 – نظريّة علماء الأنساب البربر[2] :

لقد قسّم علماء الأنساب البربر القبائل البربريّة إلى مجموعتَيْن رئيسيَّتَيْن : البرانس أعقاب برنس بن برّ ، والبُتْر المنحدرون من سلالة مادغيس الأبتر بن برّ ، ونسبوا الجدّ الأعلى برّ الذي أعطى اسمه لهذه المجموعة إلى كنعان بن حزم بن نوح[3].

وسوف لا نتوقّف عند النظر في صحّة هذا التقسيم ، ولكنّنا نقول إنه يجسّم ، حسب الاحتمال ، الشعور الذي كان يحدو مختلف القبائل البربريّة حول نسب كلّ قبيلة . ويبدو أنّ علماء الأنساب قد تبنّوْا تارةً النظريّة السّابقة للتجربة وطورًا تأويل الوقائع المترتّبة على التجربة[4].

وبطبيعة الحال فإن الاتّجاه الثاني هو الأكثر إفادة . وممّا تجدر الإشارة إليه في هذا

= بالكسر. ولعلّ الشكل قد زيد فيما بعد من طرف ناسخ أو قارئ ، يمكن أن يكون ابن الخطيب ذاته ، أو ربّما ارتكز على الملاحظة المشار إليها أعلاه ، التي أبداها بعض اللغويّين العرب . وحتى لو كان ذلك الشكل من وضع المؤلف ذاته ، فإنه لا يمثّل حجّة غير قابلة للطعن . ولذلك فقد فضّلنا الاعتماد على القراءة المعهودة . أنظر : **مذكرات عبد الله** ، الترجمة ، 236 ، 237 ، 238 ، الإحالة 13 .

2) ابن حزم ، **الجمهرة** ، 461 ؛ **مفاخر** ، 47 – 51 ، 64 – 66 ؛ **العِبَر** ، 152/6 ؛ **البربر** ، 1 ، المقدّمة 15 ، 2/2 – 3 ؛ ابن حوقل ، 104/1 – 107 ، البكري ، 104 ، **البلدان** ، 104/2 ؛ فورنال ، 33/1 – 36 ، 204/2 والإحالات ؛ **بنو غانية** ، المقدّمة ، 5 – 6 ، الإحالة 2 ؛ جورج مارسي ، **العرب في بلاد البربر** ، المقدّمة ، 18 ؛ **دائرة المعارف الإسلامية** ، 158/1 .

3) غوتيي ، **عصور المغرب المظلمة** ، 202 – 214 (النشرة الثانية) ؛ **ماضي شمال إفريقيا** ، 227 – 239 . وحسب هذا المؤلّف فإن التقسيم المذكور ربّما يتطابق مع نمطين مختلفين من أنماط العيش «فأبناء برنس هم سكّان الجبال المستقرّون وأبناء ماغديس هم البدو الرحّل المقيمون في السهول» . ولا حاجة لنا في مناقشة هذا الافتراض الجذّاب والجريء في نفس الوقت .

4) ابن حوقل ، 104/1 – 107 . ويذكر المؤلف على التوالي : 1) الصّنهاجيّون الخلّص ، 2) والصّنهاجيّون الذين هم بين الحبشة والزنج وهم بنو تانماك ملوك تادكمة والقبائل التابعة لهم . وحسب بعضهم فإنهم زنوج منحدرون من أمّهات زنجيّات وربّما ابيضّت بشرتهم تحت تأثير الطقس الشمالي . وحسب البعض الآخر فإنهم من أصل صنهاجي . ويستند أصحاب الرأي الأوّل على الكندي الذي يؤكّد أن البيض الذين يعيشون في السّودان يصبحون زنوجًا بعد 7 أجيال وبالعكس من ذلك فإن الزنوج الذين يعيشون في بلاد البيض تبيضّ بشرتهم خلال الجيل السابع . أمّا أصحاب الرأي الثاني فإنّهم يعتبرون أنّ صنهاجة تضمّ فروع بني تماكيزت ومساطة ، التابعين لأسرة بلكين يوسف بن زيري خليفة بني عُبَيد في المغرب . ومن بين القبائل الصّنهاجيّة المنحدرة من حلب ... (نقص في النص) ... يُوجَد بنو عمر زيري وقبيلته يساوة؟ ويفرن؟ وايماكيتن؟ وإيتوتن؟ وإيتروين؟ وإيوازين؟ وأسواله؟ وبنو كسيلة وبنو ورتاف؟ وإيزقارن؟ وتَلكاتة . ويتحدّث ابن حوقل بعد ذلك عن القبائل الزناتية ويميّز بين «صنهاجة الكفّار» و«صنهاجة المسلمين» . أنظر : كنار ، **ترجمة سيرة جعفر** ، مجلّة هسبيريس 1952 ، 312 ، والإحالة 3 .

الصّدد أنّ قبيلتَيْ كتامة وصنهاجة المواليتَيْن للفاطميّين، وقبيلة مصمودة التي بعثت الحركة الموحّدية، هي من القبائل المنحدرة من البرانس، بينما عدوّتها اللّدودة زناتة التي ينتمي إليها بنو برزال ومغراوة وبنو يفرن ويكوّنون بطونها الثلاثة الرئيسيّة، تنحدر من البتر، وكذلك الشأن بالنسبة إلى قبيلة مكناسة الأكثر قرابةً منها. كما تنتمي أيضًا إلى البتر قبائل نفوسة وهوّارة وبنو دمار ولواتة ونفزاوة التابعة للمنطقة الجنوبيّة من إفريقيّة[5].

ولئن كانت هذه القرابة القبليّة الحقيقيّة أو الوهميّة لا تحول دائمًا دون الصراعات بين الإخوة، إلاّ أنّه بدون هذه الرابطة، يظلّ كلّ تحالف غير متجانس معرّضًا للانفصام.

وأخيرًا فإنّ بعض علماء الأنساب البربر الراغبين في إسناد نسب شريف إلى أبناء جنسهم، لم يتردّدوا في تأكيد انحدار البربر من سلالة عربيّة مُضَرية، حيث جعلوا من برّ ابنًا من أبناء قيس عَيْلان بن إلياس بن مُضَر، وقد فنّد ابن حزم هذا الادّعاء[6]. وبما أنّ معظم الفاتحين العرب القادمين إلى المغرب، إن لم نقل جلّهم، هم من سلالة حِمْيَريّة، فلا غرابة حينئذٍ إذا ما لاحظنا أنّ بعض علماء الأنساب الذين هم مع ذلك من أصل عربي قد أسندوا إلى البربر أصلاً عربيًّا.

2 – نظرية علماء الأنساب العرب[7]:

إنّ صاحب هذه النظريّة، أو على الأقلّ أوّل من نادى بها، هو النسّاب العربي الشهير أصيل الكوفة، ابن الكلبي (المتوفّى سنة 204 أو 206 هـ/ 819 – 821 م)، وقد نسج على

---

5) وحول نسب زناتة، أنظر: ابن حزم، **الجمهرة**، 461؛ الاستشهاد بيوسف الورّاق الذي أورد خبرًا منقولاً عن أيوب بن أبي يزيد مخلد بن كيداد، ابن أبي يزيد الشهير، «صاحب الحمار»، 462 – 463؛ ابن حوقل، 106/1 – 107 الذي أحصى القبائل الزناتية إحصاء شاملاً، **البربر**، 1/المقدّمة؛ **النقوش العربية**، 232/1 – 234، 257، 379 – 380 والإحالات؛ **دائرة المعارف الإسلاميّة**، 19/3 (لواتة)، و1293/4 (زناتة).

6) ابن حزم، **الجمهرة**، 461. وقد لاحظ المؤلف أن النسابين (العرب؟) لا يعرفون ابنًا لقيس عيلان يحمل اسم برّ. والجدير بالملاحظة أن الإدريسي (الترجمة، 102) يؤكّد أنّ الزناتيّين هم في الأصل من العرب الخلّص المنحدرين من برّ بن قيس بن إياس بن مُضَر، ولم يصبحوا بربرًا إلا بواسطة المصاهرة مع المصامدة.

7) الطبري، طبعة القاهرة، 229/1؛ ابن حزم، **الجمهرة**، 6 – 7، 406، 408 – 410، 411، 461؛ ابن خلّكان، 98/1؛ **العبر**، 152/6؛ النويري، 101/2 – 102؛ **مفاخر**، 51، 66 – 69؛ المرّاكشي، طبعة 1847، 254؛ البكري، 21، **المؤنس**، 71 – 72؛ **البلدان**، 104/2؛ **بنو غانية**، المقدّمة، 5 – 6/ الإحالة 2؛ فورنال، 204/2.

منواله كثير من المؤلفين اللاّحقين[8].

ومن المعلوم أنّ علم الأنساب العربي التقليديّ قد ميّز بين عرب الشمال أو العدنانيّين المنحدرين من عدنان بن إسماعيل، وبين عرب الجنوب أو القحطانيّين الذين هم من سلالة قحطان المطابق ليقطان بن عابر[9]. والحال أنّ ابن الكلبي قد زعم أنّ أحد أحفاد قحطان، وهو إفريقش بن صيفي قد تحوّل من اليمن إلى إفريقيّة مرورًا بسوريا وفلسطين، حيث التقى ببعض الكنعانيّين الذين أبقاهم يوشع، فاصطحبهم إلى إفريقيّة التي فتحها وقتل ملكها جرجير. ولا شكّ أن الأمر يتعلّق بالبطريق البيزنطي الذي كان مقيمًا بقرطاجنة وقتله عبد الله بن سعد أثناء غزوته الأولى ضدّ إفريقيّة في عهد الخليفة عثمان بن عفّان[10]. فيا لها من غلطة تاريخيّة فادحة!

وحسب هذه الرواية فقد أقرّ إفريقش بإفريقيّة الكنعانيّين الذين أصبحوا يسمّون البربر، عندما قال لهم: «ما أكثر بربرتكم»، ومكث الحميريّون الذين قدموا مع القائد الفاتح في إفريقيّة، ومنهم تنحدر صنهاجة وكتامة، حسبما يبدو.

وقد لخّص ابن خلدون هذه الرواية في **مقدّمته**[11]، دون أن يشير إلى جرجير ولا إلى الكنعانيّين، واعتبر البربر أهل البلاد الأصليّين، للسّبب الذي نعرفه. كما أشار إلى تلك الرواية التي نقلها عدد من المؤلفين الآخرين[12]، وفنّدها باعتبارها من قبيل الخرافات.

إلاّ أنّه بعدما أكّد في **كتاب العبَر**[13] أنّ البربر ليسوا من أصل عربي، استثنى منهم الصنهاجيّين والكتاميّين الذين ينحدرون من أصل عربي، حسب علماء الأنساب العرب، وأيّد هذا الرأي[14].

---

8) أنظر: هُوَار، **تاريخ الأدب العربي**، 177 – 178؛ بروكلمان، 1/138 – 140؛ **دائرة المعارف الإسلاميّة**، 2/730 – 731. لقد احتدّ التنافس بين عرب الشمال والجنوب منذ العهد الأموي، وذلك في شكل نزاع بين القيسيّين والكلبيّين. أنظر: نيكولسون، **تاريخ العرب**، كمبريدج 1930، 199، الإحالة 2.

9) **دائرة المعارف الإسلامية**، 2/669 – 671 (قحطان). إنّ التطابق بين يقطان وقحطان يلحق القحطانيّين بالتقاليد التوراتية (مثل العدنانيّين بالنّسبة إلى إسماعيل ابن إبراهيم).

10) ابن عبد الحكم، **فتح المغرب والأندلس**، ترجمة غاتو، الطبعة الثانية، الجزائر 1948، 42 – 47.

11) **المقدّمة**، 1/19 – 23.

12) نفس المرجع، 1/19 – 23؛ المسعودي، **مروج الذهب**، 111، 143 – 144، 240 – 243، 293 – 294.

13) **البربر**، 1/185 و2/64 وما بعدها.

14) كما نُسِب الهواريّون إلى أصل حميريّ، اليعقوبي، طبعة 1892، 346؛ **مفاخر**، 71 – 72، **المؤنس**، 71 – 72. ونسب نفس الأصل إلى المصامدة، فورنال، 2/204، الإحالة 5. أنظر أيضًا حول هذا الموضوع: اليعقوبي، 345 – 357.

وهناك رواية أخرى لاحقة بدون شكّ للرواية المذكورة، قد تبنّاها بعض المؤلفين الآخرين، ومن بينهم ابن شدّاد حفيد تميم. وهي تنسب إلى المثنّى بن المِسْوَر بن يحصوب الدور الذي قام به إفريقش، وقد أهملت تمامًا ذكر هذا الأخير[15].

وحسب رواية أسطوريّة نقلها أو اختلقها ابن شدّاد – وهي تشبه ما تنبّأ به فيما بعد أحد المغاربة من مستقبل لمناد –[16] قدم المثنّى بن المِسْوَر إلى المغرب إثر اجتياح اليمن من طرف الحبشيّين، بناءً على نصائح أحد العرّافين الذين تنبّأ بأن أحفاده سيقيمون دولة عتيدة بالمغرب. ويبدو أن خبر هذا التنبّؤ قد نُقِل أبًا عن جدّ إلى أن تحقّق.

كما ادّعى النسّابون الزناتيّون من جانبهم أن قبيلتهم تنحدر من أصل حميري[17].

ومهما يكن من أمر فإنّ بني زيري الصنهاجيّين قد ادّعوا دومًا وأبدًا أنّهم ينتسبون إلى أصل حميري. ولنا عدّة شهادات على هذا الادّعاء الذي لم يتردّد بعض المتملّقين في الإعلان عنه في مدائحهم[18].

وإليك فيما يلي هذه النّادرة المعبّرة[19] : فقد هجا الشّاعر الصّابوني (المتوفّى سنة 409 هـ / 1018 – 1019م) المدعوّ ابن الوسطاني[20] ناسبًا مساوئه إلى جنسه البربري. فدافع عنه الشاعر السرّاي، ملاحظًا أنّ الصّابوني قد تهجّم بهذا الهجاء على عُدَّة العزيز بالله

15) **العِبَر**، 152/6، ينقل هذه الرواية عن ابن النحوي، وقد نقلها أيضًا عماد الدين الأصفهاني في **خريدة القصر**؛ وابن خلّكان، 198/1. أنظر أيضًا مقديش، 137/1، الاستشهاد بابن شدّاد الذي ربّما يكون هو صاحب هذه الرواية. ولكنّنا نجد بوادرها في **الجمهرة**، 462 – 463، عند الحديث عن أوريغ جدّ الهوّارين. حيث صرّح ابن حزم أن الذين يعتبرون أن أوريغ ينحدر من المثنّى بن المسور هم مخطئون. ثم أضاف قائلاً : وهناك من يدّعي أيضًا أنّ صنهاج ولمط هما أبنا امرأة تدعى تازكي (أو تازكاي)، وأبوهما مجهول. وقد تزوّجها أوريغ وأنجب منها أبنًا اسمه هوّار. بحيث أنّ صنهاج ولمط وهوّار هم إخوة من الأمّ.

16) أنظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.

17) **البربر**، 182/3 – 183.

18) أنظر بالخصوص ثلاثة أبيات شعر للحلواني، ابن بسّام، 230/6 – 231. كما مدح إسماعيل بن إبراهيم القيرواني اللغوي الزويلي ابن باديس مصرّحًا بأنه ينحدر من حِمْيَر وقحطان، ابن قفطي، 192/1 – 193. ولم يتردّد ابن رشيق في النسج على هذا المنوال (**العمدة**، المقدّمة، 2/1)، وكذلك علي الصيرفي، (العمري، مخطوط باريس 3027، ص 92 (القفا) و93 (الوجه)). أنظر أيضًا : الفصل الثاني من الباب الثاني، وقد جاء فيه أن المنصور يفتخر بنسبه الحميري.

19) أنظر الباب الثاني عشر من هذا الكتاب.

20) هل ينبغي تصحيح هذا الاسم بالواسطي أو الوسطاني؟

(المنصور) الذي هو من أصل بربري. ولكنّ الصابوني قد أفحمه معلنًا أنّ المعزّ (بن باديس) ينتمي إلى بيت حميري!

التّلكاتة[21] :

ومن بين الفروع العديدة التابعة لقبيلة صنهاجة، والتي يُعتبَر تقدير عددها بسبعين فرعًا، تقديرًا اصطلاحيًّا، نكتفي بالإشارة إلى الفَرعَيْن الأكثر أهميّة، واللّذَيْن أسّسا بعض الإمبراطوريّات في بلاد المغرب، وهما فرع تَلْكَاتَة (أو تُلُكّاتة أو وَتَلْكّاتة) الذي ينتمي إليه بنو زيري بإفريقية والأندلس وبنو حمّاد بالمغرب الأوسط، وفرع لمتونة الذي تمكّن بمساعدة أبناء جنسه من فرع مسوفة، من إقامة الدولة المرابطية. وقد كان فرع تكلاتة أهل مَدَر (حضريّين) وفرع لمتونه أهل وَبَر (بدو رحّل).

وليست لدينا معلومات مدقّقة حول حدود المنطقة التي كان يقيم بها التلكاتة عند سقوط الدولة الأغلبية، ولكن يبدو أنّهم استقرّوا قبل ذلك في المنطقة الغربية من المغرب الأوسط. وقد أشار ابن خلدون إلى أنّ الصنهاجيّين، ويعني بذلك التلكاتة كانوا مشهورين بأنّهم من «موالي»[22] الخليفة علي بن أبي طالب والزناتيّين المغراوة من «موالي» الخليفة عثمان بن عفّان، ولكنّه لا يدري كيف تمّ ذلك. ومن الواضح أنّ هذا الولاء ناتج عن إخلاص صنهاجة للفاطميّين وإخلاص مغراوة للأمويّين.

---

21) **العبر**، 6/152–153؛ **البيان**، 3/262؛ **مفاخر**، 51–52؛ ابن حوقل، 1/105؛ ليفي بروفنسال، **وثائق لم يسبق نشرها عن الموحّدين**، الفهرس، ص 264، ولنفس المؤلف، **مذكرات عبد الله**، الترجمة 304، والإحالة 25.

22) الكلمة المستعملة هي «ولاية». عندما اعتنقوا الإسلام أصبحوا «موالي» (جمع مولى).

الفصل الثاني
مَنَاد(1)

كان مَنَاد بن منقوش على رأس تلكاتة قبل سقوط الدّولة الأغلبيّة سنة 296 هـ/ 909م. وقد تحوّل إلى المشرق في نفس السّنة التي زار فيها تلك الرّبوع «يونس القائم بدين برغواطة»(2). وكان مناد آنذاك صاحب القلعة المناديّة القريبة من سجلماسة. وحسب هذه الرواية فإن مناد قد أقام عاصمته في قلعةٍ كانت تحمل اسمه وتقع في ضواحي تلك المدينة. وقد قيل إنه كان من موالي علي بن أبي طالب وإن نسبه يرجع إلى قحطان(3).

وحسب ما رواه ابن خلدون فإن بعض مؤرّخي المغرب قد اعتبروا أنّ مَناد بن منقوش كان يحكم قسمًا من إفريقيّة والمغرب باسم العبّاسيّين وبواسطة الأغالبة(4). وممّا يزيد في صعوبة التحقّق من صحّة هذه الرّواية أن صورة ذلك الرّجل كانت تكتسي صبغة خرافيّة لا جدال فيها.

فقد كان يتميّز بقوّة عجيبة «وكان كثير المال والولد، حسن الضيافة لمن يمرّ به» [على

1) النويري، 103/2 – 104؛ البكري، 137؛ البيان، 225/1؛ العِبَر، 153/6؛ الكامل، 374/8؛ مفاخر، 51؛ فورنال، 207/2 – 208.

2) حسب ابن عذاري (البيان) والبكري، اعتمادًا على أبي العبّاس فضل بن مفضّل بن عمرو المَذْحَجي، فقد رحل إلى المشرق في تلك السنة بالإضافة إلى مَناد: «عبّاس بن ناصح وزيد بن سِنان الزّناتي صاحب الواصِليّة وبرغوث بن سعيد التّراري جدّ بني عبد الرزّاق ويُعرَفون ببني وكيل الصّفريّة وآخر ذهب عني اسمه». وقد نقلنا العبارة التي استعملها البكري «عام واحد». ويبدو أنّ السنة التي أوردها البيان (201 هـ/ 816 – 817م) مشكوك في صحّتها، إذ سنرى أنّ ابن مناد وخليفته زيري قد توفّي في رمضان سنة 360 هـ/ 970 – 971م. فلعلّ المقصود 250 أو 301 هـ.

3) ذكر ابن خلدون في العِبَر، 153/6 نسب مناد حسب المؤرّخ الأندلسي ابن النحوي. أمّا النّسب الذي أورده ابن شدّاد ونقله عماد الدين في خريدة العصر (مخطوط باريس 3330 ص 50 قفا) وابن خلّكان (98/1) والنويري (102/2)، فهو مفصّل أكثر. أنظر: فورنال، 207/2.

4) العِبَر، 153/6، وحسب جورج مارسي وليفي بروفنسال (حوليات معهد الدراسات الشرقيّة، 1937، 14 – 15 والإحالة 3 ص 14)، فإن الإشارة إلى المدعوّ مصال بن حماد والي الميلة، المنقوشة على مثقال من الزجاج في سنة 127 هـ/ 745م، تدلّ على أن تدخّل الصنهاجيّين في إفريقيّة يرجع عهده إلى منتصف القرن الثامن إن لم نقل إلى أوائله. كما نجد اسم مصال في شكل مصالة، ولكن هذا الاسم لا يكتسي صبغة صنهاجيّة خالصة، مثل: مصالة بن حبوس أمير مكناسة. أنظر الفصل الثالث من هذا الباب.

حدّ تعبير ابن عذاري]. وكان له مسجد يأتي إليه النّاس من كل صوب وحدب. وعندما يتحوّل إليه لأداء الصّلاة، كان يسلّم على القادمين ثم يصطحبهم إلى بيته ويخصّهم بكرمه الحاتمي. فيقيمون في ضيافته ما شاؤوا من الوقت ثم يغادرون بيته محمّلين بالهدايا والمؤونة والملابس.

وذات يوم استقبل مَناد في بيته رجلاً مغربيًّا كان قد سلبه قطّاع الطريق أمتعته وهو راجع من الحجّ، فالتمس من مَناد أن يمدّ إليه يد المساعدة. وبعدما تفحّص الضيف كتف النعجة التي ذُبحت تكريمًا له، طلب إلى مضيّفه أن يقدّم إليه أبناءه فتمّ له ذلك. ولمّا لم يجد لدى أيّ واحد من أولئك الأبناء الأمارة التي كان يبحث عنها، سأل مناد هل أنّ له أبناء آخرين. فأجابه أنّ إحدى زوجاته التي لم تنجب أولادًا من قبل هي الآن حامل. وعند ذلك أوصاه الضّيف بأن يوليها بالغ العناية، لأنها ستلد طفلاً سوف يملك بلاد المغرب بأسرها وسوف يخلفه أحفاده أبًا عن جدّ. فأكّد مَناد أنّ ما تنبّأ به الرّجل مطابق للروايات التي يتناقلها الصنهاجيّون جيلاً بعد جيل، ولكنّهم لم يكونوا يعرفون إلى حدّ ذلك التاريخ في أيّ فرع من فروع قبيلتهم سوف يظهر ذلك الشخص الموهوب. ولا نعلم شيئًا آخر عن مَناد، كما أن تاريخ وفاته غير معلوم. وكذلك الشأن بالنسبة إلى بداية زيري بن مَناد.

الفصل الثّالث
زيري بن مَنَاد[1]

ما إن وُلِد زيري حتى بَدَت عليه إشارات تؤكّد صحّة ما تنبّأ به له الزائر المغربي. فقد كان طفلاً بهيًّا من أجمل ما خلق الله. على أنّ جمال أبناء مناد قد كان مضرب الأمثال في المغرب.

وعندما بلغ الطفل سنّ العاشرة، كان يبدو وكأنه في سنّ العشرين. ومن فرط تأثيره على أقرانه، أنّهم كانوا يسمّونه «السلطان». وقد كانوا يتشبّهون في لعبهم بجنود الخيّالة، مستعملين العصيّ بدلاً من الدّواب، وكانوا يتظاهرون بشنّ المعارك الحربيّة تحت قيادته. وبعد ذلك كان يصطحبهم إلى بيت والديْه، حيث كانت أمّه تقدّم إليهم الطعام تحت إشرافه، بدون أن يتناول شيئًا من ذلك.

ولمّا أصبح في ريعان الشباب كان يقوم على رأس أبناء عمّه وبعض الشبّان الصناديد بغارات على قبائل زناتة، فيقتل ويسبي ثم يوزّع الغنائم بدون أن يستأثر لنفسه بأدنى امتياز.

وبفضل ما كان يتحلّى به من شجاعة وحزم وحسن سلوك وشهامة وتواضع مع العامّة، ظهر بمظهر البطل الذي أكّدت التكهّنات أنه سيبرز في صفوف الصّنهاجيّين.

وعندما تبيّن أن التلكاتة هم الذين سيحقّقون التّنبّؤات المعلَن عنها، بفضل زيري بن مَناد، حسدتهم القبائل الأخرى وشنّت هجومًا على زيري، ولكنّه تمكّن بعد معارك طويلة من دحر خصومه وقتلهم، ثمّ رجع إلى جبله محمّلاً بالغنائم والأسرى.

وأكّد ابن الأثير أن زيري «تقدّم في أيّام أبيه وقاد كثيرًا من صنهاجة وأغار بهم وسبى»[2]. ويتّضح من ذلك أنّ مناد الذي لا شكّ أنه كان طاعنًا في السنّ آنذاك قد تنازل عن جزء من سلطته إلى ذلك الابن الباسل. وسنرى أنّ ملوك بني زيري كانوا يعهدون في أغلب الأحيان بمهامّ مدنيّة وعسكريّة سامية إلى أولياء عهدهم.

---

1) النويري، 2/104 – 109؛ البربر، 2/8، 468 – 488؛ **الكامل**، 8/246؛ ابن خلّكان، 1/197؛ **شذرات**، 3/29 – 30؛ **المؤنس**، 72 – 73؛ فورنال، 2/208.

2) **الكامل**، 8/246.

ابتداء الخلافة الفاطميّة في إفريقيّة :

لقد قدم عُبَيْد الله المهدي[3] من المشرق معتمدًا على نسبه العلوي ، فتمكّن في سنة 296 هـ / 909م من خلع الأسرة المالكة العربيّة التابعة للخلافة الإسلاميّة السنيّة ببغداد والمواصلة لعمل الولاة الأمويّين والعبّاسيّين. وقد نجحت في ظرف قرن واحد (184 – 296 هـ / 800 – 909م) ، في إقامة الدولة الأغلبيّة العتيدة وتأسيس تلك الحضارة التي سنطلق عليها اسم «الحضارة القيروانيّة».

والجدير بالذّكر أنّ صانعي هذا النّصر المذهل الذي سرعان ما تتوّج بقيام خلافة شيعيّة مضادّة للخلافة السنيّة ، هم أولئك الكتاميّون من سكّان جبال القبائل الصغرى بالمغرب الأوسط . فهؤلاء البربر الحضريّون الذين اعتنقوا المذهب الشيعي منذ عهد قريب قد انضمّوا بحماس إلى الفاطميّين في ظلّ رايتهم البيضاء ، وأصبحوا يمثّلون القوّة العسكريّة والهياكل الأساسيّة للدّولة الجديدة التي حافظت في الظاهر على أهمّ عناصر النظام الإداري القائم الذات

ولتوطيد أركان دولته ، كان على المهدي أن يظهر ما كان يتّسم به من حزم شديد خلال سنواتٍ عديدة تميّزت بالثورات البالغة الخطورة التي أعلنها الكتاميّون وبإعدام الداعية أبي عبد الله ، لمحاولته الاستحواذ على الدولة التي ساهم مساهمة فعّالة في تشييدها .

وبعدما تمكّن المهدي من السيطرة على الوضع في إفريقيّة ، توجّهت أنظاره إلى المشرق وعلى وجه التحديد إلى مصر ، لأنّ المغرب لم يكن يمثّل بالنّسبة إليه سوى قاعدة انطلاق لغزو العالم الإسلامي . ولكن المحاولة التي كانت سابقة لأوانها قد باءت بالفشل . وعندئذ أرجأ تحقيق مطامعه الشرقيّة إلى فرصة لاحقة ، وحوّل ثِقَل سلاحه إلى المغرب الأقصى .

منطقة النفوذ الفاطميّ الأصليّة :

كانت سلطة المهدي تمتدّ إلى كامل المناطق التي كانت خاضعة للدّولة الأغلبيّة ، أعني في الجملة البلاد التونسيّة الحالية بإضافة طرابلس وبرقة ومنطقة قسنطينة باستثناء جبل الأوراس الذي كان خاضعًا للخوارج ، وصقليّة . وكانت ضواحي طرابلس في قبضة

3) انظر: ح. ابراهيم حسن و ط. أحمد شرف ، عبيد الله المهدي ، القاهرة 1947 .

الأباضيّين المستقرّين في جبل نفوسة ، في حين كانت منطقة الجريد التي يسيطر عليها الخوارج خاضعة للسلطة المركزيّة. وبفعل الواقع لم تَعُدْ منطقة القبائل الصغرى الكتامية ، منطقة حدوديّة خارجة عن السلطة المركزيّة.

ويبدو أنّ بقيّة مناطق المغرب الأوسط – بما في ذلك بلاد صنهاجة – ما زالت تجهل سلطة الخليفة الفاطمي المباشرة. ومع ذلك فقد تمكّنت تلك السلطة من السيطرة على تاهرت وسجلماسة والتعجيل بسقوط الدولتين الخارجيّتين القائمتين هناك ، (بنو رستم في تاهرت وبنو مدرار في سجلماسة).

أمّا بالنسبة إلى المغرب الأقصى ، فمنذ انقسام المملكة العلويّة بين أبناء إدريس الثاني ، إثر وفاة مؤسّس فاس سنة 213 هـ / 828 م ، أصبح الوضع السياسي في تلك البلاد على غاية من الغموض. فقد كانت المعارك حامية الوطيس بين الدُّوَيْلات الإدريسيّة العديدة التي لم تكن سيادتها تتجاوز المدن الخاضعة لها. وكانت قبائل برغواطة البربريّة المعتنقة لديانة غريبة خارجة عن السنّة ، تحتلّ منطقة الشاويّة[4]. كما كان يقيم جنوب تطوان قَوْمٌ آخرون من البربر الخوارج ، وهم الغمارة ، علاوة على الدّولتين القائمتين في سبتة ونكور.

إفريقية في عهد عبيد الله المهديّ :

ممّا لا شكّ فيه أنّ مصادرنا التي تكاد تكون كلّها سنيّة قد سوّدت صورة إفريقيّة المضطهَدة من طرف حكّامها الجدد. ولكن ، باستثناء الأرستقراطيّين وكبار البورجوازيين الحنفيّين الذين سرعان ما اعتنقوا المذهب الشيعي ، من المؤكّد أنّ الدعاية الشيعيّة لم تستطع التأثير في الجماهير الشعبيّة المتمسّكة بالمذهب المالكي ، بل انها بالعكس من ذلك قد زادت في إشعاع ذلك المذهب بواسطة المجادلات الدينيّة ، وفي ترسيخ عقيدة المالكيّين ، بسبب ما تعرّضوا له من ألوان القمع. ولم تستطع لا عجرفة الكتاميّين المسؤولين عن الكثير من الابتزازات ، ولا تفاقم الجباية أكثر فأكثر ، تقريب الأهالي المغلوبين على أمرهم ممّن كانوا يطلقون عليهم اسم «المشارقة».

ولئن كان تأسيس مدينة المهديّة التي استقرّ بها عبيد الله المهديّ سنة 308 هـ / 921م ، مطابقًا لرغبة كثير من مؤسّسي الدّول الإسلاميّة في استهلال مدّة ولايتهم بنقل عاصمة

4) كانت تلك القبائل تسيطر على المنطقة الواقعة بين وادي بو رقراق ووادي أمّ الربيع والمحيط الأطلسي والجبل.

مُلْكهم من مدينة إلى أخرى ، إلّا أنّ بناء تلك المدينة الجديدة يدلّ أيضًا على أنّ الخليفة الفاطمي لم يكن يشعر بالأمان في رقادة ومن باب أولى وأحرى في القيروان التي كانت مركز المقاومة المالكيّة. كما أنّ اختيار موقع المهديّة ينمّ عن مطامع توسّعيّة في اتّجاه المشرق.

مساعي الفاطميّين في المغرب الأقصى :

تتميّز الفترة الجديدة التي ستبدأ في تاريخ المغرب الأقصى بالتنافس بين إمبراطوريّتين اثنتين ، هما الإمبراطوريّة الفاطميّة في إفريقيّة والإمبراطوريّة الأمويّة في قرطبة. وسيكون هذا التنافس مصحوبًا بالتناحر بين الرعاة الزناتيّين الرُّحَّل وبين المزارعين الصّنهاجيّين الحضريّين.

مقاومة الزناتيّين وتأسيس أشير[5] :

لقد بذل الخليفة الفاطمي جهودًا جبّارة من سنة 304 إلى سنة 319هـ/ 917 – 931م ، لمقاومة الأدارسة الموالين للأمويّين ، وذلك بالاعتماد أوّلاً وبالذات على قبائل مكناسة التي تربطها بزناتة علاقات القرابة. وقد كان على رأس تلك القبائل على وجه الخصوص مصالة بن حبوس المسيطر على منطقة تاهرت وابن عمّه موسى بن أبي العافية المهيمن على قسم كبير من المغرب الأقصى.

ولكنّ الجيوش الفاطميّة ، بعدما أحرزت عدّة انتصارات على الأدارسة الذين تقهقروا في اتجاه المغرب الأوسط ومليلة ، تصدّت لقبيلة مغراوة التي تمثّل مع قبيلة بني يفرن ، فرعَيْن أساسيَّيْن من فروع صنهاجة. وقد كان المغراويّون يتنقّلون تحت قيادة محمّد بن خزَر في جميع أنحاء المغرب الأوسط من منطقة الشلف إلى ما وراء تلمسان. وقد أعلنوا الثورة وقتلوا مصالة بن حبوس سنة 312هـ/ 924م. فغادر أبو القاسم بن عبيد الله المهديّة سنة 315 – 316هـ / 927 – 928م ، لتهدئة المغرب الأوسط وانتصر على المغراويّين، ثم أجلاهم

---

5) النويري ، 105/2 – 106 ؛ **الكامل** ، 246/8 ؛ **البيان** ، 174/1 و 262/3 ؛ ابن حوقل ، 107/1 ؛ **العِبَر** ، 153/6 – 154 ؛ **البربر** ، 5/2 – 6 ، 489 – 493 ؛ ابن خلّكان ، 197/1 ؛ البكري ، 60 ؛ **شذرات** ، 29/3 – 30 ؛ فورنال ، 208/2 – 210 ، 219 – 221 ؛ شارل اندري جوملیان ، **تاريخ شمال إفريقيا** ، 66/2 – 68 ؛ غوتيي ، **عصور المغرب المظلمة** ، الطبعة الأولى ، 340 – 343 ، الطبعة الثانية ، 364 – 368 ؛ **إسبانيا الإسلامية** ، 93/2 – 97 ، 101 – 106.

إلى الصحراء واحتلّ تاهرت. وواصل مسيرته إلى أن بلغ نكور وجراوة حيث هزم الأدارسة. ولكنّه لم يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ لاحظ أن سلطة القائد المكناسي موسى بن أبي العافية قويّة بما فيه الكفاية.

وفي تلك الفترة بالذّات (316 هـ/ 929م) نادى الأمير الأموي عبد الرّحمان الثّالث بنفسه خليفة وأمير المؤمنين في قرطبة وتلقّب باسم النّاصر لدين الله، معلنًا عن قيام خلافة سنيّة مضادّة للخلافة الشيعيّة.

وبعدما استولى الأمويّون على ملّيلة منذ سنة 314 هـ/ 927م، احتلّوا مدينة سبتة، فخلع موسى بن أبي العافية طاعة الخليفة الفاطمي وأعلن عن ولائه للأمويّين، وسرعان ما اقتدى به محمّد بن خزر ومغراوة وبنو يفرن. في حين ظلّت مكناسة وفيّة للخليفة الفاطمي في تاهرت. إلّا أنّ معظم مناطق شمال المغرب الأقصى وقسمًا من المغرب الأوسط قد أصبحت شبه محميّات أمويّة. وعندما توفّي عبيد الله المهدي سنة 322 هـ/ 934م، وجد موسى بن أبي العافية نفسه من جديد، بعد جهد جهيد، على رأس ممالكه السابقة في حين استولى المغراويّون على المغرب الأوسط حتى تخوم منطقة الشلف. إلّا أن مجموعة أخرى مغراويّة قد تمكّنت بعد ذلك بقليل من الاستيلاء من جديد على تاهرت.

وقد وجّه أغلب الملوك الأدارسة ورؤساء مكناسة وزناتة سفارات متكرّرة إلى قرطبة. كما أغدق الأمويّون من جانبهم الهدايا والإعانات على رؤساء مغراوة الذين قدّموا إليهم شواهد الطاعة مرارًا وتكرارًا.

وفي أثناء تلك الفترة بالذّات يمكن أن يكون قد حصل بين الزناتيّين والصنهاجيّين ذلك الاشتباك الذي أشار إليه مصدران[6] من مصادرنا، ربّما بالاعتماد على رواية ابن شدّاد. إلّا أن ذلك لا يمثّل ضمانًا ثابتًا لصحّة تلك الرواية.

وبعدما أخضع زيري الصنهاجيّين لسلطته، ربّما يكون الزناتيّون قد تأهّبوا لمهاجمته بالتّواطؤ مع أبناء قبيلته الذين كسّر شوكتهم منذ عهد قريب. ولمّا اطّلع زيري على ما كان يُحَاك ضدّه، شنّ الحرب على الزناتيّين، فهجم عليهم لَيْلاً على حين غفلة بأرض مغيلة[7]

---

6) النويري، 105/2؛ **الكامل**، 246/8.

7) وهو حصن يقع في منتصف الطريق بين فاس ومكناس. ليفي بروفنسال، **وثائق لم يسبق نشرها حول التاريخ الموحّدي**، 104/ الإحالة 2.

«وقتل منهم كثيرًا وغنم ما معهم» ، ثمّ عاد الصنهاجيّون إلى جبل تيتري محمّلين بالغنائم ومعهم 300 فرس أخذوها من العدوّ.

تأسيس مدينة أشير (324هـ / 935 – 936م) :

وعندئذٍ ذاع صيت زيري بن مناد في جميع أنحاء المغرب وتأكّدت قوّته. ونزولاً عند رغبة أتباعه الذين ازداد عددهم أكثر فأكثر غادر محلّ إقامته الذي أصبح ضيّقًا وأسّس جنوب مدينة الجزائر في جبل تيتري مدينة أشير[8] التي كثيرًا ما كانت تسمّى : أشير زيري ، وذلك في سنة 324هـ / 935 – 936م[9] في عهد الخليفة الفاطمي الثاني أبي القاسم القائم بأمر الله (322 – 334هـ / 934 – 946م).

فاستقدم البنّائين من حمزة والمسيلة وطبنة. واستجابةً لطلبه أوفد إليه الخليفة الفاطمي الحرفيّين ووضع على ذمّته مهندسًا معماريًّا لا مثيل له في إفريقيّة ، كما أمدّه بجميع المعدّات ولا سيّما الحديد. ولمّا انتهى بناء المدينة لم يُخفِ الخليفة رضاه عن ذلك[10]. فقدّم كلّ المساعدة إلى زيري الذي عمّر المدينة الجديدة ببعض أعيان طبنة والمسيلة وحمزة. وقد كانت تلك القلعة الحصينة تتّسم بنقطة ضعف وحيدة تقع في الجهة الشرقية من المدينة ، وقد عُهِد بحمايتها إلى عشرة رجال فقط ، كما كان بها منبعًا للمياه الغزيرة. وسرعان ما أصبحت أشير عامرة بالتجّار والعلماء والفقهاء ، ومزدهرة غاية الازدهار. وقبل ذلك التاريخ لم تكن المعاملات التجاريّة تقع في تلك المنطقة بالنقود ، بل بالمقايضة بواسطة الإبل والبقر والغنم. ويقال إن زيري قد ضرب النقود وأجرى رواتب العسكريّين حتى صار الناس يتصرّفون في مبالغ طائلة من الدراهم والدنانير. وبعدما أصبح السكّان في مأمن من غارات الزناتيّين ،

---

8) حول أشير انظر الباب السابع من هذا الكتاب.

9) حسب النويري ، وحسب **الكامل** 364هـ ، ربّما بسبب الاشتباه بين 324 و364 ، لا سيّما وأن الفقرة تتحدّث عن القائم لا خلفائه. ولئن ورد تاريخ تأسيس أشير في بعض المصادر في عهد الخليفة الفاطمي الثالث اسماعيل المنصور (334 – 341هـ) (ابن خلدون) وحتى في عهد المعزّ (**البيان** ، 3) ، فذلك بسبب الخلط بين تأسيس المدينة ذاته وبين الأشغال التي أُجريت في فترة لاحقة ، بناء الأسوار والحصون الجديدة الخ...

10) حسب النويري ، بالاعتماد بدون شكّ على ابن شدّاد ، صرّح الخليفة قائلاً : نفضّل أن يكون أجوارنا العرب خير من البربر.

تفرّغوا لأشغالهم في كنف الأمن والأمان. وإنّنا لنميل إلى نسبة هذا الوصف المثالي إلى ابن شدّاد الذي نسب أيضًا إلى زيري الواقعتين الآتي ذكرهما.

لقد عادت الحروب بين الزناتيّين والصنهاجيّين إثر تأسيس أشير(11). ويقال إنّ زيري قد عهد بالحكم إلى أخيه ماكسن بن مَناد ثمّ هجم على مدينة جراوة(12) التي كان موسى بن أبي العافية واليًا عليها باسم الخليفة الأمويّ عبد الرّحمان النّاصر وكان يدفع له الخراج. ولا يمكن أن تكون هذه الغزوة قد وقعت إلّا بعد سنة 319 هـ / 931 م ، وهي السنة التي تصادف تاريخ خروج الأمير المكناسي القويّ النفوذ عن طاعة الأمويّين ، وهو لم يكن مجرّد والٍ على جراوة.

ويقال إنه قد قدم لمقابلة زيري وتوجّه إليه بالخطاب التالي : يا مولاي ! إني لم أدخل في طاعة الأمويّين إلّا للاحتماء بهم من زناتة. والآن وقد بعثك الله إليّ وجمع بيننا ، فقد صرت عبدك المطيع والمستعدّ لإعانتك. فإني قريب منك ، والسيف القريب أحسن لحمايتي من السّيف البعيد !

ويبدو أن هذا الخطاب الغريب قد اختُلِق اختلاقًا(13). وبعدما أغدق عليه زيري العطايا قال له : خاطبني عندما تتعرّض لأيّ خطر ، فإني قادرٌ على إمدادك بكلّ ما تحتاج إليه من جند.

فاشتكى إليه موسى بن أبي العافية من رجال غمارة الذين اعتنقوا مذهب شخصٍ ادّعى النبوّة [يُقال له حاميم] ، وانساقوا نحو الفساد واستحلال المحرّمات. فأسرع زيري صحبة موسى بن أبي العافية إلى معاقبة أولئك المارقين. وقيل إنه قد هزمهم وأخذ المفتري إلى أشير وأحاله على الفقهاء(14) الذين حكموا عليه بالإعدام(15).

ومن المعلوم(16) أنّ حاميم المفتري قد ظهر سنة 310 هـ / 922 – 923م في إقليم مجكاسة الواقع في أرض غمارة التابعة لمنطقة نكور ، وعلى وجه التحديد في «الجبل المنسوب إليه» ،

---

11) حسب النويري (بالاستناد إلى ابن شدّاد)؟

12) وهو ميناء يقع شرقيّ مليلة.

13) فورنال ، 220/2 : اعتبر بحقّ هذا الخطاب مثيرًا للسخرية.

14) حسب النويري و**الكامل** بالاعتماد بدون شكّ على ابن شدّاد.

15) كان يستشهد بالآيات القرآنية التالية : ﴿حمٓ. تنزيل من الله العزيز الحكيم﴾ (الجاثية ، 1 – 2 والأحقاف ، 1 – 2) ، ﴿حمٓ. تنزيل من الله العزيز العليم﴾ (غافر ، 1 – 2).

16) **مفاخر** ، 77 ؛ البكري ، 100 – 101 ؛ **البيان** ، 192/1 ؛ **البربر** ، 144/2.

وهو جبل حاميم القريب من تطوان. «وقُتِل بمصمودة السّاحل في أحواز طنجة» سنة 315 هـ / 927 – 928 م. وبناءً على ذلك فإن وفاته قد سبقت ببضع سنوات دخول الأمير المكناسي في طاعة الأمويّين، سنة 319 هـ / 931م، ومن باب أولى وأحرى لا يمكن أن تكون العقوبة التي سلّطها زيري على حاميم قد وقعت بعد تأسيس مدينة أشير (324 هـ / 935 – 936م). فهذه الواقعة – على الأقلّ حسبما رُوِيَتْ لنا – هي من نسج الخيال.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الفاطميّين، أمام قلّة المساعدة المقدّمة إليهم من طرف المكناسيّين التابعين للمنطقة الشرقية (تاهرت) وارتداد المكناسيّين التابعين للمنطقة الغربيّة، قد حاولوا القيام بحملة عسكريّة قويّة ضدّ الزناتيّين والمكناسيّين الموالين للأمويّين[17]. ففي السنة التي تأسّست فيها مدينة أشير (324 هـ / 935 – 936م)، توغّل الخصيّ ميسور في تراب المغرب الأقصى وتمكّن من إخضاع مدينة فاس بعد حصارٍ دام عدّة شهور. فالتجأ موسى بن أبي العافية إلى الجبل ولكنّه انهزم عدّة مرّات وأُجبِر على الانسحاب إلى الصحراء. وكان الأدارسة الموالون للفاطميّين هم أوّل المستفيدين من هذه الحملة التي يبدو أنّ زيري لم يشارك فيها.

وبعد انصراف ميسور، تمكّن موسى بن أبي العافية من استرجاع ممالكه والانتصار على الأدارسة في نكور.

وبعد وفاة موسى بن أبي العافية في سنة 327 هـ / 938 – 939م[18]، ظلّ ابنه مَدْيَن وفيًّا للأمويّين وللتحالف مع مغراوة. وقد حاول الأمويّون – مهما كان الحال – الحفاظ على حالة السلم القائمة بين مغراوة ومكناسة وأبناء موسى بن أبي العافية الثلاثة الذين اقتسموا ممالكه[19].

إلّا أنّ الثورة العارمة التي أعلنها أبو يزيد طوال ما يناهز الاثنتي عشرة سنة، لم تسمح للفاطميّين بالتدخّل في المغرب الأقصى حيث استطاع الزناتيّون الموالون للأمويّين تركيز مواقعهم بدون أيّ إزعاج. وفي المقابل تقلّص إلى حدّ كبير تأثير المكناسيّين، وقد انضمّ قسم منهم – لا سيّما أتباع حميد بن زليطن – إلى الأمويّين[20].

---

17) **تاريخ المغرب**، 185/1.
18) **البربر**، 270/1. بعض المصادر الأخرى تذكر تاريخًا متأخّرًا أكثر، 328 – 341 هـ، انظر فورنال، 220/2 – 221.
19) **تاريخ المغرب**، 185/1.
20) نفس المرجع.

علي بن حمدون وتأسيس المسيلة[21] :

قبل ظهور «صاحب الحمار» لم يكن زيري بن مَناد وأتباعه الصنهاجيّون، الممثّلين الوحيدين للخليفة الفاطمي في المغرب الأوسط الذي كان جزء منه في قبضة بني حمدون المنافسين للصنهاجيّين فيما بعد. ذلك أنّ علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي والمنضمّ إلى عبيد الله المهدي قبل قدومه إلى المغرب، قد أخذ نصيبه من مخاطر المرحلة الأولى وساهم مساهمة فعّالة في تأسيس الدولة الفاطمية.

وإثر رجوعه من إحدى غزواته في المناطق الغربية، كلّف أبو القاسم محمّد، ابن المهدي ووليّ عهده، علي بن حمدون ببناء مدينة لمنع تقدّم الزناتيّين. وقد تمّ ذلك فيما بين سنة 313 و315هـ / 925 – 928م[22] على تخوم الزاب، ربّما في موقع بلدة صغيرة كانت تسمّى المسيلة، وقد أطلق عليها اسم المحمّديّة نسبةً إلى أبي القاسم محمّد، وعُيّن عليّ بن حمدون واليًا عليها وعلى كامل منطقة الزاب. وقد تربّى ولداه، جعفر الذي سيخلفه ويحيى في بلاط أبي القاسم محمّد، وأرضعت أمّ جعفر الأمير معدّ الذي سيتولّى الخلافة فيما بعد باسم المعزّ لدين الله[23].

وقد قيل بدون ذكر السّبب، أنّ عليّ بن حمدون هو الذي خرّب مدينة أدنة التي توجد بينها وبين المحمّدية (المسيلة) مرحلة، وبينها وبين طبنة مرحلتان[24]، وذلك بعد رجوع ميسور من المغرب الأقصى سنة 324هـ / 935 – 936م.

---

21) **البيان**، 190/1، 214 – 215، 258/2 – 259، 267/3 – 268؛ **البربر**، 510/2، 528، 553 – 554؛ **المؤنس**، 54؛ البكري، 59 ومواضع مختلفة؛ **البلدان**، 58/7 – 59؛ ابن خلّكان، 113/1؛ فورنال، 147/2 – 149، 205؛ **سيرة جوذر**، 75، 129، 175؛ الإحالة 8.

22) لعلّ التاريخ الأوّل يصادف بداية الأشغال والتاريخ الثاني يصادف نهايتها. البكري و**البيان**: 313هـ، أبو الفداء و**البلدان** و**العبر** و**المؤنس**: «315هـ.

23) **البربر**، 554/2.

24) جاء في **البيان** (244/1) ما يلي: «وفي سنة 334 خرّب علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي مدينة المسيلة»، ولا شكّ أنّ هذا النصّ ناقص، فينبغي إتمامه بما أورده البكري حول هذا الموضوع (ص 144). وحول أدنة، أنظر ابن حمّاد، الترجمة، 50، الإحالة 2.

أبو يزيد حتى سنة 336 هـ / 948 م :

بفضل وجود زيري بن مناد غربًا وعلي بن حمدون شرقًا، أصبح الخليفة الفاطمي لا يخشى أيّ خطر جسيم في المغرب الأوسط، وفي مقدوره أن يواصل بنجاح مقاومة البربر الموالين للأمويّين. وفي ذلك الوقت بالذّات ثار في جبل أوراس[25] الزناتي الخارجي أبو يزيد [مخلد بن كيداد]. ومن بين أخبار هذه الثورة التي كادت تفضي إلى إجلاء الفاطميّين خارج بلاد المغرب، سوف لا نتعرّض هنا إلا لأخبار العمليّات الحربيّة التي قام بها الصنهاجيّون وبنو حمدون.

فقد اندلعت الثورة في أواخر سنة 332 هـ / أوائل سنة 944 م وتمكّنت في أقلّ من ستة أشهر من إخضاع إفريقيّة بتمامها وكمالها ما عدا المهديّة[26]. وسنلاحظ ضعف المقاومة الفاطميّة[26]، ذلك أنّ جيش الخليفة لم يتصدّ للمرّة الأولى للمُغِير إلّا في باجة، ولكنّه انهزم وأُجبِرَ على التقهقر إلى مدينة تونس التي سقطت بين أيدي المتمرّد وأسرع أهلها إلى الاعتراف بأبي يزيد انتقامًا من الشيعة[27].

ثمّ دخل «صاحب الحمار» القيروان التي تحالفت معه هي أيضًا، وذلك يوم 23 صفر 333 هـ / 15 أكتوبر 944 م، وخرج أهلها الذين لم يتعوّدوا على الحرب، وعلى رأسهم فقهاؤهم لقتال الشيعة إلى جانب الخوارج، ولكن الدائرة قد دارت عليهم. وكان الخوارج ينظرون بعين الرضا إلى تقتيل حلفائهم المزعومين من أهل السنّة. [فقد قال أبو يزيد لجنوده – حسب رواية ابن عذاري –: «إذا التقيتم مع القوم، فانكشفوا عن أهل القيروان، حتى يتمكّن أعداؤكم من قتلهم، فيكونون هم الذين قتلوهم، لا نحن! فنستريح منهم»[28]].

وبعد ذلك بقليل حاول الجيش الفاطمي بقيادة ميسور إزاحة أبي يزيد من القيروان.

---

25) لوتورنو، **ثورة أبي يزيد في القرن العاشر**، الكرّاسات التونسية، عدد 2، 1953؛ **دائرة المعارف الإسلامية**، 115/1–116 (روني باسي). والطبعة الثانية، 167/1–168 (شتارن)؛ جورج مارسي، **المغرب الإسلامي والمشرق**، 147–153؛ فورنال، 223–224 ينتمي أبو يزيد حسب الاحتمال إلى قبيلة بني يفرن.

26) استنادًا إلى ابن حمّاد (19–20) لا ينفي لوتورنو (المرجع السابق) احتمال قيام علي بن حمدون بحملة ضدّ أبي يزيد حوالي سنة 943. ولكن المصدر الذي اعتمد عليه لم يذكر أي تاريخ، بل يبدو أنه روى تلك الواقعة في سنة 334 هـ / 945–946 م.

27) لوتورنو، المرجع المذكور، 108–116. وجاء في **دائرة المعارف الإسلامية**، الطبعة الثانية، 168، ان تاريخ الاستيلاء على باجة هو: 13 محرم 333 هـ / 5 سبتمبر 944 م.

28) [ابن عذاري، **البيان**، 218/1]. انظر أيضًا، إدريس، مجلّة الدّراسات الإسلاميّة، 1936، 80–87.

ولكن بعد عدّة معارك طاحنة ، وإثر انفصال قسم من الفرق المساعدة المتكوّن من بني كملان التابعين لهوّارة[29] ، انهزم الجيش وقُتِلَ قائده يوم 12 ربيع الأوّل 333 هـ / 2 نوفمبر 944 م ، ولعلّ الأمر يتعلّق بهزيمة الوادي المالح الذي يبعد عن المهديّة بحوالي عشر كيلومترات[30] .

وفي أواخر ربيع الثاني سنة 333 هـ / ديسمبر 944 م ، أمر القائم بأمر الله بحفر خندق حول أرباض المهديّة وزويلة واستنجد بزيري بن مَناد ورؤساء كتامة وبعض القبائل الأخرى ، حاثًّا إياهم على الالتحاق به . فتأهّب أولئك الرؤساء ، ومن بينهم بدون شكّ علي بن حمدون ، للاستجابة لنداء الخليفة المتحصّن في شبه جزيرة المهديّة[31] .

ولكنّ خطر الهجوم على أبي يزيد من خلف ، لم يخفّف من سرعة مسيرته . فقد بادر إلى حصار المهديّة ، رغبةً منه في عدم التخفيف من حماس جنوده المنتصرين ، واعتقادًا منه في الانتصار ، وربّما حرصًا منه على التعجيل بحسم الأمر قبل تعرّض ساقة جيشه للخطر[32] . وإثر ذلك شنّ هجومًا قويًّا على المهديّة يوم 3 جمادى الثانية 333 هـ / 21 جانفي 945 م .

فدخل أبو يزيد زويلة من باب الفتح «وتفرّق أصحابه ينهبون ويقتلون» . ثمّ واصل طريقه إلى أن بلغ المصلّى من باب المهديّة . وكان الفاطميّون يعتقدون ، «حسبما أنذر به المهدي عند بناء المهدية» ، أن المتمرّد سوف لا يتجاوز ذلك الموضع الذي يبعد عن المهديّة مسافة «رمية سهم» . وقد علم أبو يزيد ، وهو يتأهّب لاجتياز المصلّى ، أنّ الكتاميّين قد قضوا من ورائه على قسم من جيشه في باب الفتح ، وأنّ زيري بن مَناد قد قدم منذ قليل على رأس جيش من الصّنهاجيّين . فتراجع جنود النكّاريّة في اتّجاه باب الفتح ليتمكّنوا من الهجوم على زيري والكتّاميّين من خلف . واضطرّ أبو يزيد في آخر الأمر إلى العودة إلى معسكره[33] .

وقد تواصل حصار المهديّة حتى شهر صفر 334 هـ / سبتمبر – أكتوبر 945 م ، تتخلّله هجومات عنيفة وهجومات مضادّة . وكان زيري بن مَناد يقوم من حين لآخر بمناوشات لا نعرف تفاصيلها . ويقال إنّ القائم بأمر الله قد وجّه إليه خطابًا ، عندما كانت المجاعة المريعة

29) كان بنو كملان بالأوراس من أكبر أنصار أبي يزيد . أمّا الذين كانوا يعملون في صفوف ميسور ، فقد تمّ إجلاؤهم من منطقة المسيلة قبل عشرين سنة من ذلك التاريخ ، وهذا ما يفسّر انفصالهم عن أبي يزيد .

30) **البيان** ، 218/1 ؛ **الكامل** ، 166/8 ؛ **البربر** ، 532/2 ، 207/3 ؛ **البكري** ، 29 .

31) **الكامل** ، 166/8 – 167 ؛ **رحلة التجاني** ، 325 ؛ **الاتّعاظ** ، 113 ؛ **المؤنس** ، 56 – 57 .

32) **الكامل** ، 166/8 . يقال إن أبا يزيد قد بادر إلى الهجوم على المهدية بعدما علم أن الصنهاجيّين والكتّاميّين وبعض القبائل الأخرى كانوا يتأهّبون لمدّ يد المساعدة إلى الخليفة الفاطمي .

33) **الكامل** ، 167/8 ؛ **الاتّعاظ** ، 113 – 114 ؛ فورنال ، 224/2 .

السائدة في المهديّة على أشدّها، لإعلامه بالوضع. فأرسل الأمير الصّنهاجيّ إلى المحاصَرين فرقة محمّلة بالمؤونة، متركّبة من ألف حمولة من القمح ومخفورة بمائتي فارس صنهاجي وخمسمائة من العبيد. وقد تمكّنت هذه الفرقة من الدخول إلى المهديّة وأرسل الخليفة إلى زيري، جزاءًا على هذا المدد النفيس، هديّة ثمينة تتمثّل في مجموعة من الأقمشة والخيول الأصيلة والسّروج المزركشة بالأحجار الكريمة. ونحن نستغرب من تفكير الخليفة في إرسال هدايا من هذا القبيل في مثل تلك الظروف العصيبة، وبالخصوص التفويت في عدد من الخيول النافعة لجنوده والصالحة على الأقلّ لتزويدهم باللّحوم(34).

وبعدما انفصل عن «صاحب الحمار» جلّ جنوده الذين سئموا طول الحصار وشبعوا من الغنائم، عاد إلى القيروان في صفر 334هـ/ سبتمبر - أكتوبر 945م.

ومن شدّة مهارة ذلك العجوز الداهية، أنّه استعاد سيرته السابقة المتقشّفة التي كان تخلّيه عنها قد أبعد عنه عددًا كبيرًا من أنصاره. فتجمّع البربر من جديد تحت قيادته، شعورًا منهم لا محالة بخطورة الوضع.

وقد كانت مدينتا تونس وسوسة اللّتان استرجعهما الخليفة الفاطمي مسرحًا لمعارك حامية الوطيس. وكانت المعركة الدائرة للاستيلاء على المدينة الأولى موضوع روايتين متناقضتين، الأولى مغربيّة والثانية فاطميّة(35).

فحسب الرواية الأولى(35م) طلب القائم بأمر الله إلى جميع أنصاره، وبالخصوص علي بن حمدون، تجميع جنودهم لمساعدته على محاربة أبي يزيد. فقام والي الزاب بتعبئة جيش غفير في المسيلة وسطيف وقسنطينة، وتوجّه على رأسه إلى المهديّة. ثم تحوّل إلى ضواحي باجة مرورًا بالكاف. وكان ابن «صاحب الحمار» أيّوب قد استولى على باجة، بعدما استرجع

(34) البربر، 5/2-6؛ النويري، 107/2؛ **الكامل**، 246/8؛ فورنال، 247/2.

(35) البربر، 554/2-555، 209/3. هاتان الرّوايتان اللّتان تنتهيان بموت علي بن حمدون المفاجئ، مطابقتان للمعلومات التي أوردها البكري.

(35م) **البيان**، 259/2؛ ابن حمّاد، 19-20. وهناك رواية ثالثة قريبة من رواية ابن عذاري؛ **الكامل**، 169/8؛ البربر، 534/2-535. ويذكر ابن عذاري في **البيان** (215/1) أنّ والي المسيلة «قد هلك في فتنة أبي يزيد، سنة 326» (7 نوفمبر 937هـ/ 28 أكتوبر 938م). ومن الواضح أن هذا التاريخ خاطئ. أمّا فورنال (255/2-257) فإنه يرى أن الحملة التي نسبها ابن الأثير وابن خلدون إلى علي بن حمدون ربّما قام بها القائد الفاطمي المشرف على حامية مدينة تونس، ابن علي بن حمدون أو بالأحرى الحسن بن علي. وهذا الافتراض مطابق لمعطيات الرواية الفاطميّة.

مدينة تونس. فباغت علي بن حمدون ليلاً في معسكره وهزمه وأجبره على الهروب. وقد دارت المعركة حسب الاحتمال في وادي مجردة[36]. ويُعزى سبب انهزام عليّ بن حمدون إلى تقاعس أحد قوّاده وهو أبو الفضل بن أبي سلاس. وأثناء هروبه في الظلام سقط ابن حمدون في إحدى الوهاد، فلقي حتفه، وذلك سنة 334 هـ/ 945 – 946م.

وبالعكس من ذلك، فإن بعض المصادر[37] تؤكّد أنه لم يمت بل التجأ إلى المسيلة. وزحف أيّوب على مدينة تونس ولكنّه هُزِم شرّ هزيمة من طرف الحامية الفاطميّة وأُجبر على العودة إلى القيروان في ربيع الأوّل 334 هـ/ أكتوبر – نوفمبر 945م. وإثر هذه الهزيمة فكّر أبو يزيد في الرحيل من القيروان، وأرسل ابنه أيّوب من جديد لمحاربة علي بن حمدون في موضع يقال له بلطة[38]. وبعد معارك طويلة كان فيها القتال سجالاً بين الفريقين، استطاع أيّوب الاستيلاء على المسيلة غدرًا. ففرّ علي بن حمدون على رأس 300 فارس و400 راجل إلى بلاد كتامة، حيث جنّد عددًا كبيرًا من رجال كتامة ونفزاوة ومزاتة وغيرهم من البربر، ثمّ توجّه إلى قسنطينة وعَسْكَرَ بها. ومن هناك شنّ بنجاح هجومًا على الهواريّين الذين كان يعتمد عليهم أبو يزيد. ورغم ما بذله «صاحب الحمار» من جهود، لم يستطع منع خصمه من الاستيلاء على تيجس وباغاية. وعندئذٍ قام بحصار سوسة.

أمّا الرواية الفاطميّة[39] فقد أهملت ذكر علي بن حمدون وأكّدت أنّ خصم أيّوب بن أبي يزيد هو القائد الفاطمي حسن بن علي. وحسب هذه الرواية فقد دارت معارك حامية الوطيس حول مدينة تونس (التي انتقلت من فريق إلى فريق عدّة مرّات) ومدينة باجة. وفي ربيع الثّاني هزم القائد الفاطمي الحسن بن علي شرّ هزيمة أيّوب بن أبي يزيد الذي سرعان ما أخذ ثأره. فانسحب الحسن بن علي إلى بلاد كتامة وتحصّن بها (ثمّ استولى على تيجس وباغاية) من وراء أبي يزيد. وفي 6 جمادى الثانية ضرب أبو يزيد الحصار على سوسة[40].

ولئن صدّقنا الرواية المغربية التي نسبت إلى علي بن حمدون خطأً بعض العمليّات

---

36) جاء في نصّ ابن حمّاد: «بفحص على وادي وجرة». ونقترح تصحيح الكلمة الأخيرة كما يلي: «مجردة أو بجردة».

37) رواية ابن خلدون الثالثة، **البربر**، 534 – 535 و**الكامل**، 169/8.

38) وهي بلدة أثبت البكري وجودها في منطقة باجة (ص 57). **البربر**، 534/2 – 535.

39) حسب رواية فاطميّة معاصرة، أثبت عماد الدين الإدريسي أهمّ ما جاء فيها في **عيون الأخبار** (النصف الثاني من الجزء الخامس) واعتمدها الرقيق. انظر: **دائرة المعارف الإسلاميّة**، الطبعة الثانية، الفصل الخاص بأبي يزيد (167/1 – 168، شتارن).

40) انظر تلخيص هذه الرّواية في الفصل المشار إليه أعلاه من **دائرة المعارف الإسلامية**، 168/1.

المذكورة ولا سيّما المعارك التي دارت رحاها حول ضواحي تونس ، فهل يجوز لنا رفضها لفائدة الرواية الفاطمية ، خصوصًا ونحن لا نملك نصّها الأصلي؟ أفلا يجوز لنا أن نفترض أنّ الرواية الفاطميّة المعتمَدة في **عيون الأخبار**، والتي أخطأت في الاتّجاه المعاكس ، ربّما اشتبه الأمر على ناقلها بسبب تشابه اسمَيْ القائد الفاطمي ووالي المسيلة ، فنسب إلى الحسن بن علي الأعمال الباهرة التي قام بها علي بن حمدون؟ فليس من المعقول أن يكون ابن حمدون قد بقي مكتوف اليدين أثناء تلك الفاجعة التي كان من الممكن أن تعرّض للخطر الدّولة الفاطميّة ذاتها التي كان يحبّها حبًّا جمًّا.

وبناءً على ذلك يمكننا تقديم هذا الافتراض الذي يوفّق شيئًا ما بين الروايتين المتناقضتين. فلعلّ علي بن حمدون قد لقي حتفه في الظروف السابقة الذكر وبقي المتخاصمان أيّوب بن أبي يزيد والقائد الفاطمي الحسن بن علي وجهًا لوجه طوال جميع مراحل الفترة اللاّحقة (41).

ويبدو أنّ الأمويّين بالأندلس ، أعداء الفاطميّين من قديم ، قد كانوا ، رغم بعد الشقّة بينهم ، يتابعون بشغف أطوار ثورة أبي يزيد. وقد دخل النكّاري في مفاوضات مع أمراء قرطبة ، بالرغم من نزعته الخارجيّة المتطرّفة وربّما بإيعاز من أهل القيروان المالكيّين. من ذلك أنّ مبعوثَيْن اثنين من قِبَل «صاحب الحمار» قد مثلا أمام عبد الرحمان الناصر في آخر شوّال 335 هـ / 14 جوان 945م (42) وسلّما إليه رسالة من أبي يزيد يعلمه فيها بانتصاره على الشيعة ويقدّم إليه شواهد الطاعة معترفًا به كإمام. وقيل أن أبا يزيد قد صار منذ ذلك التاريخ حتى وفاته يوجّه الرسائل تلو الرسائل إلى قرطبة.

وفي سنة 334 هـ / 13 أوت 946م وصل إلى قرطبة وفد يضمّ ثلاثة أشخاص من أهل القيروان ، أبرزهم تميم بن أبي العرب التميمي. وبعدما استمع الخليفة الأمويّ باهتمام إلى المعلومات التي قدّمها إليه الوفد ، سلّم إليه خطابًا إلى أبي يزيد مرفوقًا بعدّة هدايا وخِلَع.

وليس من الغريب أن نجد من بين أعضاء الوفد ابن الكاتب الشهير أبي العرب التميمي (صاحب **كتاب طبقات علماء إفريقية**) الذي توفّي في رجب 333 هـ / 17 – 18 مارس

---

41) معركة بلطة ، احتلال المسيلة ، تعبئة جيش من الكتاميّين ، الاستيلاء على تيجس وباغاية. وبما أنّ كلّ شخص يحمل اسم علي يكنّى عادةً بأبي الحسن ، فمن المحتمل أن يكون اسم الحسن بن علي تحريفًا لأبي الحسن علي بن حمدون ، وفي هذه الصورة فإن والي الزاب والقائد الفاطمي ليسا سوى شخص واحد.

42) **البيان** (الترجمة) ، 352/2 – 353 ، 355 – 356 ؛ **البربر**، 530/2 ، 205/3 – 207 ، 530 ؛ **إسبانيا الإسلامية** ، 103/2 – 104 ؛ **دائرة المعارف الإسلامية** ، الطبعة الثانية ، 168/1 (شتارن).

945م وهو يحارب الشيعة. وقد كان من أبرز أنصار فكرة انضمام أهل السنّة في القيروان إلى صف «صاحب الحمار»[43].

ولقد توقّف الكفاح الذي كان يخوض غماره القائم بأمر الله بحماس ونجاح مطّرد، إثر وفاته يوم 13 شوّال 334هـ/ 18 ماي 946م. إلّا أنّ وليّ العهد المنصور الذي كتم خبر وفاة والده، قد تمكّن من تخليص سوسة والدخول إلى القيروان يوم 23 شوّال 334هـ/ 28 ماي 946م. فاضطرّ أبو يزيد إلى التقهقر إلى الغرب بعد معركة طاحنة دارت رحاها يوم 13 محرّم 335هـ/ 14 أوت 946م[44]. وبعد أن أحرز القائد الحسن بن علي انتصارات باهرة، التحق بالمنصور.

والجدير بالملاحظة أنّ أبا يزيد قد انهزم في الوقت الذي كانت فيه الإعانة القادمة إليه من الأندلس على وشك الوصول. فعاد الأسطول الأموي الذي كان في طريقه إلى إفريقيّة على أعقابه، لما لاحظ قائده ابن رماحس عدم جدوى تدخّله. وغادر المنصور القيروان يوم 26 ربيع الأوّل 335هـ/ 25 أكتوبر 946م لملاحقة المتمرّد.

وفي طبنة تلقّى رسالة من جعفر بن علي بن حمدون الذي خلف والده بوصفه واليًا على المسيلة والزّاب، يعلمه فيها بإلقاء القبض على رجل ادّعى الإمامة وأثار فتنة سياسيّة ودينيّة في جبل الأوراس. وبعدما غادر الخليفة طبنة التحق به جعفر بن علي وأهدى إليه خيولاً وجمالاً وزبادًا وسلّم إليه الرجل المفتري وأربعة من أنصاره، فقتله بعدما عذّبه عذابًا فظيعًا[45].

ثمّ مرّ من مقّرة[46] حيث دخل كثير من الناس في طاعته بسبب ما أغدق عليهم من الهدايا. ولكنّ ذلك لم يمنع أبا يزيد من تعبئة عدد كبير من المجنّدين.

وقيل إن المنصور قد كاتب زيري بن مَناد وماكسن بن سعد[47] وأرسل إليهما مجموعة من الهدايا المتركّبة من الذهب والفضّة والتحف العجيبة. فأتاه القائدان بجماعة من المحاربين من صنهاجة وعجيسة، وانضمّا إليه مع الرجال الذين تمكّنا من تجنيدهم. وحسب معلومات أخرى فإن زيري لم يلتحق بالمنصور إلّا فيما بعد، ولكننا لا نستطيع التحقّق من ذلك، لأننا

43) ابو العرب (الترجمة)، الجزائر، 1920، المقدّمة، 10—16؛ إدريس، مجلّة الدراسات الإسلامية، 1936، 80—87.

44) سيرة جوذر، 44—46.

45) ابن حمّاد، 26؛ فورنال، 267/2.

46) شمال شطّ الحضنة، شمال غربي بسكرة.

47) ابن حمّاد، 27. هذا الشخص غير معروف في المصادر الأخرى.

لا نعرف تفاصيل تلك الحملات العسكريّة معرفة جيّدة ، ولا شكّ أن زيري كان كثير التنقّل.

وبعدما هزم المنصور أبا يزيد قرب مقّرة (12 جمادى الأولى 335 هـ/ 9 ديسمبر 947 م) ، دخل المسيلة والتجأ أبو يزيد إلى جبل سالات بالقرب من بو سعادة.

وانضمّ قسم كبير من مغراوة الزناتيّين إلى صفّ المنصور، كما دخل في طاعته الأمير القويّ النفوذ محمّد بن خزَر[48]. ولكن عوض أن يلاحق الخليفة الفاطمي المتمرّد الذي لم يُعثَر له على أثر، توجّه في عزّ الشتاء وتحت الثلوج نحو بلاد صنهاجة حيث ذاق جنوده العذاب[49].

وفي دمرة؟[50] أو بلاد غمارة[51] أو بالأحرى في حائط حمزة[52] التقى المنصور بالأمير زيري وإخوته وأغدق عليهم العطايا وأهدى إلى زيري وأبنائه وإخوته الخيول الأصيلة ذات السروج المطرّزة بالذهب والفضّة.

ونلاحظ هنا المبالغة في أمر انضمام مغراوة إلى صفّ المنصور وتدخّل زيري وصنهاجة. وسيكون لهذين العاملين مفعول كبير لصالح الفاطميّين[53].

وانهزم أبو يزيد هزيمة أولى نكراء وكاد أن يُقبَض عليه «فقد أدركه فارسان فعقرا فرسه ، فسقط عنه ، فأركبه بعض أصحابه ، وأدركه الأمير زيري فطعنه وألقاه ، وكثر عليه القتال حتى خلّصه أصحابه ، وخلصوا به ، وتبعهم المنصور فقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف»[54].

فابتعد الخليفة عن مدينة حمزة وعسكر على حافة وادي لعلع[55] ، حيث أقعده المرض مدّة تناهز الشهرين ولم يعد هناك أيّ أثر للعدوّ ، فقرّر التحوّل إلى تاهرت ، وانتهز أبو

---

48) نفس المرجع ، انظر أيضًا : فورنال ، 266/2.
49) لوتورنو، المرجع المذكور، **ثورة أبي يزيد**.
50) الكامل ، 172/8 ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 92/2 ؛ فورنال ، 270/2 ، الإحالة 3 .
51) **البربر** ، 538/2.
52) ابن حمّاد ، 29 ؛ **الاتّعاظ** ، 123 ؛ البكري ، 64 – 65 ؛ فورنال ، 270/2.
53) ابن حمّاد ، 30 ؛ **العِبَر** ، 154/6 ؛ فورنال ، 290/2 – 292.
54) **الاتّعاظ** ، 124. انظر أيضًا : **الكامل** ، 172/8 ؛ ابن حمّاد ، 31 .
55) ابن حمّاد ، 29 .

يزيد فرصة ابتعاد المنصور ليحاصر المسيلة التي كانت بدون شكّ بين يدي جعفر بن علي[56].

فرجع الخليفة إلى الغرب ودخل المسيلة يوم 5 رجب 335هـ / 30 جانفي 947م، بينما اختفى أبو يزيد في جبال عقد وكيّانة[57].

ومن المسيلة التي جعل منها قاعدة لعملياته الحربية، شنّ المنصور هجومًا يوم 10 شعبان 335هـ / 6 مارس 947م. وتواصلت ملاحقة أبي يزيد عبر جبل وَعْر حوالي خمسة أشهر.

وانطلق المنصور من المسيلة يوم أوّل رمضان 335هـ / 26 مارس 947م للزحف على جبل كيّانة. ومن الغد تمكّن من ملاحقة عدوّه الذي أفلت من قبضته مرّة أخرى والتجأ أبو يزيد إلى قلعة تاقربست[58] واحتمى بها، وهي تقع في الموضع الذي ستقام فيه فيما بعد قلعة بني حمّاد، ولم تتمّ إزاحته منها إلّا يوم 22 محرّم 336هـ / 13 أوت 947م، بعد عدّة عمليات تضليل ومحاصرة قام بها قيصر الفتى وزيري بن مَناد[59]. وأخيرًا أُلقي القبض على أبي يزيد الذي مات متأثّرًا بجراحه يوم 27 محرّم 336هـ / 18 أوت 947م[60].

وتجمّعت بقايا جيش الخوارج تحت قيادة فضل بن أبي يزيد الذي كان يقوم بعملياته بالتنسيق مع معبد بن خَزَر. فقد حاولا الهجوم على ساقة جيش المنصور ولكنهما سقطا في كمين نصبه زيري بن مَناد وخسرا خلقًا كثيرًا. فطارد المنصور معبد بن خَزَر إلى أن وصل إلى المسيلة ولم يُعْثَر له على أثر[61]. وفي صفر 336هـ / أوت – سبتمبر 947م اضطرّ الخليفة الفاطمي إلى التدخّل في تاهرت لبسط سلطانه عليها من جديد، بعدما انفصل عنه الأمير المكناسي حميد بن زليطن. وتوقّف في سوق حمزة حيث اجتمع بالصنهاجيّين التابعين

56) نفس المرجع. انظر أيضًا: **البربر**، 538/2؛ فورنال، 270/2؛ لوتورنو، المرجع المذكور، دائرة المعارف الإسلامية (2)، 168/1.

57) ابن حمّاد، 30.

58) ابن حمّاد، الترجمة، 51، الإحالة 1؛ جبل كيّان هو القسم الغربي من جبل المعاديد الحالي، فورنال، 272/2 – 273.

59) ابن حمّاد، 32؛ **العِبَر**، 154/6؛ فورنال، 273/2.

60) ابن حمّاد، 32 – 36؛ **الاتّعاظ**، 124 – 125؛ **رحلة** التجاني، 234 – 235؛ **البيان**، 220/1؛ فورنال، 273/2 – 274؛ لوتورنو، المرجع المذكور، 124 – 125؛ **دائرة المعارف الإسلاميّة** (2)، 168/1؛ جورج مارسي، **المغرب الإسلامي والمشرق**، باريس 1946، 147 – 153.

61) **البربر**، 211/3 – 212.

لزيري بن مَناد وجمع الإمدادات الواردة عليه من كلّ مكان ثمّ ذهب لتخليص تاهرت[62].

وحسبما رواه ابن خلدون ، فإنّ المنصور قد عيّن أثناء إقامته بتاهرت يعلى بن محمّد اليفرني واليًا على تلك المدينة وزيري بن مَناد قائدًا على قبيلة صنهاجة وكامل المنطقة[63].

ثمّ أضاف المؤرّخ[64] أنّ الخليفة ، قبل مغادرته للمغرب ، قد جازى زيري بن مَناد ، فأغدق عليه عطايا ثمينة وعيّنه قائدًا على صنهاجة ورخّص له في بناء القصور والديار والحمامّات في أشير.

ودخل المنصور القيروان يوم الخميس 27 جمادي الثانية 336هـ / 15 جانفي 948م وخُصّ باستقبال حماسي[65].

وقيل إنّه سرعان ما استأنف حملته للقضاء على فضل بن أبي يزيد[66]. ويبدو أنّ ابن خلدون قد أشار إلى هذه الحملة عندما أكّد أنّ زيري بن مَناد والصنهاجيّين قد قاموا بحملتهم بالاشتراك مع شفا(؟) وقيصر – وهما من موالي المنصور – ضدّ فضل الذي هجم صحبة معبد بن خزَر على طبنة وبسكرة ثم التجأ إلى جبال كيّانة ليفلت من ملاحقة المنصور. وفي آخر الأمر انهزم فضل وقُتِل يوم أوّل ذي القعدة سنة 336هـ / 13 ماي 948م. وطيف برأسه في القيروان[67].

---

62) البرير، 2/539–540، 3/212 ؛ ابن حمّاد ، 36 ؛ فورنال ، 2/276. غادر المنصور المسيلة متوجّهًا إلى تاهرت في 24 صفر.

63) البرير، 2/539–540 ؛ فورنال ، 2/279 ؛ المؤنس ، 72 : «وأوّل اتّصال زيري بالمنصور، لما دخل المغرب في طلب أبي يزيد الخارجي ، ودخل بلاد صنهاجة سنة 335هـ (946–947م) ، وهناك وافاه زيري بعساكره وأهل بيته ودخل في طاعته فخلع عليه ووصله بصلة ونصب له فازة وقلّده سيفًا وعقد له على أهل بيته ومن اتّصل به من أهل صنهاجة والبربر».

64) وأضاف صاحب المؤنس قائلاً : «وزاده ولاية تاهرت فضمّها إلى عمله واتّسعت ولايته». والواقع أن تسميته واليًا على تاهرت قد تمّت بعد ذلك التاريخ بمدّة طويلة ، حسب المصادر الأخرى ، بما في ذلك تاريخ ابن خلدون ذاته ، انظر : العبَر ، 6/154.

65) وكان قد غادر عاصمته منذ أكثر من سنتين.

66) ابن حمّاد ، 37.

67) دائرة المعارف الإسلاميّة (2) ، 1/168 ؛ ابن حمّاد ، 38 ؛ البرير، 2/539 ، وحسب ابن خلدون (البرير، 3/211) فإن المنصور الذي عاد إلى إفريقية سنة 335هـ قد قام في آخر السنة بحملة عسكريّة ضدّ الفضل. وممّا لا شكّ فيه أن تلك الحملة قد تمّت في سنة 336هـ.

وكان من حكمة المنصور أن عفا عن أهل القيروان الذين كانوا قد تحالفوا مع «صاحب الحمار» وخفّف من المذهب الشيعي ووضع حدًّا للاضطهادات المسلّطة على أهل السنّة.

زيري بن مَناد من 336 إلى 343هـ / 948 – 955م :

لا نعرف بالضبط تفاصيل المعارك التي دارت فيما بعد بين المغراويّين، وقد انضمّ رئيسهم محمّد بن خزر من جديد إلى الأمويّين، وبين الصنهاجيين التابعين لزيري بن مناد[68]. وكلّ ما نعلمه أن الزناتيّين قد حاصروا مدينة أشير بقيادة المدعوّ كمات بن مَدْيَني الزناتي[69]. وفي أثناء أحد الاشتباكات العديدة – حسبما رواه النويري نقلاً عن ابن شدّاد، وهي رواية تكتسي طابعًا خرافيًّا واضحًا – انصرف زيري للهجوم على كمات وترك في أشير ابنه كبّاب الذي لم يبلغ آنذاك سنّ الرشد، بعدما أمره بعدم الخروج من المدينة. ولكنّ الصبيّ، لمّا سمع الصّياح وقرع الطبول، أسرع إلى القتال متنكّرًا وقتل كمات. وبعد ما قام كبّاب بهذه العملية البطوليّة التي لم تُعرَف إلا فيما بعد، قفل راجعًا إلى المدينة من نفس الباب الذي أطلق عليه اسم «باب كبّاب». وقد أعدم زيري عددًا كبيرًا من الزناتيّين الذين ساندوا كمات.

وإثر ذلك ثار المدعوّ سعيد بن يوسف في جبل الأوراس ضدّ الخليفة المنصور. فوجّه إليه زيري جيشًا عرمرمًا بقيادة ابنه بلكين. والتقى الفريقان في فحص أبي غزالة في ضواحي باغاية. فانتصر بلكّين على المتمرّد وقتله مع عدد كبير من أنصاره المنتمين في معظمهم إلى هوّارة وأرسل رؤوسهم إلى المنصور[70].

وحسب رواية أخرى[71]، توجّه المنصور على رأس جيش غفير إلى الأوراس لقمع الهوّاريّين الذين تجمّعوا ضدّه **بسفح غزالة**. ولمّا وصل الخليفة إلى الأربس، أمر بلكّين بالزحف على المتمرّدين وعاد إلى القيروان. فهزم بلكّين جنود العدوّ الذين تفرّقوا في الزاب وبعض المناطق الأخرى، ومنهم من فرّوا حتى إلى السّودان.

---

68) النويري، 2/107 – 108؛ **الكامل**، 8/246؛ **البربر**، 3/232 – 233.

69) حسبما رواه النويري.

70) **الكامل**، 8/246؛ النويري، 2/107 – 108.

71) ابن حمّاد، 40. لعلّ الأمر يتعلّق بحملة سنة 342هـ / 953 – 954م.

وفي آخر جمادى الأولى 341 هـ / منتصف أكتوبر 952م ، وصل إلى الأندلس خبرٌ مفاده أنّ زيري بن مَناد الذي يحكم تاهرت باسم الشيعي قد أوقع في الأسر سعيد بن خَزر أكبر رؤساء زناتة[72] . وليس من الثّابت أنّ زيري قد كان منذ ذلك العهد واليًا رسميًّا على تاهرت . ولكن من الممكن أن نستنتج من ذلك أنه كان في الواقع صاحب تلك المدينة بصورة أو بأخرى ، وأنه كان يحارب الزناتيّين بكلّ حزم.

وفي منسلخ شوّال 341 هـ / 19 مارس 953م توفّي المنصور ، تاركًا الملك لابنه أبي تميم معدّ المعروف باسم المعزّ لدين الله [الفاطميّ] الذائع الصّيت ، آخر ملوك بني عُبَيْد في إفريقيّة .

وبعد ذلك بقليل انضمّ يعلى بن محمّد اليفرني إلى الفاطميّين الذين خصّوه بحظوة بالغة . كما عاد إلى حظيرتهم المغراوي محمّد بن خزر وخدمهم بإخلاص إلى آخر حياته (350 هـ / 961 – 962م)[73] .

وحسبما رواه ابن خلدون[74] ، فإن أمير تنّس الإدريسي ، علي بن يحيى بن محمّد الذي هزمه زيري بن مَناد سنة 342 هـ / 953 – 954م قد التجأ إلى الخير بن محمّد بن خزر المغراوي ثمّ تحوّل لدى الناصر وظهر من جديد في المغرب الأوسط سنة 343 هـ / 954 – 955م[75] .

وقد قامت الجيوش الفاطميّة بعمليّات عسكريّة في جبل الأوراس سنة 342 هـ / 953 – 954م وأخضعت سكّانها بني كملان ومليلة وهوّارة . ومن المحتمل جدًّا أن يكون الصنهاجيّون قد شاركوا في هذه العمليّات[76] .

وفي السنة الموالية (343 هـ / 954 – 955م) استقدم المعزّ من أشير زيري بن مناد أمير صنهاجة الذي تسلّم منه هديّة ثمينة ثم رجع إلى مقرّ ولايته . ويبدو أنّ سبب هذه المقابلة راجع إلى الوضع السائد آنذاك بالمغرب الأقصى ، حيث تفاقمت قوّة يعلى بن محمّد اليفرني الموالي للخليفة الأموي الناصر وأصبحت تنذر بالخطر.

---

72) **البيان** ، 234/2 . ألم يكن هناك خلط بين سعيد بن يوسف وسعيد بن خزر؟

73) **البربر** ، 232/3 – 233 ؛ فورنال ، 308/2 ؛ **اسبانيا الإسلامية** ، 107/2 .

74) **البربر** ، 570/2 .

75) **البيان** ، 235/2 .

76) **الاتّعاظ** ، 134 ؛ **المؤنس** ، 60 – 61 ؛ **سيرة جوذر** ، 75 – 84 .

غزوة جوهر (347 هـ / 958م – 349 هـ / 960م) :

في صفر سنة 347 هـ / 24 أفريل – 22 ماي 958م قرّر المعزّ الذي كان مصمّمًا على إعادة نفوذه في المغرب الأقصى ، تكليف قائده جوهر بالتحوّل إلى تلك الربوع على رأس جيش عتيد ، وأوصاه بأن يصطحب معه أمير صنهاجة زيري بن مَناد عند مروره من المغرب الأوسط . والجدير بالملاحظة أن الفاطميّين لم يتدخّلوا في المغرب الأقصى بصورة مباشرة منذ غزوة سنة 336 هـ / 947م .

كما اصطحب جوهر معه جعفر بن حمدون الأندلسي والي المسيلة . ففزع المغراويّون وعلى رأسهم محمّد بن خزر وبنو يفرن ودخلوا في طاعة القائد الفاطمي ، وكذلك يعلى بن محمّد والي تاهرت وإفكان ، رغم أنه كان متقلّدًا لولاية المغرب الأوسط بأمر من الخليفة الأموي .

وفي إفكان (أو إفغان) رأى جوهر نفسه مضطرًّا إلى معاملة بني يفرن بقسوة ، لأنّهم لم يتردّدوا في نهب ساقة جيشه . فأمر باعتقال يعلى بن محمّد الذي قتله الجنود الكتاميّون . وقد دبّر زيري هذه العمليّة ليتخلّص من القائد اليفرني الخطير . ويظنّ الزناتيّون ، حسبما أكّده ابن خلدون ، أنه هو الذي ساهم في قتله . ومهما يكن من أمر فإن موقف يعلى بن محمّد لم يكن واضحًا وإن من حقّنا أن نتساءل هل صحيح أنه استسلم فعلاً لجوهر؟[78]

ثمّ حاصر القائد الفاطمي مدينة فاس التي كانت آنذاك في قبضة الوالي الموالي للأمويّين ، أحمد بن بكر بن الجذامي الذي أبدى مقاومة ناجحة . وإثر ذلك زحف جوهر على سجلماسة وافتكّها عنوةً من يدي محمّد بن الفتح بن واسول الذي تمّ القبض عليه .

وبعدما أخضع الجيش الفاطمي شمال المغرب الأقصى بأكمله تقريبًا ، حتّى سواحل المحيط الأطلسي ، زحف من جديد على مدينة فاس واقتحمها بعد حصار طويل ، بفضل

---

77) **العِبَر** ، 154/6 ؛ **الكامل** ، 207/8 ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 101/11 ؛ **المؤنس** ، 72 ؛ **البيان** ، 198/1 ، 222 – 223 ؛ البكري ، 151 ؛ فورنال ، 316/2 – 326 ؛ **تاريخ المغرب** ، 186/1 .

78) **العِبَر** ، 154/6 ؛ فورنال ، 321/2 . وقد فصّل هذا المؤلف رواية **روض القرطاس** المختلفة تمام الاختلاف عن رواية كل من ابن الأثير وابن خلدون ، ولذلك فهو يرى أن يعلى لم يستسلم إلى جوهر .

المناورة الحربيّة التي دبّرها زيري بن مَناد، وذلك في رمضان 348هـ/ 5 نوفمبر – 4 ديسمبر 956م[79].

وقد انتصر الأمير الصنهاجي الذي يقال إنه كان يقتسم القيادة مع جوهر، بعدما اقتحم المدينة ليلاً على حين غفلة متسلّقًا الأسوار الخارجية بواسطة السلالم، وقتل المدافعين عنها. وعندئذٍ نزل المغيرون متّجهين نحو الأسوار، ففتحوا أبواب المدينة وأوقدوا المشاعل ودقّوا الطبول. وعندما استمع جوهر إلى هذا الضجيج امتطى صهوة جواده ودخل فاس على رأس جيوشه[80]، وسقط أحمد بن بكر الجذامي بين أيدي المنتصرين.

وعندئذٍ احتلّ جوهر جميع الأراضي التي كانت خاضعة في القديم لميسور واستولى على كافة المدن ما عدا سبتة وطنجة. وأطرد الولاة الأمويّين وعوّضهم بولاة فاطميّين وألحق تاهرت بالأقاليم الخاضعة لسلطة زيري بن مَناد الذي صاحبه حتى إفريقية. ويمكن تحديد تاريخ وصول جوهر إلى المنصوريّة والمهديّة منتصرًا وهو يجرّ وراءه والي كلّ من سجلماسة وفاس السابقين، بشهر رجب 349هـ/ 27 أوت – 25 سبتمبر 960م[81].

المدن التي أسّسها بلكّين :

يشير ابن خلدون إلى أنّ زيري بن مَناد، بعد مدّة قليلة من تقلّده ولاية تاهرت، سمح لابنه بلكّين بتأسيس ثلاث مدن جديدة وهي الجزائر ومليانة ومدية[82]. ولعلّ الأمر يتعلّق

79) جاء في **البيان**، 198/1 خطأً ما يلي: «دخل بنو خزر وزناتة مدنية تيهرت ونزلوا دار الإمارة. ثم اضطرب أمر أهل تيهرت، وتغلّب عليها يعلى بن محمّد اليفرني الزناتي، إلى أن قدم جوهر قائد الشيعة سنة 349». وجاء في نفس الكتاب (ص 222) أن جوهر قد استولى على مدينة فاس سنة 347هـ/ 958 – 959م. والحقيقة ان احتلال هذه المدينة لم يتمّ إلا في سنة 348هـ. ثمّ عكس المؤلف تسلسل الأحداث فقال: بعدما استولى جوهر على فاس «توجّه إلى تيطوان، ووصل إلى مضيق سبتة، فلم يقدر عليها، ورجع عنها وقصد بعساكره إلى سجلماسة». انظر أيضًا: فورنال، 322/2، الإحالة 2.

80) القصة مفصّلة في **الكامل**، 207/8.

81) تاريخ إعدام محمّد بن الفتح حسب رواية ابن عذاري (**البيان**، 222/1) الذي لم يشر إلّا إلى الشهر. أما فورنال (326/2) فقد أشار إلى أن الحملة دامت من صفر 347 إلى شعبان 349. وحول الطواف بالرجلين في أسواق القيروان في قفصين، واعتقالهما بالمهديّة حيث لقيا حتفهما، انظر تفاصيل تلك القصة الطريفة في: «**المعزّ**» ص 33 (وقد نقلها السلاوي في **الاستقصاء**، 86 – 87). وجاء في **المفاخر**، أن جوهر التحق بالخليفة سنة 349هـ.

82) ابن خلدون: مدينة لمدونة، نسبة إلى بطن من بطون صنهاجة. ويشير فورنال إلى لقب «اللمدوني» الذي ما زال مستعملاً إلى الآن.

بتوسيع وتهيئة بعض التجمّعات السكّانية التي لم تبلغ بعدُ درجة المدن الكبرى، أكثر ممّا يتعلّق ببناء مدن جديدة من الأساس. ويبدو أنّ بلكّين قد أقام بمليانة[83].

وفي الأثناء كان زيري بن مناد المخلص للفاطميّين أكثر من أيّ وقت مضى، يقاتل المغراويّين بدون انقطاع[84].

إلّا أنّ الأمير المغراوي محمّد بن خزر الذي كان قد ساهم في حملة جوهر بالمغرب الأقصى قد ظلّ مخلصًا للمعزّ. ولكنّه توفّي في القيروان أثناء الزيارة التي أدّاها إليه سنة 350 هـ / 961 – 962 م.

وقد تعاظم النفوذ الفاطمي بالمغرب الأقصى، في الوقت الذي أصبح فيه النفوذ الأموي مقصورًا على إقليمَيْ سبتة وطنجة. وانضمّ قائد زناتة إلى محمّد بن الخير بن محمّد بن خزر، وأخذ في مناوشة المناطق التابعة للمعزّ لدين الله، بإيعاز من خليفة الناصر (المتوفّى سنة 350 هـ / 961م)، الحَكَم الثاني[85].

غزوة جوهر في المغرب (355 هـ / 965 – 966م)[86]
وفتح مصر (358 هـ / 969م) :

قبل أن يوجّه المعزّ قائده الأوّل لفتح مصر، كلّفه بالقيام بحملة عسكريّة أخرى في المغرب الأقصى لم يرد ذكرها إلّا في بعض المصادر وبصورة مقتضبة.

فقد انطلق جوهر سنة 355 هـ / 965 – 966م ورجع في آخر محرّم 358 هـ / 965 – 968م محمّلاً «بالقطائع» (المعاليم) الموظفة على البربر. ولم تذكر تلك المصادر هل أن الصنهاجيّين قد شاركوا في تلك الحملة، ولكنّ الأمر محتمل.

وفي شعبان 358 هـ / 20 جوان – 18 جويلية 969م، تمكّن جوهر من السيطرة على مصر.

---

83) البكري، 61 – 69.

84) **العِبَر**، 154/6 ؛ **تاريخ المغرب**، 186/1. وقد استعرض البكري على التوالي : تاهرت وحصن تاجحيلت (على بعد مرحلتين من تاهرت) الذي يُسكنه الزناتيّون بنو دمّار، وإيزمامة وهو حصن يسكنه اللواتة ونفزاوة ومدينة حاز؟ الواقعة على ضفاف نهر، وهي مدينة مهجورة، أجلى عنها أهلها زيري بن مَناد، وبورة، وهو نهر دائم السيلان يحيط به بنو برناتن الذين كانوا يقيمون سابقًا في مدينة هاز، وحصن موزية...

85) **مفاخر**، 5 – 6 ؛ **البربر**، 544/2 ؛ فورنال، 327/2، 334 – 335.

86) **البربر**، 546/2 ؛ ابن خلّكان، 102/2 ؛ فورنال، 338/2 – 339.

الثورة الزناتية الخارجية (358هـ / 968 – 969م)[87] :

في نفس الوقت الذي انتصر فيه المعزّ لدين الله في مصر، اندلعت في المغرب الأوسط ثورة أبي خزر الزناتي[88] الذي جمع تحت لوائه البربر والنكارية، وبعبارة أخرى العناصر الزناتيّة المنتمية إلى الخوارج. ويبدو أنّ الأمر كان على غاية من الخطورة، حيث تصدّى الخليفة بنفسه للعدوّ. فقد وصل إلى باغاية ولكنّ المتمرّدين تفرّقوا واعتصموا بالجبال، فأخذ في مطاردتهم[89]. ثمّ رجع إلى المنصوريّة بعدما كلّف بلكّين بمواصلة العمليّات الحربيّة. فالتحق ابن زيري بالعدوّ ولكن لم يُعْثَر له على أثر ولم يُسْمَع عنه أيّ شيء طوال عدّة شهور، إذ أنّه قد التجأ لدى «حاكم» نفوسة[90].

وفي آخر الأمر قدم القائد الخارجي في شهر ربيع الثاني 359هـ / 11 فيفري – 11 مارس 970م لتقديم شواهد الطاعة إلى المعزّ الذي عفا عنه ومنحه جراية. أما رفيقه القائد الأباضي أبو نوح، فقد وقع في الأسر واستنطقه المعزّ ثمّ عفا عنه بفضل وساطة بلكّين[91]. وقبل أن يتحوّل الخليفة إلى معاقبة أبي خزر، أمر الخصيّ جوذر[92] بالذهاب إلى المهديّة لإعداد تحويل الذخائر الفاطميّة الوفيرة إلى مصر. وعندئذٍ انتشرت في البلاد إشاعة مفادها أن المعزّ سيكلّف جوذر بخلافته في إفريقية.

فلمّا علم جوذر بهذا الخبر فزع وبادر بتوجيه خطاب إلى الخليفة ليعرب له عن رغبته في عدم الابتعاد عنه. فأجابه المعزّ بعبارات مؤثرة قائلاً له إنّه لا ينوي أبدًا التخلّي عن وزيره المخلص الذي اشتعل رأسه شيبًا في خدمة الله والخليفة ولا بدّ أن يكون حاضرًا ليشاهد ما منّ الله به من نِعَم على بني عُبَيْد، وأن يساهم في ذلك. على أنّه حتّى لو عيّنه نائبًا لأمير إفريقية، فكيف يتسنّى له الحصول على شواهد الإخلاص والمساعدة اللاّزمة للاضطلاع بمهمّته في مثل تلك البلاد التي عمّ فيها الفساد؟ إن الخليفة لم يتركه في المهديّة إلّا اعتبارًا

---

87) **البربر**، 548/2 – 549؛ **الكامل**، 236/8؛ الشمّاخي، 348 – 354، وهذا المصدر الإباضي الهامّ لا يتحدّث عن دور بلكين.

88) **الكامل**، المرجع السابق، والشمّاخي.

89) وحسب **سيرة جوذر**، 108 – 110، واصل الخليفة مسيرته حتى بسكرة.

90) وهو أبو زكرياء بن أبي عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور إلياس رئيس نفوسة فيما بين 60 و70 سنة. الشماخي، 318 – 322؛ ليفيشكي، **دراسات إباضية**، 50/1.

91) أبو زكرياء، الترجمة، 308.

92) **سيرة جوذر**، 108 – 109.

لقواه الخائرة ، إلّا أنّ الانفصال الذي لا مفرّ منه ، لو تمّ تعيين جوذر على رأس المغرب ، ربّما يودي بحياة الوزير. وعلى كلّ حال فإن الخليفة قد حرص على تمكينه من أداء مناسك الحجّ وزيارة قبر الرّسول ﷺ. وختم المعزّ رسالته المؤثّرة ، متمنّيًا أن يجد لخلافته في المغرب شخصًا آخر يتحلّى بمثل ما يتميّز به حبيبه جوذر من إخلاص ووفاء.

انتصار بلكّين على زناتة[93] :

لم يتأخّر الحكَم الثاني عن مواصلة السياسة الإفريقيّة التي انتهجها والده من قبله ، وذلك بالاعتماد على الزناتيّين ، وقد كان رئيسهم الأمير المغراوي محمّد بن الخير بن محمّد بن خزر يناوش أنصار الفاطميّين ، واستطاع إخضاع قسم كبير من أراضيهم الغربية وكانت مهمّة زيري تتمثّل في عرقلة هذا التوسّع المخطر وامتلاك أيّ شبر من الأرض يتمكّن من انتزاعه من أيدي العدوّ.

وتلقّى بلكّين من والده أو من المعزّ أو منهما معًا على الأرجح ، الإذن بالهجوم على زناتة على رأس الجيش الصنهاجي. وبفضل المعلومات التي قدّمها إليه أحد أنصار محمد بن الخير ، زحف على زناتة على حين غفلة يوم 15 ربيع الثاني 360 هـ / 15 فيفري 971م في ضواحي تلمسان بلا ريب[94]. وقد دارت المعركة لصالح الصنهاجيّين الذين أوقعوا في الأسر عددًا كبيرًا من خصومهم. وقد ترك الزناتيّون جثث سبعة عشر أميرًا من أمرائهم في ساحة الوغى التي تكدّست فيها عظام المغلوبين مدّة طويلة. أمّا محمّد بن الخير الذي أحاطت به مجموعة من جنوده ، فقد قتل نفسه بسيفه يوم 17 ربيع الثاني 360 هـ ، ووصل رأسه إلى المعزّ يوم 24 من نفس الشهر[95]. «فحلّ ذلك عند المعزّ محلاً عظيمًا وقعد للهناء به ثلاثة أيام»[96].

ووصل إلى القاهرة مبعوثون يحملون رأس محمّد بن الخير ورؤوس 3000 من الزناتيّين ، مع رسالة من المعزّ يعلن فيها عن هذا الانتصار الباهر. وقد قرئت الرسالة على منبر الجامع

---

93) **البيان** ، 259/2 ؛ **العبَر** ، 154/6 ؛ **الكامل** ، 243/8 ؛ ابن حوقل ، 107/1 ؛ **مفاخر** ، **الاتّعاظ** ، 180 ؛ فورنال ، 352/2.

94) ابن بسّام ، 1/1 – 405.

95) **الاتّعاظ** : «لثلاث بقين منه».

96) **الكامل** ، المرجع المذكور.

العتيق بالفسطاط[97].

وقد زادت هذه الهزيمة في نفوذ الخلافة الفاطميّة بالمناطق الغربيّة من المغرب وآلت إلى انضمام عدد كبير من القبائل إلى صفوف الفاطميّين. ولكنّ المغراويّين لم يعترفوا بهزيمتهم النهائية، فاجتمعوا من جديد حول الخير بن محمّد بن الخير نجل رئيسهم التعيس الحظّ.

الصراع بين جعفر بن علي وزيري بن مناد ووفاة هذا الأمير[98]:

كان من المفروض أن يطرح انصراف المعزّ إلى مصر في القريب العاجل موضوع اختيار خليفته في المغرب. الأمر الذي زاد في حدّة الصّراع بين المتنافسين الاثنين: جعفر بن علي وزيري بن مناد.

ولقد زاد الانتصار الذي أحرزه بلكّين منذ عهد قريب في نفوذ زيري بن مناد الذي ما فتئ يطارد الزناتيّين حتّى ضواحي المسيلة. ولم يرض عن هذه التدخّلات الصنهاجيّة جعفر بن علي والي الزاب والمسيلة، حيث كان يقيم مع أخيه يحيى، مظهرًا نفسه في مظهر الملك الحقيقي الذي مدحه الشاعر الفاطمي الذائع الصّيت ابن هاني[99].

ويقال إن زيري وابنه بلكّين قد كانا يحاولان تأليب الخليفة على جعفر بن علي، مذكّرين إياه بتواطؤ والي الزاب في وقت من الأوقات مع أمير مغراوة محمّد بن الخير[100]. ولعلّ المقصود بذلك أنّ أمير المسيلة عوض مساندة الصنهاجيّين قد شجّع الزناتيّين بصورة تزيد أو تنقص. ومهما يكن من أمر فإنه لم يكن له أيّ ضلع في انتصار الصنهاجيّين.

---

97) **الاتّعاظ**، 180 – 196.

98) النويري، 108/2 – 109؛ **العِبَر**، 154/6 – 155؛ **الكامل**، 247/8؛ **البيان**، 215/1، 257/2 – 260، 267/3 – 268؛ **مفاخر**، 6 – 7؛ ابن الأبّار، **الحلّة**، 305/1 – 306؛ ابن بسّام، 1/1، 404 – 405؛ ابن خلّكان، 113/1، 197؛ **المؤنس**، 72 – 73؛ **شذرات**، 29/3 – 30؛ البكري، 59؛ فورنال، 256/2، 352 – 355؛ **تاريخ المغرب**، 187/1؛ **إسبانيا الإسلامية**، 187/2 – 188؛ انظر بالخصوص الإحالة 1 في صفحة 187 حول ثلاث روايات لانضمام جعفر بن علي إلى الأمويين أوردها ابن حيّان في **المقتبس** حسب محمّد بن يوسف الورّاق وأبي جعفر بن الجزّار وعيسى الرّازي؛ **أعمال**، 453؛ **سيرة جوذر**، في مواضع مختلفة.

99) **البربر**، 555/2؛ ابن الصيرفي، 30 – 31. وفي هذا المصدر اسم والي الزاب هو جعفر بن حمدون المعروف بالأندلسي، وهناك إشارة مماثلة في ابن حمّاد، 12.

100) **البربر**، 555/2، 234/3.

ويكاد يكون من الثابت أنّ المعزّ كان يفكّر في جعفر بن علي بن حمدون لتكليفه على الأقلّ بولاية إفريقية. فقد أمر ببناء (أو بالأحرى بتهيئة) دار ابن رباح بالقيروان المعروفة باسم دار الإمارة. وشاع آنذاك خبرٌ مفاده أنّ ذلك المبنى معدّ لجعفر بن علي الذي سيُعيَّن واليًا على إفريقية، في حين ترجع ولاية بلاد المغرب بأسرها إلى زيري[101].

على أنه يحقّ للأوّل أن يتفاخر بانتسابه إلى أحد المساهمين في تأسيس الدولة الفاطميّة، وهوه علي بن حمدون الجذامي أصيل اليمن، ذلك البلد الذي كان أكبر مركز من مراكز الإسماعيلية. وكان قد طلب عدّة مرّات ولكن بدون جدوى، على غرار الشخصيّة الثالثة في الدولة، جوذر الخصيّ، الحصول على رتبة من أعلى الرتب الإسماعيلية ألا وهي رتبة «الباب»[102].

ومن ناحية أخرى، ألم يكن جعفر شقيق المعزّ من الرّضاع ومحسوب القائد القويّ النفوذ جوذر الذي كان قد كلّفه الخليفة القائم بتربيته؟

ومع ذلك فإن **ديوان** ابن هاني و**سيرة جوذر** قد برّرا، بل ربّما أيّدا، مناورات زيري وبلكّين لتأليب الخليفة على والي المسيلة.

ولا ندري بالضبط متى نظم ابن هاني تلك القصيدة التي مدح بها جعفر[103] وختمها بدعوته إلى عدم خيانة الثقة الموضوعة فيه والبقاء على الوفاء لأسرة بني عُبَيْد التي تعرف كيف تعفو عند المقدرة.

ويدلّ المصدران المذكوران على أنّ الأمويّين قد كانت لهم جواسيس في المسيلة، مثل ذلك الجاسوس المدعوّ عثمان بن أمين الذي لم يتّخذ جعفر أيّ إجراء ضدّه، بل امتنع حتى عن إعلام جوذر بوجوده بالمسيلة. وعندما علم جوذر بالأمر أخبر بذلك الخليفة الذي كان على علم من قبل بالرعاية التي كان يحظى بها ذلك الشخص في المسيلة، حيث كان ابن الرمّاحة لا يتردّد في تلبية رغباته والاعتناء بممتلكاته. فأمر الخليفة عونه الأمين جوذر بمكاتبة الوالي لاستفساره حول هذا الموضوع[104].

---

101) النويري، 108/2؛ وفي **المؤنس**، 72: «شاع بين الناس أن المعزّ يريد أن يستخلف يوسف بن زيري على جميع بلاد إفريقية»؛ **أعمال**، 45⁵، كان جعفر يرغب في ولاية إفريقية والمغرب. وحول الإشاعة المتعلقة باحتمال تعيين الخصيّ جوذر، انظر: **سيرة جوذر**، 108 – 109.

102) نفس المرجع، 74 – 75.

103) **ديوان** ابن هاني، طبعة القاهرة 1352 هـ، رقم 28، البيتان 34 – 35.

104) **سيرة جوذر**، 123 – 124.

كما ندّد ابن هاني في إحدى قصائده بكاتب جعفر المسمّى أحمد الوهراني المناصر للأمويّين ، الذي خان الإمام والإسلام ، مناشدًا إيّاه بالكفّ عن هذا التأثير الضارّ الذي من شأنه تعريض المنطقة للخراب[105] .

ومن ناحية أخرى لم يكن المعزّ راضيًا عن تصرّفات جعفر الذي لم يكن مجبورًا بوصفه واليًا ذا سلطة مطلقة على دفع مبلغ معيّن لبيت المال . وقد نصحه جوذر بقبول الاقتراحات المتعلقة بإقطاع ضرائب المسيلة والزاب لفائدة الخلافة ، والاكتفاء بمبلغ 70000 دينار في السنة . وهذا يعني حرمان جعفر من صلاحيّته الجبائية وتمكينه من مرتّب سنويّ ثابت . وأحال جوذر إلى المعزّ رسالة يبيّن فيها جعفر حجم المداخيل التي ستنفق قريبًا في أغراض أخرى ، منبّهًا إلى أنه لا يستطيع أن يضيف إلى الفائض االذي كان يدفعه لبيت المال سوى مبلغ طفيف . وحرصًا من الخليفة على عدم سحب ثقته من جعفر ، لكي لا يرضي خصوم الوالي ، رفض عزله رغم نصائح جوذر ، واكتفى بتوجيه إنذار إليه[106] .

وردًّا على الرسالة التي وجّهها إليه جوذر لدعوته إلى بذل المزيد من المال لإرضاء الخليفة الذي كان ناقمًا عليه ، وعد جعفر بأنه سيحاول تلبية هذا الطلب ، ملاحظًا أنّه كان ضحيّة بعض الوشاة (لعلّه يقصد بلكّين؟) ومؤكّدًا أنّ مقاطعته غير قادرة على تسديد المبلغ المطلوب . وقد ذكّره الخليفة بأن عليّ بن حمدون ، بالرّغم ممّا أدّاه إلى الفاطميّين من خدمات جليلة لم يتمتّع بنفس الحظوة التي يتمتّع بها ابنه . فيتعيّن حينئذٍ على جعفر أن يحاول عدم إثبات التّهم الموجّهة إليه حتى لا يكون المعزّ مضطرًّا إلى عزله[107] .

وأخيرًا استدعى المعزّ في وقت غير محدّد بلكّين بن زيري وجعفر بن علي لإصلاح ذات البين بينهما . وقد جرت المقابلة الصاخبة بدون حضور شهود ، حيث اعتذر جوذر عن الحضور ، بالنظر لا محالة إلى العلاقات القائمة بينه وبين بني حمدون . والجدير بالملاحظة أنّ المعزّ قد أجاب على رسالة أعرب فيها جوذر عن سروره بتصالح الخصمين ، مشيرًا إلى ما كان عليه أن يتحلّى به من رباطة جأش لتحمّل تجاوزاتهما ، وموصيًا جوذر بأن يطلب إلى

---

105) **ديوان ابن هاني** ، رقم 29 .

106) **سيرة جوذر** ، 129 – 132 ؛ كنار : «عائلة متحزّبين» ، تحيّة جورج مارسي ، 46/2 : بعدما رأى المؤلف أنّ جعفر بن علي المذكور في **سيرة جوذر** (131 – 133) هو جعفر بن علي بن حمدون ، اهتدى في آخر الأمر بحقّ إلى أن المعني بالأمر هو جعفر بن علي بن أبي الحسين الكلبي .

107) **سيرة جوذر** ، 140 – 141 ، رقم 38 وجّه جعفر إلى الخليفة مباشرة خطابًا آخر لا نعرف محتواه .

محسوبه الوفاء بتعهّداته وطاعة الإمام[108].

وباختصار، فقد قيل إن جعفر كان طامعًا في أن يكون الرئيس الأوحد لبلاد المغرب بأسرها. وحينما استدعاه الخليفة، ربّما ليعهد إليه بولاية إفريقيّة[109]، فضّل الاحتراس ولم يُلبِّ الدعوة[110]. فاستدعاه مرّة ثانية وأوفد إليه فرج الفتى. ولكنّه غادر المسيلة عندما كان المبعوث على بعد مرحلة من تلك المدينة، متعلّلاً بالتحوّل إلى المنصوريّة للالتحاق بالخليفة، وذلك في جمادى الثانية سنة 360 هـ/ أفريل 971م[111]، واصطحب معه جنوده وعائلته وعبيده وجميع ذخائره، وكان مرفوقًا أيضًا بشقيقه يحيى.

وبدعوى مناهضة زيري له، التحق بالزناتيّين وتحالف معهم ودخل في طاعة الأمويّين بالأندلس.

ولمّا وصل فرج إلى المسيلة أُحيطَ علمًا بانفصال جعفر بن علي. وقد خصّه الزناتيّون بحسن القبول واختاروه قائدًا عليهم. وبذلك فقد أخذ بنو خزر بثأر والدهم محمّد بن الخير.

واعتبارًا من شهر رمضان 360 هـ/ 28 جوان – 27 جويلية 971م انطلق زيري بن مناد على رأس جيش عتيد مكوّن من الصنهاجيّين وبعض العناصر الأخرى للتصدّي للتّحالف على حين غرّة قبل أن يجد المتحالفون الوقت الكافي لتنظيم صفوفهم. فهزمه أمير مغراوة الخير بن محمّد وجعفر بن علي شرّ هزيمة. وفي أوج المعركة، بينما كان زيري يثير حماس فرسانه، إذ كبا به جواده فسقط إلى الأرض وقُتل. وقد دارت رحى تلك المعركة حول أسوار تاهرت[112].

وبادر جعفر إلى توجيه رسالة إلى الحَكَم[113]، ثمّ تحوّل المنتصرون بحذر نحو السواحل المقابلة للأندلس. وفي يوم 5 شوّال 360 هـ/ أوّل أوت 971م نزل في ميناء بشينة وفدٌ

108) نفس المرجع، 100–101؛ كنار، المرجع المذكور، 45. لعلّ هذه المقابلة كانت أساس رواية المقريزي؛ **الاتّعاظ**، 142–143.

109) **العِبَر**، 154/6.

110) لقد أورد كاترمير في الفصل المنشور بالمجلة الآسيوية (1837، 87 – 89) «ترجمة المعزّ»، رواية شبه خرافية مقتبسة من كتاب **المقفّى** للمقريزي حول الزيارة التي أدّاها جعفر بن علي إلى المعزّ بسردانية في شوّال 361 هـ والكلمات المنسوبة إلى الشخصين.

111) **مفاخر**.

112) **البيان**، 257/2. وفي رواية ابن حيّان التي نقلها ابن بسّام، 405/2، أطلق على هذه المعركة اسم يوم قرض، وهو اسم مكان لم نتمكّن من تعريفه.

113) حول الشخص المكلّف بإبلاغ الرسالة. انظر المعلومات المشكوك فيها الواردة في **البيان**، 258/2.

متركّب من رؤساء مغراوة مصحوبين بشقيق جعفر بن علي ، يحيى المكلّف بتسليم رأس زيري إلى الخليفة الأموي(114) . فأهدى الحَكَم إلى الزناتيّين هدايا من الفضّة وخلع عليهم ورخّص لجعفر باجتياز البحر. وسرعان ما خشي والي الزاب السابق أن يخونه حلفاؤه ، كما خاف من ردود فعل بلكّين التي لا مناص منها(115) . فتحوّل إلى الأندلس حيث نزل في بزليانة حوالي 11 ذي القعدة 360 هـ / 5 سبتمبر 971 م ، فاستقبله محمد بن أبي عامر وشقيقه يحيى وسير به في موكب بهيج إلى قرطبة . وفي يوم 25 ذي القعدة 360 هـ / 19 سبتمبر 971 م(116) خصّ الخليفة الأموي المغاربة باستقبال حارّ في مدينة الزهراء .

وفي الجملة فقد كان زيري بن مناد أميرًا ذا سلوك حسن تجاه الشعب والتجّار ، ولكنّه أمسك البربر بيد من حديد وبسط سلطانه على مدينة أشير التي أسّسها هو نفسه ، وعلى الإقليمين اللّذين أسندهما إليه المنصور ، وهما منطقتا تاهرت وباغاية . وكان جميع أبنائه الذين يربو عددهم على المائة ، كرماء وفرسانًا صناديد ، وكان أبوهم قد عهد إليهم بالقيام بعدّة حملات عسكريّة(117) .

(114) **البيان** ، 2/259 – 260 ؛ **إسبانيا الإسلامية** ، 2/188 ؛ **مفاخر** ، 7 .

(115) وأضاف النويري أن الزناتيّين قد تأسّفوا لوفاة زيري ، وهو تأكيد غريب يدلّ لا محالة على أنهم كانوا يخشون انتقام بلكين الذي سوف لا يتأخّر.

(116) النويري ، 2/106 ؛ **مفاخر** ، 7 – 8 ؛ **البيان** ، 2/260 ؛ فورنال ، 2/355 ؛ **البربر** ، 2/555 ؛ ابن الأبار ، **الحلّة** ، 305 – 307 ؛ **إسبانيا الإسلاميّة** ، 2/195 – 196 ، 260 – 262 ، 3/375. وقد عهد إليهم الحكم الثاني بولاية المناطق التابعة إليه بالمغرب ، وذلك سنة 365 هـ / 975 – 976 م . وقد أُعْدِمَ جعفر في 3 شعبان 372 هـ / 21 جانفي 983 م . واضطرّ يحيى في آخر الأمر إلى التحوّل إلى مصر لدى الخليفة العزيز.

(117) النويري ، 2/109 : يبدو أن هذا الوصف ، كغيره من الأوصاف الأخرى المفتقرة إلى الأصالة ، هو من وضع أحد المؤرّخين الرسميّين. وحسب إشارة أوردها النويري (ويبدو أنها مقتبسة من ابن شدّاد) وهي واردة أيضًا في أغلب المصادر ، فإن مدّة إمارة زيري قد بلغت 26 سنة عند وفاته في سنة 360 هـ / 971 م ، وهذا يتطابق ، بفرق سنة واحدة ، مع تاريخ تقليده الإمارة من طرف المنصور في سنة 336 هـ / 947 – 948 م .

الفصل الرّابع
بلكّين بن زيري

حملة بلكّين ضدّ زناتة (361 هـ / 971 – 972م)[1] :

إثر وفاة زيري انتقلت قيادة صنهاجة بدون صعوبة إلى ابنه بلكّين الذي كان موجودًا آنذاك بأشير. وسعيًا إلى الأخذ بثأر أبيه ، وبأمر من المعزّ الذي أمدّه بالرجال والعتاد ورخّص له في الاحتفاظ بالمناطق التي سيستولي عليها ، جنّد بلكّين قوّات غفيرة ، ولم يصطحب معه أيّ واحد من الذين كانوا حاضرين عندما لقي والده حتفه ، باستثناء ثلاثة أشخاص فقط . وذلك لأنّه كان يعتبر لا محالة أنّهم قد تخاذلوا عندما تركوا أميرهم يموت ، دون أن يضحّوا بأنفسهم في سبيله .

وقد أسرع إلى القتال منذ أواخر سنة 360 هـ / خريف 971م ، حسب الأرجح[2] مصرّحًا بأنه سوف لا يترك أيّ مهلة للعدوّ . فبادر بتطهير ضواحي طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة[3] ، حيث قضى على زناتة ومزاتة وهوّارة ونفزة وغيرهم من البربر ، إلى أن وصل إلى تاهرت وأعلن أنه سوف لا يمنح الأمان لأيّ بربري حيثما وُجِدَ ، سواء كان من الفرسان أو من مربّي الخيول .

ولمّا استولى على المغرب الأوسط بأسره ، أجلى زناتة إلى ما وراء نهر الملوية وجدّ في مطاردة الأمير المغراوي خير بن محمّد بن الخير ، إلى أن وصل إلى سجلماسة ، ففزع أميرها المدراري ودخل في طاعة الفاطميّين. وأخيرًا التحق بالجيش الزناتي ، فشتّت شمله وقبض على الخير بن محمّد وأعدمه[4] .

---

1) النويري ، 2/109 – 110 ، العِبَر ، 6/155 ، الكامل ، 8/247 ، مفاخر ، 8 ، أعمال ، 453 ، المؤنس ، 73 ، فورنال ، 2/355 – 357 ، اسبانيا الإسلامية ، 2/188 – 189 .

2) أغلب المصادر تذكر سنة 361 هـ. وهناك مصدر واحد (مفاخر) ينصّ على أوائل 361 هـ. إلاّ أنّ رسالة المعزّ المؤرّخة في محرّم 361 هـ / 24 أكتوبر - 22 نوفمبر 971م ، التي لا شكّ أنّها صدرت بعد رجوع بلكّين إلى أشير ، تضطرّنا إلى تأخير بداية العمليّات الحربية إلى آخر سنة 360 هـ

3) ويضيف كتاب المفاخر ، 8 إلى تلك القائمة : غاية إثر غلطة تاريخيّة أو خلط ممكن الوقوع بين غاية ومحّانة .

4) انظر حول قضيّة خلافة أمير زناتة المنشقّة ، بالخصوص ، فورنال ، 2/356 – 357 والإحالات .

ومكث في ساحة الوغى ثلاثة أيام. ولمّا اشتكى الصنهاجيّون من رائحة الجثث، قيل أنه «أمر أن يجعل القدور على رؤوسهم ويطبخ فيها»[5]. وقد كُدِّست الجثث وصعد عليها المؤذّنون للنّداء إلى الصّلاة.

ومن المحتمل أن تكون عدّة قبائل، ومنها بالخصوص مكناسة، قد انضمّت إثر تلك المعركة إلى بني زيري.

وبعدما أخذ بلكّين بثأر أبيه وطهّر المغرب الأوسط لمدّة طويلة من الزناتيّين، قفل راجعًا إلى أشير بلا شكّ في أوائل سنة 361 هـ / آخر أكتوبر 971م. وقد أثلجت هذه الحملة الساحقة صدر الخليفة الذي جازى الأمير المنتصر على الزناتيّين، بأن وهبه إقطاع المسيلة والزاب الذي كان تحت تصرّف جعفر بن علي.

وبعد ذلك بقليل أي في محرّم 361 هـ / 24 أكتوبر – 22 نوفمبر 971م، استدعى المعزّ بلكّين لمقابلته وأمره بوقف جميع العمليّات الحربية وحسن معاملة الزناتيّين، وطلب إليه أن يرجع إليهم ما سبى من نسائهم وأطفالهم. فامتثل ابن زيري لهذه الأوامر وأطلق سبيل الأسرى وتأهّب للالتحاق بمولاه. ولا شكّ أن الخليفة كان حريصًا في تلك الساعة الحَرِجة على أن يكرّس الصنهاجيّون جهودهم لاستتباب الأمن في إفريقيّة، عوض صرفها في مقاومة الزناتيّين الذين تكسّرت شوكتهم.

وقبل الانصراف اختار بلكّين من بين عبيده عمّالاً للمدن الراجعة إليه بالنظر وهي تاهرت وأشير والمسيلة وبسكرة وطبنة وباغاية ومجّانة. وحسبما ورد في كتاب متأخّر من كتب الأخبار القليلة القيمة: فقد نفذت كتبه إلى عمّاله: «من يوسف بن زيري خليفة السّلطان»[6] ولعلّ الأمر يتعلّق بنصّ محرّف. «ولمّا وصل إلى المعزّ جلس له في الإيوان وأدخل عليه فقبّله وتحدّث معه وشكر أفعاله وقلّده سيفه وخلع عليه خلعة من لباسه وقاد بين يديه أربعين فرسًا بسروج الذهب المثقلة وأربعين تختًا بالثياب الفاخرة وخلع على جميع أصحابه وأكرمهم غاية الإكرام»[7]. ومن المحتمل أن تكون هذه الرّواية هي أيضًا محرّفة. على أنه لا يُستبعد أن يكون الخليفة الفاطمي قد قصد بهذا الاستقبال الرّائع، التعبير عن نيّته في تكليف بلكّين بخلافته في المغرب. وعلى كلّ حال فإن كلّ هذا التكريم الذي هو

5) [ابن الأثير، **الكامل**].

6) **المؤنس**، 73.

7) نفس المرجع.

عبارة عن عمليّة تنصيب تمهيديّة، قد أثارت حسد الكتاميّين الذين أبدوا ملاحظات إلى الخليفة بدون جدوى. ولمّا عزم المعزّ على الرحيل إلى مصر قدّم إليه بلكّين «ألْفَي جمل من إبل زناتة لحمل ماله بالقصور من الذخائر»[8].

* * *

إنّ أهمّ حدث شهده المغرب خلال نصف القرن المنتهي وستكون له أخطر العواقب في المستقبل، يتمثّل في ظهور قوّة جديدة أثناء الصّراع بين الفاطميّين والأمويّين، ألا وهي قوّة الصنهاجيّين التكلاتة الذين سرعان ما عوّضوا المكناسيّين، باعتبارهم أكبر المناصرين للقضيّة الفاطمية. وقد تبيّن أن هذه القوّة الثابتة تعتبر سدًّا منيعًا في وجه التحرّك الزناتي. ويمكن أن نتابع على خريطة توسّعها من الغرْب إلى الشرق، أو على الأقلّ محاور تمركزها في المغرب الأوسط : قلعة مناد وأشير زيري ومدن بلكّين الثلاث : الجزائر ومليانة ومدية. وهي قوّة حَضَريّة على غرار قوّة الكتاميّين، ولكن خلافًا للقوّة الأخيرة، فهي متجذّرة في أرضها ذاتها. وقد سنحت لها ثورة أبي يزيد الفرصة للظهور بإفريقيّة والإسهام في إنقاذ الدولة الفاطميّة في فترة حاسمة من حياتها. كما خوّلت لها خيانة بني حمدون الفرصة للقضاء على منافستهم المحرجة وتقويض الحاجز الذي كان يمثّل عقبة في طريقها نحو الشرق. وها هي الآن تهيمن على تاهرت وباغاية والمسيلة والزاب!

وحينما تدقّ ساعة الرحيل إلى مصر التي ينتظرها الفاطميّون بفارغ صبر، أليست هي المؤهّلة قبل غيرها لتحكم باسمهم بلاد المغرب التي سيغادرونها بدون رجعة، ولتحلّ محلّ الكتاميّين الذين سيحتاج إليهم بنو عُبَيْد لتحقيق رغبتهم في الهيمنة على المشرق؟

8) [الاتّعاظ، 144].

الباب الثاني

إزدهار الدّولة الصّنهاجيّة
ملوك بني زيري الثّلاثة الأوّل
بلكّين والمنصور وباديس

نظرة عامّة

خلال ما يناهز نصف القرن من سنة 361 إلى سنة 406 هـ / 792 – 1016 م، توالى على الحكم ملوك بني زيري الثلاثة الأوائل : **بلكّين** (361 – 373 هـ / 972 – 984 م) **والمنصور** (373 – 386 هـ / 984 – 996 م) **وباديس** (386 – 406 هـ / 996 – 1016 م) وقد حكم كلّ من الأوّل والثاني حوالي عشر سنوات وحكم الثالث حوالي عشرين سنة واجتهدوا في مواصلة تثبيت دعائم الدولة الفتيّة على نحوٍ لافتٍ للنظر، محاولين إيجاد الحلول الملائمة للمشاكل الجوهرية التي تعترض سبيلهم.

وقد حرص بلكّين رئيس صنهاجة وملك أشير على وجه الخصوص، باعتباره الخادم الأمين للخليفة الفاطمي، على نصرة القضيّة الفاطميّة ضدّ الزناتيّين الموالين للأمويّين في المغرب الأقصى، حيث قام بعمليّات حربيّة متتالية، بينما كان مخدومه منشغل البال بمثل ذلك الإسراف في القوات اللازمة والمجدية أكثر في المغرب الأوسط الذي هجره الكتاميّون. فقد اندفع بلكّين نحو الغرب بشبه سرعة مكتسبة، محاولاً في آن واحد تحقيق التوسّع الذي كان يحلم به أسياده في السّابق وإشفاء غليل حقدٍ قَبَلي قديم مرتكز على النّزاع العريق القائم بين البدو الرُّحَّل وبين الحَضَر.

ولكي يتمكّن من حريّة التصرّف في الجهة الشرقيّة، عهد بولاية إفريقيّة التي تمثّل المقابل الخطير واللاّزم لما اختار القيام به من أعمال، إلى أحد أبناء تلك البلاد، الذي

سرعان ما تحوّل إلى طاغية، بعد ما أزاح منافسه الأوّل الذي كان ينتمي إلى سلك كبار رجال الدولة الفاطميّة.

ويبدو أنّ هذا الشخص الطّموح، قد تقرّب في أوّل الأمر من المذهب المالكي المناهض للشيعة والكتاميّين، ولكنّه لمّا نال مرغوبه انتصب خادمًا مطيعًا للخليفة الفاطمي.

أمّا المنصور، فقد استهلّ عهده بالتفكير في القيام بحملة عسكريّة جديدة ضد الزناتيّين في الجهة الغربيّة، ولكنه بعدما مُنِيَ بالخيبة عدل عن تحقيق مشروعه. أفلم يكن التوسّع الصنهاجي منذ البداية مُوَجَّهًا حَتْمًا نحو إفريقية؟ ومن ناحية أخرى فإنّ السلطة شبه المطلقة التي يتمتّع بها ممثّل الخليفة المشرف على تلك المنطقة باسم ابن زيري لا محالة، ألا تمثّل خطرًا جسيمًا بالنسبة إلى السلطة الأميرية؟ وقد بلغ السّيل الزبى عندما أُجْبِرَ زعماء صنهاجة، بمن فيهم المنصور هو نفسه، رغم انتسابهم رسميًّا إلى المذهب الشيعي، على مبايعة ممثّلهم في إفريقيّة الذي ارتقى إلى أعلى رتبة من المراتب الإسماعيليّة. وعند ذلك عزله المنصور وعيّن شخصًا آخر مكانه، دون أن يتعرّض لأدنى تأنيب من قِبَل الخليفة. ولا يكفي لتفسير عدم ردود فعل المعزّ، قلّة اهتمامه أكثر فأكثر بشؤون المغرب. فالواقع أنّه كان يعوّل حسب الاحتمال على نجاح الثورة الكتامية الرهيبة التي لا شكّ أنّه هو الذي دبّرها، وقد حمي وطيسها منذ عهد قريب. ولكنّ المنصور قد قمعها بسرعة وأخضع لسلطته منطقة القبائل الصغرى الأبيّة.

ويُعتبَر إعدام الدّاعي عبد الله بن محمّد الكاتب وإخضاع كتامة، من الإشارات الدّالة على استقلالية إفريقية في المستقبل. ذلك أنّ سلطة المنصور التي خرجت منتصرة من هذا الامتحان العصيب، لم تلبث أن تعزّزت بانضمام عدّة مجموعات زناتية إلى بني زيري، مقيمة الدليل على حكمة السياسة المتّبعة في هذا المضمار والمتماشية مع تطوّرات الحتميّة التاريخيّة.

وقد عكّرت صَفْوَ نهاية عهد المنصور ثورةُ عمّه أبي البهار الذي اعتمد، كما كان مُنْتَظَرًا، على المغراويّين والأمويّين، ولكنّ الأمير لم يفارق الحياة الدنيا حتّى أخمد تلك الثورة التي كانت هي أيضًا مفعمة بالعِبَر. أَفَلا يُخْشى من تقدّم الصنهاجيّين نحو الشرق انفصالهم عن نقطة انطلاقهم الأولى وعزلهم عن مكان نشأتهم حيث يستطيع طموح أحد أقاربهم بعث دولة مستقلّة هناك؟ أفلا يمثّل ذلك الانفصال إشارة تنبئ باحتمال حصول انقسام مريع في صفوفهم؟ إن إحباط تمرّد أبي البهار قد أقرّ إزاحة الصنهاجيّين من المغرب الأقصى الذي سقط بين أيدي المغراويّين الموالين للأمويّين، برئاسة زعيمهم زيري بن عطيّة.

ورغم صغر سنّه، فقد ظهر باديس من أوّل وهلة بمظهر الملك القويّ النفوذ. وهو أيضًا

قد عهد بولاية إفريقيّة إلى أمير مساعد من أصل عربي. كما كان في الظاهر أكثر ولاءًا من سلفه للخليفة الفاطمي الذي لم يُثِر في وجهه أي مشكل، ما عدا التدخّل في طرابلس، على أنّ ذلك التدخّل قد كان متبوعًا، والحقّ يقال، بضمّ برقة إلى الأقاليم التابعة لبني زيري.

وكلّ ما كان يخشاه باديس هو قيام حملة زناتية قويّة تنطلق من تاهرت وتزحف عبر المغرب الأوسط إلى أن تصل إلى طرابلس. وهذا ما وقع بالفعل، فقد شنّ زيري بن عطية ورجاله المغراويّون منذ سنة 389هـ / 998 – 999م، تلك الحملة المتوقّعة التي تصدّى لها عمّا الأمير يطّوفت والي تاهرت وحمّاد والي أشير، ولكنّهما لم يتمكّنا من إيقاف تقدّمها. فهبّ باديس لنجدتهما، إلاّ أنّه أُجبِرَ على التصدّي لخطرَيْن آخرين، وهما الثورة الزناتيّة بالمغرب الأقصى بقيادة فلفل بن سعيد والي طبنة وثورة أعمامه الذين انضمّوا إلى المتمرّد. وانتهز زيري بن عطيّة تلك الفرصة ليستولي على منطقة شاسعة ويعلن عن ولائه للأمويّين، بعدما حاصر مدينة أشير. فاستسلم إليه زاوي بن زيري في حين أعلن أبو البهار عن ولائه للأمويّين هو أيضًا. ومن حسن الحظّ، فقد هزم باديس فلفل بن سعيد هزيمة نكراء، بعدما أحرز هذا الأخير نجاحًا باهرًا أثار الفزع في القيروان ذاتها. فانسحب زيري بن عطية وأعمام الأمير باديس إلى الغرب، ما عدا ماكسن الذي بقي إلى جانب فلفل بن سعيد. وأخيرًا فرّ فلفل إلى الصحراء وقُتِل ماكسن ولقي زيري بن عطيّة حتفه. فرجع الوضع إلى سالف عهده بفضل حمّاد على وجه الخصوص، ثم تعكّر من جديد إثر قيام حملة عسكريّة زناتيّة مضادّة، وتمكّن حمّاد من صدّها ابتداء من سنة 395هـ / 1004 – 1005م. وبعدما أعاد الأمن إلى نصابه في المغرب الأوسط وأجلى الزناتيّين إلى المغرب الأقصى، أسّس مدينة القلعة سنة 398هـ / 1007 – 1008م.

وعندئذٍ انتهز فلفل بن سعيد فرصة الوضع الغامض الذي كان سائدًا آنذاك في الجنوب الشرقي من إفريقيّة لإثارة الشغب من جديد والاستيلاء على طرابلس. وقبل وفاته تمكّن باديس من تحييد الزناتيّين بواسطة بعض التنازلات. ولكنّ ذلك لم يكن سوى فترة هدوء عابرة سرعان ما تلتها ثورة ورّو بن سعيد. فلم ينتهز الزناتيّون المقيمون في جنوب إفريقية، فرصة التضليل التي وفّرتها ثورة حمّاد، وبالخصوص لم يضعوا حدًّا لاختلافاتهم، ففقدوا حماسهم شيئًا فشيئًا.

وانتهى عهد باديس بحادثين اثنين سيكون لهما بالغ الأثر في المستقبل: ألا وهما ثورة حمّاد في المغرب الأوسط والاضطرابات الأولى المضادّة للشيعة التي اندلعت في إفريقيّة. وقد انجرّ عن ذلك انبعاث مملكة بني حمّاد وقطع العلاقات مع القاهرة في عهد المعزّ بن باديس.

الفصل الأوّل
ولاية بلكّين
(362 – 373 هـ/972 – 984م)

رحيل المعزّ إلى مصر وتولية بلكّين[1] :

قبل أن يتحوّل المعزّ نهائيًّا إلى مصر، أقام معسكره خارج المنصوريّة، وبعدما أتمّ جميع الاستعدادات، توجّه إلى سردانية[1م] يوم الاثنين 21 شوّال 361هـ/ 5 أوت 972[2]، صحبة بلكّين. وهناك جرى موكب التقليد الرسمي يوم الأربعاء 20 ذو الحجّة 361هـ/ 2 أكتوبر 972م[3].

وإنّ ما قدّمه بلكّين ووالده من خدمات جليلة إلى الدولة، ليكفي وحده لتبرير هذا الاختيار الذي لا جدال فيه، لا سيما بعد خيانة جعفر بن علي بن حمدون[4]. ومع ذلك

1) النويري، 101/2، 110 – 111؛ **الكامل**، 244/8 – 247؛ **العبر**، 155/6؛ **البيان**، 228/1، 263/3؛ ابن خلّكان، 93/1؛ **شذرات**، 53/3 – 54، 80 – 81؛ **رحلة التجاني**، 12 – 14؛ **تاريخ** أبي الفداء، 112/2؛ **المؤنس**، 62 – 64؛ الشماخي، 354 – 355؛ **أعمال**، 451 – 453؛ **نجوم**، 72/4؛ **حسن المحاضرة**، 13/2؛ **الاتعاظ**، 142 – 145، 186؛ **الخطط**، 165/2؛ المقريزي، **كتاب السلوك**، استعمله كاترمير في «**حياة المعزّ**»، المجلة الآسيويّة 1837، 75 – 90؛ **فورنال**، 358/2 – 368؛ **ستوريا**، 273/2 – 274، 329 – 339؛ دائرة المعارف الإسلاميّة، 812/1، بلكّين (روني باسي)، و1349/1 (الطبعة الثانية)، الهادي روجي إدريس.

1م) [سردانية قرية قريبة من القيروان].

2) تشير أدقّ المصادر وأوثقها إلى التاريخ التالي: «لثمان بقين من شوّال»، ويشتمل هذا الشهر على 29 يومًا. فورنال، 360/2، الإحالة 2؛ **الاتعاظ**، 144، 186؛ لا شكّ أنّ العبارة الواردة في «**الشذرات**» (53/3 – 54) محرّفة، وكذلك العبارة الواردة في المخطوط المُعْتَمَد من طرف كاترمير الذي قرأ: «يوم 22».

3) حسبما جاء في «**الاتعاظ**»: يوم الأربعاء لتسع بقين من ذي الحجّة، لا يوم الجمعة 22 كما اقترح ذلك فورنال، 361/2 والإحالة 1. وفي المصادر الأخرى (النويري وابن خلّكان و**المؤنس**، الخ..): لسبع بقين، ولم يشر أيّ مصدر منها إلى يوم الجمعة. والجدير بالملاحظة أنّ كثيرًا ما يقع الخلط بين 7 و9 بالنسبة لقراءة النصوص العربيّة القديمة. فإذا صادف 21 شوّال يوم اثنين، يكون يوم الاثنين الموالي يوم 28 والثلاثاء 29 شوّال والأربعاء 1 – 8 – 15 – 22 – 29 شوّال والخميس 30 ذو القعدة والجمعة أوّل ذو الحجّة والأربعاء 6 – 13 – 20 – 27 ذو الحجّة. وفي **الشذرات**، (80/3 – 81): الأربعاء 23.

4) أنظر بالخصوص، **البربر**، 9/2.

فإنّ بعض المصادر لم تتردّد في ذكر رواية خرافيّة[5] ربّما اقتبسها ناقلوها من كتب أحد المؤرّخين الرسميّين، مثل ابن شدّاد :

قال ابن بسّام : «لمّا تغلّب بنو عُبَيْد الناجمون بافريقيّة على مصر فخلص لهم صميمها، وتمّ لهم ملكها ونعيمها، وأراد معدّ بن إسماعيل بن محمد بن عُبَيْد الله الملقّب بالمعزّ لدين الله، اقتعاد صهوتها، وإثبات قدمه على ذروتها، دعا زيري بن مناد، وهو يومئذ من صنهاجة بمكان السّنام من الغارب، وبمنزلة الوجدان من نفس الطالب، وكان له عشر من الولد آساد شرى وأقمار سرى، فقال : أدع لي بنيك، فقد علمت رأيي فيهم وفيك، وكان أصغرهم سنّا، وأهونهم عليهم شأنًا، يوسف بن زيري فدعا ولده ما عداه، والمعزّ ما يريد سواه، وكانت عند المعزّ – زعموا – أثارة من الحدثان قد علم بها مصائر أحواله، وأهل الغناء من رجاله، وكانت عنده لخليفته على إفريقيّة إذا صار إليه ملك مصر علامة يأنس بها أنس الكبير بذكر شبابه، ويعرفها عرفان العاشق بديار أحبابه، فنظر في وجوه بني زيري فأنكرها، حين تفقّد تلك العلامة فلم يرها، فقال لزيري : هل غادرت من بنيك أحدًا، فلست أرى لمن ها هنا منهم أيدا ولا يدا، فقال له : إلاّ غلامًا وطفق يصغر شأنه، والمقدار قد عناه وأعانه، ويطوي أخباره، والاختيار يدير عليه مداره، فقال له المعزّ : لا أراك حتى أراه، فلست أريد سواه، فلمّا رآه عرفه، وفوّض إليه من حينه واستخلفه».

وهناك رواية مماثلة[6] ولكنّها تكتسي أكثر أهمية، لأنّها سواء أكانت صحيحة أم لا، تلقي الأضواء على نفسيّات الأشخاص المعنيّين بالأمر :

«لمّا عزم [المعزّ] على المسير إلى مصر أجال فكره فيمن يخلفه بالمغرب، فوقع اختياره على أبي أحمد جعفر بن علي [ابن حمدون الأندلسي]، فاستدعاه، وأسرّ إليه أنّه يريد استخلافه بالمغرب، فقال : تترك معي أحد أولادك أو اخوانك جالسًا في القصر وأنا أدبّر، ولا تسألني عن شيء من الأموال، لأنّ ما أجبيه يكون بإزاء ما أنفقه، وإذا أردتُ أمرًا فعلتُه ولم أنتظر ورود الأمر فيه لبعد ما بين مصر والمغرب، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قِبَل نفسي.

فغضب المعزّ وقال : يا جعفر عزلتَني عن ملكي، وأردتَ أن تجعل لي شريكًا في أمري، واستبددتَ بالأعمال والأموال دوني، قم فقد أخطأت حظّك وما أصبت رشدك.

---

5) رواية ابن بسّام التي ذكرها التجاني بصريح العبارة، 12 – 13، ونقلها ابن عذاري حرفيًّا، **البيان**، 296/1.

6) **الاتّعاظ**، 142 – 143؛ **الخطط**، 165/2، وقد اعتمدنا النصّ الأوّل.

واستدعى المعزّ يوسف بن زيري الصنهاجي وقال له : تأهّب لخلافة المغرب . [فأكبر ابن زيري العرض] وقال : يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله ﷺ ، ما صفا لكم المغرب ، فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري؟ قتلتَني يا مولانا بلا سيف ولا رمح . فلم يزل به حتى أجاب ، وقال : يا مولانا ، [أقبل ولكن] بشريطة أن تولي القضاء والخراج لمن تراه وتختاره ، والخبر لمن تثق به ، وتجعلني أنا قائمًا بين أيديهم ، فمن استعصى عليهم أمروني به حتى أعمل فيه ما يجب ، ويكون الأمر لهم ، وأنا خادم بين ذلك . فحسن هذا من المعزّ [وشكره ، فلما انصرف] قال له عمّ أبيه أبو طالب أحمد بن المهدي عُبَيْد الله : يا مولانا وتثق بهذا القول من يوسف أنه يفي بما ذكره؟ فقال [المعزّ] : يا عمّنا كم بين قول يوسف وقول جعفر . واعلم يا عمّ أنّ الأمر الذي طلبه جعفر ابتداءً من آخر ما يصير إليه أمر يوسف ، فإذا تطاولت المدّة سينفرد بالأمر ، ولكن هذا أولاً أحسن وأجْوَد عند ذوي العقول ، وهو نهاية ما يفعله من ترك دياره».

وفي نفس هذا المعنى تكاد كلّ المصادر تُجمع على أنّ المعزّ قد قدّم إلى بلكين ثلاث توصيّات قبل أن يودّعه . فقد قال له : «إن نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : إيّاك أن ترفع الجباية عن أهل البادية والسيف عن البربر[7] ، ولا تُوَلِّ أحدًا من إخوتك وبني عمّك ، فإنّهم يرون أنّهم أحقّ بهذا الأمر منك ، وافعل مع أهل الحَضَر خيرًا»[8] ، وحسب رواية أخرى : «وكذلك مع جامع الجباية أبو مَضَر زيادة الله».

وقد ترك المعزّ أمرَ صقليّة لواليها أبي القاسم علي بن الحسن بن علي بن الحسين الكلبي ، وهو ثالث من تولّى الحكم في صقليّة من أمراء الأسرة الكلبيّة[9] . وسلّم إلى بلكّين جميع مقاطعات المغرب وإفريقيّة ، ما عدا طرابلس[10] . وأعطى الإذن لكتّابه بأن يكتبوا إلى العمّال وولاة الأشغال ليأمروهم بالسمع والطاعة لخليفته . وعندما مرّ المعزّ من طرابلس في طريقه إلى مصر ، ولّى عليها أحد الكتاميّين المتمتّعين بثقته ، وهو عبد الله بن يخلف .

---

7) المقصود بالبربر الزناتيّين الرُّحَّل وكذلك الخوارج .

8) الحَضَر أو الحاضر ، ونجد أيضًا عبارة «الحاضرة» أي سكّان العاصمة . النويري : أبو مضر (كنية زيادة الله بن عبد الله بن عبد القديم) .

9) **الكامل** ، 245/8 : جاء فيه خطأً : الحسنُ بن علي بن الحسين (المتوفّى حوالي سنة 359 هـ) . ونجد هذا الخلط بين الأب والابن الذي عيّن واليًا على صقليّة في سنة 360هـ ، في **الاتّعاظ** ، 144 والإحالة 4 . أنظر أيضًا : **تاريخ أبي الفداء** ، 97/2 (نقلاً عن ابن شدّاد) **وستوريا** ، 336/2 .

10) ومن باب أولى وأحرى لم تكن برقة وأجدابية وسرت تابعة لبلكّين .

ويقال إنّ المعزّ قد طلب إلى شيوخ كتامة قبل رحيله إلى مصر أن يدفعوا الخراج للرجال الذين سيكلّفهم بذلك ، فرفضوا الامتثال إلى ذلك الأمر. ويبدو أنّ ذلك الرفض قد أثلج صدر المعزّ الذي ربّما استعمل تلك الحيلة ليتأكّد أنّ الكتاميّين سوف لا يخضعون أبدًا لسلطة صنهاجة[11].

ولعلّ هذه الرواية صحيحة ، لأنّ الخليفة ربّما خشي التحالف بين كتامة وصنهاجة ، وأراد أن تحول إستقلاليّة الكتاميّين دون هيمنة الصنهاجيّين ، أو على الأقلّ أن تكون موازية لها.

وقد قدّم المعزّ إلى بلكّين خلعة الخلافة ، وألبسه ثيابًا فاخرة وأهدى إليه أحسن ما عنده من الخيول المسرّجة وعهد إليه بقيادة الجيش وجمع الضرائب وإدارة الأقاليم «وجعل خاتمه في يده»[12]. وأصبحت الرسائل الصّادرة عن بلكّين منذ ذلك الحين تُستَهَلّ بالعبارة التالية : «من عبد الله أبي الفتوح يوسف ابن زيري خليفة أمير المؤمنين».

ذلك أنّ الخليفة قد كان عوّض اسم بلكّين البربري[13] باسم يوسف وكنّاه بأبي الفتوح عوض الكنية التي يبدو أنّه كان معروفًا بها ، وهي «أبو حبّوس»[14].

كما أضفى عليه لقبًا فخريًّا ، وهو «سيف الدولة»[15] ، وقيل «سيف العزيز بالله»[16] أو «عدّة العزيز بالله»[17] ، ولو أنّ هذا اللّقب قد حمله أيضًا خليفته المنصور. وأطلق عليه

---

11) **الاتّعاظ** ، 140 – 141 ؛ **الخطط** ، 162/2 ؛ **المعز** ، 65 – 66.

12) **مفاخر** ، 13 ؛ **وأعمال** ، 451.

13) ورد ذكر هذا الاسم في مصادرنا بثلاثة أشكال مختلفة : بلقّين وبلجّين وبلكّين. أنظر : **الكامل** و**العبر** و**البيان** ؛ وابن قنفطي ، 138/2 ؛ **والنجوم** ، 70/5 ؛ **وستوريا** ، 329/2 الإحالة 2.

14) وبالفعل فإنّ ابنه حمّاد بن يوسف بن زيري ، قد أُطلِق عليه مرّة واحدة على الأقلّ اسم حمّاد بن أبي حبوس ويبدو أنّ حبوس هو اسم المنصور. أنظر : **الاستبصار** (الترجمة 100). وأخيرًا يبدو أنّ يوسف بن أبي حبّوس الذي ورد ذكره في **البيان** ، 260/1 – 262 هو أخو حمّاد.

15) **العبر** ، 155/6. ذكر ابن شرف في القصيدة التي مدح بها المعزّ بن باديس (**البيان** ، 295/1) الألقاب الفخريّة التي حملها آباؤه ومنها لقب حُسَام (أي السيف) الذي أُطلِقَ على بلكّين.

16) لم يُعَيَّن العزيز وليًّا للعهد إلاّ قبل مدّة قليلة من وفاة والده في سنة 365 هـ/975م ؛ ابن حمّاد ، 48 ؛ **البيان** ، 229/1 ؛ **أعمال** ، 452.

17) ابن حمّاد ، 48. من المستبعد أن يكون المنصور قد حمل نفس اللقب الفخريّ الذي أُطْلِقَ على والده. ويمكن أن نقدّم التفسير التالي : ربّما أطلق المعزّ على بلكّين لقب سيف الدولة وبعدما ارتقى العزيز بالله إلى العرش سنة 365 هـ ، حوّل ذلك اللقب إلى سيف العزيز بالله.

مصدرٌ واحد اسم بلكّين بن زيري ظهير الدولة[18].

وعهد الخليفة بالجباية في إفريقيّة[19] إلى أبي مضر زيادة الله بن عبد الله بن القديم[20] الذي أوصى به خليفته خيرًا، وبإدارة الخراج إلى عبد الله الخراساني وخلف المرصدي، وأمر جميع أولئك الموظفين بالسمع والطاعة ليوسف بن زيري[21]. ثم غادر سردانية، بعدما أقام بها أربعة أشهر[22]، وذلك يوم الخميس 5 صفر 362 هـ/ 15 نوفمبر 972م[23]، وصحبه بلكّين بن زيري. فمرّ من صفاقس ووصل إلى قابس يوم 11 ربيع الأوّل / 17 ديسمبر 972 وغادرها يوم الأربعاء 10 / 19 ديسمبر 972[24]. وفي المكان المعروف باسم آبار الخشب[25] الواقع جنوب قابس، حسب الاحتمال، أمر بلكّين بالعودة يوم 11 ربيع الأوّل / 20 ديسمبر 972، وتوجّه نحو طرابلس، وقد وصل إليها يوم الأربعاء 24 ربيع الأوّل / 2 جانفي 973[26]، واستأنف طريقه يوم السبت 16 ربيع الثاني 362 هـ/ 24 جانفي 973م[27].

---

18) **نقط**، الطبعة الثانية، القاهرة 1951، ص 86.

19) **الكامل**: «جباية أموال إفريقيّة»؛ النويري: «نظر الدواوين بسائر قرى إفريقيّة، جامع الأموال بإفريقيّة»؛ ابن حوقل، 96/1 – 97: تحدّث عن واقعة رواها له زيادة الله أبو مضر بن عبد الله، صاحب الخراج بالقيروان سنة 360هـ/ 970 – 971م، أنظر: فورنال، 357/2 الإحالة 4.

20) حول والده عبد الله بن محمّد المعروف باسم ابن القَديم (أو القُدَيْم)، وهو من أحفاد الأغالبة وتولّى الوزارة في عهد المهدي الذي أمر بقتله سنة 299 هـ/ 911 – 912م. أنظر: **البيان**، 167/1 و**المعزّ**، 145.

21) النويري، 2 و3؛ و**الكامل**، 244/8.

22) أنظر **الكامل** و**العبر** و**المؤنس** وفي الحقيقة حوالي ثلاثة أشهر ونصف الشهر.

23) ابن خلّكان، 5 صفر يصادف نظريًّا يوم الجمعة. أنظر: فورنال، 362/2 والإحالة 2. وسنلاحظ اختلافات مماثلة في التواريخ: الاثنين، عوض الثلاثاء 8 ربيع الأوّل 362 هـ والاربعاء عوض الخميس 10 ربيع الأوّل 362 هـ والأربعاء عوض الخميس 24 ربيع الأوّل 362 هـ والسبت عوض الجمعة 16 ربيع الأوّل 362. ويذكر **المؤنس** خطأً لا محالة «في أوّل صفر»، ويمكن إصلاحها كما يلي: «في أوائل صفر». **مفاخر**: «في صدر ربيع الأوّل».

24) تاريخ الوصول حسب **الأعمال** وتاريخ الرحيل حسب **المؤنس**.

25) حسب رواية **الأعمال** لا غير. وحسب الإدريسي تقع آبار الخشب بين قابس وطرابلس فيما وراء الفوّارة التي تبعد 30 فرسخًا عن قابس. كما يشير ابن خرداذبه إلى أن فوّارة تقع على بعد 30 فرسخًا من قابس. أنظر: بلاشير، **مقتطفات من أهمّ الجغرافيّين العرب**، 25. وهناك مصدر واحد، **البربر**، 10/2 يقول إنّ بلكّين قد رافق الخليفة حتى ضواحي صفاقس. وتاريخ 11 مذكور في **المفاخر**، ص 13.

26) **المؤنس**.

27) النويري و**المؤنس**. وصل إلى الاسكندرية في آخر شعبان ودخل القاهرة يوم 5 رمضان 362 هـ/ 9 جوان 973م مسبوقًا بتوابيت آبائه.

وفي نفس الطريق انفصلت عنه فرقة من الجيش والتجأت إلى جبل نفوسة ، فأخذ في مطاردتها بدون جدوى[28] . وفي طرابلس أو في ضواحيها على الأرجح ، طلب الخليفة إلى القائدَين الأباضيَّيْن اللّذَيْن كانا قد شقّا عصا الطاعة ، وهما أبو نوح وأبو خزَر ، أن يصاحباه إلى مصر . فاعتذر الأوّل متعلّلاً بالمرض ، وأمّا الثاني فقد رافق المعزّ الذي أغدق عليه العطايا . وفي القاهرة أثارت المزايا المقدّمة إلى ذلك الشخص المعروف باسم «عالم المغرب» حسد وزراء الخليفة ورجال حاشيته . وقد أشارت بعض المصادر إلى أنّه كان يدرّس المذهب الأباضي لعشرين طالبًا وكان يقوم هو نفسه بشؤونهم[29] .

وبعدما ودّع بلكّين الخليفة ، بادر بالرجوع إلى القيروان في نفس اليوم ، أي الخميس 11 ربيع الأول 362 هـ/ 20 ديسمبر 972م[30] . «فنزل بقصر السلطان بصبرة وخرج إليه أهل القيروان فهنّوه وأظهروا السّرور بقدومه وأقام هنالك شهرين وبعث العمّال والولاة [وجباة الأموال] إلى جميع البلاد ، ونفذت أوامره في إفريقية والمغرب»[31] وقد قام بقمع الثورة التي أعلنها الخوارج في منطقة قابس ، حيث نهب المتمرّدون تلك المدينة واقتحموها ، ولكنّهم هُزِموا شرّ هزيمة[32] .

وبعدما نظّم بلكّين الإدارة وطمأن الخواطر ، التفت إلى المغرب ، وفقًا لرغائبه الخاصّة ، وتلبيةً لدعوة الخليفة الذي أوصاه بأن يستهلّ عهده بالقيام بحملة عسكريّة بالمغرب ، ليجتثّ منها بذور الفتنة وآثار بني أميّة[33] .

---

28) حسب رواية **الكامل** ، 8/244 – 245 .

29) الشماخي ، 354 – 355 .

30) النويري و**المؤنس**. أمّا صاحب «**المفاخر**» فإنّه لم يذكر اليوم.

31) إذا علمنا أنّ بلكّين لم يغادر العاصمة في اتّجاه المغرب إلاّ في شهر شعبان ، لا يمكننا أن نصدّق رواية صاحب المؤنس (74) الذي أكّد أنّه أقام شهرين بالقيروان المنصورية ، لأنّ الأمر يتعلّق بأربعة أشهر على أقلّ تقدير.

32) ابن حوقل (المتوفّى بعد سنة 367 هـ/977م) ، 1/70 .

33) **العبر** ، 6/155 ؛ والشمّاخي ، 354 – 355 .

حملة بلكّين بالمغرب الأوسط[34] :

رحل بلكّين إلى المغرب في شعبان 362 هـ / 7 ماي — 4 جوان 973م[35] على رأس جيش صنهاجي وفرقة كتاميّة كان المعزّ قد تركها بإفريقيّة[36] . وتعتبر هذه الإشارة من الأهميّة بمكان ، إذ أنها تقيم الدّليل على أنّ جميع الكتاميّين لم يصاحبوا الخليفة الفاطمي إلى مصر ، وأنّ المعزّ قد وضع قسمًا منهم تحت قيادة ممثّله بالمغرب .

ولمّا وصل بلكّين إلى باغاية ولّى عليها عاملاً وأوصاه بالرفق بأهلها . وبفضل ذلك دخلت باغاية في الطاعة . ولكن ما إن استأنف طريقه — ولم تقل لنا المصادر أين كانت وجهته ، ولا شكّ أنّه قد اتّجه نحو الغرب — حتّى ثار أهل باغاية على عاملهم الجديد ، وانتصروا عليه وتحصّنوا وراء أسوار مدينتهم . وعندئذ وجّه إليهم بلكّين بعض الجنود فهزموهم . وبينما كان يتأهّب للزّحف على المتمرّدين إذ قدم عليه مبعوث من عامل تاهرت خلوف بن أبي محمّد[37] يخبره بأنّ أهل تلك المدينة قد أزاحوا عاملهم . فانصرف بلكّين لمعاقبة المتمرّدين وتمكّن من استرجاع تاهرت عنوة في رمضان 362 هـ / 5 جوان — 5 جويلية 973م وقتل الرّجال وسبى النسوة والأطفال ونهب المدينة وأحرقها .

وفي حين كان يستعدّ للزّحف على باغاية التي ما زالت لا محالة في حالة تمرّد ، بلغه أنّ الزناتيّين قد استولوا على تلمسان . فرحل إليهم ولكنّهم فرّوا منه . وبعد حصار طويل استسلمت المدينة ، فعفا عن المتمرّدين ولكنّه أجلاهم إلى مدينة أشير حيث أقاموا بالقرب منها مدينة جديدة أسْمَوْهَا تلمسان[38] .

إلاّ أنّ المعزّ قد أمر بلكّين بعدم التوغّل في المغرب ، فقفل راجعًا إلى القيروان . على أنّنا لا نعلم هل تمكّن من استرجاع باغاية وهو في طريقه إلى القيروان . ولكن يبدو أنّ هذا

---

34) النويري ، 2/111—112 ؛ **الكامل** ، 8/245 ؛ **العبر** ، 6/156 ؛ **مفاخر** ، 13 ؛ **المؤنس** ، 74 ؛ **الاتّعاظ** ، 198 ؛ فورنال ، 2/363 .

35) النويري و**مفاخر**. ويذكر صاحب **المؤنس** شهر شعبان 363 هـ ، ولا شكّ أنّه أخطأ في الحساب بمقدار سنة ، لا سيما وأنّ هذا المصدر المتأخّر هو الوحيد الذي ادّعى أنّ بلكّين لم يُقِم في القيروان المنصورية سوى شهرَيْن .

36) **العبر** ، 6/156 .

37) حسب النويري : «الخلوف بن محمود» الذي أصبح يسمّى بعد بضعة أسطر «خلوف بن أبي محمّد» ، ويبدو أنّ هذه هي التسمية الصحيحة .

38) **الكامل** والنويري : «تلنسان» (هل يتعلّق الأمر بخطإ ارتكبه الناسخ أم هو تحريف مقصود لكلمة تلمسان؟) .

الافتراض صحيح. وربّما كان تاريخ رجوعه قبل شهر صفر 363 هـ / نوفمبر 973م، إذ تفيد بعض المصادر أنّه في نفس ذلك الشهر «طيف في القاهرة بنحو مائتي رأس قُدِمَ بها من المغرب»[39]. ولا شكّ أنّ هذه الرؤوس قد بعث بها بلكّين إلى مخدومه بعد عودته إلى إفريقيّة.

وفي ربيع الأوّل 363 هـ / 30 نوفمبر – 29 ديسمبر 973م[40] عاد إلى المغرب، وعلى الأرجح إلى أشير، بعدما ولّى على القيروان وصبرة عاملاً يقال له جعفر بن تمّرت[41] وترك له عددًا كبيرًا من الخيّالة.

تعيين عبد الله الكاتب عاملاً على إفريقيّة[42] :

إثر وفاة جعفر بن تمّرت عامل القيروان وصبرة المنصوريّة في جمادى الثانية 363 هـ / 27 فيفري – 27 مارس 974م، أعلم زيادة الله بن القديم أبا الفتوح يوسف (بلكّين) بذلك، وطلب إليه تعويض الرّاحل بشخص آخر يساعده على إدارة شؤون البلاد. فقرّر تعيين عبد الله بن محمّد الكاتب التميمي، وهو ابن أمير أغلبي كان قد فرّ إلى نفزاوة عند ارتقاء الفاطميّين إلى الحكم، وهناك وُلِد وربّاه خاله صالح. وقد برع الشّاب في كتابة الرسائل[43] والخطابة، وكان يحذق جيّدًا اللغة العربيّة واللّغة البربريّة، فعيّنه ابن زيري كاتبًا في ديوان الإنشاء. وعندما تقلّد بلكّين الحكم أقرّه في منصبه وأغدق عليه العطايا. ولكنّه رفض رفضًا باتًّا المنصب الجديد المعروض عليه بدون أن نعرف السبب. وفي آخر الأمر استدعى بلكّين الأمير حبوس بن زيري[44] وكرامة بن إبراهيم وكبّاب بن زيري وخلوف بن أبي محمّد، بمحضر الموظّف المتعنّت، وسألهم ماذا يستحقّ من يعصي أمر الأمير ويرفض التحوّل إلى إفريقيّة ليشغل منصب نائب الأمير. فأجابوا أنّ مثل هذه الجريمة تستوجب القتل، ودعوا عبد الله الكاتبَ إلى الامتثال إلى أمر الأمير، وهدّدوه بالقتل إذا تمادى في الرّفض. فانتهى

---

39) **الاتّعاظ**، 198.
40) حسب النويري الذي لم يذكر السنة.
41) النويري المخطوط: «تمرت ونموت» (يموت؟).
42) النويري، 112/2–113؛ **الكامل**، 245/8؛ **العبر**، 157/6؛ **مفاخر**، 13؛ **البيان**، 230/1.
43) النويري: «تعلّم الخطّ والترسيل».
44) حسب رواية النويري، وقد جاءت في النصّ عبارة «جيوش» التي ربّما هي تحريف لاسم «حبوس».

به الأمر إلى الاستسلام وتحوّل إلى إفريقيّة على مضض منه. ولمّا وصل إلى القيروان كان في استقباله زيادة الله ابن القديم. فترجّل الرجلان وتعانقا واستمرّا في وفاق تامّ مدّةً من الزمن. ولكنّ علاقاتهما ما لبثت أن تعكّرت وبدأت المواجهة بينهما. ويبدو أنّ بلكّين قد ساند نائبه ومنحه كامل ثقته ضدّ خصمه زيادة الله ابن القديم الذي يقال إنه كان مواليًا للخليفة الفاطمي أوّلاً وقبل كلّ شيء، وقد كان «كاتبه» من قبل(45). ونحن نجهل تفاصيل تلك الخصومة التي أثارت اضطرابات خطيرة في القيروان وانتهت بانتصار عبد الله الكاتب الذي ألقى القبض على خصمه ووجد نفسه بمفرده على رأس الإدارة منذ الثامن من ربيع الأوّل 364 هـ / 26 نوفمبر 974م. وكان زيادة الله بن القديم قد باشر خطّته مدّة سنتين وشهرين ونصف الشهر(46). ولا ندري هل أرسله عبد الله الكاتب إلى بلكّين الذي زجّ به في السجن، أم هل اعتقله في سجنه الخاصّ. ومهما يكن من أمر فقد لقي مصرعه في السّجن يوم الأربعاء 11 جمادى الأولى 366 هـ / 5 جانفي 977م(47) «وقيل إنّ عبد الله قتله بأنواع من العذاب»(48).

فكيف نفسّر بقاء بلكّين بالمغرب الأوسط، حيث يبدو أنّ وجوده لم يكن ضروريًّا، طوال حصول مثل تلك الأزمة البالغة الخطورة؟ ومن المستبعد أن يكون عدم اكتراثه بافريقيّة قد بلغ ذلك الحدّ. ولعلّه بمساندته لنائبه في القيروان قد أراد أن يظهر بمظهر الخصم اللّدود للشخص الذي كان يحظى برعاية الخليفة. ولكن يبدو أنّه، بالرغم من تواطئه مع عبد الله الكاتب، قد أراد أن يبقى خارج النزاع حتى يضفي عليه صبغة الخصومة الإفريقيّة المحض. ولذلك فإنّنا نميل إلى الاعتقاد أنّ أعيان القيروان قد ساندوا طموح ممثّل بلكّين. ولا يستبعد أن يكون هذا الانقلاب مستجيبًا لمطامح المذهب المالكي الذي كان ينتظر بفارغ الصبر فرصة التحرّر من نير الهيمنة الشيعيّة. وفي هذه الحالة يكون الأمر متعلّقًا بأوّل مظهر من مظاهر الرغبة التي كانت تشعر بها إفريقيّة السنيّة من أجل التحرّر. ولعلّ مناصرة الكتاميّين لقضيّة زيادة الله ابن القديم من شأنها أن تدعّم إلى حدّ كبير هذا الافتراض.

45) ذلك ما أكّده صاحب كتاب «مفاخر البربر». وقد أطلق على زيادة الله اسم كاتب المعزّ لدين الله. وفي البيان نجد تارة «القُدَيْم»، 230/1، وتارة «القَديم»، 167/1.

46) حسب رواية النويري.

47) هذا التاريخ ذكره النويري الذي يؤكّد أنّ عبد الله أرسله إلى بلكّين وأنّه توفّي في السجن، دون أيّ توضيح آخر.

48) حسب رواية **البيان** الذي نصّ على أنه قد توفّي سنة 366 هـ في سجن عبد الله الكاتب.

ثورة خلف بن خير واستسلام باغاية[49] :

بعد مدّة قليلة من عزل زيادة الله بن القديم ، التجأ خلف بن خير المنتمي إلى قبيلة هراش ؟[50] إلى قلعةٍ صحبة عدد من البربر التابعين لبعض القبائل الأخرى. ويبدو أنّ الأمر يتعلّق برجل كتامي انحاز إلى الشخص الموالي للخليفة ضدّ ممثّل بلكّين. إذ من المحتمل أن يكون جميع الذين التحقوا بزيادة الله بن القديم لمناصرتّه هم من الكتاميّين الذين أبقاهم المعزّ في إفريقيّة.

وقد أرسل عبد الله الكاتب ، خطابًا إلى بلكّين يخبره فيه بأنّه يسيطر على إفريقيّة بأسرها ، فلا خوف عليه حينئذ من خلف بن خير وأنصاره.

فزحف بلكّين بجيش عرمرم على القلعة التي تحصّن بها خلف بن خير وأحاط بها من كلّ جانب ثمّ استولى عليها في اليوم الرابع من الحصار ، وقد أفلت خلف من بين يديه. إلاّ أنّ عددًا كبيرًا من المتمرّدين قد لقي مصرعه وأرسل بلّكين 7000 رأس من رؤوس القتلى إلى القيروان ، فأمر عبد الله الكاتب بأن يطاف بها في المدينة قبل توجيهها إلى القاهرة. كما تجاوز عددُ المبعدين عددَ القتلى واستولى الجيش على كلّ ما وجد في القلعة من غنائم.

والتحق خلف بن خير ببلاد كتامة ، فأعلم بلكّين الكتاميّين أنّ كلّ من يدافع عنه أو يؤويه يُعتبَر خارجًا عن القانون ويُعامَل على هذا الأساس. وتبعًا لذلك فقد سلّمه الكتاميّون الذين التجأ إليهم ، مع ابنه وأخيه وخمسة من أبناء عمومته إلى بلكّين الذي جازى كلّ من قدّم إليه هذه الخدمة الجليلة وأرسل الأسرى إلى عبد الله الكاتب ليطوف بهم على الجمال ويعرّضهم للإهانة. وقد امتثل عبد الله لتلك الأوامر ، ثم أعدم أولئك المساكين وبعث برؤوسهم إلى مصر.

وبعدما استولى بلّكين على القلعة اختار من بين المغلوبين أربعة آلاف من العبيد ليكونوا في خدمته. فطلب واحدٌ منهم مقابلة الأمير ، بدعوى أنّه يريد أن يسدي إليه نصيحة. فقُدِّم عن غير قصد إلى أحد أبناء عمّ بلكّين الذي كان يشبه الأمير إلى حدّ كبير ، وهو المسمّى إبراهيم بن يزيد. ولمّا اقترب منه شقّ بطنه بسكّين ، فخرجت أمعاؤه ولفظ أنفاسه الأخيرة. وقد أراد القاتل أن يأخذ بثأر سيّده الذي قتله بلكّين في القلعة[51]. وفي الحين أمر الأمير بقتل

---

49) النويري ، 113/2 – 114 ؛ **الكامل** ، 245/8 وفي هذا المصدر: «خلف بن حسين».

50) النويري.

51) نفس المرجع. ويشير المرجع إلى أنّه كان «غلام» سيّده.

جميع العبيد الآخرين الذين كان يعتزم استخدامهم. ثم أوفد عشرة أشخاص من القيروان إلى أهل باغاية ليعرضوا عليهم الاستسلام، وإلاّ فإنّ مصيرهم سيكون مماثلاً لمصير أنصار خلف بن خير. فقبلوا هذا العرض واشترط الأمير تسليم باغاية وإخلاءها. ثم هدّم المدينة وخرّبها، ولكنّه ترك ضواحيها على حالها. وإثر هذه العمليّة رجع إلى إفريقيّة في أوائل سنة 365 هـ/ أواخر سنة 975م، على سبيل التقريب.

علاقات بلكّين مع الفاطميّين:

بعث بلكّين بهديّة إلى المعزّ، وفي الأثناء بلغه نبأ وفاة الخليفة الذي أدركته المنيّة في شهر ربيع الأوّل 365 هـ/ 8 ديسمبر 975– 5 جانفي 976م[52]، وولاية ابنه العزيز بالله، فردّ الهديّة من طرابلس. وفي جمادى الثانية 365 هـ/ 5 فيفري– 4 مارس 976م بعث إلى الخليفة الجديد بهديّة أخرى، سار بها إلى أن وصل إلى مكان لم يُذْكَر اسمه في المصادر ثم قفل راجعًا إلى رقّادة. فخرج أهل المدينة للترحيب به، وخصّهم بحفاوة بالغة واستقبال حارّ. وبعدما سلّم عليه القضاة والشيوخ الذين قدموا لتوديعه، تحوّل إلى فحص أبي صالح الذي وصله يوم 27 رجب 365 هـ/ 31 مارس 976م[53].

وأرسل العزيز بالله دنانير مضروبة باسمه إلى المغرب حيث أصبحت متداولة بين النّاس وأقرّ بلكّين على ولاية إفريقيّة[54].

سياسة عبد الله الكاتب الجبائيّة:

وفي سنة 366 هـ/ 30 أوت 976– 18 أوت 977م، أي بعد وفاة زيادة الله ابن القديم، حسبما يبدو، (11 جمادى الأولى 366 هـ/ 5 جانفي 977م)، «نادى عامل إفريقيّة والقيروان، وهو عبد الله الكاتب، فاجتمع النّاس إليه، فأخذ من أعيانهم نحو الستمائة

---

52) هناك خلاف حول تاريخ وفاته. أنظر: **البيان**، 229/1؛ **والكامل**، 263/8– 264؛ **والخطط**، 66/6؛ **والاتّعاظ**، 294؛ وابن خلّكان، 103/2؛ وفورنال، 366/2– 367.

53) **البيان**، 229/1؛ **المؤنس**، 74 وهي بلدة «الفحص» في العصر الحديث.

54) **الكامل**، 263/8– 264؛ **الخطط**، 60/6، **الاتّعاظ**، 294.

رجل من أغنيائهم وأغرمهم الأموال بالتعيين : يأخذ من الرجل الواحد عشرة آلاف دينار، ومن آخر دينارًا واحدًا. فاجتمعت له بالقيروان أموال كثيرة. وعمّ هذا الغُرْم سائر أعمال إفريقيّة، ما عدا الفقهاء والصلحاء والأدباء وأولياء السلطان. وكان الذي جبى من القيروان نيّفًا على أربعمائة ألف دينار عينًا. وبقي الأمر كذلك في الطلب، إلى أن وصل الأمر من مصر إلى أبي الفتوح برفع الغُرْم عن النّاس، فأطلقهم عبد الله الكاتب في أواخر شوّال [366هـ/ جوان 977م].

وفي سنة 367 بعث عبد الله الكاتب عامل إفريقيّة هذا المال إلى ملك مصر العزيز بالله، بأمر أبي الفتوح صاحب إفريقيّة من قِبَل العزيز بالله، وكتب على كلّ صرّة اسم صاحبها. فكان خروج هذا المال من المنصوريّة لخمس بقين من جمادى الأخيرة [367هـ/ 6 فيفري 978م]. ولمّا وصل المال إلى مصر، ردّ العزيز بالله بعض الصّرر لأربابها»[55].

ويبدو أن عبد الله الكاتب، ما إن نجحت عمليّته، ولو بإظهار حماس مفرط من شأنه أن يعرّض شعبيّته للخطر، حتى أخذ يسعى إلى استعطاف الخليفة ليعفو عنه إقدامه على عزل زيادة الله ابن القديم. ويبدو أنّ هذه الجباية المشطّة التي كان مدخولها راجعًا إلى الخليفة، لم تكن سوى مناورة ماهرة للتخفيف من غضب العزيز بالله، في الوقت الذي كان فيه خليفته بلكّين بن زيري يتأهّب لاستجدائه.

ففي نفس تلك السنة، 367هـ/ 19 أوت 977 – 8 أوت 978م، «بعث بلكّين إلى العزيز بالله يطلب منه سرت وإجدابيّة وطرابلس، وأن يضيفها إلى عمله. فأنعم عليه بها»[55م]. وقد أقرّت هذه المنّة استقلاليّة الأمير بلكّين شبه المطلقة بعد خمس سنوات فحسب من توليته. وهذا يدلّ على أنّ الفاطميّين قد أصبحوا غير مكترثين أكثر فأكثر بشؤون المغرب وأنّ بلكّين قد صار يتمتّع بكامل ثقتهم.

وإثر رحيل آخر عامل فاطمي من منطقة طرابلس، وهو عبد الله ابن يخلف الكتامي الذي دُعِيَ بدون شكّ إلى القاهرة، ولّى بلكّين عليها المسمّى يحيى بن خليفة الملياني، ثم عزله بعد ذلك ببضعة أشهر، وعوّضه بأحد الموالي، وهو تمصولت بن بكّار الذي كان يحبّه

---

55) **البيان**، 230/1. أنظر أيضًا : **مناقب**، 252 – 253 والإحالة 142.

55م) **المؤنس**، 75.

كثيرًا ، وقد كان آنذاك قائدًا على عنّابة . فمكث هذا العامل على رأس طرابلس ما يناهز العشرين سنة[56].

وفي سنة 367هـ / 977–978م عيّن الخليفة العزيز بالله باديس بن زيري شقيق بلكّين أميرًا على الحجيج القاصدين مكّة ، حيث كانت الخطبة تلقى باسمه . «فلمّا وصل إلى مكّة أتاه اللّصوص بها فقالوا له : نتقبّل منك الموسم بخمسين ألف درهم ولا تتعرّض لنا . فقال لهم : أفعل ذلك ، اجمعوا لي أصحابكم حتّى يكون العقد مع جميعكم . فاجتمعوا ، فكانوا نيّفًا وثلاثين رجلاً . فقال : هل بقي منكم أحد؟ فحلفوا أنّه لم يبق منهم أحد ، فقطع أيديهم كلّهم»[57].

وفي ليلة الأربعاء 5 ربيع الأوّل 369هـ / 30 سبتمبر 979م «ظهرت بإفريقيّة في السماء حمرة ، فخرج النّاس إلى المساجد للضجيج والتضرّع إلى الله تعالى . وفي غد تلك الليلة ، هرب كبّاب ومغنين أبنا زيري بن مناد من قصر أخيهما السلطان أبي الفتوح الذي كانا فيه محبوسَيْن ، وقد لبسا ثياب النّساء وخرجا في نسوة دخلن إليهما لزيارتهما ، فوجدا عبيدهما قد أعدّوا لهما خيلاً وسلاحًا ، فركبا ومضيا نحو المشرق ، حتى وصلا مصر ، فأنزلهما العزيز بالله ، وخلع عليهما ووصلهما ، وبقيا هنالك بقيّة هذه السنة .

«وفي سنة 370هـ [17 جويلية 980 – 6 جويلية 981م] صرف العزيز بالله كبّابًا ومغنينا ابنيْ زيري إلى أبي الفتوح يوسف بن زيري ، أمير إفريقيّة ، وأمره أن يعفوَ عنهما ولا يتعرّض لهما ، ففعل ذلك»[58].

وفي نفس تلك السنة كان بلكّين يقوم بحملة عسكريّة بالمغرب ، «فبعث ولده المنصور إلى القيروان لتجهيز هديّة إلى مصر . فوصل المنصور إلى رقّادة وأقام بها مدّة وبعث بالهديّة ،

---

56) النويري ، 114/2 ؛ الكامل ، 263/8–264 ؛ البيان ، 230/1 ؛ المؤنس ، 75 . وقد ندّد الكاتب الأباضي الشمّاخي ، 336–337 بالابتزازات التي قام بها في جبل نفوسة «تمصولت مولى المعزّ بن باديس الذي أجبر الشيخ الخارجي أبا الخير توزين الزواجي على دفع 100 دينار» . ويتعلّق الأمر لا محالة بتمصولت بن بكار أحد موالي المعزّ لدين الله .

57) الكامل ، أنظر أيضًا : السيوطي ، حسن المحاضرة ، 168/2 .

58) البيان ، 237/1 – 238 ؛ والكامل ، يوم 5 يصادف نظريًّا يوم الثلاثاء . لم يتعرّض صاحب الكامل لقضيّة شقيقَيْ بلكين ولكنه أشار إلى الزلزال الذي دام 40 يومًا بالمهديّة وإلى الحمرة التي ظهرت في السماء في سنة 367هـ . وجاء في البيان ، 288/1 ، حول زلزال المهديّة ما يلي :

«وفي جمادى الأولى من هذه السنة (371هـ) كان بالمهديّة زلازل دامت الشهر كلّه وعشرة أيام بعده ، تُزَلْزِلُ في كلّ يوم مرّات ، حتى هرب أكثر أهلها ، وأسلموا ديارهم وما فيها» .

وكانت أوّل هديّة خرجت على يَدَيْه وأوّل وصوله إلى القيروان ، لأنّه لم يكن دخلها قبل ذلك ، لأنّ ولادته كانت في أشير وإقامته بها ولم يدخل إلى إفريقيّة إلاّ في هذه السنة ورجع إلى المغرب »[59] .

وسوف نرى كيف سيطلب الخليفة إلى بلكّين في سنة 371 هـ / 7 جويلية 981 – 25 جوان 982 م ، أن يوجّه إليه أقرب أقربائه من أبناء أسرته وأحسن مَنْ عنده من الفرسان ، ولكن بلكّين قد رفض ذلك الطلب رفضًا معلّلاً[60] .

وأثناء الحملة الأخيرة التي قام بها بلكّين بالمغرب الأقصى ، اغتنم عبد الله الكاتب فرصة غياب مخدومه مدّة طويلة (من شعبان 368 إلى ذي الحجّة 373 هـ / مارس 979 – ماي 984 م) لتعزيز نفوذه وربّما لتحقيق مشاريعه الطّموحة . فقد أفادت بعض المصادر أنّه اشترى في سنة 373 هـ / 15 جوان 983 – 3 جوان 984 م ، «العبيد السّودان ، وجعل على كلّ عامل من ثلاثين عبدًا إلى ما دون ذلك ، وكذلك على أصحاب الخراج ووجوه رجاله . فاجتمع له منهم ألوف وأسكنهم بالمنصوريّة »[61] .

وفي نفس السنة «عمل بَيْتَ الحديد وملأه أموالاً ، ثم عمل بَيْتَ خشب وملأه أموالاً أيضًا . واستخلف على المنصوريّة جعفر بن حبيب وخرج إلى المهديّة على عادته في كلّ سنة »[62] .

نظرة على المغرب الأقصى من 362 إلى 368 هـ / أواخر 972 – أوائل 979[63] :

بعد رحيل المعزّ إلى مصر ، تمكّن بنو أميّة الذين لم يعودوا يملكون [بالمغرب] سوى سبتة ، من التغلّب على الأدارسة . فمنذ سنة 365 هـ / أواخر 975 م ، كلّفوا جعفر بن علي بن حمدون وأخاه يحيى بالتحوّل إلى شمال المغرب الأقصى لتنظيم جيش مُجنّد على عين المكان . وقد خصّهما الزناتيّون باستقبال حارّ ووفّروا لهما عددًا من الفرسان . وإثر وفاة الحَكَم الثاني

---

59) **المؤنس** ، 75 .

60) أنظر الفقرة الموالية من هذا الفصل .

61) **البيان** ، 238/1 .

62) نفس المرجع .

63) **مفاخر** ، 8 – 16 ؛ **البيان** ، 404/2 – 411 ؛ **إسبانيا الإسلاميّة** ، 189/2 – 196 ، 259 – 261 ؛ **تاريخ المغرب** ، 187/1 ؛ فورنال ، 355 – 357 ، 363 – 364 .

(366 هـ / 976م) دخل في طاعتهما زعيما مغراوة ، زيري بن عطيّة وأخوه مقاتل وزعيم بني يفرن ، وكذلك المكناسيّون .

وكان بعض الأدارسة ، ومنهم حسن بن كنون ، قد انتقلوا حوالي سنة 365 هـ / 975 – 976م إلى مصر عبر إفريقيّة ، فاحتفى بهم الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، إذ وعد حسن بن كنون بمساعدته على استرجاع عرشه .

وفي الأثناء ركّز ابن أبي عامر سياسته الموالية لزناتة وحصّن سبتة تحصينًا عظيمًا ، وإثر سوء تفاهم وقع بين الأخوَيْن استولى يحيى على البصرة في حين رجع جعفر إلى الأندلس ، بعدما فشلت الحملة التي قام بها ضدّ برغواطة ، وعهد بحكومة المغرب إلى يحيى (367 هـ / 978م)[64] .

والجدير بالتذكير أنّ ابن أبي عامر قد أصبح مسيطرًا على الحكم الأمويّ بالأندلس سيطرة تامّة ، بعد عزل زميله جعفر بن عثمان المصحفي (شعبان 367 هـ / مارس 978م)[65] .

وفي نفس تلك السنة حسب الاحتمال[66] وربّما في شهر شعبان أسرع الأمير المغراوي الموالي للأمويّين ، خزرون بن فلفل بن خزَر الزناتي ، إلى الزّحف على سجلماسة في عدد عظيم من الزجال ، ذلك أنّ تلك المدينة كانت قد سقطت بين أيدي الأباضيّين ، بعدما استولى عليها جوهر ، وكان يحكمها عهدئذ أحد أمراء بني مدرار الذي تلقّب بلقب خليفي وهو المعتزّ بالله . «فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، وقُتِل المعتزّ لخمسٍ بقينَ من رمضان [367 هـ / 6 مايو 978م] ، وملك خزرون سجلماسة وبعث برأس المعتزّ إلى الأندلس»[66م] . وهكذا تصبح سجلماسة لأوّل مرّة تابعة للأمويّين الذين ولّوا عليها خزرون بن فلفل بن خزَر الزناتي . وسيثير تعاظم سلطة الزناتيّين ردود فعل قويّة من قِبَل الصنهاجيّين.

---

64) لا شكّ أنّ صاحب **البيان** (230/1 – 231) قد أخطأ عندما ذكر أنّ بلكّين حاصر سبتة سنة 367 هـ (عوض 369 هـ) «وبعث إليه ابن أبي عامر برأس جعفر بن علي ، أراد أن يرضيه بذلك» . وذلك لأنّ نفس المؤلّف (تحقيق دوزي ، 300/2 – 301) ذكر أنّ المعنيّ بالأمر توفّي سنة 372 هـ . كما أخطأ صاحب **المؤنس** ، 72 – 73 عندما ذكر أنّ ابن أبي عامر قتل جعفر بن علي سنة 367 هـ (عوض 372 هـ) وبعث برأسه إلى بلكّين . والواقع أنّ هذه الأحداث قد جرت في سنة 372 هـ .

65) **البيان** ، 230/2 – 231 وجاء في **المفاخر** خطأً شعبان 369 هـ وذلك بسبب الخلط بين 7 و 9 .

66) **البيان** ، 230/1 – 231 ؛ و**مفاخر** ، 16 : «376 هـ» عوض «367 هـ» ؛ **الكامل** ، 264/8 : «365 هـ» ؛ **إسبانيا الإسلاميّة** ، 261/2 : «ربيع 980 / شعبان 369 هـ» ؛ ابن حوقل ، 107/1 ؛ فورنال ، 355/2 والإحالة 5 .

66م) [**البيان** ، 231/1] .

الحملة العسكريّة الكبرى على المغرب ووفاة بلكّين :

أ- المرحلة الأولى، حتى الاستيلاء على البصرة[67] :

غادر بلكّين إفريقيّة في اتّجاه المغرب يوم الأربعاء 24 شعبان 368هـ/ 27 مارس 979م[68]، ورغم اقتضاب المعلومات الواردة في المصادر، فإنّها تشير إلى السّرعة الفائقة التي اكتستها العمليّات الحربيّة خلال المرحلة الأولى من الحملة. فقد زحف بلكّين على فاس على رأس ستة آلاف فارس من خيرة الفرسان[69]، وتمكّن حسبما يبدو من انتزاع المدينة من أيدي عَامِلَيْها : عامل عدوة القرويّين الذي لقي حتفه وعامل عدوة الأندلسيّين الذي صاحب الأمير حتى ضواحي سبتة[70].

وأثناء إقامة بلكّين بفاس تمّ بناء جامع الأندلسيّين الذي ما زال قائم الذات، ويوجد به منبر يحمل ظهره الذي استعمل من جديد فيما بعد، تاريخ شوّال 369هـ/ 20 أفريل- 19 ماي 980م[71].

واستولى بلكّين بعد ذلك على سجلماسة[72] التي تجمّع بها الزناتيّون فهزمهم وأعدم أمير مغراوة ابن خزر[73]. ثم استولى على بلاد الهبط، وفرّ جميع عمّال بني أميّة والزناتيّين والمغراويّين وبني يفرن[74]، متّجهين نحو سبتة، ومن بينهم يحيى بن علي صاحب البصرة.

فاقتفى بلكّين أثرهم حتى سبتة، ووصل إلى أَعْلَى ربوة تطوان، بعدما تقدّم بصعوبة عبر الأدغال التي قطع أشجارها وأحرقها. ومن أعلى جبل النّور المشرف على المدينة أبصر معسكر الزناتيّين المنتصب في أسفل أسوار القلعة، فتعجّب من كثرة الرجال المحتشدين هناك، وأهميّة الإمدادات الواردة من الأندلس. ذلك أنّ أمير مغراوة محمّد بن الخير قد استنفر ابن

---

67) **البيان**، 230/1-232 و316/2؛ **العبر**، 156/6؛ **مفاخر**، 16-18؛ **المؤنس**، 74؛ **إسبانيا الإسلاميّة**، 261/2-262؛ **تاريخ المغرب**، 187/1-188.

68) **البيان**، 231/1، يذكر اليوم (وهو نظريًّا الخميس). المصادر متفقة على أنّ الحملة قد جرت في سنة 369هـ.

69) **مفاخر**، 17.

70) **القرطاس**.

71) هانري تراس، **جامع الأندلسيّين**، منشورات معهد الدراسات العليا المغربيّة، باريس.

72) حسب ابن خلدون، **البربر**، 256/3، «خلف وانودين بن خزرون بن فلفل أباه بسجلماسة»، **اسبانيا الإسلاميّة**، 261/2؛ **مفاخر**، 16.

73) **العبر**، 156/6.

74) **مفاخر**، 17؛ **البربر**، 11/2 و236/3.

أبي عامر الذي أعدّ له جيشًا وسار على رأسه إلى أن وصل إلى الجزيرة وأشرف على تحوّله إلى سبتة ، وكان قد عهد بقيادته إلى جعفر بن علي الذي تسلّم مائة حمل من الذهب ، وبعدما عبر المضيق التحق بزعماء زناتة ونظّم صفوف جيشه ، استعدادًا للمعركة. وأمام هذا المشهد استشار بلكّين رجاله ، كما أخذ رأي عامل فاس السابق عبد الكريم الذي كان يرافقه. فأشار عليه بالعدول عن الهجوم على تلك المدينة المحصّنة ، لأنّ العدوّ سوف يبدي مقاومة مستميتة لو تعذّر عليه الخروج من المدينة ، وربّما يتعرّض الأمير لهجوم الزناتيّين من خلف ، دون أن يستطيع الإفلات من قبضتهم ، لو مُنِيَ بالهزيمة. وحتّى لو انتصر فإنّه سيتكبّد خسائر جسيمة ، ويقال إنّ بلكّين ، بعدما فكّر مليًّا في الأمر ، أمر بإعدام عبد الكريم ، حتى لا يتفطّن الزناتيّون للمخطّط الذي عرضه عليه ، وليتخلّص أيضًا من شخص مُخطِر.

وأمام إستحالة إخضاع المدينة بدون دعم أسطول قادر على الحيلولة دون وصول الإمدادات القادمة من الأندلس ، ونظرًا لقلّة عدد جيوشه ، قرّر بلكّين العدول عن الهجوم على سبتة التي شبّهها – حسبما يُقال – بأفعى متأهّبة للعضّ. وتوجّه نحو البصرة ، فاستولى عليها ونهبها وأمر بهدمها[75] وعاد الزناتيّون إلى أراضيهم. ثم زحف على أصيلا[76] التي لا شكّ أنّه قد استولى عليها ، رغم أنّ المصادر لم تشر إلى ذلك ، ومن هناك تحوّل إلى برغواطة[77].

وحسب رواية ابن خلدون[78] ، فإنّ بلكّين ، بعدما أجلى مغراوة وبني يفرن إلى المغرب الأقصى ، سمح لبني ومانو وبني الومي بالبقاء في الأراضي التي يحتلّونها. وقد صارت هاتان القبيلتان من القبائل التابعة لصنهاجة. ولكن يصعب علينا – ويا للأسف – التأكيد هل أنّ انضمام هاتين القبيلتين المكناسيّتين – حسبما يبدو – قد حصل إثر حملة 360 – 361 أم إثر حملة 368 – 373؟

---

75) **البيان** ، 235/1 – 237 ، الفصل المخصّص للبصرة.

76) نفس المرجع.

77) حول هذه القبيلة ، أنظر: **البيان** ، 223/1 – 227 ؛ البكري ، 134 – 141 ؛ **إسبانيا الإسلاميّة** ، 189/2 – 190 ؛ وحول أصل برغواطة أنظر الحُمَيْدي ، 33 ، الإحالة 1. كانت هذه القبيلة تحتلّ منطقة تامسنا في أقصى المنطقة الغربيّة من شمال المغرب الأقصى ؛ البكري ، 14 ، وصل إلى قرطبة سنة 352 هـ/963م مبعوث من ملك برغواطة يدعى زمّور.

78) وأضاف المؤلّف أنّ بني ومانو أصبحوا زعماء بني حمّاد ، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لبني إلومي. وبعد سنة 470 هـ/ 1077 – 1078م ساعدت هاتان القبيلتان المرابطين ضدّ المنصور بن النّاصر.

وفي موضع آخر[79] يشير المؤلّف ذاته بنفس الغموض الذي يكتنف تواريخ الوقائع، إلى أنّ بلكّين، بعدما انتزع المغرب الأوسط من أيدي الأمراء المغراويّين وبني خزر، عقد حلفًا مع المكناسيّين الذين أصبحوا تابعين لبني زيري.

ب- المرحلة الثانية : الحملة على برغواطة[80] :

«كان ملك برغواطة صالح بن عيسى بن أبي الأنصار، وكان فصيحًا شاعرًا، فأطاعوه حتى جعلوه نبيًّا»[81]. وقد هزمهم بلكّين شرّ هزيمة أثناء معارك طاحنة، وقتل المفتري وسبى النسوة والأطفال وأرسل السبي إلى إفريقيّة. وفي يوم السبت 8 ربيع الأوّل 371هـ/ 11 سبتمبر 981م[82] دخل أسرى برغواطة إلى القيروان، فلقيهم عامل بلكّين عبد الله الكاتب مع سكّان القيروان والمنصوريّة، «ورأى أهل إفريقيّة من السّبي ما لم يَرَهُ أحدٌ منهم لكثرته».

وهناك إشارة هامّة في بعض المصادر تفيد ما يلي :

«أقام أبو الفتوح في بلاد الغرب. فكانت السجلاّت تَرِدُ عليه من مصر فتصله على البريد إلى فاس أو غيرها، ثم يرجع بها إلى عامل إفريقيّة [أي عبد الله الكاتب] فتُقْرَأ بعد مدّة من تاريخها»[82م].

وفي سنة 371هـ/ 981-982م، «وصل باديس بن زيري من مصر برسالة [من العزيز بالله] إلى أبي الفتوح يأمره بتخيّر ألف فارس من إخوته الأبطال صنهاجة، منهم حبُّوس ومَاكْسَن، وزاوي، وحَمَامة، بنو زيري، وبنو حَمَامة بن مناد، وزاوي بن مناد، ونظرائهم. فكتب إليه [بلكّين من بلاد الغرب] يعرّفه بتغلّب بني أميّة أمراء الأندلس على بلاد الغرب، وأنّ الدعاء لهم فيه على المنابر، وأنّه قد خرج لمحاربتهم بهؤلاء الرجال الذين

---

79) **البربر**، 271/1.

80) **البيان**، 237/1؛ **الكامل**، 14/9؛ النويري، 114/2-115؛ **العبر**، 156/6؛ **مفاخر**، 18؛ **المؤنس**، 75.

81) **البيان**، 237/1. وحول أبيه : أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي عُفَيْر محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف، أنظر : **البيان**، 225/1 والبكري، 137. وهذا الشخص هو الذي جعل منه ابن خلدون (**البربر**، 12/2، 131) والنويري (114/2) وابن الأثير، (**الكامل**)، خصمًا لبلكّين، وهو خطأ.

82) يذكر **البيان** اليوم، وهو نظريًّا الأحد.

82م) [**البيان**، 237/1].

سمّاهم أمير المؤمنين ، فإن عزم على بعثهم إليه ، ترك الغرب وسار بنفسه في جملتهم . فلم يُعِدْ إليه جوابًا فيهم»[83] .

وفي سنة 372هـ / 26 جوان 982 – 14 جوان 983م ، غادر بلكّين بلاد برغواطة وقفل راجعًا[84] .

وقد أكّدت عدّة مصادر أنّ ابن أبي عامر ، سعيًا منه إلى التقرّب من بلكّين ، بعث إليه برأس قاتل أبيه زيري بن مناد ، وهو جعفر بن علي بن حمدون الذي قُتِلَ يوم الأحد 3 شعبان 372هـ / 21 جانفي 983م[85] . وتبدو هذه المبادرة غريبة ، لا سيما وأنّ ابن أبي عامر قد ادّعى أنّه لم يكن له أيّ ضلع في قتل جعفر بن علي ، بل تظاهر بالبكاء عليه . ولكنّ شقيق القتيل يحيى بن علي لم يغترّ بذلك . وقد أبعده الطاغية الأندلسي إلى المغرب بعد المشادّة الحادّة التي جرت بينهما . فتوجّه إلى سجلماسة وأخذ احتياطاته لكي لا يقابل بلكّين ، ومن هناك ارتحل إلى مصر عبر الصحراء . ولمّا وصل إلى القاهرة استقبله العزيز بالله استقبالاً حارًّا وشكره على التصريح الذي كان أدلى به في قرطبة عندما اضطهده الحَكَم ، فقد خاطبه قائلاً : «هذا جزاء من فضّل بني أميّة المروانيّين على ذريّة فاطمة ابنة الرسول ﷺ» . ولمّا علم بلكّين بوصوله إلى مصر اغتاظ وقرّر الانتقام منه ، فاحتجز أحد أبنائه يقال له عامر ، كان قد بقي بالمغرب بعد رحيل والده فأمر بقتله . ومكث يحيى بن علي مدّة طويلة بمصر ، حيث أدّى خدمات جليلة إلى الفاطميّين . وسيدور الحديث حوله من جديد في عهد باديس[86] .

ومن ناحية أخرى ، بعد مدة قليلة من وفاة بلكّين ، سمح العزيز بالله ، بإشارة من وزيره يعقوب بن كلس ، للحسن بن كنون الإدريسي اللاّجئ في بلاطه ولأفراد عائلته بالعودة إلى

---

83) نفس المرجع . وممّا تجدر الإشارة إليه بهذه المناسبة أنّ بعض كتّاب التراجم ذكروا خلافًا للواقع أنّ بلكّين حضر بالقيروان في جنازة الفقيه ابن أخي هشام يوم 7 صفر 371هـ أو 375 . ولا بدّ أنهم خلطوا بين الأمير وبين عبد الله بن محمّد الكاتب الذي كان يحكم إفريقيّة باسمه . أنظر : ادريس ، **المجلّة الإفريقيّة** ، سنة 1956 ، صفحة 356 والإحالة عدد 38 .

84) **البربر** ، 131/2 ، ويؤكّد النويري أنّ بلكّين قد قفل راجعًا واستولى على فاس وسجلماسة وبلاد الهبط والبصرة وسائر بلاد المغرب . ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بالتذكير بغزوات بلكّين السابقة .

85) هذه الواقعة مؤرّخة بسنة 367 هـ / 977 – 978م في كلّ من **المؤنس** ، 72 – 73 ، 75 و**البيان** ، 231/1 . ولكنّ المصدر الأخير قد أورد في موضع آخر التاريخ الصحيح ، 300/2 – 301 .

86) ابن الأبّار ، **الحلّة** ، 305 – 307 ؛ **البربر** ، 557/2 .

المغرب ، لانتزاع مملكتهم من أيدي بني أميّة . وبطلبٍ من الخليفة ، قدّم بلكّين إلى الحسن إعانات ماليّة ووضع على ذمّته كوكبة من الجنود الصنهاجيّين ووعده بزيادة الاعانة في الوقت المناسب . وتمكّن الحسن من جلب عدد كبير من بني يفرن إلى حظيرته ، وفي مقدّمتهم قائدهم يدّو بن يعلى وشقيقه زيري وابن عمّه أبو يدس . ولكنّ القائد الأموي عمرو بن عبد الله عسكلاجة الذي نزل بالمغرب سنة 375هـ / ماي 985 – ماي 986م ، قد أحبط تلك المحاولة الرامية إلى إرجاع الأدارسة إلى العرش ، لا سيما وأنّها لم تَحْظَ بمساندة المنصور ، خليفة بلكّين ، الذي كان آنذاك مشغول البال بقضايا أخرى . وانضمّ بنو يفرن إلى صفّ الأمويّين ، في حين أصبح المغراويّون بقيادة زيري بن عطيّة يسيطرون على شمال المغرب الأقصى لحساب بني عامر[87] .

وفي سنة 373هـ / 983 – 984م ، بعد وفاة بلكّين ، حسب الاحتمال ، «انتقل أولاد زيري بن مناد وهم : زاوي وحمامة وماكسن ، إخوة بلكّين إلى الأندلس . وسبب ذلك أنّه وقع بينهم وبين أخيهم حمّاد حروب وقتال على بلاد بينهم . فغلبهم حمّاد ، فتوجّهوا إلى طنجة ومنها إلى قرطبة ، فأنزلهم محمّد بن أبي عامر وسُرَّ بهم وأجرى عليهم الوظائف وأكرمهم»[88] . وقد شاركوا في الحرب بكلّ بسالة تحت راية بني أميّة .

وفاة بلكّين[89] :

ما إن خفّف بلكّين الخناق على البصرة وشمال المغرب الأقصى ، حتى رجع بنو يفرن ومغراوة إلى الأراضي التي أُخْرِجوا منها . وبينما كان بلكّين يبتعد عنها ، إذ دخل وانودين[90] بن خزرون بن فلفل إلى سجلماسة فأطرد عامل بني زيري ونهب ما فيها من أموال ومدّخرات . وعندما بلغ هذا الخبر إلى بلكّين ، عاد على عقبيه في اتّجاه سجلماسة التي كان

---

87) **مفاخر**، 19 ؛ **البربر**، 151/2 – 152 ، 218/3 – 219 ؛ **البيان**، 301/2 – 302 ؛ **تاريخ المغرب**، 188/1 ؛ **إسبانيا الإسلاميّة**، 263/2 .

88) **الكامل**، 13/9 – 14 .

89) النويري ، 115/2 – 116 ؛ **البيان**، 239/1 ؛ **الكامل**، 14/9 ؛ **العبر**، 156/6 ؛ **مفاخر**، 16 – 18 ؛ ابن خلّكان ، 93/1 ؛ **المؤنس**، 75 ؛ **شذرات**، 80/3 – 81 ؛ **البلدان** (إفريقيّة) ، 303/1 ؛ فورنال ، 36/2 ؛ **دائرة المعارف الإسلاميّة**، 812/1 ؛ **إسبانيا الإسلاميّة**، 261/2 .

90) جاء خطأً في **الكامل**، خلافًا للمصادر الأخرى : خزرون الزناتي عوض وانودين بن خزرون .

قد أتى منها(91) ولكنّه أصيب في طريقه إليها بِقُولَنج ، «وقيل خرجت في يده بثرة» . وحسب رواية ابن خلدون(92) ، غادر وانودين سجلماسة لمّا اقترب بلكّين منها ، ثم أعاد احتلالها لمّا علم أنّ بلكّين قد عاد على عقبيه من جديد ، لأنّه ربّما يكون قد شعر بقرب المنيّة . ومهما يكن من أمر ، فإنّ بلكّين قد أقعده المرض في مكان يقع بين سجلماسة وتلمسان ، ولعلّه يقع بالقرب من مجاز تازة . وقد حرّف النسّاخون اسم ذلك الموقع ، بحيث أصبح من الصعب ضبطه ضبطًا دقيقًا(93) . وفي ذلك المكان أدركته المنيّة يوم الأحد 21 ذي الحجّة 373 هـ / 25 ماي 984م(94) .

وقد حكم بلكّين ثلاث عشرة سنة وبضعة أشهر بوصفه أمير صنهاجة ، خلفًا لأبيه زيري بن مناد ، وحكم اثنتي عشرة سنة بوصفه(95) خليفة الفاطميّين . وترك من بعده عددًا كبيرًا من الأبناء ، إذ تشير بعض المصادر إلى أنّه ، قبل أن يستخلفه المعزّ على المغرب ، كانت له عدّة قصور بها أربعمائة حظيّة ، «حتى قيل إنّ البشائر وفدت عليه في يوم واحد بولادة سبعة عشر ولدًا»(96) .

* * *

---

91) حسب رواية **البيان** ، 239/1 ، وقد جاء فيه ما يلي : «وذلك أنّ ابن خزرون الزناتي ضرب على سجلماسة ، فدخلها وأخذ ما كان فيها من الأموال ، وكان بها عامل أبي الفتوح (بلكّين) ، فأتاه الخبر بذلك ، فرحل إليها» . وقد أكّد هذه الرواية كلّ من **الكامل** ، 14/9 و**المؤنس** ، 75 . ولكنّ المصادر الأخرى أهملتها واقتصرت على الإشارة إلى رجوع بلكّين إلى سجلماسة ولم تذكر رجوعه إلى الوراء في اتّجاه تلك المدينة ، أنظر مثلاً : النويري ، 115/2 و**العبر** ، 12/2 ، 131 ؛ 250/3 .

92) **العبر** ، 256/3 .

93) **البيان** : «واركنفو» ؛ النويري : «وركس – واركيين – وركيين» ؛ **الكامل** : «وارقلين» ؛ **المؤنس** و**شذرات** : «واركلان» ؛ **العبر** : «واركش» ؛ **البربر** : «وركسن» . وأشار فورنال إلى أنّ الأمر ربّما يتعلّق بوادي وَارْجّين قرب مجاز تازة في بلاد مكناسة ووادي صاء الذي أشار إليه البكري ، 142 .

94) وحسب **البيان** : «يوم الأحد لتسع بقين من ذي الحجّة» ، والجدير بالملاحظة أنّ هذا الشهر من سنة 373 هـ يشتمل على ثلاثين يومًا . وحسب **الكامل** والنويري وابن خلّكان و**المؤنس** : «لسبع بقين من ذي الحجّة» . وقد أوضح صاحب **شذرات** أنّ تاريخ الوفاة يصادف يوم الأحد ، فينبغي اعتماد التاريخ الوارد في **البيان** ، إذ أنّه مطابق لتلك الإشارة .

95) النويري .

96) **الكامل** ، 14/9 . أنظر أيضًا : النويري ، 115/2 – 116 ، نقلاً عن ابن حزم ، كتاب **نقط العروس** ، وأنظر ابن خلّكان الذي أشار إلى وجود حوالي 1000 رجل و1000 امرأة من أقاربه في نفس المكان .

لقد كرّس أمير أشير وأوّل ملوك بني زيري كلّ جهوده ، قلبًا وقالبًا ، لمقاومة الزناتيّين في المغرب الأوسط ، محقّقًا بذلك الآمال التي علّقها عليه مخدومه الخليفة الفاطمي ، إلاّ أنّه قد ظهر منذ ذلك الحين أنّ تسليم إفريقيّة إلى عامل عربيّ قويّ النّفوذ يمثّل حلاً على غاية من الخطورة ، يتعيّن العدول عنه إن عاجلاً أو آجلاً . وسوف لا يتأخّر المنصور بن بلكّين كثيرًا قبل الشعور بذلك الخطر وتفاديه .

الفصل الثاني
ولاية المنصور
(374 - 386 هـ/984 - 996م)

ارتقاء المنصور إلى الإمارة[1] :

قبل أن يلفظ يوسف بلكّين أنفاسه الأخيرة ترك وصيّته لأبي زَعْبَل بن هشام، وكان من مواليه ومن أشدّ القوّاد إخلاصًا له. فكتب أبو زعبل إلى المنصور الموجود آنذاك بمدينة أشير، وقد كان عاملاً عليها[2]، ليعلمه بوفاة والده.

والجدير بالملاحظة أنّ المصادر التي بين أيدينا لم تفدنا بأيّ شيء من المعلومات حول المنصور قبل إرتقائه إلى الإمارة بمدينة أشير في أوائل سنة 374 هـ/984م، بل إنها لم تذكر لنا حتى تاريخ ولادته ولم توفّر لنا أيّ مؤشّر زمني لمعرفة ذلك التاريخ. إلاّ أنّ أعماله الأولى تدلّ على أنّه كان رجلاً مكتملاً.

ونحن نتذكّر أنّه كان قد غادر للمرّة الأولى مسقط رأسه أشير في سنة 370 هـ/ 980 - 981م لتقديم هديّة إلى الخليفة الفاطمي، ثم قفل راجعًا إلى المغرب بعدما أقام مدّة قصيرة برقّادة.

وما إن علم المنصور بوفاة والده، حتى أوفد أخاه يطّوفَت إلى إفريقيّة، «وأمره أن يَطْوِيَ المراحل إلى القيروان والمنصوريّة برَسم القبض على عبد الله بن محمّد الكاتب، وكان بالمهديّة، ونائباه على المنصوريّة جعفر بن حبيب وعلى القيروان بَرْهُون العامل. فصبّحهم يَطُّوفَت سَحَرَ يوم الثلاثاء منتصف المحرّم [374 هـ/ 18 جوان 984م]. فنظر إلى الخزائن مُغْلَقة وإلى بيت المال مُقْفَلاً، فأخذ المفاتيح وفتح بيت المال وبيت السّلاح وفرّق على أصحابه، وركّبَ من كان مُتَرجّلاً من الصنهاجيّين بالمنصوريّة، ثم خرج، والتقى مع

---

1) **البيان**، 239/1 - 240؛ النويري، 116/2 - 117؛ **الكامل**، 14/9، 52؛ **العبر**، 51/6؛ **المؤنس**، 75 - 76؛ **أعمال**، 453. وحسب إشارة أوردها صاحب **الاستبصار المجهول**، فإن لقب حبوس الذي كان يحمله الأمير قد تفوّق - حسبما يبدو - على لقب المنصور الذي كان في أوّل الأمر لقبًا شرفيًّا. ولكن ربّما وقع الخلط بين الأمير المنصور وبين ابن زيري الثالث بغرناطة، واسمه باديس بن حبوس.

2) **العبر**، 157/6.

عبد الله الكاتب في بعض الطريق ، فوثب عليه وأَرْجَلَهُ عن فرسه ، وانْتُهِبَتْ أسبابُه واعْتُقِلَ بالمنصوريّة أيّامًا»[3].

وبعد ذلك بقليل «أمر المنصور بإطلاقه ورفع يَدَه عن البلد ، ثم عاد الأمر إلى عبد الله بن محمّد[4] ، فأمر بالقضاة ووجوه القوم من شيوخ القيروان [وأصحاب الخراج][5] وغيرهم ، وتوجّه معهم بِرَسْم التهنئة والتعزية للمنصور».

فلمّا وصلوا إلى أشير ، وكان عددهم يقدّر بمائتَيْ رجل ، «وجدوا المنصور خارج البلد على جبلها. فسلّموا عليه وقبّلوا يَدَه ودَعَوْا له ، فقال لهم : «يعزّ عليّ حركتكم في هذا الزّمان[6] إلاّ أنّ سروري برؤيتكم أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها»[7].

ثم شكر عبد الله الكاتب ، وذمّ فعل أخيه [يطّوفت] ، ثم أمر عبد الله الكاتب أن يدفع للوافدين عليه عشرة آلاف دينار ضيافةً ، فَدَعَوْا له وانصرفوا»[8].

ومن الغد عقد لهم «مجلسًا عظيمًا ودخلوا عليه وهو في زيّ عجيب من ضخامة الملك ، وأوقف حوله الصّقالبة والأجناد وأظهر لهم من الأبّهة ما أبهر عقولهم»[9].

«وفي خامس يوم من وصولهم أمر بهم فدخلوا عليه فلاطفهم ، وممّا قال لهم : «إنّ أبي وجدّي كانا يأخذان النّاس بالقهر ، وأنا لا آخذ أحدًا إلاّ بالإحسان. وما أنا في هذا الملك ممّن يُوَلّى بكتاب ويُعْزَل بكتاب ؛ ولا أشكر على هذا الملك إلاّ الله سبحانه وتعالى ، لأنّي ورثته عن آبائي وأجدادي وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حِمْيَر».

ثم أمر لهم بالانصراف إلى بلادهم وأَوْلَى عبد الله الكاتب جميع إفريقيّة والنظر في أمورها على ما كان عليه في أيّام أبيه. فكانت مدّة مسيرهم ورجوعهم خمسة وثلاثين يومًا»[10].

---

3) **الكامل** ، 52/9.
4) **المؤنس** ، 78.
5) «أصحاب الخراج» حسب النويري لا غير.
6) تمّت هذه المقابلة في الصيف.
7) **المؤنس** ، 78.
8) **البيان** ، 52/9.
9) **المؤنس** ، المرجع المذكور.
10) حسبما جاء في **المؤنس** لا غير.

هذا وقد ورد وصفُ المنصور في أغلب المصادر[11] بعبارات مماثلة. والغالب على الظنّ أنّه مقتبس من مصدر واحد، ربّما يكون كتاب المؤرّخ الرسمي الرّقيق الذي نقل عنه ابن عذاري الكلمات التالية :

«قال الرّقيق : وقد ذكرتُ سيرته وحروبه وعطاياه في كتاب مُفْرَدٍ لأخبار جدّه وأبيه وأخباره»[12].

وقد جاء في وصف المنصور ما يلي :

«كان أبو الفتح المنصور عدّة العزيز بالله كريمًا، سمحًا، جَوَادًا، صارمًا، عازمًا»[13]. «وكان رجلاً عاقلاً عفيفًا، يحبّ الرفق بالأمر»[14]. ويدلّ الخطاب الذي توجّه به إلى القيروانيّين – سواء أكان صحيحًا أم منتحلاً – ما كان يتميّز به من خصال وما كانت تخالج فكره من نوايا سياسيّة.

قدم المنصور إلى رقّادة يوم الاثنين 19 رجب 374هـ/ 16 ديسمبر 984[15]، «فتلقّاه عبد الله الكاتب في خلق عظيم من أهل القيروان، فأظهر للنّاس الخير ووعدهم بكلّ جميل وأتاه العمّال بالهديّة والأموال وأعطاه عبد الله هدايا جليلة. ثم أخذ المنصور في جهاز هديّة بعثها إلى مصر مع زروال بن نصر، فقيل إنّ قيمة ما كان فيها من الأمتعة والدوابّ والطُّرَف ألف ألف دينار عينًا»[16].

وأثناء إقامته برقّادة «ولّى المنصور الأعمال واستعمل الأمراء واستخلف عبد الله الكاتب على جباية الأموال بالقيروان والمهديّة وجميع إفريقيّة»[17]. وصام رمضان برقّادة وأمر ببناء مصلّى للعيد فيها[18].

ويوم عيد الفطر (أوّل شوّال 374هـ/ 25 فيفري 985م)[19]، «خرج للصلاة بسرج

11) **البيان**، 239/1؛ النويري، 122/2؛ **الكامل**، 52/9؛ **المؤنس**، 78.
12) **البيان**، 239/1.
13) نفس المرجع.
14) **المؤنس**، 78.
15) النويري، هذا التاريخ يقابل نظريًا يوم الثّلاثاء.
16) **البيان**، 240/1.
17) **الكامل**، 14/9.
18) **المؤنس**، 78.
19) حسب السياق يتعلّق الأمر بعيد الفطر. ولكن يبدو، حسبما سنرى فيما بعد، أنّ المنصور قد قضى أيضًا في رقّادة عيد الأضحى (10 ذو الحجّة).

مكلّل بالدرّ والياقوت في أحسن زيّ ، وخرج إليه من القيروان خلق عظيم » ، فصلّى بالمصلّى وخطب القاضي ابن الكوفيّ[20] ، ثم قفل راجعًا إلى قصره.

وحسب رواية ابن خلدون لا غير[21] ، تسلّم المنصور في صبرة المنصوريّة الوثيقة الرسميّة التي ولاّه بها العزيز بالله على إفريقيّة والمغرب حسب نفس الشروط التي فُرِضَت على أبيه. وفي الحين عهد إلى عمّه أبي البهار بعمل تاهرت ، وإلى أخيه يطّوفت بعمل أشير.

حملة يطّوفت وارتحال المنصور إلى المغرب[22] :

تشير المصادر – بدون أيّ تحديد زمني –[23] إلى أنّ المنصور قد وجّه أخاه يطّوفت سنة 374 هـ / 984 – 985م ، على رأس جيش إلى فاس وسجلماسة «يطلب ردّهما وردّ تلك البلاد الغربيّة ، إذ كانت خرجت عن طاعة صنهاجة عند وفاة أبي الفتوح ، فوصل إلى مدينة فاس ، وكان بها زيري بن عطيّة الزناتي الملقّب بالفرطاس[24]. فلمّا أحسّ بوفادة يطّوفت بن أبي الفتوح ، عاجل بالخروج إليه والهجوم عليه. فقاتله قتالاً شديدًا حتى انهزم يطّوفت وظفرت زناتة بصنهاجة ، فاتّبعوهم وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وأسّروا آخرين وهرب الباقون إلى تاهرت. وهُزِم في هذه الواقعة قائدان له[25] اسمهما ابن شعبان وابن عامل ، فَسُمِّر ابن شعبان على باب فاس وقُتِلَ ابن عامل شرّ قتلة ، وبقي زيري بن عطيّة مالكًا لفاس وما حولها».

«ولمّا بلغ المنصور هزيمة أخيه ، خرج من المنصوريّة يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلَت من ذي الحجّة [374 هـ / 7 ماي 985م][26] بِرَسْم الغرب ، خرج ومعه عبد الله

---

20) ولا «ابن الكومي» ، كما جاء في **البيان** ، 240/1.

21) **العبر** ، 157/6.

22) المصدران الرئيسيّان اللذان يتكاملان هما : **البيان** ، 240/1 – 241 ، والنويري ، 117/2. أنظر أيضًا : **الكامل** ، 14/9 و**العبر** ، 13/2 و**المؤنس** ، 76.

23) لقد جرت هذه القضية حسب **البيان** ، مباشرة بعد ولادة باديس (13 ربيع الأوّل 374 هـ / 14 أوت 984م) ، في حين يتحدّث عنها النويري بعد رجوع المنصور إلى المغرب.

24) «الفرطاس» حسب **البيان** ، لا «القرطاس» (قراءة **الكامل**).

25) في عبارة «قائدان له» ، الضمير مبهم ، وقد أسندناه إلى يطّوفت لا إلى زيري بن عطيّة.

26) حسبما جاء في **البيان** لا غير ، وهذا التاريخ يوافق نظريًّا يوم الثلاثاء.

الكاتب ، واستخلف عبدُ الله على القيروان ابنَه يوسف [الذي سار سيرة حسنة][27] . ثم رجع عبد الله بعد ذلك بعمالة إفريقيّة كلّها »[28] ، وذلك لا محالة إثر رجوعه من المغرب . وأقام المنصور برقّادة ربّما لترتيب سفره ، إلى يوم الأربعاء 26 ذي الحجّة 374 هـ / 20 ماي 985م[29] ، وهو تاريخ تحوّله إلى أشير. وبعث إلى يطّوفت بجيش آخر بقيادة عبد الله الكاتب ، لنجدته ، فتلقّاه بتاهرت[30] . ثم تحوّل يطّوفت إلى أشير مع بقايا جيشه وجيش عبد الله الكاتب ، للالتحاق بأخيه[31] . «ولم يتعرّض المنصور بعد ذلك إلى بلاد زناتة»[32] التي أصبحت مسرحًا للتنافس بين زيري بن عطيّة وسعيد بن خزرون ويدّو بن يعلى. وتُعْتَبَر هذه الإشارة من الأهمّيّة بمكان. فهل سيكرّس بنو زيري جهودهم بعد ذلك للمغرب الأوسط وإفريقيّة على وجه الخصوص ، بعدما قرّروا التوقّف عن مطاردة الزناتيّين بالمغرب الأقصى؟ ومهما يكن من أمر فإنّ توغّل الصنهاجيّين في المناطق الشرقيّة من بلاد المغرب سيتفاقم أكثر فأكثر اعتبارًا من ذلك التاريخ.

بناء قصر المنصوريّة[33] :

«وفي سنة 375 هـ [24 ماي 985 – 12 ماي 986م] أمر أبو الفتح المنصور أن يُعْمَلَ بالقيروان[34] – [وفي رواية أخرى بجامع القيروان][35] – أبوابٌ من حديد ، وأمر ببناء قصره الكبير بصبرة المنصوريّة». وقد تمّ بناؤه بسرعة فائقة خلال السنة الموالية (376 هـ / 13 ماي 986 – 2 ماي 987م) ، بعناية يوسف بن عبد الله الكاتب. «فبلغ إنفاقه فيه قبل تمامه مائة ألف دينار». وأحاط ذلك القصر والقصر المجاور له الذي كان قد بناه شفيع الصقلبي صاحب

---

27) لقد أهمل البيان هذا الوصف وذكره النويري.
28) **البيان** ، 240/1 – 241 .
29) حسب النويري ، 117/2 لا غير.
30) **البيان** ، المرجع المذكور.
31) النويري ، **المؤنس** ، **العبر**.
32) **البيان** ، المرجع المذكور.
33) نفس المرجع ، 241/1 .
34) نفس المرجع (المخطوط ب).
35) نفس المرجع (المخطوط أ).

المظلّة[36] ، بسور واحد ، وغرس حوله الأشجار من كلّ ناحية ، فبلغ الانفاق عليه ثمانمائة ألف دينار[37] .

ووصل المنصور إلى إفريقيّة قادمًا من أشير يوم الاثنين 15 محرّم 377 هـ / 17 ماي 987 م[38] ، ونزل في القصر الجديد ، «وأتى معه عبد الله الكاتب وجميع عساكره ووجوه بني عمّه ورجاله» . ولا شكّ أنّ عبد الله قد استرجع وقتئذ جميع سلطاته بوصفه عاملاً على إفريقيّة .

مقتل عبد الله الكاتب[39] :

«بلغ عبدُ الله بن محمّد الكاتب مع المنصور ما لم يبلغه أحدٌ من قرابته وأهل بيته ودولته ، وانحصرت أموره كلّها تحت قبضته ، فجمع الأموال ، ورتّب الأحوال وأعطى السياسة والرياسة حقّها» . وكان عبد الله المعروف «بالمختال» «لا يداري أحدًا من أولاد زيري ولا أكابر الدولة» . وكان أهل القيروان المالكيّة يبغضونه سواء من أجل إفراطه في الجباية أو لقيامه بالدعوة للمذهب الشيعي في حياة الفقيه القيرواني ابن التبّان (المتوفّى سنة 371 أو 373 هـ / 981 — 983 م) ، حسب بعض المصادر[40] . فقد حاول حمل علماء القيروان وحتى الشاعر ابن البقّال[41] على اعتناق المذهب الشيعي .

ولا نستغرب من انضمام ذلك الرجل إلى الإسماعيليّة ، إذا ما تذكّرنا تحمّس أجداده الأغالبة للمذهب الحنفي ، ومع ذلك فإنّ كثيرًا من الحنفيّين ، ومنهم قاضي المعزّ الشهير أبو حنيفة النعمان ، قد اعتنقوا المذهب الشيعي .

---

36) أنظر حول «صاحب المظلة» في عهد المعزّ لدين الله الفاطمي ، **الاتّعاظ** ، 191 — 196 .

37) **المؤنس** ، 78 .

38) النويري ، 117/2 ، هذا التاريخ يوافق نظريًّا يوم الثلاثاء .

39) نفس المرجع . أنظر أيضًا : **البيان** ، 342/1 — 343 ؛ **العبر** ، 157/6 ؛ **الكامل** ، 21/9 ، وقد جاء فيه خطأً أنّ هذه الحادثة قد جدّت في سنة 376 هـ/986 م ؛ **معالم** ، 113/3 ؛ **مفاخر** ، 13 ؛ **مناقب** ، 230 ؛ ابن قنفطي ، 2 ، رقم 394 ، ص 179 .

40) **معالم الإيمان** ، 113/3 .

41) حول هذا الشاعر ، أنظر الباب الثاني عشر من هذا الكتاب .

وإنّ ما كان يتميّز به عبد الله الكاتب من سلطة مطلقة وكبرياء ، كان لا بدّ له أن يثير حسد بعض الناس وارتياب الآخرين وحقدهم ، لا سيما وقد كان يظهر بمظهر الممثّل الشخصي للخليفة الفاطمي الذي لا شكّ أنّه كان على علم بما يُحَاك ضدّ أكبر عون من أعوانه في إفريقيّة. فهل كان الخليفة يريد تعزيز جانب «الكاتب» والمزيد من ضمان أمنه؟ ومهما يكن من أمر فقد قرّر أن يعهد إليه بأسمى منصب في الإمارة.

وحسبما رواه النويري[42] ، فقد وجّه العزيز بالله خطابًا إلى المنصور يعلمه فيه بأنّه قد عهد بمهمّة «الدعوة» إلى عبد الله بن محمّد الكاتب ويأمره بتطبيق ذلك القرار.

فامتثل المنصور إلى أمر الخليفة وفرش بالزرابي القسم التابع لقصر السلطان، المعروف بقصر البحر[43] . وفي يوم الاثنين 7 جمادى الثانية 377 هـ / 4 أكتوبر 987م[44] عقد مجلسًا حضره أقاربه ووجوه بني عمّه ، فدخل عبد الله الكاتب وتلقّى «الدعوة» ، أي أنّه أصبح «داعيًا» من دُعاة المذهب الإسماعيلي والإمام الفاطمي. ويُقَال إنّه ، إثر حفل التنصيب ، وضع يده على رأسه قائلاً : «الآن قد نجوت من الهلاك وأصبحت لا أخشى على شَعْري ولا على جلدي». وهو لا يدري أنّ ذلك التشريف – بالعكس ممّا كان يظنّ – سيكون سببًا في هلاكه[45] .

«فقد ألقى عنه حسن ابن خالته[46] إلى المنصور أمورًا من القدح في دولته ، وأنّه كان السبب في خروج الداعي الثائر أبي الفَهْم بكتامة[47] ، وأنّه كان يُصَغِّر خَبَرَه حتى تفاقم أمره». كما اتّهمه بأنه كتب إلى يعقوب بن كَلّس ، وزير العزيز بالله[48] ليقترح عليه تبادل

---

42) النويري ، 117 – 118.

43) لقد تحدّث النويري عن «قصر الحجر». وقد قرأنا هذه العبارة «قصر البحر» ، لأنّه لم يُعرَف أيّ قصر في المنصورية باسم «قصر الحجر» ، في حين غالبًا ما تتحدّث المصادر عن «قصر البحر» ، مثل قصر البحر الذي بناه العزيز في القاهرة (ابن خلّكان ، 152/2) وقصر البحر الموجود في قلعة بني حمّاد (أنظر الباب السابع من هذا الكتاب) . ولكن ألا يتعلّق الأمر – كما هو الشأن بالنسبة إلى مراكش – «بمحلّ مركزي مبنيّ بالحجارة وليس بالطوب مثل البناءات الأخرى» ، ولذلك سمّي قصر الحجر؟ (أنظر ليفي بروفنسال ، **تأسيس مرّاكش 462 هـ / 1070م**) في تحيّة جورج مارسي ، 119/2) .

44) يقابل نظريًّا يوم الثلاثاء.

45) حسب النويري ، وهو المؤلّف الوحيد الذي أشار إلى هذه القضيّة الهامة.

46) **البيان** ، المرجع المذكور.

47) أنظر الفقرات الموالية من هذا الباب.

48) أنظر حول هذا الوزير المصادر الفاطميّة وبالخصوص **الاتّعاظ** ، فهرس الأعلام ، 369.

السفارات معه ، وأنّه قد تعهّد بخيانة المنصور «ولمّا أحسّ وجوهُ بني زيري وأكابرُ الدّولة من المنصور بعض التغيّر عليه» ، زادوا في الوشاية به إلى أن خامرت المنصور كثير من الشكوك حول خليفته. ولكنّه أراد أن يراعيه ويحول دونه ودون إنجاز مشاريعه المخطرة ، فخاطبه قائلاً : «اْعتَزِلْ عن عَمَل إفريقيّة واقْتصِرْ على الخاتم والكتابة ! وكلٌّ من تولّى متصرّفٌ ، بين يديك وتحت أَمْرِكَ ! » فكان جوابهُ أن قال : «القَتْلة ولا العُزْلة»[49].

«فلمّا كان يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب [377 هـ / 6 نوفمبر 987 م] غدا إلى ديوان[50] قد بناه ، فجلس فيه لانتظار ركوب المنصور ، وبيده جزءٌ من القرآن ، يقرأ فيه حتى قيل له : «قد رَكِب» ، فأطلقه وركب فرسه بِرَسْم لقائه وهو يقول :

[طويل]

ومَنْ يَأْمنِ الدنيا يَكُنْ مِثْلَ قابِضٍ   على الماء خَانَتْهُ فُروجُ الأصابع»

وجاء في «**البيان المُغْرِب**» أيضًا أنّ عبد الله الكاتب ، «لمّا تنكّر له المنصور لا يزال يتمثّل بهذا البيت :

[طويل]

أَرَى أَلْفَ بانٍ لا يقوم لِهَادِمٍ   فكيف بِبانٍ خَوْلَه أَلْفُ هادِمٍ

وكان يتمثّل أيضًا بقوله :

[كامل]

لي مُــدَّةٌ لا بُــدَّ أَبْلُغُهــا   حتّــى إذا قَضَّيْتُهَــا مِــتُّ
لـو صَارَعَتْنِـي الأُسْدُ ضَارِيَــةً   لَصَرَعْتُهَا مَا لَمْ يَجِ الوَقْتُ»

«فلمّا وصل إليه المنصور ، نزل عبد الله إليه وسلّم عليه وقبّل يده ثمّ وقف . فدار بينهما كلام كثير لم يقف أحدٌ على صحّته . ثمّ طعنه المنصور برمحه ، فجعل أكمامه على وجهه وقال : «على ملّة الله وملّة رسوله ! » ، لم يُسْمَع له غيْرُ ذلك . وضربه عبد الله أخو المنصور برمح بين كتفيه فسقط إلى الأرض ميّتًا . ثم أُوتِيَ بابنه يوسف ، فضربه المنصور ومَاكْسن بن

49) حسب النويري ، أمّا البيان فقد أورد هذا الخطاب على لسان الوشاة.

50) وردت هذه الكلمة «ديوان» وكامل الفقرة في البيان فحسب . فهل لا يمكن قراءتها «إيوان» ، أي القصر الذي يتركب من عدّة صفوف من الأعمدة ويضمّ قاعة فخمة مفتوحة . وقد أكّد النويري التاريخ المذكور.

زيري ، فسقط ميّتًا»[51] . وينمّ هذا التشفّي من قِبَل بني زيري عمّا كانوا يضمرونه من حقد لممثل الخليفة الفاطمي .

ولمّا مات عبد الله وابنه يوسف ، التقى قاضي القيروان وشيوخها بالمنصور ، فقال لهم : «لم أقتل عبد الله من أجل المال أو لكسب أيّ شيء . إنّما قتلته خشيةً منه على نفسي» . فدعَوْا له بطول العمر وانصرفوا[52] .

ولعلّ العقوبة التي سُلّطَت على «الداعي» الشيعي وابنه قد أثلجت صدور أهل القيروان المالكيّة . إلاّ أنّهم سرعان ما تعرّضوا لردود فعل عنيفة من وَحْي الشيعة حسبما يظهر . «إذ دار العسكر على النّاس ، فانتهبوهم وسلبوهم وقطعوا الطرق فأخذوا كلّ من وجدوا من المسافرين وغيرهم ، ومالوا إلى وادي القصّارين وإلى باب تونس ، أحد أبواب القيروان ، فنهبوا ما كان عند القصّارين ، فذَهَبَتْ في ذلك اليوم أموال المسلمين وقُتِلَ خَلْقٌ ممّن دافع عن نفسه وماله»[53] .

أمّا عبدُ الله وابنه ، فقد دُفِنَا دون غَسْلٍ ولا كَفْنٍ في اصطبل المنصور ، تحت الحنايا ، بالقرب من قصره[54] .

«وولّى أعمال إفريقيّة من قِبَل أبي الفتح المنصور ، يوسف بن أبي محمّد ، وكان عاملاً على قفصة ، فأعطاه البنود والطبول وخلع عليه وولاّه إفريقيّة مكان عبد الله ، يوم الخميس 5 شعبان 377 هـ / 30 نوفمبر 987 م»[55] ، وأسكنه دار القائد جوهر[56] .

---

51) البيان ، 242/1 .

52) نفس المرجع .

53) نفس المرجع ، 243/1 .

54) حسب النويري .

55) حسب النويري «لخمسٍ خلون» (نظريًّا يوم الأربعاء) . وقد ذكر المؤلف تاريخ عزل يوسف بن محمد ، الذي لم يشر إليه صاحب البيان ، وهو يوم الأحد لسبعٍ بقين من ربيع الأوّل 382 هـ . وقد افترضنا أنّ هذا السهو هو الذي تسبّب في تعويض كلمة «خلون» بكلمة «بقين» في النصّ الوارد في «البيان» (لخمس بقين) .

56) هذه الإشارة الهامّة التي ذكرها النويري غير موجودة في «البيان» . ويتعلّق الأمر بالقائد الذي فتح مصر ، أنظر المصادر الفاطميّة ولا سيما الاتّعاظ ، فهرس الأعلام ، 353 .

عزل يوسف بن أبي محمّد وتعيين أبي عبد الله محمّد الكاتب[57] :

لم يكن هذا الاختيار مصيبًا ، ولعلّه كان يستجيب إلى رغبة المنصور الذي كان لا يريد أن يعهد بِعَمَل إفريقيّة إلى شخص آخر من طراز عبد الله بن محمّد الكاتب . ذلك أنّ يوسف بن أبي محمّد قد كان منغمسًا في اللّذّات ، «فكان مشتغلاً بالأكل والشرب ، فإذا دخل الوَرْدُ ، اصطبح عليه ، فلا يظهر حتى يفنى الورد وينقطع ، وكان يجلس فيه وينام عليه ، فسمّي «شيخ الورد» . وأسلم الأمور لابن البوني ، فكان أهل الحاضرة معه في أمن وعافية ، وأهل البادية في عذاب وغرامة . وكان جبّارًا عنيدًا وسَمْحًا جَوَادًا ، وكان يخرج في كلّ سنة ، فيدور على كُور إفريقيّة ويجبي الأموال ويأخذ الهدايا من كلّ بلد ويرجع . قال الرّقيق : كنّا إذا دُرْنَا مع يوسف بن أبي محمّد على البلدان واستطاب موضعًا وأعجبه حسنه أقام فيه مُصْطَبِحًا الشهرَ والشهرين ، وأبو الحسن البوني يجبي الأموال ، ويقبض الهدايا ويقوم بأمور أَخِلّة يوسف وعسكره . وكان يعطي لخاصّة يوسف في كلّ يوم خمسة آلاف درهم ، وينفق على يوسف لِمَطْبَخَتِهِ وفاكهته نَحْوَ ذلك المال المذكور»[58] .

ورغم ما أثارته تلك الابتزازات وذلك السلوك المزري ، من غضب ، لا سيما في البادية ، فإنّ المنصور قد غضّ عنها الطرف ، حسبما يبدو ، مدّة سنوات عديدة .

وإثر وفاة الحسين بن خلف المرصدي ، صاحب خراج القيروان في سنة 380 هـ / 31 مارس 990 – 19 مارس 991م ، «أمر أبو الفتح المنصور بولاية محمّد بن عبد القاهر بن خلف الخراج مع سلامة بن عيسى ، فجلسا معًا في ديوان خراج المنصوريّة»[59] .

وفي سنة 381 هـ / 20 مارس 991 – 8 مارس 992م ، وصل المنصور إلى المنصوريّة ونزل في قصره الجديد الذي كان قد شيّده بدون شكّ يوسف بنْ عبد الله الكاتب . «فخرج إليه أهل القيروان يتلقّونه ، فأدناهم وأثنى عليهم ووعدهم خيرًا» . ويبدو أنّ الأمير كان يرغب في تهدئة الخواطر ومحاملة المالكيّة . ويمكن استخلاص هذا الافتراض من الواقعتين التاليتين :

«فقد رُفِعَ له في عَبْدٍ من عبيده أنّه قذف بعض الصحابة – رضي الله عنهم – ، فأمر بقتله وصَلْب جثّته ، ونُودِيَ على رأسه بمدينة القيروان» .

---

57) **البيان** ، 245/1 – 246 ؛ النويري ، 119/2 ؛ **الكامل** ، 37/9 ؛ **المؤنس** ، 77 .

58) **البيان** ، 245/1 .

59) نفس المرجع .

وقضى المنصور عيد الأضحى في قصره (10 ذو الحجّة 381 هـ / 17 فيفري 992 م). «وخرج للنّاس يوم العيد في زيٍّ عجيب من المركوب والملبوس ورفع عن أهل البادية بقية خراج»[60].

وهكذا فإنّ حرص المنصور على إرضاء أهل القيروان قد كان واضحًا ، ولم يبق له سوى عزل «شيخ الورد» !.

وفي سنة 382 هـ / 9 مارس 992 – 25 فيفري 993 م ، بمناسبة ختان ابنه باديس ، «ترك المنصور البقايا [بقية الخراج] للرّعايا»[61]. وحرصًا منه على إعادة تنظيم الشؤون الماليّة ، وربّما الحصول على المال بطريقة أخرى سهلة وناجعة ، «فقد قبض على (ابن) البوني وابنه وطلب منهما مالاً كثيرًا فأنكراه. وكان المنصور قدر أن ياخذ منهما أموالاً يفتخر بها على أضياف كانوا عنده في يوم طلبها. وقال لهم : «لو أن عَبْدًا من عبيدي[62] طُلِبَ منه بيوت مال لَوُجِدَ ذلك عنده». فصادف إنكار البوني ذلك المحلّ فأمر بذبحه». وعزل يوسف بن أبي محمّد يوم الأحد 23 ربيع الأوّل 382 هـ / 29 ماي 992 م[63] وولّى عمل إفريقيّة محمد بن أبي العرب الكاتب الذي سيبقى على رأسها بقيّة مدّة ولاية المنصور وكامل مدّة ولاية باديس. أمّا يوسف بن أبي محمّد ، فلم يَرِدْ ذِكْرُ اسمه من جديد إلاّ في سنة 385 هـ / 5 فيفري 995 – 24 جانفي 996 م ، بمناسبة تعيينه عاملاً على متّيجة. ولكنّ هذا الخبر لم يذكره سوى صاحب «**البيان المُغْرِب**» الذي أضفى على هذا الشخص صفة «القايد». فهل أنّ الأمر كان يتعلّق فِعْلاً بشيخ الورد؟

وفي سنة 382 هـ أيضًا / 992 – 993 م – حسبما جاء في «**المؤنس**» –[64] ، «عزل المنصور عامله عن الأربص وسيّر إليها مولاه قيصر ، فوجد في المخازن التي للوالي المعزول ستمائة ألف قفيز من الطّعام».

وفي ذي القعدة 382 هـ / 29 ديسمبر 992 – 27 جانفي 993 م «خرج المنصور متنزّهًا إلى سردانية وخرج إليه الشيوخ من أهل القيروان وسألوه أن يُعَيِّدَ عندهم فأجابهم إلى

---

60) حسب **المؤنس** لا غير.

61) هذه الإشارة غير المؤرّخة موجودة في **الكامل** ، 52/9. وربّما هناك خلط مع الإعفاء من الخراج الذي تم في سنة 381 هـ.

62) **البيان** ، المخطوط ب «عبيدي» والمخطوط أ «عبيدكم».

63) حسب النويري لا غير ، في **البيان** ، «382 هـ» وفي **الكامل** ، «381 هـ».

64) حسب **المؤنس** لا غير.

ذلك»[65]. كما شهدت سنة 382هـ وصول هدايا من السودان، من بينها زرّافة، «فخرج المنصور حتى دخلت بين يديه».

وأخيرًا ففي سنة 385هـ/ 5 فيفري 995 – 24 جانفي 996م توفّي أخو المنصور الذي قتل عبد الله بن محمّد الكاتب، كما رأينا، وهو الأمير عبد الله ابن يوسف (بلكّين) بن زيري بن مناد.

باديس بن المنصور وليّ العهد[66]:

في ليلة الأحد 13 ربيع الأوّل 374هـ/ 14 أوت 984م «وُلِدَ للمنصور وَلَدٌ سمّاه باديس»[67]. وقد خُتِن في شهر ربيع الأوّل[68] 382هـ/ 7 ماي 991 – 5 جوان 992م في قصر والده بالمنصوريّة. «وأَهْدَتْ له العمّال على قدر مراتبهم وأتته هديّة من عند ابن الخطيب عامله على زويلة فيها زرّافة وطُرَف من أثاث السودان وشيء مستكثر. وقَدِم إليه عامل طرابلس بهديّة جليلة فيها مائة حمل من المال، سوى الخيل ولطائف المشرق»[69].

وفي نفس السنة «وصل سِجِلٌّ من العزيز بالله بولاية العهد لأبي مناد باديس بن المنصور، فَسُرَّ المنصور بذلك، وجاءته الهدايا من البلدان ومن كلّ جهة ومكان»[70].

«وفي سنة ثلاثٍ وثمانين (26 فيفري 993 – 14 فيفري 994م) خرج وَلَدُه ووليُّ عهده باديس إلى مدينة أشير ومعه جدّته يعلان»[71].

«وفي سنة أربعٍ وثمانين [15 فيفري 994 – 4 فيفري 995م] رجع من المغرب إلى المنصوريّة، وكانت أوّل سفرة سافرها، فخرج إليه أبوه وأهل الدولة وجميع أهل القيروان، فسلّموا عليه، وكان يومًا مشهودًا»[72].

---

65) نفس المرجع.

66) **البيان**، 240/1، 246 – 247؛ النويري، 122/2؛ و**المؤنس**، 76 – 77.

67) **البيان**، 240/1؛ النويري، 122/2؛ ابن خلّكان، 86/1 – 87 وهو المصدر الوحيد الذي أكّد أنّ باديس وُلِد في أشير. **المؤنس**، 76: «11 ربيع الأوّل»، نظريًّا تاريخ 13 يوافق يوم الخميس وتاريخ 11 يوافق يوم الثلاثاء.

68) نفس المرجع.

69) حسب **المؤنس** لا غير.

70) **البيان**، 246/1.

71) **المؤنس**، 77. أما **البيان**، فهو لم يشر إلى جدّة باديس.

72) **المؤنس**، المرجع المذكور.

الوضع بالمغرب الأقصى واستسلام سعيد بن خزرون[73] :

لا يسمح المقام بتفصيل الأحداث التي تتابعت بالمغرب الأقصى من 375 إلى 379 هـ / 985 – 989 م. فبعدما قضى بنو أميّة على الحسن بن كنون الإدريسي (375 هـ / 985 – 986 م) فضّلوا المغراويّين على بقيّة رؤساء زناتة ، وبالخصوص يدّو بن يعلى اليفرني. وإثر وفاة مقاتل بن عطيّة سنة 378 هـ / 988 م ، عوّضه أخوه زيري بن عطيّة على رأس قبيلته . وفي السنة الموالية استقبله الخليفة الأموي في قرطبة استقبالاً بهيجًا وأضفى عليه لقب وزير.

وإثر تلفّظ الأمير المغراوي بكلمات مناهضة لابن أبي عامر ، حاول هذا الأخير اكتساب مودّة يدّو بن يعلى. ولكنّ الزعيم اليفرني الذي دُعِيَ إلى زيارة قرطبة ، رفض تلبية تلك الدعوة وشقّ عصا الطّاعة ، فانجرّ عن ذلك انضمام زيري بن عطيّة من جديد إلى صفّ ابن أبي عامر. وقد تمكّن يدّو بن يعلى من الانتصار على الجيش الأندلسي المغراوي. فأثارت تلك الهزيمة قلق ابن أبي عامر الذي كلّف زيري بن عطيّة بإرجاع الوضع إلى نصابه بفاس وتعويض عامل تلك المدينة ابن عبد الودود الذي لَقِيَ مصرعه في المعركة[74].

وممّا لا شكّ فيه أنّ الحظوة التي وجدها المغراويّون لدى بني أميّة قد أثارت الغيرة في نفوس بقيّة الزناتيّين. من ذلك أنّ أحد كِبار الناقمين ، وهو سعيد بن خزرون بن فلفل قد تحوّل إلى أشير صحبة ابنه ورّو. فاستقبله المنصور بكلّ حفاوة وأغدق عليه العطايا ، وكان الأمير قد رجع إلى أشير منذ مدّة قليلة بعد أن أخمد ثورة أبي الفَهْم وكتامة. وقال لسعيد ذات يوم : «يا سعيد! هل تعرف مَنْ هو أَكْرَمُ منّي؟». قال : «نعم!». قال : «ومَنْ هُوَ؟». قال : «أنا». قال له المنصور : «وَلِمَ ذلك؟». قال : «لأنّك جُدْتَ عليّ بالمال ، وجُدْتُ أنا عليك بنفسي!». «فولّى سعيدًا هذا مدينة طُبنة... وزوّج المنصور ابنته من ورّو بن سعيد»[75]. «فلامه على ذلك بعضُ أهله ، فقال : «كان أبي وجدّي يستتبعانهم

---

73) **مفاخر**، 20 – 22 ؛ **إسبانيا الإسلاميّة** ، 263/2 – 265 ؛ **البربر** ، 15/2 ، 247/3 ، 259 ؛ **البيان** ، 244/1 – 246 ؛ **الكامل** ، 28/9 .

74) **مفاخر**، 22 – 23 ؛ **إسبانيا الإسلاميّة** ، 265/2 – 266 .

75) **البيان** ، 244/1 . لعلّه بسبب هفوة قلم ادّعى صاحب **الكامل** أنّ المنصور قد زوّج ابنه من إحدى بنات سعيد بن خزرون.

بالسّيف ، وأمّا أنا فمن رَمَاني برمح رَمَيْتُه بكيس ، حتّى تكون مودّتهم طبعًا واختيارًا»[76].

وبالفعل فقد انجرّ عن ذلك الزّواج انضمام كثيرٌ من الزناتيّين إلى صفّ المنصور. وتوجّه سعيد بن خزرون إلى طبنة للاستقرار بها.

وفي سنة 381 أو 382 هـ / 991 – 992م[77] وصل سعيد إلى المنصوريّة «فَلَقِيَه المنصور وعانقه ، ثم دخل معه إلى قصره وأنزله وأجرى عليه الأرزاق الواسعة. فاعتلّ سعيد بن خزرون أيّامًا ، ومات في أوّل رجب فكفنه المنصور بسبعين ثوبًا... وفي هذه السنة وصل إلى المنصور فلفل بن سعيد بن خزرون بعد موت أبيه ، فأعطاه ثلاثين حِملاً من المال وثمانين تَخْتًا من أنواع الكِسَى وخَيْلاً بسروج مُحَلاّة ، وعشرة من البنود الجدد المذهّبة وردّه إلى طبنة أميرًا عليها»[78].

العلاقات مع الفاطميّين وانتفاضات كتامة[79] :

رغم ما أدلى به المنصور من تصريحات جريئة عند توليته ، فقد ظلّت علاقاته ممتازة مع الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، وقد أرسل إليه هديّة في سنة 376 هـ / 986 – 987م[80].

ولكن في تلك السنة بالذات «دخل عمّال المنصور إلى بلد كتامة وجبوا منها الأموال ، ولم تكن قبل ذلك تدخل إليها»[81]. ورغم أنّ هذا الخبر لم يَرِد ذكره إلاّ في مصدر متأخّر ، فلا شيءَ يدعو إلى الشكّ في صحّته. ذلك أنّ تلك المبادرة الجبائيّة تعتبر من الأهميّة بمكان ، إذ أنّ الكتاميّين الذين كانوا سببًا في نجاح الفاطميّين ، ما زالوا من أكبر أنصارهم ، رغم شدّة تحرّكاتهم وكثرة مطالبهم. ويبدو أن المبادرة المذكورة قد سبقت بمدّة قليلة قدومَ الدّاعي أبي الفَهْم حسن بن نصرويّة الخراساني[82] إلى إفريقيّة مبعوثًا من الخليفة الفاطمي بمصر.

76) **الكامل** ، 28/9.

77) **البيان** ، 246/1 : «382 هـ». لا تسمح لنا أيّة مقارنة بين المصادر باختيار التاريخ الصحيح. من المحتمل أن يكون سعيد بن خزرون قد وصل في أواخر سنة 381 هـ ومرض في سنة 382 هـ.

78) **البيان** ، 246/1.

79) النويري ، 119/2 – 121 ، وهو أهمّ مصدر بالنسبة إلى الثورتين الكتاميّتين ؛ **الكامل** ، 21/9 – 22 ، 27 – 28 ؛ **البيان** ، 241/1 ، 243 – 244 ، 247 ؛ البكري ، 63 – 64 ؛ **المؤنس** ، 77.

80) حسب **المؤنس** لا غير.

81) **المؤنس** ، 77.

82) النويري. في **البيان** : «أبو الفهم الخراساني» وفي **الكامل** : «أبو الفهم حسن بن نصر».

فاستقبله يوسف بن عبد الله الكاتب، عامل القيروان بالنيابة، بكلّ حفاوة وأغدق عليه العطايا، وأعرب أبو الفهم عن رغبته في التحوّل إلى منطقة القبائل الصغرى لدعوة الكتاميّين إلى المذهب الشيعي، وفقًا للمهمّة التي كلّفه بها الخليفة. وهذا لا يعني أنّ تلك المهمّة كانت مقصورة على كتامة، بل بالعكس من ذلك، فإنّنا نميل إلى الاعتقاد أنّ العزيز بالله قد عيّنه داعيًا للقيام بمهمّة تمتدّ إلى إفريقيّة وجزء من المناطق الغربيّة الخاضعة للسلطة الفاطميّة.

وقد وجّه يوسف بن عبد الله الكاتب رسالة حول هذا الموضوع إلى أبيه الذي كان موجودًا آنذاك في المغرب الأوسط مع المنصور، أي في سنة 376هـ/ 986 – 987م. فأجابه عبد الله الكاتب بما يلي: «أعطه ما يشاء وأتركه يذهب إلى حيث يشاء». وامتثالاً إلى هذا الأمر، لبّى يوسف جميع مطالب أبي الفهم ووضع على ذمّته خيولاً محلاّةً بالسّروج وتحوتًا من مختلف أنواع الكِسَى وأعطاه مبالغ طائلة من الدراهم. ونحن لا ندري هل تمّ ذلك بدون علم المنصور أو رغمًا عنه. ولكنّنا رأينا كيف أنّ الأمير قد عاب على عبد الله الكاتب وابنه يوسف تلك التصرّفات التي كانت سببًا في هلاكهما.

«فتوجّه أبو الفهم بذلك لبلاد كتامة، فدعاهم فأجابوه. وتقرّرت أموره عندهم، حتى صار يركب الخيل ويجمع العساكر ويعمل البنود ويضرب السكّة، فعظم أمره وشاع خبره»[83]. ويمكننا أن نتصوّر انشغال بال المنصور بهذا الأمر، فقد فكّر في إحباط أي تمرّد متوقّع من شأنه أن يكون على غاية من الخطورة، لا سيما إذا كان بإيعاز من الخليفة ذاته، كما أشار إلى ذلك ابن الأثير بقوله: «وغرضه [أي الخليفة] أن تميل كتامة إليه [أي إلى أبي الفهم] ويرسل إليه جندًا يقاتلون المنصور **ويأخذون إفريقيّة**، لِمَا رأى من قوّته»[84].

ومهما يكن من أمر، فقد استقبل المنصور – ربّما إثر مقتل عبد الله الكاتب – مبعوثَيْن من قِبَل العزيز بالله، أحدهما كتامي يقال له أبو العزم، والثاني عبدٌ من عبيده يقال له محمد بن ميمون الوزّان، يحملان سجّلَيْن موجَّهَيْن إلى المنصور لدعوته إلى عدم التعرّض لأبي الفهم وكتامة. وحسب رواية ابن الأثير فإنّ المنصور «قد أرسل إلى العزيز بمصر يعرّفه الحال ويعلمه بعزمه على مهاجمة أبي الفهم. فأرسل إليه العزيز الرسولين المذكورين. فلمّا وصلا إلى المنصور وأبلغاه رسالة العزيز، أغلظ القول لهما وأغلظا له. فأمرهما بالمقام عنده بقيّة

83) **البيان**، 241/1.

84) من الجدير بالتذكير أنّ الكتاميّين هم الذين قضوا في السابق على الأغالبة ومكّنوا المهدي من إقامة دولته، وذلك بقطع النظر عن الدّور الذي قاموا به في فتح مصر.

شعبان ورمضان [377هـ] ولم يتركهما يمضيان إلى كتامة، وتجهّز لحرب كتامة وأبي الفهم»[85].

وفي شوّال 377هـ/ 24 جانفي – 21 فيفري 988م غادر المنصور إفريقيّة على رأس جيش ولم يصل إلى بلاد كتامة إلاّ في أوائل سنة 378هـ/ ربيع 988م، لأنّه لم يسرع الخطى.

«فقصد مدينة ميلة وأراد قتل أهلها وسبي نسائهم وذراريهم، فخرجوا يتضرّعون ويبكون، فعفا عنهم، وأمر بخرابها وهَدَم سورها وأمر أهلها بالمسير منها إلى باغاية، فاجتمعوا وساروا إليها. فلقيهم ماكسن بن زيري [عمّ المنصور] بعسكره، فأخذ منهم ما كان معهم من مال وغيره. وبقيت ميلة خرابًا ثم عُمّرت بعد ذلك»[86]. وصرّح المنصور إلى الرسولين اللذين كانا معه رغمًا عنهما قائلاً: «هؤلاء هم الناس الذين زعمتما أنّهم سيقودونني إلى سيّدكما والحبل في عنقي!» وهو يشير بذلك إلى ما تلفّظا به من كلمات عند وصولهما إليه.

«وسار المنصور إلى كتامة، فكان لا يمرّ بقصر ولا منزل إلاّ هدمه، حتى بلغ مدينة سطيف – وهي كرسيّ عزّهم – فاقتتلوا عندها قتالاً عظيمًا. فانهزمت كتامة وهرب أبو الفهم إلى جبلٍ وَعْرٍ فيه ناس من كتامة يقال لهم: بنو إبراهيم. فأرسل إليهم المنصور يتهدّدهم إن لم يسلّموه. فقالوا: هو ضيفنا ولا نسلّمه، ولكن أرسل أنت فخذه ونحن لا نمنعه»[87].

«فأرسل إليه المنصور مَنْ أخذه. فلمّا صار بين يديه أمر به، فلُطِمَ لطمًا شديدًا، ونُتِفَت لحيته حتى أشرف على الموت. وعند ذلك أمر بخروجه، وقد بقيت فيه حُشاشة من الرّوح. فأخذه بعض رجاله فنحره وشقّ بطنه، وأُخْرِجت كبِدُه، فشُوِيَت وأُكِلَت، وأخذه عبيد المنصور، فشرّحوا لحمه وأكلوه، حتّى لم يبق إلاّ عظامه متجرّدة، وذلك يوم الثلاثاء لثلاثٍ خلون من صفر (378هـ/ 23 ماي 988م)، وقُتِلَ معه جماعة من الدّعاة ووجوه كُتامة، منهم والي ميلة. ونزل بكتامة الذلّ والهوان»[88].

وولّى المنصور على كتامة أبا زَعْبَل بن هِشام[89] «وأبناءه». والجدير بالملاحظة أنّ هذه

---

85) **الكامل**، 21/9.

86) **الكامل**، 21/9؛ و**البيان**، 243/1.

87) **الكامل**، المرجع المذكور.

88) **البيان**، 243/1 – 244.

89) **البيان**، 239/1؛ النويري، 116/2 – 121: «أبو زعبل بن مسلم».

العبارة مبهمة شيئًا ما[90]. فهل المقصود بذلك أنّ أبا زعبل وأبناءه قد تقاسما السلطة في تلك المنطقة، أم أنّ أبناءه قد خلفوه بعد موته؟ ومهما يكن من أمر فإنّ «العَمَل» الذي كان يشرف على حظوظه أبو زعبل كان يشمل على الأقلّ قصر الافريقي وقسنطينة[91]، وكذلك ميلة وسطيف، بلا شكّ[92].

«وعاد المنصور إلى أشير[93] وردّ الرسولَيْن إلى العزيز. فأخبراه بما فعل بأبي الفهم وقالا: «جئنا من عند شياطين يأكلون النّاس»[94]. فأرسل العزيز إلى المنصور يطيّب قلبه وأرسل إليه هديّة ولم يذكر له أبا الفهم»[95].

ولكنّ الكتاميّين استأنفوا القتال في السنة الموالية، أي 379هـ/ 11 أفريل 989 – 30 مارس 990م[96]، تلبيةً لدعوة «إنسان آخر من كتامة يقال له أبو الفرج لا يُعرَف من أيّ موضع هو، زعم أنّ أباه وَلَد القائم العلوي جدّ المعزّ لدين الله. فعمل أكثُر ممّا عمله أبو الفهم[97] واجتمعت إليه كتامة واتّخذ البنود والطبول وضرب السكّة[98]. وجرت بينه وبين نائب المنصور [أبي زعبل] وعساكره بمدينة ميلة وسطيف حروب كثيرة ووقعات متعدّدة، فسار المنصور إليه بعساكره، وزحف موالي المنصور في عساكر كتامة، فكان بينهما حرب شديدة، فانهزم أبو الفرج وكتامة وقتل منهم مقتلة عظيمة واختفى أبو الفرج في غار في جبل. فوثب عليه غلامان كانا له وأتيا به المنصور، فسرّه ذلك وقتله شرّ قتلة. وشحن المنصور بلاد

---

90) هذه العبارة استعملها النويري.

91) **البيان**، 261/1.

92) **الكامل**، 27/9 – 28.

93) النويري و**الكامل**، وليس «المنصوريّة والقيروان» كما ادّعى ذلك غلطًا بدون شكّ صاحب **البيان** الذي لم يشر إلى ثورة أبي الفرج ولم يذكر أنّ المنصور استقبل سعيد بن خزرون في إفريقيّة وأنّه غادر القيروان في اتّجاه تاهرت لقمع ثورة أبي البهار، وأكّد أنه رجع بعد ذلك إلى أشير. ويفهم من كلام هذا المؤلف أنّ الأمير قد بقي في المغرب الأوسط من سنة 378 إلى سنة 381هـ/ 988 – 992م وترك بين أيدي يوسف بن أبي محمّد والموجّه الخفيّ لسياسته ابن البوني، إفريقيّة التي لم يرجع إليها إلاّ في سنة 381هـ/ 991 – 992م.

94) النويري و**الكامل**.

95) **الكامل** فحسب.

96) لم يشر إلى هذه الثورة سوى النويري و**الكامل**.

97) **الكامل** فحسب.

98) **الكامل**، ولم يشر النويري إلى ضرب السكّة.

كتامة بالعساكر وبثّ عمّاله فيها ولم يدخلها عامل قبل ذلك. فجبوا أموالها وضيّقوا على أهلها ورجع المنصور إلى مدينة أشير»[99].

وفي سنة 384 هـ / 15 فيفري 994 – 4 فيفري 995م «أتته من مصر هديّة سنيّة ومعها الفيل. فركب المنصور بعسكره وتلقّاها. ولمّا كان يوم العيد (لا ندري هل هو عيد الفطر أم عيد الأضحى؟) خرج باديس لصلاة العيد والفيل أمامه وركب في موكب عظيم ولم يخرج معه أبوه ذلك اليوم. وأقاما بإفريقيّة ولم يرجعا إلى المغرب»[100].

وهكذا فإنّ قضيّة كتامة، رغم خطورتها، لم تدخل أيّ تغيير على العلاقات القائمة بين الفاطميّين وبني زيري، على الأقلّ على المستوى الرّسمي[101].

وفي جمادى الأخيرة من السنة الموالية، 385 هـ / جويلية 995م «وصل قاسم بن حجّاج إلى المنصوريّة من مصر برؤوس الرّوم الذين قتلهم مارق الكتامي بحلب»[102].

ثورة أبي البَهَار[103]:

بينما كانت الحرب على أشدّها في المغرب الأقصى بين زيري بن عطيّة والمغراويّين الموالين لبني أميّة في الأندلس من جهة، وبين يدّو بن يعلى وبني يفرن من جهة أخرى، ثار أبو البَهَار بن زيري ضدّ ابن أخيه المنصور بن بلكّين بن زيري في سنة 379 هـ / 11 أفريل 989 – 30 مارس 990م، «لشيء جرى عليه من المنصور لم يحمله لعزّة نفسه». واقتفى أثره صهره خلوف بن أبي بكر عامل تاهرت والممثّل الأوّل للمنصور في المغرب، وشقيق هذا الأخير عطيّة بن أبي بكر.

«فسار المنصور إليه بتاهرت، ففارقها عمّه إلى الغرب بمن معه من أهله وأصحابه، ودخل عسكر المنصور تاهرت فانتهبوها، ثم طلب أهلها الأمان فأمّنهم. ثم سار في طلب عمّه

---

99) **المؤنس**، 77 – 78.

100) نفس المرجع. أنظر أيضًا: **البيان**، 247/1.

101) والجدير بالملاحظة أنّ الوزير ابن كلس لم يشر أبدًا إلى المغرب في التوصيات الأخيرة التي قدّمها إلى مخدومه العزيز بالله قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في سنة 380 هـ/990م. أنظر: ابن الصيرفي، 23 (90) و**النجوم**، 122/4.

102) **البيان**، 247/1.

103) **مفاخر**، 24 – 27 ؛ **البيان**، 244/1 – 245 ؛ **الكامل**، 28/9 ؛ **المؤنس**، 77. أما النويري فقد أهمل ذكر هذه القضيّة الهامة.

حتى جاوز تاهرت بسبع عشرة مرحلة ولقي العسكر شدّة. ورجع المنصور عن تبع عمّه أبي البهار وولّى على تاهرت أخاه يَطُّوفَت ومضى المنصور إلى مدينة أشير»[104].

واستولى المتمرّدون على قسم من المغرب الأوسط يمتدّ من الزاب والونشريس إلى وهران، ويضمّ مناطق تلمسان ووهران والشّلف الخ... وأصبحت الخطبة تلقى في جميع مساجد تلك البلاد الممتدّة الأطراف باسم الخليفة هشام المؤيّد. والجدير بالذكر في هذا الصّدد أنّ أبا البهار – ربّما قبل دخوله في طاعة الأمويّين – كان يتبادل الرسائل مع ابن أبي عامر القويّ النفوذ، بواسطة هدّوس القروي التاجر الذي كان يقوم بدور السفير. «فقد كتب أبو البهار إلى ابن أبي عامر يسأله الدخول في طاعته، وأن يكتب إلى زيري بن عطيّة الزناتي صاحب فاس أن يكون عنده، وكان ابن عطيّة مواليًا مصافيًا لابن أبي عامر. فكتب ابن أبي عامر إلى أبي البهار: «إن كنتَ على نيّة فيما وصفتَه عن نفسك، فأَرْسِلْ إليّ ابنَك يكون رهينة عندي، وأَفْعَلُ معك ما أحببتَه». فوجّه إليه ابنه في مركب مع ميمون المعروف بابن الدّابّة كاتبه. فعُطِب المركب وماتا جميعًا في البحر. فوجّه إليه وَلَدَه الآخر فوصل إليه. فوجّه ابن أبي عامر لأبي البهار أَموالاً وكِسًى، وكتب إلى زيري بن عطيّة في حقّه أن يعاضده وينصره ويكون معه. فلمّا بلغ ذلك إلى أبي البهار وصل إلى فاس واتّفق مع زيري بن عطيّة صاحبها»[105].

وأوفد أبو البهار إلى قرطبة في سفارة ابنَ أخيه أبا بكر بن حبّوس بن زيري بن مناد، أشجع فرسان صنهاجة في عصره، صحبة عدد كبير من أقاربه. فوصل الوفد إلى قرطبة سنة 381 هـ/ 20 مارس 991 – 8 مارس 992م واستُقْبِل بكلّ حفاوة وأدّى له الجيش التحيّة العسكريّة وأُغْدِقَتْ عليه العطايا. ثم رجع أبو بكر بن حبّوس محمّلاً بالهدايا التي وجّهها ابن أبي عامر إلى عمّه، وهي تتمثّل في 25000 قطعة من الذهب و500 كسوة من الخزّ ومجموعة من الحلى والأواني وغيرها من التحف الثمينة التي تبلغ قيمتها 10000 دينار. وتعهّد أبو البهار بمعاضدة زيري بن عطيّة ضدّ يدّو بن يعلى، حيث كان الاثنان يتقاتلان قتالاً شديدًا للاستيلاء على مدينة فاس التي كانت تنتقل من واحد إلى الآخر، كلّما تفوّق جيش أحدهما على جيش الآخر.

---

104) **البيان**، 244/1.

105) نفس المرجع.

وقد فوّض ابن أبي عامر إلى الحليفَيْن سلطاتٍ متساوية وكلّفهما بإخضاع يدّو بن يعلى. وتمكّن كلّ واحد منهما من الاستيلاء على إحدى العدوتَيْن بفاس. ولكنّ جهودهما المتظافرة لم تستطع إضعاف بني يفرن، لا سيما وقد تخلّى عنهما خلوف بن أبي بكر وأخوه عطيّة اللّذان انفصلا عن ابن أبي عامر وانضمّا إلى ابن زيري. وجزاءً لهما ولّى المنصور خلوف بن أبي بكر من جديد عاملاً على تاهرت.

وبما أنّ أبا البهار استنكف عن مقاتلة خلوف بن أبي بكر الذي كانت تربطه به أواصر القربى، فقد زحف زيري بن عطيّة بمفرده على خلوف في رمضان 381 هـ / 11 نوفمبر – 10 ديسمبر 991م، فقتله واستمال القسم الأكبر من المغلوبين. وفرّ عطيّة بن أبي بكر أخو خلوف إلى الصحراء مع بعض أنصاره. فأخبر زيري بن عطيّة بهذا الانتصار ابن أبي عامر الذي ابتهج بالخبر وأعلن عنه من فوق منابر الجوامع.

وما إن تخلّص الأمير المغراوي من خلوف، حتّى توجّه لقتال يدّو بن يعلى اليفرني الذي يبدو أنّ ذلك الهجوم الخاطف قد فاجأه، فانهزم إثر معارك طاحنة وفرّ إلى الصحراء حيث سيلقى مصرعه بعد ذلك بمدّة قليلة[106]. واستولى المنتصرون على معسكر بني يفرن وعلى مبالغ لا تحصى من المال. وأسّر زيري بن عطيّة والدة خصمه وأخته وجميع نسائه وقتل ما يزيد على 3000 فارس. ولكنّه أعطى الأمان لعدد كبير من المغلوبين الذين ألحقهم بصفوف جيشه[107].

وقد زاد هذا الانتصار في قوّة زيري بن عطيّة، ممّا دفع ابن أبي عامر بعد مدّة قليلة إلى أن يعهد إليه بجميع أراضي المغرب الأقصى التابعة لبني أميّة، مع تكليفه بمعاقبة الخائن أبي البهار. إلاّ أنّ تاريخ هذه الوقائع غامض شيئًا ما[108]. ولكن من المحقّق أنّ الأمير المغراوي قد بادر إلى مهاجمة أبي البهار الذي لم يكن في وَضْعٍ يسمح له بالمقاومة مدّةً طويلة. ففي شوّال 382 هـ / 30 نوفمبر – 28 ديسمبر 992م، علم ابن أبي عامر أنّ الخلاف قد استفحل في المغرب بين القائدين زيري بن عطيّة المغراوي وأبي البهار الصنهاجيّ، وأنّ هذا

106) وقد عُيِّنَ على رأس بني يفرن ابن أخيه حبوس بن زيري بن يعلى، ولكنّه قُتِل من طرف ابن عمّه أبي يداس بن دوناس الذي كان يحاول إدخال أبناء قبيلته في طاعته. وقد ارتحل هذا الأخير مع أنصاره إلى الأندلس، فألحقهم ابن أبي عامر بجيشه. فانتقلت قيادة بني يفرن بعد ذلك إلى أحد إخوة حبوس بن زيري بن يعلى. أنظر: **مفاخر**، 26 و**إسبانيا الإسلاميّة**، 266/2.

107) أنظر رواية أخرى لهذه الأحداث، في **إسبانيا الإسلاميّة**، 266/2 – 267.

108) **البربر**، 242/2 – 243 ؛ **مفاخر**، 26 – 27 ؛ **إسبانيا الإسلاميّة**، 266/2 – 268.

الأخير، بعدما هزمه خصمه، قد فرّ إلى سبتة، متظاهرًا بعزمه على التحوّل إلى الأندلس. وفي الحين أوفد ابن أبي عامر كاتبه عيسى بن سعيد بن القطاع على رأس جيش عرمرم لمراقبة القائد الصنهاجي. ولكنّ أبا البهار لم ينتظر وصول كاتب ابن أبي عامر ورأى من الأسلم العدول عن زيارة الأندلس والتحصّن بمنطقة الرّيف في قلعة جارت (أو جروة؟)[109]. واستمرّ في الاعتراف بسلطة بني أميّة، ولكنّه أوفد رُسُلاً إلى القيروان للوساطة بينه وبين ابن أخيه المنصور بن بلكّين[110].

«وفي سنة 383 (26 فيفري 993 — 14 فيفري 994)، وصل إلى المنصور كتاب أخيه يَطُّوفَت (الذي ربّما لم يزل عاملاً على تاهرت) يخبره بوصول عمّه أبي البهار إليه. فكتب إليه المنصور أن يبعثه. فكان وصول أبي البهار إلى المنصوريّة ليلة الاثنين منتصف شعبان (5 أكتوبر 993م). فأعطاه المنصور كِسًى وجواري وفُرُشًا وسُرَّ به أعظم سرور وأنزله أحسن نُزول»[110]. ومن المحتمل أن تكون هذه الوقائع قد جدّت في سنة 382 هـ. ورخّص المنصور إلى عمّه في استرجاع منصبه السابق على رأس عَمَل تاهرت. ويبدو أنه التحق بمركزه في الحين.

وبعدما استولى زيري بن عطيّة على تلمسان وجميع المناطق التي كانت خاضعة لأبي البهار، أصبحت سلطته تمتدّ من المغرب الأقصى إلى الزّاب. وفي سنة 383هـ/ 26 فيفري 993 — 14 فيفري 994م أسّس مدينة وجدة التي أصبحت مقرًّا لإقامته. وعندئذ وجّه إلى ابن أبي عامر هدايا بواسطة سفيره الذي وصل إلى قرطبة في أوائل شوّال 384هـ/ نوفمبر 994م[112].

(109) **مفاخر**، 26 : «جارت»؛ **البربر**، 242/3 : «قصر جروة».

(110) **البربر**، 242/3.

(111) **البيان**، 246/1 — 247 : يصادف تاريخ 15 شعبان يوم خميس في سنة 383هـ ويوم أحد في سنة 382هـ. وفي كتاب **البربر**، 16/2 : حُدِّد تاريخ رجوع أبي البهار إلى القيروان بسنة 382هـ/ 992 — 993م. أما في **البيان**، فلم يرد ذكر سنة 382هـ، ورغم أنّ الأحداث قد سجّلت بعنوان سنة 383هـ، فإنّها قد بدأت بعبارة «في هذه السنة» وانتهت بدون أيّ إشارة صريحة للسّنة.

(112) **مفاخر**، 26 — 27؛ **البربر**، 242/3 — 243؛ **إسبانيا الإسلاميّة**، 267/2 — 268. ويبدو من الصعب قبول الرواية التي أكّدها ابن الخطيب في الجزء غير المنشور من كتابه **أعمال الأعلام**، ومفادها أنّ هزيمة أبي البهار النهارية قد تمّت قبل وفاة يدّو بن يعلي، مع العلم أنّ هذا الأخير قد توفّي حسب الاحتمال بعد شهر رجب 382هـ/ سبتمبر 992م، وهو تاريخ الزيارة التي أدّاها زيري بن عطيّة إلى قرطبة. أنظر: **إسبانيا الإسلاميّة**، 266/2 — 267 الإحالة 2. ويبدو أنّ هذه الرواية هي التي اعتمد عليها ابن خلدون (**البربر**، 242/3) ليحدّد تاريخ سفارة زيري بن عطيّة إلى ابن أبي عامر ووفاة يدّو بن يعلى بسنة 383هـ/ 993 — 994م.

وهكذا فقد أُزيح الصنهاجيّون من المغرب الأقصى الذي أصبح منذ ذلك التاريخ خاضعًا لسلطة الأمير المغراوي القويّ النفوذ، الموالي لبني أميّة، زيري بن عطيّة.

وفاة المنصور(113) :

«وفي سنة 386هـ توفّي أبو الفتوح المنصور عُدّةُ العزيز بالله بن يوسف العزيز بالله بن زيري بن مناد الصنهاجي في يوم الخميس لثلاثٍ خَلَوْن من ربيع الأوّل (26 مارس 996)، ودُفِنَ بقصره الجديد الخارج عن المنصوريّة. وكانت أيّامُه(114) أحسنَ أيّام»(115).

ولم يعش الخليفة الفاطمي نزار العزيز بالله بعده سوى ستة أشهر، إذ أدركته المنيّة في شهر رمضان وتولّى خلفًا عنه ابنه الحاكم بأمر الله(116).

* * *

لقد اضْطُرَّ المنصور بحكم الواقع إلى توطيد سلطته في إفريقيّة، وترتّب على ذلك تخلّيه عن محاربة الزناتيّين في المغرب وقتل عامله على إفريقيّة [عبد الله الكاتب] الذي أراد الخليفة الفاطمي – دون أن يخشى أيّ ردّ فعل – تقليده أسمى منصب في الإمارة. كما سمح قمعُ الثورة الكتاميّة التي دبّرها الخليفة ذاته، للأمير الصنهاجي المنصور بن بلكّين بالسيطرة على منطقة القبائل الصغرى. وبذلك بدأ يظهر بكلّ وضوح الاتّجاه الإفريقي الذي اختارته أسرة بني زيري الصنهاجيّة وتَوْقُها إلى الحكم الذاتي بل حتى الاستقلال التامّ. وأخيرًا فقد بيّنت ثورة أبي البهار أن بني زيري باتّجاههم أكثر فأكثر نحو الجهة الشرقيّة ربّما سيخسرون المغرب الأوسط. وهي إشارة تنبئ بالحركة الإنفصاليّة التي سيقوم بها بنو حمّاد فيما بعد.

---

(113) **البيان**، 239/1 و247/1. ففي الفقرة الأولى ذكر المؤلف أنّ المنصور «توفّي يوم الخميس لخمس خلَوْن من ربيع الأوّل من سنة 386»، وذلك بدون شكّ بسبب هفوة قلم. وفي الفقرة الثانية أكّد أنّ المنصور «توفّي في يوم الخميس لثلاثٍ خلون من ربيع الأوّل». أنظر: النويري، 121/2–122؛ **الكامل**، 52/2؛ ابن خلّكان، 86/1–87؛ **المؤنس**، 78؛ **البلدان**، 303/1؛ **أعمال الأعلام**، 545: «عهد المنصور إلى أخيه حمّاد بالقيام بحملات عسكريّة ضدّ أراضي أعدائه فأحرز انتصارًا باهرًا وتوفّي سنة 395هـ»(كذا).

(114) في **البيان**: «12 سنة» وفي **المؤنس**: «نحو 13 سنة»، وحسب النويري: «12 سنة وشهران و10 أيّام».

(115) **البيان**، 247/1.

(116) **المؤنس**، 78؛ **الخطط**، 66/6 – 68؛ **الاتّعاظ**، الذيل، 295، 297، 299.

الفصل الثالث
ولاية باديس
(386 – 406 هـ/ 996 – 1016م)

ارتقاء باديس إلى العرش[1] :

عندما ارتقى باديس إلى العرش ، كان عمره لا يتجاوز اثنتي عشرة سنة ، واسمه الكامل هو : أبو مناد باديس نصير الدولة[2] . وقد أشارت المصادر[3] بعبارة غامضة إلى معارضة بني زيري بن مناد وبني حمامة بن مناد تولية باديس ، رغم ما التزموا به من عهود ، وأكّدت أنّ عبيده وعبيد أبيه قد تمكّنوا من إحباط هذه المعارضة . فهل كان الأمر يتعلّق بتمرّد أعمام المنصور بصورة صريحة أم هي مجرّد محاولات ليس إلاّ؟ وحول ما جدّ من أحداث في المنصوريّة مباشرة بعد جنازة المنصور، اقتصرت بعض المصادر على إعلامنا بأنّه : «لمّا استقرّ باديس في الأمر سار إلى سردانية وأتاه النّاس من كلّ ناحية للتعزية»[4] . وبما أنّه لم يكن يوجد عهدئذ في إفريقيّة – حسبما يقال – مقام أحسن من سردانية[5] التي تقع بالقرب من جلّولة قرب القيروان ، يمكننا أن نفترض أنّ باديس وذويه قد تحوّلوا إلى ذلك المكان لاستقبال الربيع .

وبعدما مكث في سردانية بضعة أيّام قفل راجعًا إلى قصر المنصوريّة .

وإثر تولّيه الإمارة ارتحل إلى سوسة ، فأقام بها أيّامًا ، ثم ذهب إلى المهديّة ، فمكث فيها

---

1) **البيان** ، 247/1 ؛ النويري ، 122/2 ؛ **الكامل** ، 53/9 ؛ **أعمال** ، 454 ؛ **شذرات** ، 179/3 ،عن ابن خلكان ، 87/1 – 88 ؛ **المؤنس** ، 76 – 78 ؛ **دائرة المعارف الإسلاميّة** (الطبعة الثانية) ، 884/1 .

2) حول تاريخ ميلاد باديس يشير صاحب كتاب **أعمال الأعلام** نقلاً عن الرقيق إلى أنّ باديس قد زار أباه في دار ملكه (أشير؟) في السنة التي سيتوفّى فيها المنصور، وهو ما زال طفلاً صغيرًا.

3) **البيان** ، 247/2 : «وكان بنو زيري وبنو حمامة قد همّوا بأمور وخالفوا على من كان معهم على ما عقدوه ...» . أنظر أيضًا : **الكامل** ، 53/9 .

4) **الكامل** ، النويري .

5) البكري ، 32 .

بعض الوقت. وفي تلك المدينة الفاطميّة البديعة «لعبت المراكب بين يديه ورمى النفّاطون بالنفط»[6]، ثم رجع إلى صبرة المنصوريّة.

وفي نفس تلك السنة (386هـ/996م)، ربّما بعد مدة قليلة من ارتقاء الأمير الصنهاجي الشاب إلى العرش «ثار عليه رجل صنهاجي اسمه خليفة بن مبارك. فأُخِذَ وحُمِلَ إلى باديس، فأُركِبَ حمارًا وجُعِلَ خلفه رجلٌ أسود يصفعه، وطيف به ولم يُقتَل احتقارًا به وسُجِنَ»[7]. ويبدو أنّ هذه الثورة لم تكتسِ أهميّة كبيرة.

«ووصل يطّوفت[8] إلى المنصوريّة للعزاء والتهنئة، ثم رجع إلى طبنة وجهة الغرب (ربّما تاهرت) في أواخر شعبان» سنة 386هـ/ منتصف سبتمبر 986م. ويبدو أنّ هذه البادرة التي قام بها عمّ باديس بعد عدّة أشهر من تولية ابن أخيه، قد كانت بمثابة الإعلان عن نهاية الدسائس التي كانت تُحاك ضدّ خليفة المنصور.

وإثر وفاة والده، جدّد باديس ولاية فلفل على مدينة طبنة[9]. «وفي صفر (393هـ/ 13 فيفري- 13 مارس 997م) عقد أبو مناد ولاية أشير [لعمّه] حمّاد بن أبي الفتوح يوسف بن زيري بن مناد، فخرج عاملاً عليها وأعطاه خيلاً كثيرة وكِسًى جليلة»[10]. ويبدو أنّ حمّادًا قد احتفظ أيضًا بالمسيلة وأصبح يحكم باسم باديس بلاد المغرب الأوسط التي كان يتولّى أمورها إلى حدّ ذلك التاريخ، بصورة تزيد أو تنقص، بالاشتراك مع أخيه يطّوفت وعمّه أبي البهار.

وسوف نرى فيما بعد ما ستنجرّ من عواقب وخيمة عن هذا التعيين الذي لم يكن الأمير - والحقّ يقال - قادرًا على تجنّبه دون إثارة غضب الصنهاجيّين في المغرب الأوسط. وسوف لا يتأخّر حمّاد عن التوسيع من نطاق سلطته وتكوين جيش عتيد وجمع ثروة طائلة. وسينتهي به الأمر إلى الثورة وإنشاء الدولة القويّة التي ستحمل اسمه في المغرب الأوسط [دولة بني حمّاد].

---

6) **المؤنس**، 78.
7) **الكامل**، 53/9.
8) يطّوفت بن أبي الفتوح (يوسف بن زيري).
9) **البرير**، 260/3.
10) **البيان**، 248/1؛ النويري، 122/2؛ **الكامل**، 53/9؛ **العبر**، 171/6؛ أبو الفداء، **التاريخ**، 131/2-132، يشير إلى كتاب **الجمع والبيان في أخبار القيروان**، لابن شدّاد؛ **أعمال**، 454-460؛ **المؤنس**، 78.

ورغم صغر سنّه ، فقد بادر باديس إلى تأكيد صواب الرأي المتعلّق بشخصه والذي نقله ابن خلّكان[11] ، ومفاده أنّه كان ملكًا عظيمًا ، موطّد العزم ، شديد المراس ، لا يستطيع رفع رُمْحٍ دون كسره. أمّا بخصوص قساوته تجاه أعدائه ، فسنرى كيف سيتفنّن في تعذيب حظيّه السابق يوسف بن أبي حبوس. إلاّ أنّ بعض المصادر الأخرى تؤكّد أنّه «كان مِقدامًا ، جَوَادًا ، يعطي العطاء الضخم ، وكان محسنًا لأصحابه ويعفو عن إساءاتهم»[12].

السياسة الداخليّة :

لمّا ارتقى باديس إلى الحكم ، أقرّ محمد بن أبي العرب في منصب عامل على إفريقيّة ، وهو المنصب الذي كان يشغله في عهد المنصور. وهذا الشخص الذي مدحه الرقيق وأشاد بثقافته وشجاعته ، قد استمرّ في تسيير شؤون إفريقيّة مدّة حوالي عشر سنوات ، إلى أن توفّي في أواخر سنة 396 هـ / 1005 – 1006م[13] ، فخلفه ابنه أبو القاسم بن محمد بن أبي العرب سنة 395 هـ وأقرّ الموظفين الذين عيّنهم أبوه في مناصبهم[14].

وسنرى كيف سينضمّ مع إخوانه إلى المتمرّد الزناتي فلفل بن سعيد في أوائل سنة 399 هـ / سبتمبر 1008م. وقد عفا عنه باديس ، ولكنّ المصادر لم توضّح لنا هل أعاده إلى منصبه أم لا[15]. وليس من المستبعد أن يكون قد عيّن مكانه يوسف بن أبي حبوس الصنهاجي ، حيث تؤكّد المصادر أنّ باديس قد أعفاه من جميع مهامه العسكريّة وغيرها سنة 403 هـ / 1012 – 1013م[16].

ويبدو أنّ أخت باديس الأميرة أمّ ملال قد قامت بدور سياسيّ في البلاد ، لا سيما وأنّ أخاها كان يقوم بحملات عسكريّة خارج إفريقيّة بصورة تكاد تكون مستمرّة. كما

11) ابن خلكان ، 86/1 ؛ **وشذرات** ، 179/3.

12) **المؤنس** ، 79.

13) **المؤنس** ، 78 – 79 ؛ **البيان** ، 257/1 ؛ **أدباء** ، 219/1 – 222 ؛ **مناقب** محرز بن خلف ، 323 – 325 ؛ **مدارك** عياض ، 1/المقدمة ؛ **معالم الايمان** ، 175/3.

14) **البيان** ، 258/1 سمّاه في موضعين مختلفين «القاسم» ، وكذلك النويري ، 138/2. وصحّحنا الاسم اعتمادًا على النقيشة التي تحمل تاريخ تأسيس مقصورة المعزّ.

15) **البيان** ، 258/1.

16) أنظر الباب الثامن من هذا الكتاب.

كانت مربيّته المعروفة باسم «حاضنة باديس» تتمتّع بنفوذ لا يستهان به. فهذه السبيّة قد اعتنقت الإسلام وتربّت بين الأميرات الصنهاجيّات وأطلق عليها اسم فاطمة الحاضنة[17].

وقد جاء في **معالم الإيمان** ما يلي :

«كان بالمهديّة نصرانيٌّ ابن أخي حاضنة باديس صاحب القيروان، فافتضّ هذا النصراني صبيّة شريفة، فلمّا سمعت بذلك العامّة قتلوه. فبلغ ذلكْ باديسًا فعظم عليه ذلك وأرسل قائدًا بعسكر إلى المهديّة وأمر بقتل كلّ مَنْ بَلَغ. فبلغ ذلك أبا الحسن [القابسي]، فدخل المحراب وأقبل على الدّعاء في كشف هذا. فلمّا وصل القايد إلى قصر سور قرب المهديّة، بات فيه، فقام باللّيل وهو سكران يمشي على السطح، فمشى في الهواء فسقط على رأسه وانتثر دماغه. وجاء البريد بذلك إلى باديس وأُعْلِم بدعاء أبي الحسن، فرعب لذلك وقال لأبي العرب وكبراء رجاله : «تمشون للشيخ !». فلمّا ضربوا عليه وأُعْلِمَ بهم قال لهم : «تمضون إلى الجامع حتى يأتيكم العلماء»، ولم يُدخلهم إلى داره. ووجّه إلى أبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي وأبي القاسم بن الكاتب وأبي عبد الله المالكي ومكّي القدسي وأبي عمر بن العتاب والخواصّ وابن سفيان وغيرهم، وأملى عليهم رسالة فيها : «بسم الله الرحمن الرحيم. بالله أستعين وعليه أتوكّل. الغوث الغوث بما حلّ بالمسلمين من الافتيات عليهم !». وفي فصل منها : كيف يحلّ لمن يعتقد الإسلام أن يقوم في دم كافر افتضّ صبيّةً من سُلالة المصطفى ﷺ. لو انطبقت السماوات والأرض من أجل هذا الفعل لكان قليلاً». وقال لأصحابه : «إذا وصلتم إلى الجامع فليقرأها واحدٌ منكم على المنبر ممّن له صوت». ففعلوا ذلك، فجعل القوّاد يقول بعضهم لبعض : «والله ما السلطانُ إلاّ هذا الشيخ !»[18].

علاقات باديس مع الفاطميّين :

لم تتحدّث المصادر عن تقليد باديس الولاية من قِبَل الخليفة الفاطمي العزيز بالله. إلاّ أنّ بعضها[19] قد أشار إلى أنّ باديس «قد هيّأ هديّة ليبعثها للعزيز. فبرزت الهديّة من المنصوريّة إلى رقّادة مع جعفر بن حبيب لستٍّ خَلَوْنَ من رمضان (386هـ/ 22 سبتمبر

17) **شهيرات التونسيّات**، 47 – 49.

18) **معالم الايمان**، 175/3 – 176.

19) **البيان**، 248/1 ؛ **المؤنس**، 78.

996م) . وكان العزيز بالله قد بعث إلى أبي مناد يأمره فيه برفع القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم إلى مصر. فوصل السجلّ ، والقاضي مريض ، فأمره أبو مناد بالخروج مع الهديّة ، فاعتذر بعلّته ، فبعث إلى داره محمد بن أبي العرب وجماعة رجال الدولة ، وذلك لثلاث خلون من ذي القعدة (386 هـ / 17 نوفمبر 996م) ، ووقف العسكر بباب أبي الربيع وظنّوا أنّ أهل القيروان يمنعونه منهم ويحولون بينه وبينهم ، فهجموا عليه ، وحملوه ببساطه الذي كان مريضًا عليه في ثيابه التي يلبسها في داره ، لأنّهم فاجأوه وخرجوا به محمولاً . وقد اجتمع عند داره خلق عظيم ولم ينطق أحدٌ منهم . ومشوا به إلى رقّادة ، وخلفهم غلام نصراني يمسكه ، وأولاده وقرابته يمشون خلفه . واغتمّ بمسيره سائر النّاس وظهر عليهم الحزن والأسف لفقده ، وكثر الدعاء له والثناء عليه . ثم جاءت الأخبار بوفاة العزيز بالله (يوم 28 رمضان 386 هـ / 14 أكتوبر 996م)[20] . فأمر أبو مناد برجوعه إلى داره مكرّمًا معظّمًا » . وفي سنة 387 هـ (بدون شكّ في شهر محرّم / 14 جانفي – 12 فيفري 997م) تواترت الأخبار بموت العزيز بالله. «وفيها رجع القاضي إلى داره ، وهو مريض ، فازداد مقداره عند النّاس».

«وفي ربيع الآخر [من نفس السنة] وصل القاضي الباهري من مصر إلى المنصوريّة ، فبرز أبو مناد بعساكره عليه وخرج بجميع رجاله إليه ، فرأى ما لم يَرَ مثله . ووصل المذكور بسجلّين ، فقُرِئا بجامع القيروان والمنصوريّة : أحدهما بولاية أبي مناد وتلقيبه نصير الدولة ، والثاني بوفاة العزيز بالله وخلافة الحاكم بأمر الله ، والجواب عن وفاة المنصور عدّة العزيز بالله. وكان معه سجل ثالث يأخذ العهد على باديس وجماعة بني مناد للحاكم»[21].

وأقام القاضي الشريف الباهري في بيت الأمير يوسف[22]. ثم عقد باديس مجلسًا بحضور مبعوث الخليفة[23] الذي أخذ البيعة عن بني مناد ووجوه الصنهاجيّين ، بعد بيعة الأمير. وبعد ذلك عقد الشريف مجلسًا في البيت الذي كان يقيم فيه وأخذ البيعة عن الصنهاجيّين وكلّ من جاؤوا لمقابلته . «ثم رجع إلى مصر بعد أن وصله أبو مناد بمال جليل»[24] ، وبعث معه هديّة إلى الخليفة .

20) **نجوم** ، 112/4 – 113 ؛ **خطط** ، 66/4 – 67 ؛ **اتعاظ** ، الذيل ، 295 .

21) **البيان** ، 248/1 – 249 ؛ أنظر أيضًا : النويري ، 122/2 – 123 و**الكامل** ، 53/9 و**المؤنس** ، 78 .

22) **البيان** ، 248/1 .

23) يمكن أن يفهم من رواية **البيان** والنويري ، أنّ باديس هو الذي أخذ البيعة ، ولكنّ هذا التأويل غير صحيح .

24) **البيان** ، 249/1 ؛ النويري : «ثم جهّز هديّة بعده».

وفي نفس تلك السنة ، بمناسبة الاحتفال بعيد الفطر أو عيد الأضحى ، «خرج نصير الدولة إلى المصلّى بزيّ جليل وهيئة حسنة ، وبين يديه الفيل وزرّافتان ، وجمل أبيض ساطع البياض ، لم يَرَ الناس مثله قطّ»[25] . وفي سنة 388 هـ / 3 جانفي – 22 ديسمبر 998م «وصلت إلى نصير الدولة هديّة من مصر ، تشتمل على الجوهر والأعلاق النفيسة ، فتلقّاها ، ودُخِلَت بين يديه إلى المنصوريّة»[26] .

وفي سنة 402 هـ / 4 أوت 1011 – 22 جويلية 1012م ، احتجز بنو قرّة الهدايا التي وجّهها باديس إلى الحاكم بأمر الله واستولوا على مدينة برقة ، ففرّ عاملها عن طريق البحر[27] . ولعلّ الأمر يتعلّق بالحادثة التي جرت في سنة 405هـ / 1014 – 1015م ، وسوف نتعرّض لها فيما بعد .

وفي السنة الموالية «وصل إلى المهديّة مركبٌ فيه هديّة جليلة من الحاكم إلى نصير الدولة باديس صاحب إفريقيّة ، وإلى ولده المنصور عزيز الدولة»[28] .

«فخرج باديس إلى لقائها بالبنود والطبول ، وخرج ولده المنصور ولم يكن خرج قبل ذلك ، ومعه القضاة وأكابر الدولة»[29] . وقد جرى هذا الحفل في قصر الماء الذي يوجد لا محالة في المهديّة . فترجّل باديس لتسلّم هدايا الخليفة ، «وقد وصلت سجلاّت منه إلى نصير الدولة باضافة برقة وأعمالها إليه»[30] فأرسل عامله إليها[31] .

وفي نفس السنة تحوّل إلى القاهرة الرقيق رئيس ديوان الإنشاء والمؤرّخ الرسمي لبني زيري ، لإبلاغ هديّة الأمير الصّنهاجي إلى الحاكم بأمر الله . وبتلك المناسبة نظم الرّقيق قصيدة في مدح مخدومه[32] .

ويبدو أنّ من بين السجلاّت المذكورة ، كان يوجد السجلّ الذي يمنح المنصور لقب عزيز الدولة ، وذلك رغم أنّ المصادر قد تحدّثت عن ذلك السجل بعنوان الحوادث التي جرت في سنة 405 هـ / 1014 – 1015م .

---

25) **البيان** ، 249/1 ؛ **المؤنس** ، 78 .
26) **البيان** ، 249/1 .
27) **العبر** ، 17/6 .
28) **البيان** ، 259/1 .
29) **المؤنس** ، 78 .
30) **البيان** ، 259/1 .
31) **المؤنس** ، 79 ، من المحتمل أن يكون هذا العامل هو يعلى بن فرح .
32) **أدباء** ، 218/1 ؛ **خطط** ، 370/1 .

وفي سنة 404 هـ وصل سجلّ من الحاكم إلى نصير الدولة ، يذكر فيه أنّه جعل ولاية العهد في حياته لابن عمّه أبي القاسم عبد الرحمان بن إلياس. فقُرِئ بجامع القيروان والمنصوريّة ، وأُثبت اسمه مع اسم الحاكم في البنود[33] والسكّة ، فعظم ذلك على نصير الدولة وقال : لولا أنّ الإمام لا يُعْتَرَض على تدبيره لكاتَبْتُه ألاّ يصرفِ هذا الأمر من وَلَدِه إلى ابن عمّه»[34].

«وفي سنة 405 هـ أخرج نصير الدولة هديّة جليلة إلى الحاكم وشيّعها بالطبول والبنود من المنصوريّة ، فوصلت إلى المهديّة وركب البحر بها يَعْلَى بن فرج. وكان فيها مائة فارس ولها سروج مُحَلاَّة شُدَّت في ثمانية عشر حِمْلاً أقفاصًا ، وكان فيها ثمانية وعشرون حِمْلاً من الخزّ والسّمور[35] والمتاع السوسي المذهّب النفيس ، وعشرون وصيفة بارعة الجمال ، وعشرة من الصقالبة وغير ذلك. ووجّهت السيدة أمّ ملال أخت نصير الدولة إلى السيّدة أخت الحاكم [ستّ الملك] هديّة أيضًا. ولمّا وصلت تلك الهدايا إلى جهّة برقة أخذها العرب (وهم بدون شكّ بنو قرّة الذين فعلوا نفس الصنيع في سنة 402 هـ / 1011 – 1012م) ، وهرب يَعْلَى بن فرج وأسلمها بجميع ما فيها»[36].

محاربة زناتة :

1) المرحلة الأولى : الاستيلاء على تاهرت[37] :

إنّ النزاع الذي نشب في سنة 386 هـ / 996 – 997م ، وهي سنة ارتقاء باديس إلى العرش ، بين بني زيري من جهة ، وبين القائد المغراوي القوي النفوذ زيري بن عطيّة والقائد الأندلسي ابن أبي عامر من جهة أخرى ، قد انقلب ضدّ الزناتيّين الذين انهزموا شرّ هزيمة في شوّال 388 هـ / 26 سبتمبر – 24 أكتوبر 994م وأُجبِر زيري بن عطيّة على الرحيل إلى فاس صحبة عدد قليل من رجاله ثم الفرار إلى الصحراء. فعيّن ابن أبي عامر ابنه عبد الملك عاملاً على المغرب.

33) **البيان** ، نفس المرجع. أنظر أيضًا : **اتعاظ** ، الذيل ، 311 – 312 ، وذكر فيه أنّ وليّ العهد اسمه عبد الرحيم.
34) **البيان** ، 260/1.
35) [السمور: حيوان ثديي ذو فَرْو ثمين].
36) **البيان** ، 260/1 – 261.
37) **النويري** ، **123/2 – 124** ، [illegible] 249/1 – 250 ؛ **الكامل** ، 63/9 ؛ **العبر** ، 179/6 ؛ **المؤنس** ، 78 – 79.

ولم تمض مدّة طويلة حتى جمع الأمير الزناتي عددًا كبيرًا من الجنود، ولكنّه عِوَض الهجوم على شمال المغرب الأقصى الذي كان في قبضة الجيش الأندلسي، زحف على المنطقة الصنهاجيّة الشرقيّة[38].

ففي أوائل سنة 389 هـ/ 23 ديسمبر 998 – جانفي 999م شرع زيري بن عطيّة في محاصرة تاهرت. فكتب عاملها يطّوفت بن يوسف بن زيري إلى ابن أخيه صاحب إفريقيّة يستنجده. «ولمّا وصل كتاب يطّوفت إلى باديس نصير الدولة، أمر نصيرُ الدولة [نائبه في إفريقيّة] محمّد بن أبي العرب الكاتب بالخروج بالعساكر إلى زناتة. فكان تبريزه في منتصف صفر من هذه السنة، حتى بلغ أشير وبها حمّاد بن يوسف بن زيري، عاملاً عليها، ومعه عسكر عظيم، فأقام بها يسيرًا، ثم رحل، ورحل حمّاد معه بعسكره، حتى وصلا إلى تاهرت، فاجتمعا بيطّوفت، ومعه أيضًا عسكر عظيم، وكان اجتماعهم بتاهرت غرة جمادى الأولى. وكان بتاهرت زيري بن عطيّة نازلاً بموضع يقال له آمسّار على مرحلتين من تاهرت»[39].

فزحف الصنهاجيّون يوم السبت 4 جمادى الأولى 389 هـ/ 23 أفريل 999م[40]. وكان أكثر عسكر حمّاد من الوتلكاتيّين الذين كانوا يكرهونه، إمّا «لقلّة عطائه»[41] أو لأنّه عهد بشؤونهم إلى غلامه خلف الحِمْيَري الذي كان قد أهانهم[42].

«فلمّا حمي الوطيس واشتدّ البأس، ولّوْا منهزمين فاتبعهم جميع العساكر الإفريقيّة، فرام ابن أبي العرب ردّ النّاس فلم يقدر، فولّت الهزيمة على الجميع حتى وصلوا إلى أشير، وقد أسلموا محلاّتهم ومضاربهم وكلّ ما فيها من الأموال والسلاح وغير ذلك، فاحتوى زيري بن عطيّة وإخوانه على جميع ما ذكرنا»[43]. وأعطى الأمير المغراوي أوامره بعدم ملاحقة الفارّين[44]، بسبب أهميّة الغنائم، بدون شكّ. «وقد قُتِلَ منهم خلق كثير وأُخِذَ أسارى كثيرة»[45].

وعندما وصل زيري بن عطيّة إلى تاهرت تقدّم إليه أهلها فوعدهم بجميل وأطلق سبيل عدد كبير من الصنهاجيّين الأسرى أو اللاّجئين في المدينة[46]. «فمضوا حتى وصلوا إلى أشير

38) مفاخر، 27 – 30؛ البيان، 252/1 – 253.
39) البيان، 249/1 – 250.
40) نفس المرجع، نظريًّا يوم الأحد.
41) الكامل، 64/9.
42) النويري.
43) البيان، 250/1.
44) حسب النويري، لا غير.
45) البيان، 250/1.
46) حسب النويري.

وبقي ابن أبي العرب وحمّاد ويطّوفت بأشير وبقي زيري بن عطيّة الزناتي على تاهرت»[47].

«ووصل الخبر إلى المنصوريّة لعشرٍ بقين من جمادى الأولى من هذه السنة»[48]، (9 ماي 999).

2) المرحلة الثانية : حملة باديس[49] :

«خرج نصير الدولة صاحب إفريقيّة من المنصوريّة يوم السبت[50] لليلتَيْن خلتا من جمادى الآخرة (21 ماي 999) ورحل حتّى وصل إلى طبنة، فبعث في طلب فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي، وكان على طبنة، فخاف منه وبعث يعتذر له، ويسأله أن يكتب له سجلاً بولاية طبنة[51]. فكتب له وبعث به إليه، ورحل عنه نصير الدولة باديس وتمادى في رحيله»[52]. ويبدو أنّ باديس قد أهدى إلى فلفل بتلك المناسبة الهدية التي تحدّث عنها ابن خلدون[53]، وهي تتمثّل في ثلاثين حملاً من الفضة وثمانين حزمة من الأقمشة النفيسة.

ونحن نستغرب من تصرّف الأمير بمثل هذا الطيش. فهل كان يظنّ أنّ هذا القائد الزناتي لا يمثّل أيّ خطورة جسيمة وأنه سيقتنع بتلك الهبة؟ ولعلّه لم يكن يرغب في إلهاء أدنى جزء من قواه التي كان حريصًا على تكريسها لمقاومة عدوّه المُخطِر زيري بن عطيّة، على أنّ ذلك لم يمنعه من التفكير في ردع فلفل فيما بعد.

«فلمّا بلغ فلفلاً أنّ باديس قد ابتعد عنه، ضرب على جهة من جهاته فأكل ما حولها ونهب وأفسد. ومضى إلى باغاية فحاصرها وأفسد تلك الجهّات كلّها وأكل ما والاها»[54].

ويبدو أنّ زيري بن عطيّة لم يبق مكتوف اليدَيْن بعد انتصاره، فقد زحف على أشير حيث كان الصنهاجيّون ينتظرون قدوم باديس، بل ربّما شرع في محاصرتها، حسبما رواه النويري الذي أكّد ما يلي[55] : «فلمّا بلغ إلى المسيلة رحل زيري بن عطيّة عن أشير إلى

47) البيان، 250/1.
48) في البيان : «لعشرٍ بقين».
49) النويري، 124/2 – 126؛ البيان، 250/1 – 251.
50) نظريًا يوم الأحد.
51) النويري والبيان. وفي الكامل : «وطلب عهدًا بإقطاع مدينة طبنة».
52) البيان، 250/1.
53) العبر، 158 – 159.
54) البيان، 250/1.
55) النويري، 125/2.

تاهرت، فرحل إليها باديس». وأضاف صاحب **البيان** إلى ذلك قائلاً: «ولمّا وصل إلى المسيلة رحل زيري بن عطيّة عن تاهرت. فصمّم إليه نصير الدولة»[56].

وهكذا فقد تحوّل باديس إلى أشير ومنها –حسبما يبدو– إلى تاهرت التي غادرها زيري بن عطيّة متوغّلاً في الجهة الغربيّة في اتجاه فاس. واستعمل باديس على تاهرت وأشير عمّه يطّوفت بن بلكّين «الذي استخلف على تاهرت ابنه أيّوب في أربعة آلاف فارس»[57]. فرجع باديس إلى أشير صحبة يطّوفت وبلغه ما فعل فلفل بن سعيد. فوجّه إليه جيشًا على رأسه أبو زعبل[58] وجعفر بن حبيب ومحمد بن حسن. وبعد ذلك بقليل رحل عن أشير وترك بها يطّوفت وأبناء زيري بن مناد، ماكسن وزاوي وجلال(؟) ومغنين وعزم[59] الذين طلبوا إليه السماح لهم بالبقاء في أشير مع يطّوفت، لمساعدته على تسيير شؤون البلاد. وقد رفض باديس طلبهم في أوّل الأمر وأمرهم بمرافقته، ثم سمح لهم بالبقاء في المغرب الأوسط لقضاء بعض شؤونهم، حسب زعمهم، والالتحاق به فيما بعد[60].

ويبقى الدور الذي قام به حمّاد في تلك الفترة غامضًا. فنحن نستغرب كيف تمّ تعويضه في أشير بيطّوفت بعدما كان عاملاً عليها إلى حدّ ذلك التاريخ. وحسب ابن خلدون[61]، يبدو أنّ حمّادًا قد بقي في أشير مع يطّوفت. ولكنّ بعض المصادر الأخرى، وكتاب **العبر** نفسه في موضع آخر[62]، تكذّب هذا الادّعاء. فمن المحتمل أن يكون حمّاد قد رافق باديس. ولا ندري أيضًا هل رجع محمد بن أبي العرب إلى إفريقيّة أم لا.

وصل باديس إلى المسيلة مرفوقًا بعمّ أبيه أبي البهار بن زيري لقضاء عيد الفطر بها. وأثناء موكب العيد (أوّل شوّال 389 هـ/ 15 سبتمبر 999م) أحيط أبو البهار علمًا بأن إخوانه ماكسن وزاوي ومغنين وعزم قد شقّوا عصا الطاعة في أشير، وقبضوا على يطّوفت واستحوذوا على أملاكه، ولولا تمكّنه من الهروب من بين أيديهم لقتلوه[63].

---

56) **البيان**، 250/1.
57) نفس المرجع. النويري: «فعند ذلك ولّى أبو منّاد على تاهرت وأشير عمّه يطّوفت فاستخلف يطّوفت».
58) الغالب على الظنّ أنه أبو زعبل بن هشام.
59) **البيان**، 259/1؛ **العبر**، 157/6؛ النويري.
60) حسب النويري، لا غير.
61) **العبر**، 179/6.
62) نفس المرجع، 157/6.
63) **العبر**، 179/6: «387هـ».

فخشي أبو البهار أن يلتحق يطّوفت بباديس وأن توجّه إليه تهمة التواطؤ مع إخوانه، ولاذ بالفرار مع بنيه ورجاله وعياله. فاقتفى جنود الأمير أثره، ولكنّهم لم يتمكّنوا من القبض عليه. وفي طريقه التقى بيطّوفت الذي أكّد له خبر تمرّد إخوانه. فأقسم له أبو البهار أنّه لم يكن له أيّ ضلع في تلك المؤامرة وأنّه لم يهرب إلاّ خوفًا على نفسه. ولكن ما إن فارقه حتى التحق بالمتمردّين.

والتقى يطّوفت بباديس وهو ما زال في المسيلة. ولكن الأمير لم يفكّر قطّ في الرجوع من حيث أتى، لأنّ فلفل كان يزحف آنذاك على إفريقيّة. ومن جهة أخرى يبدو أنّ زيري بن عطيّة قد اغتنم فرصة الفوضى التي أثارتها ثورة أعمام والد صاحب إفريقيّة، ليستأنف حملته العسكريّة في اتّجاه تاهرت. فكلّف باديس عمّه حمّاد بن بلكّين بالتحوّل إلى جهة الغرب لإرجاع الأمور إلى نصابها، بينما تكفّل هو نفسه بردع فلفل بن سعيد في الجهة الشرقيّة. ولذلك، رغم إمكانيّة الالتباس بين هذه الحملة والحملة التي تعرّضنا لها من قبل، يمكننا أن نؤكّد – مع كلّ التحفّظات – أنّ باديس قد نظّم حملة عسكريّة ضدّ زيري بن عطيّة، بقيادة حمّاد، وبمشاركة محمد بن أبي العرب[64].

ودارت المعركة في وادي مينة[65] على بعد 20 فرسخًا جنوب تاهرت. فانهزم الصنهاجيّون وتركوا معسكرهم، وقد بلغت خسائرهم آلاف القتلى، ومكّن هذا الانتصار الأمير المغراوي من الاستيلاء على منطقة ممتدّة الأطراف تضمّ تاهرت وتلمسان والشلف وتنّبن والمسيلة. فدخل زيري بن عطيّة في طاعة الخليفة الأموي هشام الثاني والمنصور بن أبي عامر وكتب إلى هذا الأخير يلتمس منه العفو والسماح له باسترجاع سلطته السابقة. فاستجاب المنصور لهذا الطلب. ثم حاصر زيري بن عطيّة أشير وتقبّل استسلام زاوي بن زيري وبقيّة المتمرّدين على باديس من بني زيري.

ويقال إنّ ابن أبي عامر قد قبل من حيث المبدأ دخولهم في خدمته. وبايع أبو البهار هشام الثاني والمنصور بن أبي عامر. وقد وجّه إلى هذا الأخير مبعوثًا خاصًّا في آخر يوم من شوّال 389 هـ / 13 أكتوبر 998 م. ولكن المنصور الذي لم ينس أنّ أبا البهار قد خدم القضية الأمويّة قبل ذلك ببضع سنوات، ثم خانها، أجاب بالتسويف. وسنرى كيف سينتظر المتمرّدون وفاته (رمضان 392 هـ / 14 جويلية – 12 أوت 1002 م) ليتمكّنوا من التحوّل إلى الأندلس.

64) البيان، 247/3 – 248؛ مفاخر، 35.
65) مفاخر، 35.

أمّا حمّاد فيبدو أنّه بقي في المغرب الأوسط ، مُكلَّفًا من قِبَل باديس بإخماد ثورة أعمام والد الأمير[66] .

وأمّا باديس الذي تركناه في المسيلة ، فقد غادرها ثالث شوّال 389 هـ / 17 سبتمبر 999 م . فلمّا وصل إلى بلزمة بلغه نبأ انتصار فلفل بن سعيد على الجيش الذي كان قد وجّهه إليه ، وقتل أبا زعبل الذي يبدو أنّه نفس الشخص الذي كان تابعًا لبلكّين وعاملاً على تيجس وقصر الافريقي وقسنطينة[67] . كما أسّر فلفل حامد بن زعبل الذي هو بدون شكّ ابن الشخص المذكور، ثم قتله بعدما عذّبه . وإثر هذا الانتصار زحف المتمرّد على القيروان .

«فرحل باديس إلى باغاية (يوم 18 شوّال 389 هـ / 2 أكتوبر 999م)[68] وعرّفه أهلها ما قاسوه من قتال فلفل وأنّه حاصرهم خمسة وأربعين يومًا»[69] . فرحل من باغاية في طلب فلفل يوم أوّل ذي القعدة 389 هـ / 14 أكتوبر 999م ووصل إلى مرمجنّة . وفي يوم الخميس 6 ذي القعدة 389 هـ / 19 أكتوبر 999م هجم فلفل على باديس الذي رفض القتال وواصل طريقه . ثم التقى به بوادي أغلان[70] «لِعَشْرٍ خَلَوْنَ من ذي القعدة . فكانت بينهم حروب لم يُسْمَعْ بمثلها . وكان قد اجتمع لفلفل من البربر ما لا يحصى عددًا وكثرة . فانهزم فلفل إلى جبل الحناش واتبعته صنهاجة والعبيد»[71] . «وقُتِلَ من زناتة تسعة آلاف قتيل[72] سوى من قُتِلَ من البربر . وأرسل باديس كتاب الفتح إلى مدينة القيروان . وفرح أهلها لأنّهم خافوا أن يأتيهم فلفل»[73] . وكانوا قد تحصّنوا في شوارع المدينة ومنهم من التجأوا إلى المهديّة . وعاد باديس إلى المنصوريّة ظافرًا يوم الأربعاء 20 ذي القعدة 389 هـ / 2 نوفمبر 999م[74] .

66) **العبر** ، 157/6 .
67) **البيان** ، 239/1 – 261 ؛ النويري ، 128/2 .
68) النويري .
69) نفس المرجع .
70) **الكامل** ، 64/9 .
71) **البيان** ، 251/1 .
72) وفي **البيان** ، 7000 قتيل .
73) **الكامل** ، 64/9 .
74) النويري ، نظريًا يوم الخميس .

3) المرحلة الثالثة : 390– 391 هـ / 1000– 1001م[75] :

بينما كان زيري بن عطيّة يحاول الإستيلاء على أشير التي ربّما كان يدافع عنها حمّاد، كان أعمام والد باديس قد تحالفوا مع فلفل بن سعيد ضدّه، وكانت قواهم المشتركة تحاصر تبسّة.

«وفي أوّل رجب من سنة 390هـ (7 جوان 1000م) خرج نصير الدولة إلى رقّادة متوجّهًا لقتال زيري بن عطيّة الزناتي أمير الغرب، لمّا بلغه أنه أتى إلى أشير. ثم جاء الخبر برحيل زيري بن عطيّة إلى الغرب، وتمادى نصير الدولة إلى أن وصل قصر الإفريقي، فبلغه حينئذ أنّ بني زيري رجعوا إلى الغرب خوفًا منه، وأنّه لم يبق مع فلفل منهم سوى ماكسن وابنه محسن، فرجع نصير الدولة إلى المنصوريّة حضرته»[76].

«وفي سنة 391 هـ (أوّل ديسمبر 1000 – 19 نوفمبر 1001م) خرج نصير الدولة في طلب فلفل بن سعيد. فلمّا علم فلفل أنّه لا طاقة له بلقائه، هرب إلى الرمال، وافترق جمعه. فرجع نصير الدولة إلى إفريقيّة ومعه أبو البهار بن زيري، وقد اعتذر له ممّا فعل إخوانه فقبل عذره»[77].

«وفي هذه السنة وصل رسول حمّاد بن يوسف العزيز بالله. يذكر أنّه زحف إلى عمّه ماكسن بن زيري ومن معه، فقُتِلَ ماكسن وولداه محسن وباديس بعد حروب شديدة، وذلك بعد ثلاثٍ خَلَوْنَ من رمضان المعظم»[78]، (27 جويلية 1000م).

أمّا عزم بن زيري، فكلّ ما نعلم عنه أنه توفّي في القيروان سنة 401هـ/ 15 أوت 1010 – 3 أوت 1011م[79].

وفي المغرب الأوسط، كانت المعركة بين ماكسن وحمّاد حامية الوطيس. وفي آخر الأمر تمكّن حمّاد من قتل خصمه[79 م] وأبنائه محسن وباديس وحباسة الذين أكلتهم الكلاب.

---

75) النويري، 126/2، **الكامل**، 64/9– 65. بالمقارنة مع هذين المصدرين نلاحظ أنّ **البيان**، 251/1– 252 فيه تشويش في الأحداث. وقد قمنا بتصحيح النصّ ليصبح مقبولاً.

76) **البيان**، 251/1.

77) نفس المرجع.

78) نفس المرجع، 252/1.

79) **البيان**، 259/1.

79 م) **العبر**. وحسب ابن حزم، **نقط العروس**، 238، فإنّ حمّاد بن بلكّين بن زيري قد ألقى عمّه بلكّين إلى الكلاب فأكلوه حيًّا.

وأمّا زاوي بن زيري فقد التجأ إلى جبل شنوة في المنطقة الساحليّة الواقعة غربي شرشل شمال مليانة(80). وظلّ ينتظر السماح له بالتحوّل إلى الأندلس، ولم تأته الرخصة إلاّ بعد وفاة المنصور بن أبي عامر (رمضان 392 هـ/ 14 جويلية – 12 أوت 1002م)، فقد سلّمها إليه ابن المنصور، عبد الملك المظفّر الذي كان يرغب في انتداب مرتزقة إفريقيّين. فارتحل زاوي إلى الأندلس على رأس عدد كبير من أبناء قبيلته ومواليه، وكان مرفوقًا بابنيْ أخيه ماكسن، وهما حُباسة وحبوس. فاستُقْبِلوا بحفاوة بالغة في قرطبة، وقد كان وصلها قبل ذلك رأس زيري الذي قتله الزناتيّون الموالون لبني أميّة. وقام الصنهاجيّون بدور سياسي وعسكري بارز في الأندلس وتحصّلوا على إقليم الميرة. واستقرّ زاوي في غرناطة التي كانت تشهد عهدئذ ازدهارًا ملحوظًا(81).

وبعد تسعة أيّام من انتصار حمّاد، أي يوم 12 رمضان 391 هـ/ 5 أوت 1001م توفّي القائد الزناتي الشهير زيري بن عطيّة. فقد مرض وهو على أسوار مدينة أشير التي رفع عنها الحصار منذ قليل، ليعود إلى بلاده. وبفضل حمّاد بن بلكّين على وجه الخصوص عادت المياه إلى مجاريها في المغرب الأوسط وأصبح بأستطاعة باديس التفرّغ لشؤون طرابلس ومقاومة فلفل بن سعيد. وتحقيقًا لهذه الغاية استدعى إلى القيروان حمّادًا الذي لا يمكن الاستغناء عن مساعدته الثمينة(82). ويدلّ هذا القرار على أنّ باديس كان يرى أنّ سلطته قد تعزّزت بما فيه الكفاية في المغرب الأوسط وأنه في حاجة إلى جميع قواه لاستعادة نفوذه في المنطقة الجنوبيّة من إفريقيّة. ومن ناحية أخرى أفلا يمثّل وجود رجل قويّ النفوذ مثل حمّاد في المغرب الأوسط خطرًا محدقًا به؟ فمن المعقول أن يكون باديس قد راودته الشكوك تجاه طموح عمّه، بعد النتائج التي استخلصها من خيانة أعمام والده.

---

80) **العبر**، 179/6 و171/6: «التجأ زاوي وإخوانه إلى جبل شنوة، ومن هناك تحوّلوا إلى الأندلس بموافقة حمّاد». وفي **العبر**، 157/6 – 158: «التجأ الفارّون إلى جبل شنوة، فحاصرهم حمّاد، وبعد بضعة أيّام استسلموا بشرط أن يتمّ ترحيلهم إلى الأندلس. وفي سنة 391هـ/ 1000 – 1001م وصلوا إلى بلاط ابن أبي عامر».

81) ابن بسّام، 6–61/1–62؛ **البيان**، 75/3 – 76، 108، 129، 263 – 264؛ **أعمال**، 260 – 261.

82) **العبر**، 158/6.

ولاية المعزّ بن زيري بن عطيّة على زناتة وحملة حمّاد ضدّه[83] :

لمّا توفّي زيري بن عطيّة أقام الزناتيّون وبنو خزر ومغراوة ابنَه المعزّ مكانه . ورغم انضمام زيري بن عطيّة وعدد كبير من بني خزر إلى بني أميّة ، فإنّ الزناتيّين قد أضاعوا المغرب الأقصى بأسره ، ما عدا سجلماسة ، إذ كان الخليفة قد عهد بولايتها منذ أوائل سنة 390 هـ / 13 ديسمبر 999 – نوفمبر 1000م إلى وانودين بن خزرون بن فلفل ، مقابل دفع مبلغ من المال كلّ سنة وتوجيه ابنه رهينةً إلى قرطبة[84] .

وبطبيعة الحال ، فقد بدأ المعزّ بن زيري بتوجيه نظره نحو المغرب الأوسط ، اقتداءً بأبيه . وكان الوقت ملائمًا ، حيث لم يكن يخشى أن يجد في تلك البلاد لا حمّادًا الذي استُدْعِيَ إلى القيروان ، ولا باديس الذي كان يقاتل فلفل في جنوب إفريقيّة .

ولذلك فما إن رحل حمّاد ، حتى زحف الزناتيّون على المغرب الأوسط وعاثوا فيه فسادًا ، متعرّضين للقوافل ومحاصرين المسيلة وأشير . ولا يمكن أن يترك باديس هذه المغامرة بدون ردّ فعل .

في سنة 395 هـ / 18 أكتوبر 1004 – 7 أكتوبر 1005م كلّف حمّادًا بالذهاب لردع المغراويّين وبني يفرن . وتعهّد بعدم عودته إلى القيروان من جديد والتخلّي لفائدته عن أشير والمغرب الأوسط وكلّ المدن التي سيتمكّن من فتحها . ثم صاحبه إلى أن وصل إلى تيجس ، فأقام بها بعض الوقت ، حسبما يبدو . وليست لدينا معلومات مفصّلة حول العمليّات العسكريّة التي يبدو أنّها دارت بسرعة وكُلِّلت بالنجاح . وممّا لا شكّ فيه أنّ الصنهاجيّين الذين هم أهل حضر كانوا يترقّبون بفارغ صبر حلول الأمن من جديد في ربوعهم والالتفاف حول رجل من بني جنسهم يستطيع التصدّي لخصومهم الألدّاء من البدو الزناتيّين . فكان المؤسّس المقبل لمدينة القلعة هو الشخص المنتظر للقيام بتلك المهمّة .

وبعدما أُجْلِيَ الزناتيّون من المغرب الأوسط ، خاب أملهم في إمكانيّة التصدّي في العاجل لحمّاد ورجاله الصنهاجيّين ، لا سيما وأنّ ضغط الزناتيّين في أعماق المغرب الأدنى ، بقيادة فلفل بن سعيد قد باء بالفشل بصورة تكاد تكون تامّة . على أنّهم تمكّنوا في المقابل من استعادة نفوذهم بسرعة في المغرب الأقصى .

83) مفاخر ، 36 ؛ أعمال ، 454 – 460 .
84) البيان ، 245/1 .

الصلح بين زناتة وبني أميّة[85] :

التمس المعزّ بن زيري بن عطيّة من عبد الملك المظفر بن أبي عامر، ابن المنصور وخليفته[86] تقليده ولاية المغرب الأقصى واقترح عليه أن يوجّه إليه ابنه مُعَنْصَر رهينةً. ونحن نملك نصّ الرسالة المؤرّخة في ذي القعدة 396 هـ (أو 397) / أوت 1006م (أو 1007)، والمتضمّنة استجابة ابن أبي عامر لهذا الطلب، مقابل دفع ضريبة سنويّة وتوجيه اَبنَيْ الأمير الزناتي مُعَنْصَر وحمامة كرهينتَيْن إلى قرطبة.

«وكتب ابن أبي عامر للمعزّ عهدَه بتجديد ولاية المغرب كلّه إلاّ مدينة سجلماسة، فإنّه كان قد عقد ولايتها لواضح الفتى قبل ذلك، وولاّها واضح وانودين بن خزرون اليفرني.... وبقي المعزّ أميرَ الغرب إلى أن حانت وفاته سنة 416 هـ وولي مكانه ابنه حمامة بن المعزّ بن زيري بن عطيّة»[87].

قضيّة طرابلس :

1) المرحلة الأولى : حتى وفاة يانس (390 هـ/ 999 – 1000 م)[88] :

من الجدير بالملاحظة أنّ طرابلس كانت تابعة للأراضي الخاضعة لدولة بني زيري، وذلك منذ سنة 367 هـ/ 977 – 978م، وكان واليًا عليها تمصولت بن بكار[89] الذي ارتكب عدّة تجاوزات وجمع ثروة طائلة بواسطة استغلال منظوريه. وعندما أحيط باديس علمًا بالأمر طلب إليه القدوم إلى القيروان لتوضيح هذه القضيّة. وخوفًا على نفسه وعلى أملاكه، اقترح تمصولت على الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله أن يسلّم إليه طرابلس، واستأذن في الرحيل إلى القاهرة ليستوطنها.

---

85) **مفاخر**، 37 – 42 نقلاً عن ابن خلكان، 253/1 – 254.

86) توفّي المنصور في رمضان 392 هـ/ جويلية – أوت 1002م.

87) **البيان**، 245/1.

88) **خطط**، 217/1 – 218 نقلاً عن التجاني، 130 – 131؛ **العبر**، 40/7 – 41؛ **الكامل**، 65/9 – 66؛ **البيان**، 251/1 – 252؛ النويري، 126/2.

89) **نجوم**، 204/4 والإحالة رقم 1. الشماخي، 336 – 337.

وكان الفتى أبو الفتوح برجوان[90] القويّ النفوذ في بلاط الحاكم بأمر الله، منذ انتصاره في الثورة التي أعلنها سنة 387هـ/ 997م، قد قلّد الخادم أبا الحسن يانس[91] ولاية برقة، لاقصائه من البلاط، خشية أن ينافسه. فاغتنم المساعي التي قام بها تمصولت، ليقترح على الخليفة توجيه يانس إلى طرابلس، فوافق الحاكم بأمر الله على هذا الاقتراح، وعيّن يانس واليًا على طرابلس وأمره بالتحوّل إليها حالاً. فوصل يانس إلى طرابلس سنة 390هـ/ 13 ديسمبر 999 – 30 نوفمبر 1000م على رأس خمسة عشر ألف فارس، وارتحل تمصولت إلى مصر حاملاً معه قسمًا من ثروته، فعيّنه الخليفة واليًا على دمشق.

«فلمّا علم بذلك باديس وجّه إلى يانس يستفهمه عن سبب وصوله ويستدعي منه سجلاً إن كان بيده بالولاية فبعث إليه: «إنّما بُعِثْتُ نائبًا عن أمير المؤمنين ومثلي يكبر عن أن يُوَلّى بسجلّ». حينئذ وجّه باديس جعفر بن حبيب لقتاله. فأقام نحو ثلاثة شهور بقرية أجاس[92] متلوّمًا عليه وبعث إليه في أثناء تلك المدّة يخيّره في واحدة من ثلاث: إما بعث السجلّ إن كان بيده، وإمّا القدوم على باديس ليفاوضه فيما وصل إليه، وإمّا المناجزة بالحرب. فعاد جوابه إليه يقول: «أما الوصول فلا سبيل إليه، وأما سجلّ الولاية فأنا أكبر من ذلك إذ كنتُ خليفة أمير المؤمنين على ما هو أعظم من طرابلس، وأمّا الثالثة فأنا أوافيك عن الحركة إليّ وأجيئك إلى موضعك فأقاتلك به». فتحرّك إليه جعفر بن حبيب متوجّهًا إليه فنزل غربي زنزور ونزل يانس بالجانب الشرقي منها والزيتون بينهما، ثم التقيا فكانت الهزيمة على يانس وقُتِلَ أكثر جنده وأُخِذ هو أسيرًا، فطلب ممّن أسره أن يحملوه إلى جعفر فأبوا من ذلك واحتزّوا رأسه ثم حملوه إلى جعفر ونجا فلول المنهزمين فلجأوا إلى مدينة طرابلس، فأبى أهل طرابلس من تمكين جعفر من البلد ومن اللاّجئين إليها»[93]. فحاصر جعفر المدينة التي كان يشرف على دفاعها أحد قوّاد يانس المسمّى فتوح بن علي بن جفيانان[94].

---

90) أنظر حول هذا الوزير الذي قُتِل سنة 389 أو 390هـ/ 999 – 1000م، اتّعاظ، الذيل، 300 نقلاً عن **الخطط**، 68/4.

91) حول هذا الشخص، أنظر: **خطط**، 68/6 و**اتّعاظ**، الذيل، 300.

92) تقع هذه القرية بين مارث وطرابلس على بعد مرحلة جنوبي مارث؟

93) **رحلة التجاني**، 182 – 183.

94) **العبر**، 41/7.

وبعد قليل «وصل كتاب يوسف بن عامر عامل قابس ، يذكر فيه أنّ فلفل رحل إلى طرابلس من على قابس لستٍّ بقين من رجب»[95] ، (24 رجب 391 هـ/ 19 جوان 1001م) .

وبالفعل فسرعان ما تمكّن الأمير الزناتي من الاقتراب من طرابلس والاستيلاء على المواقع التي تخلّى عنها جعفر بن حبيب من باب الجلفر، والتجأ لدى يحيى بن محمد أمير نفوسة . وقد بلغت المآسي التي قاساها الصنهاجيّون في جبل نفوسة إلى درجة أنّ قائدهم قد قرّر المغامرة بشنّ معركة لفتح طريق قابس . ولكنّ فلفل لم يحاول سدّ الطريق في وجهه ومنعه من الرجوع إلى القيروان ، وذلك إمّا لأسباب تكتيكيّة أو لعجزه ./«ولمّا وصل فلفل إلى طرابلس خرج إليه فتوح بن علي وجماعة أهلها ، فتلقّوه ، وأدخلوه البلد ، فاستوطنها من ذلك الوقت»[96] .

2) **المرحلة الثانية : وفاة فلفل بن سعيد[97] :**

بعدما استولى فلفل ين سعيد على طرابلس وضواحيها ، قدّم شواهد الإخلاص إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي أوفد يحيى بن علي بن حمدون الأندلسي واليًا على طرابلس وقابس[98] .

وتوجّه يحيى إلى برقة ، فلم يجد فيها المال الذي وعدوا بتسليمه إليه في تلك المدينة . وكان الجيش المصاحب له متركبًا أساسًا من بني قرّة الذين أمرهم الخليفة بمصاحبته .

«وكان وصوله إلى طرابلس يوم الجمعة لتسعٍ خَلَوْنَ من ربيع الأوّل (392 ـ/ 24 جانفي 1000م)[99] ... فاختلفت عليه أمور العسكر مع سوء عقله وضعف تدبيره . ووصل إلى فلفلٍ فاستخفّ به واحتقره .

---

95) **البيان** ، 251/1 .

96) **البيان** ، 252/1 .

97) **العبر** ، 17/6 و 41/7 ؛ **البيان** ، 256/1 ؛ **الكامل** ، 65/9 – 74 .

98) **الكامل** ، 64/9 – 65 : لقد وجّه الخليفة يحيى بن علي استجابة لطلب أهل طرابلس . وهذا تأويل غير صحيح للأحداث إذ أنّ جعفر بن حبيب قد رحل عن طرابلس التي استولى عليها فلفل بن سعيد ، وقد أهمل ابن الأثير هذه الوقائع . أمّا ابن خلدون فقد أكّد (العبر ، 17/6) أنّ يحيى بن علي قد أُرسِل لنجدة فلفل ضدّ الصنهاجيّين . ويحيى هذا هو أخو جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي عامل المسيلة . وكان قد صاحبه إلى الأندلس . ولم يتحوّل إلى مصر إلاّ بعد قتل جعفر (372 هـ/ 982 – 983م) .

99) **البيان** ، نظريًّا يوم الاثنين.

«ووصل يحيى بن علي ومعه فلفل بن سعيد وفتوح بن علي إلى مدينة قابس، فحصروا عطيّة بن جعفر[100]. وخرج في تلك الأيّام إلى قابس عشرون رجلاً من الناشبة[101]، فعُرِفَ بهم فلفل، فبعث في طلبهم، فلما أُتِي بهم، ضرب أعناقهم. وكان وصولهم إليها يوم الاثنين لأربع عشرة خلون من شعبان من هذه السنة (18 جوان 1003م)[102]، ثم انصرفوا راجعين إلى طرابلس. ولما رأى يحيى بن علي اختلال الحال عليه، ولم يجد ما يعطي لرجاله، عاد ببقيّتهم إلى مصر، بعدما أخذ فلفل وأصحابه ما أحبّوه من خيولهم بين شراء وغصب. فلمّا وصل إلى صاحب مصر الحاكم بأمر الله أراد الإيقاع به، وبعد ذلك عفا عنه وقبل عذره»[103]. كما عفا في أوّل الأمر عن بني قرّة المسؤولين إلى حدّ ما عن فشل يحيى بن علي، ثم أمر بقتلهم في الاسكندرية. في حين أصبح فلفل بن سعيد صاحب الأمر والنهي في طرابلس.

«وفي سنة 396هـ (8 أكتوبر 1005 – 26 سبتمبر 1006م) ثار ببرقة الوليد بن هشام وادّعى أنّه من بني أميّة من وَلَد المغيرة [بن عبد الرحمان النّاصر][104]. وكان ظهوره في العام الفارط، وكان معلّمًا ببرقة، فرأى في أهل برقة فرصة، فانتسب لهم وعرّفهم أنّ عنده روايات وعلمًا، وأنّه هو الذي يملك مصر ويقتل الجبابرة، وأعانه قوم من لواتة وزناتة، فنصبوه إمامًا واجتمعوا عليه. ثم أقبل البربر من كلّ ناحية إليه، فزحف إلى برقة وحاصرها حتى فتحها وذلك في رجب من العام الفارط (أفريل – ماي 1005م). ثم قوي أمره في هذه السنة، فأخرج الحاكم إليه جيشًا فكان بينهم قتال شديد إلى أن هُزِم عسكر مصر وقُتِل قائده»[105].

ويبدو أنّ الكاتب الأندلسي المقري[106] هو الوحيد الذي أشار إلى أنّ الوليد بن هشام

---

100) وهو شخص غير معروف ولعلّه ابن القائد جعفر بن حبيب.

101) [الناشبة : رُمَاة السهام].

102) **البيان**، نظريًّا يوم الجمعة.

103) **البيان**، 256/1.

104) الذي قُتِلَ سنة 366هـ/976م ؛ **البيان**، 278/2 – 279.

105) **البيان**، 257/1.

106) المقري، طبعة القاهرة 1949، 411/3 – 413. وحسب هذا المصدر فإنّ هذا الثائر قد قُتِلَ بالقاهرة في 13 رجب 399هـ / 13 مارس 1009م، أنظر أيضًا : **العبر**، 257/1 – 258. لقد تمّ حصار برقة في رجب 395هـ / أفريل – ماي 1005م، وانتصر المتمرّد على جيش الحاكم سنة 396هـ / 8 أكتوبر 1005 – 26 سبتمبر 1006م وتمّ إعدامه في منتصف شوّال 397هـ / 4 جويلية 1007م. أنظر أيضًا : **الكامل**، 234/7 – 237.

«قد هزم في آن واحد جيش باديس الصنهاجي صاحب إفريقيّة وجيش الحاكم بأمر الله صاحب مصر». وليس من المستبعد أن يكون باديس قد وجّه لمقاتلة المتمرّد فيلقًا من الجيش الصنهاجي، بل من المحتمل أن يكون ذلك الفيلق قد تعاون بصورة تنقص أو تزيد مع الجيش الفاطمي.

وسنرى فيما بعد أنّ شخصًا آخر يبدو أنّه ابن الوليد بن هشام قد حاول سنة 403 هـ / 1012 – 1013م، أن يقوم مرّة أخرى – ولكن في إفريقيّة – بنفس المغامرة التي قام بها والده، إلاّ أنّ النجاح لم يكن حليفه هذه المرّة أيضًا.

وبعد رحيل يحيى بن علي بن حمدون، يبدو أنّ فلفل بن سعيد قد تعرّض لبعض الهجومات التي وجّهها ضدّه ابن زيري صاحب إفريقيّة، ولكنّنا نجهل تفاصيلها.

«وفي سنة 399 هـ (سبتمبر 1008م) هرب أبناء محمّد بن أبي العرب، (ومن بينهم أبو القاسم والي إفريقيّة)، من المنصوريّة يريدون فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي بطرابلس. فأرسل نصير الدولة إلى صاحب قابس يأمره أن يقطع بهم. فلحق بهم المذكور وأخذ منهم عليًّا ويوسف، فقطع رؤوسهما ووجّه بها إلى المنصورية منسلَخ المحرّم (30 محرم 399 هـ / 14 أكتوبر 1008م). ووصل أبو القاسم بعد ذلك [إلى باديس] فعفا عنه»[107].

وبعدما فقد فلفل بن سعيد كلّ أمل في وصول أيّ نجدة من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، لم يتردّد في تقديم شواهد الطاعة إلى الخليفة الأمويّ في قرطبة، محمد بن عبد الجبّار، ملتمسًا منه المساعدة رغم بُعْدِ الشقّة.

وبالاعتماد على بني أميّة أعداء الفاطميّين الألدّاء، وعلى أتباعهم وحلفائهم، انتهج فلفل بن سعيد من جديد السياسة الزناتيّة التقليديّة الموالية للأمويّين، التي كان يمثّلها قبله الأمير المغراوي العظيم زيري بن عطيّة. ولكنّ هذه السّياسة التي يرجع عهدها إلى سنة 399 هـ / 1008 – 1009م لم تسفر عن أيّ نتيجة إيجابيّة. ذلك أنّ فلفل بن سعيد «قد توفّي في سنة 400 بطرابلس بعلّة أصابته»[108]، وذلك قبل رجوع سفرائه من قرطبة.

---

(107) البيان، 258/1.

(108) نفس المرجع.

وحسب ابن خلدون (البربر، 263/3) فإنّ محمد المهدي قد حكم أقلّ من عام وذلك في سنة 399 هـ / 1008 – 1009م. بحيث لا بدّ أن تكون وفاة فلفل في سنة 400 هـ بعد غرّة محرم 400 هـ / 25 أوت 1009م وقبل وصول باديس إلى طرابلس يوم 7 شعبان 400 هـ / 26 مارس 1010م.

3) **المرحلة الثالثة**[109] :

«وولّى مكانه أخوه وَرّو بن سعيد وأطاعته زناتة. وفي تلك السنة (400 هـ) رحل أبو مناد نصير الدولة بعساكر عظيمة إلى طرابلس في طلب زناتة، فكان وصوله إلى ظاهر طرابلس يوم الاثنين لسبع خلون من شعبان[110] (26 مارس 1010م)، فتلقّاه أهلها مسرورين داعين مستبشرين وضُرِبت له فساطيط [خيام] الديباج والقباب الجليلة، ونزل. فأخذ الناسَ ريحٌ عظيمٌ خرق جميع المضارب ومزّقها وذهب بها. وجاءت رُسُل ورّو بن سعيد أخي فلفل راغبةً في الأمان والعفو، فعفا عنهم وأشهد بذلك على نفسه»[111].

واستعمل باديس ورّو بن سعيد على نفزاوة والنعيم بن كنّون على قسطيلية، بشرط أن يرحل القائدان وأتباعهما من أعمال طرابلس. ثم أولى على تلك المدينة محمد بن الحسن وعاد إلى المنصوريّة ظافرًا، صحبة النعيم بن كنّون ووفد من الزناتيّين، في حين توجّه ورّو بن سعيد مباشرة إلى نفزاوة.

ومن المحتمل أن يكون باديس قد عهد آنذاك بولاية قابس التي كان يحكمها إلى حدّ ذلك التاريخ بنو عامر، إلى أخيه إبراهيم بن المنصور بن يوسف الذي خلفه فيما بعد منصور بن ماواس[112].

وأغدق باديس النّعم على الزناتيّين الذين صاحبوه إلى المنصوريّة، «وأمر للنعيم بالبنود والطّبول والبَراذين والسروج وصرفه إلى البلاد التي أعطاه، وقاعدتها قسطيلية، فأقام بها مَلِكًا بالطبول والبنود والجيش»[113].

«وفي سنة 401 (15 أوت 1010 – 3 أوت 1011)، كان موت عزم بن زيري بن مناد بالقيروان. وفيها توفّي القائد جعفر بن حبيب»[114].

---

109) **البربر**، 263/3 – 264 ؛ **البيان**، 258/1 – 259 ؛ **الكامل**، 74/9 ؛ **المؤنس**، 79.
110) **البيان**، نظريًّا يوم الأحد.
111) **البيان**، 258/1.
112) **رحلة التجاني**، 96.
113) **البيان**، 259/1.
114) نفس المرجع.

4) المرحلة الرابعة : ثورة يرّو بن سعيد[115] :

وفي نفس السنة خرج ورّو بن سعيد عن طاعة باديس والتجأ إلى جبال نفوسة التي كانت تسكنها قبيلة آية دمّر، وتحالف معها ضدّ ابن زيري. وقد أكّد ابن خلدون أنّ النعيم بن كنّون استولى على نفزاوة وألحقها بأعماله. ويبدو أنّ هذا الإلحاق لم يَدُمْ مدّة طويلة. ذلك أنّ خزرون بن سعيد بن خزرون الزناتي قد تخاصم مع أخيه ورّو «فقصد إلى نصير الدولة سنة 462 (4 أوت 1011 – 22 جويلية 1012) وكان معه نحو سبعين فارسًا من زناتة، فأنزلهم وأحسن إليهم، ثم بعد ذلك بأيّام أعطاه مدينةً [نفزاوة]، فخرج إليها بالبنود والطبول»[116]. كما تحصّل بنو مجليّة، وهم من أتباع خزرون بن سعيد، على ولاية قفصة. وهكذا أصبح الزناتيّون يملكون جميع «مُدُن الماء»[117].

وبعد ذلك بقليل زحف ورّو بجنوده الزناتيّين على طرابلس، فالتقى به عاملها محمد بن الحسن وأجبره على الفرار. وفي سنة 403هـ / 23 جويلية 1012 – 12 جويلية 1013م زحف ورّو على طرابلس من جديد وحاصرها[118]. فأمر باديس كلاًّ من الأمراء الزناتيّين بالجريد، وخزرون بن سعيد، والنّعيم بن كنّون، بالهجوم عليه. والتقى الجمعان في صبرة[119]، الواقعة بين طرابلس وقابس، ولكن عوض أن يتحاربا، تحالفا. ولمّا رأى خزرون انضمام جنوده إلى ورّو عاد على عَقِبَيْه. فأمر باديس خزرون بالقدوم إليه، ظنًّا منه أنه قد تواطأ مع أخيه. فرفض القائد المغراوي الامتثال إلى أمر الأمير، إذ شعر بأنّها مكيدة دُبِّرت ضدّه. ولكن لمّا علم أنّ فتوح بن أحمد قد شرع في الزحف عليه على رأس جيش، رحل عن نفزاوة سنة 404هـ / 13 جويلية 1013 – 1 جويلية 1014م وحثّ بقيّة الزناتيّين ولا سيما النعيم بن كنّون على الإقتداء به ثم التحق بأخيه ورّو بن سعيد.

فقرّر الأخَوَان بعد ما تحالفا من جديد محاصرة طرابلس. ولكنّ ابن خلدون لم يخبرنا هل أنّهما نفّذا مشروعهما أم لا. ومهما يكن من أمر فإنّ الأضرار التي ألحقها الزناتيّون بجنوب إفريقيّة قد أغضبت باديس إلى درجة أنّه أمر بقتل جميع الرّهائن الزناتيّين الذين

(115) البربر، 41/1، 264/3 – 266؛ البيان، 259/1 – 266؛ الكامل، 74/9.
(116) البيان، 259/1.
(117) «مدن الماء»: مركز الزراعات المرويّة.
(118) الكامل.
(119) البكري، 17.

كانوا في قبضته ، فلم يسلم منهم أحدٌ ، حتى مقاتل بن سعيد الزناتي الذي كان قد تخلّى عن أخيه(؟) ورّو بن سعيد واستسلم هو وأبناؤه وعدد كبير من أقاربه ، وقد قُتِلوا عن آخرهم.

وابتداءً من ذلك التاريخ لم يُعِرْ باديس أيّ اهتمام إلى ورّو بن سعيد ، إذ أصبحت كلّ جهوده موجّهة إلى قتال عمّه حمّاد بن بلكّين[120].

«وفي هذه السنة (406) ، مات ورّو بن سعيد في شوّال (3 مارس — 10 أفريل 1016) ، فاختلفت كلمة الزناتيّين ، ومالت فرقة مع خليفة بن ورّو وفرقة مع خزرون ابن عمّه»[121].

وقد ساعد عامل طرابلس محمد بن الحسن في الخفاء على بثّ الشقاق في صفوف الزناتيّين. فهجم خليفة بن ورّو الذي استمال قسمًا كبيرًا من أبناء قبيلته على أنصار خزرون بن سعيد واستولى على قيطون زناتة . ثم استسلم إلى باديس الذي كان يقوم وقتئذ بحصار قلعة بني حمّاد. أمّا خزرون بن سعيد فقد تحوّل إلى مصر وأقام بقصر الخليفة الفاطمي ، حيث قضى أبناه المنتصر وسعيد شبابهما.

ثورة عبد الله بن الوليد بن المغيرة :

لقد روى ابن عذاري[122] أنّ ثائرًا اسمه عبد الله بن الوليد بن المغيرة قد ظهر بإفريقيّة ، ولكنّ المصادر الأخرى لم تُشِر إلى هذه الثورة. ويبدو أنّ الأمر كان يتعلّق بابن أبي ركوة بن المغيرة ، لكنّنا لا نعرف بالضبط المنطقة التي ظهرت فيها هذه الثورة. وكلّ ما نعلم عنها أنّ صاحبها «كان خاملاً مشتغلاً بالتعليم ، ثم دعا إلى نفسه. فأُخِذ وسيق إلى القيروان مع صاحبٍ له ، وحُمِلا على جَمَلَيْن ، وطِيف بهما ، ثم ضُرِبَت أعناقهما ، ورُفِعا فَصُلِبا. ووُجِدَتْ عنده خريطة فيها كتاب بخطّ يده لبعض أشياخ القبائل يقول فيها : «من عبد الله أبي محمّد النّاصر لدين الله أمير المؤمنين ، إلى فلان». ثم يذكر له أنّ تمام أمره وظهوره يكون بكتامة ، ويأمره أن يتلقّاه في أوّل صفر من سنة 404 (12 أوت 1013) فإنها آخر صنهاجة ، وبها تنقطع دولتهم»[123].

---

120) حسب ابن خلدون ، البربر ، 265/3.

121) البيان ، 266/1.

122) نفس المرجع ، 260/1.

123) نفس المرجع.

حمّاد وباديس – وصف حمّاد بن بلكّين[124] :

منذ سنة 395 هـ / 18 أكتوبر 1004 – 7 أكتوبر 1005م ، كان حمّاد بن بلكّين الذي ترك له ابن أخيه باديس حريّة التصرّف ، يبذل قصارى جهده بلا انقطاع لإجلاء الزناتيّين من المغرب الأوسط وتركيز أسس دولة بني حمّاد التي ستقوم في المستقبل.

ولقد أثبتت تصرّفات حمّاد الذي كان رجلاً قويّ النّفوذ وصعب المراس ، صحّة ما وصفته به المصادر ، بالاعتماد على بعض النوادر الطريفة أحيانًا . فقد كان مقدامًا ، ولكنّه ماهر ، ذو رأي ثاقب . وكان في آن واحد حليمًا وقاسيًا . إذ كان يصدر أحكامه ببساطة أبويّة ويقتل أعداءه بعدما يعذّبهم أشدّ العذاب . وكان في شبابه قد درس الفقه بالقيروان وقرأ كُتُبَ الجدل . وقد كان هذا الطاغية المستبدّ الذي لم يتردّد في إلقاء عمّه ماكسن حيًّا إلى الكلاب ، يتظاهر بالورع الذي لا يحقّ لنا أن نصفه بالنفاق ، دون تثبّت . فقد روى ابن حزم أنّه كان يصوم رجب وشعبان ويمتنع عن شرب الخمر. كما روى لنا عالم الجغرافيا البكري[125] القصّة التالية التي تنمّ عن نفسيّة الرجل وعن الجوّ الذي ساد كفاحه ضدّ الزناتيّين. فقد حكى حمّاد عن نفسه أنّه لم ينخدع في حياته سوى مرّة واحدة بفتاة بربريّة . ذلك أنّه قد ارتبط في أيّام صباه بالقيروان بصداقة حميمة مع أحد أقرانه ، وللأسف الشديد لم يعثر له على أثر منذ عهد بعيد. وذات يوم فرح بلقاء صديقه أثناء إحدى الحملات العسكريّة التي قام بها ضدّ باغاية. وقد قال عن ذلك الصديق ما يلي : «لو طلب إليّ العفو عن كافّة أهل باغاية لعفوت عنهم». وقد أخبر ذلك المسكين الأمير بكلّ تأثّر أنّه فقد ابنته . فقال له حمّاد : «لو جئتني أمس لكنت منعت هدر دماء بني قومك أخذًا بخاطرك». ثم أمر قوّاده بأن يقدّموا إليه جميع السبايا ، فتعرّف الأب من بينهنّ على ابنته . وأسدل عليها حمّاد حجابًا ثم همّ بتسليمها إلى أبيها . فأخبرته الفتاة أنّها قادرة على منع السيف من القطع إذا قرأت عليه بعض الأدعية ، واقترحت عليه أن يجري عليها اختبارًا للتثبّت من صحّة قولها . فوافق حمّاد على ذلك ولكنّه سرعان ما أدرك أنّ الفتاة قد خدعته عندما قطع السيف رقبتها . ذلك أنّها أبت أن تعيش بعدما وقع المسّ بشرفها.

---

124) **أعمال**، 454–460؛ ابن حزم، **نقط**، 175، 238 (الطبعة الثانية)؛ البكري، 184، 186، 188؛ **الاستبصار**، (الترجمة)، 100–104.

125) البكري، 187–188.

وأشار الكاتب الأباضي الشماخي[126] إلى الحملة التي قام بها «عدوّ الله حمّاد بن بلكّين» ضدّ كدية مغراوة(؟)[127].

ولا ندري أيّ شيء عن المسمّى عبّاد بن الصادق سوى أنّه كان أحد قوّاد حمّاد بن بلكّين، حسب ابن خلدون. كما أشار نفس المؤرّخ إلى واحد من بني حمدون، وهو المدعوّ حمدون بن علي بن عليم (أو علم) الذي يبدو أنّه كان أوّل من دخل في خدمة حمّاد، من بين سلالة بعض وزراء دولة بني حمّاد[128].

تأسيس قلعة بني حمّاد (398 هـ/ 1007 – 1008م)[129]:

كان من واجب حمّاد صاحب الزاب والمغرب الأوسط أن يسعى إلى تأسيس عاصمة لمملكته حتى يتسنّى له أن يتبوّأ مكانة الملوك. وقد أقام تلك العاصمة في موقع منيع شمال شرقي ميلة في خاصرة[130] جبل المعاديد في مكان يقال له أبو طويل بالقرب من جبل كيّانة المسمّى أيضًا بجبل عجيسة، وهو اسم قبيلة من أصل برانسي استوطنت ذلك المكان. وهذه العاصمة هي قلعة أبي طويل أو قلعة بني حمّاد أو القلعة، وقد تأسّست سنة 398 هـ ونقل إليها حمّاد سكّان المدينتين اللّتين كان قد خرّبهما، وهما المسيلة وحمزة، كما جلب إليها الجراوة، ويبدو أنّ تلك المدينة قد شهدت تطوّرًا كبيرًا في وقت قصير. وحرصًا على مراقبة تحرّكات الزناتيّين، كان حمّاد يقيم تارة في القلعة وطورًا في أشير.

ومن الطبيعي أن يستاء باديس من تعاظم قوّة عمّه، وحسب ابن خلدون، لم يتأخّر أعمامه وأقاربه الآخرون تحت تأثير الغيرة عن الوشاية بصاحب القلعة.

---

126) الشماخي، 403، 475 – 476.

127) نفس المرجع.

128) العبر، 153/6: «عَلَم»؛ البربر، 4/2: «عليم».

129) أعمال، 434، 460؛ الاستبصار، 101؛ الكامل، 53/9؛ العبر، 145/6 – 158؛ مفاخر، 36؛ ابن حمّاد، 32.

130) [خاصرة: ملتقى قمة متوسطة الارتفاع بقمة مرتفعة].

الحرب بين باديس وحمّاد ووفاة باديس[131] :

يبدو أنّ المنصور بن باديس الذي لقّبه الحاكم بأمر الله بعزيز الدولة لم يُعيَّن وليًّا للعهد ، لصغر سنّه . «فأراد نصير الدّولة أن يرشّحه ويضيف إليه أعمالاً يستخدم فيها أتباعَه وصنائعَه . ولكن باديس قد اتّصل به عن حمّاد بن سيف العزيز بالله[132] هَنَاتٌ أنكرها عليه ، فأراد اختبارها . فكتب كتابًا إلى حمّاد يأمره فيه بتسليم عمل أبي زعبل [تيجس] وقصر الإفريقي وقسنطينة إلى مستخلف عزيز الدولة . وكان قد خلع على هاشم[133] بن جعفر وأعطاه الطبول والبنود وأمره بالخروج إلى هذا العمل ، فخرج بخزائن وعُدَدٍ جليلة .

«وبعث نصير الدولة إلى إبراهيم بن سيف العزيز بالله (بلكّين) يشاوره على من يمضي بكتابه إلى حمّاد ، فتسرّع إبراهيم إلى المسير بالكتاب بنفسه وقال : «لا يجد مولانا عبدًا من عبيده أنْهَضَ بخدمته منّي» . وتضمّن ذلك وأخذ على نفسه المواثيق أنّه لا يقيم في مُضِيِّه وعَوْدِه إلاّ أقلّ من عشرين يومًا . فأشار على نصير الدولة مَنْ يقرب منه بأن يعتقل إبراهيم ، ولا يَدَعَه لما يريد من السفر ، حتى يرى ما يكون من طاعة أخيه حمّاد ومسارعته إلى ما يأمره به نصير الدولة من ذلك . وقال لإبراهيم : «أمْضِ إلى أخيك حمّاد ، فإن صدقتَ فيما قلتَ وَوَفَّيْتَ بما وعدتَ ، وإلاّ فافعلا ما أردتما»[134] .

وخرج إبراهيم صحبة هاشم بن جعفر يوم 18 شوّال 405 هـ / 11 أفريل 1015 م[135] ، ومعه 400 000 دينار ذهبًا وجميع ذخائره ورجاله وعبيده . «ولم يَعُقْهُ في ذلك عائق من نصير الدولة ، وإلاّ فقد كان خروجه بأثقاله وجملة رجاله دليلاً على خلاف ما أظهر .

ثم أحسّ هاشم بن جعفر أنّه سيغدره إذا قرب من أخيه ، فاعتذر له أنّ حاجةً بقيت له بباجة وعدل إلى طريقها ، ووعده أن يلحقه سريعًا»[136] .

---

131) النويري ، 127/2 – 131 . (وهو أهمّ مصدر) ؛ **البيان** ، 261/1 ؛ **الكامل** ، 104/9 – 105 ؛ **العبر** ، 158/6 ، 171 – 172 ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 132/2 (أشار إلى **الجمع والبيان** لابن شدّاد) ؛ **أعمال** ، 461 ؛ ابن خلّكان ، 87/1 ؛ **بلدان** ، 303/1 ؛ **منتخب** ، 63 .

132) ذكر ابن عذاري (**البيان** ، 261/1) غلطًا حمّاد بن سيف الدولة العزيز بالله (بلكّين) ، عوضًا عن إبراهيم بن سيف الدولة العزيز بالله .

133) جاء في **البيان** : «هشام بن جعفر» عوض «هاشم» وقد استدرك المؤلّف فيما بعد وذكر مرتين متتاليتين «هاشم» .

134) **البيان** ، 261/1 .

135) النويري .

136) **البيان** ، 262/1 .

فوصل إبراهيم إلى تامْديت التي تبعد عن الأربس مسيرة يومين، وكتب إلى حمّاد ليحيطه علمًا بمشاريعه. فقدم إليه حمّاد محفوفًا بثلاثين ألف فارس[137]، واجتمعت كلمتهما وخلعا أيديهما من الطاعة».

وبايع حمّاد العبّاسيّين واضطهد الشيعة[138]. ومن سوء الحظّ فانّنا نجهل ظروف هذه العمليّة السياسيّة الدينيّة وأبعادها.

«ووصل باديس في الخامس[139] من ذي الحجّة 405هـ (27 ماي 1015م) ووضع العطاء لعساكره، وأخرج عياله وأثقاله وأخته السيّدة أمّ ملال وأولاده وعبيده إلى المهديّة». ثم رجع إلى المنصوريّة، حسب الاحتمال، في السابع من نفس الشهر.

«وأمر بالقبض على يوسف بن أبي حبوس واخوته[140]. وكان نصير الدولة لم يمض له يوم من الأيّام إلاّ جدّد عليه كرامةً وإحسانًا. ولا كان يُهْدَى إليه فرس أو ثوب من ثياب الخلافة إلاّ آثره بذلك على نفسه، مع ما حمل له من الضياع والرباع بكلّ كورة [إقليم] من كوَر إفريقيّة. وما زال يرفع من قدره ويزيد في التنويه بذكره حتى نال من أعلى المراتب ما لم يَنَلْه بعيدٌ ولا قريب، وسَمَا من رفيع الدرجات ما لم يَسْمُ له حميم ولا نسيب، وكان – والله أعلم – تسوّل له نفسه الفتكَ بالأمير نصير الدولة. فتقرّر ذلك عند نصير الدولة، فقبض عليه. وكان في قَبْضِهِ عليه ما أَوْهَنَ به كَيْدَ الأعداء»[141].

وقبل ذلك بسنتَيْن، أي في سنة 403هـ / 23 جويلية 1012 – 12 جويلية 1013م «عزل نصير الدولة يوسف بن أبي حبوس الصنهاجي عن أمر الجيش وغيره»[142].

ويبدو أنّ الشخص المذكور هو أحد أعمام والد باديس وشقيق حمّاد. وهذا ما يفسّر ما حظي به من اعتبار في أوّل الأمر ثم اعتقاله هو وإخوانه فيما بعد، وما سلّط عليه باديس من عقوبة قاسية إثر انهزام حمّاد.

ورحل باديس ثاني عيد الأضحى (11 ذو الحجة 405هـ / 2 جوان 1015م) للقيام بحملة عسكريّة في المغرب الأوسط. وكان قد كتب إلى هاشم بن جعفر يأمره بالتحصّن في

137) لا شكّ أنّ هذا الرقم مبالغ فيه.

138) العبر، 171/6.

139) في البيان، 262/1 : «السابع من ذي الحجّة».

140) البيان هو المصدر الوحيد الذي أشار إلى هذه القضيّة.

141) البيان، 262/1.

142) نفس المرجع، 260/1.

قلعة شقنبارية (الكاف) فامتثل هاشم لهذا الأمر.

«ورحل حمّاد وأخوه إبراهيم إلى هاشم بن جعفر والعسكر الذين معه. فكان بينهم حرب انهزم ابن جعفر ولجأ إلى باجة وغنم حمّاد مالَه وعُدَدَه»(143).

فرحل باديس إلى مكان يقال له قبر الشهيد حيث استقبل في صدر المحرّم سنة 406 هـ/ أواخر جوان 1015م جمعًا كبيرًا من جنود عمّه حمّاد، أتوه لتقديم شواهد الطاعة. كما جاءه لنفس الغرض عزم وفلفل ابنا حسّون بن سنون وماكسن بن بلكّين(144) وعدنان بن مُعْصَم، فخلع عليهم وأَحْسَنَ إليهم. ثم تسلّم من يدَيْ مغنين الوتلكاتي(145) رسالة من حمّاد يؤكّد فيها: «أنّه ما فارق الجماعة ولا خرج عن الطاعة»، ويعلمه بأنّه أعدّ هدية إلى المنصور بن باديس تشتمل بالخصوص على ألفَيْ فرس. كما وجّه إليه إبراهيم رسالة في نفس المعنى. ولكن بالرغم من هذه الكلمات المعسولة، تمادى المتمرّدان في «سفك الدماء وقتل الأطفال وإحراق الزروع والمساكن وسبي النساء».

ووصل حمّاد إلى باجة فطلب أهلها منه الأمان، فأمّنهم واطمأنّوا إلى عهده، فدخلها يقتل وينهب ويحرق ويأخذ الأموال»(146). ويبدو أنّ هذه التصرّفات قد تسبّبت في انضمام عدد كبير من أنصار حمّاد إلى باديس.

وفي أوائل صفر 406 هـ/ أواخر جويلية 1015م وصل باديس إلى تامديت. كما قدم إليها حمّاد على رأس ثلاثين ألف فارس(147)، بقطع النظر عن المشاة والجنود الذين انضمّوا إلى باديس، ولم تعد تفصله عن المدينة سوى مرحلة واحدة.

«وفي تامديت وردت على باديس الأخبار بوفاة ولده المنصور عزيز الدولة. وذلك أنّه كان في حين حركته إلى المهديّة عرضت له حمّى وظهر به جدري، فأقام سبعة عشر يومًا وتوفّي. فكُتِمَ عن نصير الدولة أمره خَوْفًا أن يبدو منه جزع، يكون فيه وهنًا على الدولة فيما هو بسبيله من مقابلة عدوّه. فبلغ خبره إبراهيمَ وحمّادًا فبعثا إليه وقالا له: «إنّ ولدك الذي طلبتَ له ما طلبت قد توفّي!». فما ضعضعه ذلك ولا أَوْهَنَه. وكتب إلى السيّدة [أمّ ملال] يسألها عن ذلك»(148).

---

(143) الكامل، 104/9.

(144) لعلّه عمّ باديس بن المنصور بن بلكّين.

(145) لعلّه عمّ والد باديس: مغنين بن زيري.

(146) الكامل، لا غير.

(147) رقم مبالغ فيه، حسبما يبدو.

(148) البيان، 263/1.

ويُفْهَم من هذه الرواية بدون أدنى شكّ أنّ باديس قد تلقّى في تامديت الردّ على رسالة كان قد وجّهها قبل ذلك. لأنّه لم يمكث في تلك المدينة الوقت اللاّزم لرحيل رسول من تامديت إلى المهديّة، ذهابًا وإيابًا.

«وقد ورد كتاب السيّدة بوفاته والتعزية عنه، وتَصِف سلامة المعزّ وحسن حاله. فكان صبر نصير الدولة وحسن عزائه ما كُثُرَ التعجّب به. وجلس مجلسًا عامًّا للعزاء (يوم 5 صفر 406 هـ/ 25 جويلية 1015م)، فكان لا يرى من أحد جزعًا وبكاء إلاّ سلاّه وهوّن عليه، فزاد ذلك سرورًا لأوليائه وكمدًا لحَسَدَته وأعدائه»[149].

ومن الغد، 6 صفر/26 جويلية رحل باديس من تامديت متوجّهًا إلى دكمة[150]. وهناك التحق به جمع من أنصار حمّاد يضمّ عددًا من الأقارب ورجال الحاشية وكبار رجال الدولة. كما تلقّى خطابًا من عامل أشير خلف الحِمْيَري، الذي كان أشدّ أنصار حمّاد تحمّسًا وكان يحبّه أكثر من ابنه، يخبر فيه باديس بأنّه صار في طاعته، وأنه قد منع حمّاد من دخول مدينة أشير للتحصّن فيها. فوهنت عزيمة حمّاد الذي كان يعلّق آمالاً عريضة على مناعة ذلك الحصن الحصين، وتحوّل إلى تاهرت.

وحسب ابن خلدون[151]، انفصل عن حمّاد بنو أبي واليل الزناتيّون، أصحاب مدينة مقرة التي تقع على بعد 40 كيلومترًا شرقي المسيلة، وبنو حسن الصنهاجيّون، وبنو يطّوفت وبنو غمرت الزناتيّون، وكلّ أنصاره تقريبًا. كما تسلّم رئيس قبيلة بني غمرت الذي انضمّ إلى باديس هدايا ثمينة وعددًا من الدوابّ لتوزيعها على الرجال الذين التحقوا به، وتحصّل على ولاية طبنة وأعمالها. واضطرّ حمّاد إلى الفرار إلى أن وصل إلى شلف بني واطيل.

ووصل باديس إلى المحمّدية (المسيلة) يوم الجمعة 2 ربيع الأوّل 406هـ/ 20 أوت 1015م[152]، «فتلقّاه أهلها داعين شاكرين على ما منحهم من العدل والأمان وكشف عنهم الجور والعدوان. فأقام بها ستة أيّام»[153]. ثم اتجه إلى القلعة ولكنه قفل راجعًا إلى المسيلة، حسب الاحتمال، بدون قتال. وسيّر إلى «المدينة التي أحدثها حمّاد» (أي القلعة) جيشًا عتيدًا بقيادة أخيه كرامة الذي خرّب قصورها ودُوَرها، جزاء ما اقترفه حمّاد وأخوه إبراهيم من

(149) نفس المرجع.
(150) البكري، 54 والإدريسي، 120.
(151) **العبر**، 6/171–172.
(152) النويري، 2/129، نظريًا يوم السبت.
(153) **البيان**، 1/263.

أعمال ، وذلك دون نهبٍ أو سفكٍ للدّماء. فقام إبراهيم الذي تحصّن لا محالة في قسم من القلعة ، بهدم القصور الموجودة خارج المدينة ، خوفاً من أن تسقط بين يدي كرامة. «وهرب إلى باديس جماعة كثيرة من جند القلعة ، فأخذ إبراهيم أبناءهم وذبحهم على صدور أمّهاتهم ، ولمّا فرغ من الأطفال قتل الأمّهات»[154].

وحسب ابن خلدون[155] ، استولى باديس على أشير ، وقد فرّ منها إبراهيم ، ثم أخذ في مطاردة حمّاد. وأثناء توقّفه في وادي الطين ، استسلمت إليه قبيلة زناتية كبيرة ، هي قبيلة بني توجين. ذلك أنّ أميرها عطية دافلتن قد حرص على أخذ ثأر والده الذي قتله حمّاد ، واقتفى أثره ابن عمّه يدّار بن لقمان بن المعتزّ. فكافأ باديس هذين القائدين أحسن مكافأة وقَبِل المساعدة التي اقترحا تقديمها إليه. وقد أمدّنا المؤرّخ الرقيق[156] بمعلومات مفيدة حول انضمام بني توجين إلى باديس. فأخبرنا أنّ باديس ، لمّا وصل إلى ضفاف وادي شَلَف استدرج بني توجين الذين كانوا قد ساندوا حمّاد بشجاعة نادرة وجنّدوا 3000 رجل بقيادة عطيّة بن دافلتن وابن عمّه لقمان بن المعتزّ الذي كان يتمتّع بأكبر نفوذ. وقبل اندلاع المعركة وجّه ابنه يدّار إلى باديس لإعلامه بانضمام بني توجين إلى صفّه. ويمكن أن نستخلص من ذلك أنّ بني توجين وعلى رأسهم قائدهم لقمان بن المعتزّ لم يتخلّوا عن حمّاد إلاّ أثناء المعركة ، حسب مخطّط مدبّر من قبل ، بالاتّفاق بين باديس وقائِدَيْهما.

ولقد عبر باديس وادي شَلَف ومرّ بدون شكّ أمام سفح جبل الونشريس وسرسو ، دون أن يجتاز وادي واصل ، حسبما يبدو ، وأقام معسكره على ضفاف ذلك النهر في مستوى أدنى مرتفعات جبل غزول. وفي العدوة الأخرى من النهر العميق والممتلئ ، وقف حمّاد مستنداً إلى جبل بني واطيل[157] الوَعْر ، وأخذ الخصمان يستعدّان للقتال.

«فبات باديس على تحفّظ واحتراس ، ولمّا كان في غَدِ نزوله (صبيحة يوم الأحد غرّة جمادى الأولى 406 هـ / 17 أكتوبر 1015م)[158] ، برز في عساكره ومشى عليها ورتّبها وأقام كلّ قائد من قوّاده في مركزه».

---

154) الكامل.

155) العبر ، 172/6.

156) استشهد به ابن خلدون.

157) النويري : «وطين».

158) نفس المرجع ، 130/2 ، نظريًّا يوم الاثنين.

ويبدو أنّ حمّادًا لم يكن ينتظر إقدام العدوّ على مواجهة تيّار النهر في ذلك اليوم. فهل سهر كما ينبغي على حراسة جميع المجازات الممكن سلوكها؟ أم أنّه أهمل بعض تلك المجازات؟ ومهما يكن من أمر فقد تقدّم باديس على صهوة جواده وعبر النهر متبوعًا بفرسانه، في حين اجتاز المشاة ذلك النهر بواسطة السباحة، وقد تمّ ذلك في لمح البصر بدون أيّ اعتراض من طرف العدوّ. «ولمّا تقابل الفريقان وتراءى الجمعان اندلعت المعركة. ووطّن أصحاب باديس أنفسهم على الصبر أو الموت لِمَا كان حمّاد يفعله لمن يظفر به، واختلط الناس بعضهم ببعض وكثر القتل». فانفصل عن حمّاد أغلب أنصاره ولا سيما بنو توجين، وانضمّوا إلى باديس. وانهزم حمّاد بعدما تخلّى عنه جميع رجاله، ولاذ بالفرار متّجهًا إلى قلعة مغيلة[159]، بعدما قتل نساءه بيديْه.

«وغنم عسكر باديس أثقاله وأمواله، وفي جملة ما غنم منه عشرة آلاف درقة مختارة لَمَط[160]. ولولا اشتغال العسكر بالنهب لأُخِذَ حمّاد أسيرًا».

وكافأ باديس بني توجين الذين ساهموا مساهمة فعّالة في إحراز ذلك النصر. فسمح لهم بامتلاك جميع غنائم ذلك اليوم المشهود. وأقرّ لقمان بن المعتزّ في قيادة قبيلته وكلّ المناطق التابعة لها. كما رخّص له في الاحتفاظ بجميع الأراضي التي يتمكّن من الاستيلاء عليها أثناء المعارك التي سيخوضها لحساب ابن زيري. وستنتقل فيما بعد رئاسة قبيلة بني توجين بتمامها وكمالها إلى ذرّيّة دافلتن. ولعلّ ابن خلدون قد بالغ في تقدير الغنائم التي منحها الأمير لبني توجين. ولكنه أثبت الدور الذي قام به أولئك الجنود المساعدون لتمكين باديس من الانتصار[161].

وقد جاء في **البيان المغرب** حول أهمّيّة تلك الغنائم ما يلي: «ووُجِدَ رقعتان فيهما: «إنّ الذي عند القائد فلان صندوق فيه خمسون ألف دينار وسبعمائة، ومن الورق ألف ألف وخمسمائة ألف درهم، ومن الأمتعة خمسون صندوقًا، غير ما كان في بيت حمّاد وخزائنه»[162].

ثم أضاف صاحب **البيان** هذا التوضيح المنقول عن أبي اسحاق الرقيق، والذي يدلّ على أنّ مؤرّخ باديس كان حاضرًا في تلك المعركة، ممّا يفسّر التفاصيل الواردة في شأنها في مصادرنا:

---

159) ربّما هي قلعة مغيلة دلول شمال تاهرت، البكري، 69.

160) [لَمَط: جلد الظبي].

161) البربر، 5/4.

162) البيان، 1/263 – 264.

«قال أبو إسحاق : وُجِد رجلٌ بين يديه بغل يسوقه ، ففتّشه بعض الوصفان بين أيدينا ، فوجد في حشو برذعته وصوفها ثمانية آلاف دينار ومثل هذا ما لا يحصى كثرة. وعرضت لي أبياتٌ بعد أن صعدنا من الوادي ، وقد لقينا به مشقّة شديدة ، غير أنّ حلاوة الظفر والفوز بالسّلامة أنسى ذلك وهي :

[بسيط]

لم أَنْسَ يومًا بشَلَفٍ رَاعَ منظرُه ... وقد تضايق ملتقى الحَدَقِ
والخيل تعبر بالهامات خائضة ... من سافح الدم مجرى قانئ الفَلَقِ
والبيضُ في ظُلُمات النَّقْع بارقةٌ ... مِثْلَ النجوم تَهَاوَتْ في دُجَى الغَسَقِ
وقد بدا مُعلما باديسُ مُشْتَهِرًا ... كالشمس في الجوّ لا يخفى عن الحَدَقِ
وإنّ راحتَه لو فاض نائلُها ... وبَأْسُهَا في الورى أشفوا على الغَرَقِ
تَجْلُو عِمامَتُه الحمراء غُرَّتَه ... كأنّه قَمَرٌ في حُمْرَة الشّفَقِ
لو صُوِّرَ الموتُ شخصًا ثم قيل له ... «أبو مَنَادٍ تَبَدَّى ، ماتَ من فَرَقِ»(163)

«وأمّا نصير الدولة ، فيوم هزيمة حمّاد ، أخرج بكّار بن جلالة الوتلكاتي وكان قد أُخِذَ أسيرًا ، وكان بكّار كثيرًا ما ينطلق به لسانُه. وكان يوسف بن أبي حبوس معتقلاً أيضًا عند نصير الدولة ، فأُخرج بكّار بمحضر يوسف ، وحُلِقَت لحيته ، ويوسف ينظر إليه. ثم أمر : فحُلِقَت لحية يوسف ، فصارا مُثْلةً في العالم.

قال الرقيق : لمّا عاينّا يوسف ، وقد حلقت لحيته ، تحدّثنا سرًّا بيننا وقلنا : «قد كنّا نرجو ليوسف الحياة ، لأنّ الملوك تعفو بعد العقوبة ! وأما المثلة فما نرى أنّ بعدها إبقاء ! » فلمحنا نصير الدولة وقال : «ما خضتما فيه؟» ، فصدقناه سرًّا ، فقال : «ما أبعدتُما ! » وبعد ثلاث أمر بإحضاره ، فعدّد عليه مساوئ أفعاله وقبائح أعماله ، ثم أمر به ، فجُدِع أنفه وقُطِعَت أذنه ، ورُفِع من بين يديه. ثم أعيد إليه ، فقُطِعت يداه جميعًا. ثم أمر به إلى موضع اعتقاله ، فبات مُشحّطًا في دمائه. فحكى بعض الحرس أنّه سمعه يرغب أخاه أن يذبحه ويريحه خيفَةَ أن يُخرَج من الغد ويُزاد في عذابه أمام أعدائه. فقال له أخوه : «أصبر على قضاء الله وقدره ! » فقال لبعض الحرس : «خُذ بيدي أخرج لقضاء الحاجة» ، فأخذ بيده ووقف ، فضرب ضربة عظيمة بجبهته في عمود ، فنَدَرَت منها عيناه ، وجرى دماغه وخرّ إلى الأرض ميّتًا.

(163) نفس المرجع ، 264/1.

ورحل نصير الدولة من وادي شَلَف. قال الرقيق : ومن عجيب ما سمعناه عن مناخ وادي شَلَف أنّ شيخًا كبيرًا من البربر حدّثنا أنه يُعْرَف بوادي المِحَن ، وأخذ يذكر لنا مَن هُزِم فيه ومَن قُتِلَ فيه من ملوك زناتة. وكنّا على ظهر الطريق ، فلم نكتب ذلك ، إلى أن قال : آخر من مات فيه زيري بن عطيّة ، وآخر من هُزِم فيه حمّاد ، وبه قتل يوسف بن أبي حبوس ، وحُمِل منه مُعَادِلاً لأخيه ورجلاه باديتان ، ثم أمر به فدُفِنَ هناك»[164].

وحسب ابن خلدون[165] فإنّ المكناسيّين الذين كانوا قد تحالفوا مع بلكّين بعد انتصاره على بني خزر المغراويّين ، قد ظلّوا أوفياء لبني زيري. وقد توفّي أحد أمرائهم ، وهو إسماعيل بن البوني ، أثناء معركة وادي شَلَف.

«وأصبح نصير الدولة يوم الاثنين لِلَيْلَتَيْن خلتا من جمادى الأولى[166] (18 أكتوبر 1015) ، فبعث في طلب حمّاد بن باديس بن سيف العزيز بالله ، وقد تحصّن في القلعة [قلعة مغيلة] مع أخيه ، فأقاما بها ثلاثة أيّام حتى استراحا وأراحا دوابّهما ومن كان معهما. فعرّفه إبراهيم بحاجته إلى الازدياد من الطعام والملح ، فخرج حمّاد في جميع من كان معه ومع أخيه ، فسار بهم حتى دخل مدينة دكْمَة ، وقد كان نقم على أهلها ، وكان نصير الدولة في أثره ، فتصابَحَ أهلُ الموضع بساقته ، فاعترضهم بالسيف وقتل منهم ثلاثمائة رجل. فخرج إليهم أحمد بن أبي تَوْبة فقيه هذه المدينة وصالحها ، فخوّفه بالله ووعظه وقال له : «يا حمّاد ! إذا لاقيتَ الجموع هربت منها ، وإن قاومتكَ الجيوش فَرَرْتَ عنها ! وإنّما قدرتك وسلطانك على أسير يكون في يَدَيْك ، لا نَاصِرَ عليك ! » فلمّا سمع كلامه أمر بضرب عنقه. ووقف إليه شيخ صالح منها ، فقال له : «يا حمّاد ! اتّق الله ! فاني حججت حجّتَيْن ! » فقال له : «أنا أزيدك عليهما الشهادة» ، وأمر به فضُرِبت عنقه. ووقف إليه جماعة من التجّار المسافرين ، فقالوا له : «نحن قوم غرباء ، ولا ندري ما جنى أهل هذه المدينة عليك». فقال لهم : «اجتَمِعوا وأنا أعرّفكم». ودخل معهم غيرهم ممّن طمع في الخلاص معهم. فلمّا وصلوا إليه ، أمر بهم ، فضُرِبت رقابهم أجمعين. وأخذ جميع ما كان بتلك المدينة من طعام وملح ، وعاد به إلى قلعته»[167].

---

164) نفس المرجع ، 265/1 – 266.
165) **البربر** ، 271/1.
166) في الكامل ، اليوم التاسع.
167) **البيان** ، 264/1 – 265. أُطلِق على حمّاد غلطًا اسم «حمّاد بن باديس بن سيف العزيز بالله !.

وفي الأثناء واصل باديس طريقه نحو الشرق. فوصل إلى المحمّدية (المسيلة) يوم 28 جمادى الأولى 406 هـ / 13 نوفمبر 1015 م[168]. فاستقبل مبعوثًا من قِبَل عمّه إبراهيم مُكَلَّفًا بتقديم اعتذارات المتمرّد الذي اعترف بأنه أخطأ والتذكير بما أدّاه حمّاد من خدمات إلى أسرة بني زيري. ألم يسهر على الدفاع عن الحدود الغربيّة والذّود عن الدولة، تمامًا كما ساند القائد الذائع الصّيت الحجّاج بن يوسف بني أميّة؟ كمّا تلقّى باديس رسائل أخرى تتضمّن اعتذارات إبراهيم وحمّاد. ومن المحتمل أن يكون باديس قد تهرّب من الجواب واشترط شروطًا اعتبرها خصمه مجحفة، كالاستسلام بدون قيد ولا شرط.

ومهما يكن من أمر فإنّه قد ترك جيشه في القلعة التي أحاط بها من كلّ جانب ووزّع المال على الجنود، فأعطى لكلّ واحد 500 أو 1000 أو 2000 دينار. والغالب على الظنّ أنّ تلك العطايا كانت ترمي إلى تحريض جنود العدوّ على التخلّي عنه. وقد قيل لنا إنّ تلك الخطّة قد أحرجت حمّادًا الذي انفصل عنه قسم من جيشه. وقد تسبّل حصار القلعة في نقص موادّ التموين وارتفاع الأسعار.

وأخيرًا فإنّ موت ورّو بن سعيد والخلاف الذي ترتّب عليه بين أنصار خليفة بن ورّو وأنصار خزرون بن سعيد، قد بدّدا الآمال التي علّقها حمّاد على انتصار الزناتيّين في إفريقيّة واضطرار باديس إلى التوجّه إليهم لمحاربتهم. وقد كذب حمّاد على رجاله وحرّر وثائق مزيّفة تزعم أنّ باديس قد قرّر الرجوع إلى إفريقيّة. كما أكّد اتصاله برسائل من الأمير تتضمّن الدعوة إلى الصّلح.

وقد دام حصار القلعة ستة أشهر. وتلقّى باديس إمدادات تتمثّل في أعداد غفيرة من التلكاتيّين والصنهاجيّين وأصبح متيقّنًا من قدرته على الاستيلاء على القلعة واسترجاع المغرب الأوسط بأكمله.

«ولمّا كان يوم الثلاثاء لِلَيلَةٍ بقيت من ذي القعدة (29 ذي القعدة 406 هـ / 9 ماي 1016 م)[169]، أمر بالتمييز[170]. فبرز كلّ قائد في عسكره، وجلس نصير الدولة في القبّة[171] وأمر أيّوب بن يطّوفت بالطّواف على العساكر وحسابها، وانتظره حتى فرغ من حسابها وعدّها. فجاءه فعرّفه بما سرّه وأبهجه وانصرف إلى قصره. ثم ركب عشيّة هذا

168) النويري.

169) البيان، النويري، نظريًا يوم الأربعاء.

170) [التمييز : إحصاء الجنود].

171) ابن خلكان : «قبّة السلام».

اليوم ، وهو قد تناهى إقبالاً واستوى حسنًا وجمالاً ، فلعبوا بين يديه ، فكلّما هزّ رمحًا كسره وأخذ غيره ، ثم عاد إلى قصره أَفْسَحَ ما كان أملاً وأشدّ سرورًا وجذلاً ، فطعم وشرب مع خاصّته وقرابته ، فعاينوا من طربه ما لم يعهدوه منه . فلمّا مضى نحو النصف من ليلة الأربعاء انقضاء ذي القعدة[172] ، (30 ذو القعدة 406 هـ / 10 ماي 1016 م) ، قضى نحبه»[173] .

وكانت وفاته من أثر حصر البَوْل[174] ، وهو يبلغ من العمر أقلّ من 33 سنة[175] . وقد أنقذت هذه الوفاة الفجئيّة حمّادًا من الهلاك . ولولاها لما تمكّن من تأسيس دولة بني حمّاد ، على الأقلّ في ذلك الظرف بالذات .

الاضطرابات المناهضة للشيعة :

حسب ابن خلدون[176] ، لمّا شقّ حمّاد عصا الطاعة في وجه باديس سنة 405 هـ / 2 جويلية 1014 – 20 جوان 1015 م ، أعلن عن دخوله في طاعة العبّاسيّين ، وأمر بقتل الرافضة أي الشيعة ، وأعاد المذهب السنّي إلى مملكته ونطق بالعبارة التالية : «رضي الله عن الشيخيْن» ، وهما أبو بكر وعمر اللّذان شهّرا بهما الشيعة . واستولى عنوة على باجة ، وحثّ أهل السنّة على إبادة «المشارقة» والرافضة . وسنرى فيما يلي مدى صحّة هذه الادّعاءات .

فقد أشار ابن عذاري إلى الإجراء التالي الذي اتّخذه باديس ، ربّما قبل رحيله إلى المغرب الأوسط ، ذلك الإجراء الذي ينبغي تأويله على ضوء الاضطرابات السالفة الذكر .

«في سنة 405 هـ نادى مُنَادٍ في القيروان بانتقال من كان يسكن فيها من الصنهاجيّين إلى المنصوريّة . ثم نادى مُنَادٍ آخر بعد ذلك بإغلاق الحوانيت بالقيروان وفنادقها فأغلقت ، ولم يبق بها إلاّ بعض حوانيت الأحباس . وبلغ كراء حانوت بالمنصوريّة مائتَيْ درهم لبيع الكتّان ، وما سُمِعَ بذلك في كراء حانوت بالقيروان . فكان ذلك أوّل أسباب خرابها»[177] .

---

172) **البيان** ، النويري ، نظريًّا يوم الخميس . **أعمال** ، 454 – 455 : «لعشر ليالٍ بقين» . ربّما ينبغي قراءتها «مضين» . وحسب **المؤنس** ، 79 : «وأدركه أجله على طريق المحمّدية» .

173) **البيان** ، 266/1 .

174) **العبر** ، 172/6 : «بصرية» ، و 158/6 : «بمصرية» . والصحيح «بِحُصْرِيّة» أو «بِصَرْية» .

175) **النويري** ، 132/2 – 133 : عندما توفّي باديس كان عمره 32 سنة وثمانية أشهر وبضعة أيّام ودام عهده 20 سنة وتسعة أشهر وأربعة أيّام .

176) **العبر** ، 171/6 .

177) **البيان** ، 261/1 .

ولا نرى ما يبرّر مثل هذا الإجراء سوى الاعتبارات السياسيّة. إذ يبدو أنّ باديس قد أمر بانسحاب الصنهاجيّين إلى المدينة الأميريّة، توقّعًا لحدوث اضطرابات مناهضة للشيعة.

ويُعْتَبَر كتاب **مناقب** محرز بن خلف[178]، حسبما بلغ إلى علمنا، الوثيقة الوحيدة التي أشارت إلى تقتيل الشيعة في مدينة تونس سنة 406هـ/ 1015–1016م. فقد قام محرز بن خلف بدور رئيسي في تلك الأحداث، حتى أنّ بعض الأخبار شبه التاريخيّة قد زعمت أنّ أحد مريدي الشيخ قد رآها في المنام[179] وقبل قتل «المشارقة» بقليل، نصح محرز بن خلف رجلاً فقيرًا كان يرغب في الزواج، بِرَهن قمح أحد أعيان الشيعة يقال له ابن العظيم، لتسديد نفقات زفافه.

وإثر ذلك تمّ تقتيل «المشارقة» ونَهْب مخازن الشخص المذكور، فاغتنم الرجل تلك الفرصة للاستحواذ على كميّة من القمح، استعمل بعضها لتسديد المال الذي اقترضه لزفافه وادّخر البعض الآخر.

وفي سنة 406هـ/ 1015–1016م قام محرز بن خلف في مدينة تونس بنفس الدور الذي سيقوم به أبو علي بن خلدون في القيروان في السنة الموالية. فقد شجّع الثائرين وأصدر حكم الإعدام على الشيعة، «فكان يُؤْتى بالرجل منهم إلى حضرته فيشهد عليه، فيُقْتَل بشهادة الشيخ خاصّة، لا يحضر غيره من العُدول، أو يُتْرَك إذا لم يثبت عليه شيء».

وبعد ذلك ببضعة أيّام جدّت نفس الأحداث في باجة. ولكنّنا لا نستطيع التأكيد هل أنّها وقعت قبل أو بعد استيلاء حمّاد على تلك المدينة. فهناك فقرة غامضة في **مناقب** محرز بن خلف[180] تتحدّث عن وجود «السلطان» بالمغرب «وقتل المشارقة»، قبل الحوادث التي اندلعت في مدينة تونس. وفي ذلك إشارة، حسبما يبدو، إلى المجازر التي أمر بها حمّاد.

وإثر تلك الحوادث أشير على محرز بن خلف بإلحاح، بعدم الخروج من بيته لأداء الصلاة في الجامع، خوفًا على حياته.

وقد كلّف باديس يعلى بن فرج بالتوجّه إلى تونس لتسليط عقاب رادع على أهلها. فلمّا بلغهم هذا الخبر فكّر بعضهم في الرحيل عن طريق البحر صحبة محرز بن خلف، ربّما للالتجاء إلى منطقة قسنطينة التي كانت خاضعة لسلطة حمّاد. ولكن الشيخ رفض هذه الفكرة رفضًا باتًّا.

178) **مناقب** محرز بن خلف، تحقيق روجي الهادي إدريس، منشورات كلية الآداب بالجزائر، تونس 1959.

179) نفس المرجع، 307.

180) نفس المرجع، 390.

وقد أجاب أبو علي حسن بن خلدون شخصًا من أصيلي مدينة تونس كان يتردّد في الالتحاق بذويه الذين تركهم في تلك المدينة ، مؤكّدًا له أنّه بامكانه الرحيل إلى تونس ، وأنّ أهلها لا يخشون مكروهًا لانهم استجابوا لأوامر الله سبحانه وتعالى. أمّا الذين يحقّ لهم الخوف فعلاً ، فهم أهل القيروان الذين لم يفعلوا مثلهم. ولمّا علم محرز بذلك الجواب ، أشاد بفضل الشيخ القيرواني.

وعندما علم أهل تونس بواسطة الحمام الزاجل برحيل يعلى بن فرج ، أرسل محرز بن خلف إلى باديس بنفس الطريقة ، كتابًا جاء فيه ما يلي :

«قالت طائفة ليست من أهل العلم والكتاب أنّ أعيان تونس يؤخذون فيطلبون في أموالهم وأرواحهم وعلى السلطان النظر في ذلك. فاْحْذِرْ وزراء السّوء الذين يأكلون مالك ، ويقرّبون لحمك وعظمك إلى النّار ، وأنت على سفر ، فَخُذْ في الزاد ، والسلام على من اتّبع الهدى»[181].

ولمّا وصل الكتاب إلى أهل القيروان أحالوه على الأمير الذي أمر بقلع أسنان الوزير ، لأنّه اغتاب محرز بن خلف ، ثم أبلغ الكتاب إلى السيّدة زوجته.

«ولمّا وصل الكتاب إلى السيّدة علّقته عليها وكانت حاملاً. فقالت : لعلّ بركته تعود عليّ ، فعادت بركته عليها وولدت المعزّ بن باديس.

وكتب باديس من ساعته إلى تونس : قد عفا عنكم ببركة كتاب المؤدّب محرز بن خلف ، كتابًا إلى الرسول الذي بعثه ينتقم من المسلمين. فأعطاه الذي أتى بالكتاب وعلّقه على الحمام ، ووصل الحمام إلى تونس قبل وصول الرسول. فلمّا قدم الرسول بعث العامل إلى أهل المدينة ليعلمهم بما أمر به السلطان ، فأتوه والكتاب معهم ، فلمّا نظر العامل للكتاب سُقِط في يده وسرّح أمورهم ولم يعاقب أحدًا»[182].

ولا يخفى ما في هذه الرواية من تحريف ، إذ من المؤكّد أنّ ولادة المعزّ بن باديس قد سبقت مجازر سنة 406هـ بحوالي ثمانية أعوام.

ومن المعلوم أيضًا أنّ باديس قد منح بسجلّ بعض المزايا لتلامذة محرز بن خلف ، وبالخصوص الإعفاء من «المظالم» [أي الرّسوم]. كما أقرّ الامتيازات المسندة إلى الشيخ وأفراد عائلته ، ووسّع من نطاقها بمقتضى ظهير مؤرّخ في سنة 417هـ / 1026 – 1027م.

---

181) نفس المرجع ، 311 – 312.

182) نفس المرجع ، 314 – 316.

وقد ورد نصّ ذلك الظهير في آخر كتاب **مناقب** محرز بن خلف[183].

وحسب رواية أسطوريّة نقلتها كثير من المصادر بنصوص مختلفة[184]، فإنّ باديس لم يقض نحبه بالمغرب الأوسط، بل في مدخل مدينة تونس.

وفيما يلي النصّ الأكثر تفصيلاً من نصوص تلك الرواية: «ولمّا عزم باديس على تونس ونوى تخريبها، يقال: جاءها وعسكره في أخبية منّ الحرير، ونزل غربي تونس بمكان يُعرَف بالحريريّة، ولأجل ذلك سُمّيت الحريريّة، وحين نزوله بها دعا خازنه ليأتي بسيوفه فاختار منها سيفًا وقال: غدًا أضرب به حتى ينكسر. فبلغ ذلك الشيخ محرز بن خلف، وكان بجبّانته، فلبس نعله وخرج من خلوته تجاه زاويته وصعد لحلى باب البنات إلى أن وقف غربيّ جامع الصفصافة، وهو المعروف بزاوية سيدي عبد الله الشريف، وبه ديوان الصالحين، فنظر إلى المحلّة ثم قال: تكون تونس ولا يكون باديس، ورجع. ثم إنّ باديس أخذ السيف الذي كان اختاره وجعله في حجره، وكان حدّه إلى فوق، وأخذ يتكلّم إلى أن أخذه النّعاس، وبقي يتساقط قليلاً، فلمّا أرادوا أن ينبّهوه وجدوه خرّ على حدّ السيف فنُحِرَ به. نعوذ بالله من الخسران. وكان ذبحه بيد الجنّ، لأنّ الأستاذ سيدي محرز — نفعنا الله به — كان يتصرّف في الفريقين الإنس والجنّ»[185].

وقد سبق أن رأينا أنّ يعلى بن فرج هو الذي كلّفه باديس بمعاقبة أهل تونس. فهل أنّ هذه الأسطورة تتعلّق بواقعة حقيقيّة، أي وفاة هذا القائد في مدخل مدينة تونس؟

* * *

لقد توفّي باديس في وقت مبكّر، وهو في أَوْج النشاط، قبل أن يظهر كلّ ما هو قادر عليه. فقد استبسل في محاربة الزناتيّين الموالين لبني أميّة، ولا سيما منهم المقيمين في المغرب الأوسط الذين تحالفوا مع أعمام والده المتمرّدين عليه، وأوشكوا على الانتصار، بل حتى تعريض إفريقيّة للخطر. ولولا مساعدة عمّه حمّاد بن بلكّين، لما استطاع إعادة الأمن إلى نصابه في غرب مملكته، لا سيما وأنّ الزناتيّين قد تمكّنوا في وقت مبكّر، وبمساعدة الفاطميّين أحيانًا، من فتح واجهة ثانية في جنوب إفريقيّة. وقد توفّي باديس قبل إرجاع الوضع إلى

(183) نفس المرجع، 316 – 319، 325.

(184) نفس المرجع، 326.

(185) [الحلل السندسيّة، (طبعة بيروت)، 847/1].

نصابه في تلك المنطقة، رغم جيوشه ودهائه. ذلك أنّ تعاظم قوة مؤسّس القلعة في المغرب الأوسط قد بلغ من الخطورة ما دفع باديس إلى حشد جميع قواه لمحاربة فلفل وورّو. وقد انتهت مدّة ولايته بالحملة العسكريّة التي انتصر فيها على حمّاد المتمرّد الذي خانه الصنهاجيّون وحلفاؤه الزناتيّون. ويمكن تفسير تلك الخيانة بمهارة باديس وسوء تدبير حمّاد وبخله الذي يرجع سببه إلى قلّة موارده بالمقارنة مع موارد ابن أخيه. أضف إلى ذلك أنّ حمّادًا، بخروجه عن طاعة الفاطميّين، ومبايعته للعبّاسيّين، ربّما ارتكب خطأً فادحًا. وأقلّ ما يقال في هذا الشأن، أنّ مثل هذا التصرّف، لئن يبدو ملائمًا بالنسبة إلى إفريقيّة المالكيّة، إلاّ أنّه لا يمكن أن يكون كذلك بالنسبة إلى المغرب الأوسط الذي يسيطر عليه الصنهاجيّون والكتاميّون الموالون للفاطميّين.

ومهما يكن من أمر فإنّ تغيّر موقف حمّاد على الصعيدين السياسي والديني، والاضطرابات المناهضة للشيعة التي أثارها في تونس وباجة، قد أبرزت حدّة المشكل الديني في إفريقيّة في ذلك التاريخ.

ومجمل القول، كانت هناك ثلاثة مشاكل مطروحة في آخر سنة 406هـ/ ماي – جوان 1016م:

- تواصل الخطر الزناتي في جنوب إفريقيّة.
- خطر الانشقاق المتوقّع بين بني حمّاد وبني زيري.
- بقاء بلاد المغرب السنيّة تابعة للدولة الفاطميّة، بصعوبة متزايدة أكثر فأكثر.

الفصل الرابع
ملوك بني زيري الثلاثة الأوائل
والبحر الأبيض المتوسّط[1]

إنّ بني زيري الذين هم من البربر العائشين في مناطق بريّة ، قد شغلتهم حروبهم في المغرب ، عن الاهتمام بالشؤون البحريّة ، وذلك قبل أن تدفعهم الغزوة الهلاليّة نحو السواحل.

ذلك أنهم لمّا ارتقوا إلى الحكم ، لم تعد البلاد الإسلاميّة تسيطر على البحر الأبيض المتوسّط ، كما كان الأمر من قبل. إذ أنّ الأمبراطوريّة البيزنطيّة التي منع أسطولها المسلمين من السيطرة على الحوض الشرقي ، قد شهدت في عهد المقدونيّين (867 – 1081) انتعاشة قويّة مكّنتها من تركيز سلطتها على البندقية ومدن إيطاليا الجنوبيّة. وكان النّصارى يتأهّبون لمواجهة المسلمين قصد وضع حدّ لسيطرتهم على الحوض الغربي ، وقد تمكّنوا من انتزاع قاعدتين هامّتين من أيديهم ، إقريتش في سنة 951م وفراكسنتوم في سنة 983م[2] ، وهما بمثابة المركز المحصّن الذي كانت تنطلق منه الغزوات الإسلاميّة البحريّة في اتّجاه البروفانس ، فتعيث فيها فسادًا. وبذلك انتهت الهيمنة العربيّة على الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، وأصبح النّصارى منذ ذلك التاريخ يسيطرون عليه[3].

هذا وإنّ السلطة التي كانت تمارسها الأمبراطوريّة البيزنطيّة[4] من بعيد ، وبصورة نظريّة ، على البندقية وباري وسالرن وأمالفي ونابولي وغايتي ، لم تكن تمثّل عائقًا كبيرًا في وجه العلاقات التجاريّة بين تلك الموانئ والموانئ الإسلاميّة. كما إنّ جنوة وبيزة اللتين كانتا عُرْضَةً للغارات الإسلاميّة المتعدّدة[5] ، كانتا في انتظار ساعة الانتقام.

---

1) أنظر : جورج مارسي ، **بلاد البربر الإسلاميّة** ، 215 – 217.
2) **إسبانيا الإسلاميّة** ، 154/2 +160.
3) دي ماس لاتري ، **المقدمة** ، 7 ؛ ابن حوقل ، 203/1 – 205.
4) حول وضع إيطاليا الجنوبيّة قبل وصول النّرمان ، أنظر شالندون ، 1/ص 1.
5) وبالخصوص نهب بيزة وجنوة حوالي 934 – 935 وبيزة في 1005 و1011 ، **ستوريا** ، 398/2 والإحالة 1 ؛ اماري ، **ديلومي** ، 15 – 17 ؛ هايد (Heyd) ، 120/1 – 121 ؛ Lewis ، *Naval Power* ، 150 ، 194.

ومن ناحية أخرى، فقد بدأت الانتعاشة الاقتصاديّة تظهر في الغرب وتشجّع تنمية العلاقات التجاريّة الرابطة بين البحر الأدرياتيكي وإيطاليا الجنوبيّة من جهة وبين البسفور من جهة أخرى، والتي أثْرَت البندقية منذ أواخر القرن العاشر. والجدير بالتذكير في هذا الصدد أنّ البندقية قد منعت تجّارها في سنة 971م من تصدير الموادّ ذات الصبغة الاستراتيجيّة، مثل الأسلحة والخشب المستعمل في صناعة السفن، إلى البلدان الإسلاميّة، باستثناء ألواح خشب الدردار أو الصفصاف، التي يتجاوز طولها خمسة أقدام وأدوات الطبخ الخشبيّة ومسادي الحياكة، وذلك وفقًا لروح التعليمات البابويّة، وبالخصوص استجابةً لطلبات الامبراطوريّة البيزنطيّة التي هي في حرب مع المسلمين. وقد طُبِّق هذا الإجراء فَوْرًا على ثلاث سفن كانت على وشك الإقلاع، الأولى والثانية في اتّجاه المهديّة والثالثة في اتّجاه طرابلس الغرب[6].

وتعطينا هذه الواقعة فكرة عن أهميّة التجارة البحريّة التي كانت تمثّل عاملاً أساسيًّا من عوامل الغزو الفاطمي للبلاد المصريّة، ولا بدّ أنها قد تواصلت بعد ذلك في الخفاء.

وفي سنة 992م تحصّل حاكم البندقية (الدوج) من الامبراطور البيزنطي على مرسوم يمنح مدينته من المزايا ما يجعل من المستحيل مواصلة المنافسة التي كانت تقوم بها ضدّها أمالفي وباري في الشرق البيزنطي.

وفي نفس ذلك التاريخ نجح السفراء البنادقة العاملون في حلب ودمشق والقاهرة والقيروان وبالرمو، في تمكين رعاياهم المقيمين في تلك المدن من عدّة ضمانات حسب الأصول[7].

وبالتعاون مع البندقية تمكّن أسطول بيزنطي من إجلاء المسلمين من باري سنة 1002م[8]. ومنذ استيلاء البيزنطيّين على دورازو سنة 1005م، أصبح من الصعب أكثر فأكثر على الأساطيل الإسلاميّة دخول البحر الأدرياتيكي[9].

ولا شكّ أنّ مدينة أمالفي التي كانت لها علاقات تجاريّة هامّة مع مصر، لم تغفل عن

---

6) هايد (Heyd)، 113/1 ؛ شوب (Schaube)، 21 – 22 ؛ لاتري، **المقدمة**، 11 – 12.

7) لاتري، **المقدمة**، 12؛ هايد (Heyd)، 114/1؛ شوب (Schaube)، 21 – 22 ؛ لاكور (Lacour-Gayet) 205/2 – 206 ؛ بيران، **التاريخ الاقتصادي**، 174.

8) بيران، نفس المرجع، 173.

9) شالندون، 39/1.

إفريقيّة ، رغم انعدام الوثائق المؤيّدة لهذا الافتراض ، بالنسبة إلى القرن العاشر(10).

وأمّا مجاهد الموفّق بالله أمير دانية ، فإنّ أسطوله الذي كان أقوى أسطول في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، كان ينشر الرعب في سواحل قطلونيا والبروفانس وإيطاليا(11). وقد تمكّن هذا الأمير التابع لجزر البليار من الاستقرار في جزيرة سردانية سنة 406 هـ/ 1015م. ولكنّ أهل بيزة المتحالفين مع الجنويّين أطردوه منها في السنة الموالية ، استجابةً لتعليمات بابويّة(12).

ورغم سكوت الوثائق ، سواء منها العربيّة أو المسيحيّة ، بسبب ضعف الوسائل المستعملة وقلّة انتظامها ، يمكننا أن نؤكّد أنّ جهاد الإفريقيّين في البحر ، سواء على المستوى الدّولي أو على المستوى الفردي ، كان نشيطًا شيئًا ما في أيّام بلكّين والمنصور وباديس. ذلك أنّ كثافة هذا النشاط في العصر العُبَيْدي وفي عهد المعزّ بن باديس ، تجعل ذلك الافتراض من الأمور المُحتمَلة ، لا سيما وأنّ العلاقات البحريّة المتينة بين مصر وصقليّة لم تفتر طوال تلك المدّة ، حسبما يبدو.

أمّا في عهد الأمراء الصنهاجيّين الذين سبقوا المعزّ بن باديس ، فإنّ المصادر لم تذكر سوى محاولة واحدة لم تسفر عن أيّ نتيجة.

«في ذي الحجّة من سنة 365 هـ [أوت 976م) أمر أبو الفتوح [بلكّين] العاملَ على إفريقيّة واليَه عبد الله بن محمّد الكاتب أن يقيم أسطولاً بالمهديّة بِعُدَّةٍ من الرجال والسلاح. فخرج عبد الله إلى المهديّة وأخذ في حشد البحريّين في كلّ بلدة ، وأمر أن يُؤْخَذ كلّ من لُقِيَ منهم بالقيروان وغيرها وملأ بهم السجون. وأدرك خاصّةَ البلد وعامّتهم من الخوف ما لزموا له البيوت ، وانتهى حالهم إلى أنه إذا مات أحدٌ عندهم لا يُخرِجه إلاّ النساء»(13).

وهذه التفاصيل المدهشة ، لئن تبدو من الأمور المُبالَغ فيها ، إلاّ أنّه من الجدير بالتذكير أنّ نظام الحشد أو التجنيد الإجباري كان يمثّل القاعدة في عهد الأغالبة

(10) هايد (Heyd) ، 107/1 ؛ شوب (Schaube) ، 32 – 33.

(11) ليفي بروفنسال ، **إسبانيا الإسلاميّة في القرن العاشر** ، 154 ؛ دائرة المعارف الإسلاميّة ، 666/3.

(12) **دائرة المعارف الإسلاميّة** ، 666/9 ؛ لاتري ، **المقدمة** ، 9 ؛ **البيان** ، 116/3 ، 155 – 158 ؛ **أدباء** ، 80/17 – 81 ؛ العبر ، **التكملة** ، 2 عدد 1735 ؛ **الحميدي** عدد 829 ص 331 – 332 ؛ برنو (Pernoud) ، **تاريخ التجارة في مرسيليا** ، 129 – 130 ؛ بيران ، **التاريخ الاقتصادي** ، 182 – 184.

(13) **البيان** ، 229/1 ؛ **مناقب** ، 240 – 241 ، الإحالة 118.

والفاطميّين. من ذلك أنّ خادمًا قد انطلق في عهد عُبَيْد الله على رأس فرقة من الجيش لحشد البحّارة وأهل زويلة»[14].

«وفي سنة 366هـ خرج الأسطول من المهديّة في أوّل المحرّم (30 أوت 976م)، فتعذّر الريح عليها، فأقاموا حتى فرغت أزوادهم وعدموا الماء، فهرب جميع من فيها من النواتيّة والبحريّة وصاروا إلى البرّ، فنهبوا ما في المركب من عُدَّة وسلاح وهربوا إلى كلّ ناحية، فجعل عبد الله الطلب عليهم، فمن ظُفِرَ به قُتِل»[15].

والجدير بالملاحظة أنّ هذه القضيّة الغامضة لم يشر إليها إلاّ ابن عذاري في **البيان**، بدون ذكر أيّ مرجع. وهناك فقرة في **مناقب** الجبنياني يبدو أنّها تشير إلى عمليّة حشد وقعت بإذن من عبد الله. وهي تثير لدينا عدّة تساؤلات. فهل كان بلكّين يخطّط لحملة ضدّ النّصارى، أو لعمليّة غزو في البحر، أو لعمليّة بحريّة ترمي إلى دعم معركة بريّة؟ ذلك أنّ المصدر المذكور لم يشر لا إلى عدد السفن التي يتركّب منها الأسطول ولا إلى عدد النوتيّة ولا إلى وجود جنود على متنها. ومن المستبعد أن يكون المعزّ لدين الله قد ترك أسطولاً على ذِمة خليفته [في المهديّة]. ومن ناحية أخرى لا يُتَصَوَّر أن يكون عبد الله قد أعدّ أسطولاً في أقلّ من شهر. فيمكن أن نفترض أنّ الأمر يتعلّق بأسطول فاطمي، وأنّ العمليّة قد أوحت بها القاهرة ولم تكن تستجيب لرغبة ابن زيري، ولذلك وقع العدول عنها. ومن الممكن أيضًا أن يكون الخليفة الفاطمي في حاجة إلى بحّارة.

وأخيرًا، فإنّنا لا نجد في المصادر أيّ أثر لتدخّل إفريقيّة في شؤون صقليّة، قبل إرتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش[16].

---

14) **رياض النفوس** ص 70 – 93؛ إدريس، مجلة الدراسات الشرقية، 1935، 169 – 170.

15) **البيان**، 230/1.

16) لا يمكن أن نغفل عن الإشارة إلى أنّ جعفر بن محمد بن الحسين الذي انطلق من مصر ليتسلّم من جابر بن أبي القاسم بن حسن بن أبي الحسين، إمارة صقليّة، قد مرّ من إفريقيّة ووصل إلى المنصوريّة صحبة التركي سوبكتين يوم الأربعاء 24 صفر 373هـ / 5 جويلية 986م؛ **أعمال**، 478 (نظريًّا يوم الاثنين). أنظر أيضًا: **البيان**، 238/1.

الباب الثالث

أوج الدّولة الصّنهاجيّة ولاية المعزّ بن باديس من بداية عهده إلى غزوة بني هلال

نظرة عامّة

لقد بلغت إفريقيّة في عهد المعزّ بن باديس خلال الفترة الممتدّة من سنة 407 إلى سنة 422 هـ / 1016 — 1051م ، أَوْج الازدهار، إلى درجة أنّ النّاس قد اعتقدوا أنّ تلك الحالة ستدوم عدّة قرون.

والمعزّ بن باديس هو أوّل أمير صنهاجي مولود بالمنصورية . وقد شعر من أوّل وهلة بما تتميّز به الدولة الصنهاجية من صبغة إفريقيّة خالصة ، وذلك حسبما يبدو، بموافقة حاشية الأمير وأبناء قبيلته ، وبالخصوص تحت ضغط الجماهير الشعبيّة بالقيروان.

وهكذا ، فبعدما نجح في إخضاع حمّاد بن بلكّين لسلطته ، أمضى معه اتفاقيّة صُلْح ، تقضي بتسليم المغرب الأوسط بأسره إلى المتمرّد. واعتبارًا من ذلك التاريخ أصبحت مملكة بني حمّاد هي التي تتولّى حراسة التخوم الغربية للدولة الصنهاجية وحمايتها من أيّ عدوان زناتي. وسيحترم حمّاد إلى آخر رمق من حياته هذه الاتّفاقية التي تمّ تعزيزها بعدد من المصاهرات.

إلاّ أنّ خليفته القائد سينقضها سنة 432 هـ / 1040 — 1041م ، ثمّ سيتصالح مع ابن عمّه أمير القيروان اعتبارًا من سنة 434 هـ / 1042 — 1043م.

ولم يعد الأمر يقتضي تسليم إفريقيّة إلى نائب للأمير، يتمتّع بسلطة شبه مطلقة. فممّا لا شكّ فيه أنّ مقتل محمّد بن الحسن (413 هـ / 1022م) كان يمثّل بداية حكم المعزّ الفردي ، وقد عهد بمنصب الوزارة إلى الرجل الحازم أبي البهار بن خلوف الذي سيرى منه ما يرضيه.

ومن ناحية أخرى ، اضطرّ المعزّ عدّة مرّات إلى قمع اضطرابات الزناتيّين الذين كانوا يعيثون فسادًا في جنوب إفريقية. إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من إرسال الجيش إلى صقليّة ، ولو بدون طائل ، والحقّ يقال.

ولكنّ كلّ ذلك لم يكتسِ أهمّيّة فائقة بالنظر إلى الأزمة السياسية الدينية التي بلغت ذروتها عند ارتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش. فقد كان ظهور التعصّب الشعبي الذي تسبّب في تقتيل الشيعة بلا رحمة ، يعبّر عن طموحات الرأي العام المالكي المتلهّف على قطع دابر المذهب الشيعي في إفريقيّة.

وعندما هدأت الثورة التي تمّ قمعها بقسوة ، لم تكن العلاقات بين بني زيري والفاطميّين أحسن ممّا كانت عليه عهدئذٍ. وسوف لا تحصل القطيعة مع القاهرة ومبايعة الخليفة العبّاسي ببغداد ، إلاّ بعد ذلك التاريخ بنحو ثلاثين سنة.

الفصل الأوّل
الأمير المعزّ بن باديس

ارتقاء المعزّ إلى العرش[1] :

ما إن قضى باديس نحبه حتى «خرج الخادم في الوقت إلى حبيب بن أبي سعيد وباديس بن أبي حمامة وأيّوب بن يطّوفت ، وهم أكبر قوّاده ، فأعلمهم بوفاته . وكان بين حبيب وباديس بن حمامة عداوة ، فخرج حبيب مسرعًا إلى باديس ، وخرج باديس إليه أيضًا ، فالتقيا في الطريق . فقال كلّ واحد منهما لصاحبه : «قد عرفتَ الذي بيننا والأَوْلى أنّ نتّفق على إصلاح هذا الخلل ، فإذا انقضى رجعنا إلى المنافسة . فاجتمعا مع أيّوب وقالوا : إنّ العدوّ قريب منّا وصاحبنا بعيد عنّا ومتى لم نقدّم رأسًا نرجع إليه في أمورنا لم نأمن العدوّ ، ونحن نعلم مَيْلَ صنهاجة إلى المعزّ ، وغيرهم إلى كرامة بن المنصور أخي باديس[2] . فاجتمعوا على تولية كرامة ظاهرًا ، فإذا وصلوا إلى موضع الأمن ولّوْا المعزّ بن باديس ، وينقطع الشرّ . فأحضروا كرامة وبايعوه وولّوه في الحال وأصبحوا وليس عند أحد من العسكر من ذلك ، وعزموا أن يقولوا للنّاس بكرة : إنّ باديس قد شرب دواء» .

«فما شعروا أن خرج الخبر من مدينة المحمّدية بوفاة السلطان وأنّ أهلها أغلقوا أبوابهم وصعدوا إلى أسوارهم . فظهر ما لم يستطيعوا إخفاءه ، فكأنّما نودي في الناس بإشاعته . فاضطربت العساكر وماج بعضهم في بعض ، وخشوا من اختلاف الكلمة ، فاجتمع رأيهم على تقديم كرامة . فأخذ عليهم العهود ، وأمر بالكتب إلى بعض البلاد . فلما رأى ذلك عبيد نصير الدولة ، ومَن انضاف إليهم من سائر الحشم ، أنكروا ذلك وقالوا : إنما قدّمناه ليحوط الرجال ويحفظ الأموال ، حتى يدفع ذلك إلى مستحقّه المعزّ ابن مولانا نصير الدولة ! ومشى ليلاً بعضهم إلى بعض ، وتحالفوا على بيعة المعزّ . فلمّا تمّ لهم ما عقدوه ، أعلنوا به يوم السبت

---

1) **الكامل** ، 105/9 – 106 ؛ النويري ، 131/2 – 134 ؛ **البيان** ، 266/1 – 267 ؛ أبو الفداء ، **التاريخ** ، 180/2 ؛ **العبر** ، 158/6 ؛ **أعمال** ، 454 – 455 ؛ ابن خلّكان ، 87/1 – 105 ؛ **المؤنس** ، 79 – 80 ؛ مقديش ، **نزهة الأنظار** [الطبعة الجديدة 1988 ، 366/1] .

2) **الكامل** ، 105/9 ، وحسب النويري : «ونحن نعلم أنّ ميل تلكاتة وصنهاجة المغرب إلى كرامة بن المنصور أخي باديس» .

لثلاثٍ خلون من ذي الحجّة [13 ماي 1016م] وتحالفت العساكر على ذلك طائفة بعد طائفة، واتفقت آراؤهم على خروج كرامة إلى أشير ليحشد قبائل صنهاجة وتلكّاتة ويعود بهم إلى المحمّدية»(3). وقد سلّموا إليه لهذا الغرض 100 000 دينار ومجموعة من الأسلحة والأمتعة. فتحوّل إلى أشير يوم الأحد 4 ذي الحجّة 406هـ / 14 ماي 1016م.

«وفي يوم السبت بموافقة عيد الأضحى [10 ذو الحجّة 406هـ / 20 ماي 1016م] رحلت العساكر من المحمّدية بعد أن أضرموا النار في الأبنية والبيوت»(4). «وسارت العساكر على تعبئة الزحف مقدّمة وساقة وقلبًا يقدمها التابوت وأمامه الطبول والجنائب والقباب»(5).

«فأشرف حمّاد على العساكر، وهي تمرّ كالسيل بين يدي التابوت، فقال لأخيه وخاصّته: مثل هؤلاء يخدم الملوك! وصلتُ أنا إلى إفريقيّة في ثلاثين ألف فارس، ما منهم إلاّ من أحسنتُ إليه وأنعمتُ عليه، فعدتُ إلى القلعة وما بقي معهم إلاّ أقلّ من ستمائة، وأنا بين أظهرهم أُرْجى. وهذا ميّت أطاعه هؤلاء كما كان حيًّا»(6).

ثم تحوّل حمّاد إلى أشير فاستولى عليها على مرأى من كرامة(7). وما إن بلغ نبأ وفاة باديس إلى المهديّة حتى بويع المعزّ بالإمارة، يوم 21 أو 23 ذي الحجّة 406هـ / 31 ماي أو 2 جوان 1016م(8).

---

3) **البيان**، 267/1. ومرّة أخرى هناك فرق بيوم في المصادر (السبت عوض الأحد)، إلاّ أنّ التواريخ الواردة في كتاب النويري و**الكامل** و**البيان**، تبدو متجانسة تمام التجانس:
- ليلة الثلاثاء 29 ذو القعدة 406هـ: وفاة باديس ومؤامرة القوّاد الثلاثة الكبار.
- الأربعاء 30 ذو القعدة: إعلان كرامة الأوّل ومبايعته بدون إجماع.
- الخميس والجمعة 1 و2 ذو الحجّة 406هـ: توجيه الرسائل، وغضب عبيد باديس، التشاور بين حبيب بن سعيد والقوّاد المتمرّدين.
- ليلة الجمعة 2 ذو الحجّة: التفاوض بين الطرفين والمبايعة السرية.
- السبت 3 ذو الحجة: إعلان كرامة الثاني ومبايعته بالإجماع.
- الأحد 4 ذو الحجّة: انطلاق كرامة في اتّجاه أشير.
- السبت 10 ذو الحجّة: غادر العساكر المحمّدية حاملين تابوت باديس.

ومن ناحية أخرى ينبغي تعويض «المحمدية» بالمهديّة، أي: «ويعود بهم إلى المهديّة».

4) **البيان**، 268/1.

5) النويري، 133/2.

6) **البيان**، 267/1.

7) **العبر**، 172/6؛ **أعمال**، 455.

8) النويري، 133/2: «بويع المعزّ بالمهديّة يوم الاثنين لِسَبْعٍ بقين من ذي الحجة». **الكامل** لم يوضّح التاريخ. وأمّا **البيان**، 267/1 فقد أشار إلى أنّ ولاية المعزّ كانت بالمهدية «وبيعته بها لتسعٍ بقين من ذي الحجّة، لما وصل الخبر بوفاة=

وقد وُلِد المعزّ بالمنصوريّة يوم الخميس 5 جمادى الأولى 398 هـ / 17 جانفي 1008م[9] ، فكان عمره حين تولّى الإمارة أقلّ من 9 سنوات[10] .

«ولما وصل الخبر بوفاة أبيه والسيّدة أمّ ملال [عمّته] بالمهديّة ، خرج إليها [عامل القيروان] منصور بن رشيق وقاضي القيروان والمنصوريّة وشيوخها ومن كان بها من الصنهاجيّين ، فعزّوها في أخيها . وخرج المعزّ بالبنود والطّبول ، فنزل إليه الناس يهنّونه جميعًا ، وبايعوه وهنّوه وعزّوه وابتهلوا بالدّعاء له . وعاد إلى قصره ، ودخل الناس يهنّئون السيّدة بولايته ، فصرف أهل القيروان والمنصوريّة ، وبقي المعزّ بالمهديّة»[11] .

والجدير بالملاحظة أنّ المصادر لم تُشِرْ إلى أرملة باديس التي عاشت حتى سنة 412 هـ / 1021 – 1022م ، ولا إلى أمّ المعزّ التي حضرت مع أخت الأمير أمّ العلوّ جنازة أمّ ملال في سنة 412 هـ / 1021 – 1022م[12] . فهل كانتا بالفعل أميرتَيْن بربريّتَيْن؟ لا بدّ أنّ الاخباريّين قد بهرتهمْ الوصيّة على العرش الفاتنة ، فحجبت عنهم بقيّة نساء الحريم ومن باب أولى وأحرى الجواري ، ومن بينهنّ المرأتان المذكورتان أو واحدة منهما ، حسب الاحتمال . ويمكن أن نستخلص من ذلك أن والدة المعزّ لم تكن من بين زوجات باديس الرسميّات .

= أبيه» . وليس هناك إشارة ثابتة تمكّننا من الاختيار بين سبعة وتسعة اللذين كثيرًا ما يقع الخلط بينهما . ولا شكّ أنّ ابن عذاري قد أخطأ في **البيان** ، 268/1 عندما قال : «وكان وصول العسكر إلى المهديّة لثمانٍ بقين من ذي الحجّة» . في حين اتفق النويري و**الكامل** على تحديد تاريخ وصول العسكر إلى المهديّة بيوم 8 محرّم 407 هـ . فيمكن تصحيح ذلك الخبر بطريقتين اثنتين : إمّا «وكان وصول العسكر إلى المهديّة لثمانٍ بقين من محرّم» أو «وكان وصول **الخبر** (عوض العسكر) إلى المهديّة لثمانٍ بقين من ذي الحجّة» . وإنّ التأويل الثاني من شأنه أن يؤكّد أن خبر وفاة باديس قد وصل إلى المهديّة يوم 22 ذو الحجّة 407 هـ وأنّ المعزّ قد بويع من الغد أي يوم 23 ذو الحجّة .

9) ابن خلكان ، 105/2 ؛ مقديش [366/1] ، نظريًّا يوم السبت . وحسب ابن عذاري (**البيان** ، 295/1) «فقد وُلد سنة 399 هـ» ، وفي **الكامل** ، «وُلِد في جمادى الأولى سنة 398 هـ» .

10) **البيان** ، 268/1 : «8 سنوات و4 أشهر» ، وحسب نفس المصدر (273/1) : ولي باديس «وهو ابن ثمانية أعوام ، وقيل : ابن سبعة أعوام» وفي موضع آخر (295/1) : «ولي الملك سنة 407 هـ وسنّه سبعةَ أعوام وشهران» . وفي ذلك يقول ابن شرف :

لما انقضت من المئين أربـــعُ   وبعـــدهـــا ستّ سنين تتبـــع
وأوّل العـــام الشريف السابـــع   دار إليهـــا أيْمَن طوالِـــع

وفي **الكامل** : «8 أعوام و6 أشهر وبضعة أيام أو 11 عامًا» . وفي **تاريخ** أبي الفداء : «11 أو 8 أعوام» . وفي **الأعمال** : «وهو ابن 8 أعوام لما بويع يوم 3 ذو الحجّة 406 هـ» .

11) **البيان** ، 267/1 .

12) نفس المرجع ، 270/1 – 271 .

ومن غريب الصّدف أنّ المعزّ هو أوّل من بويع بالإمارة في المهديّة ، من بين أمراء بني زيري[13] ، وأنّ تلك المدينة ستصبح فيما بعد ملاذه الأخير ومقرّ إقامة خلفائه التعيسي الحظّ .

وقد كان الأمير الصغير «يركبُ في كلّ يوم ويعود إلى قبّة السلام ، وينطعم الناس بين يديه وينصرف إلى قصره»[14] . وكان قدوم عساكر باديس إلى المنصوريّة يوم الاثنين 4 محرّم 407 هـ / 13 جوان 1016م[15] ، ووصولهم إلى المهدية ثامن المحرّم[16] . ولا ندري هل تمّ الاستعراض الذي بايع أثناءه الجنود الأمير الصغير قبل أو بعد دفن باديس بالمهديّة . فقد مرّ العساكر من باب المهديّة أمام المعزّ الذي كان راكبًا صهوة جواده ، وعلى يساره حبيب بن سعيد ، وتقدّمت فرق الجيش الواحدة تلو الأخرى . «ووقف حبيب يعلمه بهم ويذكر له أسماءهم ويعرّفه بقوّادهم وأكابرهم»[17] . وكان الأمير يستفسر عن أحوالهم ويخصّهم بأحسن قبول . «وقد فرح الناس بما رأوا منه من العقل والنجابة وشمائل الكرم ، مع صغر السنّ ، وقابل كل إنسان بما يليق به» . وقد دامت هذه الاستقبالات ثلاثة أيّام .

وأخيرًا ، في مثل هذا الجوّ من الفرحة العارمة غادر المعزّ المهديّة ، «وكان دخوله المنصوريّة يوم الجمعة للنصف من محرّم (24 جوان 1016م)[18] . فدخل أجمل دخول ، وبين يديه البنود والطبول ، واحتلّ بقصره أفضل حلول ، وقد سُرَّ به الخاصّ والعامّ» .

ومن الغد[19] أدّى إلى القيروان تلك الزيارة المشهودة التي ستطبع مصيره بعلامة سوداء وستزجّ به طَوْعًا أو كرهًا في طريق رهيب .

واستدعى يوم السبت 19 صفر 407 هـ / 28 جويلية 1016م[20] عامل طرابلس أبا عبد الله محمّد بن الحسن إلى البلاد ، ليتولّى «نظر» الجيش وإدارة البلاد ، بما في ذلك

13) **المؤنس** ، 80.

14) **البيان** ، 267/1 .

15) **الكامل** والنويري . وحسب **المؤنس** ، 80 : «في أوّل المحرم وصل العسكر مع تابوت باديس» . فهل المقصود بذلك أوائل المحرم أو الوصول إلى إفريقية ؟ ومهما يكن من أمر فلا سبيل إلى تفضيل هذا المصدر المتأخر على المصدرَيْن السابقين .

16) **الكامل** والنويري .

17) حسب النويري : «العِرافة» .

18) **البيان** ، 268/1 ، نظريًّا يوم الأحد ؛ **والكامل** .

19) **النويري** : السبت 16 محرم 407 هـ ، نظريًّا يوم الاثنين .

20) نفس المرجع ، 136/2 .

مناطق قابس ونفزاوة وقسطيلية وقفصة ، وقد ولّى على كل منطقة عاملاً ، كما ولّى أيوب بن يطّوفت على بلاد المغرب بأسرها[21].

وصف المعزّ بن باديس[22] :

أشار ابن خلّكان[23] إلى أنّ المعزّ لم يُعرَف إلاّ بهذا اللّقب الفخري ، وهو لقب شبه خليفي حمله قبله أوّل خليفة فاطمي بمصر ، وهو المعزّ لدين الله واسمه معدّ. وقد حاول المعزّ عبثًا مطالعة الكتب واستفسار المغاربة ، فلم يظفر بحقيقة اسمه ٪ ومن ناحية أخرى لاحظ ابن خلكان أنّ اسم «المعزّ» لا يمكن اعتباره لقبًا فخريًّا ، لأنه لم يحمله أيّ أمير آخر من أمراء بني زيري. ولكنّ هذا الادّعاء يثير الاستغراب ، لأنّ الخلفاء الفاطميّين قد أضفوا على المعزّ شرف الدولة وأسلافه ألقابًا فخريّة. ولعلّ المؤلف يقصد بذلك أنّه لم يطمح أيّ أمير من أمراء بني زيري في الخلافة ولم يحمل أيّ واحد منهم لقبًا خليفيًّا[24]. فهل كان يروق لأهل إفريقية المالكيّين أن يطلقوا على زعيم المذهب السنّي لقب المعزّ أو معزّ الدين وإغفال الاسم الآخر الذي كان يحمله؟ ولئن اعتبرنا أنّ الأخبار المنقولة إلينا كلّها ذات مصدر مالكي ورسمي ، فإنّنا نلاحظ أنّ الكُتّاب والمؤلّفين الشيعة لم يسمّوا خليفة باديس إلاّ باسم المعزّ. فلو كان يحمل اسمًا آخر لما تأخّروا عن استعماله للتنديد بخيانته ، والحال أنّ سجلّ المستنصر[25] قد اكتفى بلعنة «ابن باديس».

وأشار ابن خلّكان أيضًا إلى أنّه يجهل كنية المعزّ. ومع ذلك فإنّ المصادر التي بين أيدينا قد أضفت عليه كنية أبي تميم.

وفيما يتعلّق بأوصاف المعزّ فإنه كان «أسمر اللّون ، جميل الوجه ، جهير الصوت ، حسن الخلق». وكان «رقيق القلب ، خاشعًا ، متجنبًا لسفك الدماء إلاّ في حدّ ، حليمًا

---

21) جميع هذه التفاصيل أوردها النويري.

22) **البيان** ، 295/1 ، 296 ، 297 ، 298 ؛ **الكامل** ، 6/10 ؛ النويري ، 146/2 ؛ ابن خلكان ، 105/2 ؛ **شذرات** ، 294/3 ؛ **نجوم** ، 71/5 ؛ **المؤنس** ، 82–84 ؛ **بساط** ، 48–50.

23) ابن خلكان ، 105/2.

24) وحسب ابن حزم ، **نقط العروس** (ط 2 ، 77) : ربّما فكّر في ذلك.

25) أنظر الفصل الأول من الباب الرابع.

يتجاوز عن الذنوب العظام ، حسن الصحبة مع عبيده وأصحابه ، مكرمًا لأهل العلم ، كثير العطاء لهم ، كريمًا».

كما كان «متوقّد الذهن ، حاضر الخاطر ، حاذقًا بطرائق الألحان[26] ، عالمًا بالمنثور والمنظوم من الكلام». وكان كريمًا ، مستنيرًا ، يرعى الفنون والآداب ، وقد جلب إلى بلاده ثلّة من الشعراء ، في طليعتهم الشاعران الذائعا الصّيت : ابن رشيق وابن شرف.

خاطب المعزّ هذين الشاعرين قائلاً : «أريد أن تصنعا شعرًا تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذي يكون على سوق بعض النساء ، فإني أستحسنه ، وقد عاب بعض الضرائر بعضًا به ، وكلّهنّ قارئات كاتبات ، فأحبّ أن أريهنّ هذا وأدّعي أنه قديم ، لأحتجّ به على من عابه وآسي به من عيّب عليه».

فاستجاب الشاعران في الحين لهذا الطلب ، «وانتقد المعزّ على ابن رشيق قوله : يعيبون ، وقال : أوجدت لخصمها حجّة بأن بعض الناس عابه»[27].

وفي بعض الظروف الحرجة ، عندما أثيرت مثلاً قضيّة التونسي أو قضيّة القاضي أحمد بن عبد الله بن أبي زيد[28] ، كان المعزّ يجمع الشعب في الجامع الكبير ، وبعد استشارة العلماء وكبار رجال الدولة يعلن عن القرار المُتَّخَذ بعد المداولة.

ورغم رقّته وذوقه المُرهَف ، لم يكن متخنّثًا ، بل بالعكس من ذلك كان يتميّز بشجاعة فائقة ، قال ابن بسّام[29] : «لم يكن أحدٌ في زمانه أشدّ بأسًا في الملاحم ، ولا أطْوَلَ يدًا بالمكارم ، ولا أَعْنى بلسان العرب ، ولا أَحْنى على أهل الأدب».

«وكان من الكرم على جانب عظيم. قيل إنه أهدى لبعض أصحابه في يوم واحد مائة ألف وسبعين ألف دينار»[30].

«كما وهب مرّةً مائة ألف دينار للمنتصر بن خزرون الزناتي ، وكان عنده ، وقد جاءه هذا المال فاستكثره ، فأمر به فأُفْرِغَ بين يديه ثمّ وهبه له. فقيل له : لِمَ أمرت بإخراجه من أوعيته؟ قال : لئلاّ يقال لو رآه ما سمحت نفسه به». هذا بالإضافة «إلى ما وصله من مركب أثيل وزيّ حفيل»[31].

---

26) وفي **المؤنس** : «كان عارفًا بعلم الأحجار» ، ولعلّ الكلمة الأخيرة تحريف لكلمة «الألحان».

27) ابن شرف ، **أبكار الأفكار** ، أنظر أيضًا : **بساط** ، 48 – 49.

28) أنظر الفصل السابع من هذا الباب.

29) **البيان** ، 279/1 ، نقلاً عن ابن بسّام و**رحلة التجاني** ، 14.

30) **المؤنس** ، 84.

31) **البيان** ، 297/1 ؛ **الكامل** ، 16/10 ؛ **بساط** ، 48 – 49.

وقد سمح ازدهار إفريقية للمعزّ بالاستجابة لشغفه بالبذخ. فقد أشار ابن خلدون[32] إلى أنّ الرقيق مؤرّخ المعزّ وكاتبه الخاصّ قد أطنب في وصف بذخ البلاط الصنهاجي الذي بلغ أوجه في عهد المعزّ. فمنذ ارتقائه إلى العرش حتى بداية غزوة بني هلال، لم ينفكّ عن إظهار معالم السخاء الخارق للعادة بمناسبة الأفراح والمآتم والاستقبالات الرسمية.

ففي يوم الأحد 19 ذي الحجّة 407 هـ / 19 ماي 1017م، تمّ ختان الأمير الصغير مع عدد من أبناء الفقراء الذين تسلّموا الملابس والإعانات المالية[33].

وكان المعزّ يغتنم استلام الهدايا وعلامات الشرف التي منحها له كلّ من الخليفة الحاكم والخليفة الظاهر في سنة 407 و 411 و 414 هـ[34]، لإقامة الحفلات الفاخرة وتنظيم المواكب الضخمة.

وفي المقابل كان يوجّه إلى الخلفاء الفاطميّين العديد من الهدايا الثمينة[35].

وقد تزوّج المعزّ في سنة 413 هـ / أفريل 1022 — 25 مارس 1023م، وهو يبلغ من العمر حوالي 15 سنة. «فكان له عرس ما تهيّأ لأحد من ملوك الإسلام. ولمّا بدأ بالحركة للعرس نُصِبت القباب خارج المدينة ونشر ما هيّأ من الأثاث والثياب وحضر من آلاف الملاهي ما لا يوصف»[36].

وكان يحبّ زوجته أمّ يوسف زليخاء[37]. قال المؤلف الأباضي الشمّاخي : «وفي عام 425 هـ [1024 — 1025م] نزل بإفريقية وباء جارف أصاب الحواضر والبوادي وحصل منه

32) **العبر**، 158/6 — 159.

33) النويري، 136/2.

34) أنظر الفصل الثاني من هذا الباب.

35) جاء في **البساط**، 40 — 42 : «أنّ المعزّ قد تسلّم من الحاكم في شهر ذي الحجّة 407 هـ / ماي 1017م سجلاً يتضمن التقليد ولقب شرف الدولة. كما تسلّم سيفًا مرصّعًا بالجواهر. وكلّف مبعوثي الخليفة الفاطمي بأن يسلّموا إليه 355 برذونًا بالسروج المحلاّة وعددًا كبيرًا من العبيد». ولكنّ المصادر التي بأيدينا لم تشر إلى الهدايا التي وجّهها المعزّ إلى الخليفة. فلعلّ الأمر يتعلق بالهدايا التي وجّهها باديس في سنة 405 هـ. وقد وجّه الحاكم السيف المعني بالأمر إلى ابن زيري في أوائل سنة 411 هـ.

ومن ناحية أخرى فقد أكّد صاحب **المؤنس**، 81، أن صندل عامل باغاية قد بعث إلى المعزّ في سنة 408 هـ «هديّة فيها 335 برذونًا بالسروج المحلاّة وعبيدًا».

36) **البيان**، 270/1، لم يعطِ المؤلف تفاصيل حول هذا الموضوع قائلاً : «قد شرحه الرقيق في كتابه وتركناه اختصارًا». **المؤنس**، 82؛ **شهيرات التونسيات**، 49 — 50 [الطبعة الثانية، ص 83].

37) **شهيرات التونسيات**، المرجع السابق.

فناء كبير في السكّان ، فكان من جميل عمل أمّ يوسف وكريم خصالها أن تصدّقت على موتى الفقراء والمعوزين بستّين ألف كفن احتسابًا لوجه الله تعالى»[38].

وفي سنة 415 هـ / 1024 – 1025م «وقف شرف الدّولة المعزّ لهديّة صندل والي باغاية ، فعُرِضَت عليه ، وهي ثلاثمائة حصَان ، ومائة فرس أنثى ، وبغلات منها عشرون بسروج محلاّة ، ومائة حمل من المال. فخلع عليه وجدّد له الولاية»[39].

وكما كان الشأن في عهد باديس ، كانت الحيوانات الضارية تقوم بدور بارز في المواكب الفخمة التي كان ينظّمها المعزّ. ففي سنة 441 هـ / 1049 – 1050م «خرج الأمير إلى ظهر مدينة القيروان. وأُخْرِجَت السباع بين يديه ، فأفلت منها سبع ، فانهزم الناس أمامه ، ووقع بعضهم على بعض ، فمات منهم نحو المائتين ، ووثب السبع على رجل من كُتّاب باب الغنم يُدْعَى الكرامي فقتله»[40].

وكان المعزّ يملك مجموعة من السباع ، فقد أمر أحد الزناتيّين بمصارعة أسد[41].

«وفي سنة 423 هـ [1031 – 1032م] وصلت من ملك السّودان إلى المعزّ هديّة جليلة ، فيها رقيق كثير وزرّافات وأنواع من الحيوان غريبة». وفي ذلك إشارة إلى أنّ المعزّ كان يجلب عبيده السّود وحيواناته الضارية من السودان. وقد ترك لنا الرقيق وصفًا دقيقًا لتلك الزرّافات[42].

وبعد ذلك بثلاث سنوات ، أي في سنة 426 هـ / 1034 – 1035م «وصلت إلى المعزّ بن باديس من ملك الروم (من المرجّح أن يكون الإمبراطور البيزنطي) هديّة لم يُرَ مثلُها في كثرة ما اشتملت عليه من أمتعة الديباج الفاخر وغير ذلك»[43].

---

38) الشمّاخي ، 415.

39) **البيان** ، 273/1 ، في الأصل «بسكرة» وقد عوّضناها بباغاية باعتبار أن بسكرة كانت تابعة لبني حمّاد وهي لم تكن مركزًا لتربية الخيول. وقد أكّد ذلك ابن خلدون (**العبر** ، 158/6) وصاحب **المؤنس** ، 81.

40) **البيان** ، 278/1.

41) الشماخي ، 383 – 384.

42) **البيان** ، 275/1 ؛ **بساط** ، 43 (10 أبيات شعر لابن رشيق في وصف الزرافات).

43) **البيان** ، 275/1.

أقارب المعزّ – رجوع زاوي إلى إفريقية[44] :

لم يكفّ زاوي بن زيري وأهله، منذ هجرتهم إلى الأندلس، عن التحرّك وتقديم شواهد الإخلاص إلى بني حمّود، أمراء مالقة. وقد أدّوا خدمات جليلة إلى القاسم بن حمّود على وجه الخصوص، بانتصارهم على الدعيّ الأموي المرتضى الذي كان يحظى بمساندة الزناتيّين، ولا سيّما إثر مقتله بعد ذلك بقليل، أي في سنة 409 هـ/ 1018م.

ورغم ما يبدو من تعزيز لنفوذه إثر ذلك الانتصار الباهر، فقد قرّر زاوي بن زيري العودة إلى إفريقية، خوفاً من أن تدور عليه الدوائر. ذلك أنّه لا ينبغي أن يغترّ الصنهاجيّون الذين كانوا قليلي العدد بالأندلس بهزيمة المرتضى، إذ أنّ انتصارهم عليه يرجع سببه إلى خيانة ملوك الطوائف الأندلسيّين لسلطانهم، أكثر ممّا يرجع إلى قوّة الصنهاجيّين. وبما أنّ هؤلاء غير قادرين على مواجهة الزناتيّين المقيمين بالأندلس، فإنهم لا يستطيعون من باب أولى وأحرى التصدّي للتحالف الزناتي الأندلسي. فلم يبق لهم حينئذٍ سوى مخرج واحد للنجاة بأنفسهم، ألا وهو الرجوع إلى إفريقيّة والالتحاق ببني جنسهم.

ولكنّ الصنهاجيّين الذين كانوا يفضّلون «المرتبة الأولى في غرناطة على المرتبة الثانية في القيروان»[45] لم يستجيبوا لنداء شيخهم.

وعندئذٍ طلب زاوي بن زيري إلى المعزّ بن باديس الذي لبّى طلبه، أن يسمح له بالعودة إلى وطنه. ولم يكن بنو زيري بالقيروان يخشون قدومه بل كانوا بالعكس من ذلك يرغبون في رجوع عميد عائلتهم. فقد أكّدت بعض المصادر أنّه «لا يحتجب عنه من نسائهم زهاء ألف امرأة في ذلك الوقت، هنّ مَحْرَم له من بنات إخوته وبناتهن وبني بنيهنّ»[46].

وفي سنة 410 هـ/ 1019 – 1020م[47] غادر زاوي بن زيري الأندلس من مرسى المنكّب، ومعه نساؤه وأبناؤه، ومنهم المسمّى الحلالي[48]، وحشمه وذخائره. وترك الحكم

---

44) **مذكّرات عبد الله**، 24 – 25؛ **البيان**، 269/1، 264/3؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، طبعة القاهرة 1319 هـ، 334/1 – 337؛ **العبر**، 158/6؛ **الكامل**، 107/9؛ **تاريخ أبي الفداء**، 198/2، استشهاد **بتاريخ القيروان** (لابن شدّاد؟)؛ ليفي بروفنسال، **إسبانيا الإسلامية**، 331/2، الإحالة 1؛ **دائرة المعارف الإسلامية**، 1300/4 – 1301 (ليفي بروفنسال) كنية زاوي : أبو مثنّى.

45) ليفي بروفنسال، ترجمة **مذكّرات عبد الله**.

46) ابن بسّام، **الذخيرة**، 1/1 – 402.

47) نفس المرجع.

48) نفس المرجع.

لابن أخيه حبوس بن ماكسن الذي كان شقيقه حباسة بن ماكسن قد قُتِلَ من قبل[49]. والجدير بالملاحظة أنّ مملكة غرناطة الزيرية ستبقى قائمة الذات حتى أواخر القرن الحادي عشر.

ولعلّ زاوي لم يغفل عن نقل الغنيمة الثمينة التي كان قد سلّمها إليه علي بن حمّود في سنة 406 هـ / 1016م. وهي تتمثل في رأس سليمان بن الحكم بن مروان المستعين بالله. وقد كان زاوي حريصًا على نقل ذلك الرأس معه لأخذ ثأر أبيه زيري الذي كان رأسه قد أُهْدِيَ إلى بني مروان بالأندلس[50].

وقد وصل زاوي إلى إفريقية في سنة 410 هـ / 9 ماي 1019 — 26 أفريل 1020م «بعد أن اغترب بالأندلس اثنين وعشرين سنة. فخرج إليه يوم وصوله شرف الدولة المعزّ بن باديس بزيّ عظيم، فترجّل له الشيخ زاوي، ونزل شرف الدولة فسلّم عليه، وسار معه حتى أنزله بالمنصوريّة»[51].

وقد لاحظ ابن بسّام، ربّما نقلاً عن ابن حيّان (المتوفّى سنة 469 هـ / 1076م)، «أنّ المعزّ قد أقرّ زاوي في دولته وكنفه. إلاّ أنّه لم يؤثره ولا أناف بمحله ولا قلّده ولا واحدًا من ولده شيئًا من عمله، بل وكّلهم إلى سُحْتِهم»[52].

كما أكّد عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس بن زيري، آخر أمراء غرناطة من بني زيري، في مذكّراته[53]، أنّ زاوي بن زيري قد منّى نفسه باغتنام فرصة صغر سنّ المعزّ بن باديس للاستيلاء على المملكة الصنهاجية بإفريقية. ولكن حاشية الأمير قد قامت بتسميم الشيخ الطموح.

ومن ناحية أخرى، فإننا لا نعلم بالضبط متى توفّي زاوي بن زيري. إلاّ أنّ ابن حيّان استغلّ الإعلان عن وفاته للتشهير به بعبارات على غاية من الحدّة، حيث قال:

---

49) **البيان**، 3/111—112.

50) **البيان**، 3/116—117؛ ابن بسّام، 1/1—404.

51) **البيان**، 1/269. وحسب **العبر**، 6/180: «بعد غياب 20 سنة». والجدير بالتذكير أننا نجهل تاريخ ذهاب زاوي إلى الأندلس، ومن المفروض أن يكون ذلك بعد وفاة المنصور بن أبي عامر (رمضان 392 هـ / جويلية — أوت 1002م)، لأن الذي دعاه إلى القدوم إلى الأندلس هو المظفر. وعلى كلّ حال فإن: 392 + 20 = 412 و392 + 22 = 414. ومن المحتمل أن يكون الخطأ راجعًا إلى عدم إشارة المراجع إلى تاريخ ذهاب زاوي إلى الأندلس. وحسب ابن خلدون، 391 + 20 = 411.

52) ابن بسّام، 1/1—402.

53) **مذكرات عبد الله**، (كتاب التبيان)، 24—25.

«ونُعِيَ إلينا عدوّ نفسه ، زاوي بن زيري مُوقِدُ الفتنة بعد الدولة العامريّة . ورد النبأ بمهلكه في القيروان وطنه ، بعد منصرفه إليها خاملاً مغمورًا بين أعاظم قومه ، لم يرتفع له ذكر بينهم . مهلكه كان من طاعونة أصابته . فالحمد لله المنفرد بإهلاكه ، الكفيل بقصاصه ، فلقد كان في الظلم والجور والاستحلال للمحارم والقسوة آية من آيات الله . أهان الله مثواه ولا قدّس صداه»(54) .

وقد قيل إن الصنهاجيّين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم فوق القوانين الشرعية قد روّعوا الأندلسيّين بسلوكهم المتّسم بنفس الوحشية التي كانوا يتميّزون بها في إفريقيّة بلادهم ، حيث كانوا يرتكبون أبشع أعمال التعسّف ، دون أن ينالهم أدنى عقاب . ورغم ما يتّسم به هذا الحكم من تحيّز صريح ، أملاه الحقد الذي كان يوحي به المرتزقة من البربر ، العاملون في الأندلس عهدئذٍ ، فإنه لا يخلو من الحقيقة .

وقد كان المعزّ يتبادل الرسائل مع أمراء غرناطة من بني زيري . من ذلك أنّ الأمير عبد الله قد أخبرنا في مذكّراته(56) أنّ جدّه باديس كلّما استولى على مدينة أندلسية محصّنة ، قيل له إنّ أمير إفريقية صرّح بما يلي : لقد أخبرنا صاحب غرناطة أنّه استولى على عددٍ من الأصقاع والبلدان ! وممّا لا شكّ فيه أنّه لو استولى على عواصم مثل قرطبة ومالقة مثلاً «لكنّا نبايعه في ذلك»(57) . ويبدو أنّ هذه المقولة قد حثّت باديس على الاستيلاء على مالقة بعد سنوات عديدة من المحاولات(58) .

ولقد شهدت سنة 412هـ/ 17 أفريل 1021 — 5 أفريل 1022م وفاة باديس بن (يوسف بلكّين) سيف العزيز بالله ، «وصلّى عليه شرف الدولة ، وكان له مشهد عظيم»(59) .

---

54) ابن بسّام ، **الذخيرة** ، 2/1 — 99 .

55) **البيان** ، 3/75 — 76 ، 81 ، 108 ، 128 — 129 ، 263 ؛ **أعمال** ، تحقيق ليفي بروفنسال ، 263 ؛ ابن بسّام ، 1/1 — 401 ، 1/4 ، 61 — 62 .

56) **مذكرات عبد الله** ، 43 ؛ (**كتاب التبيان**) : عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس بن زيري ، وهو ثالث وآخر أمراء غرناطة . وُلد سنة 447هـ/ 1056م وعيّن إثر وفاة أبيه (456هـ/ 1064م) وليًّا لعهد جدّه باديس بن حبوس ، وقد خلفه في سنة 469هـ/ 1077م . أمّا أخوه تميم المعزّ فقد عيّن أميرًا مستقلاً بمالقة .

57) نفس المرجع .

58) تولّى باديس الإمارة في سنة 429هـ/ 1038م وألحق مالقة الحمّودية بمملكته في سنة 449هـ/ 1057م وتوفّي في سنة 467هـ/ 1075م (أو 469 أو 465هـ) حسب **البيان** ، وفي سنة 465هـ حسب **الإحاطة** .

59) **البيان** ، 270/1 .

«وفي سنة 416هـ (1025 – 1026 م) توفّي أيّوب بن يطّوفت (بن بلكّين) وحضر جنازته شرف الدولة وعضدها، وهو المعزّ بن باديس بالبنود والطبول»[60]. وكان المعزّ قد قلّده ولاية المغرب. ولكن المصادر لم توضّح لنا هل أنّه استمرّ في الاضطلاع بتلك المهمّة أم أن شخصًا آخر قد عوّضه.

قريبات المعزّ – أرملة باديس :

«في سنة 412هـ (17 أوت 1021 – 5 أوت 1022م) توفّيت السيّدة زوجة نصير الدولة، وكُفِنَت فيما لم يُذْكَر أنّ ملكًا من الملوك كُفِّنَ في مثله. فحكى من حضره من التجّار أنّ قيمته مائة ألف دينار، وجُعِلَت في تابوت من عود هندي قد رُصِّعَ بالجوهر. وكانت لها جنازة لم يُرَ مثلها، ودُفِنت بالمهديّة (وربّما نُقِلَت فيما بعد إلى مقبرة أمراء بني زيري بالمنستير). وكانت مسامير التابوت بألفيّ دينار»[61].

أمّ المعزّ :

لا نعلم عنها أيّ شي[62]. ويبدو أنّ المعزّ كان متأثّرًا بها. فقد أخبرنا ابن عذاري بما يلي :

«وفي سنة 433هـ نُكِبَ محمّد بن محمود بن السكّاك، وكان المتولّي لأشغال أمّ المعزّ، واستولى بها على دولته»[63].

---

60) نفس المرجع، 273/1.

61) نفس المرجع، 270/1.

62) حسب الشماخي، 414 – 415 : «استشارها أحد الإباضيّين حول ابنه الذي كان أعمى، وبناءً على نصيحتها مكّنه من الدراسة».

63) **البيان**، 276/1.

السيّدة فاطمة :

كان المعزّ يظهر مودّة بالغة للسيّدة فاطمة المشهورة باسم «حاضنة باديس». وقد وهبت في رمضان 410 هـ/ 1019 – 1020م للجامع الكبير بالقيروان مصحفًا بديعًا ما زالت بعض صفحات منه موجودة إلى الآن، وكذلك الصندوق الذي كان يحويه. وقد تضمّنت الصفحة الأولى من المصحف نصّ التحبيس الذي حرّره القاضي عبد الرحمان ابن القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم[64].

وهناك شاهدة قبر[65] متقنة الصّنع ولكنّها مشوّهة قد كُتِبَ عليها ما يلي: «هذا قبر فاطمة... (المتوفاة) في رمضان 416 هـ/ 26 أكتوبر – 24 أكتوبر 1025م». وتدلّنا هذه النقيشة – حسبما يبدو – على تاريخ وفاة هذه المرأة الصالحة[66].

الأميرة أمّ ملال عمّة المعزّ[67] :

إنّ الأميرة أمّ ملال، أخت باديس، التي كثيرًا ما يطلق عليها اسم «السيّدة»، هي ابنة عدّة العزيز بالله، أي المنصور. وقد تبنّت المعزّ وعُنِيَت بتربيته. وكانت تشتو به في المنصورية وتصطاف به في المهديّة. ويبدو أنّها هي التي اختارت للسهر على تربيته أبا الحسن علي بن أبي الرجال [الشيباني] الذائع الصّيت[68] (المتوفّى سنة 426 هـ/ 1034 – 1035م)، الذي علّمه المذهب المالكي.

ولمّا توفّي باديس عُيِّنَت أخته أمّ ملال وصيّة على الأمير الصغير، إلى أن يبلغ سنّ الرشد، فقامت بتلك المهمّة على أكمل وجه.

«وقد أوقفت على الجامع الكبير بالقيروان مصحفًا في نهاية الجمال، ما زال قسم منه موجودًا إلى الآن، مع نصّ تحبيسه على يدي القاضي عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن هاشم»[69].

---

64) **شهيرات التونسيات**، 47 – 49 [الطبعة الثانية، 81 – 82].

65) **نقائش عربيّة**، 1/عدد 234، ص 363 – 364.

66) حسب حسن حسني عبد الوهاب (**شهيرات**، ص 83): «توفيت في حدود سنة 420هـ».

67) **البيان**، 27/1. أنظر أيضًا: **المؤنس**، 81؛ **وشهيرات التونسيات**، 39 – 44 [الطبعة الثانية، 69 – 77].

68) **البيان**، 273/1.

69) **شهيرات التونسيات**، 44، الإحالة 2 [الطبعة الثانية 76].

ولمّا مرضت أمّ ملال كان شرف الدولة المعزّ «يصل إليها في كلّ يوم عائدًا ومتفقّدًا، فيجلس عندها ويأذن لرجاله وعبيده يدخلون إليها، ثمّ ينصرفون. فلما كان ليلة الخميس منسلخ رجب 414هـ (18 أكتوبر 1023م) قبضها الله. وصُلِّيَ على جنازتها بالبنود والطبول والعمّاريّات، والسيّدتان الجليلتان الوالدة والأخت بحال من التشريف لهذه الجنازة، لم يُرَ لملك ولا لِسُوقَة مثلُها»[70].

وذكر أبو إسحاق الرقيق وهو ممّن شاهد ذلك، قال:

«كفّنها المعزّ بما قيمته مائة ألف دينار، وعمل لها تابوتًا من العود الهندي مرصّعًا بالجواهر وصفائح الذهب وسمّر التابوت بمسامير الذهب وزنها ألف مثقال، وأدرجت في مائة وعشرين ثوبًا، ذرّ عليها من المسك والكافور ما لا حدّ له، وقلّد التابوت بإحدى وعشرين سبحة من نفيس الجوهر. وقوّمت التّجار ما صرف عليها فبلغ ما ذكرناه. وأمر المعزّ بخمسين ناقة ومائة رأس من البقر وألف شاة فنحرت وانتهبها الناس وفرّق في مأتمها على النّساء المعوزات عشرة آلاف دينار ورثاها شعراء البلاط وكانوا أكثر من مائة شاعر بمراثي جليلة»[71].

وممّا لا شكّ فيه أنّها دُفِنت أوّلاً بالمهديّة، وبعد ذلك بحوالي سنة «نُقِلت إلى المنستير إلى مقبرة صنهاجة المعروفة بمقبرة «السيّدة» نسبة إلى هذه الأميرة. وهي وسط البلد المذكور لحدّ الآن بالقرب من الرباط الكبير»[72].

وفي نفس السنة التي توفّيت فيها أمّ ملال، وعلى وجه التحديد قبل وفاتها بشهرين، ربّما عندما مرضت، «فوّض الأمير شرف الدولة جباية الأموال وولاية الأشغال والنظر في العساكر وسائر الأشغال لأبي البهار بن خلوف، يوم الثلاثاء لخمسٍ بقين (25) من جمادى الأولى 414هـ .(15 أوت 1027م)[73].

---

70) **البيان**، 272/1 : 30 رجب يصادف نظريًّا يوم الجمعة.

71) **المؤنس**، 81، نقلاً عن أبي إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق؛ **شهيرات**، 43 – 44 [الطبعة الثانية 75 – 76]؛ **بساط**، 42 – 43. بعض التفاصيل تذكرنا بتكفين أرملة باديس، فمن الممكن أن يكون هناك التباس.

72) **شهيرات التونسيات**، 44، الإحالة 2 [الطبعة الثانية 76].

73) **البيان**، 272/1، نظريًّا يوم الخميس.

الأميرة أمّ العُلُوّ أخت المعزّ :

وفي السنة الموالية ، في رجب 415هـ / 8 سبتمبر – 7 أكتوبر 1024م زوّج المعزّ أخته أمّ العلوّ ابنة نصير الدولة باديس ، من ابن عمّه الأمير عبد الله بن حمّاد الصنهاجي ؛ ابن صاحب القلعة الذي كان قد أبرم معه اتفاقية صلح في سنة 408 هـ/ 1017 – 1018م(74).

«فلمّا كان يوم الأربعاء غرّة شعبان المكرّم 415هـ (18 أكتوبر 1024م)(75) ، زيّن الإيوان المعظّم للسيّدة الجليلة أم العلوّ ، ودخل الناس خاصّة وعامّة ، فنظروا من صنوف الجوهر والأسلاك والأمتعة النفيسة وأواني الذهب والفضّة ما لم يُعمَل مثلُه ولا سُمِعَ لأحد من الملوك قبله . قال أبو إسحاق الرقيق : فبهر عيونَ الخلق حالُ ما عاينوه وأَبْهَتَهُم عظيمُ ما شاهدوه ، وحُمِل جميع ذلك إلى الموضع الذي ضُرِبَت فيه الأبنية والقباب والأخبية ، وحُمِلَ المهر في عشرة أحمال على أَبْغُلٍ على كل حِمْل جارية حسناء ، وجملته مائة ألف دينار عينًا . وذكر بعض حُذّاق التجّار أنّه قوّم ما هو لها ، فكان زائدًا على ألف ألف دينار ، وهذا ما لم يُرَ قطّ لامرأة قبلها بإفريقيّة . وزُفّت العروس في يوم الخميس(76) ، ومضى بين يديْها عبيدُ أخيها شرَف الدولة وأبيها نصير الدولة وجدّها عُدّة العزيز بالله ، ووجوه رجال الدولة ، فكان يومًا سارت الرُّكبانُ بمحاسن آثاره ، وامتلأت البلدان بعجائب أخباره»(77).

«وقد عُثِرَ بمكتبة جامع عقبة بالقيروان على ورقة رقّ بخطّ القاضي عبد الرحمان بن محمّد بن هاشم ، مكتوب بها توقيف هذه الأميرة لمصحف شريف على مسجد أبي عبد المطلب بباب سَلَم»(78).

وقد صاحبت أمّ العلوّ زوجها أثناء الحملة العسكرية التي قام بها ضدّ زناتة وقضى نحبه في تلك الفترة بالذات (أي ما بين سنة 430 وسنة 440 هـ / 1048 – 1049 م)(79) . ومن المحتمل أن تكون هذه الأميرة هي التي توفّيت بسوسة في سنة 445 هـ / 1053 – 1054م.

74) نفس المرجع . انظر أيضًا : **بساط** ، 43 ؛ **وشهيرات** ، 45 – 47 [الطبعة الجديدة 77 – 78].
75) نظريًّا يوم الخميس.
76) نظريًّا يوم الجمعة.
77) **البيان** ، 272/1 – 273 .
78) **شهيرات التونسيّات** ، 47 ، الإحالة 1 [الطبعة الثانية 80].
79) ربّما أثناء الحملة التي أشرف عليها نزار بن المعزّ في سنة 433هـ. أنظر **البيان** ، 276/I .

الفصل الثّاني
قتل الشيعة بإفريقيّة

واقعة القيروان[1] :

غداة دخول المعزّ إلى المنصوريّة يوم السبت 16 محرّم 407هـ / 25 جوان 1016 ، قام بجولة في شوارع المدينة راكبًا فرسه ، «والنّاس يسلّمون عليه ويدعون له . فاجتاز بجماعة فسأل عنهم ، فقيل : هؤلاء رافضة»[2] ، ويقابلهم أهل السنّة . قال : مَنْ هم أهل السنّة ومن هم الرافضة ؟ فقيل : أهل السنّة هم الذين يقولون«رضي الله عن أبي بكر وعمر» ، أمّا الرافضة فهم الذين يسبّون الشيخَيْن . فقال الأمير : «رضي الله عن أبي بكر وعمر»[3] . ويقال إن المذبحة انطلقت منذ ذلك الحين.

ومن المستبعد أن يكون المعزّ ، بالرغم من صغر سنّه وتربيته السنيّة ، يجهل تمامًا المذهب الشيعي . إلاّ أنّ ذلك لا يكفي لنفي صحّة هذا الخبر على أنّه من الجدير بالتذكير أنّ المعلومات المتوفرة لدينا في هذا الشأن ، هي ذات مصدر وحيد ومتحيّز بشكل مفضوح .

ذلك أنّ المؤرّخين الرسميّين والإخباريّين ، سواء منهم أبو الصلت أو ابن شدّاد ، قد بذلوا قصارى جهدهم لإظهار المعزّ بمظهر زعيم السنّة والباعث على قطع دابر الشيعة . والغريب في الأمر أنّنا لا نجد أيّ أثر لهذا الخبر في كتب السّيَر المالكيّة (مثل **مدارك** القاضي عياض **ومعالم الإيمان**) ، إذ إنّ المعطيات الواردة فيها تؤكّد النظرية السالفة الذكر أحيانًا ، وتنفيها أحيانًا أخرى . ولنذكر على سبيل المثال هذه الفقرة المثيرة التي ختم بها ابن عذاري حديثه عن الاضطرابات المضادّة للشيعة :

---

1) **البيان** ، 268/1 – 269 ؛ **الكامل** ، 122/9 – 123 ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 149/2 ؛ النويري ، 134/2 – 135 ؛ **الاستبصار** (الترجمة) ، 99 – 100 ؛ **المؤنس** ، 80 – 81 ؛ مقديش ، **نزهة الأنظار** ، 366/1 – 367 .

2) **الكامل** ، 122/9 .

3) **الكامل** ، والنويري .

«وحُكِيَ في قتل الروافض حكايات كثيرة، ممّا رآه المعزّ في منامه، وتأويل ذلك وغيره ألغينا هنا عن ذكره. ولم يزل المعزّ يعمل فكره في قطع الدعوة لهم إلى أن كانت سنة 440»[4].

ولكن قبل أن نتّهم هذه الرواية بأنّها مختلقة أو شبه خرافية، أفلا يجوز لنا أن نفترض أنّها كانت بمثابة المناورة التي ساعد بها المعزّ، بقصد أو بلا قصد، القوى الخفيّة المستعدّة للقيام بالأعمال التي أعطاها إشارة الانطلاق عندما تلفّظ ببعض العبارات المتّفق عليها من قبل؟

«فانصرفت العامّة من فورها إلى درب المعلّى بالقيروان، وهو [مكان] تجتمع به الشيعة، فقتلوا منهم [عددًا كبيرًا من الرجال والنّساء والأطفال]. وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم، طَمَعًا في النهب. وانبسطت أيدي العامّة في الشيعة، وأغراهم عامل القيروان (منصور بن رشيق) وحرّضهم، وسبب ذلك أنّه كان قد أصلح أمور البلد، فبلغه أنّ المعزّ بن باديس يريد عزله، فأراد فساده، فقُتِل من الشيعة خلق كثير»[5].

وقد اتّسع نطاق الاضطرابات، إلى درجة أنّ السلطان قد عجز عن إرجاع الأمن إلى نصابه، فعيّن عاملاً جديدًا، لم يتمكّن هو أيضًا من ذلك.

«وخرج الأمر من القيروان إلى المهديّة وسائر بلادهم. فقُتِلوا حيث وُجِدُوا وأُحْرِقوا بالنّار. فلم يُتْرَك منهم بمدائن إفريقيّة إلاّ من اختفى»[6]. ولجأ بعضهم إلى «مساجد البادية»، حيث لم يسلموا من الهلاك.

«ولجأ من بقي بالمهديّة منهم إلى المسجد الجامع، فقُتِلوا به عن آخرهم رجالاً ونساءً. واجتمعت العامّة على أبي البهار بن خلوف[7] لشدّته عليهم وقهره لسفهائهم. فلجأ إلى المنصوريّة، فانتهبوا داره. وبلغ ذلك عساكر ابن أخيه، فركب لينصر عمّه أبا البهار، فقتله العامّة ومثّلوا به، وقتلوا مَن كان معه»[8]. وزحفوا على المنصوريّة وهدموا دار الإمارة[9].

---

4) **البيان**، 274/1.

5) **الكامل**، 122/9.

6) **معالم الإيمان**، 192/3.

7) لعلّ الأمر يتعلق بعامل القيروان الجديد الذي عوّض منصور بن رشيق.

8) **البيان** فحسب، 268/1.

9) **معالم الإيمان**، 192/3. وفي **البيان**: «وزحفوا إلى المنصورية فهدموها».

وفي يوم 12 جمادى الأولى 407هـ / 17 أكتوبر 1016م[10] «اجتمع بدار محمّد بن عبد الرحمان[11] نحو ألف وخمسمائة رجل من الشّيعة. فإذا خرج أحد منهم لشراء قوته قُتِلَ، حتى قُتِلَ أكثرهم»[12]. وقد تمّت مُحَاصرتهم واضطرّهم الجوع إلى الخروج، فقُتِلوا عن آخرهم، وذلك في أواخر جمادى الأولى / أواخر أكتوبر – 4 نوفمبر 1016م، وجمادى الثانية / 5 نوفمبر – 3 ديسمبر 1016م[13].

وإذا صدّقنا ما جاء في مصدر آخر متأخّر العهد من سوء الحظّ، فإن المعزّ قد أمر بالكفّ عن قتل الشيعة[14].

وأكّد ابن عذاري أنّ المسلمين قد سُرّوا بقتل الشيعة، «وذلك لمّا ظهرت الكتب التي وُجِدت بديارهم، وكان فيها من الكفر والتعطيل للشريعة وإباحة المحارم شيء كثير»[15]. ومن الممكن أن يكون أهل السنّة قد عثروا عند نهب منازل الشّيعة على بعض الكتب الباطنيّة، إلاّ أنّ تحيّز مثل هذه الشهادات واضح للعيان.

وحسب المصادر التي بين أيدينا، قُتِل الشيعة في جميع أنحاء إفريقيّة. من ذلك أنّ التّجاني، عند حديثه عن الفقيه أبي الحسن علي بن محمّد بن المنمّر، قال:

«وهو أوّل من أظهر السنّة بطرابلس، لمّا كانت في إفريقيّة الوقعة المعروفة بوقعة المشارقة سنة سبع وأربعمائة قُتِل فيها الشيعة وأتباعهم. وعلى يد الفقيه أبي الحسن كان قَتْلُ مَن قُتِل بطرابلس»[16].

وهناك رواية أخرى حول انطلاق الاضطرابات، وردت في كثير من المصادر[17]. فقد لاحظ ابن عذاري أنّ الشيخ الوَرِع ابن أبي الرجال «حرّض ابن باديس وأدّبه ودلّه على مذهب مالك وعلى السنّة والجماعة، والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان. فخرج المعزّ في بعض الأعياد[18] إلى المصلّى في زينته وحشوده، وهو غلام، فكبا فرسه، فقال عند ذلك: «أبو بكر وعمر»! فسمعته الشيعة التي كانت في عسكره، فبادروا إليه ليقتلوه، فجاء عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنّة من أهل القيروان، ووُضِعَ السّيف في الشيعة، فقُتِلَ منهم

---

10) النويري، 135/2.
11) شخص غير معروف.
12) البيان، 268/1.
13) البيان، الكامل، والنويري.
14) المؤنس، 80 – 81.
15) البيان، 268/1 – 269.
16) رحلة التجاني، ص 265.
17) البيان، 274/1.
18) وفي العبر: «ذات يوم».

ما ينيف على الثلاثة آلاف ، فسميّ ذلك الموضع بركة الدم إلى الآن»[19] .

وإن كانت الإشارة إلى العيد والمصلّى صحيحة ، فإنّ الأمر يتعلّق إمّا بعيد الفطر (أوّل شوّال 407هـ/ 3 مارس 1017م) أو بعيد الأضحى (10 ذو الحجّة 407هـ/ 10 ماي 1017م) . فهل حصل آنذاك هيجان شعبي آخر ، أثارته من جديد عبارة تلفّظ بها المعزّ؟ ومن ناحية أخرى إذا تأكّد لدينا أنّ الجنود الشيعة قد حاولوا فعلاً قتل الأمير الشاب ، لأنّه توسّل بالشيخَيْن أبي بكر وعمر ، فإنّ ذلك يعتبر مؤشّرًا لردّ الفعل الشيعي المتمثّل في الواقعة المأسويّة التي جدّت بعد عيد الفطر بحوالي اثني عشر يومًا .

فقد عيّن الوزير محمّد بن الحسن المسمّى محمّد بن لصويّة؟[20] عاملاً على القيروان . وأشارت المصادر[21] إلى الظروف التي أقدم فيها هذا العامل على قتل فقيه جليل من فقهاء القيروان .

ذلك أنّ أهل القيروان قد نسبوا الاضطرابات التي شهدتها مدينتهم إلى جماعة من أهل السنّة من غيرهم .

«فلقد حُكِيَ أنّ العامّة جاءت متعلّقة برجل اتّهموه برأيهم [أي رأي الشيعة] ، فمرّوا به على شيخ من العامّة ، فسألهم عن تعلّقهم به ، فقالوا : نسير به إلى الشيخ أبي علي بن خلدون ، فننظر ما يأمرنا به . فقال لهم الشيخ العامّي : لا ! اقتلوه الآن ، فإن كان رافضيًّا أصبتم ، وإنّ كان سنيًّا عجّلتم بروحه إلى الجنّة الآن»[22] .

وحُكِيَ أيضًا أنّ العامّة شاهدوا شخصًا آخر يلاحق شيعيًّا ليقتله . فقالوا له : ماذا تفعل؟ قال : هذا زنديق من أتباع علي بن أبي طالب ، يحتقر عمر بن الخطّاب ، أو كما قال .

«فانتقم الله من الشيعة على أيدي عامّة المسلمين ، وقتلوهم كلّ مقتل . فرعب المعزّ منهم وأراد كسر شوكتهم . فدبّر قتل زعيم أهل السنّة وشيخ هذه الدعوة ، أبي علي حسن بن خلدون البلويّ»[23] .

---

19) أمّا ابن خلدون فقد ذكر أنّ العامّة ، لما سمعوا ما قاله المعزّ ، قتلوا الشيعة وجميع دعاة الرافضة .

20) قراءة ظنّيّة لاسم ربّما كان،محرّفًا حسبما ورد في **معالم الإيمان**. أما صاحب **المدارك** ، فقد اقتصر على ذكر «عامل القيروان» .

21) **المدارك** ، 2 – 286/3 – 288 ؛ **معالم الإيمان** ، 190/3 – 194 ؛ مخلوف ، عدد 271 ، 105/1 .

22) **معالم الإيمان** ، 192/3 – 193 .

23) نفس المرجع .

وقد كان هذا الفقيه الجليل وأحد أتباع أبي الحسن القابسي ، رجلاً ثريًّا وكريمًا . كان يطعم الطعام بسخاء ويحظى بنفوذ كبير لدى منافسيه من علماء القيروان . وكان الشعب يطيعه طاعةً عمياء . كما كان محرز بن خلف الذي قام بالدور المعروف في الانتفاضة المضادّة للشيعة بمدينة تونس ، يُقدّره حقّ قدره .

وبوصفه زعيم أهل السنّة ، كان هذا الشيخ يقاوم الخارجين عن الجماعة والمعتنقين للمذهب الشيعي ، الذين كانوا يكرهونه . . .

«فلمّا كان يوم الخميس الثاني عشر من شوّال سنة سبع وأربعمائة (14 مارس 1017م) دخل عليه قوم من المشارقة والشرطة ، مع محمّد بن لصويّة[24] عامل القيروان ، بعد صلاة العصر ، وهو في مسجده ومعه جماعة من النّاس ، فقتلوا أبا محمّد الغرياني الفقيه وآخر بدويًّا ، ظانّين أنّه أبو علي . فلمّا عرفوا مالوا على أبي علي بسكاكينهم وجرّدوا جميع مَنْ كان في المسجد ، فحملوا أبا علي إلى داره وقد وقعت فيه ثلاث جراحات إحداها في صدغه أخذت إلى قفاه ، واثنتان في جانبه الأيسر أنفذتا مقاتله ، توفّي في داره بعد العشاء الآخرة»[25] .

ثمّ أضاف الرّاوي وهو الدبّاغ (المتوفّى سنة 699هـ/ 1300م) قائلاً : «وبقي دمه بالمحراب إلى قريب زماننا هذا»[26] .

وما إن لفظ أبو علي بن خلدون أنفاسه الأخيرة حتى «ارتجّت المدينة وثارت الصيحة من نواحي القيروان ، فمال أهل المنصوريّة من الرجال والعبيد ، فنهبوا جميع ما في حوانيتها ، حتى لم يدَعُوا حانوتًا ، فذهب النّاس واشتغلوا بأنفسهم عن مقتل الشيخ أبي علي وخبره . وأراد عامل القيروان استرضاء الناس ، فجاء برجلين ، فقال إنهما اللذان قتلاه ، فقتلهما»[27] .

---

24) هكذا ورد في **معالم الإيمان**. أفلا يتعلق الأمر بالمسمّى محمّد بن والة الذي قبض فيما بعد على والي طرابلس السابق عبد الله بن الحسن ، حسب النويري ، 139/2؟ أم أنّ الأمر يتعلّق بالمسمّى تمصولت ، وهو مولى المعزّ بن باديس الذي أشار إليه الشمّاخي ، 336 — 337 . وفيما يخصّنا فقد رأينا من باب الحذر الاحتفاظ بالاسم الوارد في **معالم الإيمان**.

25) **معالم الإيمان** ، ص 192 .

26) نفس المرجع .

27) **معالم الإيمان** ، ص 193 .

ودُفِنَ الشيخ ليلاً ، وقد أشار إلى ذلك أبو إسحاق إبراهيم الحصري في بيت من الأبيات التي رثاه بها. كما رثاه شعراء آخرون مثل ابن الورّاق وابن جرمون وابن يحيى ، وصلّى عليه أبو بكر بن عبد الرحمان[28] ، ودُفِنَ بداره ، وقبره بباب سَلَم مشهور في عصر الدبّاغ. وقد وصلنا النصّ المنقوش على شاهدة قبره ، والذي نُشِرَ في كتاب : **نقائش عربيّة**[29]. كما أنّ مسجده ما زال قائم الذات إلى يومنا هذا وهو يحمل اسمه.

ومن المحتمل أن يكون محرز بن خلف الذي توفّي سنة 413 هـ / 1022 – 1023 م ، إثر الاعتداء عليه في جُنح الليل أو تسميمه[30] ، قد ذهب هو أيضًا ضحيّة ردود فعل الشيعة.

كما قُتِل في سنة 410 هـ / 1019 – 1020 م الوليّ الصّالح معاوية بن عتيق أصيل مدينة تونس الذي ساهم مساهمة فعّالة في مقاومة الشيعة ، وربّما قُتِلَ وسلاحه في يده[31].

ويبدو أنّ الاضطرابات التي يقال إنّها تسبّبت في مقتل أكثر من 20 000 شيعي بالقيروان وأعمالها[32] ، قد توقّفت شيئًا ما بعدما نُهِبَت المنصوريّة إثر مقتل أبي علي بن خلدون. وممّا لا شكّ فيه أنّ سبب توقّف تلك المذبحة لا يرجع إلى ما أسفرت عنه أعمال القمع من نجاح مشكوك فيه[33] ، بل يرجع أوّلاً وبالذات إلى الاحتياطات التي اتخذها الشيعة لإنقاذ حياتهم ، وذلك بالاحتماء بالجيش.

علاقة المعزّ بالفاطميّين :

يبدو أنّه لم يصدر أيّ ردّ فعل من قِبَل الديبلوماسية الفاطمية ، بل أكثر من ذلك ، ففي آخر سنة 407 هـ ، وعلى وجه التحديد في أواخر ذي الحجّة وأواخر ماي 1017 م ، تلقّى المعزّ من الحاكم خُلَعًا وسجّلاً يضفي عليه اللّقب الفخري «شرف الدولة». ذلك أنّ الخليفة الفاطمي قد ضرب صفحًا عن المذابح التي لا بدّ أنّه كان على علمٍ منها وأثنى على نائبه دون

---

28) قال ابن ناجي : «والصواب عدم الصلاة عليه لأنه شهيد» ، (نفس المرجع).

29) **نقائش عربية** ، 1/عدد 204 ، ص 333 – 335.

30) **مناقب** محرز بن خلف ، ص 313.

31) نفس المرجع.

32) **الاستبصار** (الترجمة) ، 99 – 100. ويبدو أنّ هذا الرقم مبالغ فيه.

33) **نقائش عربية** ، 1/عدد 201 ، 203 ، 204 ، 207.

أن يوجّه إليه أدنى تأنيب. ومن المعلوم، والحقّ يقال، أنّ الحاكم لم يكن يتمتّع بكامل ملكاته العقلية. وبمناسبة وصول سجلّ التقليد الذي أصبح المعزّ بمقتضاه نائبًا للخليفة، «ركب الأمير بالبنود والطبول»[34].

إلاّ أنّ النّار لم تزل كامنة، ففي سنة 409 هـ / 20 ماي 1018 – 8 ماي 1019م «خرجت (من القيروان بدون شكّ) طائفة من الشيعة نحو مائتي فارس بعيالهم وأطفالهم، يريدون المهديّة للركوب منها إلى صقلّية، وبُعِثَت معهم خيل تشيّعهم. فلمّا وصلوا إلى قرية كامل[35] وباتوا بها، تنافر أهل المنازل عليهم، فقتلوهم وفضحوا بعض شوابّ النّساء ومن لها منهنّ جمال، ثمّ قتلوهنّ»[36]. إلاّ أنّه من الممكن أن تكون هذه الحادثة مجرّد عمليّة نهب. فقد شهدت إفريقيّة في تلك السنة مجاعة كبيرة و«حروب كثيرة»[37].

وحسب رواية المشرقي ابن تجري بردي[38]، وجّه «ابن باديس» تأنيبًا إلى الحاكم بسبب أعماله الجنونيّة. ويبدو أنّ الخليفة الرهيب، حرصًا منه على إرضائه، قد أبدى اهتمامًا واضحًا بالفقه، إلى درجة أنّه كان يضع كُتُبًا فقهيّة في أكمامه. ويقال إنه طلب إلى المعزّ أن يوجّه إليه فقيهَيْن لتدريس الفقه بالمسجد الجامع بالقاهرة، وبعد قدومهما أمر ذات يوم بقتلهما بدون محاكمة. ومن المستبعد أن يكون المعزّ قد أنّب الخليفة الفاطمي الذي أصبح يعامل المذهب المالكي معاملة حسنة.

«وفي سنة 411 هـ (قبل يوم 27 أفريل 1020م بقليل) ورد على المعزّ بن باديس أبو القاسم بن اليزيد، رسولاً من الحاكم بالله، بسيف مكلّلاً بنفيس الجوهر، وخلعة من لباسه لم يَرَ الناس مثلها، فلقيه شرف الدولة في أجمل زيّ وأكمل هيئة. فقُرِئَ عليه سجلّ فيه التشريف ما لم يصل لأحدٍ قبله فسُرَّ بذلك.

وفيها ورد أيضًا محمّد بن عبد العزيز بن أبي كدية بسجلّ آخر من الحاكم، جوابًا للمعزّ عمّا كان فيه من أخبار الأندلس وانقراض الدولة الأموية منها، وقيام القاسم بن حمّود فيها. فشكره على ذلك، وبعث إليه خمسة عشر عَلَمًا منسوجة بالذّهب، وركب المعزّ بن

34) البيان، 269/1، أنظر أيضًا: الكامل، 106/9؛ النويري، 136/2؛ ابن خلكان، 104/2–105؛ أعمال، 455–456؛ المؤنس، 81.

35) وهي قرية «منزل كامل» ألتيْ تقع بين القيروان والمهديّة، البكري، ص 29.

36) البيان، 269/1.

37) نفس المرجع.

38) نجوم، 1478/4.

باديس ، والأعلام المذكورة بين يديه يوم الأحد لِليلتَيْن بقيَتا من ربيع الآخر (27 ربيع الثاني / 20 أوت 1020م)[39].

وفي نفس تلك السّنة «وصل الخبر بوفاة الحاكم أمير مصر، وولّي الظاهر بعده»[40].

وفي سنة 414هـ/ 26 مارس 1023 — 14 مارس 1024 «وصل محمّد بن عبد العزيز [بن أبي كدية] من قِبَل الظاهر أمير مصر، بتشريف عظيم لشرف الدولة. فقُرِئت به سجلاّت ما وصل قبلها مثلها أجلّ حالاً ولا أعلى مقالاً. وزاده لقبًا إلى لقبه ، فسمّاه شرف الدولة وعضدها ، وبشّره بمولودَيْن وُلِدا له : أبو الطاهر وعبد الله أبو محمّد ، وبعث إليه مع ذلك ثلاثة أفراس من خيل ركوبه بسروج جليلة وخلعة نفيسة من نفيس ثيابه ، ومنجوقَيْن منسوجَيْن بالذّهب على قصب فضّة ، ما دخل إفريقيّة مثلها قطّ ، وعشرين بندًا مذهّبة ومفضّضة. فلقيها شرف الدولة وعضدها أجمل لقاء ، وأعطاها حقّها من الإكرام والاعتناء ، وقُرِئَت السّجلاّت بين يديه ، ثمّ قُرِئَت بجامع القيروان وأمر بنسخها ، وأُنْفِذَت إلى الآفاق ، فكان لها من السّرور ما لا يُوصَف»[41].

فكأنّما مجازر سنة 407هـ لم تكن سوى حلم خيالي ، وكأنّما إفريقيّة ما زالت على مذهب الشيعة أكثر من أيّ وقت مضى.

«وفي هذه السنة وصله [أي المعزّ] سجلّ آخر بزيادة لقب آخر تشريف لشرف الدولة ، وأمر أن يُكاتَب «من الأمير شرف الدولة وعضدها» ، ويُخَاطَب بمثل ذلك. فلقيه أحسن لقاء ، وخلع عليه وحمله. وجرت المكاتبة من ذلك الوقت بهذا التشريف الجليل»[42].

ولئن أمكن ، ولو جزئيًّا ، تفسير قبول الأمر الواقع بجنون الحاكم بأمر الله ، فمن الواجب أن نبحث عن أسباب أخرى لموقف الخليفة الظاهر. ولنذكر فيما يلي بعض الاعتبارات الكفيلة بتبرير العطف غير المتوقّع ، من قِبَل عاهلٍ تجاه نائبه الذي أبدى على مثل ذلك النّحو من الوحشيّة مَناهضته للمذهب الفاطمي.

فقد رأينا ، أنّه ، اعتمادًا على سكوت المصادر السنيّة ، بإمكاننا أن نؤكّد أنّ اضطهاد الشيعة ، على الأقلّ في شكله الدمويّ ، قد توقّف بعد سنة 409هـ/ 1018 — 1019م. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يمكننا تصديق ابن خلدون[43] الذي أكّد أنّ المعزّ

---

39) **البيان** ، 1/269 — 279.

40) نفس المرجع.

41) نفس المرجع.

42) **البيان** ، 1/271 — 272.

43) **العبر** ، 6/12 — 13.

قد قدّم اعتذاراته إلى الفاطميّين وألقى مسؤوليّة الاضطرابات على الرّعاع . وممّا لا شكّ فيه أنّ السلطة الزيريّة قد تولّت قمع التعصّب السنّي .

وفي موضع آخر[44] أكّد نفس المؤرّخ أنّ الخليفة قد أنّب نائبه في إفريقيّة تأنيبًا شديدًا على المجازر وأنّ وزيره الجرجرائي قد عمل على إرجاع الأمير الزيري إلى الجادة عن طريق التهديدات والإنذارات التي ردّ عليها المعزّ بالتهجّم على شرعيّة الخلفاء الفاطميّين. ومن سوء الحظ فإنّ ابن خلدون لم يذكر اسم الخليفة المعني بالأمر.

وبما أنّ مدّة وزارة الجرجرائي تمتدّ من 415 إلى 436 هـ / 1024 – 1045 م ، يحقّ لنا أن نتردّد بين الظاهر (411 – 427 هـ) والمستنصر (427 – 487 هـ) . وسنرى أنّ الأمر يتعلق على الأرجح بالمستنصر.

والجدير بالملاحظة في هذا الشأن أنّ الدعم الذي منحه الظاهر لخليفته في إفريقية قد أملته الانتهازيّة . ذلك أنّ الخليفة الفاطمي كان يعتبر أنّ سلطة بني زيري هي القوّة الوحيدة في إفريقيّة القادرة على التصدّي للتعصّب السنّي الحريص على التخلّص من الهيمنة الفاطمية الشيعية وقطع دابر ذلك المذهب المكروه . على أنّه لا ينبغي اتّهام الخليفة الظاهر بالميوعة في الميدان الديني ، وهو الذي أخرج من القاهرة فقهاء المالكيّة وغيرهم من أهل السنّة «وأمر الدعاة أنْ يحفّظوا الناس كتاب **دعائم الإسلام**[45] و**مختصر** الوزير يعقوب بن كلس»[46] .

ومن الجدير بالذكر أيضًا أنّ المعزّ كان له في ذلك التاريخ – حسب الاحتمال – نائب في القاهرة ، وهو بمثابة الممثّل أو وكيل الأعمال أو حتى السفير. وقد استدعاه الوزير عند حصول القطيعة .

وليس من المتأكّد أن تكون القصائد التي أشادت بالمعزّ باعتباره المحرّض على مجازر سنة 407 هـ ، معاصرة لتلك الوقائع . فهي غير مؤرّخة ، وربّما وُضِعت في مدّة القطيعة .

على أنّه إلى جانب القصائد التي استبشرت بتلك المذابح ، تشير بعض المصادر إلى وجود قصائد أخرى قد تألّمت منها . قال ابن الأثير: «وأَكْثَرَ الشعراءُ ذِكْرَ هذه الحادثة ، فَمِنْ فَرِحٍ مسرور ومِنْ بَاكٍ حزين»[47] . وبطبيعة الحال فإنّ المراجع السنيّة قد سكتت عن تلك الآثار ذات المصدر الشيعي .

---

44) نفس المرجع ، 159/6 .

45) [وهو كتاب «دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام» ، من تأليف القاضي النعمان] .

46) المقريزي ، 123/9 ؛ **الخطط** ، 169/2 ؛ **الاتّعاظ** (الذيل) ، 274 – 275 .

47) **الكامل** ، 123/9 .

وقد روى لنا ابن عذاري[48] – نقلاً لا محالة عن أبي الصلت – هذا البيت الذي جادت به قريحة القاسم بن مروان :

[وافر]

وسوف يُقَتَّلون بكلّ أرضٍ كما قُتِّلوا بأرض القيروان

وهذه الأبيات المجهولة المؤلّف :

[رمل]

يا معزّ الدين عِشْ في رفعةٍ وسرورٍ واغتباطٍ وجَذَلْ
أنتَ أَرْضَيْتَ النبيَّ المصطفى وعتيقًا في الملاعين السِّفَلْ
وجعلتَ القَتْلَ فيهم سُنّةً بأقاصي الأرضِ في كلّ الدُّوَلْ

وهذا البيت المجهول المصدر أيضًا :

[طويل]

وكانت لهم بالشرق نارٌ فأُطْفِئَتْ فما ملكوا بالكُفْرِ شرقًا ولا غَرْبَا

ولدينا من جهة أخرى قطعة هامّة[49] من قصيدة شهيرة حول مقتل «الكلاب» في محرّم، من نظم ابن الزنجي. ومن فضل هذه القصيدة أنّها معاصرة بدون شكّ لأحداث سنة 407 هـ / جوان 1016 م، فقد أشاد بها النحويّ أبو عبد الله بن جعفر القزّاز (المتوفّى سنة 412 هـ / 1021 – 1022 م).

ويحمل القول إنّ مذابح سنة 407 هـ تمثّل انفجار التعصّب الناتج عن تظافر أعمال بعض السّوقة المتوهّمين وبعض الفقهاء الأجلاّء. أما بالنسبة إلى دور الأمير الشابّ، المعزّ بن باديس، فيبدو أنّه كان لا فحسب زهيدًا ومُشَوَّهًا بواسطة الخرافات التي ظهرت فيما بعد، بل أنّ السلطة قد توصّلت إلى إرجاع الأمن إلى نصابه، فنالت رضى الخليفة الفاطمي الذي زاد في تقديرها. وسيشهد الصراع بين المالكية والشيعة فترة هدوء نسبي ستتواصل زهاء العشرين سنة إلى أن تلوح في الأفق بوادر القطيعة مع القاهرة.

---

48) **البيان**، 274/1.

49) النويري، 135/2 : أبو الحسن الكاتب المشهور باسم ابن الزنجي، 10 أبيات ؛ الصفدي، **الوافي**، ابن الزنجي الحسن بن علي الكاتب، 17 بيتًا.

الفصل الثّالث
الصّراع مع حمّاد بن بلكّين

حملة كرامة بالمغرب الأوسط[1] :

من الجدير بالتذكير أنّ المعزّ بن باديس بن المنصور قد وّجه عمّه كرامة بن المنصور إلى أشير في 4 ذي الحجّة 406 هـ / 4 ماي 1016م ، لانتداب جنود صنهاجيّين والرجوع بهم إلى المحمّدية (المسيلة).

وبينما كان كرامة في أشير مع الجنود الصنهاجيين والتلكاتيين ، إذ «أتاه حمّاد في ألف وخمسمائة فارس ، فتقدّم إليه كرامة بسبعة آلاف مقاتل. فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا ، فرجع بعض أصحاب كرامة إلى بيت المال ، فانتهبوه وهربوا ، فتمّت الهزيمة عليه وعلى أصحابه. ووصل إلى مدينة أشير، فأشار عليه قاضيها وأعيان أهلها بالمقام ومَنْع حمّاد عنها ، ففعل. ونازلهم حمّاد وطلب كرامة ليجتمع به ، فخرج إليه فأعطاه مالاً [3000 دينار] وأذن له في المسير إلى المعزّ.

وقتل حمّاد من أهل أشير كثيرًا ، حيث أشاروا على كرامة بحفظ البلد ومنع حمّاد منه. ووصل كرامة إلى المعزّ [يوم الأربعاء 19 محرّم 407 هـ / 28 جوان 1016م][2] ، فأكرمه وأحسن إليه»[3].

وبعد ذلك بأقلّ من شهر، أي يوم السبت 19 صفر 407 هـ / 28 جويلية 1016م ، عيّن المعزّ أيّوب بن يطّوفت عاملاً على المغرب بأسره[4].

1) **الكامل**، 106/9 ؛ النويري، 136/2 ؛ **العبر**، 171/6 ؛ **أعمال**، 455.
2) النويري، نظريًّا يوم الخميس.
3) **الكامل**، 106/9.
4) النويري، 136/2 : في نفس اليوم الذي عيّن فيه محمّد بن حسن.

حملة المعزّ ضدّ حمّاد[5] :

كان على المعزّ أن يستهلّ ولايته بتنظيم حملة عسكريّة ضدّ حمّاد الذي كان بصدد الاستيلاء على المغرب الأوسط . فبعد سنة واحدة من تاريخ رجوع كرامة إلى إفريقية ، أي على الأرجح يوم الخميس 20 صفر 408 هـ / 18 جويلية 1017م[6] ، تحوّل الأمير صحبة جنوده إلى رقّادة ، حيث تولّى تنظيم الحملة وتوزيع الرواتب على العساكر . وانطلق يوم 4 ربيع الأوّل 408هـ / 31 جويلية 1017م ، تاركًا إفريقية بين يَدَيْ نائبه العام محمّد بن حسن .

وكان حمّاد يحاصر باغاية[7] ، بعدما استولى على المسيلة وأشير ، فانضمّ الجنود التابعون لبعض القبائل والكتاميّون إلى المعزّ[8] . ولمّا اقترب الأمير من حمّاد ، رفع هذا الأخير الحصار عن باغاية . وتقدم إبراهيم أخو حمّاد من باب المدينة واستدعى أيّوب بن يطّوفت الذي لا شكّ أنّه كان قائد الحامية ، للتحادث معه . فلبّى أيّوب الدعوة وذهب لمقابلة إبراهيم الذي عاب عليه سلوكه قائلاً له : «إنّنا إخوة[9] وإن ما حدث كان بمشيئة الله» . ثمّ أضاف : «إننا خاضعون لطاعة مولانا المعزّ ، ونحن نرغب في إبرام الصلح على يديك . وإنّ حمّادًا يقرئك السلام ويقترح عليك أن ترسل إليه رجلاً ثِقَة ليتّصل به ويأخذ عليه العهود اللازمة لتهدئة الخواطر» . فاغترّ أيّوب بهذه الكلمات المعسولة واستدعى أخاه حمامة[10] وحبوس بن القاسم بن حمامة وأمرهما بمرافقة إبراهيم . ثم التحق بهما يسورين غلام أيّوب الذي كان يحبّه أكثر من أخيه . ولما وصلوا إلى معسكر حمّاد ، أنزلهم إبراهيم في «فازة السّلام» ، وذهب لإعلام أخيه حمّاد بوصولهم . وبإذن من هذا الأخير جرّد ذكنون بن حلا؟[11] حمامة

5) النويري ، 136/2 – 137 ؛ **الكامل** ، 106/9 – 107 ؛ **البيان** ، 269/1 ؛ أبو الفداء ، **التاريخ** ، 132/2 ، وقد اعتمد كتاب **الجمع والبيان** لابن شدّاد ، ويبدو أنّه قد لخّصه إلى أبعد حدّ .

6) النويري ، 136/2 ، وقد جاء في النصّ : «لسبعٍ بقين» ، وعوّضنا سبعة بتسعة . ذلك أنّ جداول المقابلة بين التاريخ الهجري والتاريخ الأعجمي تنصّ على ما يلي : السبت بالنسبة ليومي 22 و29 صفر 408 هـ والخميس بالنسبة ليوم 20 . وكثيرًا ما يقع الخلط بين 7 و9 في المخطوطات العربية . وربّما بسبب هفوة قلم ، جاء في **الكامل** ، 106/9 : «وسار المعزّ إلى حمّاد لثمانٍ بقين من صفر سنة ثمان وأربعمائة» .

7) **الكامل** ، 106/9 .

8) النويري ، 137/2 .

9) ذُكِرَت هذه الكلمة في النصّ بصيغة الجمع لا بصيغة المثنّى .

10) حسب النويري ، 137/2 ، وقد عوّضنا «جماعة» بحمامة .

11) النويري ، 137/2 ، لم نجد أيّ إشارة أخرى إلى هذا الشخص . فلعلّ كلمة «حلا» تحريف لكلمة «جلالة»؟

وحبوس من ثيابهما وألبسهما ثيابًا رثّة ثم أوثقهما بسلاسل غليظة ووجّههما إلى القلعة. واستدعى حمّاد يسورين وخاطبه قائلاً : «هذان الشخصان هما آبنا عمّي. أمّا أنت فما الذي أتى بك إلى هنا؟ إنك تريد أن تتبجّح بقولك : قال لي حمّاد... وقلت لحمّاد...». ثمّ أمر بقتل ذلك المسكين. فلما بلغت تلك الأخبار إلى المعزّ، سار إلى حمّاد وأصحابه وهجم عليهم.

«والتقوا آخر ربيع الأوّل 408 هـ [26 أوت 1017م] فاقتتلوا. فما كان إلاّ ساعة حتى انهزم حمّاد وأصحابه ووضع أصحاب المعزّ فيهم السيف وغنموا ما لهم من عدد ومال وغير ذلك. فنادى المعزّ : مَنْ أتى برأس فله أربعة دنانير، فأُتِيَ بشيء كثير وأُسِرَ إبراهيم أخو حمّاد، ونجا حمّاد، وقد أصابته جراحة وتفرّق أصحابه»[12].

وولّى المعزّ على جميع أقاليم المغرب عمّه كرامة الذي عيّن على رأس كلّ إقليم عاملاً من اختياره[13].

الصّلح بين حمّاد وبني زيري[14] :

وجّه حمّاد الذي عاد إلى القلعة رسولاً إلى المعزّ يسأل العفو ويطلب الصلح. «فأجابه المعزّ : إن كنتَ على ما قلته، فأرسل ولدك القائد إلينا. فعاد جواب حمّاد أنّه إذا وصله كتاب أخيه إبراهيم بالعلامات التي بينهم، أنّه قد أخذ له عهد المعزّ، بعث ولده القائد أو حضر هو بنفسه. فحضر إبراهيم وأخذ العهود على المعزّ وأرسل إليه يعرفه بذلك ويشكر المعزّ على إحسانه إليه»[15].

وإثر إبرام الاتّفاق، رجع المعزّ إلى عاصمته المنصوريّة يوم 30 جمادى الأولى 408 هـ / 24 أكتوبر 1017م، بعدما مرّ من سطيف وقصر التّين[16]. «ولما وصل أطلق عمّه إبراهيم وخلع عليه وأعطاه الأموال وجميع ما يحتاج إليه»[17]. فلمّا علم حمّاد بذلك أرسل ابنه

---

12) **الكامل**، 106/9.

13) نفس المرجع.

14) النويري، 137/2 – 138؛ **الكامل**، 106 – 107؛ **العبر**، 158/6، 172؛ **المؤنس**، 81؛ أبو الفداء، **التاريخ**، 132/2، نقلاً عن **الجمع والبيان** لابن شدّاد.

15) **الكامل**، 106/9.

16) نفس المرجع.

17) نفس المرجع.

القائد إلى المعزّ ، وكان وصوله يوم 15 شعبان 408 هـ / 5 جانفي 1018م[18] . فأغدق عليه المعزّ العطايا التي بلغت قيمتها – كما يقول ابن خلدون – نفس قيمة الهدايا التي جاء بها . «وأجرى عليه في إقامته كلّ يوم ثلاثة آلاف درهم وخمسة وعشرين قفيزًا شعيرًا لدوابّه ودوابّ أصحابه وخلع على أصحابه مائة خلعة وأعطاه ثلاثين فرسًا بسروج الذهب ، ومن الثياب ما لا يدخل تحت حصر»[19] .

وأصدر المعزّ منشورًا يقضي بتعيين القائد عاملاً على المسيلة وطبنة ومرسى الدجاج ببلاد زواوة ومقرة ودكمة وبلزمة وسوق حمزة (بويرة) وأعطاه بنودًا وطبولاً[20] . ولم يكن الأمر يتعلّق باقتسام المغرب الأوسط بين الأب وابنه . فبمقتضى الاتفاق المبرم مع حمّاد ، اعترف المعزّ بهذا الأخير ملكًا مستقلاً على المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت وكلّ أعمال المغرب الأوسط التي سيتمكّن من فتحها . ومن المرجّح أن يكون الأمير القائد هو وليّ العهد الذي سيخلف أباه بعد وفاته .

ومنذ ذلك العهد أصبحت دولة بني زيري منقسمة إلى فرعَيْن : فرع أحفاد باديس بن المنصور بالقيروان وفرع خلفاء حمّاد بن بلكين بالقلعة . وسوف يحكم بنو زيري الأصليّون في القيروان ويتركون المغرب الأوسط إلى بني حمّاد . وتبعًا لذلك ستتغيّر أهداف السياسة الإفريقيّة التي كانت مُوَجَّهة إلى حدّ ذلك التاريخ ، بصورة تكاد تكون تامّة ، نحو الغرب مهد الصنهاجيّين .

وفي 4 رمضان 408 هـ / 24 جانفي 1018م سار القائد إلى أبيه حمّاد وقدّم إليه شواهد الطاعة . كما أدّى زيارات متعدّدة إلى المعزّ[21] .

وأخيرًا فقد عزّز حمّاد والمعزّ الصّلح المبرم بينهما بالمصاهرة . ففي رجب 415 هـ / 8 سبتمبر – 17 أكتوبر 1024م زوّج المعزّ أخته العزيزة عليه أمّ العلوّ البالغة من العمر آنذاك 17 سنة ، والتي سهرت على تربيتها هي أيضًا عمّتها أمّ ملال ، لابن عمّه عبد الله بن حمّاد[22] .

---

18) النويري **والكامل**.

19) **المؤنس** ، ص 81.

20) النويري ، 138/2 ؛ **العبر** ، 158/6 ؛ أبو الفداء ، **التاريخ** ، 132/2. وفي **الكامل** ، 107/9 : «وأقطعه المسيلة وطبنة».

21) النويري ، 138/2.

22) **البيان** ، 272/1 – 273 ؛ **الكامل** ، 106/9–107 ؛ **العِبَر** ، 158/6 ؛ **شهيرات التونسيات** ، 45 – 47 ، [الطبعة الثانية ، 77 – 78].

وقد اُحْتُفِلَ بزفافهما في مواكب فخمة – كما أسلفنا – يومَيْ 1 و2 شعبان 415 هـ / 8 – 9 أكتوبر 1024 م.

وفي السنة الموالية، 416 هـ / 4 مارس 1025 م – 21 فيفري 1026 م، توفّي بالقيروان المنصوريّة بدون شكّ، أيّوب بن يطّوفت الذي قام بدور بارز في الصراع مع حمّاد. «وحضر جنازته شرف الدولة وعضدها، المعزّ بن باديس، بالبنود والطبول»[23].

وفاة حمّاد بن بلكّين[24]:

توفّي حمّاد بن بلكّين في رجب[25] سنة 419 هـ / 24 أوت 1029 م بتازمرت[26] في ضواحي القلعة، «وكان خرج متنزهًا فمرض ومات. وحُمِل إلى القلعة فدُفِن بها، وولّى بعده ابنه القائد وعظم على المعزّ موته»[27]، فوجّه تعازيه إلى القائد[28].

---

23) **البيان**، 273/1.

24) **أعمال**، 456، 461؛ **الكامل**، 147/9 – 148، وهو المصدر الوحيد الذي ذكر خطأ تاريخ 417 هـ، بسبب الالتباس المتكرّر بين 7 و9. **البيان** لم يذكر سنة 419 هـ بسبب نقص في النصّ بدون شكّ. أبو الفداء، **التاريخ**، 132/2.

25) **أعمال**، وهو المصدر الوحيد الذي ذكر الشهر والمكان. وقال أبو الفداء إنه توفّي في منتصف سنة 419 هـ، إلا أنّ رجب هو الشهر السابع من السنة.

26) ربّما هي بلدة تزملت الحالية التي تقع على بعد 30 كم جنوب غربي بجاية وعلى مسافة 8 كم قبل الوصول إلى بني منصور. انظر: **أعمال**، 456، الإحالة 5.

27) **الكامل**، 147/9.

28) حسب النويري فحسب. إذ أشار إلى أنّ المعزّ تلقّى خبر وفاة حمّاد في صفر 419 (الشهر الثاني من السنة). وهذا الأمر غير ممكن.

الفصل الرّابع
بنو حمّاد (430 – 438 هـ / 1038 – 1047 م)

وصف القائد ابن حمّاد[1] :

كان القائد ابن حمّاد وخليفته قويّ الشكيمة شديد البأس. لم يتردّد في قتل ابنه زيري ذاته، لسببٍ لا نعلمه من سوء الحظّ. وقد عيّن أخاه يوسف واليًا على المغرب وأخاه الآخر ويغلان[2] عاملاً على حمزة (بويرة).

الحرب بين القائد وزناتة فاس[3] :

في سنة 430 هـ / 30 أكتوبر 1038 – 22 سبتمبر 1039 م قام الأمير المغراوي حمامة الذي كان يحكم فاس خلفًا عن أبيه المعزّ بن زيري بن عطيّة، بهجوم على القائد الذي قدم إلى ملاقاته. ووزّع خفيةً مبالغ مالية طائلة على الجنود الزناتيين. ولمّا علم حمامة بذلك[4] خشي تخلّي أولئك الجنود عنه، فرجع إلى فاس بعدما طلب الصلح من القائد واستسلم له.

الحرب بين القائد والمعزّ[5] :

وفي سنة 432 هـ / 11 سبتمبر 1040 – 30 أوت 1041 م «خالف أولاد حمّاد على المعزّ بن باديس صاحب إفريقية وعادوا إلى ما كانوا عليه من العصيان والخلاف عليه. فسار

---

1) **أعمال**، 461 ؛ **العِبَر**، 172/6 ؛ ابن حزم، **نقط**، 237.
2) **العِبَر**، «ريعلان». ولعله عمّ القائد الذي أشار إليه النويري، 142/2 : «فألان أو نغلان».
3) **العِبَر**، 172/6 ؛ **تاريخ المغرب**، 190/1.
4) أنظر حول ولاية هذا الأمير الزناتي : **مفاخر**، 42 ؛ **البيان**، 254/1.
5) **العبر**، 158/6 ؛ **البيان**، 275/1 ؛ **الكامل**، 205/9، 18/10 – 19 ؛ النويري، 139/2.

إليهم المعزّ وجمع العساكر وحشدها وحصر قلعتهم المعروفة بقلعة بني حمّاد، وضيّق عليهم وأقام عليهم نحو سنتَيْن»[6].

وفي سنة 434هـ/ 21 أوت 1042 – 9 أوت 1043م، اضطرّ القائد في آخر الأمر إلى إبرام الصلح مع ابن عمّه ورجع المعزّ إلى إفريقيّة[7].

كما أخبرنا مؤرّخ المعزّ الرسمي، ابن شرف[8] أنّ الفقيه الوَرِع أبا القاسم بن أبي مالك الذي كان يقيم في ضواحي قلعة بني حمّاد قد قدم إلى القيروان في سنة 438هـ/ 8 جويلية 1046 – 27 جوان 1047م بوصفه سفيرًا للقائد ابن حمّاد. وقد أثّرت فصاحته وفطنته تأثيرًا بليغًا في السلطان الذي أُعجِبَ به شديد الإعجاب. وطوال مدّة إقامته بالقيروان خلال تلك السفارة، عاش ذلك المبعوث النّزيه من ماله الخاصّ دون سواه.

6) **الكامل** (المرجع المذكور).

7) حسب ابن خلدون، **العبر**، 172/6، بعدما أبرم المعزّ الصلحَ مع القائد، توجّه إلى مدينة أشير لمحاصرتها قبل عودته. ولكنّ النصّ غير واضح.

8) **مدارك القاضي عياض**، 2 – 3/ صفحة 353 (القفا). وقد استشهد المؤلف **بتاريخ ابن شرف**.

الفصل الخامس
المعزّ وزناتة

هَيَجان زناتة :

بعد إبرام الصّلح مع حمّاد، اضْطُرّ المعزّ إلى التصدّي لبعض القبائل البربرية وبالخصوص زناتة التي أصبحت تنذر بالخطر أكثر فأكثر في الجنوب الشرقي من البلاد. ذلك أنّ القائد الزناتي خليفة بن ورّو الذي كان قد استسلم لباديس، قد ثار ضدّ خليفته المعزّ وسمح لأخيه حمّاد بن ورّو، حتى سنة 413هـ/ 6 أوت 1022 – 25 مارس 1023م، بالقيام بغارات في أراضي قابس وطرابلس. ففي سنة 411هـ/ 27 افريل 1020 – 16 أفريل 1021م قام الزناتيّون بعمليّة سطو للاستحواذ على دوابّ المعزّ، فهزمهم عامل قابس. ويبدو أن ضرورة التصدّي للزناتيّين لم تكن غريبة عن عزل وزير المعزّ.

قتل الوزير محمّد بن الحسن[2] :

منذ ارتقاء المعزّ إلى العرش، كان وزيره وصاحب جيشه أبو عبد الله محمّد بن الحسن هو الحاكم بأمره في إفريقية. «فقد أقام سبع سنين لم يحمل إلى المعزّ من الأموال شيئًا، بل يجبيها ويرفعها عنده، وطمع طمعًا عظيمًا لا يصبر على مثله بكثرة أتباعه»[3]. وكان أخوه عبد الله عامل طرابلس يحمي الزناتيّين، «وهم أعداء دولته». وبينما كانت موارد الدولة تنقص شيئًا فشيئًا، كانت ثروة الوزير المطلق السلطة تزداد أكثر فأكثر، وكانت منازله الكثيرة العدد تشبه قصور الملوك. «فصار المعزّ لا يكاتب ملكًا ولا يراسله إلاّ ويكتب أبو عبد الله معه عن نفسه»[4]. وكان الوزير يوجّه الهدايا إلى كبار رجال الدولة في مصر، وكانوا يعاملونه بالمثل،

1) **الكامل**، 134/9؛ **العبر**، 42/7.
2) النويري، 138/2؛ **الكامل**، 136/9؛ **العبر**، 42/7 – 43.
3) **الكامل**، 136/3.
4) نفس المرجع.

حتى أنه تلقّى سجّلاً رسميًا من البلاط المصري. ومن المحتمل أن يكون محمّد بن الحسن قد حظي بثقة الخليفة الفاطمي ، لأنّه كان يخدم سياسته التي كانت تعتمد أيضًا على الزناتيّين ، كما سنرى ذلك فيما بعد.

وبناءً على ذلك فقد قرّر المعزّ البالغ من العمر آنذاك حوالي خمس عشرة سنة ، التخلّص من تلك الوصاية الشديدة الوَطْأة. فكلّف أحد رجال حاشيته بأن يعرض على الوزير الانسحاب ، مع كلّ ما يملكه من منقولات وعقارات. ولكن المعني بالأمر لم يستجب لتلك الدعوة واستمرّ في عمله. ولا بدّ أن الدّسائس والوشايات قد فعلت مفعولها هي أيضًا. وحسب رواية خياليّة أكثر منها تاريخيّة ، يقال إن محمّد بن الحسن قد حكى قبل وفاته بشهرين أنه رأى في المنام عبد الله بن محمّد الكاتب الذي أخبره سجعًا وشعرًا بقرب وفاته[5].

وبالفعل ، فقد قتله المعزّ بن باديس يوم 7 ربيع الثاني 413 هـ / 11 جويلية 1022 م وأمر بمصادرة أملاكه وأمواله وجميع رجاله. وقلّد أبا القاسم بن محمّد بن أبي العرب سيفه ذاته وأخرجه بالطبول والبنود وولاّه على إفريقيّة بأسرها[6]. وقد نُقِش اسم هذا الشخص على واجهة مقصورة جامع عقبة الشهيرة بالقيروان على النحو التالي : «زمام الدولة أبو القاسم بن أبي عبّود الكاتب». ولا شكّ أن الأمر كان يتعلّق بوزير باديس السّابق[7].

إلاّ أنّ المعني بالأمر لم يمارس مهامّه مدّة طويلة. «فقد فوّض الأمير شرف الدولة (المعزّ) جباية الأموال وولاية العمّال والنظر في العساكر وسائر الأشغال لأبي البهار بن خلوف ، يوم الثلاثاء ، لخمسٍ بقين من جمادى الأولى 414 هـ [15 أوت 1023 م]»[8]. والجدير بالتذكير أنّ هذا الشخص كان من بين الذين أبلوا البلاء الحسن في قمع اضطرابات سنة 407 هـ[9]. «فحسُنَتْ الأمور، وضُبِطَتْ الأطراف والثغور، واستقام التدبير، ورأى الأمير شرف الدولة من حزمه وكفايته وعزمه وشهامته ، ما لم يقم به غيره ، ولا وُجِدَ عند سواه بِوَجْهٍ»[10].

---

5) نفس المرجع.
6) النويري.
7) إدريس ، مجلة أرابيكا ، 214/1956 – 215.
8) البيان ، 272/1 ، نظريًّا يوم الخميس.
9) أنظر الفصل الثاني من هذا الباب.
10) البيان ، 272/1.

ثورة عامل طرابلس[11] :

«لمّا وصل خبر قتل الوزير محمّد بن الحسن إلى أخيه بطرابلس، بعث إلى زناتة فعاهدهم وأدخلهم مدينة طرابلس، فقتلوا من كان فيها من صنهاجة وسائر الجيش وأخذوا المدينة»[12] واستقرّ خليفة بن ورّو في قصر عبد الله بن الحسن، بعدما طرده وصادر أملاكه واستولى على حرمه. «فلمّا سمع المعزّ ذلك أخذ أولاد عبد الله ونفرًا من أهلهم فحبسهم. وقد تمكّن محمد بن وليمة[13] فيما بعد من القبض على عبد الله بن الحسن، فأرسله إلى المعزّ الذي زجّ به في السجن. وقد طالب نساء وأبناء الصنهاجيّين المقتولين بطرابلس الأخذ بثأر موتاهم، فقتل المعزّ جميع أبناء محمّد بن الحسن الذين كانوا في قبضته.

الاستعدادات لمحاربة الزناتيّين[14] :

«وفي سنة 414هـ [26 مارس 1023 – 14 مارس 1024م] وردت الأخبار وتتابعت بإفريقية بأن خليفة بن ورّو ومن معه رموا في البحر مراكب كثيرة، وانهم رحلوا من طرابلس في طلب الفتوح بن القائد. وقد كان كاتب شرف الدولة المعزّ بن باديس في الانحياش إليه والدخول في طاعته، فأعطاه مدينة نفطة من عمل قسطيلية.

«فخرج شرف الدولة، فاجتاز سوسة، ثم إلى المهدية، وذلك يوم الخميس لأربعٍ خلونَ من المحرّم[15] [29 مارس 1023م]. وأمر بالنداء في حشد البحريّين، وكتب أن يلحق به كلّ من يتخلّف عنه من عساكره، ليكون رحيله من المهديّة إلى صفاقس ثم إلى قابس، قاصدًا إلى طرابلس. وأمر بالاحتفاز في إصلاح القطائع وعمارة دارة الصناعة.

«وأخذ في إنشاء العُدَد الحربيّة، فأُنشِيءَ منها في المدّة القريبة ما لم يتمّ مثله في الزمن البعيد. ثم رأى الوصول إلى المنصوريّة ليأخذ الناس عُدَدَهم وما يحتاجون إليه. فكان وصوله

---

11) **الكامل**، 136/9؛ النويري، 139/2؛ **العبر**، 43/7.

12) **الكامل**، 136/9. أنظر أيضًا : **العبر**، 43/7.

13) لعلّ هذا الشخص هو الذي أطلقت عليه بعض المصادر اسم «لصوية» وقالت إنه كان عاملاً على القيروان في سنة 407هـ. أنظر الفصل الثاني من هذا الباب.

14) **البيان**، 270/1.

15) نفس المرجع، نظريًّا يوم الجمعة.

يوم الاثنين لستٍّ بقين من المحرّم من العام [18 أفريل 1023م] »[16]. ويبدو أنّ هذا القرار الذي يمكن تفسيره – بالرغم من حرص المعزّ على الإسراع بتنفيذه – بالمدّة اللازمة لإتمام الاستعدادات، قد أملته بعض الأسباب الأخرى المستعجلة ذات الصبغة العائلية والسياسية، بل حتى الاقتصاديّة. ذلك أن المعزّ كان مضطرًّا إلى عيادة عمّته ووصيّته العزيزة عليه أمّ ملال المريضة آنذاك، وقد توفّيت إثر مرض عضال آخر رجب 414هـ/ 18 أكتوبر 1023م[17]. وكان قبل ذلك بشهرين قد ظفر أخيرًا بوزيرٍ كامل الشروط، في شخص الرجل الحازم أبي البهار بن خلوف. ومن ناحية أخرى، فقد شهدت إفريقيّة مجاعة عظيمة في السنة السابقة (413هـ/ 6 افريل 1022 – 25 مارس 1023م)[18]. فلا غرابة حينئذٍ إذا ما قرّر المعزّ العدول عن تنفيذ مشروعه المتعلّق بالهجوم على طرابلس.

وإذا كان الدينار المُودَع في متحف باردو [بتونس][19] والمضروب بطرابلس سنة 415هـ/ 1023 – 1024م، قد ضُرِبَ فعلاً في طرابلس الغرب لا في طرابلس الشام، يمكننا أن نؤكّد أنّ خليفة بن ورّو قد سكّ نقودًا فاطمية بطرابلس في ذلك التاريخ. ومن المعلوم أنّ الحاكم بأمر الله قد اختفى في ظروف غامضة في سنة 411هـ. وقد استخلص من ذلك الباحث الذي نشر تلك القطعة النقدية أنّ الزناتيّين الظاعنين في أرض طرابلس كانوا لا يعترفون بالخليفة الفاطمي الجالس على العرش آنذاك، وهو الظاهر، ويعتبرون أنّ الحاكم بأمر الله هو إمامهم الأخير. وتبدو هذه الظاهرة غريبة ولكنّها غير مستبعدة.

هَيَجان زناتة :

«وفي هذه السنة (415هـ/ 15 مارس 1024 – 3 مارس 1024م) خرج بإفريقيّة جمعٌ كثيرٌ من زناتة، فقطعوا الطريق وأفسدوا بقسطيلية ونفزاوة، وأغاروا وغنموا، واشتدّت شَوْكتهم، وكَثُرَ جَمْعُهُم»[20]. ولم يذكر لنا ناقل هذا الخبر هل أنّ خليفة بن ورّو قد قام

---

16) نفس المرجع.

17) نفس المرجع.

18) **الكامل**، 136/9 : «وفيها كان بإفريقية غلاء شديد ومجاعة عظيمة لم يكن مثلها في تعذّر الأقوات».

19) فاروجيا، **المجلة التونسية**، 1936/338 – 340 و 105/1948.

20) **الكامل**، 141/9.

بدور في هذه القضية التي تبدو بالغة الخطورة. «فسيّر إليهم المعزّ بن باديس جيشًا وأمرهم أن يجدّوا السير ويسبقوا أخبارهم. ففعلوا ذلك وكتموا خبرهم وطوَوْا المراحل حتى أدركوهم وهم آمنون من الطلب. فوضعوا فيهم السيف، فقتل منهم خلق كثير وعلّق خمسمائة رأس في أعناق الخيول وسُيِّرَت إلى المعزّ وكان يوم دخولها يومًا مشهودًا»[21].

إبرام الصلح مع زناتة[22]:

وفي سنة 417هـ/ 22 فيفري 1026 — 10 فيفري 1027م تحصّل خليفة بن ورّو من الخليفة الظاهر على إقراره على رأس الولاية التي استولى عليها. وفي المقابل تعهّد بالمحافظة على السيادة الفاطميّة في تلك المنطقة والسهر على أمن الطرقات وتوفير الحرس لخفر القوافل. وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا الاتّفاق قد أغضب المعزّ. ولكن في نفس تلك السنة وجّه إليه خليفة بن ورّو الذي كان حريصًا على تعزيز تأميناته، أخاه حمّاد الذي سلّم إليه هديّة ثمينة. فأهدى المعزّ إلى ضيفه، تعبيرًا له عن رضاه، هديّة لا تقلّ قيمة عن الهديّة التي تسلّمها[23].

وفي نفس تلك السنة أيضًا — ولكنّنا لا ندري هل تمّ ذلك قبل أو بعد إبرام الاتّفاق — «وردت رُسُلُ زناتة وكتامة إلى المعزّ بن باديس يطلبون منه الصلح وأن يقبل منهم الطاعة والدخول تحت حكمه، وشرطوا أنهم يحفظون الطريق وأعطوا على ذلك عهودهم ومواثيقهم، فأجابهم إلى ما سألوا. وجاءت مشيخة كتامة إليه فقبلهم وأنزلهم ووصلهم وبذل لهم أموالاً جليلة»[24].

إلاّ أنّ السّلم لم تدم طويلاً. ففي سنة 420هـ/ 20 جانفي 1029 — 8 جانفي 1030م «زحفت جموع زناتة تريد حضرة القيروان، طمعًا في الملك. فبلغ ذلك المعزّ، فجمع عساكره وسار إليهم بنفسه، فالتقوا بموضع يُعرَف بجمديس الصابون ووقعت الحرب بين الطائفتين واشتدّ القتال، فانهزمت زناتة وقتِل منهم خلق كثير وفرّ باقيهم إلى الغرب. وعاد المعزّ ظافرًا غانمًا»[25].

---

21) نفس المرجع.

22) **الكامل**، 147/9؛ **العبر**، 43/7.

23) لقد أنهى ابن خلدون الفقرة المذكورة كما يلي: «إلى هنا تنتهي رواية ابن رشيق حول عائلة بني خزرون وتبتدئ رواية ابن حمّاد وغيره من المؤرّخين».

24) حسب **الكامل** فحسب.

25) **البيان**، 274/1 و**الكامل**، 157/9.

وفي سنة 423 هـ / 19 ديسمبر 1031 – 16 ديسمبر 1032م «كان بين أهل تونس من إفريقية خلف، فسار المعزّ بن باديس إليهم بنفسه فأصلح بينهم وسكّن الفتنة وعاد»[26].

«وفيما اجتمع ناس كثير من الشيعة بإفريقية، وساروا إلى أعمال نفطة، فاستولوا على بلد منها وسكنوه، فجرّد إليهم المعزّ عسكرًا، فدخلوا البلاد وحاربوا الشيعة وقتلوهم أجمعين»[27].

واستمرّ بنو خزرون من جهتهم في ضرب السكّة، فقد عُثِر على دينار ضُرِب بطرابلس الغرب سنة 425 هـ / 1033 – 1034م وربُع دينار من نفس الصنف[28]. ولكنّ العبارات المنقوشة على القطعتين، وهي : «أبو بكر وعمر وعثمان وعلي» و«لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله»، تكتسي صبغة مضادّة للفاطميين بصورة صريحة. فيبدو أنّ الأمير الزناتي خليفة بن ورّو الذي ثار على المعزّ التابع للظاهر، قد خرج في نفس الوقت عن طاعة الخليفة الفاطمي. فهل أنّ القطيعة التي حصلت بين بني خزرون والقاهرة قد شجّعت المعزّ شيئًا ما على قطع الدّعوة للفاطميّين؟ بالرغم من أنّ هذا الاحتمال مشكوك فيه، فإن المسألة يجب أن تُطرَح.

وفي سنة 427 هـ / 5 نوفمبر 1035 – 24 أكتوبر 1036م «اجتمعت زناتة بإفريقية وزحفت في خيلها ورجلها يريدون مدينة المنصوريّة، فلقيهم جيوش المعزّ بن باديس بموضع يقال له الجفنة[29] قريبًا من القيروان، فاقتتلوا قتالاً شديدًا وانهزمت عساكر المعزّ، ففارقت المعركة ووصلت إلى ما بين المنصوريّة والقيروان. ثمّ تلاقوا في الغد من ذلك اليوم وحرّض بعضهم بعضًا، فصبرت صنهاجة وانهزمت زناتة هزيمة قبيحة وقُتِل منهم عدد كبير وأُسِرَ خلق عظيم. وتُعرَف هذه الوقعة بوقعة الجفنة، وهي مشهورة لعظمها عندهم»[30].

وفي السنة الموالية (428 هـ / 25 أكتوبر 1036 – 13 أكتوبر 1037م)، «عاود المعزّ بن باديس حرب زناتة بإفريقية فهزمهم وأكثر القتل فيهم وخرّب مساكنهم وقصورهم»[31].

---

26) **الكامل**، 178/9.

27) نفس المرجع.

28) فاروجيا، **المجلة التونسية**، 1936/ 338 – 339، 1937/93 – 94، 1948/ 105 – 106.

29) هنشير الجفنة أو بير الجفنة في الخريطة.

30) حسب **الكامل**. أما في **البيان** (275/1) فقد جاء ما يلي : «فثبتت صنهاجة وثبتت زناتة». (وربّما كان هذا النصّ مبتورًا).

31) **الكامل**.

وفي سنة 429 هـ / 14 أكتوبر 1037 — 2 أكتوبر 1038م «سارت عساكر المعزّ بن باديس بإفريقية إلى بلد الزّاب، ففتحوا مدينة تسمّى بورس[32] وقتلوا من البربر خلقًا كثيرًا وفُتِحَ من بلاد زناتة قلعة تسمّى كروم»[33].

قضيّة طرابلس[34] :

لم نعثر في النصوص على أيّ أثر لخليفة بن ورّو بعد سنة 417 هـ / 22 فيفري 1026 — 10 فيفري 1027م. وقد أخبرنا ابن خلدون أنّ ابنَيْ خزرون، المنتصر وسعيد قد استقرّا في ضواحي طرابلس بعدما أجلى المرتزقة الأتراك منافسيهم المغاربة من مصر، وكانوا في معظمهم من كتامة. وذات يوم، ربّما بعد وفاة خليفة بن ورّو — ولكنّنا لا ندري متى ولا كيف تمّ ذلك — أصبح سعيد بن خزرون صاحب طرابلس، وقد حكمها حتى وفاته سنة 429 هـ / 14 أكتوبر 1037 — 2 أكتوبر 1038م. وحسب التّجاني «فقد قتلته زغبة»[35]. وعند نقله لهذا الخبر لاحظ ابن خلدون بحقّ أنّ بني هلال الذين تنتمي إليهم قبيلة زغبة لم يدخلوا إفريقية إلاّ سنة 440 هـ / 1048 — 1049م (والواقع أنهم دخلوا في سنة 442 على أقلّ تقدير). واستنتج مؤرّخنا من ذلك أنّ فرعًا من فروع تلك القبيلة قد كان موجودًا في منطقة طرابلس قبل سنة 442 هـ.

وقد رأينا أنّ بني قرة التابعين لقبائل بني هلال قد قدموا إلى طرابلس صحبة يحيى بن علي بن حمدون في سنة 392 هـ / 1001 — 1002م، ولكنّهم عادوا إلى برقة فيما بعد. فهل كان من بينهم بعض أنفار من قبيلة زغبة قد مكثوا هناك؟ ولربّما ارتكب التّجاني خطأً تاريخيًّا، لأنّ منطقة طرابلس ومدينة قابس قد كانتا من نصيب زغبة أثناء غزوة بني هلال. وفي موضع آخر[36] أكّد ابن خلدون أنّ رجال زغبة الذين كانوا كثيري العدد وأقوياء قد استولوا، عند دخولهم إلى إفريقية، على ضواحي طرابلس وقابس وقتلوا أمير طرابلس المغراوي سعيد بن خزرون.

---

32) نفس المرجع، (وحسب النّويري قورس).
33) نفس المرجع، (حسب النويري، كردوم أو كردون).
34) **العبر**، 43/7 ؛ **رحلة التجاني**، ص 267.
35) **الرحلة**، ص 267.
36) **العبر**، 40/6.

ومهما يكن من أمر فإن الفقيه أبي الحسن علي بن محمّد بن المنمّر[37] هو الذي حكم طرابلس مدّة قصيرة من الزمن إثر مقتل سعيد بن خزرون.

«فقد فتح أبو الحسن بن المنمّر مدينة طرابلس لخزرون بن خليفة، فدخلها وأقام بها أشهرًا، ثم لما كان شهر ربيع الأوّل من سنة ثلاثين (ديسمبر 1038) وصل المنتصر بن خزرون وكانت معه عساكر زناتة، ففرّ خزرون بن خليفة من طرابلس مختفيًا وترك له البلد، فدخل المنتصر وأوقع بأبي الحسن مكروهًا عظيمًا ونفاه من البلد واستباح جميع أملاكه وعذّب كثيرًا من أقاربه بسببه»[38].

فالتجأ الفقيه المسكين إلى بلدة غنيمة من بلاد مسلاتة حيث أدركته المنيّة بعد ذلك بسنتين.

وأشار ابن خلدون إلى أنّ المعزّ قد وجّه ثلاث حملات عسكريّة ضدّ زناتة «في أعوام ثلاثين وأربعمائة»[39]. فقد توجّه الزناتيّون الظاعنون بأرض طرابلس أثناء الحملة الأولى نحو المعزّ الذي قدم لمحاربتهم. «فبرزوا إليه وهزموه وقتلوا عبد الله بن حمّاد الصنهاجي وسبوا أخته أمّ العلوّ بنت باديس ثم أطلقوها بعد حين إلى أخيها»[40].

ويمكن تفسير وجود عبد الله بن حمّاد الذي ربّما كان قائدًا للجيش الصنهاجي، بالعلاقات الممتازة التي كانت قائمة بين بني زيري وبني حمّاد، منذ إبرام معاهدة سنة 408 هـ / 1017 – 1018م.

وبعد ذلك ردّ الزناتيّون هجومًا صنهاجيًّا ثانيًا، ولكنّهم انهزموا أثناء الهجوم الثالث، فاستسلموا وأبرموا معاهدة صلح مع المعزّ.

---

37) حول هذا الفقيه، أنظر: ادريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1954/ 153 – 155.

38) رحلة التجاني، 267.

39) العبر، 43/7.

40) المرجع المذكور.

قضيّة جربة[41] :

وهجم الثوّار الزناتيّون أيضًا على جزيرة جربة. في سنة 431 هـ / 23 ديسمبر 1039 – 10 ديسمبر 1040م، انطلقت جيوشٌ **مارقة**[42] من الجنوب التونسي (طرابلس وجبل نفوسة)، وعلى رأسها القائد النكاري، لفتح جربة. وربّما يرجع أحدُ الأسباب الرئيسية لذلك الهجوم إلى الجفاف الذي اكتسح تلك المنطقة في السنة السابقة.

«ووصل الثائر النكاري إلى جربة وافتتحها وقتل من أراد من أهلها وسبى ذراريهم وأسر ابن كلدين مقدّمهم ثم قتله وصلبه. فجهّز إليه المعزّ أسطوله وقتل أصحابه قتلاً شنيعًا واستقرّت جربة تحت طاعته»[43].

قضيّة درجين[44] :

حسب مؤلّف السِّيَر الاباضي الشمّاخي، استولى الصنهاجيّون على قلعة درجين الواقعة في أقصى ناحية غربية من منطقة قسطيلية، بعد حصار طويل، وقتلوا 1500 شخصًا من الخوارج من بينهم عدد كبير من المشائخ. وكان على رأس الجيش الصنهاجي قائدٌ اسمُه «قطار؟»[45].

ومن ناحية أخرى قال ابن عذاري في هذا السياق ما يلي: «وفي سنة 433 (31 أوت 1041 – 20 أوت 1042) وصل الأمير نزار بن المعزّ إلى الحضرة، قافلاً من سفره الذي هزم فيه زناتة. فأنشده ابن شرف قصيدته التي أوّلُها :

[كامل]

طَلَعَتْ من الغربيّ شمسُ الدين   بـالسّعـد والإقبـالِ والتمكين»[46]

---

41) **رحلة التجاني**، ص 125؛ الشماخي، 372 – 373.

42) **البيان**، تحقيق دوزي «جيوش مالقة»، ونفس المرجع، تحقيق كولان وليفي بروفنسال «جيوش مالطة». وقد اقترحنا «جيوشٌ مارقة».

43) **رحلة التجاني**، ص 125.

44) الشماخي، 466 – 467.

45) نفس المرجع.

46) **البيان**، 276/1.

ومن المعلوم أنّ الأمير الشابّ قد وُلِدَ في سنة 417 هـ / 22 فيفري 1026 – 10 فيفري 1027م[47]. فإذا كان ابن عذاري قد أشار، حسبما ذهبنا إليه، إلى قضيّة درجين، فإن القائد غير المعروف الذي أطلق عليه الشمّاخي اسم «قطار» ربّما لم يكن شخصًا آخر غير الأمير نزار بن المعزّ.

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ مصادرنا الاباضية لم تتحدّث عن استسلام الخوارج، بل بالعكس من ذلك تنبّأت بعقاب المعزّ في القريب العاجل من طرف الأمير الهلالي مؤنس بن يحيى المرداسي الصّنبري الذي سيدمّر مملكته ويطرده من القيروان والمهديّة[48].

ونلاحظ من خلال ذلك أنّ الزناتيّين الخوارج الذين تعرّضوا لأقسى أنواع القمع، بل الذين استسلموا بصورة وقتيّة، قد كانوا يرون أنّ بني هلال هم الذين سيأخذون بثأرهم. وبناءً على ذلك فإنّ الصنهاجيّين يكونون أغبياء، لو اعتمدوا أثناء معركة حيدران المقبلة على عدوّهم اللّدود.

الحملة العسكريّة ضدّ لواتة[49]:

لقد أحرز المعزّ بن باديس انتصارًا باهرًا أيضًا ضدّ لواتة. فقد أخبرنا ابن عذاري بما يلي:

«وفي سنة 437هـ (19 جويلية 1045 – 7 جويلية 1046م) وردت رُسُل المعزّ إلى القيروان تخبر أنه أوقع بلواتة وقتل منهم عددًا وغنم منهم أموالاً. فضُرِبَت الطبول على ذلك. وفي ذلك يقول ابن شرف قصيدة أوّلها:

[منسرح]

بـاليُمْـنِ والسعـد عُـدَّ وبـالظفرِ مُـوَفَّـقَ الـورْدِ غانمَ الصّدر»[50]

---

47) نفس المرجع.

48) الشماخي، 372 – 373. وقد صحّحنا «مؤنس» عوض «يونس». وفي كتاب أبي الربيع أطلق على هذا الشخص اسم موسى بن يحيى الطنبري وهي قراءة خاطئة.

49) **البيان**، 276/1.

50) نفس المرجع.

الفصل السّادس
المعزّ والبحر الأبيض المتوسّط

لقد أصبحت شؤون البحر الأبيض المتوسّط تكتسي أهميّة أكبر فأكبر، إثر تولية المعزّ بن باديس الذي هو أوّل ملك إفريقي صميم من ملوك بني زيري، ومنذ انتهاء محاولات التوسّع الصنهاجي في المغرب. كما أصبحت أساطيل بني زيري تواجه بيزة وجنوة على وجه الخصوص، إلى أن احتلّ النرمان جزيرة صقليّة. ففي سنة 1020م (411هـ) انطلق أسطولٌ من المهديّة وعاث فسادًا في جنوب إيطاليا، ولكن عند عودته تمكّن بعض رعايا بيزة وجنوة من الاستيلاء على غنائمه[1].

ومن المعلوم أيضًا أنّ إمبراطور الرّوم بازيل الثاني قد نظّم حملة عسكريّة ضدّ قلبريّة تكلّلت بالنجاح. ثمّ تعزّز الجيش الذي قام بتلك الحملة وكان من المقرّر أن ينزل في صقليّة التي كان يحكمها الأكحل. ولكنّ وفاة الإمبراطور في ديسمبر 1025 قد حالت دون تنفيذ ذلك المشروع[2].

وفي سنة 416هـ / 4 مارس 1025 – 21 فيفري 1026م، حسب رواية ابن الأثير[3] «بلغ ذلك المعزّ بن باديس، فجهّز أسطولاً كبيرًا بأربعمائة قطعة وحشد فيها وجمع خلقًا وتطوّع جمع كثير بالجهاد رغبةً في الأجر. فسار الأسطول في كانون الثاني (جانفي 1026)، فلما قرب من جزيرة قوصرة[4] – وهي قريبة من برّ إفريقية – خرج عليهم ريح شديدة ونوء عظيم، فغرق أكثرهم ولم يَنْجَ إلا اليسير».

ولم يشكّ أماري في صحّة هذه الرواية، إذ أنّه يفترض أنّ الأكحل قد استنجد بالمعزّ بن باديس، وذلك بالإضافة إلى طموح الأمير وتحمّس الإفريقيّين للجهاد. والغريب في الأمر أنّ أيّ مصدر عربي آخر لم يؤكّد رواية ابن الأثير. ومن ناحية أخرى فإنّ هذه الكارثة تذكّرنا

1) دي ماس لاتري، **المقدّمة**، 8.
2) **ستوريا**، 422/2–423؛ لويس، **القوة البحرية**، 194.
3) **الكامل**، 145/9.
4) [المعروفة باسم جزيرة بنتلاريا].

إلى حدّ كبير بالحادثة التي جدّت في ظروف مماثلة بعد ذلك بمدّة طويلة[5]. اللهمّ إلاّ إذا كانت الحادثة الأخيرة هي نفس الحادثة التي نتحدث عنها الآن، وذلك لعدم إثارة الشكوك.

ومن الأرجح أنّ أهل بيزة قد شجّعهم ما أحرزوه من نجاح في جزيرة سردانية، فهجموا على مدينة عنّابة في سنة 1034م (426هـ) واستولوا عليها. وهناك نقيشة غير مؤرخة في كاتدرائية بيزة تخلّد ذكرى ذلك العمل الباهر الذي ساهمت فيه حسبما يبدو بعض السفن القادمة من البروفانس[6].

وقد أصدر أبو عمران الفاسي (المتوفى سنة 430هـ/ 1038م) فتوى تتعلّق بسفينة قد انطلقت من الإسكندريّة والتحقت ببعض السفن التابعة للمهدية والمتّجهة على الأرجح إلى تلك المدينة. ولما اقتربت من جبل برقة هجم عليها بعض القراصنة الروم فأنقذتها سفنٌ صقلية وعادت بها إلى جزيرتها[7].

«وفي سنة 426هـ (16 نوفمبر 1034 — 4 نوفمبر 1035م) وصلت إلى المعزّ بن باديس من ملك الرّوم[8] هديّة لم يُرَ مثلها في كثرة ما اشتملت عليه من أمتعة الديباج الفاخر»[9]. وهذه السفارة تشبه سفارة جورج بروباتو الذي كُلِّف في ماي 1035م (426هـ) بالتوجّه إلى أمير صقلية الأكحل للتفاوض معه بشأن إبرام معاهدة صلح[10]. وقد بدأ يقترب تاريخ القطيعة بين المعزّ بن باديس والقاهرة، ويتوضّح خطر النرمان الذين استقرّوا في إيطاليا منذ سنة 1029م. وهذا ما يفسّر الحملة الديبلوماسية البيزنطية.

ولكن في سنة 439هـ/ 1046 — 1047م وجّه المعزّ بن باديس أسطولاً للهجوم على جزر القسطنطينية، فرجع الأسطول ظافرًا ومحمّلاً بالغنائم.

«وفي هذه السنة تجدّدت الهدنة بين صاحب مصر وبين الروم وحمل كلّ واحد منهما لصاحبه هديّة عظيمة»[11]. ومما لا شكّ فيه أن هذا التزامن لم يكن من باب الصدفة.

---

5) انظر الفقرات الموالية.

6) ستوريا (Storia)، 564/2؛ لاكور غابي، 225/2؛ برنو، **تاريخ التجارة بمرسيليا**، 121/1-130.

7) البرزلي، مخطوط الرباط، 227/2-228؛ **المختصر**، مخطوط تونس، 108-109؛ **المعيار**، 188/8-189.

8) [الامبراطور البيزنطي].

9) **البيان**، 275/1.

10) **ستوريا**، 426/2، 434-435.

11) **الكامل**، 225/9.

وبعد سنة 1034م شرع تجّار بيزة في التردّد على صقليّة ، ولحمايتهم اقتحم أسطول تابع لبيزة ميناء بلرمو وخرّب دار الصناعة الموجودة بها[12].

تدخّل بني زيري في صقليّة :

لقد شهدت جزيرة صقلية طوال عهد المعزّ بن باديس انتفاضات خطيرة . كانت من أسباب غزوها من طرف النّرمان ، وقد لفت هذا الوضع انتباه صاحب إفريقية . وليس من المستبعد أن يكون الصنهاجيّون الذين أصبح مجال تدخّلهم مقتصرًا على إفريقية وكانوا يتأهّبون لقطع صلاتهم بالقاهرة ، قد فكّروا في استرجاع تلك الجزيرة الفاطمية وتجديد الأعمال الباهرة التي قام بها الأغالبة هناك. على أن أهل صقليّة قد استنجدوا بالصنهاجيّين مرّتين متتاليتين.

والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد أنّ ابن عذاري قد ضرب صفحًا عن التحوّل الذي شهده تاريخ صقليّة الإسلامية آنذاك ولم يتعرّض للحملتين اللتين قام بهما المعزّ في تلك الجزيرة[13].

ففي أواخر عهد المعزّ بن باديس ،،حوالي سنة 405 هـ / 1014 – 1015م أُصيب أمير صقلية يوسف بن عبد الله بفالج ، «فاستناب ابنه جعفر ، فخالف عليه أخوه علي وأعانه جمع من البربر والعبيد. فأخرج إليه أخوه جعفر جندًا من المدينة ، فاقتتلوا وقُتِلَ من البربر خلق كثير وهرب من بقي منهم وأُخِذَ عليٌّ أسيرًا ، فقتله أخوه جعفر وأمر أن يُنفَى كلّ بربري بالجزيرة ، فنُفُوا إلى إفريقية»[14].

وفي المحرّم سنة عشر وأربعمائة / 9 ماي – 7 جوان 1019م ثار أهل صقلية على جعفر فخلعوه والتمسوا من أبيه أن يستعمل ابنه أحمد المعروف بالأكحل ، ففعل ذلك . «وخاف يوسف على ابنه جعفر ، فسيّره في مركب إلى مصر وسار بعده»[15].

«ولما ولّى الأكحل أخذ أمره بالحزم والاجتهاد وجمع المقاتلة وبثّ سراياه في بلاد النصارى فكانوا يحرقون ويغنمون ويسبون ويخرّبون البلاد. وأطاعه جميع القلاع التي

12) بيران ، 183.

13) كما لم يشر إلى الحملة التي جرت في أوائل عهد تميم.

14) **الكامل** ، 79/10.

15) نفس المرجع.

للمسلمين». وقد حاول في أوّل الأمر الاعتماد على أهل صقلية ضدّ الإفريقيين، ثم تقرّب من هؤلاء لما فشلت محاولته، «فكان يحمي أملاكهم ويأخذ الخراج من أملاك أهل صقلية. فسار منهم جماعة إلى المعزّ بن باديس وشكوا إليه ما حلّ بهم وقالوا: نحبّ أن نكون في طاعتك، وإلاّ سلّمنا البلاد إلى الروم، وذلك سنة 427هـ (5 نوفمبر– 24 أكتوبر 1036م)»[16]. فسيّر إليهم المعزّ جيشًا يضمّ 3000 فارس و3000 راجل[17] بقيادة ابنه عبد الله[18] الذي دخل إلى مدينة بلرمو وحاصر الأكحل في قصره بالخالصة[19].

«ثم اختلف أهل صقلية، وأراد بعضهم نصرة الأكحل، فقتله الذين أحضروا عبد الله بن المعزّ» وسلّموا رأسه إلى عبد الله الذي لا شكّ أنه بعثه إلى أبيه. إذ أكّد ابن خلدون أنّ رأس الأكحل قد وصل فعلاً إلى المعزّ بن باديس. ولكنّ الشقّين المتخالفين ربّما خافا من انتصار عبد الله ابن المعزّ وخشيا عواقبه، فأسرعا إلى التحالف مع بعضهما بعضًا ضدّ المحتلّ. فانهزم جنود المعزّ وقُتِل منهم ثلاثمائة رجل على أقلّ تقدير[20] ورجعوا إلى إفريقيّة، تاركين الجزيرة تتخبّط في الفوضى المتفاقمة.

وحوالي سنة 1040م / 431–432هـ، حسب مصدر بيزنطي، انهزم عبد الله بالقرب من تروانا، هزمه جيش بيزنطي بقيادة جورج مانياكيس، كان قد نزل بصقلية قبل شهر سبتمبر 1038م. وكان عبد الله قد حاول الهجوم من خلف على الجيش البيزنطي الذي كان يحاصر سرقوسة. ولكنه انهزم في منتصف الطريق الرابطة بين رندازو وتروانا. وحسب مصدر نرماني، فإن النرمان هم الذين هزموه، ولم يقدم اليونانيّون إلاّ لأخذ نصيبهم من الغنيمة[21].

ومن المحتمل جدًّا أن تكون هذه الواقعة التي لم تشر إليها المصادر العربية هي نفسها التي روتها تلك المصادر بإيجاز. ذلك أن الأساطيل المسيحية لم تتأخّر، إثر فرار المعزّ إلى المهديّة (449هـ/ 1057م)، عن توجيه حملات عسكرية ضدّ إفريقية، من نوع الحملة التي أشار

---

16) نفس المرجع. أنظر أيضًا النويري، 444–445، والعبر، 483.

17) حسب النويري لا غير. وفي العبر: 3000 فارس فحسب.

18) وفي العبر أشار ابن خلدون إلى ابن آخر من أبناء المعزّ إلى جانب عبد الله وهو أيوب. ولا شكّ أن المؤرّخ قد اشتبه عليه الأمر مع واحد من ابنَيْ تميم اللذين شاركا في حملة بصقلية.

19) العبر، وفي الكامل: «وحصر الأكحل في الخلاصة». وحول هذه البلدة الموجودة خارج مدينة بلرمو، أنظر: المقدسي، 30–31، 102.

20) في الكامل: 800 قتيل.

21) ستوريا، 446–447، 478–479، 489.

إليها ابن بسّام في سياق الحديث عن الأمير وشاعره ابن رشيق[22].

وإذا ما صدّقنا المصادر العربيّة[23]، فإن الانتصارات[24] التي أحرزها في صقلية النرمان المتحالفون مع ابن الثمنة ضدّ ابن الحوّاس، قد تسبّبت في هجرة عدد كبير من أهل صقلية إلى إفريقيّة. «فسار جماعة منهم إلى المعزّ بن باديس وذكروا له ما الناس فيه بالجزيرة من الخلف وغلبة الفرنج على كثير منها. فعمّر أسطولاً كثيرًا وشحنه بالرجال والعُدَد وكان الزمان شتاء. فساروا إلى قوصرة، فهاج عليهم البحر فغرق أكثرهم ولم يَنْجَ إلاّ القليل. وكان ذهاب هذا الأسطول ممّا أضعف المعزّ وقوّى عليه العرب [من بني هلال] حتّى أخذوا البلاد منه»[25].

وحسب رواية ابن الأثير – وهي أوضح وأدقّ رواية – فإنّ دخول النرمان وابن الثمنة إلى الحرب قد تمّ في رجب سنة 444هـ/ 8 نوفمبر– 7 ديسمبر 1051م. ثم أشار المؤلف إلى ما أحرزوه من انتصارات وإلى معركة قصريانة التي جرت بلا ريب، حسب المصادر المسيحية[26] في شتاء سنة 1061م. واستنتج أماري[27] من ذلك أن الاخباريّين العرب، حرصًا منهم على تفسير هزيمة الصنهاجيّين بإفريقيّة، قد ارتكبوا خطأً تاريخيًّا. ذلك أنّ تدمير أسطول المعزّ قد تمّ بلا ريب خلال شتاء سنة 1061م (أوائل سنة 453هـ). على أنّ ذلك الخطأ التاريخيّ يمكن أن يكون متعلقًا برواية معركة قصريانة[28]. أليس من الأفضل تأخير تلك المغامرة البحرية الفاشلة بعدّة سنوات وتحديد تاريخها مثلاً بفترة سابقة لسقوط القيروان (449هـ/ 1057م) بل حتى لمعركة حيدران (443هـ/ 1050م). وبعد هذا أو ذاك من يدري لعلّ الأمر يتعلق بحادثة الغرق التي جرت في جانفي 1026م (416هـ)، وهي تشبه إلى حدّ كبير الحادثة التي نحاول تحديد تاريخها. ومهما يكن من أمر فلا شيء يدفعنا إلى اختيار تاريخ 1061م (453هـ) لتحديد الفترة التي جرت فيها محاولة قام بها ملكٌ في وضع ميؤوس منه. ولكن لا ينبغي أن يفوتنا أن مصير بني زيري سيتحدّد من البحر، حيث ستكون جرأتهم متوقّفة على ما سيحرزونه من انتصارات بحريّة أقلّ ممّا هي متوقفة على خيباتهم البريّة.

22) **مسالك الأبصار** للعمري نقلاً عن **الذخيرة** لابن بسّام.

23) **الكامل**، 80/10–81، والنويري.

24) **ستوريا**، 72/3.

25) **الكامل**، 80/10.

26) **ستوريا**، 65/3–84.

27) نفس المرجع، 82/3–85 وبالخصوص الإحالة 2، 84–85.

28) لم يشر النويري إلى هذه المعركة.

الفصل السّابع
القطيعة مع القاهرة[1]

رغم أنّ الإفريقيّين أصبحوا لا يتعرّضون للشّيعة بأيّ أذى – حسبما يظهر – وربّما من أجل ذلك ، يبدو أنّ الخليفة الظّاهر لم يمنح المعزّ بن باديس أيّ تشريف جديد منذ وصول السجّلاّت التي وجّهها إليه في سنة 414 هـ / 1023 – 1024 م. وقد شهدت الخلافة الفاطميّة بعض الاضطرابات وفقدت سوريا[2]. وفي سنة 415 هـ / 1024 – 1025 م ، إثر وفاة الأميرة ستّ الملك التي استطاعت التحكّم في ابن أخيها الشابّ الظّاهر[3] ، انتقلت إدارة شؤون الدولة إلى الوزير الجرجرائي حتى وفاة الظّاهر سنة 427 هـ / 1036 م. وقد أفضت تولية المستنصر الذي لم يكن يتجاوز عمره سبع سنوات ، في شعبان 427 هـ / 30 ماي – 27 جوان 1036 م ، إلى تعزيز مركز هذا الوزير الذي سيبقى في الحكم حتى وفاته سنة 436 هـ / 1045 م[4].

وفي الأثناء استمرّ تقهقر الدولة الفاطمية ، المتمثّل في المجاعات الفظيعة والنزاعات الدامية بين المرتزقة الأتراك والمغاربة والسّود[5].

وقد أوهنت الدعاية العبّاسية سلطة الفاطميّين. فكان خليفة بغداد يعقد من حين لآخر (402–404 ، 468 هـ / 1011–1012 ، 1052–1053 ، 1095 م) اجتماعات بحضور فقهاء

1) حول القطيعة ، أنظر بالخصوص : جورج مارسي ، **العرب في بلاد البربر**، 53– 59 **وبلاد البربر الإسلامية**، 164 – 171.

2) **نجوم**، 248/4 ، 252 – 254..

3) نفس المرجع ، 192/4 – 195 ، 248 ، 268 . وقد جاء فيه بصفحة 260 أنّ الرّافضة قد مُنِعوا ، في القاهرة بدون شكّ ، من النحيب يوم عاشوراء. وقد جرت معارك دامية بين الشيعة وأهل السنّة ، ومُنِع الرافضة من النحيب يوم عاشوراء والاحتفال بعيد الغدير.

4) **البيان**، 276/1 ؛ ابن حمّاد ، 57.

5) **نجوم**، 1/5 – 3 ، 13 – 19 ، 59 ، 74 ، 79 ، 83 – 84 ؛ **اتعاظ** ، 280 – 283 ؛ **الخطط** ، 168/2 – 171 ؛ **سيرة المؤيّد**، في عدة مواضع.

السنّة والأشراف، لتحرير «محاضر بالقدح في نسب الخلفاء المصريّين ونفيهم الانتساب إلى علي بن أبي طالب»[6].

وفي سنة 451هـ/ 1059 – 1060م[7] تواصل تدهور الخلافة العبّاسيّة، رغم إقدام المستنصر على الإعلان عن تولّيه الخلافة عوضًا عن القائم بأمر الله، وذلك بسبب الاضطرابات التي اندلعت ببغداد، ودسائس الأمير البساسيري. ولم تتمكّن جهود الوزير المطلق السلطة بدر الجمالي[8] من تحسين الوضع الذي أصبح ينذر بالخطر. وقد توفّي هذا الوزير سنة 487هـ/ 1094م، أي في نفس السنة التي توفّي فيها الخليفة المزعوم المستنصر، بعدما أنهكته الملذّات وأصبح دوره مقتصرًا على الإشراف على حفلات عيد الفطر وعيد النحر مرّتين في السنة[9].

وفي عهد الخليفة الفاطمي المستنصر، يبدو أنّ الديبلوماسيّة الفاطميّة قد غيّرت موقفها في اتّجاه الشدّة، إزاء صاحب إفريقيّة. وممّا لا شكّ فيه أنّ المعزّ بن باديس لم يزل مواليًا للخلافة الفاطميّة وأنّ المذهب الشيعي لم يزل مذهب الدولة الرسمي. وحسب ابن خلدون[10]، استمرّ المعزّ في توجيه الهدايا المعهودة إلى الخليفة وتبادل الرسائل مع الوزير الجرجرائي. ولكنّ نفس المؤرّخ أشار في موضع آخر من كتابه[11] إلى أنّ الخليفة الفاطمي – وهو المستنصر بلا ريب – قد وجّه لومًا شديد اللّهجة إلى نائبه بإفريقية الذي حاول الجرجرائي إرجاعه إلى الجادّة. ثم اتّسمت المراسلات بالحدّة. وقد كان المعزّ يردّ على التهديدات بالقدح في شرعيّة الفاطميّين.

ومن الجدير بالتذكير أنّ الجرجرائي قد تولّى الوزارة في عهد الظاهر من سنة 415 إلى سنة 427هـ/ 1024 – 1036م، وفي عهد المستنصر من سنة 427هـ، إلى أن أدركته المنيّة في رمضان 436هـ/ 22 مارس – 20 أفريل 1045م، وقد خلفه على رأس الوزارة ابن الأنباري. وحسب التجاني وابن خلدون، كان المعزّ بن باديس «يكاتب الوزير الجرجرائي

---

6) **اتعاظ الحنفاء**، 279، أنظر أيضًا: **نجوم**، 4/75 – 79، 116، 229 – 231؛ ابن ميسّر، 6، 37. وحول مناهضة الأشعريّين ولا سيّما البقلاني للفاطميّين، أنظر الباب الحادي عشر من هذا الكتاب.

7) **نجوم**، 5/4 – 7.

8) نفس المرجع، 5/2 – 4، 101.

9) **نجوم**، 5/139 – 141.

10) **العبر**، 6/12 – 13.

11) نفس المرجع، 6/159.

مستميلاً ومعرّضًا بالتحزّب معه على بني عُبَيْدِ الله [الفاطميّين]. وإنّما يفعل ذلك رمزًا وتعريضًا له، لعلّه يرى منه قبولاً له فيجدّ في السعي معه على القوم. وكتب إلى الجرجرائي مرّة بخطّه قطعة تمثّل بها منها:

[بسيط]

وفيكَ صاحَبْتُ قَومًا لا خَلاقَ لهم   لَوْلاكَ ما كُنْتُ أدري أنّهم خُلِقوا

يشير إلى بني عُبَيْدِ الله ويزعم أنّه إنّما أبقى عليهم بعض الإبقاء من أجل حبّه فيه.

فلما وقف الجرجرائي عليها قال: «ألا تعجبون من هذا الأمير، صبيّ مغربي بربري يريد أن يخدع شيخًا بغداديًّا عربيًّا. وإنّما اتّهمه بأنّه فعل ذلك ليوقع بين القوم [الفاطميّين] ووزيرهم، إن عثروا على هذه الرموز»(12).

وقبل القطيعة مع القاهرة، لم تذكر لنا المصادر سوى واقعة واحدة مضادّة للفاطميّين في إفريقية، وهي مذبحة نفطة في سنة 423هـ/ 1031 – 1032م. وقد رأينا آنفًا أنّ الدينار السنّي المضروب في طرابلس الغرب سنة 425هـ/ 1033 – 1035م يقيم الدليل على أنّ بني خزرون قد سبقوا المعزّ في قطع علاقاتهم مع الفاطميّين وأنّ حمّادًا قد نسج على منوالهم حوالي سنة 405هـ/ 1014 – 1015م.

ويجدر بنا في هذا المقام التذكير بالاحترازات الشّديدة الواجب إبداؤها حول التأويل شبه الخرافيّ المستمدّ من المصادر السنيّة، للقطيعة التي اعتُبِرَت إنجازًا لمخطّط مُدبَّر من قبل، قد استنبطه المعزّ منذ شبابه الباكر. إلاّ أنّ تلك المصادر، ولا سيّما منها كتب الطبقات المالكية، لم تكن خالية من المتناقضات. فهي تعكس ما كان يشعر به رجال الدين من احتراز مشوب بمناهضة تنقص أو تزيد للسّلطة. وتكشف عن تردّد السياسة المتّبعة في هذا المضمار والتي تبدو مفروضة أكثر منها مقبولة.. فإذا ما درسنا الحياة الدينية عصرئذٍ، أدركنا مدى أهميّة العمل العميق والمتواصل الذي كان يقوم به فقهاء القيروان. ذلك أنّ هؤلاء المرشدين الروحيّين للجماهير الشعبية والفئات الاجتماعية الوسطى، قد واصلوا العمل الذي بدأه الإمام سحنون وكانوا الباعثين الحقيقيّين لانتعاش المذهب السنّي في إفريقية. ومع ذلك لا ينبغي سدّ الأفق السياسي. فبينما كان نطاق الدعاية المالكية يتّسع أكثر فأكثر، نلاحظ أنّ إنشاء مملكة بني حمّاد قد حوّل وجهة بني زيري عن المغرب، وأنّ ازدهار البلاد ونجاح عمليّة

12) رحلة التجاني، ص 19. أنظر أيضًا: العبر، 13/6 والبيان، 297/1 والمؤنس، 82 – 83.

تعريب صنهاجة قد بلغا حدًّا يسمح لصاحب إفريقية بالخروج عن طاعة الفاطميّين. وقد زاد في سرعة هذا التطوّر الذي لا مناص منه، تقهقر الدولة الفاطمية واندلاع الاضطرابات المضادّة للشيعة في آخر عهد باديس.

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ الأمير الصنهاجي لم يعلن في أيّ وقت من الأوقات عن استقلاله، بل كلّ ما في الأمر أنّه أصبح تابعًا لدولة أخرى. على أنّ التزاماته تجاه الخليفة الفاطميّ لم تكن ذات أهميّة، حتى أنّ الجانب السياسي للقطيعة قد تقلّص أمام الجانب الديني. ذلك أنّ مبايعة العبّاسيّين قد كانت مجرّد وسيلة لفضّ مشكل التعايش العدائي بين المذهب المالكي الشعبي والمذهب الشيعي الرسمي، وترسيخ التحالف الدائم بين العائلة المالكة الصنهاجيّة وإفريقيّة.

إلاّ أنّنا نفتقر إلى كثير من المعطيات في هذا المضمار، كما أنّ كثيرًا من النّقاط ما زالت غامضة. الأمر الذي لا يسمح لنا بإلقاء المزيد من الأضواء لتوضيح جميع جوانب القطيعة. فما هو الدور الذي قامت به حاشية الأمير في هذه القضية، وعلى وجه الخصوص أبو البهار بن خلوف، أحد كبار المسؤولين عن قمع الاضطرابات المضادّة للشيعة؟ وقد عُيّن وزيرًا في سنة 414 هـ / 1025 م، ويبدو أنّه حكم البلاد مدّة طويلة على أحسن وجهٍ ممكن. إلاّ أنّنا نجهل متى انتهت مدّة وزارته ولا ندري مَنْ خلفه، وهل خلفه فِعْلاً وزيرٌ آخر.

ويبدو أنّ القطيعة قد هيّأتها بعض المساعي الديبلوماسية التي بلغتنا بعض أصدائها، وهي تدلّ على رغبة الأمير الصنهاجي في التقرّب من أعداء الفاطميّين الألدّاء، أعني البيزنطيّين والأندلسيّين.

«في سنة 426 هـ (16 نوفمبر 1034 – 4 نوفمبر 1035 م) وصلت إلى المعزّ من ملك الروم هديّة لم يُرَ مثلُها في كثرة ما اشتملت عليه من أمتعة الديباج الفاخر وغير ذلك»[13]. ويحقّ لنا أن نفترض أنّ المعزّ قد أراد ردّ الجميل إلى الامبراطور البيزنطي، عندما وجّه إليه ابن الضابط[14]. ومهما يكن من أمر، فإننا نعلم أنّ هذا الفقيه قد قام بمهمّة سفير للمعزّ في القسطنطينيّة، قبل أن يزور الأندلس من 436 إلى 438 هـ / 1044 – 1047 م. وقد افترض حسن حسني عبد الوهّاب اعتمادًا على بعض المعلومات أنّ المعني بالأمر قد قام بمهمّة سريّة

13) **البيان**، 275/1. أنظر أيضًا: **المؤنس**، 82.

14) أنظر ترجمة هذا الشخص في: إدريس، تحية لويس ماسينيون، 357/2 – 359.

لدى أمراء الأندلس ، حيث أراد المعزّ الذي كان يتأهّب لقطع علاقاته مع القاهرة ، أن يتقرّب منهم.

وإثر عودته إلى القيروان في أواخر 438 هـ / أوائل 1047م ، وجّهه المعزّ مرّة ثانية إلى القسطنطينيّة . ولكنّنا لا نعلم بالضبط تاريخ رحيل ذلك السفير الذي لم يرجع إلى إفريقية . إذ يبدو أنّه توفّي بعد سنة 440 هـ / 1048 – 1049م أو سنة 444 هـ / 1052 – 1053م ، في طريق الذهاب أو الإياب ، أو في إحدى الجزر المسيحيّة وهو في حالة جهاد.

والجدير بالملاحظة أنّ هذا التقارب بين بني زيري والبيزنطيّين يشبه إلى حدّ بعيد الاتصالات التي جرت قبل ذلك بقرن بين قرطبة وبيزنطية لتحييد الأسطول الفاطمي[15].

ويتضمّن ديوان[16] الداعية الشيعي المؤيّد قصيدة تشير إلى المناورات التي قام بها في القيروان شخص يقال له ابن دمنة[17]. وتطلق هذه الكنية الشائنة على ابن المسلمة ، العميل العبّاسي وعدوّ المؤيّد الذي كان يضمر له عداوة بالغة . إلاّ أنّ تلك الإشارة يكتنفها كثير من الغموض . ومن ناحية أخرى يمكننا القدح في شهادة الداعية الميّال إلى اتّهام خصمه بجميع الجرائم الممكن تصوّرها وتحميله مسؤوليّة الخيبات التي مُنِيَ بها الخليفة الفاطميّ . ويمكن أن نستخلص من ذلك أنّ ابن المسلمة قد قام بمهمّة لدى المعزّ بن باديس وهيّأ ظروف دخوله في طاعة الخليفة العبّاسي . وممّا يدفعنا إلى هذا الاستنتاج أنّ المؤيّد قد أكّد في سيرته الذاتية[18] أنّ وزير القائم «رئيس الرؤساء» ، علي بن الحسين بن أحمد بن محمود المعروف بابن المسلمة هو الذي كاتب الأمير الصنهاجي وأهدى إليه هدايا وحثّه على شقّ عصا الطاعة.

وقد جاء في ترجمة أبي بكر أحمد بن عبد الرحمان[18] أنّ المعزّ أراد أن يبعثه رسولاً إلى صقلية للقيام بمهمّة ديبلوماسية لا محالة . فأجابه ذلك الفقيه القيرواني الشهير باستعلاء : «والله إنّ أقلامنا لأمضى عند الله من رماحك» . إلاّ أنّ هذا المشروع الذي تمّ التفكير فيه قبل سنة 432 أو 435 هـ / 1040 – 1041م أو 1043 – 1044م ، تاريخ وفاة ابن عبد الرحمان ، لم يُنَفَّذ بطبيعة الحال . ولكنّ تكليف الأمير أحد رجال المذهب المالكي بالقيروان بمثل تلك المهمّة ، يدلّ دلالة واضحة على حقيقة نواياه.

---

15) **اسبانيا الإسلامية** ، 108/3 ؛ الإحالة 1.

16) المؤيّد ، **الديوان** ، 259 – 260 . أنظر أيضًا المقدمة ، 28 ، '169 – 170.

17) حسب كتاب ابن المقفّع : **كليلة ودمنة**.

18) **سيرة المؤيّد** ، 56.

وقد كان المعزّ يتبادل الرسائل مع فقيه آخر من أصل مغربي يقيم بصقليّة، وهو فتوح ابن الغزال البجائي[19] الذي كان يقوم بدور المُخْبِر، حيث كان يعلم المعزّ بكلّ ما كان يجري بصقليّة. ومن أجل ذلك غار منه كبار رجال الدولة في تلك الجزيرة «من عرب وعجم». فاتّفقوا على تأليب عامل صقلية عليه، وذلك بدون شكّ بإعلام العامل بتلك المراسلة المخالفة للقوانين. فأمر هذا الأخير الراجع بالنظر إلى الخلافة الفاطمية بقتل ذلك الفقيه رميًا بالرمح، وبمصادرة أملاكه، وذلك حوالي منتصف شعبان 446 هـ / نوفمبر 1054 م، «بينما كان السلطان مشغولاً بفتنة القيروان».

وكلّف أمير دانية الموفّق مجاهد العامري (المتوفّى سنة 436 هـ) قاضيه ابن أبي رئال (المتوفّى سنة 440 هـ) بحمل رسالة إلى المعزّ بن باديس[20]. فوصل المبعوث الداني إلى القيروان صحبة ابنه علي المعروف باسم إقبال الدولة[21] الذي كان قد عُزِلَ منذ عهد قريب من إمارة سردانية.

وقد اجتمع ابن أبي رئال بفقهاء القيروان، وفي مقدّمتهم أبو عمران الفاسي، وتناقش معهم، بالرغم من التعليمات الصادرة إليه من أميره بعدم الاجتماع بهم. وحرّر مجموعة تضمّ مائة سؤال حول مختلف المواضيع، وترك بياضًا إثر كلّ سؤال لتدوين الجواب. وقد كان السؤال يتعلّق بالأفضليّة التي منحها الرسول ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها أو بتفوّقها على سائر صاحباتها. كما نظم بتلك المناسبة خمسة أبيات من الشعر للمعزّ، أشاد فيها بفضل هذا الأمير الذي أيّد رجال الدين وأشار إلى الأسئلة التي طرحها على الفقهاء ومجّد القيروان موطن العلم الصحيح.

ولم يمكث في القيروان أكثر من 12 يومًا، حيث خشيَ حلول فصل الشتاء، فرحل صحبة مجموعة من المسافرين. ومن باب الاحتياط، لم يقبل أيّ مبلغ من المال من السلطان ورفض المَهْرَيْن البديعَيْن اللّذين أهداهما المعزّ إليه وإلى ابنه. كما حضر صلاة العيد صحبة الأمير الذي أمر بعدم الدعاء لبني عُبَيْد في الخطبة، مراعاةً لضيفَيْه. ويُعتبَر هذا الحدث على

---

19) **مدارك**، 2−3/ص 353 وجه.

20) إدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية : 1955، 58 − 59.

21) والملاحظ أن علي بن مجاهد قد رحّب (حوالي سنة 453 هـ؟) بمبعوث الخليفة العبّاسي إلى المعزّ بن باديس، أبي الفضل محمّد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي، ابن بسّام، 1/4، 67 − 69، 70 − 90؛ وإدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1953، 34؛ وحول المراسلة المتبادلة بين علي بن مجاهد والخليفة الفاطمي المستنصر. أنظر : **التكملة**، عدد 1735، ص 622.

غاية من الأهميّة بالنسبة إلى تاريخ القطيعة بين بني زيري وبني عُبَيْد ، لأنه وقع بطبيعة الحال قبل سنة 430 هـ/ 1039م[22] تاريخ وفاة أبي عمران الفاسي.

وسنتولّى فيما يلي تحليل بعض النصوص التابعة لنفس تلك الفترة والتي توضّح الجوّ السياسي والديني الذي كان سائدًا في إفريقيّة آنذاك[23].

فقد كلّف المعزّ بن باديس ذات يوم شخصًا بإلقاء السؤال التالي على أبي بكر بن عبد الرحمان (المتوفّى سنة 435 هـ/ 1040 – 1041م)[24] :

«ما يقول الفقيه في هذه الطُّرُز التي فيها أسماء بني عُبَيْد مثل الظاهر والحاكم وغيرهما ممّا يُلبَس ، أيُصَلّى فيها؟»

فأجاب الشيخ أبو بكر : «هذا سؤال أحمق ، أخرق ، قليل المعرفة».

وكتب الشيخ أبو عمران الفاسي جوابًا عن هذا السؤال : «إنما يجب على من بسط الله يده أن يمنع من ذلك».

فشقّ على السلطان جواب الشيخ أبي بكر ، فأرسل إليه وإلى الشيخ أبي عمران ، فقال للشيخ أبي بكر : «لِمَ أَجَبْتَ بهذا؟». فقال : «لأنّ السكّة تُضرَب بأسمائهم ، وبنودهم تخفق على رأسك». فقال السلطان : «ما أبقيت السكّة والبنود إلا مداراةً لأجل حجّاج بيت الله الحرام والمسافرين». ثمّ قال السلطان : «أَلَمْ أقتل المشارقة؟ أَلَمْ أفعل كذا؟». فقال الشيخ : «فعلتَ وبقي عليك أن تأذن لي أن أتكلّم». قال له السلطان : «لا». ثمّ عطف عليه الشيخ أبو عمران ، فقال : «لِمَ لَمْ تكتب بِمَنْعِ ذلك»؟

ثمّ أضاف المؤلّف قائلاً :

«فالشيخ أبو عمران أعان بكلامه هذا أبا بكر ، ولذلك قيل كان بينهما تباعد جدًّا ، حتى طمع بذلك المعزّ فيهما ليجري الحجّة على العامّة بشهادة أحدهما على الآخر ، إذ كانت العامّة طوعهما. فلما اختبرهما بذلك لم يجد عندهما ما يوافقه ووجد دينهما أمتن ممّا يظنّ».

«وبعث المعزّ إلى أبي بكر بن عبد الرحمان يومًا رسولاً ، فقال له : يقول لك المعزّ هل أنا عندك مسلم أم كافر؟ فقال للرسول : قُلْ له : «تتبع العلماء هذا التتبّع وتستقصي عليهم ، والله لئن لم تتركني لأعرضنّك على الله عزّ وجلّ». فلم يعرض له بعد ذلك بشيء»[25].

---

22) بالضبط يوم 13 رمضان 430 هـ/ 8 جوان 1039 م.

23) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1955 ، 38–40 ، 55 – 58.

24) **معالم الإيمان** ، 3/209 – 210.

25) نفس المرجع.

وقد حضر جنازة هذا الفقيه جمهور غفير، «وكُسِّرَت تحته نعوش كثيرة، وقطع السلطان بعض الأيدي لعدم تسليمهم للنعش وعصيانهم لأمره. ودُفِنَ بباب تونس إلى جانب أبيه عبد الرحمان»(26).

وجاء في «**معالم الإيمان**»(27) «أنّ المعزّ بن باديس بعث ابن عطاء اليهودي طبيبه وخاصّته إلى أبي عمران يستفتيه في مسألة، فلما دخل على الشيخ في داره ظنّه الشيخ بعض رجال الدولة، إلى أن قال بعض الحاضرين : أكرمك الله إنه من خيار أهل ملّته. فقال الشيخ : وما ملّته؟ فقال : هذا ابن عطاء اليهودي. فغضب أبو عمران وقال لابن عطاء : أما علمت أنّ داري كمسجدي، فكيف اجترأت على دخولها؟ وأمره بالخروج، فخرج وهو يرتعد، وكان غير مُعْلَم. فأمر الشيخ بصبغ طرف عمامته لشهرته. وقال : انْصَرِفْ إلى مُرْسِلِك فقُل له يبعث إليّ برجل من المسلمين يأخذ جواب مسألته، فإني لأستحي أن أُحَمِّلَكَ أسماء الله وحِكَمًا من أحكامه. فلما دخل اليهودي على المعزّ ذكر له القضيّة وقال : والله يا سيّدي ما ظننتُ أنّ بإفريقية ملكًا غيرك إلاّ يومي هذا. ولقد وقفت بين يَدَيْكَ في حال غضبك الشديد، فما أدركني الفزع ولا أصابني من الرّعب ما أصابني في يومي هذا. فقال له المعزّ : إنّما فعلتُ ذلك لأريك عزّ الإسلام وهيبة علماء المسلمين وما ألبسهم الله من شعائر الأولياء، لعلّك تُسْلِم»(27).

«وقال رجل بالقيروان : أنا خير البريّة. فهمّت به العامة، ثمّ لبث فحُمِلَ إلى دار أبي عمران، فقيل ذلك له. فقال له : أنت مؤمن؟ قال : نعم! قال : تصلّي وتصوم وتفعل الخير؟ قال : نعم! قال : إذهب بسلام. قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ﴾(28). فانفضّ النّاس عنه»(29).

والجدير بالملاحظة أنّ هذه القصّة تشبه قصص الشيعة الّذين قُدِّموا إلى محرز بن خلف في تونس سنة 406هـ/ 1016م وإلى أبي علي بن خلدون بالقيروان في السنة الموالية، لمقاضاتهم(30).

---

26) نفس المرجع.
27) **معالم الإيمان**، 3/201 – 202.
28) سورة البيّنة، الآية 6.
29) **معالم الإيمان**، المرجع المذكور.
30) أنظر الفصل 3 من الباب الثاني والفصل 2 من الباب الثالث.

«وجرت بالقيروان مسألة أخرى في الكفّار، هل يعرفون الله أم لا ، ووقع فيها تنازع عظيم من العلماء، وتجاوز ذلك للعامّة، وكثر التنازع بينهم فيها ، حتى كاد يقوم بعضهم على بعض في الأسواق ويخرجون عن حدّ الاعتدال إلى القتال. وكان القائم بذلك رجل مؤدّب يركب حماره ويذهب من واحد إلى آخر، فلا يترك متكلّمًا ولا فقيهًا إلاّ سأله فيها وناظره. فقال قائل : لو ذهبتم إلى الشيخ أبي عمران لشفانا من هذه المسألة. فقام أهل السوق بجماعتهم حتى أتوا باب داره واستأذنوا عليه فأذن لهم ، فقالوا : أصلحك الله ! أنت تعلم أنّ العامّة إذا حدث بها حادث إنّما تفزع إلى علمائها ، وهذه المسألة قد جرى فيها ما بلغك ، وما لنا في الأسواق شغل إلا الكلام فيها . فقال لهم : إن أَنْصَتُّمْ وأحسنتم الاستماع ، أُخْبِرُكم بما عندي. قالوا : ما نحبّ إلاّ جوابًا بيّنًا على قدر أفهامنا. فقال لهم : وبالله التوفيق. ثمّ أطرق ساعة وقال : لا يكلّمني منكم إلاّ واحد ويسمع الباقون. فقصد واحد منهم ، فقال له : أرأيتَ لو لَقِيتَ رجلاً فقلتَ له : أتعرف أبا عمران الفاسي؟ فقال : أعرفه. فقلتَ : صِفْهُ لي. فقال : هو رجل يبيع البقل والحنطة والزيت في سوق ابن هشام ويسكن صبرة. أكان يعرفني؟ قال : لا. قال : فلو لقيتَ آخر فقلتَ له : أتعرف الشيخ أبا عمران؟ قال : نعم. فقلتَ : صِفْهُ لي. فقال : نعم رجل يدرس العلم ويفتي الناس ويسكن بقرب السماط. أكان يعرفني؟ قال : نعم. قال : والأوّل ما كان يعرفني؟ قال : لا. قال لهم الشيخ : فكذلك الكافر، إذا قال لمعبوده له صاحبة أو ولد وإنه جَسَّمَ وعَبَدَ مَنْ هذه صِفَتُه ، فلم يعرف الله ولم يصفه بصفة ولم يقصد بعبادته إلاّ مَنْ هذه صِفَتُه. وهو بخلاف المؤمن الذي يقول إن معبوده الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[31] ، فهذا قد عرف الله ووصفه بصفته. فقامت الجماعة وقالوا : جزا الله خيرًا من عالم ، فقد شفيت ما في قلوبنا ، ودعوا له ولم يخوضوا في المسألة بعد هذا المجلس»[32].

ويبدو أنّ بعض الكرامات قد قامت بدور لا يستهان به[33] في هذا الغليان الديني الشعبي.

ففي كتاب «**نقط العروس**» الذي ألّفه ابن حزم سنة 420 هـ / 1029 م ، صنّف المؤلف المعزّ بن باديس من بين الأمراء الذين لا ينتسبون إلى قريش ولم يتمكّنوا من تحقيق طموحهم

---

31) سورة الإخلاص ، 3 – 4.

32) **معالم الإيمان** ، 3/202 – 203.

33) إدريس. مجلة كراسات تونسية ، 1953 ، 155 – 159.

إلى الخلافة. كما أكّد أنّ المعزّ قد طمع في الخلافة، فصرفه عن ذلك الفقيه أبو عمران الفاسي (المتوفّى سنة 430 هـ / 1039 م) الذي أعلمه أنّ النصّ قد خصّ الخلافة بالقرشيّين دون سواهم وأنّ طموحه إلى الخلافة سيفضي إلى الشقاق والارتفاع عن المسالمة. ثم خاطبه قائلاً: سوف لا تبلغ مقصودك، لأنّك إذا فتحت هذا الباب، فإنّ كلّ الذين تريد أن تتسلّط عليهم من أجوار وغيرهم سيتلقّبون هم أيضًا بلقب الخليفة[34]. وعندئذٍ ستخسر الامتياز الذي استأثرت به وستنحطّ سلطتك دون أن تغنم أدنى فائدة. وقد شاطر المعزّ هذا الرأي وتخلّى عن مشروعه.

ولقد رأينا[35] أنّ المعزّ بن باديس قد استفتى أبا عمران الفاسي ومعاصره أبا بكر بن عبد الرحمان حول بعض مسائل من هذا القبيل. ولكنّنا نتردّد في الاعتقاد بأنّه فكّر بصورة جدّيّة في الخلافة. أفلا يتعلّق الأمر بمجرّد سؤال، كان الغرض منه إفحام الشيخ المُسْتَفتى؟

هذا وإنّ موعد الدعوة للخلافة العبّاسيّة قد أخذ يقترب، ولكنّ الإخباريّين الذين اعتمدوا على بعض أحداث معيّنة قد حدّدوا لتلك الدعوة تواريخ مختلفة تمتدّ من سنة 433، إلى سنة 443 هـ / 1041 – 1051 م. وفي الأثناء جدّت بعض الأحداث المتتابعة وجرت بعض المبادرات المُعَارِضَة، ممّا يفسّر ما حصل من التباس في التواريخ.

فحسب رواية ابن عذاري[36]، الذي اختار أقرب التواريخ عَهْدًا: «أظهر المعزّ [الدعوة] للدّولة العبّاسيّة وورد عليه عهد القائم بأمر الله سنة 433». وقد أشرنا إلى هذه الرواية المُبهمَة على سبيل الذكر، لأنّ كلّ شيء يدعو إلى الاعتقاد بأنّ التاريخ المذكور سابق لأوانه[37].

فقد اتّفقت عدّة مصادر هامّة[38] على أنّ ذلك الحدث قد جدّ في سنة 435 هـ / 10

34) ابن حزم، **نقط**، الطبعة 2 ص 77، نقلاً عن مخطوط من رواية الحميدي الذي تتلمذ له من 430 إلى 440 هـ وتحصل منه على إجازة عامة. أنظر المرجع المذكور، 41 – 47.

35) أنظر إدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1955، 37 – 38، 53 – 54.

36) **البيان**، 275/1 – 276. ربّما اعتمد المؤلف شهادة أبي عبد الله محمّد بن سعدون (المتوفّى حوالي 485 – 486 هـ) الذي أكّد أنه رأى التونسي (المتوفّى سنة 443 هـ / 1051 م) في أوائل فتنة القيروان التي بدأت سنة 432 هـ / 1040 – 1041 م، أنظر أيضًا: **مدارك**، 2 – 348/3 و 349 قفا؛ **ومناقب**، 87؛ وادريس، كراسات تونسية، 1956، 508 – 517.

37) لا سيّما وقد جاء في **البيان**، 277/1 ما يلي: «وفي سنة 440 هـ / 1048 – 1049 م. قُطِعَت الخطبة لصاحب مصر. وأحرقت بنوده».

38) **الكامل**، 217/9؛ النويري، 139/2 – 140؛ **تاريخ أبي الفداء**، 167/2؛ **نجوم**، 50/5 – 51؛ ابن خلكان. 103/2؛ **بلدان**، 303/1 – 304؛ **المؤنس**، 82.

أوت 1043 – 28 جويلية 1044. وبما أنّ مصدرًا من تلك المصادر (ابن خلكان) قد أكّد أنّ ذلك التاريخ مقتبس من كتاب «**تاريخ القيروان**» لابن شدّاد حفيد تميم، فينبغي أن ننسب إلى ذلك المؤرّخ الرواية المذكورة التي تتضمّن تفاصيل مضبوطة بكلّ دقّة، بحيث لا يمكن أن تكون من نسج الخيال.

ولكن بالرغم من ضرورة تفضيل تاريخ 439 – 440 هـ / 1047م الذي اعتمده مؤرخ المعزّ الرسمي وشاعره ابن شرف، وأثبتته النقود المضروبة في ذلك التاريخ بصورة لا تدعو إلى الشكّ. فقد رأينا من الفائدة عدم تغيير التواريخ المذكورة. أضِف إلى ذلك أنّ المصادر المعنيّة بالأمر هي أوّلاً وبالذات مصادر شرقية، وأنّ عددًا كبيرًا منها قد أشار أيضًا إلى تاريخ 439 – 440 هـ.

أمّا الرّواية المنسوبة إلى ابن شدّاد فهي تفيد أنّ المعزّ بن باديس قد أظهر الدعوة للدولة العبّاسيّة وخطب للخليفة القائم بأمر الله في سنة 435 هـ. «ووردت عليه الخُلَع والتقليد ببلاد إفريقية وجميع ما يفتحه. وفي أوّل الكتاب الذي مع الرُّسُل: «من عبد الله ووليّه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الملك الأوحد ثقة الإسلام وشرف الإمام وعمدة الأنام، ناصر دين الله، قاهر أعداء الله ومؤيّد سنّة رسول الله ﷺ، أبي تميم المعزّ بن المنصور وليّ أمير المؤمنين الخ...». وأُرْسِل إليه سيفٌ وفرس [وخاتم][39] وأعلام على طريق القسطنطينية. فوصل ذلك في يوم الجمعة (من حسن الصدف!). فدخل به إلى الجامع والخطيب ابن الفاكاة على المنبر يخطب الخطبة الثانية. فدخلت الأعلام فقال: هذا لواء الحمد يجمعكم وهذا معزّ الدين يسمعكم وأستغفر الله لي ولكم»[40].

وحسب القاضي عياض[41] كان أبو الحسن علي بن تمّام المعروف بابن المهدي والمشهور أكثر باسم المهدي، فقيهًا ذائع الصوت، له عدد كبير من الأتباع. وكان يستنكر بشدّة الأعمال المكروهة ويصدع بالحقّ. كما كان يحظى بتقدير المعزّ ويتدخّل لديه لفائدة العامّة، نيابةً عنهم. وكان يُعَدّ من بين خصوم القاضي أبي بكر أحمد بن عبد الله ابن أبي زيد[42]،

---

39) حسب النويري فقط.

40) **الكامل**، 217/9.

41) **مدارك**، 2–3 / ص 349 وجه و351 قفا؛ ادريس، تحية لويس ماسينيون، 343/2–344. ربّما «المهري» عوض «المهدي».

42) إدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1954، 168، 172.

إذ كان يعارضه بخصوص تحديد تاريخ الأعياد [بالحساب]. وبما أنّ أبا بكر أحمد بن عبد الله ابن أبي زيد قد تولّى القضاء من سنة 435 إلى أواخر رمضان 436هـ وأنّ النصّ يتحدّث عن النحر، فيمكن أن نستنتج من ذلك أنّ الأمر يتعلّق بعيد الأضحى (10 ذو الحجّة 435هـ/ 9 جويلية 1044م).

فقد أعلن القاضي يوم 9 ذي الحجّة 435هـ أنّ تاريخ العيد قد حدّد باليوم الموالي، وذلك حسبما ثبت لديه ولدى السلطان وبقية العلماء. ومن الغد الذي يصادف يوم جمعة[43] خرج الناس لصلاة العيد ثم رجعوا إلى بيوتهم وذبحوا أضاحيهم. ولم يغادر المهدي بيته إلا لأداء صلاة الجمعة. وإثر الصلاة كبّر الإمام تكبيرات التشريق. فصاح المهدي في وجهه قائلاً: «لقد كذبت يا فاسق!».

وفي اليوم الموالي للاحتفال الرسمي بالعيد، أقام المهدي صلاة العيد مع جماعة من أنصاره من بينهم الإمام الذي كان قد صلّى بالناس صلاة العيد في اليوم المنصرم. وعندما استفسره المهدي حول موقفه السابق، أجابه بأنّه فعل ذلك من باب «التقيّة».

ولمّا علم القاضي ابن أبي زيد بالأمر، استدعى الإمام الذي أخبره بأنّه أعاد صلاة العيد خوفًا من المهدي. ولكنّ تصرّفه قد سبّب له مع ذلك في العزل وفقدان الحظوة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ معارضة المهدي للقاضي تعود إلى أسباب عقائدية. ذلك أنّ الشّيعة كانوا يعتمدون الحساب لتحديد دخول الأشهر القمريّة، في حين كان أهل السنّة يعتمدون رؤية الهلال[44]. ونستنتج من ذلك أنّ الفقه الشيعي لم يزل إلى حدود سنة 435هـ المذهب الرسميّ الوحيد الذي تعترف به دولة بني زيري.

ويبدو أنّ القاضي أبا بكر أحمد بن عبد الله بن أبي زيد قد عُزِلَ فيما بعد لنفس الأسباب، رغم أنّ المصادر لم تشر إلى ذلك بصريح العبارة. فقد تمّ عزله في الظروف التالية[45]: من المعلوم أنّ هذا الفقيه هو نجل الإمام الشهير ابن أبي زيد القيرواني صاحب **الرسالة**. وقد كان يتمتّع هو وأخوه أبو حفص عمر بنفوذ كبير في القيروان، وقد وجّه إليهما ابن رشيق أبياتًا من الشعر. والغريب في الأمر أنّ القاضي أبا بكر هذا كان من تلامذة

43) نظريًّا يوم الأحد.

44) إدريس، مجلة الدراسات الإسلامية، 1935، 147–148، 178.

45) نفس المؤلف، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1954، 169–172.

البراذعي الذي اتُّهِمَ بتعاطفه مع الفاطميّين ، وقد شهّر به فقهاء القيروان ، فاضطرّ إلى الفرار إلى صقليّة(46).

«وكان لما توفّي قاضي القيروان ابن هاشم في سنة 435هـ (10 أوت 1043 – 28 جويلية 1044م) خلّف ولدًا خلفه ، وكان له أشياخ أحبّوا ولايته ووراثته لخطّة أبيه . فأشاروا على السلطان [المعزّ بن باديس] بذلك ومال السلطان إلى قولهم . وكان خواصّ من الناس ممّن عرف حقيقة هذا الولد قد عَظُم الأمر عليه وتصوّر سوء المآل فيه . وكان محمّد ابن شرف أشدّ الناس إنكارًا لولايته ، لتخلّف الرأي وسوء الغلط فيه . قال : فاستخرت الله تعالى وأفردت النيّة لابتغاء وجهه . فجعلت شعرًا أمدح السلطان وأغالطه فيما شاء من توليته . فلما كانت ليلة اجتماع الناس لحضور توليته استأذنت على السلطان في إنشاد ذلك فأنشدته على خلوة منه حتى بلغت إلى قولي :

[كامل]

كان القضاء وراثةً فَرَدَدْتَه   شورى ففاز بحقّه المردودِ
يا فضلها من سيرة عُمَرِيّة   هي للعباد رضًى وللمعبودِ

قال : فلمّا بلغت في الإنشاد إلى هذا الموضع ، أكبّ السلطان على يده وقد قبضها كالمُطْرِقِ والمُفَاجَإِ بأمر يحتاج إلى الفكرة فيه . وتماديت في الإنشاد والسلطان لم يزل على حاله فيما أحسب حتى أتممت الشعر . فخجلت للأمر وندمت على التعزير وبقيت بعد تمام الإنشاد أتشاغل بطيّ الدرج الذي فيه الشعر . ثمّ رفع رأسه وقال لي : أصرف الشعر وأَعِدْ به غدًا ، ثمّ قُمْ فأنشده في آخر المجلس ، وإيّاك أن يعلم أحدٌ بما أوجبت لك به . فانصرفت والناس يتواعدون إلى البكور إلى السلطان لحضورهم تولية ابن هاشم في ظنّهم . فلما كان في غد ذلك المساء حضر الناس وتهيّأ ابن هاشم في خلعة القضاء وتأهّب للولاية . فلما استوى المجلس دعا السلطان بابن أبي زيد هذا فقدّمه للقضاء بغتة ، ما علم أحد بأمر حتى كان . ثمّ قمتُ فأنشدت الشعر . قال : فقوم يتعجّبون من لغته ونسخ النيّة ، وقوم يتعجّبون من تضمين الشعر للمعنى في وقته لا يدرون ما السبب . فكان يومًا معجبًا سُرَّ الناس به بتولية ابن أبي زيد ، وابتهلوا فيه بالدعاء للسلطان ، حتى علت أصواتهم بذلك .

ولمّا ولي القضاء على رغم كثير ممّن ذكرنا ممّن أحبّ ولاية ولد القاضي ابن هاشم من

46) نفس المؤلف ، تحية لويس ماسينيون ، 2/348 – 350 .

أشياخه وأتباعه ، أدّاهم ذلك عند ولاية قضائه إلى التصويب عليه بحبائل نصبوها وأكاذيب كذبوها . وانتهى ذلك إلى السلطان ، فأمر بالنداء بصبرة والقيروان بالاجتماع بالجامع ، وأكّد أنّ لا يتخلّف أحد ، فاجتمع خلق عظيم وحضر القاضي ابن أبي زيد هذا وسائر الفقهاء ورجال السلطان وخاصّته وجنده . وكان من الكلام ما يطول شرحه ، وجملته أنّ سائر الفقهاء أجمعوا على أنّه عادل في أحكامه ، كامل في أحواله ، ليس له جرحة يُعْزَل بها إلاّ مَنْ شذّ من أتباع مَن ذكرنا . وجرى بين العوامّ وسائر الفقهاء بعيدًا من مجلس السلطان وأعيانه أمرٌ ، لولا هيبة المكان وحضور القوّاد لتفاقم الأمر وآل إلى سفك الدماء أو ما يقرب منه . ثمّ انجلت تلك الغباية الناشئة في أفق الغيّ ، الحاملة لما شاءه الجهل من صواعق الطغيان والبغي ، وأعقبها تأخّره عن قضائهم . وقال له السلطان : قد رأينا أنّ عزلك أَرْوَحُ لَكَ في دينك ودنياك ، فأخّرناك لا لجرحة . فكان تأخيره عن القضاء في آخر شهر رمضان سنة 436 هـ (أفريل 1045م) »[47].

وفي سنة 437 هـ / 1045—1046م أصدر الفقيه القيرواني الجليل أبو إسحاق التونسي فتوى سنرى فيما يلي ما تكتسيه من أهمّيّة بالغة[48].

«فقد ورد عليه سؤال من مدينة باغاية استُفْتِيَ فيه . وكانت المسألة مسألة طلاق ومراجعة . وذكر السائل أنّ وليّ النكاح كان من الفرقة المعروفة بإفريقية الشمالية بالمشارقة وهم دعاة بني عُبَيْد . فأجاب الشيخ أبو إسحاق أنّ هذه الفرقة على قسمين : أحدهما كافر مباح الدم ، والقسم الآخر وهم الذين يقولون بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصحابة ، لا يلزمهم القتل ولا يبطل نكاحهم . فأنكر عليه جميع فقهاء إفريقية بالقيروان وغيرها ، واحتجّوا عليه بأنّ جماعة من أهل الزهد والعلم والعبادة بالقيروان كانوا أشدّ النّاس مباينة بالعداوة والتكفير لبني عُبَيْد وأتباعهم ، منهم أبو إسحاق السبائي ومروان العابد وربيع القطّان وأضرابهم . وأرسلوا إليه أن يعاود النظر وأن يرجع عن هذا القول فأبى عن ذلك . وانتهت

47) **معالم الإيمان** ، 233/3—234 . نلاحظ أنّ النصّ الوارد في هذا الكتاب يؤيّد أبا بكر أحمد بن أبي زيد . بينما يؤكّد النصّ الوارد في **المدارك** أنّ المعني بالأمر قد عيّن قاضيًا بالقيروان بعد الاضطرابات التي تلت زحفة بني هلال وأنّ سلوكه لم يكن طيّبًا . ونحن لا نعلم اسم الشخص الذي خلفه ، وليس من المؤكّد أن يكون نجل ابن هاشم . ومهما يكن من أمر فإنه قد احتفظ بثقة المعزّ ، حيث إن هذا الأخير قد عيّنه في الهيئة المكلّفة بمحاكمة التونسي في سنة 438هـ / 1046م والتي لم تكن تضمّ من بين أعضائها نجل ابن هاشم . وقد توفّي أحمد بن أبي زيد بعد سنة 460هـ / 1067—1068م .

48) إدريس ، كرّاسات تونسيّة ، 1956 ، 508—517 .

القضية إلى المعزّ بن باديس، فجمع بعض الجمع عنده في المقصورة وناظروه [التونسي] فأظهر الإنابة إلى قولهم والرجوع.

ثمّ خلا بأصحابه فأنكروا عليه رجوعه إلى قولهم وأنّه الحقّ الذي لا يجب سواه.

وكان رأي الفقهاء سدّ هذا الباب للعامّة على هؤلاء الكَفَرَة بني عُبَيد الزنادقة، وأنّ الداخل في دعوتهم وإن لم يقل بقولهم كافر، لتولّيه الكفر. فأظهر أبو إسحاق التمادي على قوله وإنكار الرجوع عنه. فأطلق الفقهاء الفتيا بمقاله هذا بالتضليل والتبديع وقال فيها الشعراء قصائد كثيرة تضمّنت أبا إسحاق والتبرّي منه، وأنشدها الشعراء والطلبة عند الفقهاء في دُورهم وجمعهم. وأمر السلطان بسجلّ من القضية من التبرّي من قوله، وقيل فيه ما يعظم به أجره، وأمر بقراءته يوم الجمعة على المنبر قبل الصلاة مستهلّ صفر 438هـ (7 أوت 1046م). ثمّ أمر السلطان بإحضاره بالمقصورة في ذلك اليوم إثر الصلاة، وأحضر معه الفقهاء أبا القاسم اللبيدي فقيه مشيخة الفقهاء وكبيرهم والفقيه أبا الحسن [ابن المقري] والقاضي أبا بكر ابن أبي محمّد بن أبي زيد خاصّة من سائر الفقهاء، وكان هذان الفقيهان من أشدّ الناس ميلاً إلى مذهب الجماعة.

وحكم في المسألة اللبيدي، فحكم بأنْ يقرّ بالتوبة على المنبر بمشهد جميع الناس، وأن يقول: كنت ضالاً فيما رأيته ورجعت عن ذلك إلى مذهب الجماعة. فاستعظم الأمر على المنبر وقال: ها أنا أقول هذا بينكم. فساعدوه وقنعوا منه بقول ذلك بمحضر السّلطان والجماعة وأن يقوله بمجلسه ويشيعه عنه. فافترقوا على ذلك وحصلت على الشيخ منه غضاضة فخرج في صبيحة يومه [2 صفر 438هـ] متوجّهًا إلى رباط المنستير...

وقد حكى أبو عبد الله بن سعدون قال: رأيت أبا القاسم اللبيدي [في المنام] بعد موته، فسألته: مَنْ هو على الحقّ أنت أم أبو إسحاق؟ فسكت بقصده، فكأنّه يقول لي بصوت خفيّ: التونسي»[49].

«قال عياض: ولا امتراء عند كلّ منصف أنّ الحقّ فيما قاله أبو إسحاق. ولا امتراء أنّ مخالفته أوّلاً لرأي أصحابه في حسم الباب لمصلحة العامّة لجاج، وأنّ رأي الجماعة كان أسدى للحال وأولى. وفتواه هذه جُرِيَ على العلم وطريق الحكم. ومع هذا فما نقّصه هذا عند أهل التحقيق ولا حطّ منصبه عند أهل التوفيق»[50].

---

49) **معالم الإيمان**، 220/3، 221، 222.

50) نفس المرجع.

وحسب رواية أخرى[51] ، استُفْتِي أبو إسحاق التونسي حول رجل من أهل السنّة يريد أن يتزوّج امرأة من الشيعة ويخشى أن يصدّه ذلك عن أداء واجباته الدينيّة. فأجاب الفقيه أنّ الشيعة ينقسمون إلى قسمين : قسمٌ يرى تفوّق الأدنى على الأعلى ويفضّل عليّ بن أبي طالب على أبي بكر ، والقسم الآخر وهم الذين يفضّلون عليًّا ويسبّون سائر الصحابة. فالشّيعة التابعون للقسم الأوّل لا يبطل نكاحهم ولكن ينبغي السعي إلى إقناعهم ببطلان نظريّتهم وحثّهم على التوبة. أمّا الآخرون فلا يجوز نكاحهم بأيّ حال من الأحوال لأنّهم كفّار.

ولما علم أهل القيروان بتلك الفتوى اتّهموا صاحبها بالزندقة لأنّه ميّز بين صنفين من الشيعة ، وألحّوا عليه بأنّ يعتذر على رؤوس الملإ ، فأبى. واقترح عليه أحد الفقهاء أن يقرّ بالتوبة على المنبر ، وهي وسيلة ملتوية ، الغرض منها إرضاء خصومه دون التراجع عن موقفه بصريح العبارة. لأن تلك التوبة تنطبق في قرارة نفسه على ذنوبه السابقة لا على أخطائه المذهبية. فاستجاب الشيخ لهذا الاقتراح. وعند ذلك قالت العامّة : «لما ارتدّ التونسي كان وجهه وجه كافر ولما تاب أصبح وجهه وجه مؤمن». إلاّ أنّ هذه الرواية تبدو أقلّ وضوحًا من الأولى وتكتسي صبغة خرافية صريحة.

وأخيرًا فقد لخّص البرزلي باقتضاب – من سوء الحظّ – رواية ابن شرف الذي شهد وقائع هذه القضيّة ، واكتفى المؤلف بإحالة القارئ على كتاب شاعر الدولة االصنهاجية الذائع الصّيت. ومن المعلوم أنّ ابن شرف قد هاجر إلى الأندلس سنة 447 هـ / 1055 – 1056م ، وتوفّي بها بعد ذلك بثلاث عشرة سنة. ورغم أنّ تاريخ الكتاب المذكور غير معروف ، فالغالب على الظنّ أنّه كان من بين الكتب التي ألّفها المهاجرون الإفريقيّون الخادمون لركاب الدولة الأموية بالأندلس ، قصد الإساءة إلى سمعة الفاطميّين..

وحسب رواية ابن شرف ، طُلِبَ إلى التونسي أنّ يقرّ بالتوبة على المنبر بمشهد جميع الناس ، فأبى. ثمّ طُلِب إليه بمحضر القاضي أبي بكر أحمد بن أبي محمّد بن أبي زيد وشهوده ، التراجع عن أقواله ، فأبى أيضًا وتوجّه إلى المنستير. وأعلمنا المؤلّف أنّ التونسي قد صنّف الشيعة إلى قسمين لأنّ له «قرابة منهم» بمدينة تونس.

والجدير بالملاحظة أنّ هذه الرواية تشبه الرواية الأولى وتوفّر لنا معلومة على غاية من الأهمية. كما تؤكّد من جهة أخرى – حسب قول ابن شرف – أنّ أبا بكر بن أبي زيد كان قاضيًا في سنة 438 هـ ، والحال أنّه قد عُزِلَ في آخر رمضان سنة 435 هـ كما أسلفنا. إلاّ أنّه

---

51) نفس المرجع.

ربّما يُفْهَم من إشارة صاحب **معالم الإيمان** إلى وجوده من بين الفقهاء الثلاثة الذين كلّفهم المعزّ بمحاكمة التونسي ، وعدم حضور القاضي الذي خلفه في ذلك المجلس ، أنّه قد استرجع منصب القضاء . ولكنّ تحمّس ابن شرف لمناصرة ابن أبي زيد ، يدعونا إلى اتّهامه بالانحياز وحتّى بالافتراء . على أنّ ذلك التأكيد ربّما لم يصدر عن ابن شرف ذاته ، بل يمكن أن نفترض أنّ الأمر يتعلّق بتحريف ارتكبه في فترة لاحقة شخص آخر ، قد يكون البرزلي مثلاً .

وحسبما رواه أيضًا البرزلي ، فإنّ مهاجرًا إفريقيًّا آخر بالأندلس ، وهو محمّد بن سعدون السالف الذكر (المتوفّى سنة 485 أو 486 هـ / 1092 – 1094م) أشار في كتابه «**تآسي أهل الإيمان بما طرأ على مدينة القيروان**» إلى فرقة ثالثة من الشيعة الذين أجمع الفقهاء على تكفيرهم ، وهم الذين يزعمون أنّ جبريل – عليه السلام – قد أخطأ لمّا أنزل الوحي على محمّد رسول الله ﷺ ، عوضًا عن عليّ بن أبي طالب – كرّم الله وجهه – . وحول هذه المسألة أيضًا ، أحال البرزلي القارئ على كتاب من تأليف ابن رشد (المتوفّى سنة 595 هـ / 1198 م) .

ورغم أنّ أبا حفص العطّار قال : «إذا وافقني أبو إسحاق التونسي وعبد الواحد الكفيف ، ما أبالي مَنْ خالفني»[51] ، لا يبدو أنّه قد وافق على زواج السنّي بشيعيّة . فحسب رأي هذا الفقيه لا يمكن اعتبار ذلك الزواج حلالاً ، ولا ينبغي أن يتعلّل الزّوج بإمكانية حمل زوجته على اعتناق المذهب السنّي ، لأنه إذا مات يُخْشَى أن يُعْهَدَ بحضانة أبنائه إلى جدّتهم من الأمّ أو خالتهم ، إذا تزوّجت أمّهم من جديد . وحسبما رواه أحد الاباضيّين من العصر الصنهاجي ، وهو المسمّى ماكسن ، أجاب بعض الفقهاء على هذا السؤال : «هل يجوز التوارث بين الشيعة وبيننا؟» بما يلي : لا يجوز ذلك بالنسبة إلى أهل التعطيل (أي الذين ينكرون العقيدة) ، ويجوز بالنسبة إلى أهل التفضيل (أي الذين يفضّلون عليّ بن أبي طالب) . ومن الغريب أن نلاحظ أنّ الاباضيّين الخوارج قد اتّخذوا موقفًا مماثلاً لموقف التونسي حول علاقتهم بالشيعة ، وهم من ألدّ أعدائهم . اللهمّ إلاّ إذا كان المصدر الاباضي المعني بالأمر قد أشار إلى رأي الفقيه القيرواني ، لا أكثر ولا أقلّ ، وهو أمرٌ محتمل أكثر . وفي هذه الصورة تكون الرواية المذكورة مجرّد ترديد لصدى الجدل الذي أثارته فتوى التونسي الشهيرة في الأوساط الإباضيّة .

«وقد توفّي الشيخ أبو إسحاق التونسي يوم الاثنين الثاني من ربيع الآخر سنة ثلاث

---

51) نفس المرجع .

وأربعين وأربعمائة (13 أوت 1051م) وحضر جنازته المعزّ بن باديس في جمع عظيم ودُفِنَ بباب سلم»[52]. ورثاه عدد كبير من الشعراء، في طليعتهم الشاعر الذائع الصّيت ابن شرف. ويدلّ تكريم هذا الفقيه بعد وفاته على أنّ أهل القيروان قد غفروا له مواقفه المتحرّرة. ذلك أنّ المالكيّة الذين بلغوا مقصودهم بعد القطيعة، لم يبقَ لهم أيّ مبرّر ليحقدوا عليه.

وأشار ابن الأثير في سياق الحديث عن الأحداث التي جرت في سنة 439هـ/ 28 جوان 1047 – 15 جوان 1048م، إلى ما يلي :

«وفيها اقتتلت طوائف من تلكاتة، قاتل بعضهم بعضًا، وكان بينهم حربٌ صبروا فيها. فقُتِلَ منهم خلق كثير»[53].

ومن سوء الحظّ، لا شيء يسمح لنا بربط تلك الأحداث بالقطيعة التي ربّما لم تكن لها أيّة علاقة بها.

وأخيرًا فإنّ بعض المصادر الشرقية[54] تؤكّد أنّ القطيعة قد حصلت في سنة 443هـ/ 1051 – 1052م، وهي السنة التي «كان فيها لباس السواد بالقيروان»، حسبما رواه ابن عذاري[55]. بل إن ابن ميسّر قد أشار إلى أنّ المعزّ بعث شخصًا يقال له الشريف إلى الخليفة العبّاسي الذي أعلم أمير إفريقية بموافقته، بواسطة رسول يدعى أبو غالب الشرازي. وقد توجّه هذا الشخص إلى إفريقية عبر الإمبراطورية البيزنطية. فألقى الإمبراطور البيزنطي عليه القبض وسلّمه إلى الخليفة الفاطمي المستنصر. وقد دخل الأسير إلى القاهرة في مظهر شائن، وهو راكب على جمل بالجلاجل. وأمر المستنصر بحرق سجلّ التقليد واللواء الأسود والهدايا الموجّهة إلى المعزّ، في حفرة بالمكان المعروف باسم «بين القصرَيْن»، ثمّ أرجع الرسول إلى القسطنطينية. ولا شكّ أنّ هذه البعثة الفاشلة قد سبقت بعثة أبي الفضل البغدادي.

وقبل التعرّض للروايات[56] التي تحدّد تاريخ قطع الدعوة الفاطميّة وإظهار الدعوة

---

52) نفس المرجع.

53) **الكامل**، 225/9.

54) ابن ميسّر، 5 – 6؛ ابن خلكان، 103/2؛ **نجوم**، 50/5 – 51 (استشهاد من الذهبي)؛ ادريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1955، 28.

55) **البيان**، 280/1.

56) أ) ترجمة القاضي أبي عبد الله بن جعفر الكوفي، **معالم**، 243/3 – 245 حول خطبة عيد الفطر المناهضة للشيعة (1 شوال 440هـ/ 9 مارس 1049م). أنظر ادريس، تحية لويس ماسينيون، 353/2 – 357.

ب) **البيان**، 277/1 – 279. نقل عن ابن شرف فقرتين طويلتين وكذلك خطبة عيد الأضحى المناهضة للشيعة (10 ذو الحجّة 440هـ/ 16 ماي 1049م).

=

للخليفة العبّاسي، بسنة 439 – 440 هـ/ 1047 – 1049م، وهي روايات مقتبسة في معظمها – بصورة صريحة أو غير صريحة – من تاريخ ابن شرف، يجدر بنا الرجوع إلى المعلومات المتعلقة بالمسكوكات، والتي تؤكّد بلا ريب صحّة ذلك التأريخ[57].

فقد كانت جميع الدنانير الزيرية في عهد المعزّ بن باديس حتى سنة 438 هـ/ 1046 – 1047م من الطّراز الشيعي، وكانت تُضرَب في المهديّة أو المنصوريّة باسم الخليفة الفاطمي المستنصر. ومن سنة 439 هـ/ 1047 – 1048م إلى سنة 440 هـ/ 1048 – 1049م، أصبحت الدنانير تحمل اسم صبرة عوض المنصوريّة. وبعبارة أخرى فقد تمّ تعويض اسم المدينة التي أسّسها الخليفة الفاطمي المنصور باسمها القديم، صبرة. إلاّ أنّ الاحتفاظ بالعبارات الشيعيّة وباسم المستنصر يدلّ على أنّ القطيعة لئن أصبحت وشيكة، فهي لم تدخل آنذاك حيّز التنفيذ.

ومن سنة 441 هـ/ 1049 – 1050م إلى سنة 449 هـ/ 1057 – 1058م، أصبحت الدنانير من الطراز السنّي، وهي تتميّز بحذف العبارات العلويّة وإلغاء اسم الخليفة الفاطمي وإثبات الآية القرآنية: ﴿ومَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلام ديناً فلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِين﴾[58].

وفي سنة 446 هـ/ 1054–1055م وسنة 447 هـ/ 1055–1056م ضُرِبَ ديناران بالمهديّة التي كان عاملاً عليها تميم بن المعزّ. ولكنّ أغلب الدنانير كانت تحمل العبارة التالية :

= ج) استشهد ابن بسّام (1/4، 67 – 69 و70 – 90 بالشاعر الشهير ابن رشيق (المتوفّى سنة 456 هـ/ 1063م). ولعلّ الأمر يتعلق بفقرة مقتبسة من كتاب «**الأنموذج**» لا من كتاب «**ميزان العمل في تاريخ الدول**» الذي كنت نسبته خطأً إلى هذا الشاعر. و هو كتاب ربّما يكون من تأليف كاتب متأخر يحمل نفس الاسم. أنظر أيضًا؛ إدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1953، 31.

د) **الكامل**، 235/9.

هـ) **العبر**، 14/4. وضع المؤلف ذروة القطيعة في سنة 437 هـ في فقرة أولى وفي سنة 440 هـ في فقرة ثانية. ولكن الخلط المتكرّر في المخطوطات العربية بين 7 و9 يسمح لنا بقراءة 439 هـ، لا سيّما وقد ورد ذكر الرسول العبّاسي أبي الفضل البغدادي.

و) **شذرات**، 264/3. يحدّد مؤلّف هذا الكتاب تاريخ القطيعة بسنة 440 هـ. أما ابن أبي دينار (**المؤنس**، 82) فيحدّد تاريخ الدعوة لبني العبّاس بسنة 435 هـ وقطع الدعوة الفاطميّة في الخطبة بسنة 440 هـ. ويحدّد المراكشي من جهته تاريخ القطيعة بحوالي سنة 440 هـ (تحقيق دوزي، 1847، 235).

57) فرّوجيا دي كنديا، المجلة التونسية، 1936، 333 – 372؛ 1937، 89 – 136؛ 1948، 103 – 131.

58) سورة آل عمران، الآية 85. وقد نقشت هذه الآية على الدنانير المرابطية في سنة 450 هـ.

«ضُرِب في مدينة عِزّ الإسلام والقيروان». وهي نفس العبارة المنقوشة في سنة 437هـ/ 1045 - 1046م على أعلى باب صبرة[59]. كما ضُرِبت قطعة أخرى بالقيروان في سنة 448هـ / 1056 - 1057م.

فمن الأكيد حينئذٍ أنّ قطع الدعوة الفاطميّة كان أمرًا واقعًا في سنة 441هـ/ 1049-1050م. إلاّ أنّ ذلك لا يعني وجوب رفض أقوال الإخباريّين الذين حدّدوا القطيعة بتواريخ سابقة لسنة 441هـ. ذلك أنّه ليس من المستبعد - خلافًا للمنطق - أن يكون بنو زيري قد استمرّوا - حتى بعد القطيعة - في ضرب نقود شيعيّة باسم المستنصر، مع إدخال بعض التعديلات البليغة عليها، لا سيّما وأنّنا سنلاحظ فيما بعد تفاوتًا في التواريخ بين الأحداث السياسية وانعكاساتها على المسكوكات. على أنّ المؤرّخين قد أشاروا إلى «تبديل السكّة» في سنة 441هـ[60].

وقد أشار ابن خلدون[61] إلى قدوم أبي الفضل عبد الواحد التميمي حوالي سنة 443هـ/ 1051م حاملاً وثيقة التقليد من الخليفة العبّاسي إلى أمير إفريقيّة. كما أشار ابن بشكوال[62] والمقري[63] إلى وجود ذلك السفير بالقيروان في عهد المعزّ بن باديس، دون ذكر أيّ تاريخ، وأوضحا أنّه توجّه إلى الأندلس بعد زحفة بني هلال وتوفّي بطليطلة سنة 455هـ/ 1063م. ونقل المقري الأبيات التي نظمها بطلب من المعزّ في وصف نديم شابّ.

ومن حسن الحظّ، فقد أمدّنا ابن بسّام (المتوفّى سنة 542هـ/ 1147م) بمعلومات ثمينة حول هذا الشخص[64]. وذكر لنا بصريح العبارة أنّه اعتمد على ابن رشيق، شاعر المعزّ الذائع الصّيت (المتوفّى سنة 456هـ/ 1063م). ولعلّ الأمر يتعلّق بفقرة منقولة بحذافيرها أو ملخّصة من كتاب ابن رشيق: «**أنموذج الزمان في شعراء القيروان**» الذي لم يصلنا. ويبدو أنّ ابن بسّام قد نقل تلك الفقرة حرفيًّا أو ربّما أخذها عن المؤرّخ الأندلسي ابن حيّان (المتوفّى سنة 469هـ/ 1076م) الذي يُعتبَر أهم مصدر من المصادر التاريخيّة.

---

59) **نقائش عربية**، 87/1 - 90.

60) **البيان**، 278/1. أنظر حول هذه المسألة: إدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1953، 29 - 30.

61) **البربر**، 21/2.

62) **الصلة**، 2/ عدد 1194، ص 540.

63) المقري، طبعة القاهرة 1949، 108/4 - 110؛ ابن بسّام، 4-1/73، أورد نفس النصّ. أنظر أيضًا: الصفدي، 70/4 - 71 عدد 1524 (التاريخ الصحيح لوفاته حسب ابن حيّان).

64) ابن بسّام، 4-1/67 - 69، أنظر أيضًا: 70 - 90.

ومهما يكن من أمر، فقد أخبرنا ابن بسّام أنّ الوزير أبا الفضل محمّد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي «قد خرج من بغداد إذ مات أبوه، وأساء عشرته أخوه، وسنّه دون العشرين. فلحق بالأمير محمود [الغزنوي]، وشهد حروبه بأرض الهنود، إلى أن توفّي فولي أكبرُ ولده بعده، فبقي أبو الفضل على حاله عنده... ولحق بشروان شاه، وصحبه إلى أن توفّي أيضًا وولّوا أخاه. فكاتب أبو الفضل الخليفة أبا جعفر القائم ببغداد في الوصول إليه. فاتّفق ورود كتابه إثر وفود رسول المعزّ بن باديس عليه. فطلب الخليفة رجلاً يسفر بينهما. فأُرْشِدَ إلى أبي الفضل. فوجّه عنه وورد، فجهّزه وخرج مستترًا من بَلَدٍ إلى بلد، حتى وصل حلب، فاشتهر خبره وطُلِب. فمدح معزّ الدولة بقصيدته التي أوّلها: «عهود الصبا مَنْ بَعْدَ عهدك آمُلُ» فأمر له بثياب سريّة، وحمله على فرس عربيّة. ثمّ انفصل عنه واجتاز بمعرّة النعمان. وبها المعرّي أحمد بن سليمان [الشاعر الشهير أبو العلاء المعرّي المتوفّى سنة 449هـ/ 1057 – 1058م]. فوصل إليه، وأنشده قصيدته اللاّمية. فقبّله المعرّي بين عينيه، وقال له: بأبي أنت من ناظم! ما أراك إلّا الرسول إلى المغرب. فوصل مصر ووزيرها يومئذٍ صدقة بن يوسف بن علي الملقّب بالفلاحي. فقصد مجلس قاضي القضاة بها. وأثبت عقدًا على رجل مشهور كان يومئذٍ ببلاد المغرب بشهادات زور. ولما ثبت ذلك من الطّومار، خرج من مصر في زيّ التجّار، يؤمّ بلاد إفريقية. فوقع على خبره صاحب الإسكندرية. وطلبه فأعجزه. وبلغ طرابلس المغرب أوّل عمل المعزّ. فأُفشِيَ أمره وفُضِحَ سرّه. فأمر المعزّ بإشخاصه. فلما وصل سُعِيَ به عنده وأراد قتله. فقال له: تأَنَّ فِيَّ، واستقصِ عليّ، فإن صدقتُ وإلا قُتِلتُ. فمشى أبو الفضل بالقيروان مرقبًا عليه، إلى أن ورد كتاب القائم بصدق، فاعتذر إليه، ورفع منزلته وأكرمه. وبسط يده في مطالبيه وحكّمه، فحملهم أبو الفضل إلى منزله وأحسن إليهم، وخلع عليهم. فعجب المعزّ من كرمه وقلّده تدبير حشمه. وكان ورود أبي الفضل بلَد القيروان سنة تسع وثلاثين (439هـ)[65]. حكى ذلك أبو علي بن رشيق، وقال: إنه أوّل من أدخل كتاب «اليتيمة» [**يتيمة الدهر**] للثعالبي عندهم،[66] (انتهى كلام ابن بسّام).

65) من الجدير بالملاحظة أن هذا الجزء من **الذخيرة** قد تمّ تحقيقه اعتمادًا على مخطوط واحد. ونحن نعلم أن الناسخين كثيرًا ما يخلطون في الكتابة بين 7 و9 (سبعة وتسعة).

66) **يتيمة الدهر**، هو كتاب في تراجم الشعراء الشرقيين، ألّفه الثعالبي (المتوفّى سنة 429هـ/ 1037م). أنظر حول هذه القضية: إدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1953، 31 – 33.

ورغم الوشايات، فإنّنا نستغرب كيف فكّر المعزّ بن باديس في قتل رجلٍ ادّعى – خطأً أو صوابًا – أنّه رسول الخليفة العبّاسي. فلعلّ كبار رجال الدولة بالقيروان كانوا ينتظرون قدوم شخص آخر، فاشتبهوا في أبي الفضل. ومن الواضح أنّه لم يكن يحمل أي خطاب اعتماد، ولا أي سند معرّض للشبهة، وذلك من باب الاحتياط. إذ كان عليه أن يجتاز بلدانًا تابعة للدولة الفاطمية، وكان يخشى أن يُلْقَى عليه القبض. وقد أسلفنا أنّه أوشك أن يتعرّض لذلك الخطر. ووصل الخطاب الرّسمي بعد قدوم السفير، ولا بدّ أنّه سلك طريق البحر. ذلك أنّ ابن الأثير[67] الذي حدّد تاريخ القطيعة بسنة 435هـ، قد أخبرنا من جهة أنّ كتاب التقليد وصل مع الخُلَع التي حملها الرُّسُل، ومن جهة أخرى أنّ المعزّ تلقّى من القائم خُلَعًا وأعلامًا على طريق القسطنطينية.

ولكن هناك أمر لا شكّ فيه، وهو وصول شخص قادم من بغداد إلى صبرة المنصورية في سنة 439هـ/ 1047م، وقد ادّعى أنّه رسول الخليفة. فاتُّهم بالتحيّل وهُدِّد بالقتل ثم أُسْعِفَ بمهلة وحُجِز في القيروان تحت الحراسة المشدّدة. وأخيرًا وصل الخطاب الرسمي المؤيّد لأقوال ذلك المبعوث الذي أغدق عليه الأمير النِّعَم. وبناء على ذلك ينبغي تحديد ذروة القطيعة الديبلوماسية بحوالي 439–440هـ/ 1047 – 1048م. ولكنّ مظاهرها المتتالية تمتدّ حسب الاحتمال من سنة 433 إلى سنة 443هـ/ 1041 – 1051م، أي ما يناهز العشر سنوات.

وقد قدّم إلينا ابن خلدون[68] المعلومات الإضافية التالية: لمّا تلقّى الخليفة العبّاسي وثيقة المبايعة من المعزّ، وجّه إليه بواسطة أبي الفضل البغدادي كتاب التقليد والخُلَع، فقُرِئَ الكتاب في الجامع الأعظم بالقيروان ونُشِرَت الأعلام السوداء، رمز العباسيّين (عوضًا عن الأعلام البيضاء رمز الفاطميّين) وهُدِّمت دار الاسماعيلية الشبيهة لا محالة ببيت الحكمة[69]، المؤسّسة الشهيرة التي أنشأها الفاطميّون بالقاهرة.

وقد أكّد ابن عذاري وابن خلدون[70] أنّ المعزّ بن باديس قد أمر بإحراق أعلام بني

67) الكامل، 217/9.

68) العبر، 14/4.

69) يطلق هذا الاسم على مؤسسة أغلبيّة، هي عبارة عن جامعة ذات اتجاه فلسفي ومعتزلي. وقد كانت تدرس فيها أيضًا العلوم التطبيقية، حسبما يبدو. أنظر الباب الثاني عشر من هذا الكتاب.

70) البيان، 277/1 – 279 والعبر، 159/4.

عُبَيْد بعد تمزيقها[71]. «وقد كان قَطَعَ أسماءهم من الرايات والبنود والطّرز».

وتضمّنت ترجمة أبي عبد الله محمّد بن جعفر الكوفي قاضي صبرة المنصوريّة أوّل خطبة أُلقِيَت ضدّ الفاطميّين، مع الإشارة إلى ظروف إلقائها.

فقد جاء في **معالم الإيمان**[72] ما يلي:

«لمّا أمر المعزّ بن باديس بلعنة بني عُبَيْد في الخطب، وذلك في يوم عيد الفطر من سنة أربعين وأربعمائة (أوّل شوال / 9 مارس 1049م)، خطب القاضي محمّد بن جعفر هذا فقال، بعد ذكر ما جرت العادة في خطبة [عيد] الفطر:

«اللهمّ والعن الفَسَقَة الكُفّار المُرايين الفُجّار، أعداء الدين وأنصار الشياطين، المخالفين لأمرك والناقضين لعهدك، المتّبعين غير سبيلك والمبدّلين لكتابك. اللهمّ العنهم لعنًا وبيلاً وأَخْزِهم خزيًا عريضًا طويلاً. اللهمّ وإنّ مولانا وسيّدنا أبا تمّام[73] المعزّ بن باديس بن المنصور، القائم بدينك والناصر لسنّة نبيّك والرافع للواء أوليائك يقول مصدّقًا لكتابك وتابعًا لأمرك، مباينًا لِمَنْ غَيّر الدين وسلك غير سبيل المرشدين المؤمنين: ﴿يا أيُّها الكافِرونَ، لا أعبُدُ ما تَعْبُدُونَ، وَلا أنتم عَابِدُونَ ما أَعْبُدُ، وَلا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ، وَلا أنتُم عَابِدونَ ما أَعْبُدُ﴾»[74]. هكذا بإسقاط «قُلْ» من أوّل السّورة، وَتَرْكِ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، لتعلّق الأمر بالمراد. وأمر السلطان خطيب جامع القيروان أن يفعل ذلك على المنبر في الجُمَع في كلّ خطبة.

وهذا دليل على فصاحته (أي محمّد بن جعفر) ومباينته لأهل البدع ومحبّته لأهل السنّة. وجرت عليه محنة أعقبها التأخّر عن قضائهم والزهد في جوارهم. وذلك بسبب أبيات صنعها ابن رشيق، منها هذان البيتان، صنعهما معرّضًا بالقاضي محمّد بن جعفر:

[كامل]

يا سالكًا بين الأسنّة والظُّبى ... إنّي أشمّ عليك رائحة الدّم

يا ليت شعري مَنْ رقّاك بعوده ... حتى رقيت إلى مكان الأرقم

71) حسب الكتبي، **عيون التواريخ**، قطع مختارة لم يسبق نشرها، فاغنان، 258؛ **والمؤنس**، 82.

72) **معالم الإيمان**، 243/3 – 245. أنظر أيضًا: إدريس، تحية لويس ماسينيون، 355/2 – 356 والباب الثامن من هذا الكتاب.

73) **معالم الإيمان**، 243/3 – 244. لا شكّ أن الخطيب قد عوّض كنية المعزّ «أبا تميم» بكنية «أبي تمّام»؛ **البيان**، 273/I – 278: «أبو تميم»؛ **أعمال**، 455 – 456: «المعزّ أبو تمّام».

74) سورة الكافرون، الآيات من 1 إلى 5.

فنمت [هذه الأبيات] إلى السلطان ، فكانت سبب محنته . فلمّا صودر بالمكروه ، فرّ من مدينة القيروان ، فما سُمِعَ له خبر إلاّ من مصر.

وقرئ سجلّ القاضي علي بن أحمد البوني بجامع القيروان بولايته جميع ما كان يتولاّه محمّد بن جعفر من قضاء مدينة صبرة وزوال القضاء عن بني الكوفي...

ولم يزل محمّد بن جعفر بمصر بعد انصرافه من القيروان متعرّفًا مزيد الحظوة وسموّ الرتبة...».

«وفي سنة 443هـ [1051–1052م] وردت الأخبار أنّ محمّد بن جعفر الكوفي ولي القضاء بمصر، ولُقِّبَ قاضي القضاة وداعي الدعاة. قال ابن شرف : فنعوذ بالله من سوء العاقبة ! لأنّ قاضي القوم منهم وعلى مذهبهم ، يعني الشيعة»[75].

«ثمّ تخلّى عن القضاء وارتحل عن مصر، فلم يستقرّ له قرار إلا بأقصى الشام ، فيقال إنه توفّي هناك بعد السبعين وأربعمائة [1077 – 1078م]»[76].

وقد أورد ابن عذاري[77] نقلاً عن ابن شرف نفس نصّ تلك الخطبة ، ولكنّه أكّد أنّها أُلقِيَت في عيد الإضحى (10 ذو الحجّة 440هـ / 16 ماي 1049م) ، ولم يذكر اسم الخطيب . وفي موضع آخر[78] قال : «وفي سنة 440هـ [16 جوان 1048– 4 جوان 1049م] قُطِعَت الخطبة لصاحب مصر وأُحْرِقَت بنوده». ثمّ أضاف : «قال ابن شرف : وأمر المعزّ بن باديس أن يُدْعَى على منابر إفريقية للعبّاس ابن عبد المطّلب ويُقْطَع دعوة الشيعة العُبَيْديّين ، فدعا الخطيب للخلفاء الأربعة وللعبّاس ولبقيّة العشرة رضي الله عنهم»[79].

وقد قيل لنا إن كلّ هذه الإجراءات قد أدخلت البهجة والسرور على أهل القيروان المالكيّة والمصلّين الذين كانوا قد أمسكوا قبل ذلك التاريخ عن أداء صلاة الجمعة فرارًا من الدعوة الفاطميّة.

ولمّا خطب المعزّ لبني العبّاس «كتب إليه المستنصر يتهدّده ويقول له : هلاّ اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء . فأجابه المعزّ : إنّ آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يملكه

75) **البيان**، 288/1.

76) **معالم الإيمان**، 245/3.

77) **البيان**، 277/1 – 278.

78) نفس المرجع.

79) وهم الصحابة العشرة الذين وعدهم الرسول بالجنّة.

أسلافك ، ولهم عليهم من الخِدَم أعظم من التقديم ، ولو أخّروهم لتقدّموهم بأسيافهم»[80].

وقد أسلفنا أنّ الدنانير الزيريّة من الطّراز السنّي كانت تُضرَب في القيروان أو المهديّة من سنة 441 إلى سنة 449 هـ.

«قال ابن شرف : وفي سنة 441 هـ أمر المعزّ بتبديل السكّة في شهر شعبان فنُقِش على الأزواج في الوجه الواحد : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلام دينًا فَلَنْ يُقْبَلُ منه وهو في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِين﴾[81] ، وفي الوجه الثاني : لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله. وضُرِبَ منها دنانير كثيرة. وأَمَرَ أيضًا بسبك ما كان عنده من الدنانير التي عليها أسماء بني عُبَيْد ، فسُبِكَت وكانت أموالاً عظيمة. ثمّ بثّ في الناس قطع سكّتهم وزوال أسمائهم من جميع الدنانير والدراهم بسائر عمله»[82].

إلاّ أنّ تطبيق هذا الإجراء قد أثار بعض الصعوبات. والدّليل على ذلك أنّه بعد شهرين من صدور الأوامر المذكورة ، أي في شعبان من سنة 441 هـ / 26 فيفري – 26 مارس 1050 م «نادى مُنادٍ بأمر السلطان أبي تميم : إنه مَن تصرّف بمال عليه أسماء بني عُبَيْد نالته العقوبة الشديد»[83].

ولدينا وثيقة أصليّة[84] حول القطيعة ، ولكنّها غير مؤرّخة – ويا للأسف – ومؤثّرة جدًّا. وهي عبارة عن مخطوط محفوظ بجامع القيروان يتمثّل في صفحة من صفحات مصحف ، من الأرجح أن تكون الصفحة الأولى ، وقد كُتِبَ عليها بخط المعزّ ذاته ، حسب الاحتمال ، العبارات التالية : «من عبد الله ووليّه المعزّ لدين الله. إنّي أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدًا رسول الله ﷺ ، وأنّ أفضل إنسان بعد رسول الله هو أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، رضي الله عنهم. اللهمّ اْلعَنْ بني عُبَيْد أعداءك وأعداء نبيّك. نفعنا الله بكرههم جميعًا. إنّي حبّستُ هذا المصحف على جامع القيروان حبًّا في الله سبحانه وتعالى».

وليس من المستبعَد أن تكون القطيعة قد تسبّبت بصورة أو بأخرى في عزل بعض الشخصيّات.

---

80) مقديش ، «**نزهة الأنظار**» ، 366/1. أنظر أيضًا : النويري ، 140/2 وابن خلكان ، 105/2.

81) سورة آل عمران، الآية 85.

82) **البيان** ، 278/1 – 279.

83) نفس المرجع.

84) **نقائش عربية** ، 1/عدد 10 ، ص 37 – 38.

«في سنة 439 هـ (28 جوان 1047 – 15 جوان 1048 م) نُكِبَ حبوس بن حُمَيْد الصنهاجي والي نفطة وطولب بمال كثير، ونِيلَ بالمكروه والهوان. وفيها نُكِبَ أحمد بن حجّاج قاضي قفصة، فبادر بعشرة آلاف دينار»[85].

«وفي سنة 441 هـ (5 جوان 1049 – 25 ماي 1050 م) نُكِبَ القائد عبّاد بن مروان المقّب بسيف المُلْك. وكان من الخاصّة ودُفِعَ إلى أعدائه وأُمِرَ باستخراج أمواله، والقبض على جميع من استعمله في أعماله وبعد ذلك أُلْقِيَ في سرداب مظلم حتى مات فيه»[86].

وفي نفس تلك السنة «تحرّك الأمير أبو تميم إلى بلاد المغرب الأقصى، وترك ولده أبا الطاهر تميم بن المعزّ على حضرة القيروان بالمنصوريّة»[87]. وإذا كان هذا النصّ صحيحًا، فلا ريب أنّ الأمر يتعلّق بزيارة عابرة وغيبة قصيرة. فهل حثّ القائد بن حمّاد ابن عمّه على التعاون معه لمقاومة الزناتيّين بالمغرب الأقصى؟ على أنّ إفريقية قد شهدت وقتئذٍ أحداثًا سعيدة. ففي نفس السنة المذكورة (441 هـ / 1049–1050 م) بُنِيَ المصلّى بالمنصوريّة. وفيها ركب المعزّ بن باديس في أحفل جمع وأحسن زيّ وخرج إلى ظاهر القيروان وأُخْرِجَت السباع بين يديه»[88].

«وفي سنة 442 هـ اصطلح أهل القيروان وأهل سوسة، وقد كانت جرت بينهم وحشة. فصنع القيروانيّون للسّوسيّين دعوات غُسِلَت فيها الأيدي بماء الورد، ومُسِحَت بمناديل الشرب»[89].

وفي نفس السنة عيّن المعزّ ابنه تميم وليًّا للعهد. «قال ابن شرف: وخطب الخطيب يوم الجمعة على جامع القيروان. فدعا للسلطان المعزّ بن باديس ولولده أبي الطاهر وليّ عهده. ثمّ قال: اللهمّ اصلح عبدك ووليّك أبا الطاهر تميم بن المعزّ الطاهر من كفر مَعَدّ بن الظاهر، يعني صاحب مصر»[90].

وفي 7 محرّم 442 هـ / أوّل جوان 1050 م قُلِّدَ اليازوري الوزارة بمصر، مع الاحتفاظ

---

85) **البيان**، 276/1 – 277.
86) نفس المرجع.
87) نفس المرجع.
88) نفس المرجع.
89) **البيان**، 279/1.
90) نفس المرجع. لم يذكر الخطيب لقب الخليفة المستنصر واستعمل الجناس (أبو الطاهر وطاهر).

بكلّ ما كان يتمتّع به من ألقاب وصلاحيات بوصفه «قاضي القضاة وداعي الدّعاة»[91]. ورغم حصول القطيعة منذ حوالي سنتيّن، استمرّ صاحب إفريقيّة في مكاتبة الدوائر الرسميّة بالقاهرة، وقد كان يمثّله بها نائبٌ بمثابة القائم بالأعمال. وبما أنّ اليازوري كان من أصل متواضع، فقد أمسك الولاة، حسب ابن خلدون[92]، عن مخاطبته في رسائلهم بعنوان «مولاي». فعظم ذلك عليه وعاتب ثمال بن صالح صاحب حلب والمعزّ بن باديس صاحب إفريقية اللّذين كانا يكرهانه.

وحسب مصادر أخرى[93]، فقد وضع اليازوري اسمه على رأس المكاتيب الرسمية، إثر تقلّده الوزارة. وخاطبه الأمراء بالألقاب الفخرية اللائقة بمقامه، ما عدا المعزّ بن باديس الصنهاجي الذي «لم يخاطبه كما كان يخاطب مَنْ قبله من الوزراء. كان يخاطبهم بعبده (أي عبد الخليفة)، فخاطب اليازوري بصنيعته (أي صنيعة الخليفة)[94]. فاستدعى اليازوري نائب المعزّ بالقاهرة وأبدى إليه بعض الملاحظات بكلّ لطف. ولكنّ الأمير تمادى في صنيعه. فجلب الوزير من إفريقية بواسطة بعض جواسيسه «سكّين الدواة» الذي كان يستعمله المعزّ في الكتابة. ثمّ استدعى النائب وخاطبه قائلاً: هذا السكّين أخذناه بلطف، ولو أردنا لذبحناه به بلطف! وسلّم إليه السكّين، فوجّهه النائب إلى مخدومه مرفوقًا برسالة. ولكنّ ذلك لم يخفّف من حنق الأمير. فتمكّن اليازوري من الاستحواذ على نعل من نعال المعزّ، واستدعى القائم بأعماله من جديد، وخاطبه قائلاً: اكتب لهذا البربريّ الغبيّ وقُل له: إذا لم ترجع عن غيّك ولم تتأدّب، أدّبناك بهذا النعل! فكاتب النائب سيّده الذي استمرّ مع ذلك في تحاشي العبارات التي فيها إطراء لليازوري. ولم يفكّر صاحب إفريقيّة أبدًا في الدّهاء الذي سيبديه الوزير عمّا قريب، وقد ظنّ أنّه يستطيع إهانته بدون عقاب.

وهناك واقعة غريبة[95] تدلّ على احتراز السلطة الزيريّة من إثارة عواطف الشعب

---

91) ابن الصيرفي، 40 – 41؛ ابن ميسّر، 5 – د، 9؛ **خطط**، 170/2؛ النويري، 140/2؛ **الكامل**، 235/9 – 237.

92) **العبر**، 13/6.

93) وبالخصوص الصيرفي و**الكامل** والنويري.

94) **الكامل**، 235/9.

95) **البرزلي**، 3/ الكراس الثاني والثلاثون ص 8 وجه. **المختصر**، ص 159 وجه و160 قفا. وبالنسبة لتفاصيل القصّة يحيل المؤلف على كتاب ابن شرف المواصل لتأليف الرقيق: «وقصّته طويلة أنظرها في تأليف ابن شرف الذي على ابن الرقيق». وفي **معالم الإيمان** (236/3 – 239) توجد أطول رواية حول هذه القصة، تنتهي بالترجمة الواردة في **المدارك**. وقد استشهد المؤلف بابن شرف وابنه جعفر. ولخّص صاحب **المدارك** (2 – 3/ صفحة 349 و351 قفا) ومقديش ما جاء في **معالم الإيمان**. أمّا **البيان**، 279/1 – 280، فهو المصدر الوحيد الذي ذكر كنية أبي عبد الله =

الدينيّة ، رغم حصول القطيعة ، وتسمح لنا بتدارك عدم دقّة التواريخ الواردة في المصادر ، وتحديد تاريخ مضبوط لأوّل اصطدام بين الصّنهاجيّين وبني هلال.

فقد روى كاتب السّيَر ابن ناجي[96] أنّ المسمّى أبا الحسن محمّد ابن الشيخ الواعظ عبد الصّمد[97] قد قدم من القاهرة إلى القيروان «وكان رجلاً صالحًا ، فاضلاً ، واعظًا ، زاهدًا ، صوفيًا ، عالمًا عاملاً. وكان له مجلس بالجامع الأعظم بالقيروان يجتمع إليه فيه ويسمع كلامه. وله لسان فصيح وقلب قريح ، كثير الحزن والبكاء والخوف من أولياء الله عزّ وجلّ ، المنقطعين إليه ، الخائفين الخاشعين ، المتبتّلين ، القائمين ، الصائمين ، قد ركب طريقة من الزهد والورع والخشية وصدق المقال في الوعظ ، لم يسلكها في وقته غيره ، فطبّق ذكره الآفاق وكثر ازدحام الناس إليه في مجلسه لاستماع وعظه ، ومالت إليه القلوب والأسماع ، وكثرت له الأتباع ، حتى حذره السلطان وخاف على نفسه منه.

«فاستعار السلطان منه بعض كتبه وأظهر له أنّه أحبّ مطالعة شيء منها ، فأرسل إليه بما أحبّ منها ، فأقامت عنده أيّامًا ثم أمر بردّها ، فتصفّح الواعظ أوراقًا منها ، فوجد بينها بطاقة[98] بخطّ السلطان ، كأنّه نسيها بين أوراق كتابه ، فإذا فيها : «زعمت ملوك الفرس وحكماء السّيَر والسياسة أنّ أهل التنمّس والوعظ وتأليف العامّة وإقامة المجالس ، أضرُّ الأصناف على الملوك وأقبحُهم أثرًا في الدّول ، فيجب أن يُتَدارك أمرهم». [وأحسن طريقة لبلوغ تلك الغاية مدُّهم بالمال ، فإن قبلوه انتهى أمرهم][99].

«فلمّا قرأ الواعظ أبو الحسن محمّد بن عبد الصمد البطاقة ، علم أنّه أمرٌ استُعْمِلَ له وقُصِدَ به ونُبِّه على الرأي فيه. فاستعمل الحجّ فخرج وخرج معه عامّة وخاصّة من أهل القيروان وأمر له السلطان بزادٍ ، فخرج متوجّهًا الحجّ في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهر

= عوضًا عن كنية أبي الحسن. ولعلّ الشخص المذكور له كنيتان : أبو الحسن (وهي الكنية التي تطلق عادة على الشخص الذي يحمل اسم علي) وأبو عبد الله (الكنية المقابلة لاسم محمّد). ولكن ألا يجوز أن تكون الكنية الأخيرة قد عوّضت الكنية الأولى احترامًا للعرف؟ أنظر إدريس ، تحية لويس ماسينيون ، 344/2 — 347.

96) **معالم الإيمان** ، 236/3 — 239.

97) يمكن ضبط اسمه على النحو التالي : أبو الحسن محمّد بن (أبي الفضل) عبد الصّمد (الجوهري). **البيان** ، 279/1 : «أبو عبد الله بن عبد الصّمد».

98) في الأصل «سجّادة».

99) إضافة من **المدارك**. **البيان** ، 280/1 : «واجتمع عليه بعض فقراء القيروان ، واستبشعوا ألفاظًا ذكرها ، فرفعوا رقاعهم إلى المعزّ بذلك».

الله رجب الفرد الحرام سنة إحدى وأربعين وأربعمائة (20 ديسمبر 1049)[100] ومعه رجال وُكِلُوا به أن يصلوا معه إلى مدينة قابس ونهي أن يُشَيِّعَه أحدٌ أو يخاطبه الخطاب. وكانت الرفقة الخارجة إلى مصر قد قرب خروجها، فأُمِرَ أن ينتظرها بمدينة قابس إلى أن يصحبها. وكُوتِب عامل قابس بأن لا يدخل إليه أحد هناك ولا يجتمع عنده اثنان ولا يخرج من المكان الذي يُنْزِله فيه إلا يوم سفره. فخرج وهو غير آمن على نفسه، وأظهر السلطان ما كان يخفيه من أمره وصار مَنْ ذكره بخير أو قال فيه جميلاً مبخوسًا مذمومًا، حتى صار كلّ من كان يفرط في مدحه ومودّته، يظهر الإفراط في ذمّه وعداوته، خوفًا على نفسه من السلطان.

«قال محمّد بن شرف (الشاعر والمؤرخ الزيري الشهير المتوفّى بإشبيلية سنة 460 هـ/1067 م): ثمّ اتّصل أنّ الواعظ لما فُصِلَ عن مدينة قابس، قتله رجل من الأعراب في طريقه ذلك[101]. «قال جعفر بن محمّد بن شرف (الشاعر الأندلسي وابن المؤلف السالف الذكر، نقلاً عن والده بدون شكّ): وبلغني أنّه دخل داخل على أبيه أبي الفضل عبد الصمد وكان واعظًا، فوجده في آخر مجلسه من الوعظ بجامع [عمرو] بن العاص، فنعى له ابنه أبا الحسن محمّد الواعظ الشهيد وأخبره بسبب قتله. فنعل قدمه في الحين وهو يلبّي بالحجّ من مكانه ذلك، ولم ينصرف إلى منزله وتبعه خلق عظيم، فحجّ ذلك العام، وكان يطوف بالبيت ويتعلّق بأستار الكعبة ويصيح ويقول: يا ربّ المعزّ عليك به! يا ربّ عليك بابن باديس! فكانت الهزيمة الواقعة بالقيروان في اليوم الثاني من حجّه[102] ودعائه. وذلك كان أصل خراب القيروان. فلم يشكّ أحد في إجابة دعائه».

وختم ابن ناجي كلامه قائلاً:

«وهذا أصحّ من نقل عياض عن محمّد بن عبد الصمد أنّه كان من علماء وقته بالقيروان وغلب عليه الزهد وأخذ في وعظ الناس حتى حذره صاحب القيروان وخاف منه»[103].

---

100) نظريًا يوم 22 رجب 441 هـ يصادف يوم الأربعاء. وأشار ابن عذاري (**البيان**، 279/7) إلى أنّ خروج ابن عبد الصمد كان في شهر رجب، ولم يذكر السنة. ولكنه روى هذه الحادثة في الفقرة المخصّصة لسنة 442 هـ.

101) نلاحظ عدم ذكر التاريخ.

102) 11 ذو الحجّة 443 هـ. وقد جاء في **نزهة الأنظار** (371/1) الذي هو مصدر متأخر، نقلاً عن **معالم الإيمان**: «في العام الثاني من حجّه». وعلى الأرجح أن تكون هذه الرواية من بنات أفكار المؤلّف.

103) **مدارك**، 2-351/3-352.

وروى الأديب القيرواني أبو الطيب الكمّاد[104] أنّ صاحب القيروان كان على أحسن ما يُرام، إلى أن استعار ذات يوم من محمّد بن عبد الصمد بعض كتبه وأظهر له أنّه أحبّ مطالعتها. فأبقاها عنده أيّامًا ثمّ ردّها له. وهنا نجد نقصًا كبيرًا في النصّ الذي أعطى بعد ذلك معلومات عن فحوى البطاقة التي ادّعى المعزّ أنّه نسيها بين أوراق الكتاب. فأدرك محمّد بن عبد الصمد أنّه هو المقصود بتلك البطاقة وقرّر الخروج إلى الحجّ، وخرج معه جماعة من عامة الناس. ثمّ عاد فأخذته الفتنة بالقيروان.

على أنّ مثل هذه الروايات، بالرغم من صبغتها الخرافية، تعطينا فكرة عن الجوّ السياسي والديني الذي كان سائدًا بإفريقيّة إبّان القطيعة مع القاهرة. ويبدو أنّ أبا الحسن محمّد بن عبد الصمد كان من أولئك «الشيوخ الشعبيّين» الذين أثارت أعمالهم الخفيّة حماس فقهاء القيروان المالكية، المحرّضين على الشغب، بعد قيامهم بالدّور المعروف في مذابح 406 – 407 هـ/ 1015 – 1016م. والغريب في الأمر أنّ المعزّ بن باديس التابع للخليفة العبّاسي ببغداد، قد عاملهم بقسوة.

وقد أسلفنا أنّ بعض المصادر الشرقية قد حدّدت تاريخ القطيعة بسنة 443 هـ، والحال أنّ القيروان قد شهدت خلال تلك السنة بعض مظاهر الولاء لبني العبّاس، الرامية، حسبما يبدو، إلى إثارة حميّة الرأي العام عندما تدقّ ساعة الخطر.

وفي سنة 443 هـ/ 15 ماي 1051 – 2 ماي 1052م، حسبما رواه ابن عذاري، «كان لباس السّواد بالقيروان والدّعاء لبني العبّاس»[105].

«قال ابن شرف: وفي جمادى الثانية[106] (443 هـ/ 10 أكتوبر – 7 نوفمبر 1051م) أمر المعزّ بن باديس بإحضار جماعة من الصبّاغين، وأخرج لهم ثيابًا بِيضًا من فندق الكتّان، وأمرهم أن يصبغوها سُودًا، فصبغوها بأحلك السواد، وجمع الخيّاطين فقطعوها أثوابًا. ثمّ

---

104) أبو الطيّب عبد المنعم بن منّ الله بن أبي بحر الهوّاري القيرواني المعروف بابن الكمّاد، شاعر وأديب قيرواني هاجر إلى الأندلس بعد زحفة بني هلال وتوفّي سنة 493 هـ/ 1099 – 1100م. **الصلة**، 1/عدد 835، ص 383؛ **التكملة**، عدد 1051 و1052؛ عبد السلام هارون، **نوادر المخطوطات**، الحلقة الثالثة، القاهرة 1373 هـ/ 1953م، عدد 14: نصّ الرسالة التي ألّفها للردّ على رسالة ابن غرسية الشعوبيّة. أنظر الباب الثاني عشر من هذا الكتاب. والجدير بالملاحظة أن ابنه محمّد قد تتلمذ في سنة 476 هـ/ 1083 – 1084م إلى محمّد بن سعدون وهو مهاجر إفريقي آخر إلى الأندلس.

105) **البيان**، 280/1. أنظر أيضًا: **مدارك** و **نزهة الأنظار**.

106) **البيان**، 280/1، نقلاً عن ابن شرف.

جمع الفقهاء والقضاة إلى قصره وخطيبَيْ القيروان[107] وجميع المؤذّنين وكساهم ذلك السواد، ونزلوا بأجمعهم. وركب السّلطان بعدهم حتى وصل إلى جامع القيروان، ثمّ صعد الخطيب المنبر، وخطب خطبة أتى فيها على جميع الأمر بأجزل لفظ وأحسن معنى، ثمّ دعا لأبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله العبّاسي، ودعا للسلطان المعزّ بن باديس ولولده أبي الطاهر تميم وليّ عهده من بعده[108]. ثمّ أخزى بني عُبَيْد الشيعة ولعنهم»[109].

وفي نفس تلك السّنة (443هـ/ 1051–1052م)، وحسبما يبدو، بعد الإعلان عن تعيين محمّد بن جعفر قاضي القضاة بمصر، وقبل دخول بني هلال إلى إفريقيّة «وصلت إلى القيروان مكاتبة من الأمير جبارة بن مختار العربي من برقة بالسمع والطاعة للمعزّ بن باديس، وأخبر أنّه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التي كان يُدْعَى عليها للعبيدية وأحرقوا راياتهم، وتبرّؤوا منهم، ولعنوهم على منابرهم ودعوا للقائم بأمر الله العبّاسي»[110]. أفلا تدلّ هذه المبايعة على ما أصبح يحظى به صاحب إفريقية من نفوذ بعيد المدى بعد قطعه الدعوة الفاطميّة؟

* * *

لقد تفاقم اندفاع بني زيري الصنهاجيّين نحو الشرق خلال القسم الأوّل من عهد المعزّ بن باديس، حتّى أنّهم تخلّوا عن المغرب الأوسط بأسره لأبناء عمومتهم بني حمّاد الذين أصبحوا يضطلعون بمهمّة محاربة زناتة الغرب.

كما أنّ تمرّد الزناتيّين في جنوب إفريقيّة الذي أمكن التحكّم فيه، لم يمنع الأمير من التدخّل في صقلية والشروع في انتهاج سياسة متوسّطية ستصبح ابتداء من ذلك التاريخ ملازمة لكلّ اتجاه إفريقيّ صميم.

هذا وإنّ مذبحة الشيعة قد طرحت من أوّل وهلة المشكل السياسي والديني الرهيب الذي كان يرهق إفريقيّة المالكيّة ويحثّ أميرها على التخلّي عن تلك التبعية التي لم تَعُدْ تتماشى مع سيادته باعتباره ملِكًا قيروانيًّا. وقد أفضت القطيعة مع القاهرة في آخر الأمر إلى انفراج

---

(107) والمقصود بذلك لا محالة خطيب جامعيْ القيروان وصبرة المنصوريّة.

(108) ويشير نفس المصدر إلى أنّ تميم بن المعزّ قد عيّن وليًّا للعهد في السنة الموالية 442هـ/ 1050 – 1051م. **البيان**، 279/1.

(109) **البيان**، 280/1.

(110) **البيان**، 288/1.

الأزمة. ذلك أنّ المعزّ بن باديس بدعوته لخليفة بغداد قد استعاد التقاليد التي يرجع تاريخها إلى عهد الأغالبة التابعين لبني العبّاس ، ورسّخ التحالف بين صنهاجة وإفريقيّة ووفّر الأسباب لتحقيق طموحاته الشخصيّة.

وبفضل رعاية أسرةٍ مالكة بربريّة ، شبه مستقلّة وعتيدة ، تعزّزها شرقًا أسرة بني حمّاد الذين هم حلفاء لبني زيري أكثر منهم خصوم ، أصبحت إفريقيّة التي ارتقت أخيرًا إلى مصافّ دولة مستقلّة في الواقع إن لم يكن قانونًا ، تتوق إلى دخول عهد يسوده الازدهار والعظمة.

ولم يكن أيّ شيء يدعو إلى توقّع العواقب الوخيمة التي سيسفر عنها مثل هذا الإجراء المُدبّر تدبيرًا حكيمًا. إلاّ أنّ الانتصار الذي أحرزه المذهب السنّي والمعزّ بن باديس سيكون انتصارًا عابرًا ، ويا للأسف!

الباب الرابع

الكارثة

غزوة بني هلال ونهاية عهد المعزّ

(442 – 454 هـ/ 1050 – 1062 م)

نظرة عامّة

لقد شهدت نهاية عهد المعزّ بن باديس كارثة سياسيّة واقتصاديّة لم يسبق لها مثيل، ألا وهي «غزوة» أو «زحفة» بني هلال. ذلك أنّ الخليفة الفاطمي، بناءً على النّصيحة المكيافيليّة التي أسداها إليه وزيره [اليازوري]، قد أسلم إفريقيّة إلى جحافل الأعراب الرُّحَّل الذين كانوا يضايقونه. وفي ظرف بضع سنوات أصبحت نكبة الأمير الناكث للعهد أمرًا مفروغًا منه.

ذلك أنّ المعزّ الذي كان يشكو نقصًا في عدد القوّات المسلّحة، لم يدرك في أوّل الأمر خطورة الوضع، فحاول تجنيد الغُزاة تحت لوائه. ولكنّ آماله قد ذهبت أدراج الرياح! فقد فشلت المفاوضات التي أجراها معهم وأصبح مضطرًّا إلى استعمال القوّة. وقد حصلت المصادمة الحاسمة في حيدران (443 هـ/ 1052 م) وأفضت إلى انهزام رُعاة **الحضارة القيروانيّة** التي دقّت ساعة انقراضها. فسلّم سكّان البوادي الذين استولى عليهم الفزع، أراضيهم للنهب والتجأوا إلى المدن. وأمام تقاعس السلطة المركزيّة، تحوّلت أغلب تلك المدن إلى دُوَيْلات مستقلّة أو سقطت بين أيدي الهلاليّين الذين تقاسموا البلاد فيما بينهم. وانسحب عدد كبير من بني زيري إلى قابس، في حين بدأ نزوح القيروانيّين إلى المهديّة وكذلك إلى مدينة تونس، بلا شكّ. كما تحوّلت جموع من أهل إفريقيّة إلى مملكة بني حمّاد الغربيّة. ولم تحُلْ عودة المعزّ إلى طاعة الخليفة الفاطمي (446 هـ/ 1054 م) دون حصول الكارثة. فاضطرّ في سنة 449 هـ/ 1057 م إلى التخلّي عن عاصمته التي سرعان ما عاث فيها الأعراب فسادًا، والتوجّه إلى المهديّة، وقد كان يحكمها وليّ عهده تميم، فعمّت الفوضى سائر البلاد.

أمّا في المغرب الأوسط ، فإنّ الأمير القائد بن حمّاد ، بعدما قطع علاقته بالفاطميّين وأيّد المعزّ في حيدران ، رجع هو أيضًا إلى الحظيرة الفاطميّة. وإثر وفاته (446 هـ / 1054 م) ، انتقل الحكم إلى ابنه محسن ثم إلى بلكّين الذي حارب زناتة على رأس وحدات هلاليّة في سنة 450 هـ / 1058–1059. وإثر رجوعه من مدينة فاس التي استولى عليها بمرأى من الأمير المرابطي ، قتله ابن عمّه النّاصر ، سنة 454 هـ / 1062 م ، أي في نفس السّنة التي توفّي فيها المعزّ بن باديس.

الفصل الأوّل
بنو زيري

مقدّمات غزوة بني هلال[1] :

لقد كانت تقيم في الصعيد المصري قبائل عربيّة مشاغبة ، كانت تشغل بال السلطة الفاطميّة ، وهي قبائل بني هلال وبني سُلَيْم . وبقطع النظر عن بني سُلَيْم الذين سوف لا يرتحلون إلاّ فيما بعد ، فقد كانت موجودة هناك الثلاث قبائل الهلاليّة الرئيسيّة المنحدرة من عامر بن صعصعة وهي بحسب أهمّيّتها : الأثبج ورياح وزغبة ، بالإضافة إلى عدي وجشم وزُبيعة .

وقد فكّر الوزير اليازوري في استخدام تلك الحشود الهمجيّة ، سواء لصيانة كرامته المهانة أو لخدمة الدولة . فأشار على الخليفة بمصالحة تلك القبائل وتقليد رؤسائها إفريقية وتوجيه رجالها إلى محاربة صنهاجة[2] .

ويُنسب إليه هذا الخطاب الذي قال فيه بالخصوص : «سواء نجحت المحاولة أم لم تنجح ، فإنّ الخليفة سيتخلّص من تلك العناصر التي قد تعترف له بالجميل إذا نجحت

1) النويري ، 141/2 ؛ **رحلة التجاني** ، 17 وفيها فقرة منقولة عن ابن بسّام تنسب خطأً إلى الجرجراني إعداد الغزوة . وفي موضع آخر ، ص 22 ذكر التجاني أنّ بعض المصادر تشير إلى أن اليازوري هو الذي رخّص للهلاليّين باجتياز النيل . وأضاف قائلاً : «ولا يبعد أن يكون هذا هو الصحيح» ، لأنّ الغزوة قد تمّت بعد موت الجرجراني بسنوات عديدة ، وقد سبق أن رأينا أنّ هذا الوزير قد توفّي سنة 436هـ . – **البيان** ، 297/1 : وفيه أيضًا خلط بين الجرجراني واليازوري ، ولا غرابة في ذلك ، إذ أنّ دراسة الأسلوب تسمح لنا بالتأكيد أنّ المؤلّف قد استشهد هو أيضًا بابن بسّام . كما استشهد (**البيان** ، 288/1) بابن شرف الذي لم يذكر اسم الوزير الفاطمي . – **العبر** ، 14/6 ، وقد أشار ابن خلدون إلى الخلط بين الوزيرين ، مؤكّدًا أنّ الأمر يتعلّق فعلاً باليازوري . **العبر** ، 159/6 و16/6 – 19 ، وقد اعتمد المؤلّف **سيرة بني هلال** التي ظهرت في عدّة طبعات ببيروت ، تحت عنوان «**رحلة بني هلال إلى بلاد العرب**» ، ولا سيما طبعة 1892 – 1898 ؛ **الكامل** ، 235 – 236 ؛ **شذرات** ، 264/3 ؛ **سجلات مستنصريّة** ، عدد 5 ص 42 – 45 ؛ ابن الصيرفي ، 42 ؛ ابن ميسّر ، 6 ، 9 ؛ ابن حمّاد ، 59 ؛ **أعمال** ، 456 ، وفيها أيضًا خلط بين الوزيرين الفاطميّين ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 170/2 ؛ **المؤنس** ، 83. وحول الغزوة الهلاليّة ، أنظر جورج مارسي ، **العرب في بلاد البربر** ، 39 ، 113 و**بلاد البربر الإسلاميّة** ، 193 ، 328 .

2) **العبر** ، 14/6 .

العمليّة. وإن لم تنجح ، فإنّ التعامل مع الأعراب في إفريقيّة أفضل من التعامل مع الدولة الصنهاجيّة». وقد وافق الخليفة بكلّ حماس على هذه الفكرة.

وحسب ما رواه ابن خلدون[3] ، وجّه الخليفة الفاطمي وزيره إلى بني هلال في سنة 441 هـ/ 5 جوان 1049 – 25 ماي 1050م. ولكنّ هذا التاريخ يثير بعض الإشكال ، لإنّ اليازوري قد عُيّن وزيرًا في محرّم 442 هـ/ 26 ماي – 24 جوان 1050م رغم أنّه من المحتمل أن يكون قد أسدى نصيحته عندما لم يكن سوى قاضي القضاة وداعي الدّعاة. هذا من جهة ، ومن جهّة أخرى ، يبدو أنّ اليازوري لم يتحوّل بنفسه إلى الصعيد. فقد أكّد النويري[4] أنّ الوزير ، بعدما أغدق العطايا على رؤساء زغبة ورياح ، كلّف أحد كبار رجال الدولة بالتوجّه إلى الصّعيد لإصلاح ذات البين بين القبيلتين ، «فقد كانت بينهما حروب وحقود». كما أشار ابن ميسّر[5] إلى أنّ اليازوري قد وجّه إليهم المسمّى مكين الدولة بن مُلْهِم. بل إنّ وثيقة فاطميّة صادرة عن ديوان الرسائل[6] قد وصفت لنا بني هلال وهم يزحفون على إفريقيّة بقيادة الأمير أمين الدولة ومكينها حسن بن علي بن مُلْهِم المكلّف بالحفاظ على الوفاق بين رياح وزغبة. ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بنفس الشخص.

ومهما يكن من أمر ، فقد تقبّل الأمراء الهلاليّون بكل سرور العطايا التي غمرتهم ، رغم قيمتها الزهيدة[7]. كما تسلّم كلّ من وافق على اجتياز النيل من بني هلال ، فَرْوًا (أو جملا؟) ودينارًا.

وحسب النويري[8] ، استدعى اليازوري أمراء بني هلال وأطلق أيديهم في أقاليم إفريقيّة ووعدهم بالعُدّة والمدد وأمرهم بأن يعيثوا في البلاد فسادًا. فدخلوا إلى بلاد المغرب سنة 442 هـ/ 26 ماي 1050 – 14 ماي 1051م ، وقد قال لهم اليازوري ، حسب رواية ابن خلدون[9] : «أعطيتكم المغرب وما يملكه المعزّ بن باديس الصنهاجيّ العبد الآبق».

---

3) نفس المرجع.
4) النويري ، 141/2.
5) ابن ميسّر ، 6.
6) أنظر الفقرة الموالية «قابس في عهد المعزّ».
7) العبر ، 14/6 ؛ النويري ، 141/2 ؛ رحلة التجاني : «وأذن لهم في المعزّ أمنية طالما سرت إليها أطماعهم ، وعكفت عليها أبصارهم» (نقلاً عن ابن بسّام). وهذا غير صحيح ، إذ يُروَى أنّ الهلاليّين ، لما عرض عليهم اليازوري اجتياز النيل ، رفضوا ذلك العرض ، فأعطى لكلّ واحد منهم فَرْوًا ودينارًا ، وعندئذ اجتازوا النهر.
8) النويري ، 141/2.
9) العبر ، 14/6.

ومن البديهي أن يكون المعزّ قد قطع كلّ مراسلة مع ديوان الرسائل الفاطمي[10] ، عندما علم بتلك الاستعدادات . وكان اليازوري قد وجّه إليه قبل ذلك كتاب وعيد وتهديد ، جاء فيه بالخصوص : «إن لم ترجع عن رأيك ، أَتَتْك الجيوش موصلة سنابك خيلك ، ناسخة بنقعها ووميضها حكم نهارها وليلها»[11] . ثم وجّه إليه رسالة أخيرة ، هذا نصّها : «أما بعد فقد أرسلتُ إليك خيلاً وحملنا عليها رجالاً كهولاً ، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً»[12] .

فاحتلّ بنو هلال ناحية برقة مدفوعين بأمل الغنيمة ، واستولوا على مدنها وقراها وخرّبوها . وكتبوا إلى اخوانهم الذين مكثوا في الضفّة الشرقيّة من النّيل وصفًا جذّابًا للبلاد التي اجتاحوها ، لحثّهم على اللّحاق بهم . ويُقال إنّ اليازوري ، بوصفه خبيرًا ماليًّا ماهرًا لم يسمح لهم باجتياز النّيل إلا بشرط «أن يؤدّي كلّ عابر فَرْوًا ودينارًا . فأخذ بذلك أكثر ممّا أعطى»[13] .

ولم يتوقّف بنو هلال في ناحية برقة ، بل تركوها لمن التحق بهم من بني سُلَيْم . ولم يتحوّل هؤلاء إلى إفريقيّة إلاّ فيما بعد (أوائل القرن الثاني عشر)[14] .

وقد وفّر لنا ابن خلدون[15] معلومات مفيدة جدًّا حول تركيبة الغزاة الهلاليّين. ذلك أنّ مؤرّخنا الذي واجه أكثر من مرّة خلال حياته السياسيّة الطويلة أحفاد العرب الفاتحين ، يعرف وضعيّة القبائل في عصره معرفة جيّدة ، وقد تلقّى عدّة روايات ، لا سيما منها المتعلّقة بأنسابها . ولم يتردّد في استقاء أخباره من سيرة بني هلال .

وحسب تلك المعلومات ، كانت قبيلة الأثبج تضمّ بطنَيْن هامّين من بطون بني هلال ، هما دُرَيْد وكرفة . وكان على رأس بني دريد فضل بن ناهد وحسن بن سرحان وأخوه بدر بن سرحان . ومن المعلوم أن الجازية الهلاليّة الذائعة الصيت هي أخت حسن بن سرحان أمير دريد . وكان على رأس بني كرفة سلامة بن رزق التابع لبطن بني كثير وشبانة[16] بن الأُحَيْمَر وأخوه سُلَيْسِل بن الأحيمر التابعان لبطن بني عطيّة .

---

10) حسب ابن ميسّر.

11) حسب التجاني نقلاً عن ابن بسّام.

12) نفس المرجع . **العبر** والنويري و**الكامل**.

13) **رحلة التجاني** ، ص 20 . أنظر أيضًا : **العبر** ، 14/4.

14) **العبر** ، 14/6 وجورج مارسي ، المرجعان السابقان.

15) **العبر** ، 15/6 – 19 وجورج مارسي ، المرجعان المذكوران.

16) **العبر**: «شاقة» و**البربر**: «شبانة».

وكان بنو مُشْرِق خاضعين لسلطة زيد بن زيدان المنتمي إلى بطن بني الضحّاك. وكانت رياح أضعف قوّة وأقلّ عددًا من الأثبج.

أمّا بنو مرداس، فكانوا يمثّلون أهمّ بطن من بطون رياح، وكان على رأسهم مؤنس بن يحيى التابع لبطن بني صنبار[18]. ويلاحظ ابن خلدون أنه لا ينبغي الخلط بين «مرداس رياح» المنتمي إليهم مؤنس بن يحيى و«مرداس سُلَيْم». كما أشار من ناحية أخرى إلى «مرداس المَقّهَا»(؟)، دون أن يذكر إلى أية قبيلة ينتمون، وقد كانوا خاضعين لسلطة الأمير الفضل بن علي، والأمير فارس بن أبي الغيث الذي سيتصاهر مع المعزّ بن باديس فيما بعد، وأخيه الأمير عابد (أو عبد أو عامر)[19] ابن أبي الغيث.

ولم يُشِر ابن خلدون إلى أيّ بطن من بطون قبيلة زغبة الهامّة. وألحق بني قُرّة ببني هلال، وقد اتّجه قسم منهم إلى إفريقيّة صحبة الأثبج وزغبة. وجاء في سيرة بني هلال ذكر أحد شيوخهم وهو ماضي بن مقرب. وأورد الجغرافي البكري[20] رواية عجيبة، مفادها أن مقرب بن ماضي أمير بني قرّة ارتحل ابتداء من سنة 420هـ/ 1029–1030م إلى الصحراء للبحث عن واحة صبراوة.

ولم يذكر ابن خلدون أيّ خبر حول قبيلة عدي. في حين أشار ابن بسّام[21] إلى بعض بطون من بني عامر بن صعصعة، وهي زغبة وعدي والأثبج ورياح. وأوضح ابن خلدون أنّ بني عدي قد انقرضوا في عصره.

وهناك قبيلة هلاليّة أخرى قد انقرضت هي أيضًا في عصر ابن خلدون، وهي قبيلة ربيعة. ولكن المؤلّف افترض أنّ بني معقل الذين كانوا موجودين في عصره، ينحدرون من تلك القبيلة.

وإلى بني ثَوْر، أحفاد معاوية بن عبادة بن ربيعة البكّاء بن عامر بن صعصعة، ينتمي ذياب بن غانم الذي قام بدور كبير في سيرة بني هلال بوصفه رائد القوم، ولذلك سمّي «أبو

---

17) **العبر**: «سلسيل» و**البربر**: «سليسل».

18) **العبر**: «صفير» و**البربر**: «سنبار».

19) **العبر**: «عامر» و**البربر**: «عبد» وربّما «عابد»؟

20) البكري، 15–16.

21) **رحلة التجاني**، 18. ونقل ابن عذاري هذه الرواية بدون ذكر المرجع ؛ **البيان**، 297/1.

مُخَيْبَر». وهو الذي قتل (حوالي سنة 450 – 460 هـ / 1058 – 1068م) أبا سُعْدَة[22] خليفة بن يفرن التابع لأسرة بني يعلى الزناتية[23].

وأخيرًا أشار ابن خلدون إلى بعض البطون المنضوية بصورة تزيد أو تنقص إلى بني هلال، وبالخصوص الأثبج، وهي فزارة والأشجع من بني غطفان وبنو سلول أحفاد مُرّة بن صعصعة بن معاوية وبنو معقل التابعون لبطن يمني وبنو عنزة أحفاد أسد بن ربيعة بن نزار وعدوان أحفاد عمرو بن قيس بن غَيْلان، والطروديّون المنتمون إلى فهم بن قيس.

وذكر المؤرّخ في موضع آخر[24] أنّ النواحي الواقعة غربي قابس أصبحت على ملك القبائل الهلاليّة، وهي رياح وزغبة ومَعْقِل وجُشَام وقُرّة والأثبج وشدّاد وخلط وسفيان.

وقد أسند المستنصر سلفًا القيروان وباجة إلى مؤنس بن يحيى المرداسي، وقسنطينة إلى حسن بن سرحان وطرابلس وقابس إلى زغبة[25]. ولعلّ الأمر يتعلّق بمحاولة لاحقة لإقرار عمليّات التملّك التي حصلت فيما بعد[26].

ويمكن التأكيد أنّ الاجتياح لم يُتْرَك تمامًا للصدفة، إذ أن مصدرًا فاطميًّا[27] يفيد أنّ القائد الحسن بن علي بن مُلْهِم الملقّب بمكين الدولة قد كُلِّف بإصلاح ذات البين بين زغبة ورياح والسّير بهم فيما بعد إلى إفريقيّة في كنف الانسجام التامّ.

بداية الاجتياح :

«لمّا حلّ بنو هلال (في سنة 442 هـ / 1050–1051م) أرض برقة وما والاها، وجدوا بلادًا كثيرة المرعى، خالية من الأهل، لأنّ زناتة كانوا أهلها، فأبادهم المعزّ»، حسب رواية

22) **العبر**: «أبو سعيد» و**البربر**: «أبو سعدة».
23) **العبر**، 7/44–46؛ **البيان**، 1/255؛ بيل، **الجازية**، 317–318؛ جورج مارسي، **العرب في بلاد البربر**، 10، 86، 131–132، 263.
24) **العبر**، 6/15.
25) **العبر**، 6/19 وجورج مارسي، المرجع السابق، 82–84.
26) **العبر**، 6/15.
27) ابن ميسّر، 6؛ **سجلّات مستنصريّة**، سجلّ رقم 5، ص 42–45.

ابن الأثير والنويري[28]. ولكن يبدو من المستبعد أن تكون جيوش المعزّ قد وصلت إلى تلك الناحية البعيدة جدًّا عن طرابلس، للهجوم على زناتة. ومهما يكن من أمر، فقد أقام الأعراب في ناحية برقة واستوطنوها وعاثوا فسادًا في أطرافها حتى حدود طرابلس.

وحسب رواية ابن خلدون[29] «سارت قبائل دبّاب وعوف وزغب وجميع بطون هلال إلى إفريقيّة كالجراد المنتشر لا يمرّون بشيء إلاّ أتوا عليه». وقد تمّ ذلك في سنة 443 هـ / 1051 – 1052م. ومن الممكن أن يكون بعض رجال دبّاب وعوف وزغبة قد التحقوا في أوّل الأمر ببني هلال في إفريقيّة. إلاّ أنّ أغلبيّة هذه البطون الثلاثة التابعة لبني سُلَيْم قد بقيت في برقة بلا شكّ.

ولم يُعِرْ المعزّ أيّة أهميّة إلى هذه الأخبار ولم يشعر بالخطر الذي كان يتهدّده[30]. ذلك أنّه لم يدرك في أوّل الأمر أنّ القضية تتعلّق باجتياح كبير للأعراب، وأنّ جغرافيّة إفريقيّة الطبيعيّة لا توفّر أيّ حاجز في وجه ذلك الاجتياح. ولعلّه أيضًا قد أفرط في تقدير قوّاته المسلّحة التي تمكّنت من إيقاف تقدّم زناتة. والحال أنّ إنشاء مملكة بني حمّاد قد جعل من الصعب أكثر فأكثر القيام بتعبئة جديدة للجنود الصنهاجيّين في المغرب الأوسط، موطنهم الأصلي. ومن ناحية أخرى، فإنّ جيش السلطان الذي أضعفته الحملات العسكريّة المتكرّرة وأوهنته الرفاهيّة، قد أصبح يفتقر إلى الروح النضاليّة. «وكان المعزّ لمّا رأى تقاعد صنهاجة عن قتال زناتة اشترى العبيد وأوسع لهم في العطاء، فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك»[31]. أضف إلى ذلك أنّ مصادرنا تؤكّد كلّها أنّ المعزّ الذي ضجر من الصنهاجيّين قد سعى إلى إدخال العرب في خدمته[32]، قصد استعمالهم – حسب ابن خلدون – لإخضاع بني حمّاد أقاربه.

---

28) **الكامل**، 236/9 والنويري، 141/2.

29) **العبر**، 14/6.

30) **الكامل**، 236/9.

31) **الكامل**، النويري: «اشترى المعزّ العبيد، فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك». هذه العبارة ليست إفريقيّة بل شرقيّة متأخّرة. ولعلّ العبيد لم يكونوا كلّهم زنوجًا. وقدّر ابن أبي دينار عددهم بعشرين ألف، **المؤنس**، 83. وكلّ هذه الأرقام مبالغ فيها.

32) **البيان**، 288/1 – 289، نقلاً عن ابن شرف، المرجع الأصلي؛ التجاني، 17 – 18، نقلاً عن ابن بسّام؛ **البيان**، 297/1، نقلاً عن ابن بسّام دون ذكر اسمه؛ **العبر**، 14/6 – 15؛ **الكامل**، 236/9؛ النويري، 143/2؛ وهي المصادر الوحيدة التي تشير إلى البساط.

ويبدو أنّ أمير رياح مؤنس بن يحيى الصنباري المرداسي الذي أعطاه المستنصر القيروان وباجة – حسب بعض المصادر – كان أوّل من دخل إفريقيّة من رؤساء القبائل العربيّة. فاستقدم المعزّ إلى بلاطه ذلك القائد الذي وُصِفَ بأنّه «كان شجاعًا، عاقلاً»[32م]، وأحسن معاملته، بل قيل إنّه قد زوّجه ابنته[33]. «وشاوره في اتخاذ بني عمّه رياح جندًا، فأشار عليه مؤنس بأن لا يفعل ذلك وعرّفه بقلّة اجتماع القوم على الكلمة، وعدم انقيادهم إلى الطاعة. فألحّ عليه في ذلك إلى أن قال له المعزّ: «إنّما تريد انفرادك، حَسَدًا منك لقومك». فعزم مؤنس على الخروج إليهم، بعدما قدّم العذر وأشهد بعض رجال السلطان. ثم رحل متوجّهًا نحوهم، فنادى القوم وحشدهم ووعدهم وغبطهم ووصف لهم كرامة السلطان والإحسان لهم. ثم قدم في ركب منهم، لم يعهدوا نعمة، ولا طالعوا حاضرة، فلمّا انتهوا إلى قرية تنادَوْا: «هذه القيروان!» ونهبوها من حينها.

فلمّا ورد الخبر على القيروان، عظم الأمر على المعزّ بن باديس، وقال: «إنّما فعل مؤنس هذا ليصحّح قوله ويظهر نصحه». فأمر بثقاف أولاده وعياله وختم على داره، حتى يعلم ما يكون من أمره. فلمّا بلغ مؤنسًا ما فُعِلَ بأهله وولده اشتدّت نكايته وعظم بلاؤه وقال: «قدّمت النصيحة، فحاق الأمر بي، ونُسِبَت الخطيئة إليّ. فكان أشدّ إضرارًا من القوم، وكان قد علم عورات القيروان»[33م]. فعاث الأعراب في البلاد فسادًا وأعلنوا في كلّ مكان سيادة الخليفة المستنصر.

ورغم أنّه من الصعب تأكيد صحّة الرواية التالية، فالأرجح أن يكون الأمير العربي الدّاهية قد أومأ آنذاك إلى الرمز الشهير المتمثّل في تشبيه القيروان بالبساط. ذلك أنّ أصحابه كانوا مصمّمين على الزحف على القيروان، «فقال لهم مؤنس: «ليس المبادرة عندي برأي». فقالوا: «كيف تحبّ أن نصنع؟». فأخذ بساطًا فبسطه، ثم قال لهم: «مَنْ يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه؟». قالوا: «لا نقدر على ذلك». قال: «فهكذا القيروان، خذوا شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى إلاّ القيروان، فخذوها حينئذ»[34].

32م) **البيان**، 288/1.

33) حسب **العبر**، 14/6، 15، 16..وبفضل التجاني، ص 18 يمكن ضبط النصّ المشوّه الوارد في **البيان** 297/1 كما يلي: «فزفّ إلى زعمائهم بناتٍ كُنّ نجوم اللّيالي، وأماني المغالي، فأصبحوا له أصهارًا» (نقلاً عن ابن بسّام).

33م) **البيان**، 288/1 – 289.

34) **الكامل**، 236/9.

فاقتنع رؤساء بني هلال بهذه الحركة الاستعراضيّة المبسّطة الكفيلة بالتأثير في عقول مثل أولئك البدائيّين ، ووافقوا على رأي مؤنس ، وخاطبهم أحدهم ، وهو رافع بن حمّاد ، قائلاً : «إنّك لشيخ العرب وأميرها المقدّم علينا ، ولسنا نقطع أمرًا دونك».

وعمّت أعمال النهب ، «فأخرج السلطان إليهم بعض الفقهاء ومعهم مكاتبات وشروط ووصايا ، وأعلموهم أنّ السلطان قد دفع عيالاتهم لهم (ربّما نساء مؤنس) ، وأخذوا عليهم العهود والمواثيق بالرجوع إلى الطاعة»(34م) . وأرسلوا إلى المعزّ شيوخًا (لم يكن من بينهم مؤنس) ، وهم : مطرف بن كسلان وفرج بن أبي حسّان وزياد الدَّوْنَة (؟) وفارس بن كثير وفارس بن معروف ، فأنعم عليهم المعزّ وأكرم وفادتهم . «ثم بعد ذلك نكثوا على السلطان واستولوا على الفساد في كلّ جهة ومكان» . وخلال فترة قصيرة من الزمن – وعلى الأقلّ جنوب القيروان – «شنّ الهلاليّون الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وقطعوا الثمار وحاصروا المدن . فضاق بالناس الأمر وساءت أحوالهم ، فقطعت أسفارهم ونزل بإفريقيّة بلاء لم ينزل بها مثله قطّ» . ولكنّ ساعة ردّ الفعل الصنهاجيّ قد اقتربت .

هزيمة حيدران(35) ، 443 هـ / 1052م) :

لم يكتسح بنو هلال إفريقية بتمامها وكمالها ، بل يمكن أن نتصوّر أنّ هجوماتهم الخاطفة كانت تتمثّل في بعض الغارات الجريئة والحَذِرَة في نفس الوقت ، يتخلّلها تقهقر

34م) **الكامل** ، 236/9 .

35) **البيان** ، 289/1 – 293 ؛ النويري ، 145/2 ؛ **الكامل** ، 236/9 ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 170/2 – 171 ؛ التجاني ، 19 ؛ **العبر** ، 14/6 – 15 ؛ **المؤنس** ، 83 ؛ جورج مارسي ، **العرب في بلاد البربر** ، 99 – 113 .

إنّ الدراسة الدقيقة والمقارنة لهذه النصوص ولا سيما نصّ **البيان** في طبعته الثانية (ليدن ، 1948) المعتمدة على مخطوطات جديدة والتي تسدّ فراغًا هامًّا ظهر في الطبعة الأولى ، تسمح لنا بفهم هذه المعركة الأولى الشهيرة بين بني زيري وبني هلال وإعادة النظر في مسألة كانت تبدو مفروغًا منها . وفي الجملة فإنّ المصادر قد نقلت بصورة تزيد أو تنقص روايتين ، لا تختلف إحداهما كثيرًا عن الأخرى . ممّا جعل النّاس يعتقدون أنّ هناك معركتَيْن تفصل بينهما سنة واحدة ، الأولى جرت في سنة 443 هـ / ربيع 1051م والثانية في سنة 444 هـ / ربيع 1052م . والسّبب في هذا الخطإ أن معركة حيدران الحقيقيّة (443هـ) قد سبقتها هزيمة زيريّة أخرى لا نعرف تاريخها ولا مكانها .

وانّنا نفضل على روايات بعض المؤلّفين ، أمثال ابن الأثير والنويري وبالخصوص ابن خلدون ، التي تنقصها الدقّة في ضبط التواريخ ، روايات بعض الإخباريّين الآخرين ، مثل ابن عذاري ، التي ، رغم ما فيها من أخطاء ، تنقل لنا الأخبار الأصليّة . وبناء على ذلك فإن **البيان** ، قد وفّر لنا معلومات ثمينة حول هذا الموضوع . فقد نقل المؤلف عند الحديث عن حوادث سنة 443 هـ (**البيان** ، 288/1 – 293) رواية الشاعر والمؤرّخ الرسمي الزيري ابن شرف ، =

إلى قواعد انطلاقهم. وفي الأثناء كانوا يخرّبون المناطق المنبسطة ويتحاشون المدن وينهبون ويبتزّون الأموال. ولكنّهم كانوا يفرّون إثر كلّ إنذار جدّي يُوَجَّه إليهم، ويتهرّبون من القتال. إذ كانوا يتلهّفون على الغنيمة أكثر من الغزو، فإذا أشبعوا نهمهم رجعوا على أعقابهم.

ولا تسمح المعلومات التي بين أيدينا، الغامضة إلى أقصى حدّ، بتحديد المناطق التي جرَت فيها تلك الغارات، ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّ معظم المغيرين لم يتجاوزوا منطقة قابس، بما أنّ الصنهاجيّين قد حاولوا توقيفهم في حيدران الواقعة في تلك الضواحي. فهناك حدث التصادم المشهود، وهناك تعرّض للخطر، لا مصير بني زيري فحسب، بل مصير

= حول مقدّمات الغزو وهزيمة حيدران، وما تبعتها من أحداث وبالخصوص واقعة باب تونس. ثم أورد فصلاً قصيرًا أعطاه العنوان التالي: «هزيمة صنهاجة أيضًا بجبل حيدران، وهزيمة المعزّ بن باديس من وجه آخر». والمقصود بعبارة «أيضًا»: رواية أخرى حول نفس الهزيمة. وتؤكّد هذه التأويل عبارة «من وجه آخر» (أي حسب رواية أخرى)، وهي رواية منقولة عن مؤرّخ زيري آخر هو أبو الصّلت. ورغم اقتضابها فإن هذه الرواية مفيدة لأنها توفّر لنا معلومات نفيسة حول الهزيمة التي تبعت هزيمة حيدران ذاتها، وهي معلومات ناقصة في رواية ابن شرف. ثم يأتي عرض الحوادث التي جرت في سنة 444هـ، وقد جاء فيه ذكر عدد 7500 فارس من العرب. أمّا ابن الأثير والنويري فقد أشارا إلى أن عدد العرب كان «سبعة آلاف فارس، فانهزمت صنهاجة». وتحدّث ابن خلدون من جهته، بدون ذكر تواريخ مضبوطة، عن هزيمة أولى تعرضت لها جيوش صنهاجة ثم عن هزيمة حيدران ذاتها. ومن الصّعب أن نصدّق هذا المؤرّخ عندما قال إنّ المعزّ الذي تأثّر بالهزيمة الأولى قد ألقى القبض على أخي مؤنس ثم أقام معسكره خارج القيروان وحشد الجنود الحماديّين والزناتيّين وغيرهم وتوجّه إلى حيدران (**العبر**، 14/6–15).

أمّا الكاتبان المشرقيّان ابن الأثير (**الكامل**، 236/9) والنويري 145/2، فقد أوردا على التوالي روايتين حول المعركة، الأولى يبدو أنّها منقولة عن ابن شدّاد والثانية مقتبسة لا محالة من رواية أبي الصّلت التي أوردها ابن عذاري، وقد ميّزت بكل وضوح بين المعركتين. وعند الحديث عن حوادث سنة 444هـ أوضح النويري أنّ هزيمة المعزّ الأولى تمّت في سنة 443هـ والثانية في سنة 444هـ، والواقع أنّ التاريخ الأخير لا يتعلّق بمعركة حيدران بل يتعلّق بواقعه المصلّى أو بالواقعة التي جرت إثر السماح للعرب بدخول القيروان سنة 444هـ. أما أبو الفداء (**التاريخ**، 170/2)، وهو مرجع شرقي رديء نسبيًّا، فقد ذكر عند الحديث عن حوادث سنة 442هـ أنّ المعزّ قد مُنِيَ بثلاث هزائم متتالية، الأولى يبدو أنها جرت في برقة والثانية لما حشد المعزّ 30000 مقاتل، ثم انهزم ورجع إلى القيروان (كما جاء في **البيان**، حسب رواية أبي الصّلت) والثالثة عندما جمع المعزّ جنوده وهجم على العرب فانهزم. وعند ذلك وصل الهلاليّون إلى القيروان وأقاموا في المصلّى. وهذه المعلومات الغامضة والمبهمة للغاية لا يمكن اعتمادها. كما لا ينبغي اعتماد شهادة ابن بسّام التي نقلها التجاني، ص 16 ومفادها أن معركة حيدران جرت في سنة 444هـ. ويحمل القول إنّ انتصار الهلاليّين قد يكون حصل في أواخر سنة 443هـ، ولكنّ آثاره قد امتدّت إلى سنة 444هـ. وهذا ما يفسّر إشارة ابن بسّام والنويري إلى سنة 444هـ/ 3 ماي 1052 – 22 أفريل 1053م. والجدير بالملاحظة أيضًا أنّ سنة 443هـ/ 15 ماي 1051 – 2 ماي 1052م قد كانت ملائمة لتنظيم حملتَيْن عسكريّتين في الربيع.

«**الحضارة القيروانيّة**». ومن حسن حظّنا، فإنّ لدينا روايتَيْن متكاملتَيْن لتلك الواقعة، الأولى مقتبسة من ابن شرف والثانية من أبي الصّلت، وهما المؤرّخان الرسميّان للدولة الصنهاجيّة. وبالمقارنة بينهما، ندرك أنّ الثانية تؤكّد أنّ معركة حيدران بحصر المعنى، قد سبقتها هزيمة أخرى، أشار إليها ابن خلدون هو أيضًا. وهناك رواية ثالثة ربّما تُنْسَب إلى ابن شدّاد.

ففي سنة 443هـ/ 15 ماي 1051—2 ماي 1052م، أقرّ المعزّ العزم في آخر الأمر على قمع الغزاة، فحشد جيشًا عرمرمًا يُقَدَّر عدد أفراده بحوالي «ثلاثين ألف فارس ومثله رجّالة»[35م]. وهو عدد ضخم بالنسبة لذلك العصر. والجدير بالتذكير أن الحرس السلطاني قد بلغ عدده ثلاثين ألف. وإذا صدّقنا هذه الأرقام، فإنّ المعزّ قد تمكّن حينئذ من حشد جنود يساوي عددهم عدد الحرس. ولا شكّ أنّ جميع هذه الأرقام مبالغ فيها، ولكن لا ينبغي أن يفوتنا أنّ المؤرّخين الرسميّين يحاولون دائمًا التقليل من الجيوش الرسميّة المهزومة، لا تضخيمها، وذلك مراعاةً لعواطف أسيادهم.

وقد أخبرنا ابن خلدون أنّ المعزّ استنجد بابن عمّه القائد بن حمّاد الذي بعث إليه ألف فارس. كما أمدّه الأعراب الزناتيّون بمثل ذلك العدد من الفرسان بقيادة المنتصر بن خزرون الذي كان موجودًا آنذاك بإفريقيّة صحبة رجاله المغراويّين، وهو لا زال مسيطرًا على طرابلس بلا شكّ. ويبدو أنّ المعزّ قد وهبه آنذاك 100000 دينار[36]. ومهما يكن من أمر فقد كان هناك تواطؤ بين بني زيري وزناتة ضدّ عدوّهم المشترك. ودائمًا، حسب رواية ابن خلدون، فإنّ الثلاثين ألف مقاتل في حيدران كانوا يتألّفون من جنود زيريّين وصنهاجيّين وعدد قليل من أحفاد العرب الفاتحين وعساكر زناتة والبربر.

وقد تمكّن المعزّ من صدّ هجوم أخي مؤنس وأقام معسكره خارج القيروان استعدادًا للقتال، وعيّن ثلاثة قوّاد على رأس الجيش، وهم: ابن سلبون وزكنون بن وعلان وزيري الصنهاجي. وبعدما أطلق جيوشه للقاء الأعراب، عاد إلى القيروان. ولم تقل لنا المصادر هل أنّ الجيش قد توجّه بأكمله إلى ساحة الوغى أم لا. كما أنّها لم تذكر لنا متى عاد المعزّ إلى القيروان. ولكنّ من الأرجح أنه قد وجّه ضدّ الأعراب في أوّل الأمر فِرَقًا عسكريّة صغيرة،

35م) **الكامل**، 236/9 والنويري (المعركة الأولى حسب رواية أبي الصّلت المفترضة) 27000 فارس؛ **البيان**، رقم 80000 مغلوط (معركة حيدران ذاتها حسب رواية ابن شرف)؛ **الكامل** والنويري (حسب رواية ابن شدّاد المفترضة): «30000 فارس ومثلها رجّالة»؛ **العبر** (معركة حيدران): 30000 مقاتل.

36) **البيان**، 297/1، نقلا عن ابن بسّام حسبما يبدو.

هي عبارة عن طليعة لم تكن تمثّل سوى قسم من مجموع الجند ، ولم يلبث أن قدم هو بنفسه ليتولّى قيادة العمليّات الحربيّة . ونحن نفترض أنه قد قضى هناك (في مكانٍ ما من الجنوب) عيد الأضحى الموافق ليوم الاثنين 10 ذو الحجّة 443 هـ / 13 أفريل 1052م . وفي نفس اليوم «انهزمت صنهاجة وقُتِلَ منهم كثير»[37] . ويقال إنّ المعزّ «قد هجم على العرب وهم في صلاة العيد ، فركبت العرب خيولهم وحملت ، فانهزمت صنهاجة»[38] .

ومن الغد (11 ذو الحجّة 443 هـ) «مشى الأمير إلى ناحية قرية تُعرَف ببني هلال ، فلمّا كان نصف النهار ، أتته الأخبار أنّ القوم قد قربوا منه بأجمعهم . فأمر بالنزول في أوعار وأودية ، فلم يستتمّ النزول حتى حمل العرب عليهم حملة رجل واحد»[39] .

ويُحكى[40] «أنّ المعزّ قد جمع عساكره ، فكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلها رجّالة ، وكانت عدّة العرب ثلاثة آلاف فارس . فلمّا رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعزّ ، هالهم ذلك وعظم عليهم . فقال لهم مؤنس بن يحيى : «ما هذا يوم فرار ! » . فقالوا : «أين نطعن هؤلاء ، وقد لبسوا الكذاغندات [الدروع] والمغافر [الخوذات] ؟ » . قال : «في أعينهم» . فسُمِّي ذلك اليوم (يوم العين)»[41] .

ويبدو أنّ الصنهاجيّين قد استعملوا خطّة تنمّ عن كرههم لعبيد السلطان . «فقد اتّفقت صنهاجة على الهزيمة وتَرْك المعزّ مع العبيد حتى يرى فعلهم ويُقْتَل أكثرهم ، فعند ذلك يرجعون على العرب»[42] .

«فانهزم العسكر ، وصبر المعزّ صبرًا عظيمًا إلى أن وصلت رماح العرب إليه ، ومات من العبيد بين يديه خلق عظيم ، فدوه بأنفسهم»[43] . وعندئذ رأى الصنهاجيّون أنّ الوقت قد حان للتدخّل ، فغيّروا اتّجاههم محاولين بدون جدوى إنقاذ الموقف . ولكنهم انهزموا شرّ هزيمة

---

37) **البيان** (رواية أبي الصّلت) .
38) **الكامل** والنويري .
39) **البيان** (رواية ابن شرف) .
40) **الكامل** والنويري .
41) حسب **الكامل** : «يوم العين» . وحسب النويري ، فإن هذه الكلمة التاريخية لم يتلفّظ بها مؤنس ، بل أمير عربي آخر لقّب فيما بعد باسم «أبو العينَيْن» .
42) **الكامل** والنويري .
43) **الكامل** والنويري و**البيان** (رواية ابن شرف) .

وفرّوا جميعًا ، بمن في ذلك بنو مناد ، ومن باب أولى وأحرى الزناتيّون بقيادة المنتصر بن خزرون[44] .

وحسب رواية ابن خلدون فإنّ الجنود العرب من أبناء البلاد هم الذين أعطوا إشارة الفرار ، وانضمّوا إلى العرب الهلاليّين منذ بدء المعركة ، استجابة لروح العصبيّة القائمة على أواصر القرابة . وقد تبع ذلك تخلّي زناتة وصنهاجة عن المعركة . ولكن يبدو أنّ مؤلّف **«المقدّمة»** العبقري ، قد أغرته فكرة تبرير إحدى نظريّاته الاجتماعيّة المحبّبة إليه أكثر ، ألا وهي العصبيّة القبليّة . والواقع أنّ العرب المنحدرين من عهد الفتح لم يعودوا يمثّلون خلال القرن الخامس هجري مجموعة عرقيّة متماسكة ومتميّزة عن بقيّة سكان إفريقيّة . إذ لا يُعْقَل أن يعمد أولئك السكّان الحضريّون المتمدّنون إلى الارتماء في أحضان مجموعة من الأعراب الرُّحَّل الهمج الذين ينتمون ، علاوة على ذلك ، إلى قبيلة ما زالت غير ممثّلة في إفريقيّة .

«وانتهبت العرب مضارب (الفارّين) ودخلوا معسكر المعزّ السلطان فحازوه ، وفيه من الذهب والفضة والأسباب والأثاث والخفّ والكراع[45] ما لا يعلم عدده إلاّ الله . وكان فيه من الأخبية وغيرها ما يتجاوز عشرة آلاف ومن الجمال نحو خمسة عشر ألفًا ، ومن البغال ما لا يحصيه قول . فما خلص لأحد من الجند عقال فما فوقه»[46] . وتفرّقوا في جبل حيدران ثم تجمّعوا من جديد[47] ، «فأُحْصِيَ من قُتِلَ من صنهاجة في هذه الواقعة ، فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة»[48] .

ومن الجدير بالذّكر أنّ هذا الجبل ، أو إحدى القرى القريبة منه التي تحمل نفس الاسم ، هو الذي أعطى للهزيمة اسم «معركة حيدران» . وبما أنّه لا يوجد في الوقت الحاضر أيّ مكان يحمل اسم بني هلال أو حيدران ، فمن الصعب تحديد موقع ذلك المكان بالتّدقيق[49] .

---

44) **المؤنس** ، 83 ينسب هزيمة المعزّ أساسًا إلى تخلّي زناتة . وهو تأويل متأخّر تبسيطي يعتمد على العداوة التقليديّة بين زناتة وصنهاجة . وهذا لا يعني أنّ هذه الخيانة كانت حاسمة لأنّ عدد الزناتيين لم يكن كبيرًا .

45) أي الإبل والخيل .

46) **البيان** ، 290/1 (رواية ابن شرف) .

47) نفس المرجع ، أنظر أيضًا **الكامل** والنويري .

48) **البيان** (رواية أبي الصلت) ؛ **الكامل** والنويري (الرواية الثانية) .

49) حسب ابن الأثير والنويري ، يقع هذا الجبل على بعد مسيرة ثلاثة أيام من القيروان . ويوضّح ابن الأثير أنّ المعركة جرت «قبلي جبل جندران»(هكذا) . ويقول ابن خلدون أنّ عرب رياح وزغبة وعدي أقاموا جنوب حيدران في ضواحي =

وقد أوحى هذا الانتصار إلى أحد المنتصرين ، وهو علي بن رزق الهلالي قصيدة ، يقول عنها التجاني إنها «اشتهرت في زمانه»[50] ، أوّلها [طويل][51] :

لقد زار وَهْنًا من أُمَيْمَ خَيالُ وأيدي المطايا بالذّميل عِجالُ

ويقول فيها عند ذكر الوقيعة :

وإنَّ ابن باديس لأَحْزَم مالك ولكن لَعَمْري ما لديه رِجَالُ
ثلاثةُ آلافٍ لنا غَلَبَتْ له ثلاثين أَلفًا إنّ ذا لَنَكَالُ

وكان أهل القيروان ينتظرون الأخبار بلهفة ويفحصون الأفق من أعلى أسوار المدينة. «فلمّا كان ثالث العيد (12 ذو الحجّة 443هـ/ 15 أفريل 1052م) قدم فارسان مع ابن البوّاب ، وهم قد غلبت عليهم الكآبة وكسوف البال ، وحالهم يغني عن السؤال. وكثر أيضًا سُؤال النّاس عن السلطان ، فذكروا أنّه في حيّز السلامة. فلم تَكُ إلاّ ساعة حتى دخل قصره هو وولدُه (لا شكّ أنّه المنصور). ثم تساقط النّاس بعده آحادًا وجموعًا ، وتخلّف عن الوصول خلق عظيم ، منهم من عُلِمَ خبره ، ومنهم من لم يُعْلَم. ثم ذُكِرَ أَنّ العرب أخذوا خلقًا كثيرًا من الصنهاجيّين وغيرهم»[52].

«ووصل العرب إلى نواحي القيروان ، وجعل كلّ من سبق إلى قرية يسمّي نفسه لهم ، ويؤمنهم ويعطيهم قلنسوة أو رقعة يكتبها لهم ، علامة ليُعلِم غيره أنّه سبقه.

«وبات النّاس ليلتَيْن بالقيروان تحت ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى من الخوف ، لا يدرون ما ينزل بساحتهم. وأقام النّاس يومين لا يدخل إليهم داخل ولا يخرج منهم خارج ، وخيل العرب تسرح حول القيروان في كلّ جهة ومكان ، والنّاس يرونهم عيانًا بيانًا.

= قابس. فهل يتعلّق الأمر ببلدة وذرف وجبل هيدوش (أو حيدوج). ويرى حسن حسني عبد الوهاب ، **خلاصة** ، 96 الإحالة 2 ، «أنّ حيدران مطابق لبلدة ودرن الحالية الواقعة في الجنوب الشرقي من البلاد التونسيّة في الطريق الرئيسيّة الرابطة بين قابس والقيروان». ويشير التجاني ص 20 (نقلاً عن ابن بسّام) «أنّ حيدران اسم جبل معروف بمقربة من القيروان». وهذا خطأ لا شكّ فيه.

(50) حسب التجاني ، 20 – 21 ؛ **البيان** (رواية ابن شرف) ، 290/1 ؛ **العبر** ، 15/6 ؛ **الكامل** ، 236/9 ؛ النويري ، 144/2 – 145 ؛ مقديش ، 145/1. ويشير ابن خلدون إلى أنّ هذه القصيدة منسوبة أيضًا إلى ابن شدّاد. والمقصود بدون شكّ أنها منقولة عن هذا المؤرّخ.

(51) هناك قراءات مختلفة لهذه القصيدة ، وقد اعتمدنا قراءة التجاني.

(52) حسب **البيان** (رواية ابن شرف) ، 290/1 – 291.

«وخرج السلطان سابع عيد الأضحى (16 ذو الحجّة 443 هـ/ 19 أفريل 1052م) بجنوده، وخرج عامّة القيروان معه، فلم يتَعَدَّ بهم المصلّى، ورجع العرب في أمانهم الذي أعطوا أهل البوادي، وانتهبوا جميعها، وانتقل أهلها إلى القيروان. وأمر السلطان كافة النّاس بانتهاب المزروعات المحيطة بالقيروان وصبرة – المنصوريّة، فسُرّ المسلمون بذلك، وحسبوها من أرزاقهم، وكان مصيرها إلى ما قدّر الله فسادها أَكْلُ البهائم لها.

«وفي السابع عشر لذي الحجّة، ظهرت خيل العرب على ثلاثة أميال من القيروان. فنزل السلطان يمشي فيها، ويوصي أهلها بالاحتفاظ والبناء، وأخذ النّاس في بناء دورهم. وأمر السّلطان المعزّ أن ينتقل عامّة أهل صبرة وسوقتها [تجّارها] إلى القيروان، ويخلوا الحوانيت كلّها بصبرة، وأمر جميع مَنْ بالقيروان من الصنهاجيّين وغيرهم من العسكر، أن ينتقلوا إلى صبرة وينزلوا في حوانيتها وأسواقها، فارتجّ البلد لذلك وعظم الخطب، واشتدّ الكرب، ومدّ العبيد ورجال صنهاجة أيديهم إلى خشب الحوانيت وسقائفها، واقتلعوها، وخربت العمارة العظيمة في ساعة واحدة.

«وبات النّاس على خوف عظيم، ثم أصبحوا فعاينوا خيول العرب، فأمر السّلطان ألا يخرج العسكر على سور صبرة. قال ابن شرف: أخبرني مَنْ أثق به، قال: خرجتُ من القيروان وسرت ليلاً، فكنت أكمن النهار، فلم أمرّ بقرية إلا وقد سُحِقَت وأُكِلَتْ، أهلها عُراة أمام حيطانها، من رجل وامرأة وطفل، يبكي جميعهم جوعًا وبردًا. وانقطع المير عن القيروان، وتعطّلت الأسواق، وأمسك العرب جميع من أسروه، فلم يطلقوا أحدًا إلاّ بالفداء، مثل أسرى الرّوم، وأمّا الضعفاء فأمسكوهم لخدمتهم»[53].

وحسب ابن خلدون[54]، فقد عاقب المعزّ بقسوة أهل القرى الذين تحالفوا طوعًا أو كرهًا مع المغيرين. وبينما التجأ أهل البوادي المجاورة إلى القيروان، بدأ منذ ذلك الحين، حسبما يبدو، نزوح أهل القيروان إلى مدينة تونس وسوسة.

وقد هجم العرب على القيروان من جهة باب تونس، «فخرج إليهم العامّة، منهم بسلاح، ومنهم من بيده عصا لا يُدفَع بها أضعف الكلاب، فحملت عليهم فرسان العرب، وتمكّنت منهم سيوفهم ورماحهم، فتساقطوا على وجوههم وجُنوبهم، وسطحوهم من حدّ أفران الأجرّ إلى هذا الباب، ولم يبق منهم إلاّ من حصّنه أجله، ولم يتركوا على حيّ ولا ميّت

53) نفس المرجع.
54) العبر، 15/6.

خرقة تُوارِيه. وخرج أهل القتلى عند انصراف العرب، فرفعوا قتلاهم، فقامت النوائح والنّوادب بكلّ جهة ومكان من أزقّة القيروان، تتصدّع لمنظرها وسماعها الجبال. وبقي خلق من الغرباء في المقتلة، وجُرِحَ من النّاس خلق كثير، ورأى النّاس ما أذهلهم من قبيح تلك الجراحات، فتفتّتت الأكباد، وذابت القلوب والأجساد، لبُنيّات قد سَوَّدْن وجوههنّ وحَلَقْنَ رؤوسهنّ على أبائهنّ وإخوانهنّ. فكان هذا يوم مصائب وأنكاد ونوائب. ولم يَرَ النّاس مثله في سائر الأمصار، فيما مضى من الأعصار. وبات النّاس في همّ وغمّ. تمّ كلام ابن شرف مُختَصَرًا»[55].

ويبدو أنّ واقعة باب تونس التي رواها ابن شرف دون سواه، هي نفس الواقعة التي سمّيناها «واقعة المصلّى»، وهي التي أشار إليها أبو الصّلت بلا شكّ. ذلك أنّ المصادر تؤكّد وجود مصلّى بالقرب من باب تونس[56].

وحسب رواية أبي الصّلت، «أقبلت العرب حتى نزلت على القيروان، ووقعت الحرب هنالك، فقُتِلَ بين رقّادة والمنصوريّة خلق كثير»[57].

ولا يمكننا أن نتصوّر إقدام الأعراب الهلاليّين على محاصرة مدينة كبيرة مثل القيروان، حصارًا حقيقيًّا. فقد امتثلوا قصدًا أو بغير قصد إلى نصائح مؤنس، وفضّلوا نهب السهول وتغاضوا عن المدن التي تستطيع مقاومتهم.

والغالب على الظنّ أنّهم ضيّقوا الخناق على القيروان إلى حدٍّ ما، بينما استمرّت عصاباتهم في نهب النواحي الغربيّة والشماليّة الغربيّة، على وجه الخصوص.

واستغلّ المعزّ هذا الهدوء النسبي لبناء سور القيروان وسور زويلة[58]، «وجعل السّور

---

55) **البيان**، 292/1.

56) **رياض النفوس** [طبعة بيروت، 1983، 8/1]. نظرًا لقرب البابَيْن بعضهما من بعض (باب تونس في الشمال وباب سَلَم في الشمال الغربي)، ربّما يكون مصلّى باب سلَم ومصلّى باب تونس هما نفس المصلّى الذي يقع بين مقبرة باب سلم ومقبرة باب تونس (الزاوية الغربية الشماليّة من المدينة). أنظر الباب السابع من هذا الكتاب. وقد رأينا أنّ ابن شرف لم يذكر المصلّى عندما روى واقعة باب تونس (ولم ينقل **البيان**، إلا مقتطفات من تلك الرواية).

57) **البيان**، 293/1 (رواية أبي الصّلت): «ثم عاد (المعزّ) إلى المنصورية. فأحصي من قتل من صنهاجة في هذه الوقعة: فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة». **الكامل**، 237/9: «ثم عاد (المعزّ) إلى المنصورية فأُحصِي من قُتِل من صنهاجة ذلك اليوم فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة، ثم اقبلت العرب حتى نزلت بمصلّى القيروان ووقعت الحرب فقتل من المنصورية ورقادة خلق كثير».

58) **البيان**، 293/1؛ **الكامل**، 237/1. وحول بناء سور زويلة في ضواحي المهدية، أنظر البكري، 29.

ممّا يلي صبرة كالفصيل : حائطان متّصلان إلى صبرة ، وبينهما نصف ميل»[59].

وفي نفس الوقت الذي كان فيه المعزّ يواصل بكلّ حزم استعداداته الدّفاعيّة ، معلّلاً نفسه بالأمل في انسحاب الهلاليّين إلى الجنوب ، سعى إلى التّفاهم مع المغيرين الذين لم يكن عددهم يتجاوز آنذاك سبعة آلاف وخمسمائة فارس[60].

ورغم ميلنا إلى الاعتقاد بأنّ زواج بنات المعزّ بن باديس بالأمراء الهلاليّين قد تمّ في ذلك التاريخ ، فإنّ تلك المصاهرات لم تقع ، حسبما يبدو إلاّ بعد ذلك بسنتين ، أي عندما تفاقم ضغط الأعراب على القيروان . ومهما يكن من أمر ، فمن المؤكّد أنّ الأمير الصنهاجي المُحَاصَر مع مَن بقي من جنده في صبرة – المنصوريّة ، قد رغب في سنة 444هـ / 3 ماي 1052 – 22 أفريل 1053م «في رفع الحرب بينه وبين العرب» ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، «فأباح لهم دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء»[61]. ويمكن أن نتصوّر غضب فقهاء القيروان عندما يرون المسلمين يقومون بعمليّات تجارية محرّمة قطعًا ، لأنّ جميع ممتلكات الهلاليّين من موادّ زراعيّة وأمتعة ونقود ، متأتيّة بالتأكيد من النّهب . ولم تستطع العامّة تحمّل وجود هؤلاء الدّخلاء ، فما لبثت الحوادث أن اندلعت بينهم وبين المغتصبين الذين لا شكّ أنّهم كانوا من ناحية أخرى ، شدادًا ، غِلاظًا ، متعجرفين . «ووقعت بينهم حرب كان سببها فتنة بين إنسان عربي وآخر عامّي ، وكانت الغلبة للعرب»[61] ، وقُتِلَ من القيروانيّين عدد كبير . وقد تسبّبت هذه المجزرة في وضع حدّ للتجربة التي قام بها المعزّ بلا حذر .

وفي أوائل السنة الموالية ، صفر 445هـ / 23 أفريل – 22 مارس 1053م ، ولّى المعزّ ابنه تميم على المهديّة ، «وقد كان رجاله وخاصّته حذّروه من تولية ابنه تميم وخوّفوه أن يستبدّ بنفسه ويمتنع بالمهديّة على أبيه ، فلم يسمع منهم ، وجعل ينقل إليها أهله وذخائره شيئًا فشيئًا»[62] . وتواصل نهب إفريقيّة بكلّ شراسة . ففي سنة 445هـ / 1053 – 1054م سقطت مدينتا أبّة والأربس ، جنوبي الكاف ، وأحاطت زغبة ورياح بالقيروان . وقدم مؤنس وأقام

---

59) **البيان** ، 293/1 .

60) نفس المرجع . **الكامل** ، 237/9 ؛ النويري ، 145/2 . وهذا الرقم (7500) يمثل حوالي ضعف عدد الهلاليّين الذين قيل إنهم شاركوا في معركة حيدران .

61) **البيان** ، 293/1 ؛ **الكامل** ، 237/9 ؛ النويري ، 145/2 .

62) **رحلة التجاني** ، 328 – 329 ؛ **الحلل السندسيّة** ، 239 ؛ **الكامل** ، 237/9 ؛ النويري ، 147/2 ؛ ابن خلّكان ، 99/1 ؛ **البيان** ، 293/1 ؛ **العبر** ، 16/6 ، 159 .

معسكره حول أسوار المدينة وشمل برعايته أفراد أسرة بني زيري ووجّههم إلى قابس وبعض النواحي الأخرى[63]. وأصبح الأعراب يسيطرون على ناحية قسطيلية بأكملها. وقد قام أحد رؤسائهم، وهو عابد (أو عبد أو عامر) بغارة ناجحة ضدّ زناتة ومغراوة، وعاد بغنيمة هامّة[64]. وما لبثت توزر وقفصة أن ثارتا ضدّ السلطة المركزيّة التي عجزت عن حمايتهما.

ثورة توزر[65] :

يبدو أنّ توزر كانت طوال عهد بني زيري تحت سلطة/أكبر العائلات نفوذًا في تلك المنطقة، ألا وهي عائلة بني يملول، ذات الأصل التنّوخي، وقد كانت تضمّ كلاًّ من بني وطّاس[66] وبني فرقان وبني ماردة(؟)[67] وبني عود[68]. وقد أشار ابن خلدون إلى أنّ رئيس مجلس توزر يحيى بن وطّاس قد أقنع أهل قسطيلية[69] أثناء الغزوة الهلاليّة بخلع طاعة بني زيري والدخول في طاعة بني حمّاد. ويبدو أنّ هذه المبايعة التي لا نعرف عنها أكثر من ذلك، قد سبقت خضوع توزر لسلطة أمير قفصة.

ثورة قفصة[70] :

كان يحكم قفصة أثناء الغزوة الهلاليّة عبد الله بن محمد بن الرّند، وكانت عائلته التابعة لبني صدغيان[71] أصيلي جربة[72] تقيم في بلدة الجُصْبين (أو الجُليين)[73] في جهة

63) العبر، 15/6.
64) نفس المرجع.
65) العبر، 412/6 – 413.
66) العبر: «وطّاس».
67) نفس المرجع : «مارة»، وفي موضع آخر: «بنو مروان».
68) نفس المرجع : «عوض».
69) في المخطوط : «قسنطينة»؛ العبر، 413/6.
70) العبر، 165/6 – 166.
71) نفس المرجع : «صدغيان». [ما زالت توجد إلى الآن بجزيرة جربة قرية تحمل نفس هذا الاسم].
72) حسب البربر، وفي العبر: «حَرْمَة».
73) العبر: «الجُلّيين»، البربر : «الجُرسين».

نفزاوة. وحسب المؤرّخ الحفصي ابن نخيل[74]، كان ينتمي إلى بني ازمرتن[75] التابعين لمغراوة. وقد نجح في بسط سلطانه على المدينة وتأمين راحة السكان وضمان أمن المسافرين، مقابل دفع الجزية للأعراب. وفي سنة 445 هـ أعلن استقلاله وخضعت له أغلب مدن قسطيلية وتوزر ونفطة وتقيوس والحامّة الخ... فأسّس أسرة حاكمة صغيرة هي أسرة بني الرّند. وجلب إلى بلاطه الشعراء والأدباء وأظهر احترامه الفائق للمتديّنين وتوفّي سنة 465 هـ / 1072 - 1073م.

ثورة سوسة[76] :

من الجدير بالتذكير أن أهل القيروان كانوا قد تصالحوا مع أهل سوسة في سنة 442 هـ / 1050 - 1051م واحتفلوا جميعًا بذلك الصّلح بكلّ ابتهاج[77]. ولكن في سنة 445 هـ «خالف أهل سوسة على المعزّ بن باديس ومنعوه ما كانوا يحملون إليه من المال وقالوا : «نحن أولى به لنذبّ عن بلدنا». وتوفّيت أخت المعزّ[78] عندهم، فضمّوا أموالها وأبوا من توجيهها إليه، فبعث المعزّ إليهم في ذلك، فقالوا لرُسُله : «كيف ندفع له أموالاً نتقوّى بها نحن على مدافعته وحربه؟». فبعث المعزّ إليهم أسطولاً ضخمًا، فأصبح بمرسى سوسة، فأحرق ما فيه من المراكب، كانت نيفًا وستين مركبًا أكثرها لأهل سوسة. فعمد أهل سوسة إلى من كان عندهم من أهل القيروان، فأخذوا أموالهم وأهانوهم أشدّ الإهانة.

فوجّه المعزّ إليهم جيشًا فيه مائة فارس وأمرهم أن يتظافروا مع الأسطول على حصار سوسة ليأخذوا بمخنقها برًّا وبحرًا. فكان من قدر الله الغريب الاتفاق أن اجتاز سوسة يوم خروج هذا الجيش أسطول من قِبَل صاحب صقليّة (ابن الثمنة)، فتهيّبه أسطول المعزّ، وانصرف راجعًا إلى المهديّة، ولا علم عند المعزّ بذلك. ووصل جيش المعزّ إلى سوسة فسألوا عن الأسطول فأُخْبِروا بإقلاعه، فسقط في أيديهم. فخرج أهل سوسة ومَنْ حَفَّ بها من

---

74) استشهد به ابن خلدون، العبر، 165/6.

75) البربر: «ازمرتن»، العبر: «مرين».

76) رحلة التجاني، 28 - 29 ؛ البيان، 293/1 ؛ المؤنس 82.

77) أنظر الباب الثالث (الفصل السابع) من هذا الكتاب.

78) الأرجح هي أمّ العلوّ أرملة عبد الله بن حمّاد بن بلكين (المتوفّى ما بين 430 - 440 هـ). وكانت قد تزوّجته سنة 475 هـ.

الأعراب إليهم، فأدخلوهم إلى المدينة وأجالوا السيف على جميعهم ونصبوا رؤوسهم على السّور. قال ابن شرف: أخبرني من شاهدها أنّ عدّتها نيف وخمسون رأسًا. قال: وإنّما سلم من سلم من الجيش لضعف في دوابّهم، منعهم من اللّحاق باخوانهم، فلمّا تحقّقوا الخبر ولّوا راجعين فسلموا من ذلك»(78 م).

وكان يدير المدينة مجلس(79). ويعتبر تمرّد تلك المدينة الساحلية أبلغ من تمرّد توزر وحتى قفصة، حيث كان تأثير السلطة المركزيّة ضعيفًا، وكانت الفوضى سائدة في كامل المنطقة. وتجاه تقاعس السلطة التي أصبحت في حالة انحلال، تأسّس في المدينة مجلس أعيان مكلّف بإدارة الشؤون البلديّة والتفاوض مع الغزاة إن اقتضى الأمر، لصيانة مصالح السكّان. وسنرى فيما بعد أمثلة كثيرة لهذا النظام الذي يذكّرنا بنظام «الجماعة» البربريّة.

وقد وافانا ابن بسّام(80) بمعلومات حول الخلافات التي نشبت في سوسة في أواخر سنة 646 هـ/ أوائل سنة 1055م، حسب الاحتمال. فأشار، ربّما نقلاً عن ابن شرف، إلى رحيل رسول الخليفة العبّاسي أبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي، من القيروان إلى سوسة (بعد سنة 446 هـ بلا شكّ)(81).

«فتطاول عليه أهلها. فخرج عنهم بعد أن أوقع الفتنة بينهم. وتركهم فرقتين: قيسيّة ويمنيّة(82). وأوقع في نفوسهم أنّ الحرب قائمة بين هاتين القبيلتين إلى يوم القيامة. فاقتتل الفريقان إلى أن تغلّب عليهم تميم بن المعزّ. وتردّد أبو الفضل هنالك عدّة سنين. وشهد الحروب مع بلقّين. ثم انتبذ من تلك الناحية. وركب البحر فنزل بدانية».

---

78 م) رحلة التجاني، 28 – 29.

79) العبر، 159/6،.

80) ابن بسّام، 67/1/4 – 69.

81) أنظر الفقرة الموالية.

82) كانت المنافسة متواصلة في العصر الوسيط بين عرب الشمال أو المُضَريّين (ومنهم القيسيّون) وعرب الجنوب أو اليمنيّين المنحدرين من قحطان. ويَدلّ نسب الدّارمي على أنّ أبا الفضل كان تميميًا أو مُضريًّا. وكان بنو هلال مُضَريّين قيسيّين، ولكن من بين المغيرين كانت توجد أيضًا بعض الفرق اليمنيّة. وقد سعى تميم إلى إذكاء الأحقاد بين المغيرين. ولا يفوتنا أنّ الصنهاجيّين كانوا يدّعون أنّهم من أصل يمني وأن كثيرًا من القيروانيّين قد التجأوا إلى سوسة أثناء غزوة الأعراب.

حصار القيروان والاستيلاء على باجة :

«وفي سنة 446 حاصرت العرب مدينة القيروان وضيّقت عليها تضييقًا شديدًا يطول ذكره. وفيها أخذ مؤنس بن يحيى (المرداسي) مدينة باجة وأطاعه أهلها»[83]. وهكذا أصبحت رياح تتحكّم في وادي مجردة العليا.

اقتسام المدن[84] :

اقتسم الأعراب مدن إفريقيّة فيما بينهم. فاستولت زغبة على مدينة طرابلس ونواحيها، واستولى بنو مرداس التابعون لفرع من فروع رياح، على باجة وما والاها. ويشكّل هذا الاستيلاء تكريسًا للأمر الواقع.

وقد أخبرنا التجاني[85] أنّ قاضي طرابلس محمد بن فاضل البكري الإفريقي الذي يبدو أنه كان قد تولّى شؤون تلك المدينة قبل سنة 444 هـ/ 1053 – 1054م، «فرّ عنها (في تلك السنة) هاربًا خوفًا من أهلها». فعوّضه محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن هانش الطرابلسي الذي بقي في خطّته «إلى أن عُزِلَ عنها سنة سبع وسبعين (1084 – 1085)، فكانت ولايته اثنين وثلاثين سنة».

المصاهرات بين بني زيري وبني هلال[86] :

يبدو أنّ المعزّ الذي أصبح في ضيق شديد، قد انتهج من جديد سياسة المصاهرات التي لم يفلح فيها قبل ذلك ببضع سنوات. فقد زوّج بناته الثلاث إلى أمراء القبائل العربيّة: فارس بن أبي الغيث وأخيه عابد[87] بن أبي الغيث والفضل بن أبي علي المرداسي[88].

---

83) **البيان**، 293/1 – 294؛ **الكامل**، 237/9؛ النويري، 145/2؛ **المؤنس**، 82.

84) **العبر**، 15/6.

85) **رحلة التجاني**، ص 263.

86) **العبر**، 16/6، 159؛ التجاني، 236؛ **الحلل**، 239/1 – 240؛ **البيان**، 279/1.

87) **العبر**، 16/6: «عائض»؛ **البربر**، 36/1: «عبد».

88) **العبر**، 16/6: «المُرَادي»؛ البربر، 36/1: «المرداسي».

إلاّ أنّ المعزّ الذي تجاوزته الأحداث وصار يشعر بالوهن «قد أشار على الرعيّة بالانتقال إلى المهديّة لعجزه عن حمايتهم من العرب. وشرعت العرب في هدم الحصون والقصور، وقطعوا الثمار وخرّبوا الأنهار»[89].

الرجوع إلى الحظيرة الفاطميّة[90] :

من الجدير بالتذكير أنّ الخروج عن طاعة الفاطميّين قد تمثّل في ضرب النقود السنيّة. على أنّ دراسة المسكوكات تثبت أنّ المعزّ منذ دخوله إلى المهديّة سنة 449 هـ / 1057 – 1058 م حتى وفاته سنة 454 هـ / 1062 – 1063 م قد ضرب دنانير شيعيّة من النوع المعروف، وأثبت فيها اسم الخليفة الفاطمي المستنصر. وقد نسج ابنه تميم على منواله على الأقلّ حتى سنة 459 هـ / 1066 – 1067 م، ولم تصلنا أيّة نقود زيريّة بعد ذلك التاريخ. ولئن كان الديناران المضروبان في صفاقس على التوالي في سنة 449 هـ و 461 هـ، أي في مدّة حمّو بن مليل البرغواطي، من النوع السنّي، فذلك لأن الأمير قد ثار ضدّ بني زيري التابعين للخلافة الفاطميّة، على الأقلّ منذ سنة 449 هـ.

ومن ناحية أخرى، فإنّ عقد النكاح المودع في مخطوطات الجامع الأعظم بالقيروان[91] والمؤرّخ في غرّة رمضان 446 هـ[92] قد صدر عن «القاضي عبد الرحمان بن أحمد، قاضي الإمام القائم بأمر الله وواليه المعزّ لدين الله»[93]. ونستنتج من ذلك أنّ المعزّ بن باديس ما زال حتى أوّل رمضان 446 هـ / 4 ديسمبر 1049 م يعترف بالخليفة القائم بأمر الله.

وإنّ ابن بسّام هو الذي أمدّنا بالتاريخ الصّحيح لعودة بني زيري إلى طاعة الفاطميّين، وذلك نقلاً عن ابن رشيق، حسب الاحتمال[94]. فبعدما تحدّث عن وصول رسول الخليفة العبّاسي، أبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي، إلى القيروان سنة 439 هـ /

---

89) **الكامل**، 237/9 ؛ النويري، 146/2.

90) إدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1953، 25 – 39.

91) صندوق عدد 417.

92) تشير الوثيقة إلى شهادة أُدْلي بها في رجب 446 هـ، أي قبل تاريخ الوثيقة بشهرين.

93) [بمقتضى أمر مؤرخ في 1967/9/7 نقلت مخطوطات جامع القيروان إلى دار الكتب الوطنية بتونس. وفي المدة الأخيرة قرّرت الحكومة التونسيّة نقلها إلى معهد البحوث الإسلاميّة برقّادة – القيروان].

94) ابن بسّام، 67/1/4 – 69.

1047 – 1048م ، أضاف أنّ هذا المبعوث شهِدَ حصار القيروان (من طرف بني هلال). «فلما كان عام ستّة وأربعين صرف المعزّ خطبته إلى صاحب مصر ، ونبذ العبّاسيّة».

وهكذا ففي الوقت الذي انهارت فيه مملكة بني زيري ، دخل المعزّ بن باديس من جديد في طاعة الفاطميّين سنة 446هـ / 12 أفريل 1054 – أوّل أفريل 1055م. ولمّا أصبح رسول خليفة بغداد شخصًا غير مرغوب فيه ، فرّ إلى سوسة ثم إلى المغرب الأوسط ، حيث دخل في خدمة بلكّين بن حمّاد[95] ، ثم إلى الأندلس ، حيث أدركته المنيّة ، إلاّ أنّ تغيير موقف المعزّ لم يثر حوله كثير من اللّغط. ذلك أنّ أهل إفريقيّة المهدّدين في أشخاصهم وأملاكهم ، لم يكن لديهم متّسع من الوقت للاهتمام بالقضايا السياسيّة والدينيّة. وهناك دينار سنّي مضروب «بمدينة عزّ الإسلام والقيروان» سنة 448هـ / 1056–1057م ، يقيم الدليل على أنّ السكّة لم يدخل عليها أيّ تغيير في الحال. وممّا لا شكّ فيه أنه لم تُضْرَب نقود عديدة في مثل تلك الفترة المضطربة.

ومن الغريب أنّنا لا نجد أيّ أثر لتغيير موقف المعزّ في المصادر الفاطميّة المعروفة الآن. على أنّ صاحب إفريقيّة لم يكن منخدعًا قطّ بما يمكن أن ينجرّ عن موقفه الجديد من منافع محتملة. ذلك أنّ المنكوبين ، تجاه ما لا سبيل إلى تفاديه ، لا يستطيعون إلاّ التعلّل بالأمل الخدّاع في الرجوع إلى الوضع الذي كانوا عليه قبل المحنة. ولعلّ المعزّ بن باديس المتسبّب في أحداثٍ كان عاجزًا عن إيقافها ، والنّادم على صنيعه ، قد فكّر بصورة غريزيّة في إمكانيّة تفادي الكارثة بالرّجوع إلى الوضع القائم من قبل. ولا ينبغي أن يفوتنا أيضًا أنّ بني هلال يعترفون ، على الأقلّ اسميًّا ، بالفاطميّين الذين كانوا قد سلّموا إليهم إفريقيّة. فمن الممكن أن تكون بعض الأوامر والتوصيّات ونصائح الاعتدال الصادرة عن القاهرة ، ذات جدوى. أمّا الأمل في مساعدة الخلافة العبّاسيّة النائية ، فهو من قبيل الوهم. وبالعكس من ذلك فإنّ الأمل في الحصول على دعم معنوي أو عسكريّ من قِبَل المستنصر لفائدة خادمه النادم الذي أصبح في ضيق شديد ، ليس بالأمر المستحيل. أفلا يستطيع الخليفة ، رغم ما يتعرّض له من صعوبات في الدّاخل أو في الخارج ، إرسال فيلق والقيام بعمليّة إنزال في المهديّة مثلاً ، بفضل أسطوله الذي ما زال عتيدًا؟ أفلم يساعد آباء المعزّ في الماضي على إنقاذ الفاطميّين في

95) لا شكّ أنّ بني حمّاد قد استمرّوا في الاعتراف بالخلافة العبّاسيّة ، وهذا ما يفسّر وجود أبي الفضل إلى جانب بلكين. ولكن بينما يؤكّد ابن خلدون (العبر، 172/6) أنّ القائد (المتوفّى سنة 446هـ / 1054–1055م) قد اعترف بالعبّاسيّين ، نجد ما ينافي ذلك في أعمال ابن الخطيب.

الساعات الحرجة خلال ثورة أبي يزيد، عندما كان صاحب الحمار يحاصرهم في مدينة المهديّة ذاتها، حيث سيجد بنو زيري أنفسهم عمّا قريب مُحَاصرين بدورهم؟

وبناء على ذلك، فإنّ خضوع صاحب إفريقيّة المالكيّة من جديد للسّلطة الشيعيّة، حسبما تثبته عدّة نقود ويؤكّده إخباريّ واحد، يمكن تفسيره بسهولة. ذلك أنّ مبايعة الخليفة العبّاسي الثاني قد أثارت زوبعة لا يستطيع إخمادها إلاّ الخليفة الفاطمي القريب جدًّا. ولكنّ هذه المحاولة الأخيرة لم تُجْدِ نفعًا. والحال أنّ التّصالح لا يكلّف شيئًا، في حين تبيّن أنّ القطيعة مع القاهرة كانت مفجعة، بعدما بَدَت في أوّل الأمر من قبيل الأعمال السياسيّة الباهرة.

ومن ناحية أخرى، فقد ثار ضدّ المعزّ في سنة 447هـ / 2 أفريل 1055 – 20 مارس 1056م، المدعوّ ابن أبي زمان، الذي لا نعرف عنه أيّ شيء آخر، من سوء الحظّ.

وفي نفس تلك السنة «كانت بإفريقيّة مجاعة عظيمة وجَهْدٌ مفرط»[96].

القتال بين عبيد المعزّ وعبيد تميم[97]:

في سنة 445هـ / 23 أفريل 1053 – 11 أفريل 1054م «وصل تميم إلى المهديّة فوجد بها عبيدًا لأبيه، كان قد أعدّهم هنالك لضبطها، قد قويت شوكتهم وكثر ملأهم. فوقعت بينهم وبين عبيده فتنة ومنازعة. فبينما هو في ذلك إذ دخل عليه شاعره محمد بن حبيب القلانسي، فأنشده قصيدة منها:

[بسيط]

السيف يسبق قبل الحادث العذلا لا تغمد السيف حتى تقتل السّفَلاَ
نَقِّـل عُـدَاتَكَ مـن دنيا لآخرة فكلّهم ظنّ هذا المُلْكَ مُنتَقِلا»[98]

«فقامت عامّة زويلة وسائر من كان بها من البحريّين وغيرهم، مُعَاضَدَةً لعبيد تميم، وأخرجوهم من المهديّة وقتلوا منهم عددًا كبيرًا. فدسّ تميم خبرهم إلى العرب، فقُتِلَ منهم في

96) البيان، 294/1.
97) نفس المرجع. الكامل، 257/9 – 258؛ التجاني، 329؛ الحلل، 239/1؛ تاريخ أبي الفداء، 147/2.
98) التجاني، المرجع المذكور.

الطريق خلق كثير. ويقال إنّ الذي قُتِلَ منهم سبعمائة»[99].

وقد دفعت هذه الواقعة تميم بن المعزّ عندما ارتقى إلى العرش، إلى قتل عبيد أبيه. والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد أنّ وليّ العهد تميم بن المعزّ كان قد أنشأ حرسًا خاصًّا يفوق عدَدُه عدَد حرس أبيه، وأنّه، خلافًا لما كان متوقّعًا، قد أقدم على قتل «عبيد أبيه». والحال أنّه من المفروض أن يكونوا أوفياء له.

«وبلغ المعزّ ذلك، فقوي في نفسه ما كان يُذْكَر له عن تميم من الاستبداد والاستئثار بما حصل لديه من الذخائر، ولكنّه لم يجد بدًّا من مداراته والإغضاء له عن فعلته».

وحسبما جاء في «**البيان المغرب**» لابن عذاري[100]، دخل العرب إلى إفريقيّة سنة 448هـ/ 21 مارس 1056 – 29 مارس 1057م، واستولوا على أغلب نواحيها. ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بخطإ في التاريخ، أو أنّ المقصود هو وصول موجة جديدة من المغيرين، قد استهوتهم انتصارات من سبقهم من الأعراب، فجاؤوا ليأخذوا نصيبهم من الغنيمة.

فرار المعزّ إلى المهديّة[101]:

قرّر المعزّ بن باديس يوم 27 شعبان[102] سنة 449هـ/ 29 أكتوبر 1057م الالتجاء إلى المهديّة، وكان قد وجّه إليها عائلته وذخائره. فخرج من صبرة – المنصوريّة متوجّهًا إلى المهديّة «في خفارة رجلين من العرب قد كان صاهرهما ببِنْتَيْهِ، يُعرَف أحدهما بالفضل بن أبي علي وهو مرداسي، ويُعْرَف الآخر بفارس بن أبي الغيث، توجّها إليه فاستخرجاه من صبرة سرًّا، وأحسّ باقي الأعراب بخروجه فلحقوه في أثناء الطريق، فواقفهم فارس بن أبي الغيث في جماعة من قومه وجعل يؤنّبهم على الاستخفاف بخفارته. فقالوا له: «إنّك قد أعظمت التحامل علينا في خفارة مثل المعزّ، وتَرْكُنا له عظيم، والفائدة في أخذه كبيرة، فلا

---

99) لقد بالغ التجاني عندما قال إنهم قُتِلوا جميعًا.

100) **البيان**، 243/3، لعلّ المقصود 442هـ؟

101) التجاني، 328 – 329؛ **الحلل**، 239/1 – 240 [الطبعة الجديدة 447/1]؛ **البيان**، 294/1، 297 – 298؛ **العبر**، 16/6؛ **الكامل**، 237/9؛ **المؤنس**، 84. وحول تعيين قائد بن ميمون، أنظر: **الكامل**، 21/1؛ النويري، 154/2.

102) حسب **البيان**، 294/1: «لِلَيْلَتين بَقِيَتا من شعبان». وحسب النويري: «لليلتين مَضَتا»، وهذا خطأ.

تمنعنا منه». فلم يزل يواقفهم ويراجعهم إلى أن خلص المعزّ وصاحبه الفضل بن أبي علي ودخل المهديّة»[103].

وفي أقصر رواية من الروايتين اللتين أوردهما ابن خلدون[104]، اقتصر المؤرّخ على التأكيد أنّ المعزّ قد توجّه من القيروان إلى المهديّة في خفارة صهره الشهير مؤنس بن يحيى الصنباري. وحسب الرواية الثانية[105] استقدم المعزّ أصهاره من رؤساء العرب الذين خفروه، وأبحر في اتّجاه المهديّة. وبما أنّ الطريق المباشرة لم تكن آمنة بما فيه الكفاية، نظرًا لوجود عدد كبير من الأعراب، فاننا نتصوّر جيّدًا أنّ المعزّ قد توجّه إلى جهة الساحل، عبر منعطف، مفضّلاً ذلك على شمال الطريق الرابطة بين القيروان وسوسة. ولكن من المستبعد أن يكون قد أبحر من سوسة، وإلاّ لماذا لم ينزل في ميناء المهديّة؟ إذ سنرى أنه قد التقى بتميم في الميّانش.

ومرّة أخرى، فان التجاني في رحلته شبه التاريخيّة هو الذي سيوفّر لنا معلومات مفيدة في هذا الشأن. فقد صرّح بما يلي: «ويقال إنّ المعزّ قد كان أخرج بعض قطعه البحريّة وسيّرها في البحر محاذية له خوفاً ممّا عساه أن يعرض له في طريقه. فلما لحقه الأعراب، كما قدّمناه، ناداه أرباب القطع بالبدار إليهم ليعتصم بالبحر من أولئك الأعراب، فلجّ في السّير وأبى من الدخول إليهم، أنفةً منه وجَلَدًا، إلى أن خلص وحصل بالمهديّة ودخلها وهو خائف من ولده تميم أن يقبض عليه. فخرج تميم للقائه وترجّل وقبّل الأرض بين يديه ومشى أمامه»[106].

ويبدو أنّ هذا اللقاء قد تمّ في ميّانش[107]. وقد قدّم تميم شواهد الطّاعة إلى أبيه، مسفّهًا بذلك الأراجيف التي اتّهمته باعتزامه الثورة على الأمير التّعيس الحظّ. ولعلّ المعزّ قد فوجئ وتأثّر بهذا الاستقبال المفعم بشواهد الاحترام، فدعا لولده وأمره بأن يمتطي صهوة جواده من جديد. ثم دخلا المهديّة ونزل المعزّ بالقصر[108].

---

103) حسب التجاني، 329—330.
104) **العبر**، 159/6.
105) **العبر**، 16/6.
106) التجاني، ص 330.
107) بلدة صغيرة تقع شمال المهديّة، **البلدان**، 219/8.
108) **البيان**، **الكامل**، النويري، التجاني.

ويمكن لبعض أصحاب النوايا السيّئة أن يشكّوا في نزاهة تميم وأن يتساءلوا هل أنّه لم يعمد في الحين إلى إخضاع والده لسلطته. ومهما يكن من أمر فإنّ المعزّ الذي يبدو أنّه قد استرجع صوابه، بعد كلّ الهزائم والمتاعب التي أنهكته طوال أكثر من أربعين سنة، قد فوّض إلى وليّ عهده طوعًا أو كرهًا تسيير شؤون البلاد، دون أن يتنازل عن العرش[109].

وقبل أن يغادر المعزّ عاصمته، ترك القيروان وتونس بين يَدَيْ المسمّى قائد بن ميمون[110]. وغداة رحيله الذي تمّ في الليل، حسب الاحتمال، قام ابنه المنصور الذي بقي بالقيروان بإعلام السكّان برحيل والده. فغادر أهل القيروان المدينة بإشراف المنصور والعبيد[111].

نهب القيروان :

بعد يومين فحسب من رحيل المعزّ بن باديس، أي يوم أوّل رمضان سنة 449هـ / أوّل نوفمبر 1052م، «انتهبت العرب مدينة القيروان وخرّبتها»[112]. وقد وصف ابن رشيق في قصيدة طويلة خراب القيروان وما قاساه أهلها من عذاب، بعدما أُجْبِرُوا على مغادرة مدينتهم. وقد تحدّثت المصادر عن المصائب التي تسبّب فيها بنو فادي (أو فادغ) وبنو دهمان، خلال شهر رمضان[113].

أما ابن الصّيرفي[114]، فبعدما روى هذه الوقائع، أشار إلى أنّ كميّة كبيرة من الأشياء المنهوبة، كالأسلحة والأجهزة والأدوات الحربيّة والخيام، قد وصلت إلى القاهرة المعزّية. وتؤكّد هذه الإشارة الغريبة متانة العلاقات القائمة بين المغيرين والخلافة الفاطميّة.

---

109) **البيان**، **الكامل**، المؤنس.

110) النويري، 154/2؛ **الكامل**، 21/10. ويذكر المرجع الأخير خطأ لا محالة قابس عوض تونس.

111) حسب ابن خلدون لا غير.

112) **البيان**، 294/1؛ **الكامل**، لم يذكر إلاّ الشهر.

113) تشتمل القصيدة على 122 بيتًا، **معالم الايمان**، 15/1–16 (56 بيتًا)؛ **بساط**، 47 (27 بيتًا)؛ الميمني، 73–80. ويذكر النصّ «فادي». واسم هذه القبيلة ما زال موجودًا إلى الآن في ولاية المهدية. وبنو فادي (أو فادغ) هم من بني مرداس.

114) ابن الصيرفي، 42.

وما لبث الأعراب أن قطعوا مواصلات المهديّة ووسائل تموينها، وهجموا على زناتة[115]، وقد وصل الأثبج وعدي إلى المغرب الأوسط. ففي سنة 450هـ/ 1058 – 1059م «خرج بلكّين الصنهاجي، ومعه الأثبج وعدي لحرب زناتة»[116].
والتجأ عدد كبير من أهل إفريقيّة إلى مملكة بني حمّاد التي تسمح لها تضاريسها بالدفاع عن نفسها كما ينبغي. ويبدو أنها استفادت من تدهور إفريقيّة سياسيًّا واقتصاديًّا[117].

ثورة صفاقس[118] :

كان المعزّ بن باديس قد ولّى على صفاقس في فترة لا نعرف تاريخها بالضبط، صنيعته منصور أفروم[119] البرغواطي، «وكان من الفرسان المعروفين بالإقدام، فأراد أن يثور بها وأخذ في مخالفة العرب ومصادقتهم، فعالجه ابن عمّه حمّو بن مليل وقتله غدرًا في الحمّام سنة واحد وخمسين وأربعمائة (السبت 2 شوال 451هـ/ 11 نوفمبر 1059م)[120].
«ولمّا قتله جاء حلفاء منصور من العرب فحصروا حمّو بصفاقس، فبعث إليهم يسألهم هل قصدهم الأخذ بثأر ابن عمّه منه أو المال. فقالوا: نحن لا ندخل بينكم في الدماء، وإنّما غرضنا الأموال. فالتزم لهم من المال ما رضوا به وعجّل لهم ما تيسّر وانفصلوا. وثار حمّو بصفاقس وأظهر العناد على بني مناد».
وفي السنة الموالية 452هـ/ 6 فيفري 1060 – 25 جانفي 1061م، «وقعت بين العرب بالقيروان وبين هوّارة حربٌ كان الغلب فيها للعرب[121]، وقُتِلت هوّارة بباب أصرم[122] أحد أبوابها».

---

115) **العبر**، 16/6.
116) **البيان**، 294/1.
117) **الكامل**، 18/10؛ النويري، 148/2–149.
118) **رحلة التجاني**، 70؛ **الحلل السندسيّة**، 313/1؛ **نزهة الأنظار**، 193/2؛ **العبر**، 159/6؛ **البيان**، 294/1؛ النويري، 146/2؛ **المؤنس**، 82.
119) قراءة ظنّيّة حسب اسم ذكره النويري فقط.
120) **البيان**، 294/1، نظريًّا يوم الخميس. أفلا يتعلّق الأمر بيوم السبت 12 (نظريًّا يوم الأحد)؟
121) **البيان**، 294/1؛ **الكامل**، 237/9 واكتفى المؤلف بالإشارة إلى أنّ العرب هزموا هوّارة وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا.
122) حسب **البيان**، وقد صحّحنا القراءة المخطئة كما يلي: «باب أصرم» عوض «باب الصوم».

وحسب ابن الأثير والنويري[123]، اضطرّ قائد بن ميمون الذي كان المعزّ قد سلّم إليه القيروان، بعد مضيّ ثلاث سنوات، إلى التخلّي عن المدينة التعيسة الحظّ لفائدة هوّارة والالتجاء إلى المهديّة. ويمكن أن نستنتج من ذلك أنّ قائد بن ميمون قد حكم القيروان من سنة 449 إلى سنة 452 هـ، ثم أُطْرِد منها من طرف هوّارة الذين ما لبثوا أن أُطْرِدوا هُمْ أيضًا من طرف الأعراب.

قضيّة تقيوس[124] :

عندما يدخل الأعراب إلى مدينةٍ ما لقضاء بعض شؤونهم، كانت عداوة الإفريقيّين لهم من جهة، وعجرفتهم من جهة أخرى، تثير عدّة حوادث من نوع الحادث الذي جدّ بالقيروان سنة 444 هـ / 1052–1053م[125]. ومن ذلك أيضًا أنّ الأعراب قد دخلوا في سنة 453 هـ / 1061م إلى تقيوس وهي مدينة تقع بالجريد بين توزر وقفصة وتخضع لسلطة والي قفصة المستقلّ عبد الله بن الرّند. «فسمع رجل منهم رجلا من أهل المدينة يذكر المعزّ بخير ويثني عليه، فقتله العربي، وكان الرجل مقدّمًا في المدينة. فقام عليهم أهل البلد وقتلوا مائتين وخمسين من العرب، وكان سبب ذلك أن العرب دخلت إلى تقيوس متسوّقة»[126].

بعض مظاهر الفوضى السائدة في شمال إفريقيّة[127] :

في فصلٍ يستحيل في غالب الأحيان تصحيح نصّه المحرّف، نظرًا لعدم إمكانيّة المقابلة بينه وبين نصوص أخرى، جمع ابن خلدون عدّة معلومات حول عدد من الرؤساء الذين هم بمثابة ملوك طوائف، تمكّنوا بسبب الفوضى الهلاليّة من الاستيلاء على عدّة مدن ثانوية في شمال إفريقيّة. وتغطّي هذه المعلومات الفترة الممتدّة من غزوة بني هلال إلى غزوة الموحّدين.

---

123) **الكامل**، 21/10؛ النويري، 154/2.
124) **البيان**، 295/1؛ **الكامل**، 237/9.
125) أنظر ما سبق.
126) قراءة **الكامل**: «متسوّقة» أحسن من قراءة **البيان** «متشوّفة».
127) **العبر**، 169/6–170.

ونظرًا لعدم تمكّننا من تحديد التسلسل الزمني لتلك المعلومات ، فاننا سنوردها كما هي . وليس في ذلك ضرر كبير ، لأنّ تميم بن المعزّ ومن جاء بعده من ملوك بني زيري ، لم يحاولوا أبدًا استرجاع أيّة ناحية من النواحي الواقعة شمال غربي مدينة تونس ، إذ كانوا مشغولين في أماكن أخرى ، وكانت تنقصهم الوسائل اللاّزمة لذلك .

بنزرت[128] :

استقرّ أحد اللخميّين ، يبدو أن اسمه الكامل هو أبو الرجاء الورد[129] ، في قَريشة (أو قرسينة)[130] ، وهي قلعة تقع في جبل شُعَيْب[131] . ثم حشد فيها جموعًا من المغامرين المتشرّدين وأجبر سكّان القرى المجاورة لبنزرت على دفع الجزية لاتّقاء الغارات . وقد دام هذا الوضع مدّة طويلة إلى أن اتّفق أهل بنزرت الذين كانوا منقسمين إلى شقَّيْن متنافسَيْن ، منهم قسم يضمّ اللخميّين ، على الاعتراف بسلطة الورد ، وقد استقرّ في مدينة بنزرت لحمايتها من الأعراب . وعندما استولى على السهول المجاورة بنو مقدّم التابعون لبطن من بطون الأثبج وبنو دهمان التابعون لبطن بني علي أحد بطون رياح ، عقد معهم الورد الصّلح مقابل دفع الجزية ، وتلقّب بلقب أمير ، وحرص إلى آخر حياته على تحقيق ازدهار المدينة ، وقد شيّد بها عدّة بناءات ذات المنفعة العامة .

وقد أثارت بسالة ابنه وخليفته طراد خوف الأعراب . وخلفه ابنه محمد الذي قتله بعد ذلك بشهر أخوه مقرب[132] وأطلق على نفسه لقب أمير . وتمكّن هذا المغتصب من استمالة عدد كبير من الأنصار وحماية بلاده من الأعراب . وقد استطاع بفضل قوّته القيام بدور راعي الآداب ، فأغدق العطايا على الشعراء الذين توافدوا على بلاطه .

ثمّ انتقل الحكم إلى أبنائه الثلاثة الذين نسجوا على منواله ، وهم على التوالي عبد العزيز ، وقد حكم عشر سنوات ، ثم موسى ، وقد حكم أربع سنوات ، وأخيرًا عيسى الذي استسلم إلى عبد المؤمن بن علي سنة 552 هـ / 1157 – 1158 م .

---

128) نفس المرجع .
129) نفس المرجع : «أبو الرجاء اللخمي» ؛ **البربر** : «الورد» .
130) **العبر** : «قرسينة» ؛ **البربر** : «كريشة» .
131) لعلّ الأمر يتعلّق بجبل أشكل الحالي .
132) **العبر** : «مقرن» ، وربّما مقرّب .

زرعــة[133] :

كان بَرُوغْسَنْ(؟)[134] بن أبي علي الصنهاجي ضابطًا من ضبّاط العزيز بن المنصور بن حمّاد[135] الذي كان قد تزوّج أخته. ولكن إثر الانتصار الذي أحرزه هو والعزيز ضدّ الأعراب، نسب ذلك الانتصار إلى نفسه دون سواه، وادّعى أنّ السلطان قد تخاذل أثناء المعركة. فتأثّر العزيز بذلك والتجأ بروغسن، بإشارة من أخته زوجة العزيز، إلى باجة، وقد احتفى به شيخها محمود بن يزال الربعي[136]. وكان أهل زرعة، وهي قلعة تابعة لباجة، ينتمون إلى قبيلة زاتيمة(؟)[137] وهم منقسمون إلى فرعين متنافسّين : أولاد مدني[138] وأولاد لاحِق. فسئم الفريقان من الخصام والتمسا من محمود شيخ باجة القدوم لإرجاع الأمن إلى نصابه. فوجّه إليهما بروغسن بن أبي علي ليحكم بينهما ويسهر على مصالحهما. فاستأجر بروغسن بعض الأشخاص المتشرّدين الذين كانوا يهيمون في البوادي المجاورة وأدخلهم إلى قلعة زرعة. وتزوّج امرأة[139] من أولاد مدني وناصرهم على خصومهم أولاد لاحِق. ولمّا أصبح يتحكّم في زرعة، جنّد الرجال وألّف فيلقًا يضمّ خمسمائة فارس وعاث في ضواحي القلعة فسادًا. وقد تعرّض بنو الورد أصحاب بنزرت وابن غلال(؟)[140] حاكم طبربة لهجوماته، وكان من بين ضحاياه محمد بن سباع[141] أمير بني سعيد التابعين لبطن من بطون رياح. وبما أنّ القلعة أصبحت لا تسع العدد المتزايد من السكّان، فقد بنى بروغسن بجوارها رَبَضا. فوجّه العزيز بن حمّاد جيشًا ضدّه بقيادة القايد غيلاس(؟)[142] الذي تمكّن من إلقاء القبض عليه غدرًا. ولم يَلْقَ الأسير حتفه إلاّ بعد ذلك بمدّة طويلة. فحاصر بنو سباع

---

133) العبر، 170/6 : «ورغة»؛ البربر: «زرا» ربما زرعة.
134) العبر، «بدوكاس» وفي مكان آخر «أدوسكن».
135) حكم من 493هـ/ 1104 إلى 515هـ/ 1121 أو 1124م.
136) العبر: «نزال الريغي».
137) العبر: «زاتمة».
138) حسب العبر، ربّما مَدْيَني.
139) العبر: «ظاهرة».
140) أنظر الإحالة 145.
141) حسب العبر.
142) نفس المرجع.

وبنو سعيد ابنَه وخليفته منيع[143] للأخذ بثأر «أخيهم» محمد بن سباع. وبعد حصار طويل اقتحموا القلعة وقتلوا منيع وبعض أفراد من عائلته وحوّلوا البعض الآخر إلى عبيد.

طبربـة[144] :

استولى على طبربة أثناء غزوة بني هلال أحد شيوخها، مدافع بن غلال(؟)[145] القيسي. فهجم عليه ابن بَيْزون(؟)[146] اللخمي في ضواحي البحرَيْن[147]، وهي بلدة تقع في حوض وادي مجردة (أو بغردة)، قُبالة الرّياحين. ودامت الحرب بين هذين القائدين مدة طويلة.

المعلّـقة[148] :

هيّأ محمد بن زياد الرّياحي التابع لفرع بني فاديغ، مَخْبَأً لنفسه في أطلال قرطاج بالمكان المعروف اليوم باسم «المعلّقة». وقد جعل من مدرج تشرف أقواسه المنضّدة على ساحل البحر، حصناً منيعًا. وكانت هذه القلعة الاصطناعيّة محميّة بجدار مبني بالتراب. وكان صاحب المعلّقة حليفًا وفيًّا لتميم بن المعزّ. وقد ساعد أهل مدينة تونس على صدّ هجوم ابن عبد المؤمن على مدينتهم. كما تبارى مع خصمه صاحب منزل دحمون.

منزل دحمون[149] :

استطاع الجندي المأجور، المدعوّ قهرون بن غنّوش[150] أن يتولّى على مدينة تونس، ربما قبل ظهور بني خراسان. ثم أُطْرِد منها لسوء سلوكه. فحوّل حنايا منزل دحمون إلى قلعة،

143) نفس المرجع.
144) العبر، 170/6.
145) قراءة ظنّية اعتمادًا على اسم قرية تقع في الطريق الرابطة بين تونس ومنزل بورقيبة «عين غلال». العبر: «علاّل».
146) حسب العبر.
147) ربّما: «البحريّين».
148) العبر، 146/6.
149) العبر، 170/6.
150) البربر: «غنّوش»؛ العبر: «مخنوش» (ربّما عوض غنّوش).

وأقرّ بها عصابة من الأشخاص التابعين لقبائل مختلفة وأخذ في مناوشة ضواحي تونس. وبفضل مساعدة محرز بن زياد، تمكّن أهل تونس من القضاء على ذلك الجحر الذي تحصّنت به جماعة من قطّاع الطريق. فالتجأ قهرون بن غنّوش إلى ابن غلال وتصاهر معه[151]. وقد وضع صاحب طبربة على ذمّته قلعة تسمّى قلعة غنّوش[152]. واستمرّ المغامران في أعمالهما العدوانيّة واقتدى بهما أبناؤهما فيما بعد إلى أن وصل عبد المؤمن بن علي إلى إفريقيّة ووضع حدًّا لهذه الاضطرابات في سنة 554هـ / 1159م.

منزل رقطون[153] :

استقرّ قائد آخر من قوّاد قطّاع الطريق، وهو حمّاد بن خليفة اللّخمي بمنزل رقطون في منطقة زغوان وأخذ في القيام بعمليّات النّهب. واقتفى أثره ابنه إلى أن وصل الخليفة الموحّدي إلى إفريقيّة.

الكاف والأربس[154] :

استقرّ بالكاف (شقبنارية) عيّاد[155] بن نصر الله الكلاعي، على رأس عصابة من قطّاع الطريق التابعين لقبائل مختلفة، وتمكّن من الدفاع عن تلك المدينة ضدّ الأعراب.

وقد التمس منه ابن فتاتة(؟)[156] شيخ الأربس تخليصه من الهلاليّين، فأجلاهم عن تلك البلدة. وجزاءً على خدماته فرض على السكّان جزية سنويّة، واستمرّ في استخلاصها إلى آخر حياته. فخلفه ابنه ونسج على منواله إلى أن استسلم إلى عبد المؤمن بن علي في سنة 554هـ / 1159م.

---

151) **العبر**: «فوصل ابن غلاّل يده بصهرٍ منه».

152) من المحتمل أن يكون الأمر متعلّقًا بمدرج قاش الذي تحدّث عنه صاحب **الاستبصار**.

153) **العبر**، 170/6.

154) نفس المرجع.

155) **العبر**: «عِماد».

156) **البربر**: «ابن فتاتة»؛ **العبر**: «ابن قليه»(؟)

ونستخلص ممّا تقدّم ذكره أنّ الفوضى كانت سائدة في شمال إفريقيّة، أكثر من أيّ مكان آخر وأنه لم يُبْذَل أيّ مجهود خلال أكثر من قرن[157] لوضع حدّ لذلك الوضع. كما نلاحظ أنّ بني هلال لم يستطيعوا الاستيلاء، بأتمّ معنى الكلمة، على أيّة بلدة ذات أهمّيّة. بل حتى في باجة، كانت سلطة الأمير الرّياحي القويّ النفوذ مؤنس بن يحيى، ذات صبغة عابرة. وفي الجملة فقد اكتفوا بحطّ رحالهم في السهول، حيث كانوا يجدون ما يسدّون به رمقهم هم ومواشيهم، واقتنعوا بفرض الضرائب على سكّان المدن والقرى[158]. ولا نعلم أيّ شيء عن الوطن القبلي والمنطقة الواقعة بين زغوان والقيروان.

وباستثناء مدينة تونس التي كانت، بالنظر إلى أهمّيّتها، رهانًا للمنافسة بين بني حمّاد وبني زيري، سنرى كيف أنّ سياسة أصحاب المهديّة من بني زيري، قد اقتصرت أساسًا على جنوب القيروان، وبالخصوص المنطقة المحاذية للسّاحل، من سوسة إلى طرابلس. وبحكم الواقع فإنّ الصنهاجيّين البربر الذين كانوا يعيشون في السباسب وأصبحوا محصورين في شبه جزيرة ضيّقة، سيُجْبَرون على الإصغاء إلى نداء البحر.

وهكذا فإنّ غزوة بني هلال تُعْتَبَر إعلانًا عن نهاية عهد التحرّكات الزيريّة داخل بلاد المغرب، بعدما أصبحت تلك التحرّكات من الأمور المشكوك فيها، وتنبئ في نفس الوقت ببداية عهد الغزو في البحر.

قابس في عهد المعزّ[159]:

«كانت ولاية قابس في أيّام الشّيعة متردّدة في بني لقمان الكتاميّين[160]. فلمّا ملكت الشّيعة مصر وانقلبت الدولة الكتاميّة بإفريقيّة صنهاجيّة، تردّدت ولاية قابس في صنهاجة وعبيدهم. فوليها في أوّل الأمر بنو عامر، ثم وليها إبراهيم [ابن المنصور][161] بن يوسف بن

---

157) تقريبًا ما بين 445 و554هـ/ 1053–1059م.

158) العبر، 19/6.

159) التجاني، 69–70؛ الحلل، 154 [الطبعة الجديدة، 338/1]؛ العبر، 159/6، 166، 420–421. يبدو أنّ ابن خلدون قد اعتمد التجاني أو مصدرًا آخر مشتركًا بينهما؛ البكري، 18–19.

160) رحلة التجاني، 96.

161) إضافة ضروريّة، لأنّ الأمر يتعلّق بأحد إخوان باديس بن المنصور، أي يوسف وهو اسم بلكين. اللّهمّ إلا إذا كان الأمر يتعلّق بأحد إخوان المنصور بن يوسف (بلكين) ابن زيري لا باديس.

زيري، وهو أخو باديس(؟)، ثم منصور بن ماواس[162]، ثم توالت بعد ذلك في أقوام من برغواطة ولأهم المعزّ بن باديس»[163].

وأثناء غزوة بني هلال كان والي قابس المعزّ بن محمد بن ولميّة(؟)[164] الصنهاجي. والجدير بالتذكير أنّ بعض أفراد من بني زيري كانوا قد التجأوا إلى قابس تحت حماية مؤنس في سنة 445هـ / 1053–1054م[165]. والغالب على الظنّ أنّ قابس كانت تُعْتَبَر مركزًا مؤهّلاً للمقاومة الفعّالة. فالأرجح أنها كانت محصّنة في قبضة حامية صنهاجيّة على غاية من الأهميّة، وأنّ واليها الصنهاجي لم ينفصل عن مخدومه –حسبما يبدو– إلاّ حوالي سنة 454هـ / 1063م[166].

«وكان أخواه [أي المعزّ بن محمد بن ولميّة] إبراهيم وقَاضي، قائدَيْ الأعنّة بحضرة المعزّ بن باديس. فعزلهما المعزّ عن ذلك لغرض عنّ له[166م]. ففرّا عنه مُغَاضِبَيْن ولحقا بمؤنس بن يحيى الهلالي، أحد العرب القادمين من مصر فأكرمهما وكساهما ثيابًا وصلت إليه من مصر (هذا دليل على متانة العلاقات القائمة بين الهلاليّين والفاطميّين) وسُرَّ بقدومهما. وانصرفا إلى قابس (باتّفاق مع مؤنس بدون شكّ)، فاجتمعا بأخيهما [المعزّ بن محمد بن ولميّة]. فاتّفقوا على قطع اسم المعزّ بن باديس من الخطبة وصرف الطاعة إلى مؤنس بن يحيى. فكان أوّل تملّك العرب لها»[167]. ولعلّ هذا التأكيد يعني أنّ السلطة الهلاليّة قد تمّ الاعتراف بها للمرّة الأولى في إفريقيّة. وهو تأويل تؤيّده الأهميّة التي أَوْلاها ديوان الرسائل الفاطمي إلى هذا الحدث في إعلان رسمي.

فقد اكتُشِفَ في الهند مخطوط إسماعيلي من أصل يمني، يتمثّل في مجموعة من نُسَخ

---

162) لعلّ الأمر يقتضي تعويض ماواس بمَنّاس.

163) لقد روى كاتب السِّيَر الإباضي الشماخي التجاوزات التي ارتكبها قائد المعزّ بقابس، ولكنّه لم يذكر اسمه من سوء الحظّ. وفي آخر الأمر كلّف المعزّ مبعوثيه بمعاقبة الوالي الظالم، فقتلوه، وحملوا رأسه وألقوا بجثّته في البحر (الشماخي، 474–475).

164) قراءة ظنّيّة، **العبر**، 166/6؛ البربر، 35/2، قراءة دي سلان: «ولميّة»؛ البكري: «وانمّو»؛ **سجلات مستنصرية**: «ابن المو».

165) **العبر**، 15/6.

166) ابن أبي دينار (**المؤنس**، 82) لم يذكر قابس من بين المدن التي ثارت على بني زيري.

166م) لا ندري لماذا ومتى تمّ ذلك؟ ومن المحتمل أن يكون ذلك قد تمّ بعد فرار المعزّ إلى المهديّة (449هـ / 1057م).

167) حسب التجاني وابن خلدون، استولى الأعراب على قابس للمرّة الأولى.

لبعض الوثائق الصادرة عن ديوان الرسائل التابع للخليفة الفاطمي المستنصر، من بينها وثيقة تتعلّق بغزوة بني هلال[168].

وهي تتمثّل في خطابٍ وجّهه المستنصر إلى أمير اليمن علي بن محمد الصُّلَيْحي، مؤرّخ في رمضان سنة 458هـ/ 28 أوت – 26 سبتمبر 1036م. والجدير بالملاحظة أنّ أسلوب الرسالة الرنّان وانعدام التواريخ المضبوطة، يجعلان من الصعب تأويل تلك الوثيقة.

فقد ذكّر الخليفة في هذه الرسالة الأميرَ اليمني بادئ ذي بدء بخيانة المعزّ بن باديس وتوجيه رياح وزغبة إلى إفريقيّة، بقيادة الأمير أمين الدولة ومكينها حسن بن علي بن مُلْهِم المكلّف بإصلاح ذات البين بين العرب.

ثمّ أشار إلى الرسالة التي وجّهها إليه منذ حين ذلك القائد ليعلمه بانتصارات الهلاليّين الذين حاصروا قلعة ذلك الخائن.

وقد مَثُل بين يَدَيْ القائد كلٌّ من ابن بلكّين زوج أخت المعزّ بن باديس[169] والمعزّ بن محمد بن ولميّة[170] مقدّم قومه وابن حمّاد صاحب قلعة كيّانة[171]، ملتمسين العفو من الخليفة باسم صنهاجة.

ثم احتلّ أمين الدولة حصن قابس[172] حيث أعلن في الخطبة عقيدة ذرّيّة الرسول ﷺ، «وضرب العَيْن[173] والورق على السكّة المستنصريّة» وولّى المعزّ بن محمد بن ولميّة[174] المذكور واستولى على جميع المواقع العسكريّة البرية والبحرية وأعربت له جماعة من شيوخ تلك الأصقاع عن ولائها ورغبتها في الهجرة إلى القاهرة. وقد غمرت جميع الأراضي المحتلّة فرحة عارمة وانتشرت فيها أعمال الخير.

---

168) **سجلاّت مستنصريّة**، القاهرة 1954، عدد 5، 42 – 43. ويبدو أنّ هذه الوثيقة مذكورة في كتاب **عيون الأخبار** للدّاعي إدريس.

169) «صهره على أخته».

170) في النصّ «ابن الموء» (أو يلمو)، ويمكن أن نقترح: «يملول»، ولكنّ الأمر يتعلّق لا محالة بوالي المعزّ بقابس المعزّ بن محمد بن ولميّة.

171) قراءة المخطوط صحيحة. وقد أخطأ المحقّق عندما عوّض «كيّانة» بـ«كتامة».

172) في المخطوط: «حصن فاس».

173) في المخطوط: «وصرف العين والورق على السكة المستنصريّة». وقد اقترحنا: «ضرب» عوض «صرف»: ولعلّ المقصود بالعين القطع السنيّة القديمة، والورق، المعدن الخام.

174) في النصّ «ابن الموء» (أو يلمو).

والقائد هو الآن في طريق العودة ، مصحوبًا بزمرة من الحجيج ، وقد انقادت البوادي والمدن ، وأصبح ابن باديس «اللّعين» محصورًا وفي ضيق شديد. وسوف يلقى حتفه عمّا قريب.

وقد ختم الخليفة رسالته المؤرّخة في رمضان 455 هـ راجيًا من الأمير اليمني أن يُعلن عن هذا الانتصار من أعلى منابر الجوامع وفي أيّ مكان كان ، سواء في المدينة أو في البادية.

على أنّنا لم نتوصّل إلى معرفة هويّة ابن بلكين(175) ولا هويّة ابن حمّاد(176) المذكورَيْن في الرسالة. ومن البديهي أنّ الأمر يتعلّق بشخصين بارزَيْن من صنهاجة ، من بين الأفراد الذين التجأوا إلى قابس(177) يبدو أنهما كانا يتكلّمان باسم صنهاجة.

والجدير بالملاحظة أنّ هذه الوثيقة التابعة للمحفوظات الفاطميّة تؤكّد من جهة دور مكين الدولة ابن مُلْهِم ، ذلك الدّور الذي كان قد أشار إليه ابن ميسّر(178) ، وتشهد من جهة أخرى بأنّ قابس المعرّضة للخطر تحت حماية الصنهاجيّيْن الذين يمسكون بمقاليدها بكلّ حزم ، لم تستسلم إلى المغيرين –على غير ما كان يُتَوَقَّع – إلاّ في حدود سنة 455 هـ / 1062 – 1063 م. ولعلّ هؤلاء الغزاة كانوا مُنَظَّمين ومُراقَبين ، بل حتى مُسَيَّرين من قِبَل القاهرة ، أكثر ممّا يمكن أن نتصوّر(179).

وقد روى أبو الفضل جعفر بن يوسف الكلبي ، «كاتب» مؤنس بن يحيى ، الذي أطلق عليه هذا اللّقب الرنّان : «صاحب إفريقيّة» ، أنّ الهلاليّين (ومنهم الراوي) كانوا ضيوفًا على المعزّ بن محمّد بن وليّة(180) الصنهاجي صاحب مدينة قابس ، لمّا قدّم إليه أهل البادية طيرًا عجيبًا ، هو عبارة عن ببّغاء متعدّد الألوان ذي منقار طويل أحمر ، لم يسبق أن رأى مثله أيّ أحد من العرب والبربر الحاضرين(181).

---

175) من الصعب أن يكون أخو القائد بن حمّاد ، عبد الله بن حمّاد بن بلكين الذي تزوّج أخت المعزّ في سنة 415 هـ وتوفي ما بين 430 و440 هـ.

176) هل يتعلّق الأمر بأخ آخر من إخوان صاحب قلعة بني حمّاد القائد بن حمّاد؟

177) العبر ، 15/6.

178) أنظر بداية هذا الفصل من الباب الرابع.

179) نجوم ، 71/6 ، وقد جاء فيه أنّ الحروب اندلعت بعد القطيعة بين جيوش المعزّ بن باديس والمستنصر.

180) في النصّ : «ابن وانمّو الصنهاجي».

181) حسب البكري ، 18 – 19.

وقد أقام إبراهيم بن محمّد بن ولميّة واليًا على قابس إلى أن أدركته المنيّة ، فخلفه أخوه قاضي[182].

وفاة المعزّ بن باديس[183] :

بعد عهدٍ طويل دام سبعًا وأربعين سنة[184] ، توفّي المعزّ بن باديس متأثّرًا بمرض الكبد[185] يوم 24 شعبان سنة 454 هـ / 2 سبتمبر 1062 م[186] وكان عمره ستًّا وخمسين سنة (أو 58 سنة)[187] ، ودُفِن بمقبرة بني زيري في رباط المنستير.

---

182) التجاني ، 97.

183) المصادر غير متّفقة حول تاريخ وفاته :

أ) سنة 454 هـ : **البيان** ، 295/1 ؛ التجاني ، 330 ؛ **العبر** ، 159/6 ؛ ابن الأبار ، **الحلّة السيراء** ؛ **نجوم** ، 71/6.

ب) السبت لخمس بقين من شعبان 454 هـ (24 شعبان 454 هـ / 2 سبتمبر 1062 م : **البيان** ، 298/1 ، نقلاً عن أبي الصّلت ؛ **أعمال** ، 456 – 457.

ج) 4 شعبان 454 هـ : ابن خلكان ، 105/2 ، يمكن أن نقرأ (والرابع والعشرين)» ، ممّا يؤكّد قراءة أبي الصّلت : 24 شعبان.

د) شعبان 454 هـ : **شذرات** ، 294/3 نقلاً عن ابن خلدون وابن خلكان.

هـ) سنة 453 هـ : **الكامل** ، 6/10 ؛ النويري ، 146/2 ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 180/2 ؛ **بلدان** ، 303/1 – 304.

و) سنة 455 هـ : **البيان** ، 295/1 – 298 نقلاً عن ابن شرف. حسن حسني عبد الوهاب ، **خلاصة** ، 97.

184) متّفقة عليه حميع المصادر تقريبًا ، إذ أنّ المعزّ قد ارتقى إلى العرش في أواخر سنة 406 هـ.

185) حسب جلّ المصادر. وحسب **العبر** ، مات بمرض البرص.

186) أنظر الإحالة رقم 183. لا يمكن تفضيل المصادر الشرقيّة (مجموعة هـ) على شهادة أبي الصّلت والمصادر (ب. ج. د) التي نقلتها عنه حسبما يبدو. وبما أنّ يوم 24 شعبان 454 هـ يصادف نظريًا يوم الاثنين لا يوم السبت فقد اقترح أماري – نالينو و ستوريا ، 94/3 (الإحالة 2) : الاثنين 22 شعبان 454 هـ / 31 أوت 1062 م. ويمكن أن نقترح من جانبنا : الاثنين 24 شعبان ، إذ أنّ مصادرنا تتضمّن اختلافات في التواريخ من هذا القبيل. وحسب شهادة ابن شرف التي تثير بعض الصعوبات الحسابيّة ، فإنّ الأمير قد وُلِدَ سنة 399 هـ (عوض جمادى الأولى 398 هـ) ، «وولي المُلك سنة 407 ، وسنّه سبعة أعوام وشهران ، وتوفّي سنة 455 ، وعمره ثماني وخمسون سنة ، فكانت مملكته سبعًا وأربعين سنة» (**البيان** ، 295/1). والإشارة الأخيرة تنفي وجود زلّة قلم. ويمكن أن نقترح : وُلِدَ سنة 397 هـ وارتقى إلى العرش سنة 407 هـ وعمره تسع سنوات وشهران وتوفّي سنة 455 هـ ، وعمره ثماني وخمسون سنة ، بعدما حكم سبعًا وأربعين سنة. وأخيرًا ينبغي تصحيح ما جاء في **البيان** ، 298/1 (نقلاً عن أبي الصّلت) ، كما يلي : «ولم يمكث بالمهديّة إلاّ نحو (خمس سنين)» عوض «نحو سنتين» ، إذ أنّ المعزّ قد وصل إلى المهديّة في آخر شعبان 499 هـ ، فيكون قد قضى بها 5 سنوات لا سنتَيْن عندما توفّي في شعبان 454 هـ.

187) حسب **شذرات** ، نقلاً عن **العبر**: 56 سنة ، وحسب **البيان** نقلاً عن ابن شرف : 58 سنة.

ولدينا المرثيّة التي رثاه بها الشاعر الذّائع الصّيت ابن رشيق[188].

وقد أكّد النويري أنه ترك بعد وفاته تسعة أبناء، هم: نزار وتميم وعبد الله وعلي وعمر (أو عمرو) وحمّاد وبلكّين وحمامة والمنصور، في حين اقتصر ابن عذاري على الإشارة إلى أبنائه: تميم ونزار وعبد الله وعُلُوّ (أو علي) وحمّاد وبلكين وحمامة والمنصور. وينبغي أن نضيف إليهم كبّاب المولود في صفر سنة 415هـ/ 14 أفريل – 12 ماي 1024م[189]. ومن المحتمل أن يكون قد توفّي صغيرًا.

«وفي سنة 417 (22 فيفري 1026 – 10 فيفري 1027م)، وُلِدَ للأمير شرف الدولة وعضدها مولود سمّاه نزارا وكتب إلى سائر عمّاله بالبشارة بذلك».

«وفي سنة 438 كانت وفاة نزار بن المعزّ بن باديس في رجب (جانفي 1047)، وكان عمره إحدى وعشرين سنة وأشهرًا». ويبدو أنّ نزارا كان وليًّا للعهد. إذ أنّ المعزّ قد ولّى مكانه بعد وفاته «وَلَدَه الآخر أبا القاسم وكنّاه العزيز بالله، وهو إذ ذاك ابن ثمانية أشهر. وتوفّي بعد ذلك وهو ابن سنة واحدة وثلاثة أشهر»[190].

ويحقّ لنا أن نتساءل لماذا أبعد المعزّ عن ولاية العهد ابنه تميم الذي كان عمره آنذاك حوالي ستّ عشرة سنة، وفضّل عليه ابنًا صغيرًا؟

ومهما يكن من أمر فإنّ المعزّ لم يعيّن ابنه تميم وليًّا للعهد إلاّ في سنة 442هـ/ 1050 – 1051م[191].

---

188) **الكامل**، 6/10؛ الميمني، 55؛ **بساط**، 17، 48.

189) **البيان**، 272/1.

190) نفس المرجع، 273/1.

191) أنظر الباب الثالث، الفصل السابع.

الفصل الثاني
بنو حمّاد

الدخول في طاعة العبّاسيّين ثم الرجوع إلى الحظيرة الفاطميّة[1] :

يمكن أن نسلّم بأن القائد بن حمّاد قد خلع طاعة الفاطميّين في تاريخ غير مضبوط ، ولكن تقريبًا في نفس الوقت الذي انفصل فيه ابن عمّه وحليفه ، المعزّ بن باديس ، عن القاهرة. إذ أنّه قد وجّه إليه كوكبة من الخيّالة ، ساهمت في معركة حيدران[2]. ولكن يبدو على الأرجح أنّه عاد إلى الحظيرة الفاطميّة بعد هذا الانتصار الهلالي ، الأمر الذي خوّل إليه الحصول على لقب «شرف الدولة» الذي كان يحمله المعزّ بن باديس قبل ذلك. وممّا لا شكّ فيه أنّ اختيار ذلك اللّقب قد وقع قصدًا.

وفاة القائد بن حمّاد[3] :

مرض القائد بن حمّاد ، فولّى مكانه ابنه محسن وأوصاه ، قبل أن يلتحق بجوار ربّه في رجب 446هـ / 6 أكتوبر – 4 نوفمبر 1054م ، بالإحسان إلى عمومته وعدم الخروج من القلعة قبل ثلاث سنين. وقد دامت ولاية القائد بن حمّاد سبعًا وعشرين سنة.

---

1) **العبر**، 172/6 ؛ **البربر**، 46/2 : «عندما خلع المعزّ طاعة بني عُبَيْد ، رجع القائد إلى طاعتهم فمنحوه لقب شرف الدولة». وبالعكس من ذلك جاء في «**أعمال**» ، 461 : «أنه خلع طاعة بني عبيد ودخل في طاعة بني العبّاس إلى آخر حياته».

2) **العبر**، 14/6–15.

3) **تاريخ أبي الفداء**، 132/2 نقلاً عن «**الجمع والبيان**» (لابن شدّاد) ؛ النويري ، 141/2–142 ؛ **العبر**، 172/6 ؛ **أعمال**، 461 : ذو القعدة 446هـ ؛ **الكامل**، 250/9 : وضع الأحداث في سنة 446هـ ؛ **البيان**، 279/1 : وفي هذه السنة 441هـ(هكذا) ، وردت الأخبار بالقيروان بموت القائد حمّاد بقلعته ، فقال ابن شرف من قصيدة :

لا جنودٌ إلاّ جنود السّعود   مُغنيـاتٌ عن عُـدَّةٍ وعـديـد

لا نرى العلاقة بين هذا البيت وموت القائد.

ولاية محسن بن القائد[4] :

إلاّ أنّ محسن الذي كان ذا طبع عنيف ومتجبّر، قد خالف ما أمره به والده وأراد عزل جميع أعمامه. فلمّا علم عمّه يوسف بن حمّاد الذي كان القائد قد ولاّه على المغرب، بما عزم عليه، خالفه وحشد جمعًا عظيمًا من العرب، وكان قد بنى قلعة في جبل منيع، وسمّاها «**الطيّارة**»[5]. فهل كان الداعي إلى هذا التمرّد، ما عقده محسن من نوايا مُبيّتة إزاء أعمامه؟ إننا نشكّ في ذلك، لأنّ مصدرَيْن[6] من مصادرنا قد أشارا بالعكس من ذلك إلى أنّ تصرّف يوسف هو الذي دفع محسن إلى اضطهاد إخوة والده. فمن المحتمل أن يكون يوسف بن حمّاد قد عمد خلال تلك الفترة إلى نهب وتخريب مدينة أشير التي لم تسترجع نشاطها إلاّ حوالي سنة 455 هـ/ 1063م[7]. وقد انطلق محسن لردع المتمرّد، فالتقى بجيوش عمّه مديني(؟) وألقى عليه القبض بعدما تخلّى عنه التلكاتة. وعند ذلك قتل الأمير أربعة من أعمامه: مديني المعني بالأمر وإخوانه الثلاثة، مناد ويغلان(؟)[8] وتميم. ثم كتب إلى يوسف يستدعيه. فأجابه: «كيف أثق بِكَ وقد قتلتَ أربعًا من عمومتك؟» وبالعكس من ذلك، فقد لبّى دعوته عمّه بلقّين بن محمد والي أفريون[9]، الذي تلقّى كتابًا مماثلاً من ابن أخيه. ولعلّه ظنّ أنه لا يخشى منه أيّ مكروه. فسار إليه، ولمّا قرب منه وجّه إليه محسن رجالاً من العرب بقيادة خليفة بن مكن وعطيّة الشريف، وأمرهم أن يقتلوه.

«فلمّا خرجوا، قال لهم أميرهم خليفة بن مكن: «إنّ بلكّين (أو بلقّين) لم يزل محسنًا إلينا، فكيف نقتله؟»». فأعلموا بلكّين بما أمرهم به محسن، فخاف، فقال له خليفة: «لا تخف، وإن كنت تريد قتل محسن، فأنا أقتله لك». فاستعدّ بلكّين لقتاله وسار إليه، فلمّا

---

4) النويري، 142/2؛ **الكامل**، 250/9، 18/10–19؛ **تاريخ أبي الفداء**، 132/2 نقلاً عن «**الجمع والبيان**» (لابن شدّاد)؛ **العبر**، 172/6؛ **أعمال**، 461؛ **البيان**، ادّعى غلطًا أنّ القائد توفّي سنة 441 هـ ولم يشر إلى ولاية محسن بن القائد. نفس المرجع، 294/1: أشار إلى أنّ بلقّين الصنهاجي تولّى قلعة حمّاد سنة 447 هـ.

5) لا نستطيع تحديد موقع هذه القلعة.

6) **العبر**، **أعمال**.

7) البكري، 60.

8) أنظر الباب الثالث، الفصل الرابع من هذا الكتاب.

9) **الكامل**، النويري، **أعمال**: «أكريون».

علم محسن بذلك وكان قد فارق القلعة ، عاد هاربًا إليها ، فأدركه بلكين وقتله»[10]. فلم تدم ولايته سوى تسعة أشهر[11].

ودخل بلقّين بن محمّد بن حمّاد القلعة واستولى على الحكم بلا قتال – حسبما يبدو – وذلك في شهر ربيع الأوّل سنة 447هـ / 31 ماي – 29 جوان 1055م.

ولاية بلقين بن محمد بن حمّاد (447–454هـ / 1055–1062م)

لقد كان بلقّين بن محمّد بن حمّاد الذي خلف محسن بن القائد بن حمّاد، أميرًا ماهرًا، حازمًا، شديد المراس، سفّاكًا للدّماء، قتل بالخصوص وزير ابن أخيه محسن. ولتوضيح ما أظهره هذا الأمير من قوّة الشكيمة، أورد الكاتب الأندلسي ابن بسّام في «**الذخيرة**» النادرة التالية :

«حُدِّثْتُ أنه آب مرّةً من بعض غزواته الأفراد، المقلقلة لأحشاء الأنام والبلاد، فكأنه ارتاح إلى ما يرتاح إليه الناس من إراحة نفسه، والخَلْوَةِ ولو ساعة بوجه أُنْسِهِ، فجلس لذلك مجلسًا حشد له شهواته، وتقدّم في إحضار ما يصلح من آلاته وأدواته، وأمر قَيِّمَةَ جواريه باستحضار عقيلة أترابها يومئذ جلالة سلطان، وحسنَ سماعٍ وعيان، إحدى بنات عمّه دِنْيًا، لم يُرَ بعدها – زعموا – ولا قبلها أبْرَعُ ظرفًا، ولا أقتلُ طرفًا منها، فجاءت تودّ الثريّا لو تكونُ نعلها، والشّمس لو تُصَوَّرُ مثلَها، وقد خطرت بنفسه إحدى هَنَاتِهِ، وتمثّلت له بعضُ غزواته، فأخذ يدبّر، وطفق يُورِد ويُصدِر. قالت قَيِّمتُه : وكأنّي أنظر إلى الكأس في يده، وإلى ابنة عمّه قائمةً على رأسه، من لَدُنْ صُلِّيَتِ العصرُ حتى طلع الفجر، وحانت منه بعد طول ليلته نظرة فرآها، فاعتذر إليها واستدناها، ووعدها ومنّاها، وقام من حينه فوضع الكأس ملأى في طَاقٍ وطبع عليها، وأمر بالركوب من حينه، فغزا غزوته المشهورة إلى الغرب من العُدْوَة، بلغ فيها مدينة فاس، فوطئ الدّول، ودوّخ السهل والجبل[12]، ثم رجع فجلس ذلك المجلس بعينه، واستدعى كأسه تلك وابنة عمّه، فخلا بأنسه، وقضى وطره من لذّة نفسه، بعد أيّام كثيرة، وحروب مُبيرة»[13].

---

10) **الكامل**، 250/9.

11) **العبر**، **أعمال** : «8 أشهر و23 يومًا».

12) يتعلق الأمر لا محالة بالحملة التي قام بها سنة 454هـ/1062م.

13) **الذخيرة**، لابن بسّام [تحقيق إحسان عبّاس، الدار العربيّة للكتاب، 1975، 189/1–190].

انتفاضة بسكرة[14] :

كان الشّيوخ الماسكون بزمام الحكم في بسكرة ، في عهد بني حمّاد ، تابعين لإحدى عائلات تلك المدينة ، وهي عائلة بني رُمّان[15] القويّة النّفوذ ، نظرًا لكثرة رجالها وامتلاكها لجلّ الممتلكات العقارية الواقعة في ضواحي المدينة .

وحوالي سنة 450 هـ / 1058–1059م ، أثار مقدّم بسكرة جعفر بن أبي رُمّان انتفاضة ضدّ بلقّين بن محمّد . فاقتحم الجيش الصنهاجي المدينة بقيادة خلف بن أبي حَيْدَرَة . وأُجْلِيَ أعيان المدينة ، وبالأحرى جميع أفراد عائلة بني رمّان ، إلى القلعة حيث قُتِلوا جميعًا .

وعندئذ انتقلت إدارة بسكرة إلى بني سندي ، وهي عائلة أخرى من عائلات المدينة . فقد أبرم معهم بلقّين معاهدة صلح وولاّهم على بسكرة مقابل الدّخول في طاعة بني حمّاد . ويبدو أنّ أوّل من تولّى منهم الحكم في تلك المدينة هو عروس بن سندي ، رئيس تلك الأسرة الحاكمة التي أصبحت تتمتّع باستقلال يكاد يكون تامًّا ، إلى أن انقرضت إثر دخول الموحّدين إلى إفريقيّة . فأخذت مكانها أسرة بني زيان ، وهم من الأعراب الأثبج ، حسب ابن خلدون . وقد ظلّ عروس بن سندي وفيًّا للصنهاجيّين . فهو الذي قتل القائد الزناتي المنتصر بن خزرون .

الصّراع بين زناتة وبني هلال[16] :

لم يستطع الأعراب الرحّل الزناتيّون والهلاليّون التعايش في إفريقيّة . فقد أجلى بنو هلال الزناتيّين من جنوب إفريقيّة إلى جنوب المغرب الأوسط ، أمثال بني غمرت الذين أُجْبِروا على الإقامة في بعض القُرى الواقعة جنوب المسيلة .

فثارت ضدّ الغزاة مجموعة كبيرة من القبائل الزناتيّة المتحالفة ، هي مجموعة بني ياسين ، بايعاز من بني يعلى بتلمسان . وقد عيّن أمير تلمسان ، وهو أحد أحفاد محمد بن خزر ، وزيره أبا سُعْدَة خليفة اليفرني – المشهور في سيرة بني هلال باسم خليفة الزناتي – على رأس مجموعة

---

14) العبر ، 172/6 .

15) «رُمّان» ويمكن أن نقرأها «رُومان» ، من ذرية السكان اللاتينيّين الذين مكثوا في إفريقيّة .

16) العبر ، 16/6–19 .

كبيرة من بني ياسين الذين خاضوا معارك طاحنة طوال سنين عديدة ضدّ الهلاليّين في منطقة الزّاب وسهول التلّ إلاّ أنّ مصرع أبي سعدة أثناء معركة سيّئة الحظّ قد أفضى إلى انفصام التحالف الزناتي وتشتّت عناصره في جميع أنحاء منطقة التلّ. وأصبح جبل راشد (جبل عمور) ومزاب يمثّلان الحدّ الفاصل بين الزناتيّين الرُّحّل والأعراب الرّحّل.

أمّا بنو حمّاد الذين عجزوا عن التصدّي للمغيرين، فقد اضطرّوا إلى التفاهم معهم عن طريق التحالف مع الأثبج والتنازل عن البوادي لفائدتهم. وقد أملى عليهم هذا الاختيار اعتماد خصومهم بني زيري على بني رياح وزغبة.

وسيأتي فيما بعد بنو زغبة، إثر إقصائهم من إفريقيّة من طرف بني رياح، ليضعوا أنفسهم على ذمّة بني حمّاد.

الحملة العسكريّة ضدّ زناتة :

«في سنة 449 (28 فيفري 1058–16 فيفري 1059) خرج بلقّين، ومعه الأثبج وعدي، لحرب زناتة، فكسرها وقتل منها عددًا كبيرًا»[17].

ومن الصّعب تحديد موقع هذه المعركة، لا سيما وقد تمّ إجلاء بعض الزناتيّين لا إلى التلّ بل إلى الصحراء. فقد حصّن بنو واركلة بلدة ورقلة التي التجأ إليها عدد كبير من الزناتيّين الفارّين من الهلاليّين، في الوقت الذي استحوذ فيه الأثبج على بعض الممتلكات في سهول الزاب وقلعة بني حمّاد[18].

الحملة العسكريّة ضدّ المرابطين :

وفي الوقت الذي كان فيه الأتراك السلجوقيّون يعيدون المذهب السنّي إلى سالف عهده في شرق البلاد الإسلاميّة، قامت بعض القبائل البربريّة (لمتونة وجدالة ولمطة) في الغرب الإسلامي بحركة سياسيّة ودينيّة عتيدة، ستنشأ عنها الدولة المرابطيّة[19].

17) **البيان**، 294/1. أنظر أيضًا : **الكامل**، 237/9 ؛ النويري، 146/2.
18) **العبر**، 51/7.
19) حول المرابطين، أنظر : **دائرة المعارف الإسلاميّة**، 322/1–323.

ولعلّ سقوط سجلماسة بين يدي المرابطين سنة 453 هـ / 1061 – 1062م[20] لم يكن غريبًا عن اعتزام بني حمّاد القيام بغارة في المغرب الأقصى. والجدير بالتذكير في هذا الصّدد أنّ إحدى طرق الذهب السوداني الرئيسيّة كانت تمرّ عبر سجلماسة التي ازدادت أهمّيّتها إثر قطع طرق الجريد وطرابلس من طرف الهلاليّين. وربّما كان من الأفضل بالنسبة إلى بلقّين بن محمد بن حمّاد الاحتفاظ بقواه لردّ الزحفة الهلاليّة عوض هدرها في تلك المناطق النائية، للتصدّي لهذه الدولة البربريّة الجديدة التي لا يستطيع القضاء عليها، مهما كان الأمر.

وعلى كلّ حال، ففي شهر صفر 454 هـ / 14 فيفري – 14 مارس 1062م، سار بلقّين إلى المغرب، حيث كان المرابطي يوسف بن تاشفين بصدد زعزعة السلطة الزناتيّة. وانتهز بلقّين فرصة ابتعاد الأمير الزناتي الفتوح عن عاصمته فاس، ليدخل إليها، ويبدو أنّه لم يلتق بالمرابطين. وممّا لا شكّ فيه أنّ يوسف بن تاشفين الذي كان شاعرًا بعدم جدوى الغارات الخاطفة الواردة من الشرق، وحريصًا على الاحتفاظ بقواه التي ما زالت غير كافية لإخضاع المصامدة، قد تحوّل إلى الصحراء، ولا شكّ أيضًا أنّ مصادرنا قد بالغت عندما أكّدت أنّ بلقّين بن حمّاد «قد وطئ جميع الغرب ودَوّخه بجيوش عظيمة»[21].

والواقعة الوحيدة المضبوطة التي أشارت إليها المصادر، هي احتلال مدينة فاس سنة 454 هـ / 15 جانفي 1062– 3 جانفي 1063م، وما لبث بلقّين أن غادرها متوجّهًا إلى القلعة[22] ومعه بعض الرهائن من أعيان المدينة. ولم تدم الحملة سوى بضعة أشهر[23].

والجدير بالتذكير – حسب ابن بسّام –[24] أنّ أبا الفضل محمد بن عبد الواحد، رسول الخليفة العبّاسي إلى المعزّ بن باديس «قد شهد الحروب مع بلقّين. ثم انتبذ من تلك النّاحية وركب البحر، فنزل بدانية». وقد احتفى به أميرها علي بن مجاهد. ومن يدري لعلّه غادر المغرب الأوسط إثر وفاة بلقّين[25].

---

20) أنظر بالخصوص، **الكامل**، 9/258–259.

21) **البيان**، 1/255.

22) حسب العبر، 7/35–36 و**أعمال**.

23) انطلق في صفر 454 هـ / 14 فيفري – 14 مارس 1062م وقتل في رجب 454 هـ / 11 جولية – 9 أوت 1062م.

24) ابن بسّام، 1/4 : 67، 69 – 70، 90. [طبعة الدار العربيّة للكتاب، 4/89].

25) ثم تحوّل إلى بلنسية ومنها إلى طليطلة (آخر جمادي الأولى 454 هـ / أوائل جوان 1062م) حيث استقبله أميرها المأمون ابن ذي النون وأغدق عليه العطايا. وتوفّي هناك منتصف شوّال سنة 455 هـ / 11 أكتوبر 1063م.

مقتل بلقّين بن محمد بن حمّاد[26] :

في تاريخٍ غير محدّد ، وعلى الأرجح قبل حملة المغرب الأقصى ، فَقَدَ بلقّين أخاه مُقَاتِل بن محمّد الذي كان قد تزوّج ناميرَت ابنة عمّه علنّاس بن حمّاد. وقد ظنّ بلقّين أنّ ابنة عمّه هي التي قتلت زوجها ، فقتلها. فأخذ أخوها الناصر بن علنّاس على نفسه أن ينتقم لها. ففاجأ بلقّين عند عودته من فاس ، يوم أوّل رجب 454 هـ / 11 جويلية 1062 م[27] بتسالة جنوب وهران ، وقتله. ثم نودي به أميرًا ودخل القلعة يوم الخميس 14 (أو 15 شعبان) 454 هـ / 23 (أو 24) أوت 1062 م[28].

وقد قدّم إلينا ابن بسّام حول هذه الواقعة رواية جذّابةً وخياليّة شيئًا ما :

«كان بلقّين مُولعًا بالإدلاج إذا ارتحل ، مؤثّرًا للانفراد كلّما ركب ونزل ، فأقسم تلك الليلة ألاّ يُدَلج إلاّ حاسِرًا ، وليقتلنّ الناصر إذا نزل ولو كان أسدًا خادرًا ، فأعجلَه عن الأمر ، ولمّا يَبْدُ وَضَحُ الفجر ، لقيه كأنّه يسلّم عليه ، أو يسير بين يَدَيْهِ ، فما راجعه الكلام ، إلاّ وقد جلّله الحسام ، وأراح منه البلاد والأنام ، ثم قام مقامه ، واستظلّ أعلامه ، وأمر برأسه فرُفِع على بعضها وسِيرَ أمامه ، والناس يظنّون أنّ بلقّين ، قد قتل بعض أتباعه الممتحَنين ، فهم يتساءلون عمّن قتل ، ويرجمون الظنّ فيما فعل ، حتى طلعت الشّمس ، وارتفع اللّبس ، فأمر برفع مضاربه ، وحُشْر زعماء ذويه وأقاربه ، فقال : أنتم تعلمون أنّ بلقّين قتل أختي ، وفجعني بأكرم حُرْمَتي ، وإنّما شَفَيْتُ صدري ، وأخذتُ بِوَتْري ، لا أنّي حدّثتُ نفسي بسلطانكم ، ولا رأيتُني أهلاً للدخول في شيء من شأنكم. فردّوا عليه جميلاً ، ورأوا إمهالَه قليلا ، وظنّوا أنّه لم يجسُرْ على ما فعل إلاّ وله أشياع ، وحوله أعوان على ذلك وأتباع ، فكلّ واحد منهم قد ارتاب بِمَنْ يليه ، وأهمّه ما هو فيه. وأمر لحينه بخزائن بلقّين فأنهبها ذُؤْبَان العرب وصقورة زناتة ، فاستخلص بذلك غيوبهم ، وأمال إليه قلوبهم ، ورحل تحت ليلته يطوي المراحل ، ويعتسف المجاهل ، فسبق الأخبار إلى القلعة ، فَوَطِئَ الحريم ، وتملك الظاعنّ والمقيم»[29].

* * *

26) العبر ، 172/6 ؛ أعمال ، 463 ، نقلاً عن ابن بسّام ؛ النويري ، 146/2 ؛ تاريخ أبي الفداء ، 132/2.

27) حسب النويري ، 146/2.

28) أعمال ، 463 ، الخميس منتصف شعبان (نظريًّا يوم 14 شعبان / 23 أوت 1062 يصادف يوم جمعة).

29) الذخيرة ، لابن بسّام [تحقيق إحسان عبّاس ، 190/1–191].

لقد شهدت سنة 454هـ/ 1062م تغييرًا على رأس المملكتين الصنهاجيّتين، ولكن وضع كلّ واحدة منهما يختلف تمامًا عن الأخرى.

ففي إفريقيّة، البلد المنبسط الذي اجتاحته جحافل الغزاة الرحّل بتمامه وكماله، فأصبح عرضة للفوضى، لم تَبْقَ لتميم بن زيري سوى المهديّة.

وبالعكس من ذلك فإنّ الناصر بن حمّاد ما زال يتحكّم بقوّة في شمال ووسط مرتفعات المغرب الأوسط. ولئن سقط المنخفض الجنوبي بين أيدي الهلاليّين، فإنّ هؤلاء يتعرّضون هنالك لمقاومة زناتيّة مستميتة. في حين يتوقّع أن يتعزّز التحالف بين بني حمّاد وبني هلال. وسنرى كيف سيحاول هذان الأميران القويّا النفوذ فضّ المشاكل التي تعترض سبيل كلٍّ واحد منهما.

الباب الخامس

محاولة النهوض

ولايات تميم (454 – 501 هـ/ 1062 – 1108 م.)
والنّاصر (454 – 481 هـ/ 1062 – 1088 م.)
والمنصور (481 – 498 هـ/ 1088 – 1105 م.)

نظرة عامّة

سيحاول تميم بن المعزّ طوال نصف قرن تقريبًا (454 – 501 هـ) إرجاع الدولة الصنهاجيّة المفكّكة إلى سالف عزّها. ولبلوغ هذه الغاية سيسعى إلى إذكاء الأحقاد بين الهلاليّين، بالاعتماد بالخصوص على بني رياح وبني عدي ضدّ الأثبج وزغبة.

وبعد مدّة قليلة من انتصاره على صاحب صفاقس حمّو بن مليل (455 هـ/ 1062 م)، تمكّن من إخضاع سوسة.

أمّا النّاصر بن حمّاد الذي لم تضعف قوّته، بل تعاظمت أكثر فأكثر، فقد أجبر قسمًا من إفريقيّة على الدخول في طاعته (مثل صفاقس وقسطيلية وتونس). وفي سنة 457 هـ/ 1064 – 1065 م أشرف على تكوين تحالف ضخم مؤلّفٍ بين البربر وبني هلال (صنهاجة والأثبج وعدي)، ومُوَجّهٍ ضد المجموعات العربيّة الأخرى (رياح وزغبة وسُلَيْم)، بالإضافة إلى مغراوة. ولكنّ بني رياح قد تمكّنوا، بمساعدة تميم من إقناع أبناء قبيلتهم المتحالفين مع النّاصر بالتخلّي عنه في غمار المعركة. كما أبرم الزناتيّون التابعون للفريقين اتفاقًا مماثلاً فيما بينهم. ورغم أنّ آثار هزيمة سبيبة كانت أقلّ عنفًا وأبعد مجالاً، فإنّ عواقبها كانت وخيمة على بنى حمّاد، مثلما كانت عواقب هزيمة حيدران وخيمة على بني زيري.

وقد أخضع تميم مدينة تونس (458 – 460 هـ / 1065 – 1067 م) التي كان يحكمها عهدئذ عبد الحقّ بن خراسان صنيعة ابن حمّاد. واستمرّ النّاصر بعد نهضته من هزيمة سببية في الاعتماد على الأثبج. فتمكّن سنة 460 هـ / 1067 – 1068 م من الاستيلاء على الأربس ثم القيروان، ولكنه رأى من الخطورة بمكان البقاء فيها مدّة طويلة، فقفل راجعًا إلى القلعة، في حين أسرع تميم إلى استرجاع القيروان بواسطة جيش مؤلّف من بني زيري ورياح.

ومنذ سنة 461 هـ / 1068 – 1069 م اضطرّ النّاصر إلى التخلّي عن القلعة المعرّضة أكثر من اللّزوم لهجومات الهلاليّين واستقرّ في بجاية التي أسّسها منذ عهد قريب في موقع شبيه بموقع المهديّة.

وفيما بين سنة 466 و 470 هـ / 1073 – 1078 م، أجلى بنو رياح من القيروان بني زغبة الذين باعوا القيروان لبني حمّاد، قبل انسحابهم منها، إثر المساعي التي قام بها كلّ من أمير صفاقس حمّو بن مليل التابع للناصر، وقائد بن ميمون الذي تخلّى عن تميم وانضمّ إلى النّاصر.

وأخيرًا أُبْرِمت بين تميم والنّاصر معاهدة صلح (470 هـ / 1077 م) سيحترمها النّاصر إلى آخر حياته، إذ كان شغله الشاغل آنذاك مقاومة الفوضى السائدة داخل مملكته. وسيقتدي به حتى وفاة تميم، خلفاؤه: **المنصور** (481 – 498 هـ / 1088 – 1105 م) الذي نجح في مقاومة الزناتيّين والمرابطين و**باديس** الذي كان عهده قصيرًا و**العزيز**.

وكان من المتحتّم على تميم أن يحاول القيام ببعض الحملات البحريّة. فقد قام وَلَدَاه ببعض العمليّات الحربيّة في صقليّة فيما بين سنة 455 وسنة 461 هـ / 1063 – 1069 م. وبعد إحرازهما بعض الإنتصارات الباهرة التي لم يترتّب عليها سوى تأخير تنفيذ الحملة النرمانيّة، أبحرا، راجِعَيْن إلى إفريقيّة. وقد تبعت تلك المحاولات بعض الغارات التي لا قيمة لها، خلال العقدَيْن المُوَالِيَيْن. ولكن في سنة 480 هـ / 1087 م فرض أسطول بيزة وجنوة صلحًا مُجْحِفًا على تميم.

وممّا زاد في خطورة هذه الصدمة، أنها أصابت تميمًا حين كان يتأهّب لاسترجاع قابس وصفاقس. أَفَلَم ينجح في فرض سلطته على القيروان (476 هـ / 1083 – 1084 م) وإبرام اتّفاق مع مالك بن علوي بعد ذلك بقليل بلا شكّ، بعدما تمكّن بمساعدة رياح، من صدّ هجوم أمير قابس المعزّز من طرف الأثبج بقيادة مالك بن علوي والمتحالف مع حمّو بن مليل؟ أَفَلَمْ يدرك أنّ له من القوّة ما يكفيه لمحاصرة قابس وصفاقس في نفس الوقت (479 هـ / 1086 – 1087 م)؟

ومن الدّلالات البليغة المعنى أنّ تميمًا سوف لا يستأنف عمليّاته الحربيّة ضدّ قابس إلاّ في سنة 486هـ/ 1093 – 1094م. وفي الأثناء (482هـ/ 1089 – 1090م) استولى مالك بن علوي على سوسة. ولكن سرعان ما أُطْرِدَ منها، بدون تدخّل تميم، ثم اختفى من الساحة السياسيّة.

كما جنّد ابن زيري الأتراك الذين تمكّنوا من الاستيلاء على طرابلس. ولكنّ قائدهم شاه مالك اختطف ابن الأمير يحيى بن تميم والتجأ إلى حمّو بن مليل. وفي آخر الأمر أرجع حمّو إلى تميم ابنه يحيى الذي تسبّب له سلوكه المشبوه فيه في إعفائه من ولاية العهد وتعويضه بأخيه مُثنّى، إذ يبدو أنه كان متواطئًا مع مختطفيه. ثم عفا تميم عن ابنه يحيى وكلّفه بمحاصرة صفاقس، «فرجع عنها ولم يفتتحها».

ومن ناحية أخرى، أفضت ثورة أحد إخوان تميم (489هـ/ 1095 – 1096م) إلى انتصاب مكن بن كامل بن جامع بقابس. وبإيعاز من مُثنّى الذي اغتاظ من إقصائه عن ولاية العهد، زحف ذلك القائد الرياحي بدون جدوى على صفاقس والمهديّة.

وشهدت سنة 491هـ/ 1097 – 1098م انتصارات تميم (احتلال جربة وقرقنة وتونس) واقصاء بني عدي من طرف بني رياح، حيث تمكّن بطن من بطونهم من الاستيلاء على باجة (500هـ/ 1106 – 1107م).

وأخيرًا نجح تميم، قبل أن تدركه المنيّة سنة 501هـ/ 1108م، في طرد خصمه العنيد حمّو بن مليل من صفاقس (493هـ/ 1099 – 1100م). وهو نجاح باهر، يبدو أنّ المحاولة الفاشلة لاسترجاع جربة (499هـ/ 1107م) لم تُنقِص من قيمته.

الفصل الأوّل
بداية عهد تميم

ولاية تميم وأوصافه[1] :

وُلِدَ تميم بن المعزّ بالمنصوريّة يوم الاثنين[2] 13 رجب 422 هـ / 6 جويلية 1031 م. «وأبرزه والده للنّاس ابنَ سنتَيْن وركب، والعساكر وراءه، وطاف مدينتَيْ القيروان والمنصوريّة». ولم يُعَيَّن وليًا للعهد إلاّ في سنة 442 هـ / 1050 – 1051 م. «ووُلّي المهدية في صفر سنة 445 هـ / 23 ماي – 20 جوان 1053 م، وعمره ثلاث وعشرين سنة».

ولنا ما يكفي من المعلومات حول أوصافه الطبيعيّة وصفاته الخُلُقيّة. «فقد كان جميلاً، وسيمًا، مُدِير القامة، دُرِّيَ اللّون، أشمّ، أبْلَج. وكان يكثر من استفراغ بدنه، ويرى أنّ بذلك تتمّ صحّته. وكان يستعمل كلّ حارّ من الأغذية والأدوية، ويكثر الاصطلاء بالنار، ويدخل الحمّام الحارّ، ويكثر الجماع، ويشرب الأدوية القويّة كالمحمودة وغيرها، ويُجاوز في ذلك المقدار، حتى جفّ لحمه وفسدت حركاته الطبيعيّة، وأُقْعِدَ».

«وكان شهمًا شجاعًا حازمًا عازمًا، يستصغر صعاب الأمور، ويستسهل عظائم الخطوب، ويغلب عليه شدّة البطش والمبادرة. (وكان ذكيًّا له معرفة حسنة، وكان حليمًا كثير العفو عن الجرائم). وهو أحد فحول شعراء الملوك، وذوي السبق والتقدّم في معانيه وبدائعه، حوى فيه الجودة والكثرة»[3].

---

1) الحلّة، 1/307 – 312 وبها فقرة منقولة عن أبي الصّلت؛ البيان، 1/298 – 299، 303 – 304؛ الكامل، 10/6، 189 – 190؛ النويري، 2/160 – 161؛ العبر، 6/160؛ ابن خلّكان، 1/98 – 99؛ شذرات، 4/2 – 3؛ أعمال، 457؛ المؤنس، 85؛ الخريدة، مخطوطة باريس 3330.

2) الحلّة والخريدة.

3) السان، 1/303 – 304. أنظر أيضًا الكامل والحلّة.

ورغم شهرة ديوان تميم بن المعزّ الضخم ، فإنّه لم تصلنا منه سوى بعض المقاطع ، لا سيما منها الأبيات الواردة في «**خريدة القصر**» ، وهو كتاب غير مطبوع[3م] .

وقد اطّلع صاحب **الخريدة** [العماد الأصفهاني] على ديوان تميم ، بفضل حفيده ابن شدّاد[4] . .

واستعمل تميم أحيانًا مواهبه الشعريّة لأغراض سياسيّة . «من ذلك أنّه وقع حرب بين طائفتين من العرب وهم عدي ورياح ، فقُتِلَ رجل من رياح ، ثم اصطلحوا وأهدروا دمه . وكان صلحهم ممّا يضرّ بالأمير وببلاده ، فقال أبياتًا يحرّض على الطلب بدمه . فعمد إخوة المقتول ، فقتلوا أميرًا من عدي ، واشتدّ بينهم القتال وكثرت القتلى ، حتى أخرجوا بني عدي من إفريقيّة»[5] . وقد كان من الصعوبة بمكان الحصول على مثل هذه النتيجة بحدّ السّلاح .

وسنجد بني عدي من جديد في المغرب الأوسط تحت راية النّاصر[6] . ولكنّ عمليّة الإقصاء المشار إليها هنا هي على الأرجح العمليّة التي جرت في سنة 491 هـ / 1097 – 1098 م . لأنّ الذين قاموا بها هم بالضبط بنو رياح[7] . وسنرى أيضًا أنّ بعض أفراد من بني عدي الذين أُطْرِدوا هم أيضًا ، ولكن من طرف الأثبج وزغبة ، كانوا موجودين في سنة 468 هـ / 1075 – 1076م في ناحية طرابلس ، ومن هناك سيقودهم القائد الزناتي المنتصر بن خزرون للزحف على المغرب الأوسط[8] .

ويبدو أنّ القاعدة الذهبيّة التي كانت ترتكز عليها سياسة تميم[9] تجاه الأعراب المسيطرين على كامل البلاد المفتوحة هي : «فَرِّقْ تَسُدْ» .

ويُصَوِّر لنا هذان البيتان[10] من شعره ما كان يتّسم به من كبرياء . فقد قال :

3م) [العماد الأصفهاني الكاتب ، «خريدة القصر وجريدة العصر» . ظهر القسم المغربي من هذا الكتاب بتونس في 3 أجزاء ، ونشرته الدار التونسيّة للنشر بين 1966 و1972 : تحقيق آذرناش آذرنوش ومحمد العروسي المطوي ومحمّد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى] .

4) **الخريدة** ، مخطوطة باريس 3330 ، ص 60 وجه ، [طبعة الدار التونسيّة للنشر ، النشرة الثالثة ، 142/1] .

5) **الكامل** ، النويري .

6) أنظر الفصل الثاني من هذا الباب .

7) أنظر الفصل السابع من هذا الباب .

8) أنظر الفصل الرابع من هذا الباب .

9) ابن خلدون ، **العبر** ، 160/6 ، 173 – 174 .

10) **البيان** ، 303/1 . أنظر أيضًا **الكامل** و**الحلّة** .

[وافر]

فــإمّــا المُلْكُ في شرف وعزّ ... عليَّ التّــاجُ في أَعلَى السريرِ
وإمّــا الموتُ بين ظُبــا العوالي ... فَلَستُ بخــالــد أَبــدَ الـدّهـورِ

وقد تغنّى تميم بالخمر والحبّ[11]. وأوحى إليه غلام اسمه مُدَام بقصيدة طويلة[12]. وتوافد على بلاط هذا الأمير الراعي للآداب عدد كبير من الشعراء، سواء منهم الأندلسيّين أو المغاربة والإفريقيّين، وعرف كيف يعفو بكل لباقة عن واحد منهم تجاسر على هجائه[13]. وقد يحدث أحيانًا أن يعارضهم وينتقد تعابيرهم[14]. ولم يكن قادرًا على الخروج من تلك المناظرات الأدبيّة بشرف إلاّ من كان متفوّقًا ببراعته وحنكته.

وهذه بعض النوادر التي تكشف عن طبع هذا الأمير: «قيل إنّه اشترى جارية بثمن كثير، فبلغه أنّ مولاها الذي باعها ذهب عقله وأسف على فراقها. فأحضره تميم بين يديه وأرسل الجارية إلى داره ومعها من الكسوات والأواني الفضّيّة وغيرها ومن الطيب وغيره شيء كثير. ثم أمر مولاها بالانصراف، وهو لا يعلم بذلك، فلمّا وصل إلى داره ورآها على تلك الحال، وقع مغشيًّا عليه لكثرة سروره، ثم أفاق. فلمّا كان الغد أخذ الثمن وجميع ما كان معها وحمله إلى دار تميم، فانتهره وأمره باعادة جميع ذلك إلى داره».

«وكان له في البلاد أصحاب أخبار [مُخْبرون] يجري عليهم أرزاقًا سنيّة ليطالعوه بأحوال أصحابه، لئلا يظلموا النّاس. فكان بالقيروان تاجر له مال وثروة، فذكر في بعض الأيّام التجار تميمًا ودعوا له، وذلك التاجر حاضر، فترحّم على أبيه المعزّ ولم يذكره. فرُفِعَ ذلك إلى تميم، فأحضره إلى قصره وسأله: «هل ظلمتُكَ؟». فقال: «لا». قال: «فهل ظلمك بعض أصحابي؟». قال: «لا». قال: «فَلِمَ أطلقتَ لسانك أمس بذمّي؟». فسكت. فقال: «لولا أن يُقَال شرّه في ماله، لقتلتك». ثم أمر به، فصُفِعَ في حضرته قليلاً، ثم أطلقه، وأصحابه ينتظرونه، فسألوه عن خبره، فقال: «أسرار الملوك لا تُذاع»، فصارت بإفريقيّة مَثَلاً»[15].

---

11) **الحلّة** و**النجوم**.
12) **البيان**، 304/1. أنظر أيضًا **الحلّة** و**الكامل**.
13) ابن الحدّاد الأقطع حسب تاريخ أبي الصّلت أمية.
14) **الحلّة**، 309.
15) حسب **الكامل** والنويري.

وقد أسلفنا أنّ المعزّ بن باديس ، لمّا وصل إلى المهديّة سنة 449 هـ / 1057م فوّض جميع الأمور إلى ابنه ، طَوْعًا أو كرهًا . ولمّا توفّي المعزّ خلفه تميم بدون صعوبة . فاستقبل القضاة والأعيان الذين قدّموا إليه التعازي والتهاني . كما تلقّى في نفس الغرض رسالة من الأمير النّاصر بن علنّاس بن حمّاد .

وكان أوّل ما قام به قتل عبيد أبيه الذين كانوا قد نجوا من انتقامه سنة 448 هـ / 1056 – 1057م[16] .

وكان تميم يعطف على النصارى . فقد قال في جارية نصرانيّة الأبيات التالية[17] :

[وافر]

أليس اللهُ يعلمُ أنّ قلبي يُحِبُّكِ أيّهـا الوجـه المليح
وأهوى لفظَكِ العَـذْبَ المفدّى إذا درس الـذي قـال المسيح
أُظَـاهِرُ غيركم بـالودّ عَمْـدًا وودّكُمُ هـو الـودّ الصحيح
وفيكم اشتهي عيـدَ النّصارى وأصواتًـا لها لَحْنٌ فصيح

ووجّه تميم إلى النّاصر رسولاً ، أكّد له أنّ سيّده مهتمّ كلّ الاهتمام بعبيده النّصارى ، وقد فوّض إليهم كلّ الأمور ، وترك جانبًا الصنهاجيّين والتلكاتة وجميع القبائل الأخرى[18] .

فلا غرابة حينئذ إذا ما رأيناه يستقبل في قصره ميخائيل الأنطاكي وابنه جرجير (أو جرجي) اللّذيْن قدما منْ المشرق ودخلا في خدمته . «وكان جرجير قد عرف لسان العرب وبرع في الحساب ، فحكّمه تميم في دخله وخرجه ، وجعل مصارف الأموال لنظره . فصارت أموال المسلمين كلّها في يده وأيدي أقاربه»[19] . ولمّا ارتقى إلى العرش يحيى بن تميم الذي كان يكرهه ، التجأ جرجير الأنطاكي إلى صقليّة ودخل في خدمة رُجَار الثاني الذي عيّنه قائد أسطوله . ويُعْتَبر رحيل هذا النصراني خسارة لا تُعوَّض بالنسبة إلى بني زيري بالمهديّة !

ولا شكّ أنّ سلطة صاحب الأشغال القويّ النفوذ [جرجير] قد حجبت سلطة بقيّة كبار الموظّفين في عهد تميم . وهذا ما يفسّر لماذا لم نتعرّف إلاّ بواسطة إشارة خاطفة عرضيّة ،

16) **البيان** ، 294/1 ؛ **الكامل** ، 257/9 – 258 ؛ التجاني ، 333 .
17) **الخريدة** ، مخطوطة باريس ، ص 61 قفا [الطبعة التونسيّة ، النشرة الثالثة ، 146/1] .
18) الهادي إدريس ، **أعياد نصرانيّة**... المجلة الإفريقيّة ، 1954 ، 273 .
19) حول جرجير الأنطاكي ، أنظر : **رحلة التجاني** ، 333 – 334 ؛ **الحلل** ، 242/1 .

على وجود وزيره المسمّى «عبد الله بن منكور متولّي أمور الدولة»[20].

ولم تذكر المصادر هل دخل تميم في طاعة الخليفة الفاطمي. ولكن يحقّ لنا أن نعتقد ذلك[21]. فلو كان تابعًا للخليفة العبّاسي لكانت المصادر السنيّة قد أشارت إلى ذلك قَطْعًا. والجدير بالملاحظة أنها سكتت عن عودة المعزّ إلى الحظيرة الفاطميّة في سنة 446 هـ / 1054 – 1055م.

وبعد مدّة قليلة من إرتقائه إلى العرش، لا ندري متى ولا كيف، أعاد تميم على رأس ولاية القيروان قائد بن ميمون الصنهاجي الذي كان قد التجأ إلى المهديّة على الأرجح منذ سنة 452 هـ / 1060م[22]. وقد ظلّ هذا الضابط وفيًّا له مدّة ستّ سنوات قبل أن يثور عليه في سنة 460 هـ / 1067 – 1068م.

قضيّتا صفاقس وسوسة[23]:

استغلّ حمّو بن مليل البرغواطي الفوضى الناشئة عن الغزوة الهلاليّة للاستبداد بالحكم في صفاقس وإعلان استقلاله.

وبعد مدّة قليلة من ارتقاء النّاصر إلى العرش (454 هـ / 1062 – 1063م)، وجّه إليه حمّو رسالة مبايعة مصحوبة بهديّة[24].

20) **البيان**، 301/1؛ **الكامل**، 68/10؛ **رحلة التجاني**، 333.

21) حوالي سنة 488 هـ/1095م إثر تولية المستعلي خليفة المستنصر، فرّ إلى المغرب ابن مصال اللكّي الذي وعده بالوزارة نزار بن المستنصر ومنافس المستعلي السيّء الحظ. **نجوم**، 142/5 – 145. وحول دخول يوسف بن تاشفين في طاعة الخليفة العباسي سنة 498 هـ، أنظر: **نجوم**، 191/5.

22) **الكامل**، 21/10؛ النويري، 154/2؛ **العبر**، 160/5.

23) أ – **رحلة التجاني**، 70؛ ومقديش، **نزهة الأنظار** [الطبعة الجديدة]، 193/1 – 194.
ب – **الكامل**، 6/10؛ النويري، 147/2.
ج – **العبر**، 160/6.
د – **البيان**، 299/1. وخلافًا للمصادر الأخرى، أكّد هذا المصدر أنّ احتلال سوسة قد تمّ في سنة 455 وأنّ هجوم حمّو قد وقع في السنة الموالية. ويبدو أن المؤلّف قد عكس التاريخَيْن غلطًا.
هـ – **المؤنس**، 84 ربّما نقلاً عن **البيان**، وضع احتلال سوسة قبل هجوم حمّو، ولكنّه لم يذكر التاريخ. وإلى جانب «مليل» كثيرًا ما نجد «ومَلِّيل».

24) ابن خلدون، **العبر**، 173/6.

ويؤكّد دينار سنّي مضروب بصفاقس سنة 461 هـ / 1068 – 1069م أنّ حمّو بن مليل كان يضرب السكّة، على الأقلّ في تلك الفترة، ولا يعترف بالسلطة الفاطميّة[25].

ومنذ أن تولّى تميم، أقرّ حمّو العزم على توسيع ممتلكاته. وبعدما تحالف مع جماعة من العرب من عدي والأثبج وحلفائهم، زحف بهم سنة 455 هـ / 1063م على بلدة بير قشيل[26] فملكها واستحوذ عليها، ثم سار إلى صفاقس.

فنهض تميم للقائه، على رأس جيش يضمّ، بالإضافة إلى البربر الصنهاجيّين بلا شكّ، مجموعات كبيرة من عرب زغبة ورياح. وجرى الصدام في سلقطة[27] التي تبعد حوالي ستة أو ثمانية أميال عن المهدية. وانتهت المعركة الطاحنة بهزيمة القائد الطموح، وقد نجا بأعجوبة من المجزرة التي أودت بحياة أغلب رجاله من الفرسان والمشاة. ورجع مَنْ نجا منهم إلى صفاقس. وتبدو هذه الواقعة التي تقاتل فيها بنو عدي والأثبج من جهة وبنو زغبة ورياح من جهة أخرى، بمثابة الصراع بين الجماعات الهلاليّة المتنافسة. ولئن أمسك تميم – حسبما يبدو – عن استغلال انتصاره وملاحقة الفارّين، فذلك على الأرجح لأنّه لم تكن لديه الوسائل اللاّزمة لذلك. ولكن من الجائز أن يكون قد فضّل الإسراع بتوجيه جيشه المنتصر إلى سوسة. ومهما يكن من أمر، فقد هجم على تلك المدينة بعد مدّة قليلة من تلك الواقعة أي في سنة 456 هـ / 1063 – 1064م. فطلب إليه أهل سوسة العفو، فعفا عنهم. فيبدو حينئذ أنّ هذه المدينة قد استسلمت بدون مقاومة تُذكَر.

قفصة وقسطيلية في عهد تميم[28]:

يبدو أنّ تميمًا لم يحاول استرجاع قفصة، وقد تمكّن أميرها عبد الله بن محمد بن الرند المستقلّ منذ سنة 445 هـ / 1053 – 1054م، من فرض سلطته على قسم كبير من قسطيلية. وإثر وفاته سنة 465 هـ / 1072 – 1073م جمع ابنه وخليفته أبو عُمَر[29] المعتزّ أموالاً طائلة

25) الهادي إدريس، مجلة معهد الدراسات الشرقيّة، 1953، 31.

26) حسب النويري، وهو المصدر الوحيد الذي ذكر هذا الاسم. أمّا التجاني فقد قال: «بعض القُرى» (الرحلة، 70).

27) البكري، 76، 198.

28) ابن خلدون، العبر، 166/6.

29) ألا ينبغي أن نقرأ: أبو عمرو؟

من الضرائب ، أنفقها في استمالة عدد كبير من الأنصار وإخضاع قمّودة وجبل هوارة وبقيّة مدن قسطيلية وما تبعها.

وهكذا فقد نجح في تأسيس دُوَيلة هامّة غربي جنوب إفريقيّة ، تضمّ قمودة وقفصة وقسطيلية ، وتحدّها مناطق سبيبة والقيروان وصفاقس شمالاً ، وسبخة قسطيلية (شطّ الجريد) جنوبًا. ونلاحظ الموقع الممتاز الذي تحتلّه قاعدة قفصة وسط المنطقة التي تتحكّم فيها.

وبعدما أشرف أبو عُمَر المعتزّ على حظوظ ممتلكاته بنجاح مدّة طويلة ، أصيب بالعمى. وبما أنّ ابنه تميم كان توفّي منذ عهد قريب ، فقد عيّن لخلافته حفيده يحيى بن تميم[30] الذي وضعه تحت وصايته وحكم مكانَه.

ورغم الغزوة الهلاليّة ، يبدو أنّ هذه المنطقة قد شهدت شيئًا من الازدهار الذي استمرّ حتى دخول الموحّدين إلى إفريقيّة.

---

30) نلاحظ : يحيى بن تميم بن المعتزّ ويحيى بن تميم بن المعزّ ، فهل هذا من باب الصدفة أم أنّه يدلّ على رغبة بني الرند في تقليد بني زيري؟

الفصل الثاني
بداية عهد الناصر[1]

[المقدّمة] :

من الجدير بالتّذكير أنّ النّاصر بن علنّاس بن حمّاد قد ارتقى إلى العرش سنة 454 هـ / 1062 م ، في نفس السنة التي تولّى فيها الحكم تميم بن المعزّ ، وَلَد ابن عمّه . ولا ندري ما هو عمر ذلك الأمير آنذاك . وتقول المصادر إنّه كان سفّاحًا ، كما تشهد على ذلك أعمال القتل العديدة التي ارتكبها ، كما كان مفرط الغيرة ، حسب بعض الروايات الشهيرة[2] التي لم تبلغنا من سوء الحظّ .

وقد أسند مناصب سامية إلى أربعة من إخوته : وهي ولاية المغرب ، أي القسم الغربي من مملكته ، وقد عهد بها إلى كبّاب الذي أسكنه مليانة[3] ، وولاية حمزة التي منحها لرُمّان[4] ، وولاية نقاوس[5] التي أسندها إلى خرَز ، وقد أعاد بناء سورها الذي هدمه المعزّ بن باديس ، وولاية قسنطينة التي عهد بها إلى بلبار[6] وعيّن ولده عبد الله على رأس مدينة الجزائر ومرسى الدّجاج وولده الآخر يوسف على رأس مدينة أشير.

أما بسكرة التي خلعت طاعة بني حمّاد ، فقد كان يحكمها بنو جعفر . وكان بلقّين قد قتل مقدّمها جعفر بن أبي رُمّان[7] . ولم يحتمل النّاصر هذا التمرّد وقتًا طويلاً ، فكلّف بإخضاعها وزيره خَلَف بن أبي حيدرة الذي كان في السابق وزير سلفه بلقّين. فاستحوذ خَلَف على بسكرة عنوة ، بعدما حاصرها. ووجّه إلى القلعة بني جعفر وعددًا من أعيان المدينة ، فصلبهم النّاصر.

---

1) **العبر**، 173/6 ؛ **أعمال**، 463 – 465 .
2) حسب رواية **أعمال**، المصدر المذكور.
3) حسب **العبر**: «لّبا»؟
4) حسب نفس المصدر: «ورمّان». .
5) حسب نفس المصدر: «تعارس»(؟) .
6) حسب نفس المصدر: «بلباز».
7) حسب نفس المصدر: «رمّاز»(؟)

وسرعان ما قتل النّاصر وزيره خَلَف بن أبي حيدرة ، إثر سعاية من قِبَل بعض الرؤساء الصّنهاجيّين الذين أخبروا الأمير أنّ وزيره قد أراد تسليم الحكم إلى معمّر شقيق الأمير بلقّين ، إثر مقتل هذا الأخير[8] ، وأنّه كان قد تشاور معهم في هذا الشأن. وعيّن النّاصر مكانه أبا بكر بن أبي الفتوح[9] المعروف باسم أحمد بن جعفر بن أَفْلَح.

وأخبرنا ابن خلدون – وهو المصدر الوحيد الذي أمدّنا بمعلومات حول جميع هذه الوقائع – أنّ النّاصر قد ارتحل بعد ذلك لتفقّد المغرب ، أي القسم الغربي من مملكته.

وإثر وفاة بلقّين فرّ علي بن ركّان[10] ملتحقًا بأخواله[11] بني عجيسة. وبمساعدتهم استغلّ فرصة غياب النّاصر للاستيلاء على القلعة[12] أثناء غارة ليليّة. فرجع النّاصر على جناح السرعة من المسيلة ، وهجم عليهم على حين غفلة واسترجع منهم القلعة. فانتحر علي بن ركّان لكي لا يقع بين يدي خصمه القاسي.

وانضمّ إلى النّاصر عدد كبير من رؤساء القبائل ، الأمر الذي زاد في دعم قوّته. من ذلك أن حمّو بن مليل البرغواطي الذي كان قد انهزم في سلقطة ، قد وجّه إليه رسالة مبايعة مصحوبة بهدية ثمينة. كما قدم إليه مقدّم قسطيلية[13] يحيى بن وطّاس[14] على رأس وفد ، لتقديم شواهد الإخلاص. ورجع كلّ واحد منهم مغمورًا بالعطايا.

أمّا مدينة تونس ، فلم تكتف بالاعتراف بالأمير الحمّادي ، بل التمست منه تعيين والٍ عليها ، وهو مؤسّس دولة بني خراسان[15].

---

8) حسب نفس المصدر: «ماهر».

9) هكذا سُمّي هذا الشخص. ويبدو أنّ أحمد بن جعفر بن أفلح الذي قيل أنّ الأمير قد عيّنه وزيرًا عوض خَلَف بن أبي حيدرة (العبر، 173/6) ، هو نفس الشخص الذي عيّنه النّاصر وزيرًا ، وهو أبو بكر بن أبي الفتوح ، واسمه الكامل ، حسبما يبدو، هو أبو بكر أحمد بن أبي الفتوح جعفر بن أفلح.

10) حسب العبر، المصدر المذكور.

11) حسب نفس المصدر.

12) العبر: «تافر بوست دار ملكه». وحسب نفس المصدر، 145/6 كان بنو عجيسة ، وهم من البربر البرانس ، مستقرّين في الجبل الذي أسّس فيه حمّاد قلعته.

13) البربر: «قسطيلية» والعبر: «قسنطينة»؟ يتعلّق الأمر بتوزر.

14) حسب العبر.

15) أنظر الفصل الثالث الموالي.

وبعدما أصبح النّاصر يتحكّم في المغرب الأوسط وقسم من إفريقيّة، فكّر في فتح المغرب الأدنى بأسره. وبسبب المنافسات القبليّة، سوف يواجه أعوانًا لا يتورّعون عن الخيانة، ويا للأسف!.

هجوم بني حمّاد وهزيمة سبيبة[16] :

في سنة 457هـ/ 13 ديسمبر 1064 – 2 ديسمبر 1065م، أقام النّاصر حلفًا عتيدًا يجمع بين البربر والعرب. ويبدو أنّ الأثبج هم الذين حرّضوه على ذلك، إذ كانوا يرغبون في بذل مجهود أخير لمقاومة نفوذ بني رياح المتعاظم. فاستعان شيوخ الأثبج بالنّاصر ضدّ بني رياح، وقد لبّى ابن حمّاد طلبهم بطيبة خاطر، لا سيما وأنّ بني رياح كانوا موالين لبني زيري.

وكان شقّ النّاصر يضمّ بالخصوص، بالإضافة إلى الصنهاجيّين، الأثبج وعدي من بني هلال، وزناتة. في حين كان الشقّ المنافس يضمّ المجموعة الهلاليّة الأخرى المتركّبة من بني رياح وزغبة وبني سُلَيْم، وقد انضمّ إليهم الأمير المغراوي ابن المعزّ بن زيري بن عطيّة[17].

«واتّصل بتميم أنّ النّاصر بن علنّاس يقع فيه في مجلسه ويذمّه، وأنه عزم على المسير إليه ليحاصره بالمهديّة، وأنه قد حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال ليعينوه على حصار المهديّة. فلمّا صحّ ذلك عنده، أرسل إلى أمراء بني رياح فأحضرهم إليه وقال: أنتم تعلمون أنّ المهديّة حصن منيع أكثره في البحر، لا يقاتل منه في البرّ غير أربعة أبراج يحميها أربعون رجلاً. وإنّما جمع النّاصر هذه العساكر إليكم. فقالوا له: الذي تقوله حقّ ونحبّ منك المعونة»[17م].

فأعطى تميم لكلّ واحد منهم – وكان عددهم عشرة – ألف دينار وألف درع وألف رمح وألف درقة وألف مهنّد. ثم انسحبوا «فجمعوا قومهم وتحالفوا واتّفقوا على لقاء النّاصر،

16) **الكامل**، 18/10 – 19؛ النويري، 148/2 – 150؛ **العبر**، 19/6 – 20؛ **البيان**، 299/1؛ **الاستبصار**، (الترجمة) 33.

17) حسب **العبر**، 173/6، لا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بعنصر. أنظر: **البيان**، 253/1 – 254. وفي **الكامل** أُطْلِق على هذا الشخص غلطًا اسم المعزّ بن عطية الذي توفّي حوالي سنة 416 – 417هـ/ 1025 – 1027م. النويري، 148/2: المعزّ بن زيري الزناتي.

وأرسل إلى مَنْ مع النّاصر من بني هلال يقبّحون عندهم مساعدتهم للنّاصر ويخوّفونهم منه أنّه قويّ وأنّه يهلكهم بمَنْ معه من زناتة وصنهاجة ، وأنّهم إنّما يستمرّ لهم المقام والاستيلاء على البلاد ، إذا تمّ الخُلْف وضَعُف السلطان . فأجابهم بنو هلال إلى الموافقة وقالوا : اجعلوا أوّل حملة تحملونها علينا ، فنحن ننهزم بالنّاس ونعود عليهم ، ويكون لنا ثلث الغنيمة . فأجابهم إلى ذلك واستقرّ الأمر ، وأرسل المعزّ بن زيري الزناتي إلى مَنْ مع النّاصر من زناتة بنحو ذلك ، فوعدوه أيضًا أن ينهزموا» .

وليس من المستبعد أن يكون الأمير الزناتي متواطئًا مع تميم . ولكنّ الأمر يتعلّق على الأرجح بتقارب بين زناتة ورياح ، أملته الانتهازيّة . ذلك أنّ خيانة بني رياح تجعل هزيمة النّاصر من الأمور المحتملة . فمن الأفضل أن تكون زناتة إلى جانب المنتصرين ، للمساهمة في اقتسام الغنيمة ، بعد هزيمة عدوّها القديم . على أنّه من الجائز أن تكون المؤامرتان مستقلّتين الواحدة عن الأخرى ، بدون أن يعلم أيّ طرف ما دبّره الطرف الآخر .

ومهما يكن من أمر فقد رحلت رياح وزناتة ، في حين وصل النّاصر إلى الأربس على رأس جنوده الصنهاجيّين وحلفائه الهلاليّين والزناتيّين ، واحتلّ المدينة[18] .

وتم اللّقاء بين المتحاربين سنة 457 هـ / 1065م في سهل سبيبة[18م] الواقع بين القيروان وتبسّة . وحسب الاتّفاق حمل بنو رياح على الأثبج وعدي ، وحملت زناتة ، بقيادة المعزّ بن زيري على أبناء قبيلته المتحالفين مع النّاصر . فبدأ بنو هلال وزناتة في التقهقر ، وتبعهم الجنود الصنهاجيّون ، فأخذوهم من خلف غدرًا . ومُنِيَ النّاصر بهزيمة نكراء ، ولكنّه تمكّن من النجاة بنفسه صحبة عشرة فرسان ، بفضل بطولة أخيه الأكبر القاسم بن علنّاس[19] الذي لقي حتفه في المعركة . وكان قد نصح أخاه بإرسال مبعوثين إلى العرب ، واستمالتهم بالهدايا ، عوض مواجهتهم بالسلاح . وإثر الهزيمة طلب إلى النّاصر أن يسلّم إليه تاجه ورايته ، ليتمكّن من إنقاذ حياة من كان يعتبره شخصًا لا يُعَوَّض . فلبّى النّاصر طلبه وتعمّم القاسم بعمامة أخيه وخاض غمار المعركة حاملاً راية الأمير ، ليسمح له بالانسحاب ، فلقي القاسم مصرعه ، وقُتِل معه «كاتبُه» ، حسبما يبدو . ولكنّ الأمر يتعلّق على الأرجح بالقاسم بن علنّاس نفسه الذي

17م) **الكامل** ، 18/10 — 19 .

18) حسب **العبر** لا غير .

18م) جاء في الكامل خطأً ما يلي : «فالتقت العساكر بمدينة سبتة» ، وقد وقع الخلط بين سبيبة وسبتة .

19) حسب مؤلف **الاستبصار** المجهول الذي أطلق على ابن حمّاد غلطًا اسم : المنصور بن حمّاد .

قد يكون هو كاتب الأمير[20].

«وكان مبلغ مَنْ قُتِل من صنهاجة وزناتة أربعًا وعشرين ألفًا»[21]. ونلاحظ هنا وجود زناتيّين من بين القتلى، دون أن نعرف عددهم. فهل أنّ الزناتيّين لم يتخلّوا جميعًا عن المعركة، كما أشارت إلى ذلك المصادر؟ وهل أنّ بني هلال قد أقدموا، في خضمّ المعركة، على قتل وسلب جميع البربر بدون أيّ ميز بين الصنهاجيّين والزناتيّين؟ ومن ناحية أخرى، فإنّ بني رياح -كما أسلفنا- ربّما كانوا يجهلون الاتّفاق المبرم بين الفريقين من زناتة، أو تجاهلوه.

إنّ الرّواية السابقة المعتمدة أساسًا على ما نقله ابن الأثير، تختلف عن رواية ابن خلدون، حول جوانب التواطؤ الغريب -والحقّ يقال- بين رياح وزناتة. فقد أكّد ابن خلدون[22] أنّ ابن المعزّ بن زيري والزناتيّين قد انضمّوا إلى النّاصر وأنّ الأمير المغراوي كان في سنبية إلى جانب ابن حمّاد، وأنّه تخلّى عنه، هو وجماعته، أثناء المعركة بإيعاز من تميم. وسكت المؤرّخ عن المشاورات التي جرت بين رياح وبني هلال وعن الاتّفاق المسبق حول تقهقر الجنود الهلاليّين التابعين لجيش النّاصر، ولم يُشِر إلى وجود الزناتيّين ضمن الجيش المنتصر المتركّب -حسب روايته- من بني رياح وزغبة لا غير. أمّا ابن عذاري[23] فقد اكتفى بالاشارة إلى أنّ «عسكر النّاصر قد كُسِرَ» (دون ذكر مكان الواقعة). وكان قد خرج في عدد كثير من صنهاجة وزناتة وعدي والأثبج. فلقيتهم رياح وزغبة وسُلَيْم، فانهزم النّاصر... وكان من أعظم الأسباب في ذلك ما أبرمه تميم في أمره».

ومن الواضح أنّ رواية ابن خلدون أبسط من غيرها، ولكن لماذا ينبغي أن نفضّل رواية ربّما يفضي وضوحها المجرّد إلى تقليص الواقع، على رواية أخرى مفصّلة أكثر، ولكنّها معقّدة أكثر وغامضة. فهل نرى فيها شيئًا من التصنّع والخيال؟[24].

---

20) حسب تعبير ابن خلدون (**العبر**، 173/6) : «قُتِلَ القاسم أخوه وكاتبه». وقد ترجم دي سلان (**البربر**، 49/2) هذه الجملة كما يلي : «قُتِلَ أخوه القاسم وكاتبه في هذه المعركة». وهذه الترجمة يمكن أن تكون مقبولة. ولكن من الغريب أنّ المؤرّخ لم يعطنا إسم هذا الكاتب الذي لم يرد ذكره في أيّ مصدر آخر. والجدير بالملاحظة أنّ ابن أبي الفتوح وزير النّاصر قد بقي على قيد الحياة بعد الهزيمة.

21) حسب **الكامل** والنويري.

22) **العبر**، 173/6.

23) **البيان**، 299/1.

24) وحسب رواية **الاستبصار**، فإنّ المنصور بن حمّاد (الصحيح : النّاصر) هو الذي قدم لنجدة ابن عمّه على رأس جيش عرمرم، فهزمه جميع العرب المتحالفين في سبيبة. ولا ينبغي اعتماد هذا التأويل المبسّط والوهمي.

وسقط معسكر بني حمّاد في أيدي العرب الذين غنموا ما فيه «من مال وسلاح ودوابّ وغير ذلك ، فاقتسموها على ما استقرّ بينهم». وأضاف ابن الأثير قائلاً :

«وبهذه الوقعة تمّ للعرب مُلْك البلاد ، فانهم قدموها في ضيق وفقر وقلّة دوابّ ، فاستغنوا وكثرت دوابّهم وسلاحهم ، وقلّ المحامي عن البلاد».

ويبدو أنّ جيش الخيّالة الصنهاجي الذي كان يعدّ قبل تأسيس بجاية اثني عشر ألف فارس على أقلّ تقدير[25] مقيمين بالقلعة ، قد أُبيد في سبيبة.

وأرسل المنتصرون الألوية والطبول والبوقات وخيَمَ النّاصر بدوابّها إلى تميم. فرفض قبولها وردّها إلى العرب. وقد مسّ هذا الرفض بشعور العرب الذين احتجّوا لديه ، معلنين أنّهم خدّامه وجنوده. فأجابهم تميم أنّ رفضه ليس فيه أيّ مسّ بكرامتهم وقال : «يقبح بي أن آخذ سلب ابن عمّي» ! فأرضى العرب بذلك. ويبدو أنّ هذه البادرة النبيلة تعبّر عمّا كان يشعر به تميم من غمّ. فقد أخبرتنا بعض المصادر[26] أنّه «اهتمّ لذلك وأصابه حزن شديد» ، لمّا قدّر قوّة العرب التي ساهم في دعمها وكان يظنّ أنه يستطيع استغلالها.

وإثر الهزيمة ، كلّف النّاصر وزيره ابن أبي الفتوح بإجراء مفاوضات حول اتفاقية صلح ، وأسرع إلى التصديق عليها في الحين[27]. والجدير بالملاحظة أنّ هذا المفوّض الذي قال عنه ابن الأثير[28] إنّه «كان رجلاً جيّدًا يحبّ الاتّفاق ويهوى دولة تميم» ، قد وقع عليه الاختيار من حسن الحظّ لتحقيق ذلك الغرض ، إذ أنّ المنتصرين من بني رياح كانوا على وفاق مع تميم. إلاّ أنّ تلك الاتّفاقيّة لم تُنَفَّذ ، إذا ما صدّقنا ابن خلدون[29] الذي أخبرنا بما وقع لابن حمّاد ، إثر هزيمة سبيبة. فقد التجأ إلى قسنطينة ، وبنو رياح يلاحقونه ، ثم تحوّل مع من تبقّى من رجاله البالغ عددهم أقلّ من مائتي رجل ، إلى القلعة ، حيث حاصره العدوّ فيها. وقد أتلف المُغيرون البساتين وقطعوا أشجار الغابة المُحيطة بالقلعة. كما خرّبوا طبنة والمسيلة وأخرجوا منهما السكّان ونهبوا الفنادق وردموا الآبار وقطعوا الأشجار. وقد قال المؤرّخ إنّهم نشروا الرّعب في كامل البلاد وأجبروا الأهالي على الاعتصام في مدنهم مع ولاة الأقاليم ، وأخيرًا فرضوا الجزية على السكّان الراغبين في استغلال أراضيهم.

---

25) حسب رواية **أعمال** ، 463.

26) **الكامل** والنويري.

27) **العبر** ، 173/6.

28) **الكامل** ، 19/10 ؛ النويري ، 150/2.

29) **العبر** ، 19/6 – 20.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الصّورة القاتمة تنطبق على كامل أنحاء الأمبراطوريّة الصنهاجيّة ، وقد رسمها ابن خلدون ليبيّن بالخصوص أنّ المصائب التي كانت تعانيها إفريقيّة منذ عهد بعيد ، قد لحقت آنذاك بمملكة بني حمّاد التي ظلّت بمعزل عنها إلى حدّ ذلك التاريخ .

وقد أقرّ سحق صنهاجة في سببة هيمنة بني هلال على كامل المغرب الأدنى والأوسط ، حيث أصبح بنو رياح يسيطرون على إفريقيّة والأثبج يسيطرون على المغرب الأوسط . ذلك أنّ دولة بني حمّاد قد اعترفت إلى آخر أيّامها بتفوّق الأثبج على القبائل العربيّة الأخرى ، إلى أن فقدت تلك القبيلة نفوذها وتفكّكت[30] .

---

30) نفس المصدر.

الفصل الثالث
بداية عهد بني خراسان[1]

[المقدّمة]

لا ندري ماذا حصل في مدينة تونس بخصوص سلطة قائد بن ميمون الصنهاجي الذي كان المعزّ بن باديس قد عهد إليه ، قبل فراره إلى المهديّة ، بمهمّة الإشراف على حظوظ القيروان وتونس. والغالب على الظنّ أنّ سلطته بتونس كانت غير ثابتة وقصيرة المدى ، بل كانت اسمًا بلا مسمّى. ولئن استطاع ممثل المعزّ أن يستمرّ في الحكم ثلاث سنوات (حتى سنة 452 هـ / 1060 – 1061م) بالقيروان ، بل بالأحرى في صبرة – المنصورية ، لأنه كان يقيم بها تحت رعاية حامية صنهاجيّة ، بلا شكّ ، فإنّ مدينة تونس سرعان ما اغتنمت الفرصة المؤاتية لقطع علاقتها مع بني زيري ، وذلك بفضل الفوضى العامّة التي كانت سائدة بالبلاد. وهذا بالضبط ما أشار إليه ابن خلدون في هذا الشأن[2] . واننّا نتصوّر كيف فرّ الصنهاجيّون ملتحقين بأميرهم بالمهديّة. وحسب هذا المؤرّخ[3] فإنّ عابد[4] بن أبي الغيث صهر المعزّ قد استولى على مدينة تونس واستعبد أهلها. ولكنه لم يوضّح من سوء الحظّ تاريخ هذه الواقعة التي يبدو أنّها كانت مجرّد عمليّة نهب عابرة. وفي نفس تلك الفترة تقريبًا استحوذ أمير عربي آخر ، وهو أبو مسعود ، على مدينة عنّابة التي استسلمت إليه. ومن الممكن أن نفترض أنّ مدينة تونس قد فكّرت آنذاك في الاحتماء ببني حمّاد.

وحوالي سنة 450 هـ / 1058 – 1059م تحوّل وفد من شيوخ تونس إلى قلعة بني حمّاد ليطلبوا إلى النّاصر بن عَلّنّاس «تقديم والٍ من قِبَله عليهم»[5] . وقد أكّد ابن عذاري أنّ .

---

1) **الكامل** ، 21/10 ؛ النويري ، 154/2 – 155. وخلافًا للنويري فإنّ ابن الأثير قد ذكر مرّتين متواليتين خطأً ، قابس عوض تونس.
2) **العبر** ، 173/6.
3) نفس المرجع ، 15/6.
4) **العبر**: «عائذ».
5) **البيان** ، 315/1 ؛ **العبر** ، 159/6 ، 163 – 164.

النّاصر لم يُلَبِّ طلبهم ورأى من الفطنة أن لا يتدخّل في شؤونهم. ذلك أنّه، شعورًا منه بالخطر وبضعفه النسبيّ، وربّما خوفًا من أن يلقى نفس المصير الذي آل إليه قريبه بالمهديّة. فضّل أن يتصرف في قضيّة تونس بنفس الواقعيّة التي توخّاها إزاء القيروان في نفس تلك الفترة. فقد كان منهجه يتمثّل في حبك الدسائس ومحاولة التفاهم وعدم التدخّل في شؤون إفريقيّة، على الأقلّ بصورة وقتيّة، وذلك بالرغم من النداءات اليائسة الموجّهة إليه من طرف الإفريقيّين الراغبين في الانضمام إليه. ولذلك فقد اقترح على شيوخ تونس أن يختاروا شيخًا منهم لإدارة شؤونهم وأن يقتصر دوره على المراقبة[6]. «ويقال إنهم راموا تقديم كبيرٍ منهم [لمنصب الولاية] فاستعفى وتوقّف. فوليها من قِبَل النّاصر /عبد الحقّ بن عبد العزيز بن خراسان»[6م]. وحسب ابن خلدون، فقد استقبل النّاصر وفدًا من شيوخ تونس وعيّن واليًا على المدينة. ولكن من الجائز أن يكون المؤرّخ الذي لم يشر إلى الاقتراح الذي قدّمه النّاصر إلى شيوخ تونس، لتعيين واحد منهم على رأس المدينة، قد اختصر الرواية وأكّد من أوّل وهلة أنّ النّاصر هو الذي عيّن عبد الحق واليًا على تونس. وتبدو رواية ابن عذاري المفصّلة أكثر، أقرب للواقع. إلاّ أنه من المحتمل أن يكون هناك وفدٌ ثانٍ قد تحوّل من تونس إلى القلعة ثم رجع مصحوبًا بقرار التعيين وربّما بالوالي نفسه، لا سيما وأنّ عبد الحقّ بن عبد العزيز بن خراسان الذي يقال إنّه من مواليد تونس، هو من أصل صنهاجي، حسب ابن خلدون. والحال أنّ اسم خراسان لا يمتّ بأيّة صلة إلى صنهاجة[7].

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد انّ هذا المؤلّف هو المصدر الوحيد الذي وفّر لنا بعض المعلومات حول سياسة عبد الحقّ. فقد عمل هذا الشيخ التابع لبني حمّاد والمستقلّ عمليًّا، حسبما يبدو، على تشريك أهل تونس في تصريف شؤون المدينة، وقد كان يحمل لقب شيخ[8]. ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بنظام شبيه بنظام الجماعة البربريّة، حيث يتولّى السلطة مجلس الأعيان. وقد ابتهج أهل تونس بهذا النظام شبه الديمقراطي، فأحبّوا شيخهم الموفّق

6) **البيان**: «فأمرهم أن يختاروا شيخًا منهم، يقوم بأمرهم خلال ما ينظر إليهم».

6م) نفس المصدر.

7) جاء في **الصلة**، رقم 184، 184/1: من بين مشايخ ابن الصقلّي (ت. بعد سنة 429 هـ/ 1037 – 1038م)، ابن أبي زَيْد والداودي والقابسي وأبو عبد الله محمد بن خراسان النحوي.

8) حسب نقيشة في واجهة باب من أبواب جامع الزيتونة، مؤرّخة في رمضان 474 هـ/1081م، أنظر مصطفى زبيس، **نقائش...**، ص 38.

عبد الحقّ ، لا سيّما وقد نجح في وضع حدّ لأعمال النهب التي كان يقوم بها الأعراب في البلاد المفتوحة ، مقابل دفع «أتاوة معلومة» إليهم (ضريبة سنويّة).

الحملة العسكريّة ضدّ مدينة تونس[9] :

في سنة 458هـ / 3 ديسمبر 1065 – 21 نوفمبر 1066م ، اغتنم تميم هزيمة ابن عمّه صاحب القلعة الذي انتصر عليه بنو رياح في السنة السابقة بسبيبة ، لمحاولة كسر شوكة ابن خراسان التابع للنّاصر. فقد غادر تميم المهديّة للزحف على مدينة تونس ، على رأس جيش عظيم ، وكان مصحوبًا بأمير زغبة يَبْقَى بن علي[10]. وبعد حصار دام أربعة عشر شهرًا[11] استسلم عبد الحقّ إلى ابن زيري الذي يبدو أنّه اكتفى بدخول مدينة تونس في طاعته ، بمقتضى اتّفاقيّة هي عبارة عن تسوية بالتراضي أكثر ممّا هي استسلام بأتمّ معنى الكلمة. ويمكن تحديد تاريخها بأواخر 459هـ وأوائل 460هـ / أواخر 1067م.

وتوفّي عبد الحقّ بن خراسان سنة 488هـ / 1095م[12]. فخلفه ابنه عبد العزيز. ويمكن أن نستخلص من بعض النّقائش[13] أنّ هذا الرجل الضّعيف المدارك[14] قد تخلّى عن جزء من سلطته ، إن لم نقل كلّها ، إلى أخيه إسماعيل. وإثر وفاة عبد الحقّ ، بل ربّما قبل ذلك ، مارس الأخوَان السلطة بالاشتراك بينهما. ولا ينبغي أن يفوتنا أنّ الأمير الخراساني لم يكن من حيث المبدأ سوى رئيس مجلس الشيوخ.

---

9) **العبر**، 160/6–164 ؛ **البيان**، 299/1 ؛ **الكامل**، 21/10 ؛ النويري، 154/2 ؛ **المؤنس**، 84.

10) **العبر**، 164/6. المصادر الأخرى لم تذكر أمير زغبة.

11) **البيان**، **الكامل**، النويري، **المؤنس** : «عام وشهران»، وهو نفس الشيء ؛ **العبر**: «4 أشهر»، وهي غلطة مطبعيّة لا شكّ فيها.

12) **البيان**، 315/1 ؛ **العبر**، 164/6.

13) في نقيشة تأسيس مسجد المهراس بتونس مؤرّخة في رمضان 485هـ / 5 أكتوبر – 3 نوفمبر 1095م ، ورد ذكر أبي محمد عبد العزيز بن عبد الحقّ بن خراسان الملقّب بلقب «الشيخ الأجلّ». وجاء في نقيشة قبّة سيدي بو خريصان أنّ هذا الضريح قد بُنِيَ بأمر من «السلطان المنصور (بالله) أبي محمد عبد العزيز (و) أبي الطاهر إسماعيل ابنيْ الشيخ عبد الحقّ بن عبد العزيز بن خراسان... في جمادى الثانية 486هـ / 29 جوان – 27 جويلية 1093...». أنظر: مصطفى زبيس، المرجع المذكور، I– رقم 18–19، ص 41–43.

14) **العبر**، 164/6.

ويقال إنّ تميم بن المعزّ قد فتح مدينة تونس من جديد سنة 491هـ/ 1097 – 1098م[15].

ولدينا لوحة ضريح «الشيخ أبي محمّد عبد العزيز بن عبد الحقّ بن خراسان» المتوفّى يوم السبت 5 محرم سنة 499هـ/ 17 سبتمبر 1105م[16]. في حين تؤكّد مصادرنا أنّه «مات سنة 500هـ»[17] (1106 – 1107م). وليس من المستبعد أن يكون أخوه إسماعيل الملقّب بالأمير في لوحة ضريحه، قد انفرد بالحكم إلى أن توفّي يوم الأحد 12 رجب سنة 500هـ/ 8 مارس 1107م[18]. ومن المحتمل أن يكون ابن خلدون وابن عذاري قد خلطا بين تاريخ وفاة الأخوَيْن، لأنّهما قد أهملا دور «الأمير أبي الطاهر إسماعيل» الذي يبدو أنه تولّى الحكم في الفترة التي بقيت فيها المدينة بلا أمير، أي من 5 محرّم 499هـ إلى 12 رجب 500هـ.

فقد أكّد هذان المؤلّفان أنّ الأمير أحمد قد ارتقى إلى الحكم بعد وفاة والده عبد العزيز سنة 500هـ. فهل استحوذ إسماعيل على الحكم إثر وفاة أخيه عبد العزيز؟ وهل قام بمحاولة لوضع ابن أخيه أحمد تحت وصايته، بل للنيل من صلاحيّات مجلس الأعيان؟ والدليل على ذلك أنّه استبدل لقب شيخ بلقب أمير. ومهما يكن من أمر فإنّ ابن أخيه أحمد بن عبد العزيز هو الذي قتله[19]. ففرّ ابن ضحيّته أبو بكر بن إسماعيل إلى بنزرت وأقام بها، إلى أن وجّه إليه أهل تونس بعد ذلك بمدّة طويلة وفدًا لتقليده الحكم.

وقد وضع الأمير أحمد بن خراسان حدًّا للسياسة التقليديّة التي سنّها عبد الحقّ وانتهجها عبد العزيز من بعده، فألغى سلطة الشيوخ، «وأخرج جماعة من أهل تونس وأشياخها، ونفاهم إلى المهديّة وغيرها واستبدّ برأيه في أمور تونس»[19م]. ويبدو أنّه اعتمد

---

15) **البيان**، 302/1؛ **الكامل**، 115/10؛ النويري، 159/2.

16) مصطفى زبيس، المرجع المذكور، 1 رقم 21، ص 58 – 68. نظريًّا يوم الأحد.

17) **البيان**، **العبر**.

18) مصطفى زبيس، المرجع المذكور، 1 رقم 28 ص 62 – 63. نظريًّا يوم الجمعة. وقد أشار هذا الكتاب إلى شواهد قبور عدد كبير من بني خراسان. رقم 13، ص 53 – 54: «حُسْنُ وَرْد أمّ أبي بكر بن إسماعيل بن عبد الحقّ، ت. يوم الأحد 11 رمضان 490هـ». رقم 16، ص 55 – 56: «أَمَةُ العظيم، ابنت اسماعيل ت. يوم السبت 18 ربيع (؟) 492هـ»، رقم 33، ص 66 – 67: «أَمَة العزيز، ابنت محمد، زوجة الشيخ عبد الحيّ بن خراسان»؛ أنظر أيضًا: رقم 36، 39، 41، 43... ص 68 – 71...

19) **البيان**، 315/1. كان إسماعيل مؤهّلاً أكثر لممارسة السلطة. نصّ **العبر**، 164/6، مشوّه. ينبغي قراءته كما يلي: «قتل عمّه إسماعيل بن عبد الحقّ لمكان رسمه وفرّ ابنه أبو بكر...».

19م) **البيان**، 315/1.

على الفقهاء ، وقد كان يحلو له الاجتماع بهم . واعتبر ابن خلدون الأمير أحمد أبرز عضو من أعضاء أسرة بني خراسان. وخلال مدّة ولايته التي دامت اثنتين وعشرين سنة ، بلغت مدينة تونس الخراسانيّة ذروة ازدهارها . فقد بنى أحمد قصرًا بتونس سُمِّيَ قصر بني خراسان[20] . وأحاط المدينة بالأسوار، وأقنع الأعراب بالتزام السهر على أمن المسافرين[21] . وقد مدحه الشاعر الذائع الصّيت ابن حمديس [الصقلّي][22] .

20) نفس المصدر.

21) **العبر**.

22) **ديوان** ابن حمديس ، رقم 82 ص 108 – 110.

الفصل الرابع
نهاية عهد النّاصر

بناء مدينة بجاية (قبل سنة 461 هـ/1068 – 1069)(1) :

بعد كارثة سبيبة استقرّ الأعراب قرب أسوار القلعة وأصبح وضع النّاصر لا يُطاق أكثر فأكثر. فحاول كسب ودّهم بالمال، ولكن سوء نيّتهم وحبّهم للنهب جعلاه يفكّر في البحث عن محلّ إقامة أكثر أمانًا. ومن باب الصدفة وقع اختياره – أثناء المفاوضات التي أجراها مع تميم – على بجاية المنافسة للمهديّة في مستقبل الأيّام.

وكان النّاصر على علم بما أثاره انتصار بني هلال من حزن شديد في نفس ابن عمّه. فقال له وزيره الطيّب القلب أبو بكر بن أبي الفتوح الذي كان لا يخفي تعاطفه مع تميم: «ألَمْ أُشِرْ عليك أن لا تقصد ابن عمّك(1م) وأن تتّفقا على العرب، فإنكّما لو اتّفقتما لأخرجتما العرب». فقال النّاصر: «لقد صدقتَ ولكن لا مردّ لما قُدِّرَ، فأَصْلِحْ ذاتَ بَيْنِنا». فأرسل الوزير رسولاً من عنده إلى تميم يعتذر ويرغب في الإصلاح. فقبل تميم قوله وأراد أن يرسل رسولاً إلى النّاصر، فاستشار أصحابه، فاجتمع رأيهم على محمّد بن البعبع، وقالوا له: «هذا رجل غريب، وقد أحسنتَ إليه وحصل له منك الأموال والأملاك، وهو لا يعرف صنهاجة». فأحضره تميم وأعطاه مالاً ودوابّ وعبيدًا وأرسله»(2).

فسار محمد بن البعبع مع رسول النّاصر إلى أن وصلا إلى بجاية التي كانت آنذاك مجرّد «منزل» يسكنه بعض الفلاحين البربر من قبيلة بجاية الصنهاجيّة(3). وقد بقي بعض أفراد من هذه القبيلة موجودين في تلك المنطقة في عصر ابن خلدون. وقال ابن البعبع في نفسه أنّ هذا المكان المحاط بجبال شاهقة مناسب جدًّا لبناء مدينة ذات ميناء ودار صناعة. ومن الجدير

---

1) **الكامل**، 19/10 – 20؛ النويري، 150/2 – 154؛ **العبر**، 20/6، 173؛ **أعمال**، 463 – 465؛ **الاستبصار** (الترجمة)، 34 – 35 (ينبغي تعويض المنصور بالنّاصر)؛ **بلدان**، فصل بجاية، 62/2 وفيه تلخيص لقضيّة ابن البعبع

1م) [أي لا تهاجمه].

2) **الكامل**، 19/10.

3) نفس المرجع.

بالملاحظة أنّ هذا الموقع لذي يحيط به البحر شرقًا وغربًا وشمالاً ، يشبه إلى حدّ بعيد موقع المهديّة . كما أنّ الطريق الغربيّة المعروفة باسم المضيق كانت محاذية لضفّة الوادي الكبير ، والطريق الجنوبيّة المؤدّية إلى القلعة ، تمرّ من مجازات مرتفعة وصعبة المنال . فستكون المدينة الجديدة حينئذ بمنأى عن غارات العرب .

«فلمّا أوصل (ابن البعبع) الكتاب وأدّى الرسالة ، قال للنّاصر : «معي وصيّة إليك وأحبّ أن تخلي المجلس» . فقال النّاصر : «أنا لا أخفي عن وزيري شيئًا» . فقال : «بهذا أمرني الأمير تميم» . فقام الوزير أبو بكر وانصرف .

فلمّا خرج ، قال الرسول : «يا مولاي ! إنّ الوزير مخامر عليك ، هواه مع الأمير تميم لا يخفي عنه من أمورك شيئًا ، وتميم مشغول مع عبيده ، قد استبدّ بهم وأطرح صنهاجة وغير هؤلاء . ولو وصلتَ بعسكرك ما بِتَّ إلاّ فيها لبُغْضِ الجند والرعيّة لتميم . وأنا أشير عليك بما تملك به المهديّة وغيرها» . وذكر له عمارة بجاية وأشار عليه أن يتّخذها دار ملك ويقرب من بلاد إفريقيّة . وقال له : «أنا أنتقل إليك بأهلي وأدير دولتك» . فأجابه النّاصر إلى ذلك وارتاب بوزيره ، وسار مع الرسول إلى بجاية ، وترك الوزير بالقلعة . فلمّا وصل النّاصر والرسول إلى بجاية ، أراه موضع الميناء والبلد والدار السلطانيّة» .

(وحسب ابن خلدون ، فقد استولى النّاصر في سنة 460 هـ / 1067 – 1068م على جبل بجاية الذي كانت تسكنه قبيلة بربريّة تحمل نفس الاسم) .

«فأمر النّاصر من ساعته بالبناء والعمل وسُرَّ بذلك وشكر الرّسول وعاهده على وزارته إذا عاد إليه ، ورجعا إلى القلعة . فقال النّاصر لوزيره : «إنّ هذا الرسول محبّ لنا ، وقد أشار ببناء بجاية ويريد الانتقال إلينا ، فاكتب له جواب كتبه» . ففعل»[4] .

وقد تسلّم محمد بن البعبع من النّاصر ألف دينار وأربعة خدم وأربع زنجيّات وأربعة بغال من اصطبل الأمير وقفل راجعًا إلى المهديّة .

«وسار الرسول ، وقد ارتاب به تميم ، حيث تجدّد بناء بجاية عُقَيْبَة مسيره إليهم وحضوره مع النّاصر فيها . وكان الرسول قد طلب من النّاصر أن يرسل معه بعض ثقاته ليشاهد الأخبار ويعود بها . فأرسل معه رسولاً يثق به ، فكتب معه : «إنّي لمّا اجتمعت بتميم لم يسألني عن شيء قبل سؤاله عن بناء بجاية ، وقد عظم أمرها عليه واتّهمني . فانظر إلى من تثق به من

---

4) نفس المرجع .

العرب ترسلهم إلى موضع كذا[5] ، فإني سائر إليهم (وقد اتّفقت معهم في هذا الشأن. فأَرْسِلْ من تثق بهم من بني هلال)[6] . وقد أخذت عهود زويلة وغيرها إلى طاعتك».

«وسيّر الكتاب ، فلمّا قرأه النّاصر، سلّمه إلى الوزير (أبي بكر بن أبي الفتوح) ، فاستحسن الوزير ذلك وشكر الرسول وأثنى عليه وقال : «لقد نصح وبالغ في الخدمة ، فلا تؤخّر عنه إنفاذ العرب ليحضر معهم». ومضى الوزير إلى داره وكتب نسخة الكتاب[6م] وأرسل الكتاب بخطّ الرسول إلى تميم ، وكتابًا منه يذكر له الحال من أوّله إلى آخره.

فلمّا وقف تميم على الكتاب ، عجب من ذلك وبقي يتوقّع له سببًا يأخذه به. إلاّ أنّه جعل من يحرسه في اللّيل والنّهار، من حيث لا يشعر. فأتى بعض أولئك الحرس إلى تميم وأخبره أنّ الرسول صنع طعامًا وأحضر عنده الشريف الفهري ، وكان هذا الشريف[7] من رجال تميم وخواصّه. فأحضره تميم ، فقال : «كنت واصلاً إليك». وحدّثه : «أنّ ابن البعبع الرسول دعاني فلمّا حضرت عنده ، قال : أنا في ذمامك أحبّ أن تعرّفني مع مَنْ أخرج من المهديّة»[8] .

فقال له الشريف الفهري : «لماذا تفعل ذلك ، وأنت تحظى بمكانة مرموقة لدى مولانا تميم؟». قال : «لأنّه يظنّ أنّي قد نصحت النّاصر ببناء بجاية. إني خائف!». فقال له الشريف : «يا أبا عبد الله[9] إن كنت لم تقل شيئًا ولم تدبّر أيّة مكيدة ، فلا تخشى شيئًا ، لأنّ مولانا تميم رؤوف لا يؤاخذ أحدًا بقول أو بشبهة». قال : «اتركني ، إنّي لا أستطيع البقاء هنا». فأجاب الشريف : «إذن سأهتمّ بهذه القضيّة غدًا صباحًا إن شاء الله وسأعرّفك بمن تثق بهم من العرب».

فأطلع تميم الشريف الفهري على الرسالة التي كتبها ابن البعبع بخطّ يده وأمره بإحضاره. فذهب إليه الشريف وأخبره بأنّ الأمير تميم يأمره بالمثول بين يديه ، وأنه لا يخشى أيّ مكروه. ولمّا خرجا مُتَوَجِّهَيْن إلى القصر لقيهما ماضي بن عكابش ، فخاطب محمّد بن

---

5) «أولاد عكابش» (قراءة ظنّيّة) حسب النويري ، وهو المصدر الوحيد الذي أشار إلى هذا البطن.

6) زيادة من النويري.

6م) قصد تسليم تلك النسخة إلى النّاصر إذا طلبها فيما بعد.

7) من ذرية الرسول ﷺ. فهل يتعلّق الأمر بأبي الحسن الفهري الذي كلّفه تميم في سنة 499 هـ / 1105 – 1106م بالقيام بحملة عسكريّة ضدّ جزيرة جربة.

8) انتهى كلام ابن الأثير، وبقية الكلام زيادة من النويري.

9) وهذه الكنية معهودة عند العرب لأنّ ابن البعبع اسمه محمّد.

البعبع قائلاً : «يا أبا عبد الله ، لقد نزل بنو هلال بين ظهرانينا مساء أمس ، وهذه الكتب التي أرسلوها إليك» . فأخذها الشريف وتوسّل إليه ابن البعبع بإرجاعها إليه لكي لا ينكشف أمره . ودخل الرجلان القصر وابن البعبع لا يزال يطالب بالكتب . فقال له الشريف : «خذها ولكن والله لن تفيدك شيئًا» . وبينما هما كذلك إذ خرج تميم ، فلما رآه ابن البعبع تملّكه الرّعب ، وسقطت الكتب من يديه ، «فإذا عنوان أحدها : «من النّاصر بن علنّاس إلى شيخنا وحبيبنا فلان ...» . فقال له تميم : «من أين هذه الكتب؟» . فسكت ، فأخذها تميم وقرأها» . فقال الرسول ابن البعبع : «العفو يا مولانا !» . فقال : «لا عفا الله عنك !» . وأمر به فقُتِلَ وغرّقت جثّته»[10] .

وقد تسبّبت هذه الواقعة أيضًا في هلاك المحرّك الثاني لهذه القضيّة السياسيّة المعقّدة ، ألا وهو الوزير أبو بكر بن أبي الفتوح الذي قتله النّاصر من أجل تحمّسه المفرط للولاء إلى بني زيري . وقد أكّد ابن خلدون – وهو أمر قريب من الواقع – أنّ الوزير السيّء الحظّ قد ذهب ضحيّة سعاية رسول تميم ، محمّد بن البعبع ، الذي كان أخبر النّاصر بميل وزيره إلى منافسه صاحب المهديّة . ولكنّ النّاصر ، بقتله وزيره المتّهم بمعارضة مشاريعه وإحباط المؤامرة التي كان من الممكن أن تنجح ، قد أراد أخذ ثأر عميله الذي ضحّى بحياته في سبيل إخلاصه لقضيّة بني حمّاد .

إلاّ أنّ هذه الدّسائس لم تؤخّر قطّ بناء مدينة بجاية التي سمّاها مؤسّسها «النّاصريّة» . فقد بُنِيَ قصر اللؤلؤ من الأساس ، وبعدما عمّر النّاصر عاصمته الجديدة وأعفى أهلها من الخراج ، استقرّ بها سنة 461 هـ / 1068 – 1069م ، وكان قد نقل إليها ذخائره .

الحملة الحمّاديّة الجديدة[11] :

يبدو أنّ النّاصر قد استعاد قواه بسرعة إثر هزيمة سبيبة التي كانت كارثة بالنسبة إلى صنهاجة وزناتة ، لا بالنسبة إلى حلفائه الأثبج . ومن ناحية أخرى ، فقد رأى فريق الأثبج المتحالف مع بني حمّاد ، من الضروري مقاومة التحالف الزيري الرياحي الذي تدعّم إثر استسلام ابن خراسان . ولذلك فقد «حاصر النّاصر مدينة الأربس سنة 460 هـ (11 نوفمبر

---

10) **الكامل** ، المرجع المذكور.

11) **البيان** ، 299/1 – 300 ؛ **العبر** ، 160/6 ؛ **الكامل** ، 21/10 ؛ النويري ، 154/2 – 155 ؛ **أعمال** ، 465 .

1067 – 30 أكتوبر 1068م) ، وكان معه الأثبج من العرب ، وبقي عليها حتى افتتحها وأمّن أهلها وقتل عاملها ابن مجزار»[12] ، (وهو على الأرجح أمير من بني رياح).

وفي نفس ذلك التاريخ ، حسب الاحتمال[13] أظهر الخلاف على تميم القائد بن ميمون ، الوالي الذي كان ابن زيري قد عيّنه على رأس القيروان ، ودخل في طاعة بني حمّاد .

وفي نفس تلك الفترة أيضًا ، «وصل النّاصر إلى القيروان مع العرب[13م] ودخلها»[14] وكان على رأسها عهدئذ الوالى القائد بن ميمون[15] الذي بقي فيها بعد عودة النّاصر.

«وفي سنة 461هـ (31 أكتوبر 1068 – 19 أكتوبر 1069م) ، عاد النّاصر من القيروان إلى قلعته ، خوفًا من جموع العرب»[16] . ومن المحتمل أن يكون هذا التاريخ الذي لم يذكره سوى ابن عذاري ، هو تاريخ وصول النّاصر الذي قد يكون خرج من القيروان في الواقع في أواخر سنة 460هـ ، أي خريف سنة 1068م. وهذا الافتراض يسمح لنا بتحديد تاريخ حملة تميم ضدّ القيروان بأواخر سنة 460هـ. ولكن لا شيء يمنع – نظرًا لسكوت المصادر أو عدم دقّة تواريخها – من تأخير ردّ فعل تميم إلى سنة 461هـ ، أي ربيع سنة 1069م مثلاً ، الموافق لمنتصف سنة 461هـ ، إذ أنّ احتمال تنظيم حملة عسكريّة في فصل الشتاء أمر مشكوك فيه .

على أنّ نجاح الحملة التي قام بها بنو حمّاد بالاشتراك مع الأثبج ضدّ القيروان ، بفضل تخلّي القائد بن ميمون الصنهاجي ، كان لا بدّ له أن يثير ردّ فعل من قِبَل بني زيري وبني رياح .

---

12) حسب **البيان** ، 299/1 ، وفي المخطوطات ابن مكراز وابن مجراز.

13) فقد أوضح ابن خلدون (**العبر** ، 160/6) والنّويري (154/2) أنّه قد شقّ عصا الطاعة بعد ستّ سنوات من إرجاعه إلى القيروان في أوائل عهد تميم حوالي سنة 454هـ ، فيكون ذلك في سنة 460هـ وهي سنة دخول القيروان في طاعة النّاصر ودخول هذا الأخير إلى تلك المدينة حسب **البيان** و**أعمال**.

13م) وهم الأثبج بلا شكّ.

14) **البيان** ، 299/1 .

15) رغم أنّ المصادر لم تُشِر إلى ذلك .

16) **البيان** ، 300/1 .

فقد وجّه تميم، لمعاقبة المتمرّد، عسكرًا كثيرًا يضمّ بلا شكّ عبيده وجموعًا من العرب، من بينهم على الأقلّ بنو رياح[17].

«فلمّا سمع بهم القائد بن ميمون، علم أنّه لا طاقة له بهم، فترك القيروان وسار إلى النّاصر»[18]. فدخل عسكر تميم القيروان وخرّبوا قصر القائد الذي كان قد بناه بباب أسْلَم[19].

طَرْد زغبة من إفريقيّة[20] :

وفي سنة 466هـ/ 6 سبتمبر 1073 — 26 أوت 1075م، أو في السنة الموالية، نشب نزاع مسلّح بين بني رياح وبني زغبة الذين انهزموا وأُطْرِدوا من إفريقيّة. ومن المؤسف — كما هو الشأن بالنسبة إلى قضيّة الحال — أن تكون الثغرات الموجودة في مصادرنا مرتبطة في أغلب الأحيان بأهميّة الأحداث المرويّة.

ولا ندري ما هي القيمة التي يمكن أن نوليها إلى الرواية التي تشير إلى وصول عرب من بني قرّة «قادمين من ناحية برقة ونزولهم إزاء القيروان»، في سنة 468هـ[21] (16 أوت 1075 — 4 أوت 1076م).

ومن ناحية أخرى، فإنّ عمليّة بيع القيروان من طرف زغبة تمثّل بلا شكّ مرحلة من مراحل طردهم من إفريقيّة.

---

17) حسب النويري الذي قال : «فجرّد إليه تميم عسكرًا من أجناده وعبيده». (والمقصود هنا بالعبيد حرس الأمير الذي لم يكن يضمّ السّود لا غير).

18) **الكامل**، المرجع المذكور.

19) النويري، 2/154 — 155 ؛ وفي **الكامل**، 10/21 : «فخرّبوا دور القائد».

20) **الكامل**، 10/40 ؛ **البيان**، 1/300 ؛ **المؤنس**، 84.

21) **البيان**، 1/300 ؛ **المؤنس**، 84.

بيع القيروان[22] :

تتضمّن الروايات المتعلّقة ببيع القيروان تناقضات تبدو ظاهريّة أكثر منها حقيقيّة. فقد سار القائد بن ميمون الذي كان يعيش في بلاط بني حمّاد منذ ستّ سنين[23] إلى حمّو بن مليل البرغواطي أمير صفاقس. ونجح في إقناع أمير زغبة يبقى بن علي[24] ببيع القيروان لمخدومه الجديد الذي عيّنه واليًا عليها، مكافأةً له على صنيعه. وفي سنة 470 هـ/ 1077 – 1078م، أي في نفس السنة التي أُبْرِمَتْ فيها اتّفاقيّة الصلح بين بني زيري وبني حمّاد، دخل القائد بن ميمون إلى القيروان، فحصّنها وجدّد أسوارها.

ومن الغريب أن يعطي حمّو القيروان بعد شرائها إلى القائد بن ميمون مكافأةً له على توسّطه في بيعها. والقريب من الواقع أنّ أمير زغبة قد باع القيروان بالمزاد العلني تحت ضغط بني رياح. فلا عجب إذا كان المشتري هو حمّو خصم تميم وبالتالي عدوّ بني رياح. ولكن ألم يكن حمّو تابعًا للنّاصر الذي اشترى هو نفسه القيروان، حسب مصدرَيْن من مصادرنا؟[25] وهل أنّ القائد بن ميمون وحمّو بن مليل لم يتصرّفا لحساب ابن حمّاد؟ أجل! إنّنا لا نجهل ظروف رحيل القائد بن ميمون من المغرب الأوسط وبالخصوص طبيعة علاقاته اللاحقة مع النّاصر، ولكن لم يذكر أيّ مصدر أنّ تلك العلاقات قد فسدت، فيمكن أن يكون القائد بن ميمون عونًا من أعوان ابن حمّاد، مكلّفًا بمهمة لدى حمّو، وأن نعتبر حينئذ أنّ شراء القيروان كان بمثابة ردّ فعل على انتصار بني رياح الموالين لبني زيري على زغبة. ومن يدري لعلّ نجاح ديبلوماسيّة أعداء تميم قد ساعد على إبرام الصلح في سنة 470 هـ/ 1077 – 1078م، أي سنة رجوع القائد بن ميمون إلى القيروان.

22) المصادر مصنّفة حسب الاسم الذي أعطته للمشتري:
أ – البيع إلى حمّو، **العبر**، 160/6؛ النويري، 155/2.
ب – البيع إلى النّاصر، **البيان**، 300/1؛ **المؤنس**، 84.
ج – البيع إلى القائد بن ميمون:
– **الكامل**، 21/10: «وأما قائد فإنه أقام عند النّاصر، ثم أرسل إلى أمراء العرب فاشترى منهم إمارة القيروان».
– **البيان**، 300/1: «وفي سنة 466 (وقيل 467) طُردت زغبة من إفريقيّة: طردتهم رياح منها، وباعت القيروان من النّاصر بن علنّاس بن حمّاد الصنهاجي صاحب القلعة».

23) هكذا حسب ابن خلدون، وحسب النويري «بعد سنتين». ولا شكّ أنّ هذا خطأ، سنتين = ستّ سنين.

24) في **العبر**، مهنّى(؟) وربّما يحيى؟

25) **البيان** و**المؤنس**.

إبرام الصّلح بين بني زيري وبني حمّاد[26] :

لا شكّ أن تعاظم قوّة بني رياح على حساب زغبة هو الذي أثار في نفس تميم قلقًا شبيهًا بالقلق الذي شعر به إثر هزيمة بني حمّاد في سبيبة. ذلك أنّ تفوّق بني رياح من شأنه أن يعرّض للخطر جهوده الرامية إلى استرجاع نفوذه باستغلال الخلافات القبليّة.

«وفي سنة 469 هـ (5 أوت 1076 — 24 جويلية 1077م)، كانت بإفريقيّة مجاعة عظيمة ووباء عظيم، مات فيه من الناس خلق كثير»[27]. وإنّ من شأن هذه الآفات إتاحة الفرصة لعقد الصلح بين بني حمّاد وبني زيري. وبعد هذا وذاك، ألم يدرك تميم والنّاصر أنّ صراعهما سيؤول لا محالة إلى إضعاف الإمكانات الصنهاجيّة المتدنيّة إلى أقصى حدّ، لفائدة بني هلال الذين ما فتئت قوّتهم تتعاظم؟

وباختصار، ففي سنة 470هـ/ 25 جويلية 1077 — 13 جويلية 1078م، أبرم الخصمان اتّفاقية الصلح التي لا نعرف لا مقدّماتها ولا بنودها. وزوّج تميم ابنته بلاّرة للنّاصر الذي «حمل ثلاثين ألف دينار[27 م]، فأخذ منها تميم دينارًا واحدًا وردّ الباقي. وسيّر ابنته إليه من المهديّة في عسكر، وأصحبها من الحلي والجهاز ما لا يُحَدّ»[28]. وقد كان هذا القران مباركًا ومثمرًا. وكان النّاصر يحبّ هذه الأميرة المهذّبة، وقد بنى لها قصورًا في القلعة وبجاية، منها قصر بلاّرة بالقلعة. وأنجبت الأميرة عددًا من الأبناء من جملتهم المنصور الذي خلف أباه وتوفّيت أمّه في عهده»[29].

النّاصر وزناتة المغرب الأوسط[30] :

بلغت مملكة بني حمّاد ذروة قوّتها بعد بناء بجاية، وقد زادت في تعزيز تلك القوّة بلا شكّ اتّفاقية الصلح المشار إليها أعلاه، والتي سيحترمها الطرفان إلى نهاية عهد تميم. وقد أكّد

---

26) **البيان**، 300/1؛ **الكامل**، 44/10؛ النويري، 155/2—156؛ **المؤنس**، 84 (تاريخ مغلوط).

27) **البيان**، 300/1.

27 م) معلوم المهر.

28) **الكامل**، المرجع المذكور.

29) **شهيرات التونسيّات**، 51—52 [الطبعة الجديدة، 84، 85، 86].

30) **العبر**، 173—175.

ابن خلدون[31] بحقّ أنّ بني حمّاد قد تفوّقوا على أبناء عمومتهم من بني باديس الذين أنهكتهم الغزوة الهلاليّة. وإذا صدّقنا هذا المؤرّخ[32] الذي لم يضف أيّة إيضاحات أخرى، فقد قام النّاصر بعدّة حملات عسكريّة في المغرب الأوسط وأصبح صديق بني ومانو[33]، أولئك الزناتيّين المدافعين عن بني حمّاد، الذين كانوا آنذاك تحت قيادة بني ماخوخ. وقد تزوّج النّاصر إحدى بنات تلك العائلة القويّة النفوذ[34]. ونسج ابنه المنصور على منواله.

وحوالي سنة 460 – 470 هـ/ 1067 – 1078م[35]، وصل إلى طرابلس القائد الزناتي المنتصر بن خزرون، إثر النزاعات المسلّحة التي نشبت في القاهرة بين الأتراك والمغاربة. فوجد في طرابلس بني عدي الذين كان الأثبج وزغبة قد أجلوهم من إفريقيّة، فجنّدهم ليتّجهوا معه إلى غزو المغرب. واستقرّ بالمسيلة، وتمكّنت جحافل بني هلال ومغراوة من الدّخول إلى أشير. إلاّ أنّ المنتصر الذي زحف عليه النّاصر، قد لاذ بالفرار إلى الصحراء، وما لبث أن غادرها لاستئناف أعمال النهب والسلب. فعرض عليه النّاصر الصلح، لأنّه بلا شكّ قد رأى نفسه غير قادر على إخضاعه، ومَنَحَهُ مهلة للتأمّل. وأخيرًا نجح النّاصر في استمالة ذلك المغامر، مقابل إقطاعه بوادي الزاب وريغة[36]. وفي نفس الوقت أمر عروس بن سندي[37] أمير بسكرة الخاضع لسلطته بأن ينصب كمينًا للقائد المغراوي. فلمّا وصل المنتصر بن خزرون إلى بسكرة اتّجه إليه عروس وآواه على أحسن ما يرام. ثم قطع رأسه، بعدما تخلّى عنه أنصاره ولاذوا بالفرار، وبعث برأسه إلى النّاصر الذي عرضه في بجاية، وصلب الجثّة في القلعة.

وأُبيدَ القادة المغراويّون والزناتيّون، أمثال ابن الفتوح بن حنّوش أمير بني سنجاس[38] الذين كانوا يسيطرون على منطقة مدية ومعنصر[39] بن حمّاد الذي قُتِلَ هو أيضًا، وكان

31) نفس المرجع، 174/6.

32) نفس المرجع.

33) حسب ابن خلدون (العبر، 55/7): «عندما أبعد بلكين بن زيري مغراوة وبني يفرن إلى المغرب الأقصى، سمح لبني وَمَانُو وبني إِلُومِي بالبقاء في أراضيهم. وقد عملت هاتان القبيلتان الزناتيتان في صفوف الصنهاجيّين، واغتنمتا فرصة فقدان النفوذ الصنهاجي بالمغرب الأوسط لتوسيع نطاق سلطاتهما. ولم يقع أيّ تقارب بين النّاصر وبني إلومي».

34) العبر، 175/6.

35) نفس المرجع، 43/7 – 44.

36) حسب العبر، 45/7. (تقع منطقة وادي ريغ بين الزاب وورقلة).

37) حسب العبر: هندي.

38) العبر، 174/6.

39) نفس المرجع، أنظر أيضًا: البيان، 255/1

مقيمًا قرب الشلف، وكان معنصر قد «أغلب على عامل مليانة»[40]، وقتل شيوخ بني ورسيفان[41] المغراويّين. واكتفى النّاصر المشغول البال بالأعراب، بمكاتبتهم لحثّهم على الانتقام. فهجم بنو ورسيفان على معنصر، فقتلوه وبعثوا برأسه إلى النّاصر الذي عرضه مع رأس المنتصر بن خزرون.

واشتكى أهل الزاب إلى النّاصر من الزناتيّين وبني غمرت ومغراوة، حلفاء الأثبج، الذين نهبوا بلادهم. فوجّه الأمير ابنه المنصور الذي دخل على رأس جيش إلى وُرغلاّن[42]، مدينة المنتصر بن خزرون الواقعة جنوب بسكرة، وخرّبها. ثم وجّه جنوده بعيدًا إلى أن دخل على رأسهم إلى ورقلة[43]، فعيّن على رأسها عاملاً وقفل راجعًا محمّلاً بالغنائم والأسرى.

كما كان يقوم بأعمال النهب، بالاشتراك مع عرب بني عدي[44]، بطن آخر من بطون زناتة، هم بنو توجين الذين كان على رأسهم آنذاك الأمير مناد بن عبد الله. فوجّه إليهم النّاصر، على رأس جيش، ابنه المنصور الذي أسَرَ سَكَن بن عبد الله، وحميد بن غزل(؟) ولاحق بن جيهان(؟)، أمراء قبيلة عدي[45]، بالإضافة إلى أمير بني توجين وأخيه زيري وعَمَّيْهما الأغلب وحمامة.

فأمرهم (النّاصر؟) بالمثول بين يديه، وأنّبهم أشدّ تأنيب مذكّرًا إيّاهم بما قدّمه إليهم من خدمات في السابق، عندما حماهم من أولاد القاسم رؤساء بني عبد الواحد. ثم قتلهم، بعدما قطع أيديهم وأرجلهم.

وتعطينا كلّ هذه الوقائع فكرة عامّة عن الفوضى السائدة عهدئذ في المغرب الأوسط، والتي بلغت أشدّها في الجنوب والغرب، بسبب التحالفات المحليّة المبرمة بين البطون الزناتيّة والهلاليّة، على وجه الخصوص.

وتوفّي مؤسّس مدينة الناصريّة سنة 481 هـ / 27 مارس 1088 — 15 مارس 1089م.

---

40) العبر، 174/6.

41) نفس المرجع.

42) حسب نفس المرجع: «وعلان»؛ البربر، 50/2: «أورغلاّن».

43) حسب نفس المرجع: «واركلة»؛ البربر، 50/2: «ورغلة».

44) نفس المرجع.

45) حسب البربر، 50/2 — 51: «سكن بن عبد الله وحميد بن حزل ولاحق بن جهان»، ولم يشر ابن خلدون إلى هؤلاء الأمراء الثلاثة من بني عدي (العبر، 174/6).

الفصل الخامس
ولاية المنصور بن النّاصر
(481 – 498 هـ/1088 – 1105م)

[المقدّمة][1] :

كان المنصور صغير السنّ عندما ارتقى إلى العرش سنة 481هـ/ 1088 – 1089م ، خلفًا لأبيه النّاصر، إذ أنّ أمّه بلاّرة قد تزوّجت سنة 470هـ/ 1077 – 1078م. «وقد وصلته كتب الملوك ورُسُلُهم بالتعزية بأبيه والتهنئة بالمُلْك ، منهم يوسف بن تاشفين وتميم بن المعزّ (جدّه للأم). واقتفى آثار أبيه في الحزم والعزم والرياسة»[2]. وقد حقّق مثل أبيه إنجازات عديدة ، وكان ملكًا مِقْدامًا ، حكم البلاد بنفسه ، بحماس شديد ، وكان كاتبًا وشاعرًا. كما كان يرتدي الملابس المرقّعة ويقتنع بالقليل[3]. وأخيرًا فقد حظي بتقريظ الشاعر ابن حمديس [الصقلّي][4].

وبالرغم من وجود الأعراب الذين ما فتئوا يعيثون في الأرض فسادًا ، فقد مكث مدّة من الزمن بالقلعة ، ثم غادرها سنة 483هـ/ 1090 – 1091م وانتقل إلى بجاية. وهو الذي «حضّر» أسرة بني حمّاد بعد أن كانت قبل ذلك شبه بدويّة. وبفضل ذوقه المرهف شيّد المباني ودور الصناعة والقصور، وأجرى الماء في الحدائق والبساتين. وقد أخبرنا ابن خلدون أنّه ، بعدما بنى في القلعة قصر المُلْك[5] وقصر الكوكب[6] وقصر السّلام[7] ، بنى في بجاية

---

1) **العبر**، 174/6 – 176 ، 186 ، 188 ، 55/7 ؛ **الكامل**، 68/10 ؛ النويري ، 156/2 ؛ **البيان**، 302/1 ؛ **أعمال**، 463 – 465 ؛ **الاستبصار**، 34 – 35.

2) **الكامل**، المرجع المذكور.

3) حسب **الأعمال**، حيث ذكر المؤلّف أنه اقتدى بمنهج الخليفة العباسي، أبي جعفر المنصور.

4) **ديوان** ابن حمديس ، القطعة عدد 284 ، ص 389 – 391.

5) أو قصر المَلِك ، ولا شكّ أنّ هذا القصر هو الذي سمّاه الشاعر الصنهاجي أبو عبد الله محمد بن حمّاد : «قصر الخلافة». أنظر: **أعمال**، 463 – 465 ؛ **وشهيرات التونسيّات**، 51 – 52 [الطبعة الجديدة ، ص 86].

6) حسب حسن حسني عبد الوهاب ، **أعمال**، 465 ، الإحالة 1 ، ما زالت أطلال هذا القصر تحمل إلى اليوم اسم المنار.

7) **العبر**، 175/6 : «قصر الشام» ، إثر زلّة قلم.

قصر اللؤلؤ وقصر أميمون. ومن المحتمل أن يكون المنصور قد اقتصر على ترميم بعض تلك القصور وتوسيعها وتجميلها. ويكاد يكون هذا الاحتمال ثابتًا بالنسبة إلى قصر اللؤلؤ الذي يُنْسَب بناؤه أيضًا إلى النّاصر. بل ذهب المؤلّف المجهول لكتاب **الاستبصار** إلى الادّعاء بأنّ المنصور هو الذي بنى بجاية. وتبعًا لذلك فقد أطلق عليها اسم المنصوريّة عوض النّاصريّة. وحسب ابن خلدون فإنّ المنصور هو أوّل من ضرب السكّة من ملوك بني حمّاد[8].

قضيّة قسنطينة[9] :

من الجدير بالتذكير أنّ النّاصر قد ولّى على قسنطينة أخاه بلبار[10]. وإثر تولية المنصور ثار عليه عمّه بلبار. فوجّه صاحب القلعة جيشًا ضدّه بقيادة أبي يَكْنِي[11] بن محسن بن القائد الذي عهد إليه بولاية قسنطينة وعنّابة. فاحتجز أبو يكني بلبار ووجّهه إلى القلعة، واستقرّ بقسنطينة وعهد بقيادة عنّابة إلى أخيه ويغلان.

وفي سنة 487 هـ/1094م خرج أبو يكني عن طاعة المنصور وحاول، حسبما يبدو، تأليف كتلة عظيمة تضمّ جميع خصوم الأمير المحتملين أي تميم والأعراب والمرابطين. فكلّف أخاه ويغلان بالذهاب إلى المهديّة لتسليم عنّابة إلى تميم الذي قبل هذا العرض. ورجع ويغلان إلى عنّابة مصحوبًا بابن تميم أبي الفتوح الذي لا شكّ أنّ أباه قد كلّفه باستلام المدينة وتسيير شؤونها باسمه. ومن ناحية أخرى، تمكّن أبو يكني وويغلان من استمالة عدد كبير من الأعراب وتبادل الرسائل مع المرابطين.

وقد بادر المنصور بردّ الفعل، على الأرجح قبل اتّساع رقعة الثورة. فوجّه جيشًا إلى عنّابة لاسترجاعها، وتمكّن الجيش من اقتحام المدينة بعد محاصرتها مدّة سبعة أشهر. وأسّر أبا الفتوح بن تميم ووجّهه إلى المنصور الذي أمر بسجنه في القلعة وأعطى الإذن بضرب الحصار على قسنطينة. فازداد وضع أبي يكني سوءًا على سوء، إلى أن اضطرّ إلى الالتجاء إلى قلعة بجبَل أوراس والاعتصام بها.

---

8) أنظر: هازار (Hazard)، 53، 56–57، 95.

9) **العبر**، 175/6، نصّ مغلوط وناقص.

10) حسب **العبر**: «بلباز».

11) **العبر**، 175/6: أبو يكني بن محسن بن القائد، فيبدو أن الأمر يتعلّق بحفيد القائد. ولعلّ اسمه «يكندي» عوض «يكني». أنظر: ليفي بروفنسال، **وثائق لم يسبق نشرها**، الفهرس، ص 259.

واستقرّ قائد الأثبج سُلَيْسِل بن الأحيمر في قسنطينة ، ربّما بمساعدة أبي يكني الذي قد يكون كلّفه بحمايتها[12] . إلاّ أنّ القائد المذكور قد باع المدينة إلى المنصور الذي تملّكها من جديد . أمّا أبو يكني الذي بقي معتصمًا بقلعته الأوراسيّة ، فقد كان يقوم من حين لآخر بغارات على قسنطينة . ولكن الجيوش الحمّادية قد حاصرته في مخبإه واستطاعت في آخر الأمر القبض عليه وقتله .

القطيعة مع بني ومانّو والحملة الموجّهة ضدّ تلمسان والمرابطين[13] :

حوالي سنة 473 – 474 هـ / 1080 – 1082م قام العاهل المرابطي يوسف بن تاشفين المسيطر على المغرب الأقصى بحملة عسكريّة ضدّ الجهة الغربيّة من مملكة بني حمّاد التي يهيمن عليها المغراويّون[14] . وبعدما افتكّ تلمسان من بني يَعْلَى ، استولى على وهران وتنّس والونشريس والشلف وكامل أنحاء البلاد ، حتى مدينة الجزائر ، ثم قفل راجعًا إلى المغرب الأقصى سنة 475 هـ / 1082 – 1083م . ونصّب في تلمسان حامية مرابطيّة تحت سلطة الوالي محمّد بن تِينَعْمَر المسوفي[15] .

وأخذ ابن تينعمر في الإغارة على بلاد صنهاجة ، ربما بمساعدة قبيلة بني ومانو الزناتيّة العتيدة ، بقيادة ماخوخ ، رغم أنّ النّاصر والمنصور قد تزوّجا أختيْن من أخوات هذا القائد . فردّ المنصور على تلك الغارات بحدّة وخرّب أراضي ماخوخ وحصونه وضيّق الخناق على محمد بن تينعمر ، إلى أن اضطرّ يوسف بن تاشفين إلى التصالح معه ووضع حدّ للغارات المرابطيّة في بلاد صنهاجة .

إلاّ أنّ المرابطين سرعان ما أعادوا الكرّة ، فوجّه المنصور ضدّهم ابنه الأمير عبد الله الذي أجبرهم على الانسحاب من بلاد صنهاجة والرجوع إلى المغرب الأقصى . واحتلّ عبد الله الجهة الغربيّة من المغرب الأوسط وهجم على منطقة بني ومانو ، ثم حاصر الجعبات[16] .

12) حسب البربر ، 53/2 .
13) العبر ، 175/6 – 176 ، 188 ، 46/7 .
14) أنظر : تاريخ المغرب الأقصى ، 226/1 .
15) حسب البربر . وفي العبر ، 175/6 : «سعمر المسولي» . وفي العبر ، 188/6 : «يتنعمر» . وفي العبر ، 55/7 : «تينعمر المسوفي» .
16) العبر ، 175/6 .

واستولى عليها . كما استحوذ على بلدة مَرَتْ(؟)[17] ، وعفا عن أهلها ثم قفل راجعًا إلى أبيه .

وإثر استيلاء المرابطين على إشبيليــة وهجرة المعتمــد إلى المغرب الأقصى (484 هـ/ 1091 م) ، وجّه أمير الميرة معزّ الدولة بن صمادح رسالة إلى صاحب القلعة ملتمسًا منه قبوله عنده . فلبّى المنصور طلبه وسلّم إليه تدلس التي أقام بها حتى آخر حياته[18] . وهجم المنصور على ماخوخ ، ولكنّ الزناتيّين انتصروا على الجيوش الصنهاجيّة ، واضطرّ المنصور إلى العودة إلى بجاية . وقد بلغ غضبه إلى درجة أنّه قتل زوجته أخت خصمه[19] . وإثر هذه الفعلة الشنيعة ، انضمّ ماخوخ إلى شقّ المرابطين الذين دفعوه إلى اجتياح بلاد صنهاجة . فتحوّل ابنه إلى تلمسان ، ثم بمساعدة محمد بن تينعمر ، سار إلى مدينة الجزائر وحاصرها مدّة يومَيْن . وإثر وفاة محمد بن تينعمر ، عهد الأمير المرابطي بولاية تلمسان إلى أخي الفقيد تاشفين بن تينعمر الذي اقتحم مدينة أشير وعاث فيها فسادًا[20] . وحسب ما جاء في الفصل الذي خصّصه ابن خلدون لبني ومانو وبني إلومي[21] ، فقد قدّمت هاتان القبيلتان الزناتيّتان يد المساعدة إلى المرابطين أثناء هذه الحملة . ويقال إنّ المنصور قد غضب غضبًا شديدًا وزحف على بني ومانو ، ولكنّه مُنِي بهزيمة نكراء من طرف جنود ماخوخ ، فقفل راجعًا إلى بجاية مع من تبقّى من جنوده ، وقد كان المنتصرون يلاحقونهم[22] . ويقال إنّ المنصور قد قتل وقتئذ زوجته ، انتقامًا من أخيها ماخوخ . ويبدو أنّ هذه الرواية المقتضبة هي إعادة لما

---

17) في **العبر** ، 175/6 : «قرَاب» .

18) **العبر** ، 176/6 ؛ **البيان** ، 168/3 ؛ **أعمال** ، 466؛ تدلس أو دلّس ، تقع على بعد 14 فرسخًا من شرشل . وفي **العبر وأعمال والبيان** : «تنّس» .

19) حسب رواية ابن خلدون (**العبر**، 55/7) قتل المنصور زوجته بعد استيلاء تاشفين بن تينعمر على أشير.

20) **العبر** ، 176/6 .

21) نفس المرجع ، 55/7 .

22) من المحتمل أن تكون هناك رسالة موجّهة من يوسف بن تاشفين إلى صاحب القلعة فيها إشارة إلى هذه الهزيمة التي مني بها المنصور بعد سنة 475 هـ بمدة طويلة ، بل حتى بعد الاستعداد للحملة التي جرت في سنة 496 هـ/ 1134 م . وقد أورد هذه الوثيقة الكاتب الأندلسي الفتح بن خاقان (ت . 529 هـ/ 1134 م) في كتابه «**قلائد العقيان**» طبعة بولاق 1283 هـ/ 1866 م ، ص 105 . ولم نتمكن من الاطلاع على النصّ الكامل لهذه الرسالة التي قيل إنها منشورة في الجزء الثاني من الذخيرة لابن بسّام (ت . 524 هـ/ 1147 م) ، وهذا الجزء لم يُنشر إلى الآن ، وقد أشار إليها هنري بيريس في الفصل الذي نشره في «تحية جورج مارسي» 151/2 – 152 تحت عنوان «لقطات تاريخيّة حول ملوك الطوائف والمرابطين من كتاب «**قلائد العقيان**» للفتح بن خاقان» . ولولا هذا الفصل لما تسنّى لنا الاطلاع على هذه الرسالة الموجّهة الى صاحب قلعة بني حمّاد ، والتي حرّرها كاتب يوسف بن تاشفين (ت . 500 هـ/ 1106 – 1107 م) المعروف بابن القصيرة .

=

رواه المؤلّف في الفصل المخصّص لصنهاجة، مع تحويل الواقعة المعنيّة بالأمر. والدليل على ذلك أنّه أحال القارئ بعد ذلك بقليل على الفصل المذكور، عندما تحدّث عن الحملة الموجّهة ضدّ تلمسان.

الحملة العسكريّة ضدّ تلمسان[23] :

بعدما حشد المنصور الصنهاجيّين والجنود العرب من الأثبج ورياح وزغبة وربيعة أو معقل، بالإضافة إلى عدد كبير من حلفائه الزناتيّين، زحف على تلمسان على رأس عشرين ألف رجل[24]، وذلك سنة 469 هـ / 8 جويلية – 5 أوت 1103م. ولمّا وصل إلى وادي سطفسيف[25]، سيّر جيشه إلى الأمام وأخذ يراقب تقدّمه عن كثب. فالتقى تاشفين بن تينعمر الذي كان قد غادر تلمسان متوجّهًا إلى تسالة، بجيش بني حمّاد ومُني بهزيمة نكراء

= [ملاحظة : لقد ظهر الجزء الثاني من الذخيرة المشار إليه أعلاه في سنة 1978 بتحقيق الدكتور إحسان عبّاس. ووردت فيه فقرات من الرسالة المشار إليها أعلاه، التي ترجمها الاستاذ الهادي روجي إدريس في هذه الإحالة. وفيما يلي نصّها كما جاء في الذخيرة] :

«ورد كتابك الذي أنفذته من وادي منى منصرفك من الوجهة التي استظهرتَ عليها بأضدادك وأجحفتَ فيها بطارفك وتالدك، وأخفقت من مطلبك ومرادك، فوقفنا على معانيه، وعرفنا المصرّح به والمشار إليه فيه...

«وفي فصل منها : وننشدك الله الذي ما تقوم السماء والأرض إلاّ بأمره، ألم نكن عندما نزغ الشيطان بينك وبين أبي عبد الله محمد بن يوسف، رحمه الله، وتفاقم الشنآن، قد توفّرنا على ما كان بالحال من إقلاق، وتأخّرنا عما كانت النصبة تستقدم إليه بدارٍ أو سباق، ولم نمدّ الجهة حقّ إمدادها، ولا كثّرنا فوق ما كان يلزم من جماهير إعدادها، ولا عدلنا عن جهاد المشركين، ولا أقبلنا إلاّ على ما يحوط حريم المسلمين، رجاء أن يثوب استبصار، أو يقع إقصار، وأنت خلال ذلك تحتفل وتحشد، وتقوم بحميّة وتقعد، وتبرق غضبًا وترعد، وتستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقترب، فتعطيهم ما في خزائنك جزافًا، وتنفق عليهم ما كتزه أولئك إسرافًا، وتمنح أهل العشرات مئين وأهل المئين آلافًا، كلّ ذلك تعتضد بهم، وتعتمد على تعصّبهم لك وتألّبهم، وتعتقد أنهم جُنّتك من المحاذير وحماك دون المقادير، وتذهل عمّا في الغيب من أحكام العزيز القدير».

[الذخيرة، تحقيق الدكتور إحسن عبّاس، 1978، القسم الثاني، المجلّد الأوّل، ص 257، 258، 259].

والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد أنّ حمّاد قد مُني هو أيضًا بهزيمة في وادي منى سنة 389 هـ/999م. وحول أبي بكر محمد بن سليمان بن القصيرة، كاتب المعتمد ثم يوسف بن تاشفين. أنظر : المراكشي، ص 115.

23) العبر، 176/6، 55/7؛ أعمال، 465.

24) حسب أعمال، لا غير.

25) العبر، 176/6 : «استقسه». أنظر : البكري، 76 – 77 : نهر سطفسيف.

أجبرته على الإلتجاء إلى جبل الصخرة[26].

ودخل الجنود إلى تلمسان لنهبها. وبينما هم كذلك إذ خرجت من المدينة حوّاء[27] زوجة تاشفين فتقدّمت إلى المنصور والتمست منه الرحمة، من أجل ما يجمع بين المرابطين وبني حمّاد من أصل واحد. فاحتفى بها الأمير وأجلى جنوده من تلمسان في صبيحة نفس اليوم وقفل راجعًا إلى عاصمته. وقد دامت الحملة حوالي سنة[28].

وفي سنة 497 هـ / 1104م أبرم يوسف بن تاشفين الصلح مع المنصور، وإرضاءً له، أعفى تاشفين بن تينعمر من ولاية تلمسان[29].

حملات المنصور الأخيرة[30] :

وبعد ذلك هجم المنصور على الزناتيّين وشتّت شملهم في الزاب والمغرب الأوسط، ثم رجع إلى بجاية، فأخضع القبائل التي كانت موجودة في ضواحي تلك المدينة، وقد تعذّر إخضاعها قبل ذلك. وأجبرها على الالتجاء إلى بعض الجبال الوعرة[31].

وتوفّي المنصور بن النّاصر بن علنّاس بن حمّاد، صاحب بجاية والقلعة في ربيع الثاني سنة 498 هـ / 21 ديسمبر 1104 – 18 جانفي 1105م[32]، بعد سبعة أشهر من رجوعه من الحملة ضدّ تلمسان.

---

26) «جبل الصخرة أو الصخرتين، هو الجزء الشرقي من الجبل الذي يشرف على تلمسان من الجهة الجنوبيّة». أنظر: الإدريسي، ص 80.

27) حسب البربر، 54/2. وهذا الاسم غير وارد في العبر، 176/6.

28) حسب أعمال، 465 – 466 كان الانطلاق في شوال 496 هـ وتوفّي المنصور في ربيع الثاني 493 هـ، بعد سبعة أشهر من رجوعه من تلمسان.

29) العبر، 188/6؛ وفي البربر، 82/2: «عُوّض بمزدالي الذي كان واليًا قبل ذلك على بلنسية».

30) العبر، 176/6.

31) ذكر ابن خلدون هذه الجبال وهي: جبل بني عمران، وجبل بني تازروت والمنصورية والصهريج والناظور وحجر المعز.

32) حسب أعمال، 466

ولاية باديس والعزيز[33] :

لقد قدّمت إلينا المصادر أبا معدّ باديس ، ابن المنصور وخليفته ، في صورة ملك جبّار. ومن حسن الحظّ فإنّه لم يبق في الحكم سوى بضعة أشهر. فقد كان مجازفًا ذا مزاج حادّ. فما إن ارتقى إلى العرش حتى صادر أملاك وزير أبيه عبد الكريم بن سليمان ثم عمد إلى قتله. ولمّا غادر القلعة للاستقرار في بجاية ، عزل والي هذه المدينة سهّام. كما هاجم أخاه العزيز الذي كان آنذاك واليًا على مدينة الجزائر ، فعزله ونفاه إلى جيجل. ويُحكى أنه سلّم أحد الأولياء الصالحين إلى الأسود. وقد نجا الوليّ من الهلاك بأعجوبة ، لأنّ الأسود لم تمْسَسْه بسوء.

ولقي حتفه يوم 13 ذو القعدة سنة498 هـ / 27 جويلية 1105م[34]. ولم يتأسّف على فراقه أيّ حدّ ، بمن في ذلك أمّه التي يُقال إنّها هي التي سمّمته للحيلولة دون تنفيذ مشاريعه الخبيثة ضدّها[35].

فأسرع القائد علي بن حمدون إلى دعوة العزيز من عزلته المفروضة عليه ، والإعلان عن ارتقائه إلى عرش آبائه وأجداده تحت عنوان «العزيز بالله».

والجدير بالملاحظة أنّ هذا الأمير كان نقيض أخيه المتوفّى. فقد وُلِدَ في نفس اليوم الذي ارتقى فيه أبوه إلى العرش. ولذلك فقد لُقِّب بالمَيْمُون[36]. وكن يحبّ الإنصات إلى مناقشات الفقهاء بمحضره. وكانت مدّة ولايته طويلة وهادئة. وقد عقد الصلح مع زناتة وتزوّج إحدى بنات ماخوخ[37].

---

33) **العبر** ، 176/6 ؛ **أعمال** ، 466 ؛ **البيان** ، 302/1.

34) هذا التاريخ محدّد في **أعمال** ، لا غير.

35) حسب المصدر السابق ، لا غير.

36) حسب نفس المصدر ، **أعمال** ، 466.

37) **العبر** ، 176/6 : «وأصهر إلى ماخوخ فأنكحه ابنته وطال أمرُ مُلْكِهِ».

الفصل السّادس
تميم والبحر الأبيض المتوسّط

من سنة 455 إلى سنة 471هـ :

لقد اقتفى تميم بن المعزّ أثر أبيه ، «فبعث أيضًا أسطولاً وعسكرًا إلى الجزيرة (صقليّة) وقدّم عليه وَلَدَيْه أيّوب وعليًّا»[1] ، وذلك حوالي سنة 455هـ/1063م . وباستثناء ابن الأثير والنويري[2] ، لم تتحدّث المصادر الأخرى عن هذه الحملة ، مع الملاحظ أنّ هذين المؤلّفين قد أكّدا أنها قد وقعت بعد وفاة المعزّ في سنة 453هـ / 1061 – 1062م . ومن المعلوم أنّ المعزّ توفّي يوم 22 شعبان 454هـ / 31 أوت 1062م. فينبغي حينئذ إتمام المعلومات الواردة في المصدرَيْن المذكورَيْن بالمصادر المسيحيّة .

وعلى الأرجح ، فقد فكّر تميم في التدخّل في صقليّة إثر النجاح الذي أحرزه في السنة الأولى من مدّة ولايته . إذ لا شكّ أنّ انبعاث القوّة الزيريّة في الظاهر ، ووفاة ابن الثمنة والانقسامات التي ظهرت في صفوف النصارى ، كلّ ذلك قد أعاد الأمل في نفوس أهل الجزيرة المسلمين. ولعلّ تميم كان يأمل في إبعاد أعوانه المخطرين من الأعراب الطامعين في ثواب الجهاد المقدّس : فإما الغنيمة أو الاستشهاد .

على أنّ عددًا كبيرًا منهم قد تحوّل من قبل إلى صقليّة ، حسب بعض الشهادات التي تؤكّد وجودهم بُعَيْد الاستيلاء على مسينة ، لا سيما في صفوف القوّات التي واجهها النّرمان في قصريانة ، وكذلك في سنة 1062م / 453 – 454هـ[3] .

وقد نزل أيّوب مع معظم العساكر في بلرمو، حيث حظي بحسن القبول ، وتصرّف باسم أبيه في جميع المناطق التابعة للعاصمة ، من مازرة إلى سِفالو او توزة . أما أخوه عليّ فقد نزل في جرجنت لمساعدة ابن الحوّاس ، في حين توجّه جيش آخر لتعزيز قصريانة . وعلى بعد

1) الكامل ، 81/10.
2) المصدر المذكور والنويري ، 255/2 .
3) ستوريا ، 96/3 ؛ Courtois ، غريغوار السابع ، 221 ، الإحالة 2 .

ميلَيْن من تلك المدينة ، انتصر رُجَار الأوّل على فرقة عسكريّة تضمّ بالخصوص خمسمائة من العرب والإفريقيّين الذين التحقوا بالجيش منذ عهد قريب[4].

فتوجّه جيش المسلمين المتركّب من جنود صنهاجيّين وصقليّين من بلرمو إلى تروانا ، وهي المركز الذي كان ينطلق منه رُجَار طوال تلك الفترة ، وذلك على أمل سحق الكفّار في جحرهم. ولكنّه مُنِيَ بهزيمة نكراء في سيرامي في جمادى الثانية سنة 455هـ/ جوان 1063م ، وسبى النّرمان عددًا كبيرًا من المسلمين ، باعوهم بصفة عبيد ، وتحصّلوا على غنائم وافرة. ووجّه رُجَار هدايا ثمينة إلى البابا الأسكندر الثاني[5].

وسقطت منطقة تروانا بأسرها نهائيًّا بين يدي رُجَار. والجدير بالتذكير أنّ أسطولاً تابعًا لبيزة (أو بيشة) قد تمكّن من النزول في بلرمو[6] في سبتمبر 1063م / 5 رمضان — 4 شوّال 455 هـ. وفي نفس الفترة تقريبًا ، هجم النّرمان على كوكبة من الفرسان تضمّ حوالي ستمائة من العرب والإفريقيّين ، قادمة من جرجنت ، ثم رجعوا إلى تروانا محمّلين بالغنائم ، بعدما قاموا بعدة غارات ناجحة[7].

وحول دور أيّوب ، ليس لدينا سوى الرواية المبهمة التي قدّمها ابن الأثير ، وهي خالية من التواريخ بصورة تكاد تكون تامّة ، ولم يضف إليها النويري أيّ شيء.

وحسب تلك الرواية ، فقد وجّه ابن الحوّاسّ صاحب قصريانة هدايا ثمينة إلى أيّوب الذي قدم إلى جرجنت حوالي سنة 456 هـ / 1064م[8] ، ووضع قصره على ذمّته. «فلمّا قام أيّوب فيها أحبّه أهلها ، فحسده ابن الحواسّ ، فكتب إليهم ليخرجوه ، فلم يفعلوا. فسار إليه عسكره وقاتله. (فانضمّ) أهل جرجنت إلى أيّوب وقاتلوا معه. وبينما ابن الحواسّ يقاتل ، أتاه سهم فقتله ، فملّك العسكر عليهم أيّوب»[9]. وقد جرت هذه الحوادث على الأرجح قُبَيْل سنة 461 هـ / 1068 — 1069م[10]. وبايع أيّوب أهل جرجنت وقصريانة وبلرمو[11].

---

4) **ستوريا** ، 97/3.

5) نفس المرجع ، 99/3 — 103.

6) نفس المرجع ، 105/3 ؛ Chalandon ، 202/1 — 203 ؛ أماري ، **ديلومي** ، 19.

7) **ستوريا** ، 106/3 — 107.

8) نفس المرجع ، 112/3.

9) **الكامل** ، 81/10.

10) Courtois ، **غريغوار السابع** ، 221 ، الإحالة 2.

11) Chalandon ، 205/1.

إلاّ أنّنا لا نعلم متى ولماذا غادر أيّوب بلرمو، ولا ندري هل رجع إليها ، أم بقي في جرجنت أم تحوّل إلى قصريانة. والغالب على الظنّ أنّ سلطة ذلك الملك المزعوم لم تدم طويلاً.

فقد وقع بعد ذلك بين أهل المدينة (بلرمو) وبين عبيد تميم فتنة أدّت إلى القتال. ثم زاد الشرّ بينهم ، فاجتمع أيّوب وعليّ أخوه ورجعا في الأسطول إلى إفريقيّة بسنة إحدى وستّين (1068 – 1069) وصحبهم جماعة من أعيان صقليّة والأسطوليّة»[12].

وحسب مصدر مسيحي[13] ، وجّه الإفريقيّون ، وبالأحرى بنو زيري حوالي شهر أوت 1071م / أواخر 463 هـ ، أسطولاً لنجدة بلرمو التي كان يحاصرها جسكار. وبعد معركة تكبّد خلالها خسائر فادحة ، تمكّن الأسطول من الدخول إلى الميناء. ولكن بعد حصار طويل ، اضطرّت بلرمو التي استولى عليها الجوع إلى الاستسلام يوم 8 جانفي 1072م / 13 ربيع الثاني سنة 464 هـ[14].

وبعد ذلك بمُدّة ، قُتِل القائد النّرماني سارلون ، ابن أخي جسكار ورُجّار الأوّل ، بينما كان يتصدّى لغارة بعض الفرسان العرب. وقد أُرْسِل رأسه إلى تميم ، فَوُضِع في طرف عمود وطِيفَ به في شوارع المهديّة ، حيث أُعْلِنَ أن هلاك هذا القائد النّرماني سيسهّل إعادة فتح صقليّة[15].

«وفي سنة 465 هـ (17 سبتمبر 1072 – 5 سبتمبر 1073م) وصلت إلى مدينة صفاقس مراكب شرقيّة ، فأخرج إليها السلطان تميم بن المعزّ أسطوله من المهديّة ، فأفسدها»[16].

ومنذ الاستيلاء على بلرمو لم يسجّل الغزو النّرماني أيّ تقدّم جدير بالذكر. ذلك أنّ المسلمين لا يزالون مسيطرين على وسط صقليّة وجنوبها. وقد تمكّنوا من البقاء في طرفَيْ الجزيرة : في تاورمينا وتراباني. ويرى أماري أنّ مسلمي صقليّة الذين شحذت همّتهم المحنة وشجّعهم بنو زيري ، قد ثاروا من جديد حوالي سنة 1074م / 466 – 467 هـ. وقد أشارت

12) **الكامل** ، المصدر السابق. والمقصود بالأسطولية البحّارة.
13) Courtois ، المرجع المذكور، 221.
14) **ستوريا** ، 117/3 – 133 ؛ Chalandon ، 205/1 – 209 ، وبالخصوص 207 ؛ Courtois ، المرجع السابق ، 221.
15) **ستوريا** ، 134/3 – 138 ، وبالخصوص 137.
16) **البيان** ، 300/1 ، رغم غموض العبارة يمكن أن يكون الأمر متعلّقًا بمراكب بيزنطية لا فاطميّة.

المصادر المسيحيّة إلى حملتَيْن زيريّتَيْن : الأولى في نِقُوطرة والثانية في مازرة ، ولكنّ المؤلّفين العرب لم يتطرّقوا إليهما[17] .

ففي 28 و29 جوان 1074م / 1 و2 ذو القعدة سنة 466هـ انقضّ أسطول تميم الذي كان يتجوّل في المياه الصقليّة ، فجأة على نقوطرة الواقعة في منطقة قلبرية ، فغنم غنائم وافرة وسبى بعض الأسرى ، ثم أطلق سبيلهم مقابل فدية وقفل راجعًا إلى المهديّة.

وفي سنة ذ107م / 467 – 468هـ نزل بعض الجنود الزيريّين في مازرة وحاصروا قلعتها مدّة ثماني أيّام ، مقرّين العزم على احتلال المدينة . ولكن رُجَار الأوّل الذي استدعاه بعض المبعوثين ، قد قدم على جناح السرعة ، مصحوبًا بفرقة عسكريّة عتيدة ، ودخل إلى القلعة ، محرزًا انتصارًا باهرًا منذ اليوم التاسع من الحصار. وقد دارت رحى المعركة وسط ساحة تقع في أسفل القلعة . وتمكّن العاهل النرماني الخبير بالخطط الحربيّة من إلقاء المغيرين في البحر وسبي عدد كبير منهم . وقد أكّدت بعض الرّوايات المسيحيّة – رغم أنّ أماري قد اعتبرها خياليّة – أنّ ابن أخي ملك إفريقيا (أي أمير المهديّة) قد وقع بين أيدي المنتصرين مع مائة وخمسين سفينة . ولعلّ جسامة هذه الكارثة تفسّر إلى حدٍّ ما سكوت المصادر التاريخيّة الزيريّة ، ونجاح العمليّة العسكريّة التي قامت بها بيزة وجنوة في سنة 480هـ / 1087م ، وانتهاء الغارات الزيريّة البالغة الأهمّيّة ، بل حتى انتهاء غزو الجزيرة.

وفي نفس هذه الفترة تقريبًا ، وربّما إثر هاتين الغارتين المتتاليتين ، دخل رُجَار الأوّل في مفاوضات مع تميم ، حسب الافتراض القريب من الواقع ، الذي قدّمه المؤرّخ شالندون.

وخلال الأشهر الأولى من سنة 1076م / منتصف سنة 468هـ ، تفاوض البابا جرجير السابع مع خصوم تميم ، أي النّاصر بن حمّاد والنّرمان بصقليّة[18] .

وأثناء حصار تاورمينا ، ظهرت في البحر حوالي سنة 1078م / 470 – 471هـ ، أربع عشرة سفينة حربيّة تابعة لأسطول تميم ، وأجاب الأسطول الصغير عن استفسارات رُجَار الأوّل ، أنّه لا تحدوه أيّة نيّة عدوانيّة ، وبالفعل فإنّه ما لبث أن اختفى[19] .

وفي أواخر ماي 1086م / أوائل 479هـ ، أثناء العمليّات التي سبقت حصار سرقوسة ، انتصر رُجَار الأوّل على أسطول بينافير (Benavert) الذي غرق أثناء المعركة . وحسب أقوال

(17 Chalandon ، 328/1 ، 331 –332 والإحالة 2 ، ص 153 ؛ Courtois ، غريغوار السابع ، 221 والإحالة 4 .

(18 Courtois ، المرجع المذكور، 221 و Schaube ، 44 .

(19 De Malterra ، 3 ، 17 ؛ في ستوريا ، 159/3 – 160 ؛ Chalandon ، 332/1 ؛ Courtois ، المرجع السابق ، 224 .

مؤرّخ مسيحي مجهول، أخرج الكونت جثة الأمير وبعث بها إلى تميم في المهديّة[20].

ومن ناحية أخرى، أكّد مالاتيرا[21]، مؤرّخ رُجَار الرّسمي، أنّ البيسانيّين (رعايا بيزة) تمكّنوا أثناء حصار سرقوسة الذي تواصل حتى سقوط المدينة (أواخر أكتوبر 1086م / رجب 478 هـ)، من الاستيلاء على عاصمة تميم، باستثناء الحصن، للانتقام من إهانة قد لحقتهم. وبعدما يئسوا من إمكانية الاستيلاء على ذلك الحصن والمحافظة على المدينة، عرضوها على الكونت، فرفض العرض، متعلّلاً بالاتفاق الذي يربطه بابن زيري. وقد فنّد أماري هذه الرواية وبيّن أنّ البيسانيّين لم يعرضوا المهديّة للبيع في سنة 1086م/ 478 – 479هـ، لأنهم لم يستحوذوا عليها إلا في السنة الموالية. إلاّ أنّه من الممكن أن نستخلص من ذلك أنّ استعدادات التحالف بين بيزة وجنوة قد سبقت احتلال سرقوسة.

حملة بيزة وجنوة ضدّ المهديّة (480هـ/1087م)[22]:

لقد أصبحت غزوات بني زيري البحريّة المتزايدة أكثر فأكثر، تهدّد بالخطر النشاط في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسّط، حتى آلت في آخر الأمر إلى شنّ «حرب صليبيّة تمهيديّة» حقيقيّة ضدّ المهديّة[23]. فقد كان من اللاّزم القضاء على ذلك الجحر الذي يأوي إليه القراصنة وإطلاق سراح عدد لا يحصى من الأسرى النّصارى، وفرض احترام الاتّفاقيّات المبرمة مع الإيطاليين والتي ما فتئ تميم ينتهكها. وربّما إثر المعاملات السيّئة التي كان يتعرّض لها تجّارها[24]، طلبت بيزة إلى جنوة التحالف معها للقيام بعمل مشترك شبيه بالعمليّة الموفّقة التي قامت بها الجمهوريّتان قبل ذلك بستّين سنة في سردانية ضدّ مُجَاهِد. والتمس ذلك التحالف المعونة من الملاّحين الإيطاليّين، كما حظي بمباركة البابا فيكتور

---

20) **ستوريا**، 169/3 والإحالة 3؛ Chalandon، (39/1) لم يتحدّث عن إرسال الجثّة.

21) **ستوريا**، 170/3 والإحالة 1؛ Courtois، المرجع المذكور، 224، الإحالة 2.

22) **رحلة التجاني**، 331 – 332، نقلاً عن المؤرّخ الزيري أبي الصّلت؛ **البيان**، 301/1، نقلاً عن نفس المؤلّف؛ **الحلل**، 240/1 – 241، نقل المؤلّف ما جاء في **الرحلة**؛ **الكامل**، 68/10؛ **العبر**، 487 – 488؛ **أعمال**، 457؛ **المؤنس**، 84 – 85؛ Courtois، **غريغوار السابع ...**، 224 – 225؛ Heyd، 121/1 – 122؛ Schaube، 49 – 52؛ Lacour Gayet، 225/2؛ Pirenne، 183؛ برنشفيك، Initiation à la Tunisie، 88.

23) على حدّ تعبير برنشفيك، المرجع السابق.

24) حسب ما أكّده Heyd، ص 121.

الثالث ، رئيس دير جبل كاسينو سابقًا[25]. ومن الصعب تحديد المدّة التي تطلّبتها الاستعدادات لتلك الحملة[26].

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ النّرمان الذين كانوا آنذاك في حالة هدنة مع تميم ، وكانوا مشغولين بإنهاء غزو صقليّة ، لم يشاركوا في تلك المؤامرة[27].

وقد عُيِّنَ المسمّى بينيدكتوس ، أسقف مودينو(؟) على رأس الحملة العسكريّة[28]. كما انضمّ إليها بعض أهل أمالفي بقيادة بنتاليون وأهل رومة بقيادة المدعو بياترو[29]. وكان جيش النصارى الذي قدّرت المصادر العربيّة عدده بثلاثين ألف رجل ، من بينهم بلا شكّ مجذّفو القوارب ، يضمّ في معظمه البيسانيّين والجنويّين. وتجمّع الأسطول المسيحي المتركّب من ثلاثمائة سفينة على أقلّ تقدير[30] في قوصرة (بنتلارية) ، سنة 480 هـ / 7 أفريل 1087 – 26 مارس 1088م. وأوضح أبو الصّلت «أنّ الشّمس قد كسفت في هذا اليوم ببرج الأسد طالع تخطيط المهديّة ، كسوفًا كليًّا»[31]. ويتعلّق الأمر بكسوف الشمس يوم أوّل أوت 1087م / 27 ربيع الثاني سنة 480 هـ. وبناء على ذلك فإنّ تاريخ تلك الحملة الأقرب من الواقع يصادف أوائل سنة 480 هـ / صائفة سنة 1087م.

«فكتب أهل قوصرة كتابًا على جناح طائر يذكرون وصول البيسانيّين والجنويّين وعددهم وحكمهم على الجزيرة»[32].

«فأراد تميم أن يسيّر عثمان بن سعيد المعروف بالمُهْر ، مقدّم الأسطول [أمير البحر]

---

25) Courtois ، غريغوار السابع ... ، 224 – 225 .

26) الكامل ، 68/10 : «أربع سنوات». لا شكّ أنّ المصدر الإسلامي الذي اعتمده ابن الأثير ولم يذكر عنوانه كعادته ، قد بالغ في ذلك ، ليبيّن أنّ الأمير الزيري لا يستطيع مقاومة مثل هذه الحملة التي تمّ إعدادها خلال مدة طويلة. وبالعكس من ذلك فقد أكّد غيدو Guido في أبيات شعر باللغة اللاتينيّة أنّ الاستعدادات دامت 3 أشهر (ستوريا ، 171/3 ، الإحالة 3).

27) Courtois ، المرجع المذكور ، 224 – 225 .

28) Heyd ، 121/1 ؛ Pirenne ، 183 ؛ Schaube ، 50.

29) Heyd ، 121/1 – 122 والإحالة 2 ؛ ستوريا ، 171 والإحالة 4.

30) رحلة التجاني ، والحلل والبيان والكامل والنويري : 400 قطعة . وتحدّث الشاعر غيدو في قصيدته اللاتينيّة عن 1000 سفينة !

31) رحلة التجاني والحلل والبيان. وذكر ابن خلدون أيضًا سنة «480 هـ» ؛ الكامل ، النويري ، المؤنس : «481 هـ».

32) الكامل ، فحسب.

ليمنعهم من النزول ، فمنعه من ذلك بعض قوّاده اسمه عبد الله بن منكوت[33] لعداوة بينه وبين المهر»[34] .

فاستولى المغيرون على المهديّة وزويلة ونهبوهما وأحرقوهما ولم يتعرّضوا – حسبما يبدو – لأيّة مقاومة جدّيّة[35] . ولم يكتف أبو الصّلت بالاستشهاد بالفلك وبمشيئة الله تعالى وبتقاعس الوزير ، لتفسير تلك الكارثة ، بل أضاف إلى ذلك الأسباب التالية ، وهي : «غيبة عسكر السلطان عن المهديّة ، ومفاجأة الروم دون استعداد لهم وأخذ أهبة للقائهم ، وخلوّ كافّة الناس من الأسلحة والعُدَد ، وقِصَر الأسوار وتهديمها ، وتكذيب تميم مع ذلك بما يرد عليه من أخبار النّصارى»[36] . ولا شكّ أنّ هذه الأسباب معقولة ، إلاّ أنّ المؤرّخ الرسمي لدولة بني زيري قد فاته أن يعيد إلى الأذهان أنّ المهديّة كانت مدينة حصينة ، وذلك ما يفسّر قلّة احتياطات الصنهاجيّين.

ذلك أن تحصينات قصر المهديّ الذي اعتصم به تميم قد سمحت بالتصدّي لهجومات العدوّ العنيفة في أوت 1087م ، إلاّ أنّ تميمًا قد اضطرّ في آخر الأمر إلى طلب الصلح وقبول الشروط القاسية التي فرضها عليه العدوّ المنتصر. فقد أُجْبر على دفع مبلغ طائل قدّرته أغلب المصادر بمائة ألف دينار[37] . وأضاف أحد تلك المصادر[38] أنّ جزءًا من ذلك المبلغ قد دُفِعَ نقدًا والآخر في شكل أوانٍ ذهبيّة وفضيّة ، وهذا ما يبرّر أهميّة الرقم المقدّم. وأكّدت بعض المصادر[39] أنّ تميمًا قد تحصّل على إطلاق سراح الأسرى المسلمين ، في حين ادّعت بعض المصادر الأخرى عكس ذلك[40] .

---

33) وفي **البيان** ، 301/1 : «منكور».

34) **الكامل** ، المرجع المذكور.

35) نجد صدًى لنهب زويلة والمهديّة ، مع الإشارة إلى سنة 480هـ ، في فتوى أصدرها المازري حول مسؤولية المراهنين والصنّاع ، **المعيار** ، 205/8 .

36) **رحلة التجاني** ، 331 .

37) التجاني و**الحلل** و**العبر**. أمّا ابن عذاري الذي سكت عن معاهدة الصلح ، فإنّه لم يذكر أيّ رقم ؛ **الكامل** : «30000 دينار» ؛ النويري : «80000 دينار» (هناك خلط بين هاتين القراءتين).

38) **أعمال**.

39) أشار مؤلّفان شرقيّان ، قد أخذ كلّ واحد منهما عن الآخر أو استقيا معلوماتهما من مصدر واحد ، (لعلّه ابن شدّاد) إلى أنّ الرّوم قد تعهّدوا بارجاع جميع الأسرى. **الكامل** ، 68/10 : «ثم صالح تميم الرّوم على ثلاثين ألف دينار وردّ جميع ما حَوَوْه من السّبي» ؛ النويري ، 156/2 : «فصالح تميم الروم على ثمانين ألف دينار وبشرط أن يردّوا جميع ما حووه من السبي ، ففعلوا ذلك».

40) **أعمال** ، 457 : «وأقلعوا بذلك وبأموال الناس ونسائهم» ؛ **رحلة التجاني** ، 332 و**الحلل** ، 241/1 : «وأقلعوا بأموال =

وأقلع النّصارى مُزَوَّدين بغنائم وافرة من الذهب والفضّة والأقمشة الثمينة والسروج البرونزيّة[41]. أضف إلى ذلك أنّ تميمًا قد منح امتيازات تجاريّة للبيسانيّين والجنويّين.

وبعد هذا الانتصار بقليل، شيّد أهل بيزة كنيستهم الكتدرائيّة واستعملوا في بنائها بعض الذخائر التي نقلوها من المهديّة[43]. وقد أشاد النّصارى بهذا النصر الباهر، لا سيما في القرن الثاني عشر على لسان غيدو (Guido)، في شكلُ أبيات شعر باللاّتينيّة[44]، في حين أوحت هذه الواقعة إلى الشاعر أبي الحسن بن محمد بن الحدّاد بمرثية طويلة[45].

وهناك وثيقة تابعة للمحفوظات الإيطاليّة تدّعي أنّ أحد أبناء «تميم ملك إفريقيّة»[46]، قد أدّى اليمين رسميًّا باسم مدينة بيزة، بمناسبة المعاهدة المبرمة بيْن بيزة وأمالفي في سنة 1126 / 520 هـ. ونحن نفترض مع شوب أنّ ذلك الإبن قد أتى به البيسانيّون صغيرًا – ولِمَ لا في سنة 1087 / 480 هـ[47] – وتربّى على الديانة المسيحيّة. ولكن من الحكمة أن لا نؤلّف رواية خياليّة على أساس هذه الإشارة البسيطة. ولنقتصر على التذكير بأنّ تميمًا كان يملك عددًا كبيرًا من الجواري المسيحيّات، ولم يكن يفتقر إلى الأبناء!. «فقد خلّف من الأولاد الذكور ما جاوز عددهم المائة»[48].

بعد سنة 480 هـ/1087م :

بعدما ذكر ابن الأثير «أنّ الفرنج ملكوا جزيرة صقليّة سنة أربع وثمانين وأربعمائة (1091–1092) وتطرّقوا إلى أطراف إفريقيّة، فملكوا منها شيئًا وأُخِذَ منهم، ثم ملكوا غيره»، أضاف قائلاً :

= المسلمين ونسائهم وأبنائهم». ويمكن أن يكون المقصود بذلك أموال الناس وأموال نسائهم وأولادهم. ويمكن أن يكون المقصود بذلك أيضًا : وأقلعوا بأموال الناس، وبنسائهم وبأبنائهم. أنظر: ستوريا، 174/3.

41) ستوريا، 172/3–173.

42) نفس المصدر.

43) Pirenne، 183.

44) ستوريا، 173/3 والإحالة 1.

45) رحلة التجاني، ص 332.

46) Schaube، 52 والإحالة 2.

47) أنظر الباب الثالث، الفصل السابع.

48) البيان، 304/1.

«فلمّا كان سنة تسعين وأربعمائة (1096 – 1097) خرجوا إلى بلاد الشام ، وكان سبب خروجهم أنّ ملكهم بردويل (بودوان) جمع جمعًا كثيرًا من الفرنج ، وكان نسيب [صهر] رُجَار الفرنجي الذي ملك صقليّة ، فأرسل إلى رُجَار يقول له : «قد جمعتُ جمعًا كثيرًا وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقيّة أفتحها وأكون مجاورًا لك». فجمع رُجَار أصحابه واستشارهم في ذلك وقالوا : «وحقّ الانجيل، هذا جيّد لنا ولهم وتصبح البلاد بلاد النصرانيّة». فرفع رجله وحبق حبقة عظيمة [ضَرَط] ، وقال : «وحقّ ديني ! هذه خير من كلامكم». قالوا : «وكيف ذلك ؟». قال : «إذا وصلوا إليّ أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقيّة وعساكر من عندي أيضًا . فإن فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤونة لهم من صقليّة ، وينقطع عنّي ما يصل من المال من ثمن الغلاّت كل سنة . وإن لم يفلحوا ، رجعوا إلى بلادي وتأذّيت بهم ، ويقول تميم غدرتَ بي ونقضتَ عهدي ، وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا ، وبلاد إفريقيّة باقية لنا ، متى وجدنا قوّة أخذناها». وأحضر رسوله وقال له : «إذا عزمتم على جهاد المسلمين، فأفضل ذلك فتح بيت المقدس ، تخلّصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر. وأما إفريقيّة فبيني وبين أهلها أيْمان وعهود». فتجهّزوا وخرجوا إلى الشام(49) .

وأقلّ ما يمكن أن يُقال في هذه الرواية أنّها مُريبَة . فقد لاحظ أماري أنّ الإشارة إلى أطماع النرمان في إفريقيّة ، وذكر اسم بردويل الذي يطلقه الإخباريّون المسلمون على الأمبراطور أوتون الثاني ، يسمحان لنا للوهلة الأولى بأن نفترض أنّ الراوي قد ارتكب خطأً تاريخيًّا حين خلط بين الكونت رُجَار الأوّل وابنه رُجَار الثاني وبين الصليبيّة الأولى والصليبيّة الثانية . إذ يبدو أنّ بعض التفاصيل المتعلّقة بإفريقيّة قد أضيفت في تاريخ لاحق إلى الرواية الأصليّة التي حافظت مع ذلك على فظاظتها الملائمة جدًّا لطبائع الكونت . ومن الممكن أن يكون الرّواة المسلمون قد خلطوا أيضًا بين جوابَيْن بالرّفض ، أجاب بهما الكونت العجوز : المرّة الأولى عندما رفض تلبية طلب البيسانيّين والجنويّين الذين ألّحوا عليه في الانضمام إليهم للهجوم على المهديّة ، والمرّة الثانية عندما رفض الاستجابة لنداء أوروبا ، حيث كانت تدوّي صيحة : «الله يريد ذلك»(50) .

---

49) الكامل ، 10/112 – 113.

50) حول المفاوضات التي جرت في أواخر سنة 1112 بين رجار الثاني وبودوان ملك بيت المقدس أنظر : Chalandon ، I/360 – 361.

ولمّا توفّي رُجَار الأوّل (جوان 1101 – شعبان 494 هـ) ، خلفه ابنه رُجَار الثاني[51] .
وقد أشار مؤلّف واحد إلى «وصول الرُّمانيّين إلى المهديّة[52] بأجفان كثيرة حربيّة ، تُسمّى الشواني ، ومعهم ثمانية وعشرون مركبًا[53] . وكان قصدهم أن يجدوا فرصة كما وجدها الرّوم المتقدّم ذكرهم[54] . فقصدوا إلى باب دار الصناعة ، ليمنعوا أسطول المهديّة من الخروج إليهم . فهزموهم وقتلوا كثيرًا منهم»[55] .

51) **ستوريا** ، 197/3 والإحالة 3 .
52) **البيان** ، 302/1 – 303 : «وصل الرُّمانيّون إلى المهديّة» . ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بالبيزنطيّين . في **البيان** وفي غيره من المصادر العربيّة يطلق على النّصارى ولا سيما منهم الايطاليّين والصقليّين اسم الرّوم . ويعتقد شالندون (370/1) أنّ الأمر يتعلّق بحملة عسكريّة قامت بها بيزة أو جنوة .
53) **البيان** ، المرجع السابق . في مخطوطة ليدن : 23 مركبًا عوض 28 في طبعة كولان وليفي بروفنسال ، لا محالة حسب مخطوطة كولان .
54) أي أنهم أرادوا تجديد ما أحرزه أهل بيزة وجنوة من انتصار باهر سنة 480 هـ ، ذلك الانتصار الذي ما زال عالقًا آنذاك بأذهان النّصارى .
55) **البيان** ، 302 – 303 .

الفصل السابع
نهاية عهد تميم

حصار قابس[1] :

في سنة 474 هـ / 11 جوان 1081 – 31 ماي 1082م ، «حاصر تميم بن المعزّ مدينة قابس حصارًا شديدًا (دون أن يتمكّن من احتلالها). وضيّق على أهلها وعاث عساكره في بساتينها المعروفة بالغابة ، فأفسدها»[2].

الهجوم على تميم[3] :

وفي سنة 476 هـ / 21 ماي 1083 – 9 ماي 1084م ، تحالف إبراهيم بن محمد بن وليّة الصنهاجي والي قابس المستقلّ مع مجموعة كبيرة من الأعراب ، بقيادة مالك بن علوي (أو علوان)[3م] الصخري ، ضدّ تميم[4]. وبما أنّ بني صخر هم من الأثبج[5] ، فالغالب على الظنّ أنّ الأمر كان يتعلّق أساسًا بثورة هذه القبيلة الهلاليّة التي ما زالت قويّة في المغرب الأوسط ، واستمرّت في القيام بدورٍ ما في إفريقيّة ، رغم تفوّق خصومهم بني رياح الذين يمثّلون أهمّ أعوان ابن زيري من العرب.

وقد حاصر إبراهيم ومالك المهديّة ، «فأرسل تميم إلى أحلافه من الأعراب أموالاً ، فهجموا على عسكر إبراهيم ، وخرج تميم بمن معه من جنده ، فهجم عليه من الجهة الأخرى ،

1) **الكامل** ، 49/10 ؛ **العبر** ، 160/6 ؛ **البيان** ، 300/1 . وفي هذا الكتاب الأخير ورد غلطًا ذكر صفاقس عوض قابس. **المؤنس** ، 84 – 85 .
2) **الكامل** ، المصدر المذكور.
3) **رحلة التجاني** ، 331 ؛ **الكامل** ، 53/10 ؛ النويري ، 155/2 ؛ **البيان** ، 300/1 .
3م) التجاني : «علوان». المصادر الأخرى وبعض مخطوطات **الرحلة** : «علوي». [**المؤنس**: «مالك بن علي»].
4) حسب التجاني ، وهو المصدر الوحيد الذي تحدّث عن دور إبراهيم بن محمّد.
5) أولاد صخر هم من الأثبج التابعين لبني عياض. أنظر : **العبر** ، 24/6 .

فانهزم إبراهيم هزيمة فاحشة، ورجع إبراهيم إلى قابس، وفرّ ابن علوان إلى القيروان. فتوجّه إليه تميم ومن معه من الأعراب فحصروه بها»[6]. ولمّا لاحظ مالك استحالة المحاولة، لا محالة بسبب قلّة عدد الجنود ونقص التحصينات (رغم أنّ قائد بن ميمون قد جدّدها قبل ذلك)، خرج من المدينة هاربًا تحت جنح الظلام.

فاستولى جيش تميم على القيروان التي عادت من جُديد تحت سلطة بني زيري. ثم رجع تميم إلى المهديّة وتحوّل مالك إلى قابس، بلا شكّ، وقد رأى تميم من الصالح، في تاريخ غير محدّد، ولكن على الأرجح قبل سنة 479 هـ / 1086–1087م، أن يبرم معه اتّفاقًا لا نعرف فحواه[7].

الحملة العسكريّة ضدّ قابس وصفاقس[8]:

وفي سنة 479 هـ / 18 أفريل 1086 – 7 أفريل 1087، حاصر تميم قابس وصفاقس في نفس الوقت. ولكن يبدو أنّ هذا الحصار الذي قال عنه ابن عذاري «أنّه لم يُسْمَعْ بمثله»[9]، لم يُكَلَّل بأدنى نجاح. فقد ظلّت صفاقس حينئذ تحت سلطة حمّو بن مليل.

وحسب ابن خلدون، حاصر تميم قاضي[10] بن محمّد الصنهاجي والي قابس منذ وفاة أخيه إبراهيم. وبما أنّنا نجهل تاريخ وفاة هذا الأخير، فمن الصعب أن نؤكّد هل أنّ المؤرّخ يشير إلى حملة سنة 479 هـ أم إلى حملة سنة 486 هـ. ومهما يكن من أمر، فإنّ أحد هذين الأخوَيْن من إخوان المعزّ بن محمّد بن مليّة الصنهاجي هو الذي كان على رأس تلك المدينة التي كان تميم يطمع في احتلالها.

إلاّ أنّ الحملة التي قامت بها بيزة وجنوة سنة 480 هـ، فأضعفت تميمًا وأثّرت تأثيرًا كبيرًا في هيبته، قد أجبرته على وضع حدّ لحملاته العسكرية طوال عدة سنوات. فرأى مالك بن علوي الوقت مناسبًا للقيام بعمليّة حربيّة.

---

6) **رحلة التجاني**، 331.
7) حسب **الكامل**، ولا شكّ أنّ هذا الصلح قد أبرم سنة 482 هـ / 1089–1090م.
8) **الكامل**، 65/10؛ **البيان**، 300/1؛ **العبر**، 160/6؛ **المؤنس**، 84–85.
9) **البيان**، المرجع المذكور.
10) **العبر**: «ماضي».

استيلاء مالك بن علوي على سوسة[11] :

في سنة 482هـ/ 16 مارس 1089 – 5 مارس 1090م، «نقض مالك بن علوي الصخري ما بينه وبين تميم بن المعزّ بن باديس من العهد، وسار في جمع من عشيرته العرب، فوصل إلى مدينة سوسة وأهلها (غافلون) لم يعلموا به، فدخلها عنوة وجرى بينه وبين من بها من العسكر والعامّة قتال، قُتِل من الطائفتين جماعة، وكثرَ القتل في أصحابه والأسر، وعلم أنّه لا يتمّ له مع تميم حال، ففارقها وخرج منها إلى خلوته في الصحراء»[12]. ومن الملاحظ أنّ تميمًا لم يتدخّل بنفسه في هذه الواقعة. ولكن حتى لو أراد التدخّل، فإنّه لم يكن قادرًا على ذلك.

«وكان بإفريقيّة هذه السنة غلاء شديد وبقي كذلك إلى سنة أربع وثمانين (1091–1092)، وصلحت أحوال أهلها وأخصبت ورخصت الأسعار وأكثر أهلها الزرع»[13].

«وفي سنة 486 (أول فيفري 1091 – 11 فيفري 1092)، حاصر عسكر تميم مدينة قابس، وأقام عليها حتى فتح ربضها»[14].

مدينة طرابلس في عهد تميم[15] :

لا تتوفّر لدينا حول مدينة طرابلس في عهد تميم، سوى معلومات قليلة. فقد أخبرنا ابن خلدون أنّه، بعد وفاة المنتصر بن خزرون الذي قتله عروس بن سندي، فيما بين 460 و470هـ/ 1067 – 1078م، تولّى فرد آخر من عائلة خزرون لم يتذكّر اسمه، على قابس التي بقيت تحت سلطة تلك العائلة، حتى بعد سقوط الدولة الصنهاجيّة. ومن ناحية أخرى، أكّد

11) **الكامل**، 73/10 – 74؛ **البيان**، 301/1.
12) **الكامل**، المصدر المذكور.
13) نفس المصدر. أنظر أيضًا: **البيان**، 302/1.
14) **البيان**، المصدر المذكور.
15) أ– **قبل سنة 470هـ: العبر**، 43/7 – 44؛ **البيان**، 300/1؛ **الكامل**، 44/10؛ التجاني، 263؛ **المؤنس**، 84.
ب– **في سنة 488هـ: الكامل**، 99/10 – 100؛ النويري، 156/2.

كلٌّ من ابن الأثير وابن عذاري أنّ تميمًا قد عهد بولاية طرابلس إلى ابنه مقلّد في سنة 470 هـ / 25 جويلية 1077 – 13 جويلية 1078م. ولكنّ التجاني أشار إلى أنّ أبا محمّد عبد الله بن محمّد بن إبراهيم بن هانش الطرابلسي قاضي طرابلس منذ سنة 444 هـ / 3 ماي 1052 – 22 أفريل 1053م، قد تقلّد ولاية تلك المدينة مدة اثنين وثلاثين سنة، إلى أن عُزِلَ عنها سنة سبع وسبعين (10 ماي 1084 – 28 أفريل 1085)(16).

وبعد ذلك بمدّة طويلة، أي في سنة 488 هـ / 1095م، سلّمت مدينة طرابلس مقاليد أمورها إلى مغامر قادم من الشرق، اسمه شاه مالك(17). «وكان شاه مالك هذا من أولاد بعض الأمراء الأتراك ببلاد الشرق، فناله في بلده أمر اقتضى خروجه منه، فسار إلى مصر في مائة فارس، فأكرمه الأفضل أمير الجيوش وأعطاه اقطاعًا ومالاً، ثم بلغه عنه أسباب أوجبت إخراجه من مصر، فخرج هو وأصحابه هاربين، فاحتالوا حتى أخذوا سلاحًا وخيلاً وتوجّهوا إلى المغرب، فوصلوا إلى طرابلس الغرب، وأهل البلد كارهون لواليها، فأدخلوهم البلد وأخرجوا الوالي، وصار شاه مالك أمير البلد. فسمع تميم الخبر، فأرسل العساكر إليها، فحصروها وضيّقوا على الترك، ففتحوها، ووصل شاه مالك معهم إلى المهديّة، فسُرّ به تميم وبمن معه، وقال: «وُلِد لي مائة ولد أنتفع بهم!»(18). فهل كان تميم في حاجة إلى مرتزقة؟.

اختطاف يحيى وحصار صفاقس(19):

وما لبث الغزّي أن اعتبر الجراية التي رتّبها له تميم زهيدة، فعلم تميم بالخبر وخشي ذلك المرتزق الذي علّق عليه آمالاً كبيرة. «فأضمر ذلك شاه مالك في نفسه. (وذات يوم من سنة 488 هـ / 1095م)، خرج يحيى بن تميم إلى الصيد في جماعة من أعيان أصحابه، نحو مائة فارس ومعه شاه مالك مع كثير من أصحابه. وكان أبوه قد تقدّم إليه أن لا يقرب شاه مالك، فلم يفعل. فلمّا أبعدوا في طلب الصيد، غدر به شاه مالك، فقبض عليه وعلى

16) **رحلة التجاني**، المصدر المذكور.

17) [حسب **البيان**، وفي **الكامل**: «شاهملك»].

18) **الكامل**، المصدر السابق.

19) **رحلة التجاني**، 70 – 71؛ **الكامل**، 100/10؛ النويري، 156/2 – 157؛ **البيان**، 302/1؛ **العبر**، 450 – 451

جماعته وتوجّه بهم هاربًا. وأفلت رجل ممّن حضر، فوصل يركض إلى تميم فأعلمه بذلك. فركب تميم وسيّر العساكر في أثرهم، فلم يدركوهم. ووصل شاه مالك بيحيى بن تميم إلى صفاقس، فركب صاحبها حمّو بن مليل، وكان قد خالف على تميم، ولقي يحيى ومشى في ركابه راجلاً وقبّل يده وعظّمه واعترف له بالعبودية وأقام عنده أيّامًا»[20].

ويمكننا أن نتساءل هل كان يحيى متواطئًا مع مختطفه. ذلك أنّ حرارة الاستقبال الذي خصّه به حمّو المتمرّد على تميم، وموقف الأب تجاه وليّ عهده فيما بعد، وما أظهره يحيى من فتور أثناء الحملة العسكريّة الموجّهة ضدّ حمّو، كلّ هذا يسمح بتأكيد الافتراض السابق الذكر، لو لم نكن على علم بما كان يتحلّى به خليفة تميم من «تعقّل». على أنّه من الممكن أن يكون يحيى البالغ من العمر آنذاك حوالي ثلاثين سنة، قد تعقّل فيما بعد.

وخلال الأيّام القليلة التي قضاها يحيى بصفاقس، «لم يذكره أباه بكلمة، وكان قد جعله وليّ عهده، فلمّا أُخِذَ أقام أبوه مقامه ابنًا له آخر اسمه مُثَنَّى».

«ثم إنّ صاحب صفاقس خاف يحيى على نفسه أن يثور معه الجند وأهل البلد ويملّكوه عليهم. فأرسل إلى تميم كتابًا يسأله في إنفاذ الأتراك وأولادهم إليه، ليرسل ابنه يحيى، ففعل ذلك بعد امتناع، وقدم يحيى فحجبه أبوه عنه مدّة، ثم أعاده إلى حاله[20م] ورضي عنه».

«ثم جهّز تميم عسكرًا إلى صفاقس ويحيى معه، فساروا إليها وحصروها برًّا وبحرًا وضيّقوا على الأتراك بها، وأقاموا عليها شهرين وفارقها الأتراك إلى قابس»[21].

«ويقال إنّ يحيى أحبّ الإبقاء على حمّو، فلم يبالغ في حصاره». وقد روى مؤرّخ بني زيري أبو الصّلت وبعض المؤرّخين الآخرين، حسب حكاية لم ينقلها التجاني بحذافيرها، من سوء الحظّ، أن حمّو قد قال: «إنّ هذا لَعجب، بالأمس أُخَلِّص يحيى من القتل، واليوم يحاصرني!»[22].

---

20) **الكامل** و**البيان** و**رحلة التجاني**.

20م) [أي ولاية العهد].

21) **الكامل**، المصدر المذكور.

22) **رحلة التجاني**، المصدر المذكور.

ثورة عُمَر بن المعزّ واستيلاء تميم على قابس[23] :

لقد أظهر والي قابس في عهد تميم ، قاضي بن محمّد[24] ابن وليّة من الجبروت[25] ما دفع أهل تلك المدينة إلى قتله. «وبعثوا إلى عمر بن المعزّ بن باديس[26] ، وكان مخالفًا على أخيه تميم ، فأمّروه على أنفسهم ، وذلك سنة تسع وثمانين وأربعمائة (31 ديسمبر 1095 — 18 ديسمبر 1096). فلمّا علم تميم بولاية أخيه ، تحرّك إلى قابس وجدّ في حصارها إلى أن افتتحها ، وكان قبل ذلك متراخيًا عنها. فقيل له في ذلك ، فقال : «لمّا كان فيها قاضي أخو إبراهيم كان بمنزلة عبد من عبيدي ، فكان زواله سهلاً متى أردت. ولمّا صار ابن المعزّ بالمهديّة وابن المعزّ بقابس ، صار الملك مقسومًا وعاد شريكًا لي ، فهذا لا يكون أبدًا ما دمت حيًّا »[27].

وقد أوحى هذا الانتصار إلى الشاعر ابن محمد «خطيب سوسة»[28] بقصيدة طويلة ، جاء في أوّلها :

[كامل]

[ضحك الزمان وكان قِدْما عابسًا ... لمّـا فتحت بجدّ سيفك قـابسا
الله يعلم مـــا حويت ثمارهـا ... إلاّ وكـان أبوك قبـل الغـارسا
من كان في رزق الأسنّة خاطبا ... كـانت لـه قلل البلاد عرائسا
فـــابشر تميم بـن المعزّ بفتكــة ... تركتك من أكناف قابس قابسا][29]

---

23) رحلة التجاني ، 97 ؛ الكامل ، 106/10 ؛ النويري ، 158/2 — 159 ؛ العبر ، 160/6 ، 166 — 167 ؛ البيان ، 302/1 ؛ ابن خلّكان ، 339/1 .

24) الكامل والعبر ، 160/6 : وقد جاء فيهما غلطًا ، قاضي بن إبراهيم ، كما لو أنّه ابن ابراهيم ، والتصحيح من التجاني ، والحلل والعبر ، 166/6 .

25) العبر ، 166/6 . لقد أخطأ ابن الأثير والنويري قطعًا ، عندما نسبا هذه السيرة السيّئة لا إلى قاضي بل إلى عمر بن المعزّ بن باديس ، ولذلك لم يذكر هذان المصدران أنّ أهل قابس قد قتلوا قاضي .

26) رحلة التجاني ، والعبر والبيان . الكامل والنويري : «عمرو» .

27) الرحلة ، 97 .

28) نقلاً عن ابن خلّكان . الكامل والنويري : «ابن خطيب سوسة» . رحلة التجاني والحلل : «وفي فتح قابس يقول الشاعر...» .

29) الكامل ، المصدر السابق .

ولم تذكر لنا المصادر ما كان مصير عمر، ومن العبث تقديم أيّ افتراض في هذا الشأن. فقد اكتفى ابن عذاري بالإشارة إلى أنّ تميمًا «أخرج من قابس عمر بن المعزّ أخاه»[30]. على أنّنا لا ندري ماذا وقع بالضبط في تلك المدينة إثر هذه الحملة. وقد أكّد التجاني أنّ قابس «خالفت بعد ذلك على تميم ورجعت إلى طاعة العرب، واختلف عليها [تداول] أمراؤهم، منهم مكن بن كامل بن جامع الدهماني»[31].

وأمدّنا ابن خلدون[32] بمعلومات أدقّ حول هذا الموضوع. فأكّد أنّ تميمًا قد اضطرّ إلى تسليم قابس وما والاها إلى الهلاليّين من بني زغبة، ثم افتكّها منهم خصومهم بنو رياح. وبسط مكن بن كامل بن جامع أمير المناقشة سلطانه عليها، رغم ما بذلته الدولة الصنهاجيّة من جهود لإسترجاعها. والمناقشة هم بطن من بني دهمان الذين يؤلّفون مع إخوانهم بني فادغ قبيلة بني علي الرياحيّة[33].

والجدير بالملاحظة أنّ هذا الاستيلاء العابر – والحقّ يقال – لمدينة قابس من قِبَل زغبة سنة 489 هـ / 1095 – 1096م، يقيم الدليل على أنّ إقصاء أبناء هذه القبيلة من إفريقيّة من طرف بني رياح حوالي سنة 466 هـ / 1073 – 1075م لم يكن تامًّا على النحو الذي ادّعاه الإخباريّون. ويمكن أن نفترض أنّ تلك القبيلة التي أُقْصِيَت نحو الجنوب الشرقيّ، قد بقيت مقيمة بناحية قابس، أو أنّها كانت تحاول آنذاك أن تسترجع كلّيًّا أو جزئيًّا ما قد أُخِذَ منها. ومهما يكن من أمر فإنّ إجلاء زغبة من قابس، من طرف بني رياح سنة 489 هـ كان يمثّل المرحلة الأخيرة من انتصار رياح على زغبة.

---

30) إثر غلطة مطبعيّة لا شكّ فيها. جاء في **البيان** (302/1) ما يلي: «وقد كان ولاّه أهلَها» (بالفتح) عوض «أهلُها» بالضمّ.

31) في **رحلة التجاني**: «مكي» وفي **البيان**: «محرز». وفي **العبر**: «مكن».

32) **العبر**، 166/6 – 167.

33) **الخريدة**، مخطوطة باريس رقم 3330 [طبعة تونس 1986، 57/1: مكي بن كامل بن جامع الهلالي من بني فادغ من بني علي. ثم من بني هلال].

ثورة مثّنى بن تميم[34] :

«كان تميم لمّا رضي عن ابنه يحيى ، عظم ذلك على ابنه الآخر المثّنى وداخله الحسد ؛ فلم يملك نفسه. فنُقِلَ عنه إلى أبيه ما غيّر قلبه عليه ، فأمر بإخراجه من المهديّة بأهله وأصحابه»[35] .

ومن المحتمل أن تكون هذه القضيّة التي لم تذكر لنا المصادر تاريخها ، قد وقعت بعد سنة 489 هـ / 1096 م ، ولكن قبل سنة 493 هـ / 1100 م ، فقد جرى الحديث في سياقها من جهة عن مكن الذي تولّى علي قابس قبل أن يستولي عليها تميم سنة 489 هـ ، ومن جهة أخرى عن حمّو بن مليل الذي أُطْرِد من صفاقس سنة 493 هـ.

«فركب مثّنى في البحر ومضى إلى صفاقس ، فلم يمكّنه صاحبها من الدّخول إليها»[36] . فماذا يمكن أن يجني حمّو من هذا الاستقبال ، عدا الشعور تجاه هذا الابن من أبناء تميم بنفس القلق الذي كان شعر به تجاه يحيى؟ أضف إلى ذلك أنّ مثّنى هو خصم يحيى الذي يتعاطف معه حمّو. وبعد هذا وذاك فإنّ صاحب صفاقس لا يريد إثارة غضب تميم.

«فقصد المثّنى مدينة قابس وبها أمير يقال له مكن[37] بن كامل الدهماني ، فأنزله وأكرمه. فحسّن له مثّنى الخروج معه إلى صفاقس والمهديّة ، وأطمعه فيهما وضمن الإنفاق على الجند من ماله. فجمع مكن من يمكنه جمعه وسارا إلى صفاقس ومعهما شاه مالك التركي وأصحابه. فنزلوا على صفاقس وقاتلوها. وسمع تميم ، فجرّد إليها جندًا ، فلمّا علم المثّنى ومن معه أنهم لا طاقة لهم بها ، ساروا عنها إلى المهديّة. فنزلوا عليها وقاتلوها ، وكان الذي يتولّى القتال من المهديّة يحيى بن تميم ، وظهرت منه شهامة وشجاعة وحزم وحسن تدبير ، فلم يبلغ أولئك منها غرضًا ، فعادوا خائبين ، وقد تلف ما كان مع المثّنى من مال وغيره ، وعظم أمر يحيى وصار هو المشار إليه»[38] .

---

34) النويري ، 2/157 – 158 ؛ **الكامل** ، 10/100 ؛ **العبر** ، 6/166 – 167.

35) **الكامل** ، المصدر السابق.

36) نفس المصدر.

37) [في **الكامل** : «مكين»].

38) **الكامل** ، المصدر المذكور.

الحملات العسكريّة الأخرى وطرد عدي من طرف رياح[39] :

في سنة 491 هـ / 9 ديسمبر 1097 – 27 نوفمبر 1089م ، بالرغم من المجاعة الشديدة التي اجتاحت إفريقيّة في تلك السنة ، فتح تميم جربة[40] وجزيرة قرقنة ومدينة تونس[41] . فهل أنّ هذا الترتيب الذي أوردته المصادر مطابق للتسلسل التاريخي؟ ومهما يكن من أمر فإننا نستغرب من هذه الإشارة الخاطفة إلى مدينة ابن خراسان[42] ، إلى حدّ أننا نتساءل هل أنّ الأمر يتعلّق فعلاً بمدينة تونس؟ ولكن كم مرّة لا يخصّص الإخباريّون سوى كلمة واحدة لبعض الأحداث الهامّة[43] ، إن لم يغضّوا عنها الطرف تمامًا ، ويفيضون في الحديث عن جزئيّات لا قيمة لها !

من ذلك مثلاً أنّ ابن عذاري[44] ، بعدما أشار إلى فتح جزيرة قرقنة ومدينة تونس ، أضاف قائلاً : «وخرجت عدي من إفريقيّة أمام رياح» . والحال أنّ الأمر يتعلّق بإقرار تفوّق رياح عى منافسيهم الهلاليّين : زغبة وعدي . وقد كان بودّنا لو أعطانا المؤلّف معلومات مفصّلة حول ظروف هذا الإقصاء الجديد لعدي . والجدير بالتذكير أنّ بيع القيروان (466 – 470 هـ / 1073 – 1078م) وتولية الأمير الدهماني مكن بن كامل بقابس ، قد تخلّلا التوسّع الرياحي بإفريقيّة في عهد تميم .

وفي سنة 500 هـ / 1106 – 1107م ، سقطت مدينة باجة في قبضة بطن من بطون رياح ، وهم بنو الأخضر . «وقد قُتِل خلق كثير» في هذه الغزوة التي قاموا بها غدرًا[45] .

---

39) **البيان** ، 302/1 ؛ **الكامل** ، 115/10 ؛ النويري ، 159/2 .

40) **الكامل** والنويري . وهناك نقص في **البيان** .

41) **الكامل** ، النويري ، **البيان** ؛ **البلدان** ، 529/8 **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 .

42) في سنة 460 هـ دخلت مدينة تونس في طاعة تميم .

43) مثلاً : لقد ذكر ابن بسّام عَرَضًا رجوع المعزّ إلى الحظيرة الفاطميّة في سنة 446 هـ .

44) **البيان** ، 302/1 .

45) نفس المصدر ، 303/1 .

فتح مدينة صفاقس[46] :

لم يتمكّن تميم إلاّ في سنة 493 هـ / 17 نوفمبر 1099 – 5 نوفمبر 1100 م ، من كسر شوكة أمير صفاقس الشهير حمّو بن مليل الذي ما فتئ يواجهه منذ حوالي أربعين سنة ، سواء بصورة مباشرة أو بواسطة الغير.

وهناك نقيشتان تحلّيان واجهة الجامع الكبير بصفاقس[47] ، الأولى مؤرّخة في سنة 378 هـ / 21 أفريل 988 – 10 أفريل 989 م ، أي في عهد المنصور بن بلكين ، تشير إلى إتمام بناء الجامع . وقد أزيل اسم المؤسّس وجزء من النصّ (لعلّه يتضمّن عبارات شيعيّة) ، بإذن من الأمير حمّو بن مليل الذي نسب لنفسه بناء هذا الجامع أو تجميله وترميمه في نقيشة ثانية مجاورة للأولى . وقد جاء فيها أنّ الأشغال قد تمّت في سنة 478 هـ / 29 أفريل 1085 – 17 أفريل 1086 م ، بأمرٍ من الأمير فخر المُلْك وكَفيه ، أبي المنصور حمّو بن مليل.

وهكذا فقد كان هذا الأمير البرغواطي يريد أن يظهر بمظهر الملك الحقيقي.

ولقد اختار حمّو وزيرًا له يُعرَف باسم مظفّر بن علي ، «وهو من كتّاب المعزّ ، كان حسن الرأي والتدبير ، فاستقامت به دولته ، وعظم شأنه»[48] . واشتهر هذا الوزير بالبلاغة وحسن الكتابة.

«وقد ذكر أبو الصّلت[49] جملة ممّا تمثّل به مظفّر في الكتب عن مخدومه إلى تميم قال : أمكنت حمّو فرصة في طائفة من جند تميم ، فقتلهم بصفاقس . وكتب مظفّر في ذلك إلى تميم متمثّلاً بقول أبي الطيّب (المتنبّي)[50] :

[متقارب]

إذا كـــان أعجبكم عـــامُكم فعودوا إلى حمص في القـابـل
فـــإنّ الحسام المصيب الـــذي قُتِلتم بـــه في يـــد القـــاتـــل

46) **الكامل** ، 23/10 ؛ التجاني ، 72 – 73 نقلاً عن أبي الصّلت . مقديش ، [الطبعة الجديدة ، 195/2] ؛ **البيان** ، 302/1 ؛ **العبر** ، 169/6 .

47) جورج مارسي ، **الجامع الكبير بصفاقس** ، 16 – 21 .

48) **الكامل** ، المصدر المذكور.

49) ذكر هذه الرواية التجاني ونقلها عنه مقديش.

50) ناصيف اليازجي : **كتاب العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب** ، بيروت 1305 هـ ، ص 279 .

قال : وتحدّث مرّة بالمهديّة بموت حمّو وبلغه ذلك ، فأمر مظفّر أن يكتب إلى تميم في هذا المعنى فكتب إليه متمثّلاً بقول أبي الطيّب أيضًا :

[بسيط]

كم قد دُفِنْتُ وكم أُقْبِرْتُ عندكم ... ثم انتفضتُ فزال القبر والكفنُ
ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه ... تجري الرياح بما لا تشتهي السّفن

وكتب إليه تميم يوعده ويهدّده ويتمثّل فيه بقول الشاعر :

[طويل]

ستعلم ليلى أيّ دين تداينت ... وأيّ غريم للتقاضي غريمها

فراجعه عنه مظفّر بقول قيس بن ذريح :

[طويل]

ستعلم إن شطّت به غربة النّوى ... وزالوا بليلى أنّ عقلك زائل

وفي رواية أخرى أنّ مظفرا تمثّل له في مراجعته عن هذا الكتب بقول جرير :

[كامل]

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا ... أَبْشِر بطول سلامة يا مربع

وكتب إليه في إثر وقيعة كانت له عليه كتاب إيناس وإلطاف ، فراجعه متمثّلاً بقول عبد الله بن محمّد العطّار :

[رمل]

لا تَظُنَّنَّ امْرَأً أَغْضَبَهُ ... سَبَبٌ ثم انقضى ذاك السَّبَبْ
سالمَ الصّدر من الحقد ولو ... أَظْهَرَ الوُدَّ ولم يُبْدِ الغَضَبْ
كرماد النّار يبقى حَرُّهَا ... كامِنًا فيه وإن زال اللَّهَبْ»[51]

وقد اشتدّ غضب تميم ، «فأرسل إلى مظفّر يطلبه ليستخدمه ، ووعده وبالغ في استمالته ، فلم يقبل»[52] . ويبدو أنّ تميمًا قد حاول أيضًا التقرّب إلى حمّو ولم يعزم على مهاجمته إلاّ بعد أن يئس من استمالته .

---

51) **رحلة التجاني** ، 72 – 73.

52) **الكامل** ، المصدر المذكور.

ففي سنة 493 هـ / 17 نوفمبر 1099 – 5 نوفمبر 1100م، «سيّر تميم جيشًا إلى حصار صفاقس، وأمر الأمير الذي جعله مقدّم الجيش (قائد الجيش) أن يهدم ما حول المدينة ويحرقه ويقطع الأشجار، سوى ما يتعلّق بذلك الوزير، فإنّه لا يتعرّض إليه ويبالغ في صيانته، ففعل ذلك. فلمّا رأى حمّو ما فعل بأملاك النّاس ما عدا الوزير، اتّهمه فقتله»[53].

وبالعكس من ذلك، أكّد أبو الصّلت[54] أنّ مظفّرًا لم يُقتَلَ. وإنّنا لا نتردّد في تفضيل رواية مؤرّخ بني زيري. فمن المحتمل أن يكون حمّو قد فكّر في قتل الوزير المشبوه فيه، ولكنّ مظفّرًا تمكّن من النّجاة بنفسه.

«وسلّم عسكر تميم المدينة، وخرج حمّو منها، وقصد مكن بن كامل الدهماني (صاحب قابس)، فأقام عنده، فأحسن إليه ولم يزل عنده حتى مات»[55].

قال أبو الصّلت: «فلمّا فرّ حمّو إلى قابس، لم يشعر تميم إلاّ ومظفّر قائم بين يديه يطلب العفو، فعفا تميم عنه مع شدّة حقده. ومثل هذا الذنب لا تغتفره الملوك، بل يجاوز التثريب فيه إلى التعذيب، ويتعدّى العقاب إلى ضرب الرّقاب»[56].

وتداول على ولاية صفاقس وُلاَةٌ مُعيَّنون من قِبَل تميم[57]. ومنذ ذلك التاريخ حتى سقوط المدينة بين أيدي النّصارى، كانُ وُلاتُها من أفراد عائلة باديس[58].

الحملة العسكريّة ضدّ جربة[59]:

هل تُعتبَر محاولة تميم التصالح مع حمّو علامة على تعبه؟ فمن المحتمل أن يكون قد قبل إبرام تسوية مرضية للطرفين، ورضي باعتراف شكلي بحت، على غرار اعتراف ابن خراسان صاحب تونس. على أنّ مثل ذلك الاعتراف لا يمكن أن يحطّ من شأن حمّو الذي سبق له

53) نفس المصدر، أنظر أيضًا النويري.
54) **رحلة التجاني**، المصدر السابق.
55) **الكامل**، المصدر السابق.
56) **رحلة التجاني**، 71.
57) دائمًا حسب التجاني.
58) حسب ابن خلدون، **العبر**.
59) **البيان**، 303/1؛ **العبر**، 160/6.

أن دخل في طاعة بني حمّاد. إلاّ أنّ حيويّة تميم الذي سيلقى حتفه وهو في حالة عجز، قد بدأت تضعف. وعلى كلّ حال فإنّ احتلال صفاقس يمثّل ذروة عهده الذي طال أكثر من اللّزوم. واعتبارًا من سنة 493 هـ، بَدَا الأمير العجوز وكأنّه قد اكتفى بما أحرزه من نجاح. ولم يشهد العقد الأخير من عهده سوى الحملة العسكريّة الموجّهة ضدّ جربة.

ففي سنة 499 هـ / 13 سبتمبر 1105 – أوّل سبتمبر 1106 م، وجّه تميم ضدّ جربة التي شقّت عصا الطاعة في وجهه، جيشًا وأسطولاً عظيمَيْن بقيادة أبي الحسن الفهري، وهو حسب الاحتمال إمّا الشريف الذي سبقت الإشارة إليه أو أحد أقاربه. ولكنّ أهل جربة المطّلعين على الأمر، كانوا بالمرصاد، وقد كانوا أعدّوا العدّة وضمنوا الإمدادات، الأمر الذي أجبر العدوّ على العودة على أعقابه، دون أن يحرز أدنى نجاح.

وفاة تميم[60] :

توفّي تميم بالمهديّة ليلة السبت 15 رجب سنة 501 هـ / 29 فيفري 1108 م[61]. فكان عمره تسعًا وسبعين سنة، وولايته حوالي سبع وأربعين سنة[62]. «وخلّف من الأولاد الذكور ما جاوز عددهم المائة[63]. وقيل إنه كان له من الوَلَد ووَلَد الوَلَد نحو ثلاثمائة»[64]. وقد دُفِنَ في قصره ثم نُقِلَ في السنة الموالية بلا شكّ، إلى مقبرة بني زيري بالمنستير[65].

* * *

60) **أعمال**، 457؛ **الخريدة**، مخطوطة باريس رقم 3330 [طبعة تونس 1986، 142/1]؛ **الكامل**، 189/10؛ النويري، 160/2؛ **البيان**، 303/1؛ **الحلل السندسيّة**، مخطوطة دار الكتب الوطنيّة بتونس [طبعة بيروت، 450/1] نقلاً عن كتاب أخبار القيروان لابن شدّاد، حفيد تميم بن المعزّ؛ **البلدان**، 304/1؛ **نجوم**، 197/5.

61) حسب كتاب **أعمال الاعلام** الذي وردت فيه أدقّ إشارة حول تاريخ وفاة تميم، وقد أيّدها ما جاء في **الخريدة** حول هذا التاريخ.

62) من الجدير بالتذكير أنّ تميمًا قد وُلِدَ يوم الاثنين 13 رجب 422 هـ / 6 جويلية 1031 م، فتكون سنة وفاته: 422 + 79 = 501 هـ. أمّا مدة ولايته فقد قدّرت بما يلي: 46 سنة (**نجوم**)؛ 46 سنة وعدّة أشهر (**أعمال**)؛ 46 سنة و10 أشهر ونصفًا، من يوم وفاة أبيه (**البيان**)؛ 46 سنة و10 أشهر و20 يومًا (**الكامل**)؛ 47 سنة (هكذا) و10 أشهر و20 يومًا (النويري).

63) وفي **الخريدة**: 120.

64) **البيان**، 304/1.

65) حسب **الحلل** و**أعمال**: «دُفِنَ في رباط المنستير».

ولننظر في الختام إلى نتائج ولاية هذا الأمير الصنهاجي. فإنّ عاهل المهديّة لم يسترجع سوى صفاقس وسوسة. في حين تعتبر مدينة تونس التي يحكمها ابن خراسان، مستقلّة. أمّا القيروان فالغالب على الظنّ أنها كانت خاضعة لبني رياح.

كما أبرز نجاح الحملة العسكريّة التي قامت بها بيزة وجنوة قلّة مناعة المهديّة. وأفضى الصراع بين مختلف الفرق الهلاليّة إلى تفوّق بني رياح الموالين لبني زيري وطرد زغبة وعدي من إفريقيّة. أمّا الأثبج الموالون لبني حمّاد، فقد أصبحوا يسيطرون على المغرب الأوسط المعرّض لهجومات بني هلال منذ هزيمة سبيبة. وقد فتحت تلك المعركة عهد بني حمّاد في بجاية، مثلما كانت معركة حيدران قد أعلنت عن بداية عهد بني زيري في المهديّة. وبعد إبرام الصلح في سنة 470هـ / 1077 – 1078م توقّف أولئك وهؤلاء عن التقاتل. ولم يعد الضغط الزناتي قائمًا إلاّ غربيّ مملكة بني حمّاد.

فالجدير بالملاحظة حينئذ أنّ إفريقيّة قد أصبحت في مطلع القرن السّادس الهجري / الثاني عشر ميلادي خاضعة للغزاة الهلاليّين، وأنّ الدولة الصنهاجيّة قد أُصيبت في الصّميم.

الباب السادس

الاحتضار

ولايات ملوك بني زيري الثلاثة

يحيى وعلي والحسن

نظرة عامّة

لقد كانت مدّة ولاية يحيى (501–509هـ/ 1108–1116م) وعلي (509–515هـ/ 1116–1121م) القصيرة ، بمثابة فترة هدوء دامت زهاء الخمس عشرة سنة وسبقت الكارثة التي لم يستطع تفاديها الحسن آخر ملوك بني زيري (515–543هـ/ 1121 –1148م).

فقد دخل يحيى في طاعة الفاطميّين واهتمّ أوّلاً وقبل كلّ شيء بالغزو في البحر، واقتفى ابنه علي أثره ، ولكنّه تمكّن من إخضاع جربة وتونس وجبل وسلات ومغراوة بالجريد.

ورغم الخطر الهلالي المحدق بالقلعة ، أجبر العزيز بن حماد صاحب بجاية جربة وتونس على الدخول في طاعته. وكانت أهمّ قضية في عهد علي هي قضيّة قابس التي استنجد صاحبها بملك صقلية رجار الثاني ضدّ علي ، بعدما حاول منافسة أسطول المهديّة. وبفضل التحالف مع الأعراب ، على وجه الخصوص ، مقابل أموال طائلة ، ردّ الأمير الزيري الهجوم الذي شنّه رافع على المهديّة ، وأخرجه من القيروان التي استولى عليها ، ولكنه لم يستطع أن يفتكّ منه قابس.

ولقد توتّرت العلاقات بين بني زيري وأهل صقلية إلى درجة أن الموت قد فاجأ عليًّا وهو ينهي استعداداته لقتال النرمان.

وأخيرًا فان مرور مؤسّس الحركة الموحّدية ابن تومرت من إفريقيّة ، عند عودته من المشرق ، ينبئ بظهور الدولة الجديدة التي ستسيطر على بلاد المغرب بأسرها.

وقد فشلت في آخر الأمر المؤامرات التي دبّرها الضبّاط للتحكّم في الأمير الشابّ الحسن ، إلاّ أنها كانت تشير إلى ضعف الدولة الصنهاجيّة التي كانت تعيش ساعات مجدها الأخيرة ، عندما أحبطت محاولة نزول النرمان بالمهديّة سنة 517هـ/ 1123م ، وإثر ذلك تعاقبت الخيبات . ففي سنة 522هـ/ 1128م سقطت مدينة تونس بين أيدي بني حمّاد الذين هجموا على المهديّة ذاتها في سنة 529هـ/ 1135م . ولكنّ هذا الخطر لا قيمة له بالمقارنة مع تفاقم هجومات النّرمان الذين استولوا على جربة سنة 530هـ/ 1135م وهجموا على المهديّة ، ثم أبرموا معاهدة الصلح التي كانت بمثابة الاستسلام بالنسبة إلى بني زيري (536هـ/ 1140– 1141م) . واعتبارًا من سنة 537هـ/ 1141م توالت مناوشات العدوّ في إفريقيّة ، من جيجل إلى طرابلس التي تمّ الاستيلاء عليها سنة 541هـ/ 1146م . ولئن تمكّن جيش ابن زيري من افتكاك قابس سنة 542هـ/ 1147م من المتمرّد الذي كان قد دخل في طاعة رجار الثاني ، إلاّ أن المهديّة ستتلقى عمّا قريب الضربة القاضية .

ففي سنة 543هـ/ 1148م ، استولى جرجي الانطاكي على المهديّة التي تخلّى عنها آخر ملوك بني زيري بافريقيّة . كما استولى على سوسة وصفاقس وربّما قابس . وأقام النّرمان الصقليّون في أهمّ المدن الساحليّة ، من طرابلس إلى الوطن القبلي (جزيرة شريك) ، شبه نظام حماية متسامح بما فيه الكفاية ، تحمّله السكان بصبر مدّةً تناهز الاثني عشرة سنة .

وبعدما عدل الحسن عن الالتجاء إلى الخليفة الفاطمي ، فكّر في الاحتماء بالخليفة الموحّدي عبد المؤمن بن علي . ولكن في نهاية رحلة يُرثى لها (مالقة – عنّابة – قسنطينة – بجاية) ، وضعه ابن حمّاد في الإقامة الجبريّة بمدينة الجزائر (544هـ/ 1149م) ، ومكث هناك إلى أن قدم الموحّدون (547هـ/ 1151م) .

ذلك أنّ عبد المؤمن بن علي قد تمكّن في تلك السنة من الاستيلاء على معظم مناطق المغرب الأوسط والقضاء على مملكة بني حمّاد والقبض على آخر أمرائها ، يحيى بن حمّاد . وبعدما تغلّب على آخر انتفاضة صنهاجيّة وتمكّن من القضاء على تحالف هلالي مخطر قرب سطيف (548هـ/ 1153م) ، رجع عبد المؤمن إلى المغرب الأقصى تاركًا المغرب الأوسط لابنه عبد الله .

والجدير بالملاحظة أن رجار الثاني صاحب صقلية الذي شعر بالخطر الموحّدي المحدق به ، هو الذي شجّع تلك الانتفاضة العربيّة . وقد استولى على عنّابة (548هـ/ 1153م) التي لم يحتلّها عبد المؤمن . وبعد ذلك بقليل ، استرجع جزيرة قرقنة . وإثر وفاته (أواخر 548هـ) خلفه ابنه غليوم .

وقد بدأت تتوضّح مطامع الموحّدين في المغرب الأدنى ، إذ حاول ابن عبد المؤمن عبثًا الاستيلاء على مدينة تونس (552هـ/ 1157م).

إلاّ أن تركيز السّلطة الموحّدية في المغرب الأقصى والأندلس والصعوبات التي أصبح النّرمان يتعرّضون لها في بلادهم ، وتصلّب موقفهم تجاه أهل إفريقيّة ، كلّ ذلك قد دفع هؤلاء إلى الثورة. فقد ثارت على التوالي صفاقس (551هـ/ 1156م) وجربة وجزيرة قرقنة وزويلة التي باءت محاولتها بالفشل (552هـ/ 1157م) وطرابلس (553هـ/ 1158م). وعندما دخل جيش عبد المؤمن العظيم إلى إفريقيّة سنة 554هـ/ 1159م ، لم تبق من الممتلكات النّرمانيّة في إفريقيّة سوى المهدية وزويلة وسوسة.

وإثر استسلام مدينة تونس ، بدأ حصار المهديّة التي تمّ الاستيلاء عليها بعد ذلك بستّة أشهر ، وذلك في سنة 555هـ [سنة الأخماس] / 1160م. وفي الأثناء استتبّ الهدوء في كافّة ربوع المغرب الأدنى ، بفضل عبد الله بن عبد المؤمن ، على وجه الخصوص.

ولكنّ فتح المغرب الأدنى قد كان متبوعًا ، مثل فتح المغرب الأوسط ، بانتفاضة هلاليّة كبرى ، تمّ إخمادها بحدّ السيف في جبل القرن. وابتداء من ذلك التاريخ أصبحت بلاد المغرب الشرقيّة تابعة بأسرها للدّولة الموحّديّة.

الفصل الأوّل
ولاية يحيى بن تميم
(501–509 هـ/ 1108–1116م)

ارتقاء يحيى إلى العرش[1] :

لقد وُلِد أبو الطاهر[2] بالمهديّة يوم الجمعة 26 ذو الحجّة سنة 457 هـ/ 28 نوفمبر 1065م[3] ، وكان عمره عندما تولّى الحكم ثلاثًا وأربعين سنة ونيفًا[4] ، وهو ابن جارية[5] .

«وكانت ولاية الأمير بالمهديّة خلافةً عن أبيه تميم يوم الجمعة لأربع بقين من ذي الحجّة سنة سبع وتسعين وأربعمائة (26 ذو الحجّة 497 هـ/ 19 سبتمبر 1105م) ، والطالع الدرجة السابعة من الجدي»[6]. وقد وقع الاختيار عمدًا على تاريخ عيد ميلاد الأمير لأسباب فلكيّة لا نستغربها . فهل كان الأمر يتعلّق بتاريخ تعيين يحيى بصفة وليّ للعهد؟ ذلك أن سياق الأحداث يدعونا إلى أن نفترض أن الملك العجوز تميم ، بعد عهده الطويل الذي انتهى بالخيبات ، قد عهد إلى خليفته ، قبل بضع سنوات من وفاته ، بكامل أو بعض سلطاته . أَلَم يَكُنْ أبوه المعزّ بن باديس قد رأى من الحكمة أن يتخلّى عن الحكم لفائدته في ظروف مماثلة ؟

1) **البيان** ، 304/1 ؛ ابن خلّكان ، 239/2 ؛ **أعمال** ، 458 ؛ النويري ، 161/2 ؛ **الكامل** ، 189/10 ؛ **الحلّة** ، 312/1 ؛ **شذرات** ، 26/6 ؛ **العبر** ، 160/6 ؛ **المؤنس** ، 88 .

2) حسب جميع المصادر ، ما عدا **أعمال** و**الحلّة** ، إذ جاء في هذين المصدرين : أبو علي . ولا نعلم أيّ شيء عن الطّاهر ، الذي هو حسب الاحتمال ابن يحيى الأكبر ، قد توفّي قبل ارتقاء علي إلى العرش . فهل تخلّى يحيى بعد وفاة ابنه الأكبر عن كنية أبي الطاهر واتخذ كنية أبي علي ، أم أنّ هذه الكنية الأخيرة قد أطلقت عليه فيما بعد؟

3) حسب النويري : نظريًا يوم الاثنين . وفي **الحلّة** : لأربع بقين من ذي القعدة ، والصحيح هو ذو الحجة . ذلك أن الفترة الممتدّة من 26 ذو الحجة 457 هـ إلى 15 رجب 501 هـ تطابق سنّ الأمير عندما ارتقى إلى العرش .

4) **الحلّة**: 43 سنة و7 أشهر إلاّ بضعة أيّام. ابن خلّكان : 43 سنة و6 أشهر و20 يومًا .

5) ابن خلّكان ، 240/2 – 241 نقلاً عن ابن شدّاد .

6) ابن خلّكان ، 239/2 ، نظريًا يوم الاثنين.

وبعد إتمام مراسم دفن والده، «ركب يحيى على العادة بأكابر الدولة، وغيّر لباس الحزن، وفرّق في النّاس أموالاً ووعدهم بالجميل، ففرح الناس به ومدحه الشعراء»[7].

رحيل جرجي الانطاكي

«فلمّا مات تميم خاف هذا النصراني من يحيى فخاطب رُجَار (الثاني) صاحب صقلية وأعلمه أنه يحبّ الانتقال إليه، فوجّه رجار إليه قطعة أظهرت أنها وصلت في رسالة. فخرج هذا النصراني وأقاربه في يوم جمعة عند اجتماع الناس للصّلاة، وتزيّوا بزيّ البحريّين، فطلعوا إليها وتمّ لهم أمرهم، فلم يفطن الناس لهم إلاّ وقد أقلعوا. ولما وصلوا إلى صقلية حكّمهم عبد الرحمان النصراني (كريستودولوس) صاحب أشغالها في الجبايات، فنصحوا وأظهروا، واحتاج رجار أن يوجّه رسولاً إلى مصر، فأشار عبد الرحمان بجرجي هذا، فأرسله فنصح وأقبل بذخائر ملوكيّة أحْظَته عند رجار»[8]. وقد عُيّن جرجي الأنطاكي في آخر الأمر في خطّة «أمير الأمراء»، أي الوزير الأكبر. ذلك أن العاهل النرماني لا يمكن أن يجد عونًا أحسن من وزير تميم السابق لتطبيق سياسته الإفريقيّة.

وصف يحيى[9]:

لم يخيّب يحيى ما علّق عليه الناس من آمال. وليس في سيرته ما ينفي المدائح التي خصّه بها الشعراء والمؤرّخون الرسميّون. فقد كانت أهمّ سمة من سماته هي الفطنة. وكان عادلاً، كريمًا، رحيمًا بالضعفاء، شفيقًا على الفقراء يطعمهم في الشدائد ويرفق بهم، وكان حريصًا على سعادة رعيّته، يباشر الأمور بنفسه، عارفًا بدخله وخرجه. «وقد ساس العرب في بلاده، فهابوه وانكفّت أطماعهم».

---

7) ابن خلّكان، 239/2؛ **المؤنس**، 88؛ النويري، 161/2؛ **الحلّة**، 312/1.

8) **رحلة التجاني**، 333.

9) **أعمال**، 450 نقلاً عن أبي الصلت؛ **البيان**، 304/1؛ ابن خلّكان، 240/2 – 241؛ النويري، 163/2؛ **الكامل**، 216/10؛ **الحلّة**، 312/1؛ **شذرات**، 26/4؛ **المؤنس**، 88. أنظر أيضًا **ديوان** ابن حمديس.

وكان معجبًا بنفسه ، طويل القامة ، بحاجبه خال ، حسن الوجه ، أشهل العينين ، جهوري الصّوت. وكان كثير المطالعة لكتب السِّيَر والأخبار ، عالمًا بالنجوم وأحكامها وصناعة الطبّ والكيمياء. كما كان أديبًا ، شاعرًا ، ذا حظّ وافر من اللّغة العربيّة وقواعدها. وقد نقل له ابن الأبار بعض أبيات من الشعر ، نعتها بالضعف ، مظهرًا بذلك صرامةً في الحكم ربّما كانت مفرطة[10]. في حين أكّد أبو الصلت أنه كان يتميّز بمزاج شعري وذكاء وقّاد ، ولكنّ انشغاله بأمور الدّولة لم يسمح له بنظم الشعر ، إلاّ في أوقات فراغه[11].

وكان يرعى العلوم والآداب والفنون. وقد جلبت له سمعته في هذا الميدان جموعًا غفيرة من الشّعراء الذين لم يقصّروا في مدحه ، ومن العلماء أمثال أولئك الذين زعموا أنهم من العارفين بصناعة الكيمياء ، فأبيح لهم الدخول إلى «دار العمل»[11م] ، وحاولوا اغتيال ذلك الأمير الذي نُعِتَ في كتب الملاحم «بالملك المغدور».

«قال ابن القطّان : كان لتميم بن المعزّ من الوَلَد (أي الأبناء والأحفاد) ثلاث مائة. فنفى يحيى أكبرهم إلى المشرق والمغرب والأندلس»[12].

وفي سنة 509هـ/ 27 ماي 1115م ، «عقد الأمير يحيى نكاح العزيز بالله بن المنصور صاحب القلعة وبجاية ، على بنته بَدْر الدُّجَى ، وجهّزها إليه»[13].

علاقات يحيى مع الفاطميّين :

حسب ابن خلدون ، دخل يحيى في طاعة الفاطميّين وتلقّى من الخليفة الفاطمي رسالة تهنئة وهديّة ثمينة[14]. وقد أكّد هذا الخبر غير المؤرّخ ابن عذاري الذي أشار إلى وصول سِوَار رسول صاحب مصر في سنة 505هـ/ 10 جوان 1111 — 27 جوان 1112م ، «بهديّة إلى أمير إفريقيّة يحيى بن تميم ، فتلقّاه بغاية الإكرام والاهتمام ، وأقام عنده حتى صرفه ، وأصحبه من الذخائر والألطاف ما لا يحيط به الوصف»[15].

---

10) **الحلّة** ، 312/1.
11) **أعمال** ، 458.
11م) أي المخبر.
12) **البيان** ، 304/1.
13) نفس المصدر.
14) **العبر** ، 160/6.
15) **البيان** ، 305/1.

يحيى والبحر الأبيض المتوسّط :

استهلّ يحيى ولايته بتوجيه عسكر كثيف إلى قلعة قليبية[16]، التي أعلن قائدها ابن محفوظ استقلاله. «فنزل يحيى على تلك القلعة التي هي أحصن قلاع إفريقية وحصرها حصارًا شديدًا، ولم يبرح حتى فتحها (سنة 502هـ / 11 أوت 1108 – 30 جويلية 1109م). وكان أبو تميم قد رام فتحها فلم يقدر على ذلك»[16م].

وقد أولى يحيى بن تميم أسطوله عناية فائقة. فقد زاد في عدد السّفن وكثّر من عمليّات الغزو في البحر المتمثلة لا في عمليّات واسعة النطاق، بل في غارات خاطفة، ومناوشة السفن التجارية المسيحيّة بدون انقطاع، بواسطة مجموعة صغيرة من المراكب، لا تترك المجال لردود فعل العدوّ إلاّ في حدود ضيّقة للغاية. ذلك هو، حسبما يبدو، برنامج يحيى، الذي طبّقه خلفاؤه من بعده. وبفضل تلك الخطّة التي تتضمّن أقلّ ما يمكن من المخاطر وأكثر ما يمكن من المنافع، سمحت الغزوات البحريّة الإفريقيّة، لما بلغت أوج نشاطها، بتضليل العدوّ ونشر الرعب في كامل الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، والهجوم على الجمهوريات الايطاليّة المطلّة على البحر الترّيني وسواحل البروفنس بل ربّما اللنغدوك[17]. والجدير بالملاحظة أنّ جميع الشهادات متّفقة على ذلك[18]. فقد قام يحيى، حسبما رواه ابن الخطيب، بغزوات بحرية ضدّ الروم الذين انتهى بهم الأمر إلى طلب الصلح[19]. وأخبرنا ابن خلدون من جانبه أنّ يحيى قد أجبر الفرنج والجنويّين والسردانيّين على دفع الجزية[20]، إلاّ أنه لا ينبغي فهم العبارة الأخيرة بمعناها الضيّق، كما لاحظ ذلك أماري.

وفي الجملة فقد ظلّت العلاقات بين بني زيري والنرمان طيّبة. وطوال عهد يحيى، احترمت إفريقيّة وصقليّة الصّلح المبرم بين رجار الأوّل وتميم، ولم يعكّر صفوه فرار جرجي الأنطاكي وذويه. وقد كثّف البَلَدان مبادلاتهما التجاريّة، وسنرى بعد قليل أنّ بعض

---

16) في **البيان**، 304/1 : «إقليبية».

16م) **الكامل**، 190/10.

17) دي ماس لاتري، **المقدمة**، 34.

18) **ستوريا** (Storia)، 373/3 والإحالة 4.

19) **أعمال**، 458 والاحالة 9، ولعلّها إشارة إلى الصلح بين بني زيري وبيزنطة المبرم سنة 509هـ/ 1115–1116م

20) **العبر**.

المصادر قد أثبتت وجود تجّار صقليّين بالمهديّة سنة 510–511هـ / 1117م[21]. ولا شكّ أن العلاقات بين بني حمّاد وصقلية كانت هي أيضًا على أحسن ما يرام. فحسبما رواه بيار دياكر، قبض بعض الغزاة الافريقيّين على عدد من الرّهبان البندكتيّين المتوجّهين من سردانية إلى اليابسة. فوجّه الكونت رجار سفراء إلى صاحب القلعة الذي أطلق سراح الأسرى في الحين[22]. فلا بدّ أن يكون بنو حمّاد والنّرمان مرتبطين مع بعضهم بمعاهدات.

وفي سنة 503هـ / 31 جويلية 1109–19 جويلية 1110م، «جهّز يحيى بن تميم خمسة عشر شينيًّا[22م] إلى بلاد الروم، فلقيها أسطول الروم وهو كبير، فقاتلوهم وأخذوا ستّ قطع من شواني المسلمين»[23]. وأضاف ابن الأثير قائلاً: «ولم ينهزم بعد ذلك ليحيى جيش في البرّ والبحر».

وفي سنة 507هـ / 1113م، «وصل أسطول المهديّة بسبي كثير من بلاد الروم في ربيع الآخر، فسُرَّ بذلك يحيى بن تميم والمسلمون»[24]. كما أشارت بعض المصادر المسيحيّة إلى الغارات التي قام بها بنو زيري ضدّ سالرنو ونابولي[25].

ويشتمل **ديوان** ابن حمديس على قصيدة في مدح يحيى، نظمها سنة 509هـ / 1115–1116م للاحتفاء بقدوم سفير امبراطور القسطنطينيّة ألكسيس كومين إلى المهديّة[26]. وقد سلّم المبعوث البيزنطي إلى يحيى هدايا الأمبراطور مصحوبة برسالة لطلب الكفّ عن الهجوم على البلاد البيزنطيّة. وقد وصف ابن حمديس استقبال السفير وأشار إلى رسالة الأمبراطور، ثم أكّد أنّ السفير رجع بعدما أبرم الصّلح[27].

---

21) **ستوريا**، 375/3–376.

22) نفس المرجع. أنظر أيضًا: شالندون، 369/1؛ دي جينيفال في، **هسبيريس** (Hespéris)، الثلاثة أشهر الثانية 1932، 1–10.

22م) وفي البيان، 305/1: «خمسة عشر غرابًا».

23) **الكامل**، 190/10.

24) **البيان**، 305/1.

25) **ستوريا**، 373/3–374 والأحالة 4؛ شالندون، 370/1.

26) **ديوان** ابن حمديس، ص 405، 407.

27) نفس المرجع، ص 405، 406.

ثورة صفاقس[28] :

«لمّا افتتح تميم صفاقس ، كانت ولاتها تتردّد من قِبَله إلى أن توفّي سنة إحدى وخمسمائة ، وولّى ابنه يحيى ، فولّى عليها ابنه أبا الفتوح[29] . فقام عليه أهلها ونهبوا قصره وأرادوا قتله ، فغضب يحيى لذلك ، وأخذ في تفريق كلمة أهل صفاقس وتشتيت شملهم . ولم يزل يوالي عليهم البؤس ، ويملأ منهم الحبوس ، إلى أن شفى نفسه منهم ، ثم عفا عنهم بعد ذلك .

وفي الوقعة يقول أبو الصلت يذكرها ويشكر ليحيى عفوه عنهم من قصيدة طويلة :

[طويل]

ورُبَّ أنــاس أجّجوا نــار فتنــة ... يجنّبهـا الأتقى ويُصْلَى بها الأشقى
ولـو شاء روّى السيف منهم فطـالما ... نضاه فسقّاه من الدم ما استسقى
ولكـن دعـاه الحلم والفضل والحِجى ... إلى أن يكون الأحلم الأكرم الأتقى
سجيّــة مجبول السجـايـا على الهوى ... إذا غضب استأنى وإن ملك استبقى

وأوّل هذه القصيدة :

قضى الله أن يفنى عداك وأن تبقى ... وتخلد حتى تملك الغرب والشّرقا»[30] .

ولم تذكر لنا المصادر التاريخ المضبوط لهذه المؤامرة المدبّرة ضدّ أبي الفتوح . وليس من المستبعد أن يكون هو نفسه الذي أشرف – بوصفه والي المدينة – على تنفيذ الإجراءات المتّخذة ضدّ المذنبين ، وأن يكون تعويضه بأخيه عليّ قد تسبّب في تغيير موقف الأمير تجاه صفاقس . ذلك أنّ الشاعر ابن حمديس قد مجّد عليًّا الذي منح الأمان لأهل صفاقس وسمح لهم بالعودة إلى ديارهم[31] .

---

28) **رحلة التجاني** ، 73 – 74 ، ربما نقلاً عن أبي الصلت ؛ **الكامل** ، 202/10 ؛ النويري ، 162/2 ؛ **العبر** ، 160/6 .

29) حسب النويري في سنة 504هـ/.1110 – 1111م . أما المصادر الأخرى فلم تذكر أي تاريخ . ويفهم منها أن هذا التعيين قد تم إثر تولية الأمير .

30) التجاني ، 73 – 74 .

31) **ديوان** ابن حمديس ، ص 445 ، 447 .

ومهما يكن من أمر فان يحيى قد «ولّى (في سنة 508هـ / 1114 – 1115م) ابنه عليًّا مدينة صفاقس[32] وولّى أخاه عيسى مدينة سوسة»[32م].

محاولة اغتيال يحيى ونهاية عهده :

لقد تعرّض يحيى قُبَيْل وفاته لمحاولة اغتيال ، وقد وصلتنا عدّة روايات عنها مقتبسة من مصدَرَيْن مختلفين اختلافًا كبيرًا . ومما لا شكّ فيه أن رواية ابن شدّاد التي نقل ابن خلّكان أكبر قسم منها ، هي التي اعتمدها ابن الأثير والنويري ، رغم وجود فوارق كبيرة بينهما . وبعد تحليل رواية ابن شدّاد والإشارة إلى الأسباب التي تدعونا إلى تصديقها ، سنتطرّق إلى رواية ابن عذاري التي لم يذكر مصدرها .

رواية ابن شدّاد[33] :

«في سنة سبع وخمسمائة (18 جوان 1113 – 6 جوان 1114) ، أتى إلى المهديّة قوم غرباء[34] قصدوا يحيى بمطالعة[35] زعموا فيها أنّهم من أهل الصناعة الكبرى[36] المواصلين إلى نهايتها . فأذن لهم في الدخول عليه ، فلما مثلوا بين يديه طالبهم بأن يظهروا له من الصناعة ما يقف عليه . فقالوا : «نحن نزيل من القصدير التدخين والصداء حتى يرجع لا فرق بينه وبين الفضّة . ولمولانا من السروج والبنود والقضب والأواني ، قناطير من الفضة ، يُجْعَل عوضها منها ما تريد ، وتُسْتَعْمَل جميع ذلك في مهمّاتك» .

وسألوه أن يكون ذلك في خلوة . فأجابهم وأحضرهم للعمل . ولم يكن عند الأمير يحيى

---

32) التجاني ، 74 . هذا التاريخ ذكره ابن عذاري (**البيان** ، 305/1) وابن حمديس ، **الديوان** ، ص 344 – 346 .

32م) **البيان** ، 304/1 ، لا غير .

33) ابن خلّكان ، 240/2 نقلاً عن رواية عبد العزيز (ابن شداد) وقد نقل هذه الرواية مقديش ، [الطبعة الجديدة ، بيروت 1988 ، 383/1 – 384] .

34) ثلاثة رجال .

35) [عريضة أو مذكرة] .

36) [أي صناعة الكيمياء التي تحوّل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة] .

سوى الشريف أبي الحسن علي (ابن أحمد الفهري الصقلّي وزيره)[37] والقائد إبراهيم قائد الأعنّة[38]. وكانوا هم ثلاثة، وكانت بينهم أمارة، فأمكنتهم الفرصة، فقال أحدهم: «دارت البوتقة». فتواثبوا وقصد كلّ واحد منهم واحدًا بسكاكينهم. فأما الّذي قصد الأمير يحيى فقال: «أنا سرّاج». وكان يحيى جالِسًا على مصطبّة، فضربه فجاءت على أمّ رأسه فقطعت طاقات من العمامة، فلم تؤثّر في رأسه واسترخت يده بالسكّين على صدره، فخدشته، وضربه يحيى برجله، فألقاه على ظهره، فسمع الخدم، ففتحوا باب القصر من عندهم، فدخل يحيى وأغلق الباب دونهم، وكان زيّهم زيّ أهل الأندلس، فقُتِلوا وقُتِل في البلد جماعة ممّن كان على زيّهم. وخرج الأمير يحيى في الحال، وركب في البلد، وسكّن الفتنة»[39].

وهنا ينتهي نقل ابن خلّكان لرواية ابن شدّاد حول محاولة اغتيال الأمير يحيى. وباستثناء بعض الجزئيّات، فإن ما نقله ابن الأثير والنويري يعتبر تلخيصًا أمينًا لتلك الرواية، إلى حدّ أنّنا نعتقد أنّهما قد اعتمدا نفس المصدر[40].

إلاّ أنّهما قد حدّدا تاريخ هذه الحادثة بسنة 502هـ/ 11 أوت 1108 – 30 جويلية 1109م، وقدّما إلينا معلومات إضافيّة مفيدة جدًّا، هذا نصّها:

«فقد قيل للأمير يحيى إنّ هؤلاء [الثلاثة] رآهم بعض الناس عند المقدّم[41] بن خليفة. واتّفق أن الأمير أبا الفتوح(كذا) أخا(كذا) يحيى وصل تلك الساعة إلى القصر في أصحابه، وقد لبسوا السلاح. فمُنِعَ من الدخول، فثبت عند الأمير يحيى أنّ ذلك بوضع منهما. فأحضر المقدّم بن خليفة، وأمر أولاد أخيه فقتلوه قصاصًا، لأنّه قتل أباهم. وأخرج الأمير أبا الفتوح وزوجته بلاّرة، بنت القاسم بن تميم، وهي ابنة عمّه ووكل بهما في قصر زياد بين المهديّة وصفاقس، فبقي هناك إلى أن مات يحيى»[42].

---

37) زيادة من ابن حمديس، **الديوان**.

38) أي قائد الخيالة.

39) ابن خلّكان، **الوفيات**، 240/2.

40) **الكامل**، 199/10 – 200 ونجد فيه هذه العبارة: «نعمل النقرات» (أي نصنع المعدن النفيس، الذهب أو الفضة). كما نجد العبارة التالية: «الكيماويّة».

31) المقدّم: لعلّه لقب عسكري (قائد أو ضابط).

42) **الكامل**، 199/10.

ونلاحظ أوّلاً أنّ أبا الفتوح لا يمكن أن يكون ابن تميم، اللّهم إلاّ إذا كان قد تزوّج حفيدة هذا الأمير، أي ابنة أخيه، وهذا غير معقول. وقد كان ابن خلّكان على حقّ عندما سمّاه أبا الفتوح بن يحيى[43]. فالأمر يتعلّق حينئذ بابن يحيى الّذي كان تزوّج ابنة عمّه بلاّرة[44].

ومن ناحية أخرى، لو كان أبو الفتوح (بن يحيى) قد سُجن في قصر زياد بعد سنة 502 هـ/ 1108–1109م، فكيف يمكن أن يكون قد عُيّن واليًا على صفاقس في سنة 504 هـ/ 1110–1111م، كما أكّد ذلك النويري؟

ومحمل القول إنّ الخلط بين ابن وأخي يحيى لا يقتضي فحسب إصلاح ما أكّده ابن الأثير، بل إنّه يثير الشكّ حول تاريخ 502 هـ. فينبغي حينئذ التمسّك برواية ابن شدّاد التي يتعيّن علينا الآن مقابلتها برواية ابن عذاري.

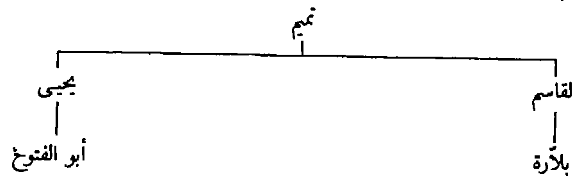
رواية ابن عذاري[45] :

«في سنة 509 هـ (27 ماي 1115– 15 ماي 1116م)، وصل إلى المهديّة رجلان أو ثلاثة[46]، ذكروا أنهم من طلبة المصامدة عارفين بصناعة الكيمياء، فأبيح لهما الدخول إلى

---

43) ابن خلّكان، 241/2.

44) فتكون العلاقة بينهم كما يلي :



ولعلّ خطأ ابن الأثير (أو الناسخ) ناتج عن قراءة النويري (162/2) : «أبو الفتوح إبراهيم أخو يحيى». فلو كان اسم أبي الفتوح إبراهيم، لكان اسمه الكامل : أبو الفتوح إبراهيم بن يحيى بن تميم. ولعلّ هذا الخطأ راجع إلى الخلط الواقع في الكتابة بين إبراهيم وابن تميم. وقد تمّ فيما بعد تعويض عبارة «ابن يحيى» بعبارة «أخي يحيى»، فلا يمكن أن يكون أبو الفتوح ابن تميم بن يحيى. ومن ناحية أخرى ينبغي أن يكون أبو الفتوح ابن يحيى ليكون زوج بلاّرة ابنة القاسم بن تميم.

45) **البيان**، 305/1 – 306.

46) إن استعمال المثنّى في بقيّة الرواية يدلّ على أنّ عدد العارفين بالكيمياء اثنان لا ثلاثة.

دار العمل. فلما أحكما ما أرادا، استأذنا على السلطان يحيى بن تميم، فقال لهما: «أَوْقِفَاني على الطرح وحقيقة السرّ». فقالا: «على أن لا يحضر إلاّ أنت ووزيرك». فحضر هو ووزيره وعبده أبو حنّوش[47]، فصنعا البوط[48] وألقيا الرصاص[49] وأحْمَيا عليه، وجعلا كأنهما يخرجان الأكسير. فأخرجا خناجيرهما وقتلا الوزير وأبا حنّوش، وأكثرا في السلطان الجراحات، فبقي يعاني جراحه حتى مات. وقالا له حين جرحاه: «أيها الكلب! نحن أخَواك فلان وفلان! نفيتَنا وبقيتَ في المُلْك». وثارت الصيحة إذ ذاك، فدخل العبيد وقُتِل الرجلان للحين، ومات يحيى يوم عيد الأضحى (10 ذو الحجّة) من سنة 509 (25 افريل 1116). وكان الأمير يحيى مدّة مرضه إثر هذه النوبة والغدر،/نفى ابنه (أبا) الفتوح[50] إلى قصر زياد وأظهر إتّهامه في القضيّة. فأقام هناك إلى حين وفاة أبيه وولاية عليّ أخيه. ثم نفاه عليّ أيضًا إلى المشرق فتوفّي هناك»[51].

وفي موضع آخر[51م] قال ابن عذاري إنّ يحيى «توفّي ثاني عيد النحر من سنة 509هـ فجأة مقتولاً في قصره بالمهديّة».

إلاّ أنّ هذا التناقض لا قيمة له بالمقارنة مع الخبر الذي يصعب تصديقه، ومفاده أنّ الأخوَيْن المذكورين قد رجعا من المهجر ليقتلا أخيهما يحيى ويعرّضا حياتهما للخطر، في حين كان بامكانهما تكليف بعض الأعوان بالقيام بتلك المهمّة. والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ ابن عذاري لم يذكر إسم الوزير ولم يُشِرْ إلى القائد ابراهيم. ويمكن أن نفترض أن «العبد» الغريبُ المسمّى أبو حنّوش انما هو القائد ابراهيم[52]، رغم أنّ ابن الخطيب قد أشار – كما سنرى – إلى وجود أربعة أشخاص مع الأمير. وبناء على ذلك فانّنا نشكّ في صحّة هذه الرواية التي تكتسي صبغة شبه خياليّة.

ومن ناحية أخرى، فإن الخلط الممكن في الكتابة العربيّة بين «سبعة» و«تسعة»، لا يسمح لنا من سوء الحظّ بتحديد تاريخ محاولة الاغتيال بسنة 507هـ، عوض سنة 509هـ.

---

47) [في البيان: أبو خنوس].

48) [أي البوتقة].

49) يمكن أن تكون كلمة «الرصاص» قد استُعمِلَت بمعنى «القصدير» كما في رواية ابن شدّاد.

50) ينبغي تصحيح هذا الاسم كما يلي: «نفى ابنه (أبا) الفتوح»، أو «نفى (أبا) الفتوح».

51) البيان، 305/1 – 306.

51م) نفس المصدر، 304/1.

52) ربّما يكون اسمه: أبو حنّوش إبراهيم.

إلاّ أن **ديوان** ابن حمديس يبرّر تفضيل رواية ابن شدّاد. إذ نجد فيه قصيدة مدح تشير إلى هذه المؤامرة[53]. فقد ذكر أنّ الأمير نجا بفضل الله تعالى من المؤامرة التي دبّرها ثلاثة أشخاص، وأنّ وزيره الشريف علي بن أحمد الفهري قد توفّي متأثّرًا بجراحه. وقد قُتِلَ أولئك الأشخاص وصُلِبوا في زويلة. كما نظم ابن حمديس قصيدة أخرى[54] في رثاء الشريف الفهري ابن أحمد الصقلي، ولكنه لم يُشِرِ إلى اغتيال الأمير، لا في هذه القصيدة ولا في القصيدة التي أنشدها أمام عليّ لتعزيته وتهنئته. فلو توفّي الأمير مقتولاً، لما تأخّر الشاعر من اغتنام تلك الفرصة، وطرق مثل هذا الموضوع الجذّاب.

الرواية المنسوبة إلى أبي الصلت[55]:

بقي علينا أن نحلّل رواية أخرى حول محاولة الاغتيال، حرّرها ابن الخطيب وأوردها بين استشهادين اثنين من كتاب أبي الصلت، المؤرّخ الرسمي لبني زيري، وقد اقتبسها منه حسب الاحتمال. وباسستثناء بعض الجزئيّات، فهي تؤكّد رواية ابن شدّاد، ولكن لا يمكن تفضيلها عليها.

وحسب هذه الرواية، فقد قدم ثلاثة مغاربة زعموا أنهم من العارفين بالكيمياء وطلبوا المثول بين يدي يحيى، فأستقبلهم بمحضر أربعة أشخاص من خاصّته، من بينهم قائد جيشه، وأثناء الاجتماع أخرجوا خناجرهم من أحزمتهم وقتلوا قائد الجيش ونجا الأمير، وقد أثخنوه بالجراح وانفلت منهم. وقُتِل المغاربة وصُلِبوا. وتوفّي يحيى فجأة في قصره ثاني عيد النحر (11 ذو الحجّة) من سنة 509هـ (26 أفريل 1116م).

ومن المحتمل أن يكون من بين الحاضرين الأربعة العبد أبو حنّوش، وأن يكون الوزير هو الذي قُتِلَ لا قائد الجيش، لا سيّما وأنّ هذا القائد هو — حسبما يبدو — ابراهيم بن عبد الله الذي سيكلّفه عليّ فيما بعد بالقيام بحملة عسكرية ضدّ جربة، كما سيأتي ذكره.

53) ابن حمديس، **الديوان**، رقم 133، ص 187 — 189.

54) نفس المرجع، رقم 96، ص 137 — 140.

55) **أعمال**، 458.

وفاة يحيى[56] :

إنّ جميع المصادر، بما في ذلك **البيان**، متّفقة على أنّ يحيى قد توفّي «فجأةً». وكما هو الشأن بالنسبة إلى محاولة الاغتيال، فإنّ أحسن رواية حول وفاة الأمير هي رواية ابن خلّكان المقتبسة لا محالة من ابن شدّاد. وقد أوردها مُخْتَصَرة شيئًا ما كلٌّ من ابن الأثير والنويري.

فقد توفّي يحيى يوم الأربعاء الموافق لعيد الأضحى (10 ذو الحجّة) من سنة 509هـ/ 25 أفريل 1116م[57]. «وكان منجّم قد قال له في تيسير[58] مولده: إن عليه قطعًا في هذا اليوم، فلا تركب، فلم يركب. وخرج أولاده وأهل دولته إلى المصلّى. فلما انقضت الصلاة حضروا عنده للسلام عليه وتهنئته، وقرأ القرّاء وأنشد الشعراء. (ودخل الحاضرون إلى الإيوان)[59] وانصرفوا إلى الطعام. فقام يحيى من باب آخر ليحضر معهم على الطعام. (ولمّا وصل إلى الباب، أشار إلى إحدى جواريه واتكأ عليها)[60]. فلم يمش غير ثلاث خطى حتى وقع ميّتًا. وكان عمره سنتين وخمسين وخمسة عشر يومًا[61]، وكانت ولايته ثماني سنين وخمسة أشهر وعشرين يومًا[62]. وخلّف ثلاثين ولدًا ذكورًا»[63].

---

56) ابن خلّكان، 241/2؛ **البيان**، 304/1؛ **الكامل**، 216/10؛ النويري، 162/2 – 163؛ **العبر**، 160/6؛ **المؤنس**، 88.

57) ابن خلّكان، **الكامل**، النويري، **البيان**: لم تذكر هذه المصادر اليوم، وهو نظريًّا يوم الثلاثاء؛ **البيان**، 304/1 **وأعمال**، 458، ثاني عيد النحر؛ **المؤنس**، 88، أوّل ذو الحجّة. جميع المصادر متّفقة على سنة 509هـ.

58) حسب ابن خلّكان. في **الكامل**، طبعة القاهرة 1301هـ: «منستير» وفي طبعة القاهرة الثانية «تسثير»، وحسب النويري «تسبير».

59) الزيادة من ابن خلّكان.

60) الزيادة من ابن خلّكان.

61) **الكامل** وكذلك **أعمال**. وحسب ابن خلّكان: 52 سنة.

62) **الكامل**، وحسب ابن خلّكان: 8 سنين ونصف وفي **أعمال**: 8 سنين و8 أشهر و15 يومًا. وفي المؤنس: 8 سنين و6 أشهر.

63) **الكامل**، 216/10.

/الفصل الثاني :
ولاية علي بن يحيى
(509 – 515 هـ / 1116 – 1121م)

ارتقاء علي إلى العرش[1] :

لا نعرف من مجموع الأبناء الثلاثين الذين تركهم يحيى عند وفاته إلاّ أبا الفتوح وأبا الحسن علي ، والي صفاقس ووليّ العهد ، على الأرجح[2]. وقد كان لعليّ شاعره المادح ، وهو ابن حمديس. أمّا أخوه ومنافسه المحتمل أبو الفتوح الذي يقال إنه قد حاول خلع أبيه يحيى ، فانه لم يزل مسجونًا بقصر زياد ، عند ارتقاء علي إلى العرش.

وقد وُلِدَ عليّ بالمهديّة صبيحة يوم الأحد 15 صفر سنة 479 هـ / أوّل جوان 1086م ، وكان عمره لمّا ارتقى إلى العرش ثلاثون سنة[3].

«وقد اجتمع أهل الدّولة (ولا سيما عبد العزيز بن عمّار والقائد رقوى)[4] على نفاذ كتاب إلى عليّ على لسان أبيه ، وكان عليّ على صفاقس. فكتبه الكاتب ، وكتب علامة يحيى وكانت : الحمد لله وحده»[5]. واتّخِذت الإجراءات اللاّزمة لذلك ، وكُلِّف الجيش بحراسة الأبواب. فوصل الخبر إلى علي لَيْلاً ، فخرج لوقته مخفورًا بأبي بكر بن جابر بن عسكر وبعض رؤساء العرب الآخرين في ضواحي صفاقس[6].

---

1) **أعمال**، 458 – 459 نقلاً عن أبي الصّلت ؛ **البيان**، 306/1 ؛ ابن خلّكان ، 241/2 ؛ **الكامل**، 216/10 ؛ النويري ، 164/2 ؛ **العبر**، 161/6 ؛ **ديوان** ابن حمديس ، ص 411 – 414.

2) حسب التجاني لا غير.

3) حسب النويري ، 166/2 وابن خلّكان ، 241/2. وتاريخ 497 هـ مغلوط بلا شكّ (نظرًا للخلط في الحروف بين سبعة وتسعة) ، نظريًّا يوم الاثنين ؛ **البيان**، 306/1 ، وقد أكّد صاحبه أنّ عليا كان يبلغ من العمر 30 سنة عند ارتقائه إلى العرش.

4) حسب النويري لا غير.

5) **البيان**، 306/1.

6) حسب ابن خلدون ، **العبر**.

وفي الجمّ وجد عليّ أغلب قادة الجيش الصنهاجيّ بصدد محاصرة بعض الأعداء المعتصمين حسب الاحتمال بالقصر الأثري الشهير الذي كانت الكاهنة قد التجأت إليه في القديم(7). وبما أن ابن حمديس قد أشاد باحتلال ذلك الحصن في قصيدة مدح بها عليًّا، ولم يرد ذكره أبدًا فيما بعد، فالغالب على الظنّ أنّه قد سقط بعد ذلك بقليل، بفضل التعزيزات المصاحبة لوليّ العهد. ومهما يكن من أمر فقد انضمّ الجيش بدون تردّد إلى عليّ الذي واصل طريقه معزّزًا بتلك المساعدة الثمينة المنشودة أم لا، إلى أن وصل إلى المهديّة عشيّة الخميس ثاني عيد النّحر، 11 ذو الحجّة سنة 509هـ/ 26 أفريل 1116م(8)، غداة وفاة الأمير يحيى.

فصلّى الناس صلاة الجنازة على الفقيد الذي دُفِن في قصره، ثم نُقِل في السنة الموالية إلى قصر السيّدة بالمنستير(9)، وجلس عليّ يوم الجمعة ثاني عشر ذو الحجّة سنة 509هـ(10) لتقبّل التعازي والتهاني والبيعة. وخلع على رجال الدولة ومدحه الشعراء، ومنهم ابن حمديس الذي ألقى قصيدة عصماء(11). كما نُظِّم في ذلك اليوم استعراض عسكري بإشراف الأمير الذي رجع بعد ذلك إلى قصره.

وصف عليّ:

لقد وصفت لنا المصادر عليًّا، فقالت إنه «كان كريمًا، جوادًا، يركن إلى الراحة واللذّات، واتّكل على قوم فوّض إليهم تدبير دولته»(13).

---

7) حسب ابن خلدون وابن حمديس.

8) حسب **أعمال** وابن خلّكان والنويري.

9) حسب ابن خلّكان. وفي **الكامل**: «التربة» عوض قصر السيّدة.

10) نصّ ابن خلّكان: «يوم الجمعة ثالث عشر ذي الحجّة». وينبغي تصحيح هذا النصّ كما يلي: «يوم الجمعة ثالث (عيد النحر ثاني) ذي الحجّة». وهذا ما يفسّر ذلك الخطأ. إذ أنّ يوم عيد الأضحى يصادف = 10 ذو الحجّة = الأربعاء، ثاني عيد = 11 ذو الحجّة = الخميس، ثالث عيد = 12 ذو الحجّة= الجمعة. وبما أن توليته كانت من باب الصدفة السعيدة يوم الجمعة، فقد ذكر اسمه في خطبة الجمعة.

11) **أعمال**، هذه القصيدة وردت في **ديوان** الشاعر، ص 190 – 192.

12) نفس المصدر.

13) **البيان**، 306/1.

ومن الأكيد أنّه لم يظهر قطّ في ساحات الوغى ، ولكن يبدو على الأقلّ أنه لم تأخذه نشوة الملذّات ولم يكن غير مكترث بأمور الدولة . فلم يظهر في القصر خلال عهده أيّ قهرمان مطلق النفوذ. وهو بعيد عن أن يكون متخنّثا وألعوبة بين أيدي المتملّقين.

وفي سنة 511هـ/ 5 ماي 1117 – 23 أفريل 1118م ، «وصل رسول صاحب مصر بهديّة إلى المهديّة»[14]. ولعلّ هذه السفارة لم تكن الأولى من نوعها ، فلا بدّ أن يكون الأمير قد أعلم مخدوم الفقيد والده بارتقائه إلى العرش ، وتلقّى وثيقة التقليد.

وقد رأى من باب الاحتياط نفي أخيه أبي الفتوح الذي أبحر مصحوبًا بزوجته بلاّرة وابنه الصبيّ العبّاس ، متوجّهًا إلى مصر ، وقد عامله أميرها معاملة حسنة[15].

استسلام جربة[16] :

«قال أبو الصّلت : لمّا ولّي أبو الحسن (عليّ) بن يحيى بن تميم بن المعزّ ، وذلك في آخر سنة تسع وخمسمائة ، واستتبّ له أمره واستوثق ملكه ، أمر بإعداد الأساطيل لغزو جزيرة جربة ، وحرّكه في ذلك ما ترادف عليه من قَطْعِ أهلها في البحر وإخافتهم المسافرين فيه ، فتمّ ذلك وقدّم على الأسطول قائد الجيش إبراهيم بن عبد الله وأصحابه من أهل الدّولة للمشورة ، فساروا إليها ، وذلك في سنة عشر وخمسمائة (1116 – 1117م)[17]. فحاصروها وأخذوا بمخنقها إلى أن أقرّ أهلها بالطاعة للسلطان ، وانقادوا لأمره ونزلوا على حكمه. وضمن أشياخهم ومقدّموهم جميع الفساد الواصل إلى ساحل إفريقية من قطّاعهم وأشرارهم ، وأن لا يتعدّوا بمتاجرهم المهديّة. وأُعلِم السلطان بذلك ، فكفّ عنهم وجمع الأسطول ، وصلح البحر وارتفع الفساد ، وأمن المسافرون»[18].

---

14) نفس المصدر ، 307/1.

15) **الكامل** ، 200/10 ؛ ابن خلّكان ، 241/2 و370/1 ؛ **نجوم** ، 288/5 – 289 ؛ **اتّعاظ** ، 324 ، 338. بعد وفاة زوجها أبي الفتوح ، تزوّجت بلاّرة وزير الخليفة الفاطمي الظافر ، الملك العادل أبا الحسن علي السلار الذي خلفه صهره العبّاس. وبناء على ذلك فإنّ أبا الفضل العبّاس بن أبي الفتوح هو حفيد يحيى وابن أخي علي.

16) التجاني ، ص 125 – 126 وهو أهم مصدر. وقد نقل حرفيًّا رواية أبي الصّلت. **البيان** ، 306/1 ؛ **الكامل** ، 216/10 ؛ ابن حمديس ، **الديوان** ، ص 193 – 196 ؛ **المؤنس** ، 88.

17) بعد أقلّ من سنة من ارتقائه إلى العرش ، ربما خلال صائفة 1116م.

18) **رحلة التجاني** ، 125 – 126.

وبينما كانت هذه العملية جارية ، أو بعدها بقليل ، «أرجف العوامّ بأنه سيكون في رمضان حادث كبير ، وأنّ السلطان يموت فيه . وفشا القول بذلك ، وانتشر ، فأكذب الله أحاديثهم»[19] . وفي اليوم العاشر من شهر رمضان جادت قريحة ابن حمديس بقصيدة هنّأ فيها الأمير بسلامته وبتسفيه أراجيف المنجّمين واستيلاء الأمير على جزيرة جربة[20] . وإننا نميل إلى الاعتقاد بأنّ هذه القصيدة مؤرّخة في رمضان سنة 510 هـ / 7 جانفي – 5 فيفري 1117 م . ذلك أنّ الشاعر لم يشر إلى الانتصارات التي أحرزها علي بعد هذا التاريخ ، رغم أن ابن عذاري ، وهو المؤلّف الوحيد الذي تحدّث عن تلك الأراجيف ، قد أدرجها ضمن حوادث سنة 511 هـ ، مستشهدًا ببيتَيْن للشاعر ابن حمديس وببيتَيْن آخرَيْن لشاعر مجهول . ولكن ألا يمكن أن نتهم صاحب **البيان** (أو أحد النسّاخ) بأنّه قد ارتكب خطأً تاريخيًّا ، وهو الذي ضرب صفحًا عن ثلاث حملات عسكريّة قام بها علي ، وعن المرحلة الأخيرة من الحملة الموجّهة ضدّ قابس ؟

استسلام مدينة تونس[21] :

في سنة 510 هـ / 1116 م ، أي بعد مدّة قليلة من انتصاب علي ، «حصر عسكره مدينة تونس ، وبها أحمد بن خراسان ، وضيّق على مَنْ بها ، فصالحه صاحبها على ما أراد»[22] .

ذكر فتح جبل وسلات[23] :

وفي هذه السنة كلّف عليّ فرقة عسكريّة بقيادة الأمير العربي ميمون بن زياد الصخري المُعَادي بفتح جبل وسلات (الواقع شمال غربي القيروان) . والجدير بالملاحظة أن هذا الجبل

---

19) حسب ابن عذاري لا غير ، **البيان** ، 306/1 .
20) **ديوان** ابن حمديس ، ص 193 – 196 .
21) **الكامل** ، 220/10 ؛ **العبر** ، 161/6 ؛ النويري ، 164/2 ؛ **المؤنس** ، 88 .
22) **الكامل** ، 220/10 .
23) **الكامل** ، 220/10 ؛ **العبر** ، 161/6 ؛ النويري ، 164/2 ؛ **المؤنس** ، 88 .

المنيع اشتهر بكونه لم يخضع أبدًا للسلطة المركزيّة ، ربّما منذ الفتح الإسلامي . «ولم يزل أهله طول الدهر يفتكون بالناس ويقطعون الطريق».

«فعمل قائد الجيش الحيلة في الصعود إلى الجبل من شعب لم يكن أحد يظنّ أنه يصعد منه. فلمّا صار في أعلاه في طائفة من أصحابه ، ثار إليه أهل الجبل ، فصبر لهم وقاتلهم فيمن معه أشدّ قتال ، وتتابع الجيش في الصعود إليه ، فانهزم أهل الجبل وكثر القتل فيهم ، ومنهم من رمى نفسه فتكسّر ، ومنهم من أفلت . واحتمى جماعة كثيرة بقصر في الجبل ، فلمّا أحاط بهم الجيش ، طلبوا أن يرسل إليهم مَنْ يصلح حالهم ، فأرسل إليهم جماعة من العرب والجند ، فثار بهم أولئك بالسّلاح ، فقتلوا بعضهم ، وطلع الباقون إلى أعلى القصر ونادوا أصحابهم من الجيش ، فأتوهم وقاتلوهم ، بعضهم من أعلى القصر ، وبعضهم من أسفل. فألقى مَنْ فيه من أهل الجبل أيديهم ، فقُتِلوا كلّهم»(23 م) .

قضيّة رافع (قابس وصقليّة)(24) :

من الصعب ضبط تسلسل العمليّات التي قام بها عليّ ضدّ قابس ، حوالي سنة 511هـ/ 5 ماي 1117 – 23 أفريل 1118م. ذلك أن سكوت الإخباريّين المسيحيّين عن التدخّل النّرماني ، لا يسمح بإجراء أيّة مقابلة مع نصوص المؤلّفين العرب الذين اتّسمت رواياتهم بعدّة ثغرات وتناقضات ، وعدم الدقّة في تأريخ الأحداث.

فنلاحظ أوّلاً أن رواية التجاني تتضمّن بعض فقرات منقولة عن أبي الصّلت ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى رواية ابن خلدون. ومن ناحية أخرى ، بما أنّ تلك الرواية مطابقة في الجملة لرواية ابن الأثير والنويري ، فاننا سوف لا نتردّد في تفضيلها على بقيّة الروايات . ونستخلص من ذلك أنّ ما يسمّى «بحصار قابس» يتضمّن مرحلتَيْن متميّزتَيْن ، حسب التجاني ، يفصل بينهما شتاء 1117–1118م.

---

23 م) **الكامل**، المصدر المذكور.

24) **ستوريا** (Storia)، 3/376 – 380 ؛ شالندون ، 1/371 – 372 .

المرحلة الأولى[25] :

لمّا تولّى يحيى بن تميم الحكم ، صالح الأمير العربي رافع بن مكن بن كامل بن جامع الدهماني «وداراه طول حياته» . وكان رافع هذا هو الحاكم بأمره في قابس ، وكان قد استولى عليها في عهد تميم ، بموافقة هذا الأخير وعلى كرهٍ منه بلا شكّ .

«وكان يحيى يحتمل لرافع أمورًا منها ، أنّ رافعًا أنشأ بساحل قابس سفينة[26] أعدّها لما يعرض له في البحر من الأمر. فلم يُبْدِ يحيى إنكارًا لذلك ، بل أعانه عليها وأمدّه بما احتاجه إليه فيها»[27] .

«فلمّا ولّي عليّ أنف ذلك وكره أن يقاومه أحدٌ من أهل إفريقيّة في إجراء السّفن في البحر ، فأنفذ أسطولاً[28] إلى ساحل قابس ، لمنع هذه السفينة من الإقلاع ، وأخذها إن أقلعت .

وعلم بذلك رافع ، فكتب لِرُجار (الثاني) صاحب صقليّة يسأله الإعانة على عليّ ويخبره أنّه إنما أنشأ تلك السفينة لبعث هديّة يحبّ أن يهديها له»[29] .

والجدير بالملاحظة أنّ هذه الحجّة البارعة والقريبة من الواقع لم تكن هي الوحيدة ، حسب الاحتمال . كما أنّها لا تتعارض مع الافتراض الصحيح الذي قدّمه أماري ، وهو أنّ السلط الصقليّة قد اعتبرت مشروع رافع وسيلة لتجاوز الرّسوم المفروضة من قِبَل دولة بني زيري . وهناك افتراضات أخرى يمكن أن تخطر بالبال : أَفَلَمْ تصدر هذه المبادرة الخاصّة أو الرسميّة عن صقليّة ؟ وهذا ما قد يفسّر تسامح يحيى الراغب في المحافظة على حسن علاقته مع تلك البلاد . وهل أن رافعًا لم يعمد إلى تخفيض قيمة تلك الرسوم بل حتى الإعفاء من دفعها ؟

---

25) **رحلة التجاني** ، 98 — 99 ، نقلاً عن أبي الصّلت ؛ **العبر** ، 161/6 ؛ **الكامل** ، 223/10 ؛ النويري ، 164/2 — 165 ؛ **ستوريا** ، 376/3 — 378 ؛ **البيان** ، 307/1 : لم يشر هذا المصدر إلى المرحلة الأولى من العمليّات ، والحال أن المصادر الأخرى قد ذكرتها .

26) وحسب **الكامل** والنويري : «مركبًا» .

27) النويري : الخشب والحديد .

28) حسب النويري لا غير .

29) التجاني ، 98 .

ومهما يكن من أمر، «فقد بعث رُجَار إلى قابس أسطولاً ضخمًا[30] لنصرة رافع. (ولمّا وصل الأسطول الصقلي إلى المهديّة)[31]، جمع عليّ رجال دولته واستشارهم في ذلك. فكلّهم أشار عليه باسترجاع أسطوله والتغاضي عن رافع في هذه المسألة، حِفْظًا لما بينه وبين رُجَار من المصالحة. فرأى عليّ في ذلك وَهَنًا عليه، فأمر بقيّة أسطوله، فأُخْرِج للحين ووجّهه إلى قابس»[32].

وحسب ابن الأثير الذي لم يتحدّث عن هذه الاستشارة، لمّا علم عليّ باجتياز الأسطول الصقلّي بالمهديّة، تأكّد من الاتّفاق بين رُجَار ورافع، وقد كان يكذّبه. كما أكّد كلٌّ من ابن الأثير والنويري أنّ الأسطول الصنهاجي والأسطول الصقلّي وصلا في نفس الوقت إلى قابس، وأنّ الأسطول الصقلّي قد عاد من حيث أتى بدون قتال، «وبقي أسطول عليّ يحصر رافعًا بقابس مُضَيِّقًا عليه». وبالعكس من ذلك، أكّد التجاني أنّ أسطول عليّ، لمّا وصل إلى قابس، «وجد الروم قد نزلوا من قِطَعِهم لضيافة أعدّها رافع لهم. فلم يَرُعْهم إلاّ وصول الأسطول، فبادروا إلى قِطَعِهِمْ، فغلبهم المسلمون على أكثرها، وقتلوا منهم جماعة كبيرة. قال أبو الصّلت: وسلم من سلم منهم، فلاذ بالهرب، وطار من خفّة الخوف لا من خفّة الطرب. وكان ذلك من أسباب الوحشة التي وقعت بين رُجَار وعليّ وابنه الحسن بعده، حتى أدّت إلى تغلّب الروم على المهديّة وانقراض دولة بني مناد منها»[33].

وختم التجاني روايته ملستشهدًا ببعض الأبيات من قصيدة نظمها محمد بن عبد الله الكاتب بمناسبة هذا الانتصار، جاء فيها:

[طويل]

ليَهْنَ المعـــالي أن تملّك رِقَّهـــا عليٌّ بن يحيى بـالحجـا والتكرُّمِ
جرى وجرى صيـــد الملوك فبزّهم إلى غـــايــةٍ في المجد لم تُتَقَــدَّمِ
وصمّم تصميم الحسام مبـــــادرا لإطفـــاء نـــارٍ آذنت بـــالتضرّمِ
تعـدّى على الأعلاج في بحر قـابس وسار إليهم في الخميس العرمرمِ
فولَّـوْا على الأدبـــار كلاًّ وأجفلوا بنـــابٍ نبـــا عنهُم وظُفرٍ مُقَلَّمِ

---

30) النويري: يتركّب الأسطول من 24 قطعة (شواني).

31) حسب **الكامل** والنويري، ولم يتعرّض لذلك التجاني.

32) **رحلة التجاني**، 98.

33) نفس المصدر.

ولكن الشاعر لم يشر في قصيدته إلى المعركة البحرية ، وكذلك ابن حمديس في القصيدة المماثلة التي نظمها لتهنئة الأمير برجوع أسطوله إلى المهديّة سنة 512 هـ (كذا)، وقد كان وجّهه لمحاربة السّفن الحربيّة القادمة من صقليّة إلى قابس[34].

فمن الممكن أن يكون التاريخ الرسميّ قد بالغ في أهمّية هذا الانتصار البحري. إلاّ أنّ سكوت هذين الشاعرين عن تلك المعركة لا يكفي لتفنيد شهادة التجاني وأبي الصّلت[35]، لفائدة شهادة ابن الأثير والنويري، بدعوى أنّ التجاني قد خلط بين أحداث متباينة. على أنّ ابن خلدون قد أكّد من جهّته أنّ عليًّا قد انتصر على النّصارى أثناء معركة بحريّة جرت خلال المرحلة الأولى من واقعة قابس[36].

وقد واصل الأسطول الصّنهاجي محاصرة مدينة قابس، ويقال إنّه أفسد ماجلها[37]، ثم رجع إلى المهديّة، بلا شكّ قبل شتاء سنة 511 هـ، ولم يسمح حصار الميناء بسقوط المدينة التي لم يقع عليها الهجوم من البرّ.

المرحلة الثانية[38] :

قام عليّ المصمّم على كسر شوكة المتمرّد، باستعدادات حربيّة في البرّ والبحر، وجنّد بعض قبائل العرب.

«فلمّا بلغ ذلك رافعًا، أرسل جماعة من وجوه قومه إلى عليّ، راغبًا في المصالحة، فلم يُجِبْه عليّ إليها»[39].

«وفي أثناء ذلك نزل رافع على المهديّة ببيوته ومَن ساعده من عشيرته[40]، فخرج من كان بالمهديّة، فهجموا على بيوته، فَتَصايَحَتْ نِساءُ العرب، فغار العرب لذلك، ووقعت

---

34) **ديوان** ابن حمديس، ص 205، 208.
35) كما ذهب إلى ذلك أماري، **ستوريا**، 378/3، الإحالة 1.
36) **العبر**، 167/6.
37) خزّان الماء : النويري.
38) **رحلة التجاني**، 98–99؛ و**البيان**، 307/1.
39) التجاني، المصدر المذكور. وفي **البيان**: «وخرج مُتَطارِحًا على وجوه قومه، راغبًا في الصلح»، وهي عبارة غامضة.
40) إذا صدّقنا النويري، فإنّ رافعًا كان على رأس حلف يجمع بين جميع القبائل العربيّة.
41) **البيان**، 307/1.

الحرب بين الفريقين ، والأمير على باب زويلة»[41] . ويبدو أنّ رافعًا قد تكبّد خسائر فادحة ، ولم يُقتَل من جند عليّ إلاّ رجل واحد.

«ثم خرج عسكر عليّ مرّة أخرى ، فاقتتلوا أشدّ من القتال الأوّل ، وكان الظّهور فيه لعسكر عليّ»[42] .

ويُعْزى هذا الانتصار وما لحقته من انتصارات أخرى إلى انضمام جموع غفيرة من الأعراب إلى صفّ عليّ الذي وهبهم أموالاً جمّة ، بالإضافة إلى تخلّي جنود رافع عن قائدهم الذي أصبح لا يعوّل إلاّ على بني دهمان[43] .

«ولمّا رأى رافع أنّه لا طاقة له بعسكر عليّ ، رحل عن المهديّة لَيْلاً إلى القيروان ، فمنعه أهلها من دخولها ، فقاتلهم أيّامًا قلائل ثم دخلها»[44] .

وقبل ذلك ، «اجتمع شيوخ دهمان واقتسموا البلاد بينهم ، فأعطوا رافعًا مدينة القيروان»[45] .

فوجّه عليّ جيشًا يضمّ عددًا كبيرًا من العرب لمحاصرة رافع بالقيروان. وجرت معركة حامية الوطيس انقلبت لفائدة جيش عليّ ، رغم أنّ قائده إبراهيم بن أحمد قد لقي مصرعه أثناء المعركة[46] .

واَضْطُرّ رافع إلى الرجوع إلى قابس. وقد عاب عليه الشاعر محمد بن بشير احتماءه بالرّوم ، أي النّرمان الصقليّين ، وأشاد بنجاعة المال الذي أنفقه بنو زيري لحلّ هذه القضيّة[47] . وقد سكت التجاني عن رجوع رافع إلى قابس ، وأكّد بالعكس من ذلك أنّ محمّد بن رُشَيْد قد ملك قابس بعد دخول رافع إلى القيروان[48] . والواقع أنّ خليفة رافع هو رُشَيْد بن كامل الذي خلفه فيما بعد ابنه محمّد بن رُشَيْد[49] . وبفضل وساطة ميمون بن

---

42) **الكامل** ، 223/10 .
43) **البيان** ، 307/1 **والعبر** ، 167/6 .
44) **الكامل** ، المصدر المذكور.
45) **البيان** ، 307/1 .
46) **العبر** ، 167/6 ؛ **البيان** ، 307/1 ؛ **التجاني** ، 98 .
47) **رحلة التجاني** ، ص 99 .
48) نفس المصدر ، ص 100 .
49) **العبر** ، 167/6 ؛ **الكامل** ، 54/11 .

زياد الصخري ، أبرم عليّ مع رافع معاهدة الصلح التي وضعت حدًّا لخلافهما ، بعد أن امتنع من ذلك[50].

ولا شكّ أنّ قضيّة رافع قد انجرّت عنها حالة حرب شبه حقيقيّة بين رُجَار الثاني وعليّ اللّذين كانا صديقَيْن قبل ذلك ، لا سيّما إذا ثبت أنّ أسطولَيْهِما قد تصادما في ساحل قابس.

ففي سنة 512هـ/ 1118–1119م[51] ، «وصل رسول رُجَار إلى عليّ يقتضي أموالاً كانت تثقّفت[52] له بالمهديّة[53] ، وكان علي عند تلك الوحشة قد أمسك وُكَلاَءَهُ ، فسرّحهم له عليّ ووجّههم إليه بأمواله. فلمّا وصلت إليه وجّه رسولاً ثانيًا[54] بمكاتبة فيها إغلاظ وتهديد وتقصير على العادة وإساءة في الأدب. فأغضب ذلك عليًّا وصرف رسوله دون جواب. وبلغ عليًّا أن النّصراني يتهدّده ويتوعّده ، فأمر باستجداد الأساطيل والاستعداد لقتاله. فأنشأ أسطولاً قَوِيَتْ أَنْفُسُ النّاس به ومدحته الشّعراء بسببه (منهم محمد بن بشير)»[55]. وأوضح النويري أنّ عليًّا جهّز قبل وفاته عشرة مراكب حربيّة وثلاثين غرابًا مجهّزة ومزوّدة بالمؤونة والنفط[56].

«كما كاتب المرابطين بمرّاكش في الاجتماع معه على الدخول إلى صقليّة. فكفّ رُجَار عمّا كان يعتمده»[57]. وتوفّي علي قبل أن يتمكّن من إنجاز مشاريعه.

---

50) العبر ، 167/6 والنويري ، 165/2. ولعلّ ابن الأثير قد أشار إلى هذه المعاهدة لما أكّد «أنّ جماعة من أعيان إفريقيّة من العرب وغيرهم سألوا عليًّا الصلح ، فامتنع ثم أجاب إلى ذلك وتعاهد عليه».

51) كما جاء في البيان ، المصدر المذكور.

52) وفي البيان : «أموالاً كانت مُوَقَّفة له» [أي تحت الحراسة].

53) كما كانت مهمّة ذلك الرسول تتمثّل في التماس «تجديد العقود وتأكيد العهود» (البيان ، 307/1).

54) رحلة التجاني هي المصدر الوحيد التي أشارت إلى وجود سفارتين متتاليتين.

55) رحلة التجاني ، ص 334.

56) [أي النّار اليونانيّة].

57) الكامل ، وهو المصدر الوحيد الذي أشار إلى هذه المكاتبة.

الحملات العسكريّة الموجّهة ضدّ بني سنجاس[58] :

استمرّ بنو سنجاس في قطع الطرق في جنوب إفريقية ، وهم تابعون لقبيلة مغراويّة كثيرة العدد ، كانت شاركت سابقًا في الصراعات بين زناتة وصنهاجة في إفريقية والمغرب . وفي سنة 514هـ / 2 أفريل 1120 – 21 مارس 1121م ، عاثوا فسادًا في ضواحي قفصة وحاصروا المدينة وقتلوا جميع الجنود الصنهاجيّين الذين اعترضوهم[59] . فخرجتْ إليهم الحامية ، ولكنّها تكبّدت خسائر فادحة . فتوجّه إلى الجريد محمّد بن ابي العرب ، قائد علي بن يحيى ، على رأس جيش ، وتمكّن من طرد بني سنجاس وإرجاع الأمن إلى نصابه . وفي السنة الموالية (515هـ / 1121 – 1122م) ، تغلّب عليهم نفس القائد محمد بن أبي العرب الذي عاد إلى القيروان بعدد كبير من الرؤوس . ورغم إقصاء الزناتيّين الخوارج المقيمين في جنوب إفريقية إلى المرتفعات الغربيّة ، من طرف بني هلال ، فانهم ما زالوا يعيثون فسادًا في تلك المنطقة[60] .

تدخّل بني حمّاد في إفريقيّة[61] :

لقد هاجم العزيز ابن حمّاد إفريقيّة ، فحاصر جربة بواسطة أسطوله في تاريخ غير مُحَدَّد وأخضعها لسلطته . إلاّ أنّ احتلال تلك الجزيرة النائية لم يدم طويلاً .

وفي سنة 514هـ / 1120 – 1121م ، حاصر العزيز مدينة تونس التي كان عليّ قد أدخلها في طاعته سنة 510هـ / 1116 – 1117م . وأجبر صاحبها أحمد بن عبد العزيز بن خراسان على الدّخول في طاعته . وكان من الأولى بالنسبة إليه أن يكرّس جهوده لمقاومة الهلاليّين الذين اجتاحوا منطقة القلعة وعاثوا فيها فسادًا . وقد دافعت الحامية عن القلعة بنجاح . فوجّه العزيز من بجاية جيشًا بقيادة ابنه يحيى ، وقائده علي بن حمدون . وبعدما تمكّن ذلك الجيش من إرجاع الوضع إلى نصابه ، وتحصّل الأعراب على العفو الذي التمسوه ، قفل يحيى راجعًا إلى بجاية مع جنوده .

---

58) العبر ، 47/7 .

59) العبر (المصدر المذكور) : «عسكر تلكاتة» .

60) نفس المصدر ، 47/7 .

61) نفس المصدر ، 164/6 .

وقد توفّي العزيز سنة 515هـ / 1121 – 1122 أو 518هـ / 1124 – 1125م[62] وخلفه ابنه يحيى.

وفاة علي[63] :

توفّي علي بن يحيى بن تميم متأثّرًا بمرضه يوم الأحد 22 ربيع الثاني سنة 515هـ / 10 جويلية 1121م[64]. وكان يبلغ من العمر أقلّ من ستّ وثلاثين سنة. فكانت مدّة ولايته خمس سنين ونصف السّنة[65]. وخلّف من الأبناء الذّكور أربعة : الحسن والعزيز وباديس وأحمد[66]. وقبل وفاته عيّن لخلافته الأمير الحسن الذي هو أكبر أبنائه رغم صغر سنّه[67]. ودُفِن في قصر (المهديّة)، ثم نُقِلَ في السنة الموالية بلا شكّ، إلى المنستير[68].

---

62) نفس المصدر، 176/6؛ **البيان**، 309/1 – 310.

63) **أعمال**، 459؛ ابن خلّكان، 242/2؛ النويري، 166/2؛ **الكامل**، 250/10؛ **العبر**، 161/6؛ **المؤنس**، 89.

64) حسب **أعمال**. أما ابن خلّكان والنويري فقد ذكرا يومًا آخر: الثلاثاء، وهو نظريًّا يوم الأحد.

65) **البيان**: 5 سنين و4 أشهر و12 يومًا؛ النويري: 5 سنين و4 أشهر و13 يومًا.

66) حسب **البيان**، مع تصحيح الاسم الأخير وهو «إله» (؟) الذي ورد غلطًا في مخطوطة ليدن، وحسب النويري: الحسن وباديس وأحمد والعزيز.

67) كان عليّ يُكنّى بأبي الحسن.

68) **أعمال**، وابن خلّكان.

الفصل الثالث
مرور ابن تومرت من إفريقيّة[1]

[المقدّمة]

إنّنا لا نعرف بالضّبط تاريخ ميلاد ابن تومرت[2] مؤسّس الحركة الموحّديّة ، ولا مدّة إقامته بالمشرق[3] . ولئن يبدو من المؤكّد أنّه قد رجع إلى المغرب الأقصى بعد غيبة دامت خمسة عشر عامًا[4] ، فلا شيء يسمح بالتأكيد أنّه لم يرجع في الأثناء إلى إفريقيّة ، ما بين حجّتيْن مثلاً ، أو بتفنيد[5] الروايات التي تشير إلى وجوده بإفريقيّة ، قبل رجوعه النهائي إلى المغرب الأقصى عن طريق بجاية.

في سنة 500 هـ/ 1106 – 1107م ، «رحل المهدي محمّد بن تومرت من جبل هَرْغة بأقصى المغرب إلى المشرق في طلب العلم ، فجاز الأندلس ووصل قرطبة وسار منها إلى المرية»[6] .

---

1) أ– مقتطفات من **تاريخ** ابن القطّان ، في ست مقتطفات لم يسبق نشرها... ، ليفي بروفنسال ، 373 – 375 .
ب – البيذق ، المقدمة ، الإحالة 1 ، 50 – 55 .
ج– **الزركشي** ، **تاريخ الدولتين** [الطبعة الثانية ، تحقيق محمّد ماضور ، تونس 1966 ، ص من 4 إلى 7] ؛ المراكشي ، 129 ، 164 – 165 ؛ **الحلل الموشّية** ، 77 ؛ تحقيق علّوش ، 86 .
د– ابن خلّكان ، [**الوفيات**] ، 98/1 ، 34/2 – 37 ، 240 ؛ **الكامل** ، 241/10 ؛ النويري ، 162/2 .
هـ– ابن القلانسي (ت. 555 هـ/ 1160م) **تاريخ دمشق** .
و– **البيان** ، 303/1 ؛ **العبر** ، 127/6 ، 176 ، 226 .

2) الزركشي ، ص 5 .

3) **البيان** ، 303/1 : «وغاب في رحلته خمسة عشر عامًا» . الزركشي ، 4 : «فتوجّه إلى المغرب بعد أن أقام بالمشرق خمسة أعوام وقيل بإفريقيّة سنة 514 هـ ومرّ بالمهديّة وذلك في مدّة علي بن يحيى» . **البيان** ، 308/1 : «وفي سنة 514 هـ كان حلول ابن تومرت بأغمات» (ربما نقلاً عن ابن القطّان المذكور في الجملة السابقة) ، **القرطاس** ، 111 : وعاد من المشرق في غرة ربيع الأوّل 510 هـ وكان لقاؤه بعبد المؤمن في تاجرة ، بلدة من ناحية تلمسان .

4) هويسي ميرندا (Huici Miranda) ، **تاريخ الدولة الموحّديّة السياسيّ** ، 52/1 – 59 .

5) كما فعل هويسي ميرندا ، 39/1 ، الإحالة ، 1 .

6) **البيان** ، 303/1 .

«ثمّ ارتحل إلى المهديّة وأخذ عن الإمام المازري (ت. 536 هـ / 1141 — 1142م). ثم انتقل إلى الإسكندرية وهو ابن ثماني عشرة سنة»[7].

ويبدو أنّ هذا الاتّصال الأوّل بالإمام المازري غير مستبعد، وقد يفسّر لنا لماذا أشار ابن خلّكان إلى وجود ابن تومرت بالمهديّة في مدّة ولاية تميم، عند عودته من المشرق[8]. ومن المحتمل أن يكون هذا المؤلّف، أو مؤلّف الكتاب الذي اعتمده، قد اشتبه عليه الأمر بين الذهاب والإياب، لأنه من الصّعب تصديق خبر وصول المهدي إلى إفريقيّة قبل سنة 501 هـ / 1108م، تاريخ وفاة تميم.

وإذا سلّمنا بأنّ ابن تومرت قد تمكّن من التردّد بين المشرق وإفريقيّة قبل التحوّل إلى بجاية للرجوع نهائيًّا إلى المغرب الأقصى، واعتبارًا لعدم اطّلاعنا على تنقّلاته، فانه يتعيّن علينا من باب الاحتياط، استعراض مختلف الروايات دون رفض أيٍّ منها مسبّقًا. وهناك روايتان أساسيّتان حول هذا الموضوع هما : رواية ابن شدّاد ورواية ابن القطّان.

رواية ابن شدّاد[9] :

عند عودته من الحجّ سنة 505هـ / 1111 — 1112م، في مدّة يحيى بن تميم، أبحر المهدي محمّد بن تومرت من الإسكندرية ووصل إلى المهديّة عن طريق طرابلس[10]، «وليس له سوى ركوة وعصا»[11]. وحسبَ ابن خلدون[12]، فقد أقام بطرابلس مدّة يدرّس ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وقد ناله الأذى بسبب ذلك. وفي المهديّة «نزل بمسجد معلّق على الطريق[13]. فجلس في طاق شارع إلى المحجّة ينظر إلى المارّة، فلا يرى منكرًا من آلة الملاهي أو أواني الخمور، إلاّ نزل عليها وكسّرها. فتسامع النّاس به في البلد، فجاؤوا

7) **تاريخ الدولتين**، 4.
8) ابن خلّكان، 98/1، 37/2 — 38.
9) نقلها ابن خلّكان حرفيًّا، واعتمدها حسبما يبدو ابن الأثير والنويري.
10) ابن خلّكان، 37/2 : وصل إلى المهديّة في مركب قادم من الإسكندريّة. 240/2 : وصل إلى المهديّة قادمًا من طرابلس (الغرب).
11) حسب **الكامل**، [والركوة بمعنى القربة].
12) **العبر**، 226/6 — 227.
13) ابن خلّكان، ولعلّ ذلك المسجد كان يسمّى «المسجد المعلّق»، وفي **الكامل**: «نزل بمسجد قبلي مسجد السبت».

إليه ، وقرأوا عليه كتبًا من أصول الدين . وبلغ خبره الأمير يحيى فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلمّا رأى سِمَتَه وسمع كلامه أكرمه وأجلّه وسأله الدّعاء . فقال له : أصلحك الله لرعيّتك»[14].

«ثم رحل عن المدينة وأقام بالمنستير مع جماعة من الصالحين مدّة ، وسار إلى بجاية ، ففعل فيها مثل ذلك ، فأُخْرِجَ منها إلى قرية اسمها ملاّلة ، فلقيه عبد المؤمن»[15].

رواية ابن القطّان[16] :

وحسب هذه الرواية، وصل ابن تومرت إلى المهديّة في مدّة علي بن يحيى (509 – 515هـ/ 1116 – 1121م) ، حوالي 510 – 511هـ/ 1116 – 1118م على سبيل التقريب[17] . وبعدما فكّر الأمير في قتل الإمام الذي كسّر أواني الخمور في سوق من أسواق المهديّة ، بعث إليه المازري ، فأنّبه وخاطبه بلطف قائلاً : «إني أخاف عليك من بغض الأمير ومن جنده» . وعند ذلك ارتحل ابن تومرت إلى المنستير.

ابن تومرت في تونس وقسنطينة[18] :

لقد أمدّتنا «مذكّرات» البَيْذق بشهادة منقولة مباشرة حول إقامة ابن تومرت بمدينة تونس . وحسب هذه الشهادة ، فقد ألقى المهدي دروسًا على طلاّب تلك المدينة خلال إقامته القصيرة التي لم تتجاوز مدّتها خمسة عشر يومًا . وفي الأثناء صلّى ذات يوم صلاة الجمعة بالمسجد الجامع . وإثر الصلاة ، أدّى المصلّون صلاة الجنازة على الأموات . فلاحظ ابن تومرت وجود جثمان أحد الأموات وراء المصلّين. فسألهم لماذا لم يصلّوا عليه . فقالوا له إنه يهودي كان في حياته يؤدّي الصّلاة كسائر المسلمين. فأمّ المهدي المصلّين،وصلّى على ذلك

14) ابن خلّكان ، **الوفيات** ، 38/2 .

15) **الكامل** ، وعبد المؤمن بن علي القيسي سيكون أوّل خلفاء الدولة الموحّديّة.

16) ليفي بروفنسال ، ست مقتطفات لم يسبق نشرها...

17) **القرطاس** ، 108 ؛ ميرندا ، المرجع المذكور ، 176/1.

18) ليفي بروفنسال ، المرجع المذكور ، 50 – 51 . وأشار الزركشي إلى مرور ابن تومرت من تونس بقوله : «ثم ان المهدي انتقل إلى تونس مدّة بني خراسان الولاة عليها» ، **تاريخ الدولتين** ، 4 .

الميت صلاة الجنازة ، إذ اعتبره من المؤمنين. ثم استدعى الفقهاء ولامهم على عدم الصّلاة على اليهودي[19] ، مستشهدًا بالقرآن والسنّة. فاعترفوا بجهلهم وأخذوا عنه أمور دينهم مدّةً من الزمن. ثم غادر ابن تومرت مدينة تونس مصحوبًا بشخصَيْن[20] ، يبدو أنّهما كانا من عامّة الحجيج المغاربة. ودخل قسنطينة ، وقد كان واليًا عليها سبع ابن الأمير العزيز بن حمّاد[21] ، فألقى فيها أيضًا بعض الدّروس ، مذكّرًا الجاهلين بقواعد الشريعة ، ثم ارتحل إلى بجاية.

ابن تومرت في بجاية :

لدينا عدّة روايات متباينة حول إقامة المهدي في عاصمة بني حمّاد. فقد تحدّث بعضها عن أبناء العزيز وسكت البعض الآخر عنهم. ونجد من بين الروايات الأولى رواية البيذق ، ومن بين الروايات الثانية ، رواية ابن القطّان.

وحسب رواية البَيْذق[22] ، نزل المهدي ، عند وصوله إلى بجاية في مسجد الرَّيْحَانة. وحرّم احتذاء النّعال ذات السّيور المذهّبة والتعمّم بعمامات الجاهليّة. ونهى الرجال عن التزيّن بزينة النّساء وارتداء الجلابيب المعروفة باسم «الفتوحيّات».

وأثناء إقامته في تلك المدينة خلال شهر رمضان[23] تردّد عليه بعض الفقهاء[24]. وفي يوم عيد الفطر ضرب الرجال والنساء المختلطين في الشارع وشتّت شملهم. فحذّره أحد أبناء الأمير العزيز من ردود فعل العامّة. فارتحل الإمام إلى ملاّلة حيث بنى له أبناء العزيز

---

19) هذا الأمر يبدو غريبًا. على أنّ وجود جثمان هذا اليهودي بالجامع يدلّ على انه قد اعتنق الدين الإسلامي في حياته ، إذ كان يؤدّي الصلاة كسائر المسلمين. وهذه الظاهرة من الميز العنصري المنافية لتعاليم الدين الإسلامي جديرة بالملاحظة. ومما تجدر الإشارة إليه أنّ عبد المؤمن قد اضطهد اليهود والنصارى.

20) وقد ورد اسمهما في النصّ وهما : يوسف الدكالي والحاج عبد الرحمان.

21) حسب البيذق ، 51–52. وهو المصدر الوحيد الذي أكّد إقامة المهدي بتلك المدينة.

22) نفس المصدر ، 52–54.

23) حسب ابن خلدون ، العبر ، 176/6 ، وقد ذكر أن ابن تومرت وصل إلى بجاية سنة 512هـ. وبناء على ذلك فان الأمر يتعلق بشهر رمضان من سنة 512هـ/ 16 ديسمبر 1118 – 14 جانفي 1119م.

24) من بينهم ، حسب البيذق : محرز وإبراهيم الزبدوي وإبراهيم بن محمد الميلي ويوسف بن الجزيري الجراوي والقاضي عبد الرحمان بن الحاج الصنهاجي.

مسجدًا[25]، وتوافد عليه الطلاّب من كلّ حدب وصوب. وبعد انتهاء الدرس كان يجلس في مفترق الطرقات تحت «خرّوب العجوز» ويأخذ في ذكر الله. وذات يوم دخل إلى بجاية، ولمّا وصل إلى باب البحر سكب على الأرض الخمر الذي كان يُبَاع هناك. فضربه عبيد سبع (بن العزيز)[26]، ورجع إلى المسجد.

وتحدّث البيذق بعد ذلك عن اللّقاء الذي جمع بين ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي. وقد أكّدت جلّ المصادر الأخرى أنّ ذلك اللّقاء قد تمّ في ملاّلة. ثم ارتحل المهدي إلى المغرب الأقصى صحبة عبد المؤمن.

وحسب رواية ابن القطّان[27]، فقد لقي ابن تومرت في بجاية بعض الشبّان المرتدين لأزياء النّساء، وقد أثاروا إعجاب فاسدي الأخلاق، فوضع حدًّا لهذا المنكر. وفي أحد الأعياد[28] رأى الرجال مختلطين بالنساء والصبيان، وهم مرتدون أفخر الملابس، وعيونهم مُكَحَّلة، فانهال عليهم ضربًا، وآل الأمر إلى التشاجر وتجريد النّساء من مجوهراتهنّ. ولما علم العزيز بذلك أمر بعض الطّلبة بالتحادث مع «فقيه السّوس» الذي تسبّب في هذا الحادث. فاجتمعوا في بيت أحدهم وأحضروا الطعام والشراب. ثم وجّهوا أحد زملائهم لإحضار الإمام من المسجد الذي كان يتردّد عليه، فرفض تلبية دعوتهم. وعند ذلك بعثوا إليه الكاتب عمر بن فلفول الذي نجح في استمالته بالحُسْنى، وحاول إقناعه بالكفّ عن تغيير المنكر. وانتهت المناقشة بتغلّب الإمام على معارضيه.

وهناك بعض الشّهادات الأخرى الجديرة بالذكر.

فقد أكّد المراكشي أنّ أهل بجاية قبلوا ملاحظات ابن تومرت، ولكنّ الأمير أطرده من المدينة[29]. وروى الزركشي أنّ ابن تومرت «انتقل إلى بجاية – وبها والي العزيز ابن المنصور بن الناصر بن علنّاس بن حمّاد الصنهاجي – وكان يجلس على صخرة بقارعة الطريق قريبًا من ديار ملاّلة، وهي معروفة به إلى الآن»، (أي في عصر المؤلّف)[30].

---

25) ورد في النص أنّ هذا المسجد قد بُني قرب دار يَرْزيجَن بن عمر الذي كان يكنّى بأبي محمد، ثم سُمِّي «عبد الواحد». البيذق، 52.

26) البيذق، 53.

27) ليفي بروفنسال، المرجع المذكور.

28) لا شكّ أنه يوم عيد الفطر، كما سبقت الإشارة إلى ذلك آنفًا.

29) المراكشي، طبعة 1847، ص 129.

30) **تاريخ الدولتين**، ص 5.

وحسب رواية ابن خلدون، لاحظ ابن تومرت أنّ العزيز ابن المنصور يعيش في البذخ، فوجّه إليه وإلى ضبّاطه تحذيرًا شديد اللّهجة. وساءته ذات يوم بعض الأفعال، وهو يتجوّل في شوارع المدينة، فكسّر أواني الخمر وآلات الملاهي. فاغتاظ السلطان وجمع مجلس وزرائه. فالتجأ ابن تومرت إلى ملاّلة واحتمى بقبيلة بني وُرْياغل الصنهاجيّة العتيدة. وقد حدّد هذا المؤرّخ تاريخ إقامة المهدي في بجاية بسنة 512هـ/ 1118 – 1119م[31].

وروى المراكشي[32]، نقلاً عن شيخ موحّدي، أنّ عبد المؤمن، عند عودته إلى المغرب الأقصى، بعد فتح إفريقيّة، توقّف في بجاية. وخلال إحدى جولاته في المدينة مرّ من «سُوَيْقَة» بالقرب من الباب المعروف باسم «باب قاطنة». فسأل عن تاجرٍ، فقيل له إنه قد توفّي. فاشترى جميع الدكاكين الموجودة في السّوق وحبّسها على أولاد الفقيد. وتبريرًا لهذه المبادرة، قال عبد المؤمن ما يلي:

أثناء إقامة ابن تومرت في بجاية، بقي الإمام ورفقاؤه عدّة أيام بلا أكل. فاشترى عبد المؤمن من التاجر المذكور خبزًا وإدامًا وعرض عليه رهن كلّ ما كان يملكه آنذاك، وهو «سكّين الدّواة». فرفض التّاجر هذا العرض ورجا من مخاطبه أن يأتي إليه كلّما دعت الحاجة إلى ذلك ليتزوّد منه مجّانًا، لوجه الله تعالى.

ولا حاجة لنا إلى تأكيد ما تكتسيه هذه الرواية والرواية الموالية من صبغة خرافية. فحسب الرواية الأخيرة، اجتاز عبد المؤمن بجاية في نفس اليوم، على صهوة جواده، صحبة يحيى بن العزيز الذي كان مترجّلاً. فأخذ ابن حمّاد الذي كان معفّرًا، يبكي، متوسّلاً إلى عبد المؤمن الذي ذكّره بالواقعة التالية:

بينما كان يحيى بن العزيز يقوم ذات يوم بإحدى جولاته، إذ نظر إليه عبد المؤمن الذي داست عقب قدمه حوافر دابّة الأمير. فأمر يحيى أحد عبيده بتعنيفه.

وبعدما لقّن الخليفة هذا الدّرس للمغلوب على أمره الذي تملّكه الخجل وخشي أن يصيبه ما لا تُحْمَد عقباه، قال له: «إنّما أردت توبيخك». ثم وضع حدًّا لمحنته.

كما نجد صدًى لمرور ابن تومرت من إفريقيّة في **«تاريخ دمشق»** لابن القلانسي[33]. فبعدما أشار هذا المؤلّف إلى رجوع ابن تومرت إلى المغرب إثر رحيله إلى العراق ومصر، وما

---

31) **العبر**، 127/6 – 128؛ **البيان**، 308/1. وقد أشار ابن عذاري، نقلاً عن ابن القطّان، حسبما يبدو، إلى أن المهدي قد حلّ بأغمات سنة 514هـ.

32) المراكشي، المرجع المذكور، 164 – 165.

33) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، 291 – 293.

قام به من نشاط في المغرب الأقصى، حيث شرع في نشر «مذهب الفكر»، اعتبارًا من سنة 512هـ، روى، حسب شاهد عيان[34]، قصّة إقامة ابن تومرت في المهديّة، فقد قدم المهدي من السّوس، حيث تمكّن من استمالة عدد كبير من المصامدة، ولمّا وصل إلى المهديّة أمر أهلها بأن يبنوا قصرًا «على نيّة الفكرة»[35] وأن «يعبدوا بالفكرة»[36]. فوافق على ذلك علماء المهديّة وفقهاؤها في اجتماع عامّ، باستثناء واحد من أجلاّئهم، أنكر اقتراح الإمام بشدّة حتى انتهى الأمر بإلغاء مشروع ابن تومرت وفراره من المهديّة، دون أن يتمّ له ما كان يرومه. وإثر هذه الخيبة، تحوّل إلى بجاية، فحرّم فيها شرب الخمر وكسّر أواني الخمور. ولمّا استدعاه والي المدينة ميمون بن حمدون، رفض المال الذي عرضه عليه تعفّفًا وتزهّدًا.

وروى الزركشي أنّ ابن تومرت «له بمدينة زويلة مسجد يُعرَف باسمه، (وهو بلا شكّ مسجد المهدي). قال الشيخ أبو الحسن البطرني: رأيت شيخنا خليلا المزدوري قال: رأيت الشيخ الصّالح أبا عبد الله محمّد الصقلّي[36] المدفون بثابر من عمل مرناق، إحدى قرى تونس، قال: اجتاز عَلَيَّ الإمام المهدي وأنا أسكن بزويلة، فقال لي: يا شيخ الإمام أبو حامد (الغزالي) يسلّم عليك! قال البطرني: وبلغني أنّ الصقلّي عاش ثلاثمائة سنة وثلاث عشرة سنة»[37].

وأضاف الزركشي قائلاً:

«ثم إنّ المهدي انتقل إلى تونس مدّة بني خراسان الولاة عليها. ثم انتقل إلى بجاية، وبها والي العزيز ابن المنصور ابن الناصر بن علنّاس الصنهاجي».

وأقلّ ما يمكن أن يُقال في هذه الروايات المتعدّدة، أنّها أقرب إلى الخرافة منها إلى التاريخ. ولكنّ الغالب على الظنّ أنّ روايَتَيْ ابن القلانسي والزركشي تشيران إلى زيارة ابن تومرت الأخيرة إلى المهدية.

---

34) وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الجبّار الصقلي، أي نفس الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد الصقلّي الذي أشار إليه الزركشي، **تاريخ الدولتين**، 4.

35) [أي مسخرًا لمذهب المهدي].

36) وهو نفس الشخص الذي أخبر ابن القلانسي باقامة ابن تومرت في المهديّة.

37) **تاريخ الدولتين**، 4. وحول السؤال المتعلق بالتقاء ابن تومرت بالإمام الغزالي، أنظر: ميرندا، المرجع المذكور 29/1 – 32 وغولد زيهر: محمد ابن تومرت وعلم التوحيد الاسلامي بشمال إفريقيا في القرن الحادي عشر، مقدمة كتاب ابن تومرت، الجزائر 1903، ص 5 وما بعدها. لوتورنو، (Le Tourneau): هل اجتمع الغزالي بابن تومرت؟ نشرية الدراسات العربيّة، 1947، ص 147 – 148.

وفي الختام نلاحظ أنّه ليس من المستبعد أن يكون ابن تومرت، بعدما أبحر من المرية، قد توقّف في المهديّة حوالي سنة 501هـ/ 1108م، في مدّة تميم، ثم رجع إليها سنة 505هـ/ 1111-1112م في مدّة يحيى. وبعدما قضى زهاء العشر سنين في المشرق عاد إلى المغرب حوالي سنة 510-511هـ/ 1116-1118م. ويبدو أنه مرّ خلال رحلته من المدن التالية: طرابلس - المهديّة - المنستير - تونس - قسنطينة - بجاية (حيث كان موجودًا سنة 512هـ، وقد قضى بها شهر رمضان/ 16 ديسمبر 1118 - 14 جانفي 1119م) - ملاّلة، وقد التقى فيها بعبد المؤمن بن علي، وأقام بها عدّة شهور، قبل عودته إلى المغرب الأقصى، سالكًا الطريق الساحليّة، إلى أن وصل إلى تلمسان[38].

فهل كان يخطر ببال الصنهاجيّين أنّهم قد شهدوا مرور الرّجل الذي سيبعث دولة جديدة وسيعمد بعد ذلك بحوالي أربعين سنة إلى الإجهاز على دولتهم؟

38) أنظر: هويسي ميرندا، المرجع السابق، لا سيما الخريطة المنشورة بين ص 40 و41 وص 59. وقد قضى ابن تومرت سنة 513هـ/ 1119-1120م في قطع المسافة الفاصلة بين ملالة وسلا. وأقام بمرّاكش في أوائل سنة 514هـ/ ربيع وصائفة سنة 1120م ثم تحوّل إلى أغمات وقضى بها شتاء سنة 514هـ/ 1120-1121م.

الفصل الرّابع
ولاية الحسن بن علي وغزو النّرمان إفريقيّة

ارتقاء الحسن إلى العرش[1] :

لقد وُلِدَ وليّ العهد الحسن بن علي بسوسة في رجب سنة 502هـ/ 4 فيفري – 5 مارس 1109م ، وكان عمره عندما ارتقى إلى العرش اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر. وغداة وفاة أبيه ، حسب الاحتمال ، «دخل الناس إليه مهنّئين بالمُلْك ومعزّين بالوفاة ، وأنشده الشّعراء»[2].

«وركب على عادته وطاف البلاد وفرح النّاس به وفرّق أموالاً في العبيد والأجناد وخلع على أصحاب دولته وأكابر أجناده»[3].

«وتكفّل بأمر دولته صندل الخادم[4] لا لمعرفةٍ ولا لسياسة»[5] «فلم تطل أيّامه حتى توفّي ، فوقع الاختلاف بين أصحابه وقوّاده ، كلّ منهم يقول : أنا المقدّم على الجميع وبيدي الحلّ والشدّ. فلم يزالوا كذلك إلى أن فوّض أمور دولته إلى قائد من أصحاب أبيه يقال له أبو عزيز مُوَفَّق ، فصلحت الأمور»[6]. ولا نعلم متى ولا كيف أمسك الحسن بزمام الدولة.

وقد كان هذا الأمير يُكَنَّى بأبي يحيى[7]. إلاّ أنّ ديوان الرسائل الفاطمي قد أطلق عليه في سنة 517هـ/ 1123م –كما سنرى– لقب «تاج الخلافة أبي منصور».

1) **البيان**، 308/1 ؛ **الكامل**، 250/10 ؛ النويري ، 166/2 ؛ **العبر**، 161/6 ؛ ابن خلّكان ، 242/2 ؛ **المؤنس**، 89.
2) **البيان**، 308/1.
3) **المؤنس**، 89 ؛ ابن خلّكان ، 242/2.
4) أطلقت عليه المصادر النعوت التالية : المولى – الخادم – الخصيّ [وفي **المؤنس** : القائد].
5) **البيان**، 308/1.
6) **الكامل**. أمّا ابن عذاري فإنّه لم يشر لا إلى وفاة صندل ولا إلى وفاة خليفته.
7) أنظر بالخصوص ، **ديوان** ابن حمديس ، ص 454 ، مع الملاحظ أن القصيدة رقم 46 – 49 تشير إلى انتصار الديماس (517هـ/ 1123م).

هجوم النرمان على المهديّة (قضيّة قصر الديماس)[8] :

في سنة 516 هـ / 1122 م وجّه الخليفة المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ضدّ سواحل قلبريّة أسطولاً بقيادة أمير البحر أبي عبد الله محمد بن ميمون[9] ، فافتتح مدينة نقوطرة وسبى نساءها وأطفالها وقتل شيوخها وسلب جميع ما وجده فيها.

فاقتنع رُجَار الثاني بأنّ هذا العمل العدواني ناتج عن الحلف المبرم بين بني زيري والمرابطين في مدّة عليّ، وظنّ أنّ الباعث على ذلك إنما هو الحسن. «فجدّ في تعمير الشواني والمراكب وحَشَدَ فأَكْثَرَ، ومنع من السفر إلى إفريقيّة وغيرها من بلاد المغرب»[10]. ويبدو أنّ الأمر لم يكن يتعلّق بانجاز مشروع مُبَيَّت، بل يتعلّق بتنظيم غارة خاطفة لردع الحسن، لا سيما وقد كانت قضيّة جنوب إيطاليا تشغل بال العاهل النّرماني[11].

«فلمّا انقطعت الطريق عن إفريقية، توقّع الأمير الحسن بن علي خروج العدوّ إلى المهديّة. فأمر باتّخاذ العُدَد وتجديد الأسوار وجمع المُقَاتِلَة، فأتاه من أهل البلاد ومن العرب جمع كثير»[12] واتخذت الدولة جميع الإحتياطات لمواجهة أيّ هجوم متوقّع، بل إنها التمست تدخّل الخليفة الفاطمي لدى البلاط الصقلّي.

ولسرد الوقائع، ليس أحسن من اعتماد **رحلة** التجاني التي وردت فيها رواية غزيرة المعلومات، تتضمّن بعض فصول من البيان الذي وجّهه الحسن إلى سائر الجهات لإعلامها

---

8) أ) أهمّ مصدر هو التجاني، ونجد نفس النصّ في **الحلل**، 243/1 – 246، وفيه فقرة طويلة منسوبة إلى مؤرّخ بني زيري ابن شدّاد، تتضمّن سردًا مفصّلاً للوقائع ونصّ البيان الذي أصدره الحسن. وفي **الخريدة** [قسم المغرب، تونس 1986، النشرة الثالثة، ص 204 – 205]، قصيدة «في مدح حسن بن علي بن يحيى بن تميم، وقد كثر الإرجاف بخروج أسطول صاحب صقليّة إلى إفريقيّة وقصد به المهديّة في سنة سبع عشرة وخمسمائة».

ب) **الكامل**، 260/10 – 261.

ج) **العبر**، 161/6.

د) **البيان**، 309/1.

هـ) **ديوان** ابن حمديس، ص ص 46 – 49، 220 – 224، 225 – 229.

و) ابن ميسّر، 63.

ز) **المؤنس**، 89 – 90.

9) **البيان والعبر**، والتجاني يسمّيه علي بن ميمون.

10) **الكامل**، المصدر السابق.

11) **ستوريا**، 387/3.

12) **الكامل**. لا ينبغي اعتماد الرّقم المبالغ فيه الذي أورده ابن أبي دينار: 100000 راجل و10000 فارس.

بهذا الفتح. ويبدو أنّ ذلك البيان مقتبس من كتاب المؤرّخ الرسمي للدولة، أبو الصّلت أميّة، الذي ينتهي بالضبط في سنة 517هـ[13]. وقد أكّدت المصادر الأخرى تلك المعطيات.

ففي جمادى الأولى سنة 517هـ/ 27 جوان – 26 جويلية 1123م، وجّه كونت صقليّة إلى المهديّة أسطولاً في نحو من ثلاثمائة مركب حُمِلَ على ظهرها ثلاثون ألف راكب وزهاء ألف فارس، بقيادة جرجي الأنطاكي وعبد الرحمان بن عبد العزيز المسمّى في المصادر المسيحيّة «كريستو دولوس»[14].

ولمّا سار الأسطول من مرسى علي[14م]، تعرّض لعاصفة بحريّة عنيفة، فرّقته وكبّدته خسائر فادحة. وقد علم الحسن بإبحار الأسطول النّرماني وبالكارثة التي أصابته بواسطة ركّاب سفينة نرمانيّة دفعت بها العاصفة إلى سواحل إفريقيّة. «ونازل مَنْ سلم منهم جزيرة قَوْصَرة، ففتحوها وقتلوا مَنْ بها وسبوا وغنموا وساروا عنها، فوصلوا إلى إفريقيّة»[15].

ولمّا أحيط الحسن علمًا بالأمر، كان له من الوقت ما يكفيه لاتّخاذ الإجراءات الدفاعيّة القصوى. وقد ذكر شاعره ابن حمديس اسم القائد العام للجيش، وهو أبو إسحاق إبراهيم[16]، واسم قائد القبائل العربيّة من بني هلال وبني رياح الذين عزّزوا جانب الجيوش النظاميّة بنو دهمان وبنو زياد وبنو صخر، وهو محرز بن زياد[17].

فلمّا كان يوم السبت لخمسٍ بقين من جمادى الأولى سنة 517هـ (21 جويلية 1123م)، وصل أسطول رُجَار[18] (الثاني) إلى المهديّة، فأرسى بالجزيرة المعروفة بجزيرة الأحاسي[19]، وهي على عشرة أميال من المهديّة. ونزل قائداه عبد الرحمان (بن عبد العزيز) وجرجي (الأنطاكي)[20] إلى الجزيرة وضُرِبَتْ لهما ولمقدّمي الفرنج مضارب هناك،

---

13) **البيان**، 309/1 : «إلى هنا انتهى كلام أبي الصّلت في أخبار المهديّة وأميرها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم إلى سنة 517هـ».

14) **ستوريا**، 360/3 – 363 ؛ شالندون، 373/1 – 374.

14م) مرسى علي: Marsala

15) **الكامل**.

16) **ديوان** ابن حمديس ص 222 – 228. ولا نعلم أي شيء آخر عن هذا الشخص.

17) **ديوان** ابن حمديس، ص 223.

18) في الأصل: «لُجَار».

19) الأحاسي: جمع حِسى أو حِسي وهو البئر الموجودة في أرض رمليّة.

20) [في الأصل: «جرجير»].

وكان وصولهم آخر النهار. فخرج منهم خلق كثير وانبسطوا حتّى بعدوا عن البحر أميالاً ثم عادوا إلى الجزيرة[21].

«ووصل القائدان في اليوم الثاني (26 جمادى الأولى 517هـ / 22 جويلية 1123م) في البحر في بعض قطعهم (300 شانية) إلى المهديّة، فأطافا بها وانتهيا إلى ساحل زويلة، فهالهما ما رَأَيَا بالأسوار والسواحل من النّاس، وانصرفا عائِدَيْن إلى الجزيرة. فوجدا طائفة من العرب والأجناد قد دخلوا إليها وكشفوا مَنْ كان بها من الروم عن مواضعهم وقتلوا منهم قومًا وانتهبوا بعض أسلحتهم.

«فلمّا كان في اليوم الثالث (الاثنين 27 جمادى الأولى / 23 جويلية) تمكّن النصارى من القصر المعروف بقصر الديماس[22] وحصل به زهاء مائة منهم بإعانة بعض الأعراب لهم على ذلك[23]، لِمَا منّاهم به عبد الرحمان وصاحبه. وقد كان رُجَار أمرهما بذلك من النزول بجزيرة الأحاسي والتحيّل في أخذ قصر الديماس بمباطنة العرب، ثم الزحف من هناك في البرّ بالرجال والخيل إلى المهديّة.

«فلمّا كان اليوم الرابع (الثلاثاء 28 جمادى الأولى / 24 جويلية) اجتمع المسلمون وخرجوا من المدينة وكبّروا تكبيرة راعت مَنْ في الجزيرة، فظنّوا أنهم داخلون إليهم، فانهزموا إلى مراكبهم وقتلوا بأيديهم كثيرًا من خيلهم. ودخل المسلمون الجزيرة وليس بها أحدٌ منهم، فوجدوا فيها خيلاً (400 فرس) وآلات وأسلحة أعجلهم الهرب عن حملها»[24].

وعند ذلك زحف الأعراب على قصر الديماس الذي اعتصم به زهاء مائة نرماني.

---

21) جاء في بيان الأمير الحسن أنّ النرمان «أنزلوا عن ظهور مراكبهم ما كان أبقاه الغرق من أفراسهم، فكانت خمسمائة فرس».

22) يوجد هذا الحصن بالقرب من قرية البقالطة الحالية الواقعة في منتصف الطريق الرابطة بين المنستير والمهديّة. وحول معنى ديماس أنظر: دوزي، الملحق، 460/1. وأشار حسن حسني عبد الوهاب في فصله: «المدن العربية المنقرضة» (تحية ويليام مارسي، باريس 1950، ص 14) أنّ هذه الربوة تشتمل على بقايا رباط أقيم في موقع مدينة تَبْسا أو تبسوس، العتيقة.

23) وقعت الإشارة إلى هذه الخيانة في **ديوان** ابن حمديس ص 221، وفي الرواية المنسوبة إلى أبي الصّلت وكذلك في البيان الرّسمي، الذي لم يذكُر سوى خائن واحد، مراعاةً للأعراب. أما المصادر الأخرى (**البيان** و**الكامل** و**العبر**) فانها لم تشر إلى هذه الواقعة المحتملة، رغم أنه من الممكن أن تكون ذريعة للتنقيص من أهمّيّة هذه الهزيمة الجزئية. ولكنّ بيان الأمير الحسن قد أشاد بالأعراب، فلا يمكن أن يختلق هذه الخيانة، بل بالعكس من ذلك، فإنه قد أشار إليها على مضض. على أن الأعراب هم الذين كانوا يدافعون عن الحصن حسب ابن الأثير.

24) **رحلة التجاني**، 336.

«فجرّدنا[25] من خيلنا من تولّى أمره ، وباشر حصره. إذ كانت العرب لا تباشر مثل هذا ، إنما تعرف الحُصُن [ج. حصان] لا الحصون ، وإنما يعظم غناؤها في السهول لا الحزون».

ويواصل التجاني روايته قائلاً :

«وأحاط (المسلمون) بقصر الديماس يقاتلونه ، والأسطول في البحر يعاين ذلك ولا يستطيع إغاثة مَنْ في القصر ، لكثرة ما اجتمع في البرّ من عساكر المسلمين ، فلما علموا أنهم غير قادرين على استنقاذ مَنْ في القصر ، أقلعوا عائدين إلى صقليّة»[26].

«وكان عدد المراكب الواردة من صقلية ثلاثمائة مركب ، فلم يرجع منها إلى صقلية إلاّ قدر مائة مركب ، ولم يَنْجَ من الخيل إلاّ فَرَسان»[27].

وتواصل حصار الديماس ستة عشر يومًا ، فطلب مَنْ في القصر من النرمان الأمان من الحسن[28] ، بل اقترح عدد منهم دفع فدية غالية للنجاة بأنفسهم. فلم يستجب الأمير لطلبهم ، إرْضاءً للأعراب الذين رفضوا ذلك العرض.

«وأقام المسلمون يقاتلون مَنْ في القصر إلى أن اشتدّ عليهم الحصار وفنى ماؤهم وطعامهم ، فخرجوا منه ليلة الأربعاء الرابع عشر من جمادى الأولى (ليلة 5 أوت) ، فتخطّفتهم سيوف الأعراب ، فقُتِلوا عن آخرهم»[29].

ولمّا رجع الفرنج مقهورين ، أرسل الأمير الحسن البشرى إلى سائر البلاد ، وقال الشعراء في الحادثة ، فأكثروا»[30].

ورغم عدم استغرابنا من هذا الابتهاج ، فانه يحقّ لنا أن نتساءل هل أنه لا يدلّ على جسامة الخطر الذي وقع تفاديه ، والتخوّف من المستقبل؟.

ومهما يكن من أمر ، فان المؤرّخ ابن مُيَسِّر[31] قد أخبرنا بوصول رسول الأمير تاج الخلافة أبي منصور الحسن بن علي ، صاحب المهديّة إلى القاهرة في شهر جمادى الأولى سنة 517 هـ/ 27 جوان – 26 جويلية 1123م ، لتقديم شواهد الطاعة إلى الخليفة باسم الأمير

25) [من بيان الأمير الحسن].
26) **رحلة التجاني** ، 336.
27) **المؤنس** ، 89 – 90.
28) **البيان وديوان** ابن حمديس ، ص 222.
29) التجاني ، المصدر الكذكور.
30) **الكامل** ، 260/10 – 261.
31) ابن ميسّر ، 63.

الحسن وإعلامه بأن حاكم صقلية «رُجَار بن لُجَار» الذي أساء إلى الأمير مرارًا وتكرارًا ، يستعدّ لإشهار الحرب عليه. والتمس الحسن من الخليفة الفاطمي التدخّل لدى رُجَار لمنعه من ذلك . فوجّه الخليفة إلى صقلية رسوله مصطنع الدولة علي بن أحمد بن زين الخدّ. وتمّ الصّلح بين المتخاصِمَيْن. ويُفْهَم من ذلك أنّ العلاقات بين الدولة الفاطميّة وصقلية كانت طيّبة آنذاك. ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّ المؤرّخ الفاطمي قد بالغ عمدًا في أهميّة الوساطة الفاطميّة التي يبدو أنها لم تحرز ما نسبها إليها من نجاح. كما أنّه لم يُشِرْ إلى واقعة الديماس ، ممّا يدلّ على أنّ توجيه الرسول قد سبقها[32]. أضف إلى ذلك أنّه لم يؤكّد أيّ مصدر آخر إبرام الصّلح بين بني زيري والنّرمان بواسطة الخليفة الفاطمي.

ولا شكّ أنّ مجزرة قصر الديماس قد أثارت رغبة الانتقام لدى البلاط الصقلي الذي تأثر تأثّرًا بالغًا بفشل الحملة العسكريّة[33] . فمن الغريب أن يكون ذلك تمهيدًا لإبرام اتّفاق محتمل ! على أنّ المصادر، سواء منها المسيحيّة أو الإسلاميّة[34] ، قد أكّدت أنّ الأعمال الحربيّة تواصلت بين الصقليّين والمسلمين في السنوات الموالية. فقد أخضع رُجَار الثاني لسلطته عدّة جزر من بينها مالطة سنة 1127م / 521هـ. إلاّ أنّ المسلمين ولا سيّما المرابطين هم الذين كانوا يقومون في أغلب الأحيان بالهجومات على سواحل صقلية. ففي صائفة سنة 1127م / 521هـ هجم على مدينتيْ باتي وسرقوسة أمير البحر المرابطي الشهير محمد بن ميمون صاحب الغارة الجريئة على نقوطرة ، فنهبهما وأحرقهما. وأوشك أهل قطانية أن يتعرّضوا لنفس المصير ، لو لم يقع تنبيههم إلى ذلك في الإبان ، حتّى يأخذوا الاستعدادات اللازمة للدفاع عن مدينتهم. وقد بادر رُجَار إلى ردّ الفعل بالتحالف مع كونت برشلونة ريموند الثالث ضدّ المرابطين وإبرام معاهدة معه في جانفي 1128م / أواخر 521 أوائل 522هـ. كما أبرم معاهدة أخرى مع مدينة سافونة يوم 11 ماي من نفس السنة / 9 جمادى الأولى 522هـ ، ممّا يدلّ على رغبة كونت صقليّة في ضمان إيجاد حلفاء له خلال المعركة التي سيخوضها ضدّ المسلمين[35] . إلاّ أنّ قضايا دوقيّة بُويَة التي تمكّن من إخضاعها ، قد تسبّبت في ركود مشاريعه الإفريقيّة طوال عدّة سنوات.

---

32) جرت الواقعة في أواخر جمادى الأولى ووصل الرسول في نفس الشهر.

33) **ستوريا** ، 394/3 – 395.

34) **العبر** ، 161/6 ؛ والتجاني ، 336. وينبغي إتمام هذين المصدرين الغامضين ببعض المصادر المسيحيّة : **ستوريا** ، 385/3 – 386 ؛ وشالندون ، 377/1.

35) **ستوريا** ، 396/3 – 398 وشالندون ، 378/1 – 379.

وبعدما أصبح رُجار الثاني يتحكّم في جنوب إيطاليا وجزيرة صقليّة ، تلقّب بلقب المَلِك ، وقد تمّ تتويجه يوم 25 ديسمبر 1130م / 22 محرّم 525هـ[36].

مدينة تونس من سنة 522 إلى سنة 550هـ :

حسب إشارة خاطفة لم يوردها سوى ابن عذاري[37] ، «في سنة 522هـ / (1128م) بعث العزيز بالله بن المنصور صاحب بجاية عسكرًا إلى المهديّة ، قوّد عليه ابن المُهَلَّب ، فنزل عليها ، ثمّ انصرف ناكصًا على عقبه» . ويبدو أنّ الأمر كان يتعلّق بغارة أو محاولة استطلاعيّة ترمي إلى تحضير حملة عسكريّة لاحقة . إذ أنّ المؤلّف لم يتحدّث عن معارك .

ومهما يكن من أمر ، ففي نفس تلك السنة [38] ، هجم على مدينة تونس مُطَرَّف بن علي بن خزرون الزناتي[39] قائد يحيى بن العزيز بن حمّاد . وحسب ابن خلدون[40] ، انطلق مطرّف من بجاية ، فاحتلّ جلّ مدن إفريقيّة قبل أن يستولي على تونس . وهذا الإدّعاء الذي لم يؤكّده أيّ مصدر آخر ، لا يمكن الاعتماد عليه . إلاّ أنّه ليس من المستبعد أن يكون القائد الحمّادي قد أخضع في طريقه بعض المدن قبل الاستيلاء على مدينة بني خراسان .

وعندما وصل مطرّف إلى مدينة تونس خرج إليه أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحقّ بن خراسان واستسلم بين يديه . «فنُقِلَ إلى بجاية وبها مات»[41] . وولّى مطرّف كرامة بن

---

36) ستوريا ، 399/3 – 403 وشالندون ، 379/1 ، 1/2 – 2 .

37) **البيان** ، 310/1 ، وقد سمّي ابن حمّاد خطأً العزيز ، والحال أن هذا الأمير قد توفي سنة 515 أو 518هـ .

38) **البيان** ، 310/1 ؛ **العبر** ، 164/6 .

39) **البيان** ، 310/1 . وقد حافظنا على قراءة «خزرون» ولو أنّ المؤلّف يسمّيه في موضع آخر (312/1 – 315) : علي بن حمّود . وحسب ابن خلدون والتجاني وابن الأثير : مطرّف بن حمدون . ويمكن تفسير هذا الالتباس بالدور الذي قام به بنو حمدون في بجاية . ومن ناحية أخرى فقد وُصِفَ مطرّف عدة مرات بالفقيه (التجاني والحلل والمؤنس) . وبسبب الالتباس أو تحريف النصّ ، حسبما يبدو ، قال ابن خلدون (**العبر** ، 177/6) أنّ مطرّف وجّه «ولده» ضدّ تونس . فهل نستنتج من ذلك أن هذا الأخير قد رافق أباه؟ ويضيف نفس المؤرّخ أنّ الهجوم الّذي وُجِّه ضدّ المهديّة بدون جدوى قد تمّ أثناء هذه الحملة .

40) **العبر** ، 164/6 .

41) **البيان** ، 310/1 : «ونقل إلى الحجاز وبها مات» . ولكننا نجد في موضع آخر من نفس الكتاب (315/1) : «فنقله إلى بجاية» . ولذلك فاننا نقترح إصلاح الفقرة السابقة كما يلي : «ونُقِلَ إلى بجاية وبها مات» . اللّهم إلا إذا اعتبرنا أنّ أحمد قد تحوّل إلى الحجاز قبل نقله إلى بجاية ، وبه مات . ومع ذلك فإنّه يتعيّن تأكيد الإصلاح المذكور الذي يرتكز على نصّ **البيان** ذاته .

المنصور بن حمّاد عمّ يحيى بن العزيز، الذي بقي واليًا على تونس إلى أن مات سنة(كذا). فخلفه أخوه أبو الفتوح بن المنصور، وتوفّي وهو مباشر لولاية تونس. ثم وَلِيَهَا بعده ابنه محمد بن أبي الفتوح، «فلم تُسْتَحْسَنَ سيرته، فأُخْرِج عنها ووليها مَعَدّ بن المنصور فأقام عليها إلى سنة 543هـ/ (1148 – 1149م)»[42].

وكانت بإفريقيّة وقتئذ مجاعة عظيمة. وقبل ذلك بقليل سقطت المهديّة وصفاقس[43] بين أيدي النّرمان. «فأخذ أهل تونس في الاستعداد والأهبة والوقوف بجماعتهم وقتًا بعد وقت عند باب البحر، بمحضر واليهم معدّ بن المنصور وهو في الدّيوان[44] على الباب. فخرجوا يومًا من أيّام عرضهم، فوجدوا قاربا يُوسِقُ زرعًا (حبوبًا)، فأنكرت العامّة خروج الزرع من بلدهم في تلك الشدّة إلى موضع تحت مملكة الروم، واجتمعوا على منعه، وضجّت العامّة وارتفع صياحهم، فتعرّض لهم رجال معدّ بن المنصور، فوضعوا السلاح في عبيد معدّ واليهم، وقتلوهم قتلة شنيعة، وأطلقوا النار تحت برج الديوان، فنزل معدّ عنه، واستسلم للعامّة، فوقفوا عنه، فكانوا يأخذون رجاله وعبيده من تحت ركابه ويقتلونهم. وبقي معدّ بعد ذلك بتونس على حال قهرٍ من العامّة، وكتب إلى بجاية، فجاءه غراب [سفينة حربيّة] منها، فطلع فيه مع بنيه، وسار إلى بجاية. ورجع النظر في تونس لقائد من قوّاد صنهاجة (اسمه العزيز بن دافال)[45] مدّة يسيرة، ثم انصرف وبقي البلد في حكم العامّة»[46].

وقبل ذلك بقليل استولى محرز بن زياد أمير قبيلة بني عليّ الرياحيّة على بلدة المعلّقة الواقعة بين تونس وقرطاجنة، فجزع أهل تونس وأشهروا عليه الحرب. وطوال العمليّات الحربيّة التي تخلّلتها انتصارات وهزائم، حظي محرز بمساندة جند المهديّة، إلى أن استولى النصارى على تلك المدينة[47].

---

42) البيان، 316/1.

43) البيان، 313/1، وقد جاء فيه أنّ هذه الواقعة قد جرت بعد سقوط المهديّة. وكان النّصارى قد احتلّوا صفاقس ودخلوا إلى عنابة. والحال أنّهم لم يستولوا على هذه المدينة الأخيرة إلاّ في سنة 548هـ. فلعلّ الأمر يتعلّق بمجرّد غارة خاطفة.

44) [الديوان : مكتب الجمارك]..

45) العبر، 146/6 : دامال.

46) البيان، 314/1.

47) العبر، المصدر المذكور.

«وكان القتال بين أهل باب السويقة وأهل باب الجزيرة[48] ، ومدبّرهم في تلك المدّة قاضيهم أبو محمّد عبد المنعم ابن الإمام أبي الحسن[49].

«ولمّا اشتدّ خوف أهل تونس من صاحب صقلية وممّا سمعوه من غضب صاحب بجاية واستعداده لهم ، أخذوا في تمليك محرز بن زياد العربي[50] بإرادة قاضيهم ، فلمّا عزموا على ذلك ، ووصل محرز إلى تونس وخرج القاضي والأشياخ إلى لقائه ، صاح رجل من العامّة : «لا طاعة لعربي ولا غُزّي». وقامت الفتنة ، فرجع ابن زياد إلى المعلّقة[51] ، وأراد القاضي الرجوع إلى المدينة ، فمنعته العامّة وأخرجته ، فسار مع ابن زياد إلى المعلّقة وأقام بها مدّة طويلة إلى أن مات. فيقال انه كان راقدًا في الصيف في طاق عُلُوّ ، فوقع منها ومات ، ويقال إنه رُمِيَ منها»[52].

ومهما يكن من أمر ، فان أهل تونس ، بعدما أبعدوا محرز بن زياد ، لم يجدوا واليًا يناسبهم. وعند ذلك رأوا أنّ أحسن حلّ يتمثّل في إرجاع أحد بني خراسان إلى الحكم ، ربّما لأنهم ملّوا الفتن أو شعورًا منهم بخطورة الوضع. «فوجّهوا إلى أبي بكر بن إسماعيل بن عبد الحقّ بن خراسان (الذي كان في بنزرت) ، فوصل إلى تونس باللّيل ، فرُفِع في قفّة من السّور»[53]. ولعلّ هذا الدّخول السرّي الذي لا يكفي تفسيره بغلق أبواب المدينة في اللّيل ، يسمح لنا بأن نفترض أنّ أهل تونس لم يكونوا كلّهم راضين عن تولية ذلك الأمير.

وعلى كلّ حال ، فقد تولّى أبو بكر بن خراسان على تونس نحو سبعة أشهر ، «ثم غدر به عبد الله ابن أخيه عبد العزيز ، وأخرجه في قارب في البحر ، فرماه البحر ميّتًا عند قلعة ابن غَبُوش. فيقال إنه غَرِق ، ويقال إنه غُرّق»[54].

«فولّى تونس عبد الله بن عبد العزيز نحو عشر سنين ، (إلى أن فتح الموحّدون المدينة). وهو الذي قتل القاضي أبا الفضل جعفر بن حلوان ، وقتل معه ولده وولد أخته ابن البنّاد ،

---

48) [باب سويقة وباب الجزيرة ربضان تابعان لمدينة تونس].

49) العبر ، 164/6 ؛ والبيان ، 314/1. ويظن أماري (ستوريا ، 436/3) أن ربض باب سويقة تسكنه العامّة وربض باب الجزيرة تسكنه الخاصّة.

50) [في الأصل «محمد»].

51) [في الأصل «القلعة»].

52) البيان ، 314/1.

53) نفس المصدر.

54) نفس المصدر.

لمّا خشي أن يجمعوا عليه العرب»[55]. ولعلّ الأمر كان يتعلّق بمؤامرة مدبّرة لفائدة القائد الرياحي محرز بن زياد.

هجوم بني حمّاد على المهديّة[56] :

في سنة 529 هـ / 22 أكتوبر 1134 – 10 أكتوبر 1135م، وعلى الأرجح في أخر تلك السنة[57]، وجّه صاحب بجاية يحيى بن عبد العزيز بن حمّاد حملة عسكريّة عظيمة ضدّ المهديّة. ويبدو أنّ قسمًا من أهل تلك المدينة قد دعاه إلى القيام بتلك الحملة.

«وكان سبب ذلك – حسب ابن الأثير – أنّ الحسن أحبّ ميمون بن زياد أمير طائفة كبيرة من العرب، ومال إليه وأكثر الإنعام عليه، فحسده غيره من العرب، فساروا إلى يحيى بن العزيز بأولادهم وجعلوهم رهائن عنده، وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكرًا ليملكوا المهديّة»[58]. أفلا يكون هذا الأمير العربي الذي أحبّه الحسن، هو نفس الأمير الذي كان عليّ قد وجّهه إلى جبل وسلات سنة 510هـ/ 1116م لإرجاع الأمن إلى نصابه، وهو ميمون بن زياد الصخري المعادي؟[59] وبما أنّ بني صخر هم من الأثبج، فلا بدّ أن تكون بعض الفرق الهلاليّة الأخرى، ولا سيما منها قبيلة رياح المرتبطة ببني زيري، قد استاءت من تفاقم نفوذ ميمون بن زياد.

ولكننا نلاحظ أنّ هذا الخبر لم يورده سوى المؤلّف المشرقي ابن الأثير دون ذكر المرجع، وأنّ التحليل النقدي للنصّ يسمح لنا بقراءة «محرز» عوض «ميمون». وفي هذه الصورة يكون الأمر متعلّقًا بمحرز بن زياد صاحب المعلّقة الذي سيستقبل فيما بعد الملك الصنهاجي المخلوع الذي أطرده النصارى من المهديّة، فيمكن أن يكون محرز بن زياد هو ذلك الحظيّ الذي «أكثر الحسن الإنعام عليه، فحسده غيره من العرب». لا سيما وأنّ

55) نفس المصدر.

56) **الكامل**، 14/11 وهو أهمّ مصدر؛ **البيان**، 312/1؛ **العبر**، 161/6–162؛ التجاني، 340 – 341؛ **الحلل**، 246/1؛ **المؤنس**، 90. وفي **البيان**، ينبغي تعويض علي بن حمّود، بمطرّف بن علي بن خزرون، والعزيز بن المنصور بيحيى بن العزيز بن المنصور.

57) مصدر واحد، وهو **البيان**، يقول: 530هـ.

58) **الكامل**: ميمون بن زيادة.

59) أنظر الفقرة السابقة من الكتاب حول قضيّة جبل وسلات.

إسراع الحسن إلى الالتجاء لدى ذلك الحظيّ إثر خروجه من المهديّة، قد يؤيّد ذلك الافتراض. ألَمْ يؤكّد ابن الأثير في هذا السياق أنّ الحسن «قد وصل إلى محرز، وكان الحسن قد فضّله على جميع العرب وأحسن إليه ووصله بكثير من المال»؟[60]

ودائمًا، حسب نفس المصدر، أجاب العرب يحيى «وهو متباطئ». ثم أضاف المؤلّف قائلاً:

«فاتّفق أنه وصله كُتُبٌ من بعض مشايخ المهديّة بمثل ذلك». وقد كان بودّنا التعرّف على هويّة هذا الشخص.

ومن ناحية أخرى، أكّد ابن أبي دينار هذا التدخّل الثاني قائلاً: «فكاتب أهل المهديّة يحيى بن العزيز صاحب بجاية وأطمعوه بتسليم البلد»[61]، وذلك لأنّ الحسن قد صالح الملك رُجَار الثاني وأرسل إليه بهديّة وقبل الشروط التي فرضها عليه. ويبدو أنّ الطرفَيْن كانا يرغبان في إبرام الصّلح. ذلك أنّ حكومة المهديّة كانت في حاجة إلى القمح الصقلّي، وكانت تخشى القتال على واجهتين في نفس الوقت، فرأت من الصالح التفاهم مع النّرمان لتتمكّن من مقاومة خطر بني حمّاد على أحسن وجه. وإنّنا نجهل تاريخ المحادثات التي بادر الحسن بإجرائها مع رُجَار الثاني. ومن المحتمل أن تكون قد أُبْرِمَت معاهدة صلح بين العاهلَيْن. ومن المستبعد أن يكون صاحب صقليّة قد أظهر تصلّبًا في موقفه، لأن تصدير الحبوب مربح جدًّا، ولأنّ أعمال الشغب الواجب عليه قمعها، من شأنها أن تؤول إلى إرجاء تنفيذ المشاريع الإفريقيّة إلى موعد لاحق[62].

وبناء على ذلك فقد وجّه يحيى أسطولاً وجيشًا بقيادة مُطَرِّف بن خزرون[63] ضدّ المهديّة، وسلّم إلى ذلك القائد أموالاً لتوزيعها على العرب. «فسارت العساكر الفارس والراجل ومعهم جمع كثير من العرب حتى نزلوا على المهديّة»[64]. فحاصروها من جهة الجنوب وأقاموا معسكرهم بالقرب من زويلة. وتوافد الأعراب على مطرّف من كلّ حدب

60) **الكامل**، 57/11.
61) **المؤنس**، 90.
62) شالندون، 157/2 – 158 وستوريا، 410/2 – 411.
63) [في **الكامل** «ابن حمدون»]، ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بمطرّف بن علي بن خزرون الزناتي.
64) **الكامل**، المصدر المذكور.

وصوب ، «ولم يكن له إرب في القتل ، لإطماع أهل البلد إيّاه . وطال الحصار على أهل المهديّة»[65].

«وكان مطرّف (وهو فقيه أيضًا) يظهر التقشّف والتورّع عن الدّماء ، وقال : «إنّما أتيت الآن لأتسلّم البلد بغير قتال» . فخاب ظنّه ، وبقي أيّامًا لم يقاتل ، ثم إنهم باشروا ، فظهر أهل المهديّة عليهم ، وأثّروا فيهم . وتتابع القتال ، وفي كلّ مرّة كان الظّفر لأهل البلد ، وقتل من الخارجين الجمّ الغفير . وجمع مطرّف عسكره برًّا وبحرًا ، لمّا يئس من التسليم ، وقاتل أشدّ قتال . فملكت شوانيه شاطئ البحر وقربوا من السّور ، فاشتدّ الأمر ، فأمر الحسن بفتح الباب ، وخرج أوّل النّاس ، وحمل هو ومَنْ معه عليهم ، وقال : «أنا الحسن» ! فلما سمع من يقاتله ذلك ، سلّموا عليه ، وانهزموا عنه إجلالاً له»[66].

والجدير بالملاحظة أنّ هذه الصّورة البطوليّة التي أُضْفِيَت على خروج الحسن من المدينة ، لا تخلو من عظمة . ولكن يصعب علينا التصديق بأنّها قد أثّرت مثل ذلك التأثير في الخصم . ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بتأويل شبه خرافي أقرب إلى التمجيد منه إلى التاريخ . ولكنّنا نستخلص من هذه الرواية أنّ الهجوم الذي شنّه مطرّف قد مُنِي بفشل ذريع ، وليس ذلك بالأمر الغريب ، لأنّه يستحيل عمليًّا الاستيلاء على مدينة حصينة مثل المهديّة عن طريق البرّ .

«ثمّ أخرج الحسن شوانيه تلك الساعة من الميناء ، فأخذ منها أربع قطع وهرب الباقون[67] . وحسب رواية ابن عذاري[68] ، لم يأخذ الحسن من أسطول بجاية سوى غُرَابَيْن ، وأمر بسجن قائدَيْهما . وبعد رحيل مطرّف ، «أمر الحسن بقتل القائدَيْن ، فقُتِل أحدهما بين يديه ، ووُجِد الآخر قد مات من سهم كان أصابه» .

ثمّ وصل الأعراب بقيادة ميمون بن زياد[69] ، لنصرة الحسن . كما وصلت نجدة من رُجَار صاحب صقليّة في البحر في عشرين قطعة .

---

65) **المؤنس** ، 90 .

66) حسب **الكامل** .

67) نفس المصدر .

68) **البيان** ، 312/1 .

69) أو محرز بن زياد؟

وحسب ابن أبي دينار، «أَمَرَ رُجار المقدّم على الأسطول أن يقف عند أَمْرِ الحسن وَنَهْيِه»[70]. أمّا ابن خلدون[71]، فإنّه أكّد أنّ الحسن قد استولى عليه الفزع، لمّا شعر بالخطر المحدق به، فأسرع إلى إبرام الصّلح مع صاحب صقليّة، وبمقتضى ذلك أمكنه الاستعانة بالأسطول الصقلّي. ولكنّنا أسلفنا أنّ رُجار الثاني والحسن كانا مرتبطَيْن بمعاهدة صلح، قبل هجوم بني حمّاد. والأقرب إلى الواقع أنّ الحسن قد التمس المساعدة من حليفه. ويبدو أنّ المؤرّخ قد استنتج من ذلك إبرام اتّفاقية ديبلوماسيّة بين العاهلَيْن.

وإثر فشل الهجوم على المهديّة برًّا وبحرًا، ووصول ميمون بن زياد[72]، «في كثير من العرب لنصرة الحسن، وكذلك وصول نجدة صاحب صقليّة، علم مطرّف أنه لا طاقة له بهم».

«فحصر الأسطول الصقلّي شواني صاحب بجاية، فأمر الحسن بإطلاقها»، لأنّه كره سفك دماء المسلمين، على حدّ تعبير ابن أبي دينار. ولمّا علم مطرّف باقتراب الأسطول المسيحي، «ارتحل عن المهديّة مُسْرِعًا»، في اتّجاه بجاية[73]. وقد دام حصار المهديّة سبعين يومًا.

وبعد رحيل الأسطول الصقلّي، كاتب الحسن رُجَار الثاني ليشكره على مساعدته، وتبادل معه عرابين السّلام والصداقة. وربّما لا ينبغي تصديق ما ادّعاه ابن أبي دينار، لمّا قال إنّ الحسن أعلم رُجَار «إنّه داخل تحت أمره ونهيه». بينما يؤكّد ابن الأثير أن رُجَار «قد أظهر للحسن أنّه مهادنه وموافقه، وهو مع ذلك يعمّر الشّواني ويكثر عددها وآلاتها»[74].

وفي نفس الفترة تقريبًا استمرّت الجمهوريّات الإيطاليّة في الإغارة على سواحل إفريقية الشماليّة. من ذلك أنّ أسطولاً قادمًا من بيزة ومعزّزًا بسفن تابعة لجنوة بل حتى للبروفانس، قد استولى على عنّابة في سنة 528 – 529هـ / 1134م، وعاث فسادًا في سواحل إفريقيّة، حتى شاطئ قرطاجنّة، وقد أخبرتنا بهذه الغارة المصادر المسيحيّة[75] التي ذكرت أيضًا أن

---

70) **المؤنس**، 90.
71) **العبر**، 6/161 – 162.
72) أو محرز بن زياد؟
73) **رحلة التجاني**، 340.
74) **الكامل**.
75) ماس لاتري، **المقدمة**، 8.

البيسانيّين قد استولوا على طبرقة في سنة 534 – 535هـ / 1140م واستغلّوا رصيفها المرجاني. ويبدو أنّ تجارة المرجان كانت من اختصاص مدينة تونس[76].

استيلاء النّرمان على جزيرة جربة[77] :

استولى النّرمان على جربة في أواخر 529هـ / أوائل 530هـ، وربّما في خريف سنة 1135م[78]. «وكانت جزيرة جربة من بلاد إفريقيّة قد ٱسْتَوَتْ في كثرة عمارتها وخيراتها، غير أنّ أهلها طغَوْا، فلا يدخلون تحت طاعة سلطان، ويُعْرَفون بالفساد وقطع الطريق»[79]، وذلك منذ أن استولى عليها عليّ سنة 510هـ / 1116م.

«فخرج إليها جمع من الفرنج (ومن رجال المسلمين)[80] من أهل صقليّة، في أسطول كثير وجمّ غفير، فيه من مشهوري فرسان الفرنج جماعة. فنزلوا بساحتها وأداروا المراكب بجهاتها واجتمع أهلها وقاتلوا قتالاً شديدًا، فوقع بين الفريقين وقعات عظيمة، فثبت أهل جربة، فقُتِلَ منهم بشر كثير، فانهزموا وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا حريمها ونساءها وأطفالها، وهلك أكثر رجالها، ومَنْ بقي منهم أخذوا لأنفسهم أمانًا من صاحب صقليّة، وافتكّوا أسراهم وسبيهم وحريمهم»[81].

«دخلت جزيرة جربة تحت طاعة رُجَار وولّى عليها عاملاً من قِبَله»[82]، وفرض عليها الجزية.

والواقع أنّ الأمر كان يتعلّق بالنّسبة إلى ملك النّرمان بمحو ذكرى الفشل الذي مُنِيَ به سنة 517هـ / 1123م، أكثر ممّا يتعلّق بعقاب القراصنة، وكان يتعلّق بالخصوص بالحصول

---

76) نفس المؤلّف : بيبليوغرافيا مدرسة شارت، 5/السلسلة الثانية، 1848، 135.

77) **البيان**، 312/1؛ **الكامل**، 14/11 – 15؛ النويري، 166/2 – 167؛ **تاريخ أبي الفداء**، 10/3؛ التجاني، 124؛ **الحلل**، 170/1؛ **المؤنس**، 90 – 91.

78) الإدريسي : أواخر 529هـ؛ **البيان**، 530هـ. والمصادر الأخرى : 529هـ.

79) **الكامل**، 14/11 – 15.

80) زيادة من **المؤنس**.

81) **الكامل**، المصدر المذكور.

82) **المؤنس**.

على قاعدة بحرية في خليج قابس ، في سبيل إنجاز المشروع الذي كان يفكّر فيه رُجار، والمتمثّل في غزو إفريقيّة ، وعلى الأقلّ سواحلها .

وقد كانت تربط بين صقليّة ومصر عهدئذ علاقات وديّة تجاريّة وديبلوماسيّة . فأخبر رُجَار الثاني الخليفة الفاطمي باستيلائه على جربة . وفي ردّه الذي يمكن تحديد تاريخه بسنة 1137 ، وقد احتفظ القلقشندي بنصّه[83] ، أجاب الحافظ بأنه يعتبر ذلك الإستيلاء عمليّة مشروعة .

وقد حلّل السيد كنار هذه الوثيقة تحليلاً صائبًا . فافترض «أنّ هذه القضيّة ربّما كانت موضوع مراسلة سابقة وأنّ رسالة رُجَار الثاني المُشَار إليها هنا كانت ردًّا على طلب استفسار صادر عن الخليفة»[84] . ويبدو أنّ رُجَار قد تعلّل بضرورة القضاء على جحر القراصنة الذي عانت منه بلا شكّ سُفُنُه ذاتها . على أنّ وضع الجزيرة آنذاك قد جعل منها منطقة تكاد تكون مستقلّة عن أمراء المهديّة . كما أنّ أهل جربة كانوا لا يحترمون قطّ الاتفاقات المبرمة بين الحسن والنّرمان ، ويرون أنّها لا تعنيهم . ونظرًا للعلاقات الوديّة التي كانت قائمة بين بني زيري والفاطميّين منذ عهد يحيى بن تميم ، فقد شكّ السيد كنار في صدق المشاعر التي عبّر عنها الحافظ . إلاّ أنّ عدم اكتراث الخليفة المثير للاستغراب ، قد يكون ظاهريًّا وشكليًّا ليس إلاّ ، بل يمكن أن يكون قد أملاه عليه حرصه على المحافظة على العلاقات الطيّبة التي كانت تربطه بصاحب صقليّة المُخْطِر .

ومهما يكن من أمر ، فإننا سنرى كيف سيستحوذ الأسطول النّرماني بعد ذلك بقليل على عدد من السّفن الموجّهة من مصر إلى الحسن ، وحتى على سفينة مشحونة بهدايا موجّهة إلى الحافظ ذاته .

ولم تحاول جربة عبثًا استرجاع حريّتها إلاّ في سنة 548هـ / 1153م . قال التجاني نقلاً عن أبي الصّلت :

«فلمّا كانت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ثار أهلها على النّصارى وقتلوا منهم جماعة كثيرة ، فغزاهم النّصارى من عامهم وتغلّبوا على الجزيرة ثانيةً ، فنقلوا أكثر أهلها سبايا إلى بلادهم ولم يبقوا بها إلاّ من لا بال له»[85] .

---

83) **صبح الأعشى** ، 6/458 – 463 .

84) Canard ، **رسالة من الخليفة الفاطمي الحافظ إلى رُجَار الثاني...** ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 ، 91 – 92 .

85) التجاني ، 126 .

القضيّة الحمّاديّة الزيريّة البحريّة والعلاقات مع الفاطميّين[86] :

وفي نفس الفترة تقريبًا ، حاول يحيى بن العزيز استعطاف الخليفة الفاطمي الحافظ (524 – 544 هـ / 1130 – 1149 م).

«في سنة 536 هـ (1141 – 1142 م) – حسب رواية ابن عذاري المقتضبة جدًّا من سوء الحظّ – أخذ صاحب المهديّة المركب الذي أنشأه صاحب بجاية ، وبعثه بهديّة إلى صاحب مصر. وسبب ذلك أنه كان في الإسكندرية مركب للحسن صاحب المهديّة عطّله عن السّفر صاحب الديوان[87] ، لأنّه سعى في الشتات بين الحسن وبين صاحب مصر ، وقصد المواصلة بين صاحب مصر وصاحب بجاية»[88].

«فأقلعت المراكب ، وبقي هو محبوسًا. وأقلع في جملتها المركب البجائي ببضائع عظيمة لها شأن ، وأثمان للتجّار ، وهديّة إلى صاحب بجاية. فعمل عليه الحسن وأخذه وأمر بتفريغه. وبقي المركب فارغًا حتى جاءت صدمة[89] أكتوبر ، فانكسر».

وفي نفس السّنة ، استحوذ جُرْجي الانطاكي على المركب الجديد الذي «أنشأه الحسن من خشب المركب الذي انكسر لصاحب مصر»[90].

هجوم جرجي الأنطاكي على المهديّة ومعاهدة سنة 536 هـ[91] :

حسب رواية ابن أبي دينار ، في سنة 536 هـ / 1140 – 1141 م ، «ابتدأت الوحشة بين رُجَار والحسن ، بسبب مال استسلفه [اقترضه] الحسن من بعض وكلاء رُجَار وماطله به»[92]. وسنرى فيما بعد[93] أنّ صقليّة كانت لا تسلّم قمحها إلاّ مقابل مبلغ معلوم من

---

86) **البيان** ، 312/1.

87) صاحب الديوان = رئيس الجمارك.

88) اننا نستغرب من هذه المبادرة التي اتخذها شخص مرؤوس.

89) [صدمة أكتوبر : أي عاصفة بحريّة].

90) **البيان** ، 312/1 – 313.

91) نفس المصدر. أنظر أيضًا : **الكامل** ، 41/11 ؛ التجاني ، 340 – 341 ؛ **الحلل** ، 246/1 ؛ **المؤنس** ، 90 – 91.

92) **المؤنس** ، المصدر السابق.

93) أنظر الباب العاشر.

الذهب. ولذلك يبدو أنّ الأمر كان يتعلّق بقرض نقدي لتمويل شراء القمح، أكثر مما كان يتمثّل في عملية بيع لأجل.

ولمّا علم رُجَار الحريص على استخلاص أمواله، بواسطة جواسيسه المقيمين بالمهديّة، بوجود مراكب مشحونة بالسلع في ذلك الميناء، كانت تتأهّب للإقلاع، وجّه في الحين قائد أسطوله جرجي الأنطاكي في خمسة وعشرين غرابًا. فهجم الأسطول الصقلّي على مرسى المهديّة واستحوذ على المراكب الراسية هناك، ولا سيما «المركب الذي كان الحسن قد احتفل فيه وشحنه بذخائر ملوكيّة ليوجّه بها إلى الحافظ العُبَيْدي صاحب مصر، وكان ذلك المركب يسمّى «بنصف الدنيا»[94].

وحسب رواية غريبة أوردها ابن الأثير، «أخذ رُجَار الفرنجي مراكب سُيِّرَت من مصر إلى الحسن صاحب إفريقيّة»[95].

وبما أنّ رُجَار الثاني والحسن كانت تربط بينهما معاهدات، فقد اتّهم الإخباريّون «اللّعين» بغدر الحسن.

وأكّد التجاني أنّ رُجَار «لم يزل يوالي الغزو على المهديّة بأساطيله والمقدّم عليها جرجير (جرجي) المذكور، إلى أن دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة»[96]. ولا شكّ أنّ المؤلّف يشير إلى تفاقم السياسة العدوانيّة التي بدأ تنفيذها اعتبارًا من احتلال جربة في سنة 1135م / 529 – 530هـ.

والغالب على الظنّ، حسب بعض الروايات[97]، أنّ الحسن الذي ضُيِّقَ عليه الخناق وأصبح في حاجة أكثر فأكثر إلى القمح الصقلّي، وهو يفتقر إلى النقود وليس لديه من القوّات البحرية ما يكفي للدفاع عن مدخل المهديّة، قد وجّه وفدًا إلى رُجَار الثاني سنة 536هـ أو ما يقارب ذلك التاريخ، لالتماس الصلح. وقد اضطرّ إلى قبول شروط مجحفة إلى حدّ أنّ ابن أبي دينار الذي يبدو أنّه بالغ في ذلك، قد زعم أنّ الحسن بقبوله لشروط رُجَار «قد دخل في طاعته وأصبح عاملاً من عمّاله»[98]. أفلا يدلّ الحديث عن «حماية اقتصاديّة» على أنّه ناتج عن خطإ تاريخيّ؟

---

94) التجاني، 34؛ و Canard، المرجع المذكور، ص 133.

95) الكامل، 41/11.

96) التجاني، 340.

97) الكامل والمؤنس.

98) المؤنس.

كما ذكر نفس المؤلّف أنّ الحسن ، قبل إرسال الوفد إلى رُجَار الثاني ، «أهدى إليه عدّة أسارى ، فلم تُغْنِ عنه شيئًا». فلعلّ الأمر يتعلّق بالصقليّين الذين وقعوا في الأسر أثناء الهجوم الأخير الذي شنّه جرجي الأنطاكي على المهديّة ، أو يتعلّق ببعض الأسرى المسيحيّين من ضحايا عمليّات الغزو في البحر التي كان يقوم بها بنو زيري.

هجوم النّرمان على طرابلس وجيجل[99] :

في سنة 537هـ/ 1142 – 1143م حاول النّرمان الاستيلاء على طرابلس التي لم يدخل أهلها في طاعة الأمير الحسن. وحسب ابن الأثير ، فان تلك المدينة لم يكن يحكمها بنو خزرون الزناتيّون ، بل شيوخ بني مطروح[100] ، من عرب بني تميم. وخلافًا لذلك أكّد التجاني أنّ طرابلس «لم تزل بأيدي (بني خزرون) الزناتيّين إلى سنة أربعين وخمسمائة»[101].

وقد وصل الجنود الصقليّون إلى طرابلس تاسع ذي الحجّة 537هـ ، «فنازلوا البلد وقاتلوه وعلّقوا الكلاليب في سوره ونقبوه. فلمّا كان الغد وصل جماعة من العرب نجدةً لأهل البلد ، فقوي أهل طرابلس بهم ، فخرجوا إلى الأسطول ، فحملوا عليهم حملة منكرة ، فانهزموا هزيمة فاحشة ، وقُتِل منهم خلق كثير ، ولحق الباقون بالأسطول وتركوا الأسلحة والأثقال والدوابّ ، فنهبها العرب وأهل البلد ورجع الفرنج إلى صقليّة»[102].

وبعد ذلك بقليل ، أي في نفس السّنة ، حسبما يبدو ، نزل النّرمان بمدينة جيجل ، «فلمّا رآهم أهل البلد ، هربوا إلى البراري والجبال ، فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأخربوا القصر الذي بناه يحيى بن العزيز بن حمّاد للنزهة ، ثم عادوا»[103].

واستمرّ رُجَار الثاني والخليفة الفاطمي في تبادل الرسائل[104].

وإذا ما صدّقنا رواية ابن عذاري[105] ، فقد استولى رُجَار الثاني سنة 538هـ/

---

99) **الكامل** ، 42/11 وهو أهمّ مصدر ، **البيان** ، 313/1 ؛ **المؤنس** ، 91 ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 16/3.

100) **الكامل** ، 42/11.

101) التجاني ، 241.

102) **الكامل** ، المصدر المذكور.

103) نفس المصدر.

104) أنظر حول هذه المراسلة : ابن ميسّر ، 85 (أحداث 538هـ).

105) **البيان** ، 313/1.

1143 – 1144م على صفاقس التي دخلت في طاعته. ولكننا سنرى فيما بعد أنّ تلك المدينة لم يتمّ الإستيلاء عليها إلاّ في سنة 543هـ/ 1148 – 1149م. ويبدو أنّ تلك الرواية مغلوطة أو منقوصة. ذلك أنّ المؤلّف قد انتقل بعد ذلك مباشرة إلى الحديث عن غزو المهديّة سنة 543هـ. ويرى شالندون[106] أنّ ابن عذاري قد اشتبه عليه غزو صفاقس بغزو جزيرة قرقنة الواقعة في عرض سواحل تلك المدينة. والغريب في الأمر أنّ مؤلّفًا متأخّرًا[107] قد حدّد تاريخ ذلك الإستيلاء بسنة 537هـ. إلاّ أنّه ليس من المستحيل أن يكون الأسطول الصقلّي قد نزل بصفاقس سنة 538هـ، لا سيما وقد ذكر ابن الأثير أنّ «صاحب جزيرة صقليّة أرسل في سنة 539 سريّة في البحر إلى طرابلس الغرب وتلك الأعمال، فنهبوا وقتلوا»[108].

«وفي نفس تلك السّنة، خرج أسطول الفرنج من صقليّة إلى ساحل إفريقيّة والغرب، ففتحوا مدينة برشك[109] وقتلوا أهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقليّة إلى المسلمين»[110].

وفي سنة 540هـ/ 1144م، جاء دور جزيرة قرقنة. فقد هجم عليها الأسطول الصقلّي وسبى أهلها وباعهم في صقليّة[111].

وعند ذلك ذكّر الحسن صاحب صقليّة رُجَار الثاني بمضمون المعاهدات المبرمة بينهما. فاعتذر رُجَار عن ذلك، متعلّلاً بأنّ أهل الجزيرة لا يقرّون بطاعة الأمير.

استيلاء النّرمان على طرابلس[112]:

لقد شهدت إفريقيّة في سنة 540هـ/ 1145 – 1146م[113] مجاعة رهيبة أهلكت العباد

(106) شالندون، 160/2.

(107) المؤنس، 91. ويعتقد أماري (ستوريا، 415) أنّ الأمر يتعلّق بغلطة ناسخ؛ الكامل، 84/11: يحدّد تاريخ الحدث بسنة 540هـ/ 1144 – 1145م.

(108) الكامل، 45/11؛ ستوريا، 415/3.

(109) برشك: مدينة تقع بين شرشل وتنّس.

(110) الكامل، 47/11؛ تاريخ أبي الفداء، 17/3؛ الإدريسي، 10.

(111) أنظر الإحالة رقم 107.

(112) العبر، 168/6؛ الكامل، 48/11 – 49؛ النويري، 167/2؛ التجاني، 241؛ ابن خلّكان، 242/2؛ تاريخ أبي الفداء، 18/3؛ الإدريسي، 121 – 122؛ شلمرات، 128/4.

(113) التجاني، 241؛ العبر، 44/7؛ المؤنس، 91: 541هـ؛ وأما البيان، فهو ينتقل مباشرة من 538 إلى 543هـ، والنصّ ناقص لا محالة.

وأجبرت كثيرًا منهم على الهجرة إلى الخارج، ولا سيما إلى صقليّة، رغم أنها بلاد مسيحيّة. لكنّنا نعرف متانة العلاقات القائمة آنذاك بين صقليّة وإفريقيّة، والسياسة التحرّريّة التي كان ينتهجها رُجَار الثاني إزاء المسلمين.

وممّا لا شكّ فيه أنّ ملك صقليّة قد رأى الوقت مناسبًا للتدخّل في إفريقيّة، قصد مَحْوِ آثار فشل الحملة العسكريّة الموجّهة ضدّ طرابلس في سنة 537هـ/ 1142–1143م.

وفي أواخر سنة 540هـ[114] وعلى الأرجح في أوائل شهر جوان 1146م، توجّه إلى طرابلس أسطول صقلّي متركّب من مائتيْ سفينة[115] بقيادة جرجي الأنطاكي. ونزل النّرمان بمدينة طرابلس ثالث المحرم 541هـ/ 15 جوان 1146م، «فأحاطوا بها برًّا وبحرًا. فخرج إليهم أهلها وأنشبوا القتال، فدامت الحرب ثلاثة أيام. فلمّا كان اليوم الثالث سمع الفرنج بالمدينة ضجّة عظيمة، وخلت الأسوار من المقاتلة. وسبب ذلك أنّ أهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بأيّام يسيرة قد اختلفوا، فأخرج طائفة منهم بني مطروح، وقدّموا عليهم رجلاً من الملثّمين (المرابطين) قدم يريد الحجّ، ومعه جماعة، فولّوه أمرهم. فلما نازلهم الفرنج أعادت الطائفة الأخرى بني مطروح، فوقعت الحرب بين الطائفتين وخلت الأسوار»[116].

«فانتهز الفرنج الفرصة ونصبوا السلالم وطلعوا على السّور. واشتدّ القتال، فملك الفرنج المدينة عنوة وقهرًا بالسيف (وذلك يوم الثلاثاء 6 محرّم 541هـ/ 18 جوان 1146م). فسفكوا دماء أهلها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم وهرب مَنْ قدر على الهرب والتجأ إلى البربر والعرب»[117].

هذا ما رواه ابن الأثير عن استيلاء النّرمان على طرابلس. إلاّ أنّ التجاني لم يُشِرْ إلى نهب المدينة، بل أكّد أنّ جرجي «قد أحسن إلى أهلها، لِمَا أضمره من تملّك غيرها من البلاد الإسلاميّة»[118]، ولا شكّ أنّ المؤلّف يشير إلى العفو العامّ الذي أُعْلِن عنه بُعَيْد

---

114) ولذلك فقد حدّد الإدريسي والتجاني وابن خلدون تاريخ احتلال طرابلس بسنة 540هـ/ 1145–1146م. واختارت المصادر الإسلاميّة الأخرى أوائل 541هـ. ويؤكّد ابن خلدون (العبر، 44/7) والتجاني، 241: أنّ احتلال طرابلس قد سبقه احتلال المهديّة وصفاقس. فهل يتعلّق الأمر بخطإ؟ ذلك ما يعتقده أماري. أم أنّ المؤلّفَيْن يقصدان بذلك أنّ المدينتَيْن كانتا عمليًا تحت سيطرة النرمان؟

115) الرقم الوارد في **المؤنس**.

116) يمكننا أن نتساءل هل أنّ بني مطروح لم يساعدوا إلى حدٍّ ما النّصارى على تحقيق الانتصار؟ لأن التخلّي عن الأسوار يبدو أمرًا غريبًا.

117) **الكامل**.

118) التجاني، 241.

احتلال طرابلس. ويمكن أن نفترض أنّ القائد الصقلّي قد خفّف من حدّة المضايقات ثم لم يلبث أن وضع حدًّا لها. «فنُودِي بالأمان في كافّة النّاس ورجع كلّ من فرّ من المدينة»[119]. وأطرد جرجي بني خزرون، وبقي قسم منهم في بوادي طرابلس إلى أن تمّ الفتح الموحّدي[120]. «وولّى على البلد شيخه أبا يحيى بن مطروح التميمي، وجعل قاضيهم رجلاً منهم يعرف بأبي الحجّاج يوسف ابن زيري، وهو صاحب التأليف المعروف بـ«**الكافي في الوثائق**». فكانت أحكام المسلمين كلّها مصروفة إلى واليهم وقاضيهم، ولم يكن النّصراني يتعرّض لشيء من أحكامهم»[121]. ولعلّ هذا النظام شبه الإستقلالي كان يشبه النظام المعمول به في بعض المدن الإيطاليّة وفي صقليّة بالذات إثر الغزو النّرماني.

«وأقام الفرنج (بطرابلس) ستة شهور حتى حصّنوا سورها وحفروا خنادقها. ولمّا عادوا أخذوا رهائن أهلها ومعهم بنو مطروح والملثّم (الوالي المرابطي السابق). ثم أعادوا رهائنهم وأخذوا رهائن الوالي وحده. واستقامت أمور المدينة، وأُلْزِم أهل صقليّة والسفن والروم بالسفر إليها، فانعمرت سريعًا»[122].

وكان لا بدّ لاحتلال طرابلس أن يؤثّر تأثيرًا طيّبًا في تطوّر التجارة الصقليّة. ويبدو أنّ المدينة لم تُثِرْ أيّ صعوبة في وجه حكّامها الجدُد، خلال الاثنتي عشرة سنة الموالية.

قضيّة قابس[123]:

لا ندري متى تولّى رُشَيْد[124] على مدينة قابس، خلفًا لرافع بن مكن بن جامع. وحسب رواية المؤرّخ الحفصي ابن نخيل، التي نقلها ابن خلدون[125]، فانّ رُشَيْد هو الذي

---

119) **الكامل**.

120) **العبر**، 44/7.

121) التجاني، 241–242.

122) **الكامل**.

123) **الكامل**، 54–55. وهو أهمّ وأوضح مصدر؛ **العبر**، 167/6 وفيه رواية مقتضبة وغامضة؛ التجاني، 95 وابن الأثير لم يذكر معمّرًا؛ **المؤنس**، 91، وفيه معلومات هامّة لم تذكرها المصادر الأخرى.

124) حسب التجاني، 69، هو «رشيد بن مدافع بن جامع».

125) **العبر**، 167/6.

بنى قصر العروسَيْن الشهير وضرب السكّة باسمه (السكّة الرُّشَيْديّة) . وقد أكّد التجاني[126] أنّ أهل قابس ينسبون بناء هذا القصر الواقع في القصبة بمقربة من المسجد الجامع ، لرُشَيْد بن مدافع بن جامع[126م]. ولكنّه أضاف أنه «وقف في بعض أبواب القصر على أسطر كتبت نقشًا في الحجر نصّها : أمر بعمل هذا الباب الأمير الشهم رافع ابن أمير الأمراء مكن[127] بن جامع في رجب سنة خمسمائة / 26 فيفري – 27 مارس 1107م» . ثم أعطى الرحّالة تفسيرًا لهذا التناقض الظاهري ، فقال : «وأخبرني بعض الطلبة من أهل قابس أنه وقع لبعض المؤرّخين على أنّ صنهاجة هم الذين ابتدأوا بنيانه وانتهوا به إلى قدر ثُلُثَيْه ، فأتمّه بنو جامع الهلاليّون» .

فيبدو حينئذ أنّ بناء قصر العروسَيْن الذي هو نسخة طبق الأصل من قصر بني حمّاد في بجاية ، قد بدأه الصنهاجيّون وواصله رافع وأتمّه رُشَيْد .

وإثر وفاة رُشَيْد ، «عمد مولًى له اسمه يوسف إلى ولده الصغير واسمه محمّد ، فولاّه الأمر وأخرج ولده الكبير مُعَمَّرا ، واستولى يوسف على البلد وحكم على محمّد لصغر سنّه ، وجرى منه أشياء من التعرّض إلى حرم سيّده ، وكان من جملتهنّ امرأة من بني قُرّة . فأرسلت إلى إخوتها تشكو إليهم ما هي فيه ، فجاء إخوتها لأخذها ، فمنعها يوسف وقال : «هذه حرمة مولاي» ! ولم يسلّمها . فسار بنو قرّة ومعمّر بن رُشَيْد إلى الحسن صاحب إفريقيّة ، وشكوا إليه ما يفعل يوسف ، فكاتبه الحسن في ذلك ولم يجبه وقال : «لئن لم يكفّ الحسن عنّي ، وإلاّ سلّمت قابس إلى صاحب صقليّة» . فجهّز الحسن العسكر له .

«فلمّا سمع يوسف بذلك أرسل إلى رُجَار صاحب صقليّة وبذل له الطاعة وقال له : «أريد منك خلعة وعهدًا بولاية قابس ، لأكون نائبًا عنك ، كما فعلت مع بني مطروح أصحاب طرابلس» . فسيّر إليه رُجَار الخلعة والعهد فلبسها وقُرِئ العهد بمجمع النّاس»[128] .

وحسب رواية ابن أبي دينار[129] ، بعث صاحب صقليّة إلى عامله الجديد «ما يتشرّف به من تشاريف النّصارى وجبى أموال قابس من تحت طاعته» . فماذا كان مصير الأمير الشابّ محمّد بن رُشَيْد؟ يبدو حسب ما رواه ابن خلدون في فقرة غامضة أن المُغْتَصِبَ قد

---

126) التجاني ، 68 – 70 .

126م) هكذا في الأصل ، والصحيح «رشيد بن كامل بن جامع» .

127) [في الأصل «مكّي»] .

128) **الكامل** .

129) **المؤنس** ، 91 .

أخرجه من المدينة. ولكن يظهر أنّ الأمر يتعلّق بطرد معمّر بن رُشَيْد[130]. وسنرى أنّ جرجي الأنطاكي قد صرّح للأمير الحسن، قبل بضع ساعات من احتلال المهديّة، قائلاً: «إنّما جئت بهذا الأسطول طالبًا بثأر محمّد بن رُشَيْد صاحب قابس وردّه إليها».

وقد أورد ابن خلدون والتجاني[131] هذه الرواية المختلفة والخاطئة، حسبما يبدو، حول اغتصاب يوسف للسلطة:

«اتّفق أن خرج محمّد من قابس لحرب عدوّ له وترك أحد بنيه نائبًا عنه، فطرده يوسف مولى أبيه منها واستولى على المدينة وانتسب إلى طاعة رُجَار».

ويبدو من المستبعد أن يكون محمد بن رُشَيْد الصغير السنّ والخاضع لسلطة يوسف، قد خرج من قابس للقيام بحملة عسكريّة وعهد بإدارة المدينة إلى أحد أبنائه!

وروى ابن الأثير من جانبه أنّ «يوسف صاحب قابس قد أرسل رسولاً إلى رُجَار صاحب صقليّة، فاجتمع هو والحسين رسول صاحب المهديّة عنده، فجرى بين الرسولين مناظرة. فذكر رسول يوسف الحسن ونال منه وذمّه. ثم أنهما عادا في وقت واحد، وركبا البحر كلّ واحد منهما في مركبه. فأرسل رسول الحسن رقعة على جناح طائر يخبره بما كان من رسول يوسف. فسيّر الحسن جماعة من أصحابه في البحر، فأخذوا رسول يوسف وأحضروه عند الحسن فسبّه وقال: «ملّكتَ الفرنج بلاد الإسلام وطوّلت لسانك بذمّي»! ثم أركبه جملاً وعلى رأسه جلاجل وطيف فيه في البلد، ونودي عليه: «هذا جزاء مَنْ سعى أن يملّك الفرنج بلاد المسلمين». فلمّا توسّط المهديّة ثار به العامّة، فقتلوه بالحجارة»[132].

وفي سنة 542 هـ/ 1147 – 1148م وجّه الحسن ضدّ قابس – تلبيةً لطلب معمّر بن رُشَيْد – جيشًا معزّزًا بجمع من الأعراب بقيادة محرز بن زياد الشهير، الذي اعتبره ابن أبي دينار قائد الحملة.

«فثار أهل البلد بيوسف، لِمَا اعتمده من طاعة الفرنج، وسلّموا البلد إلى عسكر الحسن. وتحصّن يوسف في القصر، فقاتلوه حتى فتحوه، وأُخِذَ يوسف أسيرًا. فتولّى عذابه معمّر بن رُشَيْد وبنو قرّة فقطعوا ذكره وعذّبوه بأنواع العذاب. وولّى معمّر قابس مكان أخيه وأخذ بنو قرّة أختهم.

---

130) العبر، 167/6.

131) العبر، 167/6 والرحلة، 100.

132) الكامل، 54/11 – 55.

«وهرب عيسى أخو يوسف وولد يوسف وقصدوا(هكذا) رُجَار صاحب صقليّه، فاستجاروا به وشكوا إليه ما لقوا من الحسن (وأعلمه عيسى أنّ الحسن ممّن أعان على يوسف)[133]. فغضب رُجَار لذلك»[134]، لكون كلّ منهما تحت طاعته، وعوّل على غزو المهديّة[135].

«فأخرج رُجَار أسطوله لحصار قابس، فحاصرها مدّة ثم رجع»[136]. ويمكن تفسير فشل هذه الحملة بضعف الأسطول الصقلّي، لأن أكبر قسم منه كان إذ ذاك بصدد القتال ضدّ الأمبراطوريّة البيزنطيّة[137].

الاستيلاء على المهديّة[138]:

كانت سنة 1148م / 542 – 543هـ، بالنسبة إلى رُجَار الثاني، تمثّل فترة ملائمة للقام بعمليّة عسكرية واسعة النطاق في إفريقيّة. ذلك أنّ توازن القوى البيزنطيّة والصقليّة كان في صالحه، ممّا يسمح له بالقيام بتلك العمليّة دون أن يعرّض مشاريعه المقبلة في الناحية الشرقيّة للخطر. فقد آن الأوان حينئذ لتعزيز نفوذه لدى النصارى، وذلك بالمساهمة أخيرًا في الحرب الصليبيّة التي أعلنها القدّيس برنار وبلغت ذروتها في المشرق، دون أن يتخلّى عن مطامعه الشخصيّة التي استطاع تحقيق جزء منها. ومن ناحية أخرى فإنّ المجاعة التي اجتاحت إفريقيّة وامتدّت إلى سائر بلاد المغرب منذ سنة 537هـ، قد بلغت منتهاها في سنة 542هـ. ذلك أنّ إفريقيّة لم تجد فحسب، خلال تلك السنوات الخمس، صعوبة كبيرة للتزوّد

---

133) زيادة من **المؤنس**.

134) **الكامل**.

135) **المؤنس**.

136) **التجاني**، 100.

137) **ستوريا**، 420/3؛ شالندون، 163/2.

138) أ) **الكامل**، 56/11 – 57 وهو أهمّ مصدر؛ والنويري، 168/2 – 169، وروايتهما متطابقة في الجملة مع رواية التجاني، 341، التي نقلها صاحب **الحلل السندسيّة** بحذافيرها، 246/1 – 247. وهذه المصادر الأربعة قد نقلت رواياتها بلا شكّ عن ابن شدّاد.

ب) رواية مقتضبة في **العبر**، 126/6؛ و**البيان**، 313/1.

ج) **تاريخ أبي الفداء**، 19/3 – 20؛ **شذرات**، 134/4؛ **الحلل الموشيّة**، 117.

د) **ستوريا**، 420/3 – 426؛ وشالندون، 163/2 – 164.

بالقمح الضروري، إذ أُجْبِر الحسن العاجز عن تسديد ديونه على قبول الشروط التي فرضها عليه دائنه في سنة 536هـ، بل أنّها صارت تتوقّع إقدام رُجَار الثاني على منع المؤونة عنها، بعدما أقرّ العزم على غزو بقيّة سواحل شرق الغرب الإسلامي. وقد كان شتاء سنة 543هـ/1147 – 1148م مريعًا، «فإنّ النّاس فارقوا البلاد والقرى وأكل بعضهم بعضًا، وكثر الموت في النّاس»(139). وممّا زاد في هول الكارثة ظهور وباء الطاعون الذي أهلك العباد. ففرّ إلى صقليّة عدد كبير من أهل إفريقيّة، ولا سيّما منهم الأشراف.

واغتنم رُجَار هذه الفرصة، فجهّز أسطولاً عظيمًا بقيادة أمير البحر جرجي الأنطاكي، يتركّب من ثلاثمائة سفينة، منها نحو مائتين وخمسين شينيًّا(140).

«وكان بعض القوّاد قد أرسله الحسن إلى رُجَار برسالة، فأخذ لنفسه وأهله أمانًا»(141). فهل كان هذا الوعد بالأمان مكافأة على خيانة؟ على كلّ حال فإنّ الحسن لم يغادر المهديّة، لا هو ولا أهله، قبل وصول النّرمان(142).

وقد أشارت المصادر إلى ضعف القوّات المسلّحة التي كانت تحت تصرّف الحسن لردّ العدوّ. ولا شكّ أنّ هذا التأكيد قريب جدًّا من الواقع. فلا حاجة لنا حينئذ إلى التساؤل هل أنّ الغرض من ذلك، هو الحرص على تبرير موقف أمير المهديّة المتّسم لا محالة بالتخاذل. ذلك أنّ الجنود الإفريقيّين الذين كانوا يتقاضون رواتب زهيدة أو لا شيء، سرعان ما تقلّص عددهم وهلك خيلهم. «ومع ذلك، كانت بقيّة العسكر في محاربة ابن خراسان صاحب تونس، عضدًا لمحرز بن زياد الفادغي صاحب المعلّقة»(143).

على أنّه يصعب علينا أن نصدّق ارتكاب الحسن لمثل هذه الهفوة. فليس من المستبعد أن يكون أولئك الجنود الذين لا يتلقّون أيّ أجر وبالتالي لا يخضعون للسلطة، قد انضمّوا من تلقاء أنفسهم إلى ابن زياد، طمعًا في نهب مدينة تونس.

ووصل أسطول النّرمان إلى جزيرة قوصرة، «فصدفوا بها مركبًا وصل من المهديّة، فأُخِذ أهله وأُحْضِروا بين يدي جرجي مقدّم الأسطول، فسألهم عن حال إفريقيّة، ووجد في

(139) **الكامل.**

(140) حسب ابن الأثير وأبي الفدا، : 250 شينيًا ؛ النويري : 150 شينيًا ؛ التجاني : 300 مركب ؛ **العبر**، 350 مركبًا ؛ **شذرات** : 250 مركبًا.

(141) **الكامل.**

(142) شالندون، 163/2.

(143) التجاني، 341.

المركب قفص حَمَام ، فسألهم هل أرسلوا منها ، فحلفوا بالله أنّهم لم يرسلوا شيئًا . فأمر الرجل الذي كان الحمام صحبته أن يكتب بخطّه : «أنّنا لمّا وصلنا جزيرة قوصرة ، وجدنا بها مراكب من صقليّة ، فسألناهم عن الأسطول المخذول ، فذكروا أنّه أقلع إلى جزائر القسطنطينيّة» وأُطْلِق الحمام ، فوصل إلى المهديّة ، فسُرَّ الأمير الحسن والنّاس .

«وأراد جرجي بذلك أن يصل بغتة ، وقدّر وصولهم إلى المهديّة وقت السّحر ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها ، فلو تمّ ذلك لم يسلم منهم أحد . فقدّر الله أن أرسل عليهم ريحًا هائلاً ، فلم يقدروا على السير إلاّ بالمقاذف . فطلع النهار ثاني صفر في هذه السّنة (2 صفر 543 هـ / 22 جوان 1148 م)[144] ، فرآهم النّاس .

«فلمّا رأى جرجي ذلك ، وأنّ الخديعة فاتته ، أرسل إلى الأمير الحسن يقول : «إنّما جئت بهذا الأسطول طالبًا بثأر محمّد بن رُشَيْد صاحب قابس وردّه إليها . وأمّا أنت فبيننا وبينك عهود وميثاق إلى مدّة[145] ، ونريد منك عسكرًا يكون معنا» .

«فجمع الحسن النّاس من الفقهاء والأعيان وشاورهم . فقالوا : «نقاتل عدوّنا ، فإنّ بلدنا حصين» . فقال : «أخاف أن ينزل إلى البرّ ويحصرنا برًّا وبحرًا ، ويحول بيننا وبين الميرة ، وليس لنا ما يقوتنا شهرًا . فتُؤْخَذ (المدينة) قهرًا . وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسر خيرًا من المُلْك[146] . وقد طلب منّي عسكرًا إلى قابس ، فإن فعلت ، فما يحلّ لي معونة الكفّار على المسلمين . وإن امتنعت ، يقول انتقض ما بيننا من الصّلح . وليس يريد إلاّ أن يثبطنا حتى يحول بيننا وبين البرّ . وليس لنا بقتاله طاقة ، والرأي أن نخرج بالأهل والولد ، وننزل عن البلد . فمن أراد أن يفعل كفعلنا ، فليبادر معنا»[147] .

وليس لدينا ما يثبت صحّة هذا الخطاب . ولكن يبدو أنّه منقول عن شاهد عيان ،

---

144) **الكامل** ، النويري ، أبو الفداء : 2 صفر. **البيان** : «وتُعرَف هذه الكائنة الشنعاء بكائنة يوم الاثنين» ، نظريًا يوم الثلاثاء. ابن خلّكان : «يوم الاثنين ثاني عشر صفر» ، وكلمة عشر زائدة . فاحتلال سوسة هو الذي تمّ يوم الثاني عشر.

145) حسب المعمول به في ذلك العهد ، كانت المعاهدات تُبرَم لمدة عشر سنوات . وبناء على ذلك فإنّ معاهدة سنة 536هـ ما زالت سارية المفعول ، على الأقلّ رسميًا.

146) حسب ابن الأثير ، وحسب النويري : «وأنا أرى سلامة المسلمين من القتل والأسر خيرًا من الملك» . وفي رحلة التجاني : «وذكر ابن شدّاد من كلام الحسن عند خروجه : سلامة المسلمين من القتل والأسر ، خير إليّ من المُلْك والقصر» .

147) **الكامل** .

وهو ابن شدّاد أحد أقرباء الحسن ومؤرّخه الرسميّ. وحتى الفقرات التي تبدو وكأنّها مرافعة للدفاع عن موقف الحسن، فهي ليست بعيدة عن الواقع.

«وأمر الحسن في الحال بالرحيل وأخذ معه من حضره وخفّ حمله. وخرج النّاس على وجوههم بأهليهم وأولادهم وما خفّ من أموالهم وأثاثهم. ومن النّاس من اختفى عند النّصارى وفي الكنائس. وبقي الأسطول في البحر تمنعه الرّيح من الوصول إلى المهديّة إلى ثُلُثَيْ النّهار»[148].

«فوصل الفرنج ودخلوا البلد بغير مانع ولا دافع، ودخل جرجي القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه إلاّ ما خفّ من ذخائر الملوك، وفيه من حظاياه، ورأى الخزائن مملوءة من الذخائر النّفيسة وكلّ شيء غريب يقلّ وجود مثلِهِ فختم عليه وجمع سراري الحسن من قصره.

«ولمّا ملك المدينة، نُهِبَت مقدار ساعتين، ونُودِي بالأمان[149] (في المهديّتين [المهديّة وزويلة]. فارتفع النّهب عنهما، وأخرج النّصارى منهما، فأنزلهم فيما بينهما في مضاربهم وأخبيتهم)[149م].

«وأصبح جرجي من الغدّ، فأرسل إلى مَنْ قَرُب من العرب، فدخلوا عليه، فأحسن إليهم وأعطاهم أموالاً جزيلة. وأرسل من جند المهديّة الذين تخلّفوا بها جماعة ومعهم أمان لأهل المهديّة الّذين خرجوا منها، ودوابّ يحملون عليها الأطفال والنّساء، وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع، ولهم بالمهديّة خبايا وودائع. فلمّا وصل إليهم الأمان رجعوا»[150]. وفرّق عليهم (جرجي) مالاً وطعامًا أقرضهم إيّاه، فصلحت أحوالهم واغتبط النّاس بالمهديّة لمّا رأوا عدل النّصارى[151].

«ولقي المقدّم على الأسطول [جرجي] أولاد الحسن وأهله وأمّهات أولاده، فأحسن

---

148) حسب ابن الأثير، وحسب النويري «ثلث النهار»، وهذا خطأ. وفي رحلة التجاني: «وبقي الأسطول على ظاهر البحر إلى الساعة السابعة من وصوله».

149) **الكامل**.

149م) [زيادة من التجاني].

150) **الكامل**.

151) زيادة من التجاني.

إليهم وأرسلهم إلى صقليّة . وعمّر «عدوّ الله» المدينتين، زويلة والمهديّة، ودفع للتجّار رؤوس أموال وأحسن لفقهائهم، وجعل قاضيًا مرضيًّا يحكم بين النّاس ومهّد قواعد البلدَيْن»[152].

الاستيلاء على سوسة وصفاقس :

«ولمّا استقرّ جرجي بالمهديّة، سيّر أسطولاً بعد أسبوع إلى مدينة صفاقس، وسيّر أسطولاً آخر إلى مدينة سوسة. فأمّا سوسة، فإنّ أهلها، لمّا سمعوا خبر المهديّة، وكان واليها علي بن الحسن الأمير، فخرج إلى أبيه وخرج النّاس لخروجه، فدخلها الفرنج بلا قتال ثاني عشر صفر 543هـ / 2 جويلية 1148م»[153].

أمّا التجاني[154]، فقد أكّد أنّ سوسة «استقرّت آخرا تحت ملك جبارة بن كامل بن سرحان بن أبي العَيْنَيْن (أو العين) الفادغي (أو الفادعي العلوي) الهلالي البعيد الصيت، المشتهر بالجود، ومن يده أخذها النّصارى، حين أخذوا المهديّة من يد الحسن».

ويمكن أن لا يكون هناك أيّ تناقض بين هاتين الرّوايتين. إذ يجوز أن تكون سوسة خاضعة في آن واحد لسلطة أمير من بني زيري، وهو الوالي بالاسم، ولسلطة أمير من بني رياح وهو الحاكم المطلق النفوذ.

«وأمّا صفاقس، فإنّ أهلها أتاهم كثير من العرب فامتنعوا بهم، فقاتلهم الفرنج. فخرج إليهم أهل البلد، فأظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم النّاس حتى أبعدوا عن البلد، ثم عطفوا عليهم، فانهزم قوم إلى البلد وقوم إلى البرّيّة، وقُتِلَ منهم جماعة. ودخل الفرنج البلد بعد قتال شديد وقتلى كثيرة، وأُسِرَ من بقي من الرجال، وسُبِيَ الحريم، وذلك في الثالث والعشرين من صفر (543هـ / 13 جويلية 1148م)[155]. ثمّ نُودِيَ بالأمان، فعاد أهلها وافتكّوا حرمهم وأولادهم، ورُفِقَ بهم وبأهل سوسة والمهديّة. وبعد ذلك وصلت كتب رُجَار لجميع أهل إفريقيّة بالأمان والمواعيد الحسنة»[155م].

---

152) **المؤنس**، 92.

153) **الكامل**.

154) التجاني، 30.

155) هذا خطأ، والصحيح : 13 صفر

155م) **الكامل**.

«وقد أسكن (جرجي) بصفاقس جملة من النّصارى الذين افتتحها بهم»[156]. وأراد ملك صقليّة أن يستعمل عليها أبا الحسن[156م] الفرياني، «وكان من العلماء الصالحين. فأظهر العجز والضعف وقال: «اَسْتَعْمِلَ ولدي». فاستعمله وأخذ أباه رهينة إلى صقليّة. فلمّا أراد المسير إليها قال لولده عمر: «إنّني كبير السنّ وقد قارب أجلي، فتى أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدوّ، فَافْعَلْ، ولا تُرَاقِبْهم ولا تنظر في أنّني أُقْتَل، واَحسِبْ أنّي قد متُّ»[157].

«ولمّا استقرّت أحوال البلاد سار جرجي في أسطول إلى قلعة قليبية، وهي قلعة حصينة [في الوطن القبلي]. فلمّا وصل إليها سمعته العرب، فاجتمعوا إليها ونزل إليهم الفرنج فاقتتلوا، فانهزم الفرنج، وقُتِل منهم خلق كثير فرجعوا خاسرين إلى المهديّة»[158].

ورغم أنّ المصادر العربيّة أكّدت أنّ رُجَار الثاني قد أصبح يسيطر على جميع سواحل إفريقيّة، من طرابلس إلى الوطن القبلي، فإنّها لم تذكر احتلال قابس الذي أشارت إليه المصادر المسيحيّة[159]. إلاّ أنّ هذه المصادر قد ذكرت قابس التي كان يحكمها محمّد بن رُشَيْد، باسم ملك صقليّة، من بين المدن التي ثارت ضدّ النّرمان[160]. هذا من جهّة، ومن جهّة أخرى فقد أسلفنا أن جرجي الأنطاكي قد صرّح للحسن أنّه ما جاء إلاّ ليرجع ذلك الوالي إلى منصبه. فيمكن التأكيد حينئذ أنّ قابس قد استسلمت وخضعت لسلطة محمّد بن رُشَيْد. فهل يمكن أن نفسّر سكوت الإخباريّين المسلمين بالسهولة التي تحصّل بها النّرمان على هذه النتيجة؟ وهل استسلمت قابس قبل وصول النّصارى إليها؟

وقد رأى النّرمان من الحكمة الاقتصار على احتلال المدن الساحليّة التي منحوها نوعًا من الاستقلاليّة. فقد كانوا يسيطرون على السّواحل الممتدّة من طرابلس إلى ضواحي مدينة تونس. فهل يعني ذلك أنّ نفوذهم كان ضعيفًا داخل البلاد؟ كلاّ! فقد أكّد ابن الأثير واقتفى أثره النويري، أنّ الفرنج أصبحوا يسيطرون على بلاد المغرب، «من طرابلس الغرب

---

156) [زيادة من التجاني].

156م) في **الكامل**: «أبا الحسين».

157) نفس المصدر.

158) نفس المصدر.

159) **ستوريا**، 428/3.

160) **ستوريا**، 482/3، وشالندون، 238/2.

إلى قريب تونس ، ومن المغرب إلى دون القيروان»[161] . كما تحدّث ابن أبي دينار عن جرجي الأنطاكي بعد إستيلائه على المهديّة ، فقال : «وجاءته وفود العرب وأكابرهم ، فدخلوا في طاعته»[162] .

وقد أجمع المؤلّفون المسلمون – وشهاداتهم تكتسي أهميّة بالغة في هذا السّياق – أنّ أهل البلاد قد قبلوا بطيبة خاطر الخضوع للنّصارى المحترمين لحريّاتهم الدينيّة والقضائيّة والإداريّة . ولا شكّ أنهم انتفعوا من التطوّر الذي كانت تشهده المبادلات التجاريّة بين صقليّة وإفريقيّة . ولا شكّ أنّ المعاملات التجاريّة مع السودان عن طريق طرابلس وقابس قد اتّسع نطاقها . كما أنّ إلغاء نظام ملوك الطوائف وإبطال المراقبة التي كانوا يقومون بها على المبادلات التجاريّة ، مقابل أجر ، قد ساهما بلا شكّ في تخفيض بعض المعالم الجمركيّة بل حتى حذفها كليًّا أو جزئيًّا . ولئن كان «المحميّين» مُطالَبين طبعًا بدفع «الجزية» و«الخراج» ، إلاّ أنهم لم يكونوا مستَغَلّين . بالعكس من ذلك ، يبدو أنّ الجباية كانت متّسمة بالمرونة وحريصة على كسب ودّ الخاضعين للضريبة ، إن صحّ التعبير . وفي هذا المعنى قال ابن أبي دينار عن جرجي الأنطاكي : «إنّه جبى خراج الرعايا برفق منه وإحسان ، واستمال النّاس وسار فيهم سيرة حسنة بالرّفق بهم»[163] .

ولا شكّ أنّ هذه السياسة التحرّريّة الجريئة ، بالنسبة إلى ذلك العصر ، تفسّر لماذا لم تحاول إفريقيّة ، طوال اثنتي عشرة سنة ، التخلّص من حكم النّرمان .

واعتبارًا من سنة 544هـ/ 1449 – 1550م[164] ، «اختلف رُجَار صاحب صقليّة وملك القسطنطينيّة ، وجرت بينهما حروب كثيرة ، ودامت عدّة سنين ، فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين . ولولا ذلك لملك رُجَار جميع بلاد إفريقيّة . وكان القتال بينهم برًّا وبحرًا ، والظفر في جميع ذلك لصاحب صقليّة»[165] ، بفضل وزيره أمير البحر جرجي الأنطاكي . ولكنّ موت هذا القائد الذائع الصّيت قد حرم رُجَار الثاني من خدمات صانع جميع الفتوحات الإفريقيّة . وقد كان من المستحيل تعويض تلك الخسارة بخليفة الفقيد فيليب المهدوي .

---

(161) **الكامل** ، 58/11 .

(162) **المؤنس** ، 92 .

(163) **نفس المصدر** .

(164) **الكامل** ، 65/11 ؛ **ستوريا** ، 328/3 – 429 .

(165) **الكامل** ، المصدر السابق .

فرار الحسن[166] :

«وأمّا الحسن ، فإنّه سار بأهله وأولاده ، وكانوا اثني عشر ولدًا ذكرًا غير الإناث ، وخواصّ خدمه ، قاصدًا إلى محرز بن زياد[167] وهو بالمعلّقة.

«فلقيه في طريقه أميرٌ من العرب يسمّى حسن بن ثعلب ، فطلب منه مالاً انكسر له في ديوانه. فلم يمكن الحسن إخراج مال ، لئلاّ يُؤْخَذ ، فسلّم إليه ولده يحيى رهينة. وسار فوصل في اليوم الثاني إلى محرز ، وكان الحسن قد فضّله على جميع العرب وأحسن إليه ووصله بكثير من المال.

«فلقيه محرز لقاء جميلاً وتوجّع لما حلّ به ، فأقام عنده شهورًا»[168].

وأخبرنا ابن أبي دينار «أنّ أهل البلد قد تراجعوا عنه»[169]. والغالب على الظنّ أنّه لم يقبل الانضمام إليه ، لا أبناء قبيلة ابن زياد ولا جنود بني زيري ، لأنّهم كانوا يعتبرون قضيّة الملك المخلوع خاسرة نهائيًا ، لا سيّما وقد أصبح مُفْلِسًا دون رجعة. وما لبث الحسن أن شعر أن الأمير الرياحي ذاته قد بدأ يتضايق من وجوده.

«فأحبّ الانتقال إلى مصر ، وواليها إذ ذاك [الخليفة الفاطمي] الحافظ ، وباسمه كان الحسن يخطب في بلاده. فابتاع من تونس مركبًا أعدّه لسفره»[170].

«فعلم جرجي الأنطاكي بذلك ، فأعدّ له عشرين قطعة ترقب إقلاعه فتتبعه. وعلم بذلك الحسن فعدل عن السفر إلى مصر.

«ونظر في التوجّه إلى الخليفة [الموحّدي] عبد المؤمن بن علي بالمغرب. وأنفذ ولده يحيى وتميمًا وعليًّا إلى ابن عمّه يحيى بن العزيز صاحب بجاية ، وكتب له يستأذنه في الوصول إلى حضرته (وتجديد العهد إليه)[170م] وأن يكون توجّهه إلى عبد المؤمن بعد اجتماعه به. فتلقّى بنيه ميمون بن حمدون وزير يحيى أحسن تلقّ. وكتب على لسان يحيى إلى الحسن

---

166) **الكامل** ، 57/11 ؛ النويري ، 171/2 ؛ التجاني ، 342 – 343 ؛ **الحلل** ، 247/1 – 248 ؛ **المؤنس** ، 92 ؛ ابن خلّكان ، 242/2 ؛ **أعمال** ، 459 – 460 ؛ **العبر** ، 162/6.

167) أطلق عليه ابن خلّكان كنية : «أبو محفوظ».

168) **الكامل** ، 57/11.

169) **المؤنس** ، 92.

170) التجاني ، 342.

170م) زيادة من **الكامل**.

بالتوجّع على ما جرى عليه والتحريض على الوصول والعدول على ما خطر بباله من قصد غيره»[171] . والمقصود بذلك إقناع الحسن بالعدول عن فكرة التوجّه إلى عبد المؤمن. ويبدو أنّ هذا العرض لم يتقدّم به يحيى الذي ربّما لم يكن على علم به، وأنّ الوزير قد قام بهذه المبادرة من تلقاء نفسه، عن حسن أو سوء نيّة. ولكن يحقّ لنا أن نتساءل هل أنّ الأمير لم يكن متواطئًا مع وزيره؟ وممّا يؤكّد هذا الافتراض الشكوك التي أبداها محرز بن زياد والاستقبال الذي ينتظر الحسن في بجاية. أليس من الأفضل إبقاء الأمير المخلوع أسيرًا، عوض تمكينه من التوجّه إلى الخليفة الموحّدي القويّ النفوذ، لاسترجاع عرشه أو تحقيق بعض رغباته التي ربّما تعود بالخطر على بني حمّاد ذاتهم؟ لا سيّما وقد كان صاحب بجاية مطّلعًا أكثر من اللزوم على مطامع الخليفة.

«فأعلم الحسن محرز بن زياد بما كتب ابن عمّه، فأشار عليه بالتنكيب عنه وأن يتوجّه حيث ما أحبّ، فهو خير له منه. فلم يُطِعْه الحسن، وتوجّه إلى بجاية. فلمّا قرب منها ندب يحيى وزيره (أي ميمون ابن حمدون) إلى لقاء الحسن، فامتنع من ذلك[172] . وبعد لأي ما أمر أخاه القائد بن العزيز بالخروج إلى لقائه مع مشيخة البلد، وأن يعدلوا به عن بجاية إلى الجزائر، فيكون مقامه بها»[173] .

وحسب رواية أخرى[174] ، تحوّل الحسن إلى عنّابة، وكان على رأسها الحارث بن المنصور أخو العزيز بن حمّاد، ثم ارتحل إلى قسنطينة، وكان واليها سبع بن العزيز أخو يحيى. فوجّه سبع الحسن، مخفورًا بالحرس، إلى مدينة الجزائر، حيث خصّه القائد بن العزيز بأحسن قبول.

ومهما يكن من أمر فإنّ صاحب بجاية ابن حمّاد لم يجتمع بابن عمّه ابن زيري المطرود من المهديّة. إذ يبدو أن يحيى قد أبى أداء التحيّة إلى الحسن الذي كان يظهر بمظهر رئيس الأسرة[175] .

---

171) التجاني، المصدر المذكور.
172) لم يذكر المؤلّف سبب هذا الامتناع.
173) التجاني، 343.
174) **العبر**، 167/6 وهو المصدر الوحيد الذي أشار إلى مرور الحسن من عنابة وقسنطينة.
175) **أعمال**، 459 – 469.

ويبدو أنّ المعاملة التي سيُعَامَلُ بها ذلك الأمير التعيس الحظّ الذي لم يفقد مع ذلك كلّ أبّهته ، لا تشرّف يحيى ولا وزيره.

فقد توجّه القائد بن العزيز صحبة الحسن إلى مدينة الجزائر، في شهر محرّم سنة 544هـ / 11 ماي – 9 جوان 1149م[176] . «وأنزله هو وأولاده في أمكنة لا تليق بهم ، وأجرى عليهم جرايات لا تكفيهم . وأمر ميمون بمراعاة أحوال الحسن ومنعه من السفر والكتب إلى الخليفة عبد المؤمن ، لما توقّعه من استعانة عبد المؤمن به في أخذ بجاية . فبولغ في التشديد عليه في ذلك ، وأقام ساكنًا بها إلى أن نزل عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط ، عام سبع وأربعين وخمسمائة (1151 – 1152)»[177] .

---

176) حسب ابن خلّكان ، 242/2 . أمّا ابن الأثير (**الكامل** ، 71/11) ، فقد أشار إلى اعتقال الحسن في جزيرة بني مزغنان (الجزائر) منذ سنة 543 هـ . وبما أنّ محرّم هو أوّل شهر من السنة الهجريّة ، فالمقصود بذلك لا محالة : الأيّام الأخيرة من سنة 543 هـ.

177) التجاني ، 343 .

الفصل الخامس

استيلاء عبد المؤمن على المغرب الأوسط

(547 – 548 هـ / 1152 – 1153م)

المغرب الأوسط قُبَيْل الفتح الموحّدي[1] :

بعدما قضى عبد المؤمن بن علي على الدولة المرابطيّة في المغرب الأقصى وفي الأندلس، كان من الطبيعي أن يفكّر في الاستيلاء على بقيّة بلاد المغرب العاجزة عن التصدّي لجيوشه. وقد شجّعته على القيام بهذه المبادرة، حسب ابن خلدون[2]، الخلافات القائمة بين أمراء إفريقيّة، وأعمال التخريب التي يقوم بها الأعراب المحاصِرون للقيروان، واستيلاء الأمير الرياحي موسى بن يحيى المرداسي على باجة. ويبدو أنّ المؤرّخ قد أولى أهميّة مفرطة إلى هذا الحدث الأخير الذي لم تُشِرْ إليه المصادر الأخرى. وقد أصبح المغرب الأوسط لقمة سائغة. إذ لا ينبغي أن توهمنا الهجومات التي شنّها آخر ملوك بني حمّاد على إفريقيّة (الهجوم على تونس سنة 522هـ وعلى المهديّة سنة 529هـ) بنجاعة القوّات التي سيواجهها الخليفة في تلك الربوع.

وصف آخر ملوك بني حمّاد[3] :

لقد قدّمت إلينا المصادر الأمير أبا زكرياء[4] يحيى بن العزيز، آخر ملوك بني حمّاد في مظهر أمير فاضل، شهم، فصيح، ذي أسلوب رقيق، حاضر البديهة، ولكنّه قليل الحزم، مولع بالنساء والصيد. وكان مُحاطًا بزهاء عشرين رجلاً مسنًّا، وبعجائز يسلّينه بمزاحهنّ،

1) **تاريخ المغرب الأقصى**، 278/1 – 293؛ ميرندا، **التاريخ السياسي**، 109/1، 161.
2) **العبر**، 235/6.
3) **أعمال**، 466 – 467 (أهمّ مصدر)؛ **العبر**، 176/6 – 177.
4) لقد أثبتت هذه الكنية الرسالة رقم 8، ليفي بروفنسال، **سبع وثلاثون رسالة...**، مجلة هسبيريس، 1914، 28 – 29.

وفي المساء كان يتمدّد على فراش وثير ويستقدم المهرّجين والحيوانات المروّضة. فتراه يفحص هذا الباز ويتأمّل في ذلك الكلب، ويلتمس نكتة من هذا المهرّج، ويأخذ في الضحك. وكان مصحوبًا دومًا وأبدًا بأخواته تقسوط وأمّ ملال وشبلة، وهنّ مزيّنات كالعرائس. ثم يستسلم إلى النوم، وفي الصّباح يتوجّه إلى الصيد.

وقد أقدم يحيى على تغيير السكّة، الأمر الذي لم يتجرّأ عليه قبله أيّ ملك من ملوك بني حمّاد، احترامًا لأسيادهم، خلفاء بني عُبَيْد، حسبما يبدو. فضرب في الناصريّة (بجاية) دنانير باسم الخليفة [العباسي] المقتفي[5]، سنة 543 هـ / 1148 – 1149 م، ممّا يدلّ على أنّه دخل في طاعة الخلافة العبّاسيّة. ونحن نعرف اسم كاتبه الخاصّ وكاتم سرّه، الفقيه أبي حفص عمر بن فلفول[6] الذي يبدو أنّه كان صاحب ديوان الرسائل.

في سنة 543 هـ زار يحيى مدينة القلعة ونقل منها إلى بجاية كلّ ما وجد فيها من أشياء نفيسة.

الحملة العسكريّة الموجّهة ضدّ توزر[7]:

وجّه يحيى بن العزيز جيشًا بقيادة الفقيه مطرّف بن علي بن خزرون[8] ضدّ ابن فرقان الذي شقّ عصا الطّاعة في توزر. فاستولى ابن خزرون على تلك المدينة وألقى القبض على المتمرّد ووجّهه إلى أميره. فسُجِنَ في مدينة الجزائر وبقي في السجن إلى آخر حياته. ويقال، حسب رواية أخرى نقلها ابن خلدون، إنّ يحيى بن العزيز قد قتله. وليس لدينا أيّ مؤشّر لتحديد تاريخ هذه الحملة العسكرية، بالنظر إلى الحملات الأخرى التي وجّهها آخر ملوك بني حمّاد ضدّ إفريقيّة.

---

5) العبر، 177/6، ووصف هذه النقود مقتبس عن ابن حمّاد.

6) حسب ابن بشرون الذي روى أبياتًا من نظم هذا الشخص، ألقاها الأمير عبد الله بن العزيز الحمّادي الذي التقى به في صقليّة، أنظر الباب الثاني عشر من هذا الكتاب.

7) العبر، 177/6. جرت هذه الواقعة في الفترة الفاصلة بين زيارة الأمير إلى القلعة (543 هـ) وحملة مطرّف ضدّ تونس (522 هـ) والمهديّة (530 هـ). فمن العبث حينئذ محاولة تحديد تاريخها.

8) في النصّ «حمدون».

الفتح الموحّدي للمغرب الأوسط[9] :

من الجدير بالذكر أنّ الأخبار المتعلّقة برحيل عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط غامضة ، وأغلب الروايات المتوفّرة لدينا متناقضة . وبما أنّه يصعب علينا تجريح شهادة المؤلّف الموحّدي البيذق الذي ساهم في فتح المغرب الأوسط ، ومفادها أنّ الخليفة قد انطلق من سلا ، ولم يُشِرْ المؤلّف إلى إقامته في سبتة ، كما يصعب علينا من جهة ثانية رفض الروايات الأخرى التي تؤكّد أنه انطلق من سبتة ، ولم تُشِر إلى مروره من سلا ، فيتعيّن علينا حينئذ محاولة التوفيق بين تلك الروايات.

والجدير بالملاحظة بادئ ذي بدء ، أنّ الخليفة قد أحاط استعداداته بسرّيّة مطلقة . فقد قطع جميع المواصلات مع المغرب الأوسط ومنع أيّ تنقّل في الطرقات ، وحظر السفر من سلا إلى مكناس ومن مكناس إلى فاس أو من تلمسان إلى فاس . وأمر بتنفيذ هذه الإجراءات بكلّ صرامة ، ووضع في الطرقات رجالاً ثقات لمنع المرور منها[10] . «فظنّ النّاس أنه يريد العبور إلى الأندلس»[11] .

ولعلّه من الأفضل أن لا نساير بعض الإخباريّين[12] الذين ادّعوا أن عبد المؤمن قد ارتحل إلى سبتة «ليظنّ النّاس أنه يريد العبور إلى الأندلس» . أمّا البيذق ، فبعدما أشار إلى الاعتراف بالسلطة الموحّديّة في سنة 544هـ وتحوّل الخليفة إلى سلا في نفس تلك السنة وإقامته بها خمسة شهور لمراقبة بناء رباط الفتح ، أكّد أنّ عبد المؤمن الذي أمر الجيش بالقدوم إلى سلا لمبايعته ، قد ارتحل بعد ذلك إلى بجاية[13] .

وبما أنّ الحملة العسكريّة في المغرب الأوسط قد جرت في سنة 544هـ فإنّنا نلاحظ أنّ البيذق الذي لا يهتمّ كثيرًا بتسلسل الأحداث ، لم يقدّم إلينا عرضًا مفصّلاً عن نشاط

---

9) **العبر** ، 20/6 ، 162 ، 177 ؛ **الكامل** ، 57/11 ؛ النويري ، 204/2–206 ؛ **رحلة التجاني** ، 343 ؛ **الحلل** ، 248/1–249 ؛ البيذق ، 51 ، 113–115 ؛ ليفي بروفنسال ، المرجع المذكور ، المراكشي ، الطبعة الأولى ، 146–147 ؛ **الحلل الموشّية** ، 112–113 ؛ **القرطاس** ، 125–126 ؛ ابن خلكان ، 242/2 ؛ **أعمال** ، 459–460 ؛ **المؤنس** ، 111 ؛ **تاريخ** أبي الفداء ، 23/3 ؛ ميرندا ، **تاريخ** ... ، 160/1 ، 167 ؛ علي مراد ، **عبد المؤمن يغزو إفريقيا الشمالية** ، حوليات معهد الدراسات الشرقيّة ، 1957 ، 132–136.

10) البيذق ، الترجمة 186 والهامش 3.

11) نفس المصدر.

12) **القرطاس والحلل الموشّية** والبيذق ، الترجمة 187 والهامش 1.

13) البيذق ، الترجمة ، 185–186.

الخليفة من سنة 544 إلى سنة 547هـ. ولذلك فإنّه لا يسعنا إلاّ تصديق الإخباريّين الآخرين ، ولا سيما منهم ابن الأثير الذي أكّد أن عبد المؤمن «قد سار من مرّاكش إلى سبتة سنة ست وأربعين. فأقام بها مدّة يعمل الأسطول ويجمع العساكر... وكتب إليهم ليتجهّزوا ويكونوا على الحركة أيّ وقت طلبهم ، والنّاس يظنّون أنه يريد العبور إلى الأندلس. فأرسل في قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب برًّا وبحرًا ، وسار من سبتة في صفر سنة سبع وأربعين»[14]. ولعلّ الأمر كان يتعلّق فعلاً بمشروع حملة عسكريّة في الأندلس.

ثم تظاهر ، حسبما يبدو ، بالرجوع إلى مراكش ، ووصل إلى قصر عبد الكريم (القصر الكبير) ، فاستعرض عساكره. ولا شكّ أنّ الأمر كان يتعلّق بالحشد الأوّل للجنود الموحّدين ، كما أكّد ذلك ابن الأثير الذي قال إن الخليفة «أسرع السير وطوى المراحل والعساكر تلقاه في طريقه»[15]. ثم تحوّل إلى سلا لإتمام الاستعدادات الحربيّة.

وسلك الطريق الوحيد الممكن سلوكه آنذاك ، والمتمثّل في المنخفض الممتدّ جنوب الريف والمفضي إلى مجاز تازة[16]. وبعدما قضى يومًا في تلمسان ، استولى على مليانة ، ثم تقدّم في اتجاه مدينة الجزائر. فتخلّى والي بني حمّاد القائد بن العزيز عن المدينة التي اختار أهلها الحسن بن عليّ واليًا عليهم. فسار الحسن إلى عبد المؤمن وهو بمدينة متيجة وقدّم إليه شواهد الطاعة. فأعرب الخليفة عن تقديره له واستصحبه معه.

وحسب رواية التجاني ، «جعل الحسن يغريه بأخذ بجاية ، حَسَدًا لابن عمّه»[17]. وحتى لو فرضنا صحّة هذه الرواية ، فإن الخليفة الموحّدي لم يكن في حاجة إلى ذلك الإغراء.

ولمّا وصل عبد المؤمن إلى مدينة الجزائر ، زاره أمير الأثبج أبو الخليل بن كسلان وحبّاس بن مُسَيْفَر ، أحد أعيان بني جشم ، فاستقبلهما استقبالاً حسنًا وعيّن كل واحد منهما على رأس قبيلته[18].

---

14) **الكامل** ، 71/11.

15) نفس المرجع.

16) حسب البيذق ، كانت الرحلة على النحو التالي : سلا ، المعمورة ، الهبط ، وادي ورغة ، مسون... ، بجاية ، البيذق ، الترجمة 186–187 والهامش 1.

17) **رحلة التجاني** ، 343.

18) حسب ابن خلدون ، **العبر** ، 20/6 : أبو الجليل بن شاكر حبّاس بن مُسَيْفَر.

ومن البديهي أنّ يحيى المنهمك في اللّهو والملذّات لم يكن مؤهّلاً لإنقاذ مثل ذلك الوضع الميؤوس منه. فقد كلّف أخاه سبع بالتصدّي للموحّدين. إلاّ أنّ الجيش الصنهاجي قد انهزم في أمّ العلو[19] بجبل زيري.

وأكّد ابن الأثير الذي لم يذكر تلك المعركة أن وزير يحيى، ميمون بن حمدون، «جمع العسكر وسار عن بجاية نحو عبد المؤمن، فلقيهم مقدّمته وهي تزيد على عشرين ألف فارس، فانهزم أهل بجاية من غير قتال ودخلت مقدّمة عبد المؤمن بجاية قبل وصول الخليفة بيومَيْن»[20].

فهل اشتبهت على المؤلّف هذه الواقعة بمحاولة سبع بن العزيز؟ إننا نميل إلى الاعتقاد بأن خروج ميمون بن حمدون كان بمثابة ذرّ الرّماد على العيون، لإخفاء عمليّة استسلام بأتمّ معنى الكلمة. وأوضح النويري من جهته أن ميمون قد جمع عساكره التي أخرجها من بجاية، وبعدما انتظر عدّة أيّام قفل راجعًا دون قتال. ويمكن توضيح هذا الموقف الغامض، إذا سلّمنا بصحّة الإشارة التاليه التي أكّدها مصدران موحّديّان[21]، ومفادها أنّ وزير ابن حمّاد المتواطئ مع عبد المؤمن والذي كان يتبادل معه الرسائل، قد سلّم إليه المدينة من غير قتال.

ولا شكّ أنّ احتلال بجاية قد سبق بقليل يوم 24 جمادى الأولى 547 هـ / 27 أوت 1152[22]، تاريخ إحدى الوثائق الموحّديّة الرسميّة[23]، وهي رسالة موجّهة من بجاية إلى أهل قسنطينة، يعلن فيها عبد المؤمن عن احتلال عاصمة بني حمّاد ويشيد بالقائد أبي محمد ميمون بن علي بن حمدون – أي وزير يحيى – وأخيه الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن

---

19) مكان غير مُحَدَّد. ونستنتج من المعلومات التي قدّمها ابن خلدون أنّ ذلك المكان يقع بين مدينة الجزائر وعنّابة على بعد حوالي مسيرة يوم عن المدينة الأخيرة. أما «جبل زيري» فلم يذكره إلاّ التجاني الذي لم يشر إلى موقع «أمّ العلو»، وهو إسم أخت المعزّ بن باديس وزوجة عبد الله ابن حمّاد.

20) **الكامل**.

21) الأول **القرطاس** الذي أطلق على الوزير اسم: أبو عبد الله بن ميمون المعروف بابن حمدون، والثاني **الحلل الموشّية**، وقد أطلق عليه اسم ابن حمدون.

22) لا في ذي القعدة 547 هـ، وهو التاريخ الذي ورد في **القرطاس** ولا في سنة 559 هـ، كما أكّد ذلك ابن خلدون، **العبر**، 20/6. أنظر البيذق، الترجمة 188 والهامش وليڤي بروفنسال، المرجع السابق.

23) ليڤي بروفنسال، نفس المرجع.

علي بن حمدون[24] ، اللّذين انضمّا مع أقاربهما إلى النظام «الموحّدي». وتقلّدا منصبيْن مرموقيْن. وبمهارة فائقة ، دعا الخليفة أهل قسنطينة إلى الاستسلام ، واعدًا إيّاهم بالأمان ، وتطبيق السنّة ورفع المظالم وإلغاء المكوس المنافية للشريعة[25].

وأكّد ابن الأثير أن عبد المؤمن ، «لمّا فتح بجاية ، لم يتعرّض إلى مال أهلها ولا غيره. وسبب ذلك أنّ بني حمدون استأمنوا فوفى لهم بأمانه»[26].

رحيل يحيى[27] :

تمكّن يحيى من الإبحار مع ذَخائره في مركبَيْن كان قد أعدّهما للفرار في صورة الانهزام. ويبدو أنه كان ينوي السفر إلى برقة[28] ، عبر صقليّة ، ثم التحوّل إلى بغداد دون اجتياز مصر ، خشية أن ينتقم منه الخليفة ، لأنه كان خرج عن طاعته. وقيل أيضًا إنّه بعدما تخلّى عن بجاية أمر كاتبه أبا عبد الله محمد الكاتب[29] بمراسلة أمراء العرب ليلتمس منهم العون. ولمّا وصل إلى عنابة التقى فيها بأخيه الحارث الذي ربّما كان واليًا عليها[30]. «فجعل الحارث يتأفّف منه ويؤنّبه على إهمال المُلْك. فخرج عنه يحيى إلى قسنطينة ، وبها إذ ذاك أخوه الحسن بن العزيز ، فأكرمه الحسن وتخلّى له عن الأمر ، فأقام بقسنطينة أيامًا»[31].

الاستيلاء على قلعة بني حمّاد[32] :

وجّه عبد المؤمن جيشًا بقيادة ابنه عبد الله ، ضدّ القلعة ، وقد كانت تدافع عنها حامية صنهاجيّة على رأسها أخو يحيى جوشان بن العزيز. «فلمّا رأى أهلها عساكر الموحّدين ، هربوا

24) يمكن أن يكون هذا الشخص هو الفقيه مطرّف بن علي بن خزرون ويمكن أيضًا أن يكون هذا التشابه في الاسم بين الشّخصين بالإضافة إلى كونهما فقيهيْن ، من أسباب تعويض خزرون بحمدون.

25) وهي القَبالات والمكوس والمغارم والمظالم.

26) **الكامل** ، 71/11.

27) **رحلة التجاني** ، 342 ؛ **العبر** ، 236/6 ؛ المراكشي ، 147 ؛ **القرطاس** ، 126.

28) حسب التجاني ، وفي **العبر** ، صقليّة عوض برقة.

29) **الخريدة** [القسم المغربي ، تونس 1986 ، 83/1].

30) هناك خلط ممكن مع الحارث بن المنصور.

31) **رحلة التجاني** ، 344.

32) **العبر** ، 167/6 ، 236 ؛ **الكامل** ، 71/11 ؛ النويري ، 205—206 ؛ **القرطاس** ، 126.

منها في رؤوس الجبال»[33]. فاقتحم الجيش المدينة وأحرقها. ولقي مصرعهما جوشان بن العزيز وابن الدحّاس، من قبيلة الأثبج. كما قُتِلَ بالسيف جميع رجال الحامية[34]. وأسّر الموحّدون عددًا كبيرًا من أهل المدينة واستحوذوا على غنائم كثيرة، وزّعها الخليفة على أصحابه.

استسلام يحيى[35]:

لقد وردت أدقّ رواية حول احتلال قسنطينة واستسلام أبي زكرياء يحيى بن العزيز بالله بن المنصور بن الناصر بن حمّاد، في رسالة مؤرّخة في 10 شعبان 547هـ/ 10 نوفمبر 1152م، وجّهها عبد المؤمن من بجاية إلى الموحّدين بتلمسان.

وحسبما جاء في تلك الرسالة، فقد توجّهت جيوش موحّديّة قادمة من القلعة التي تمّ الاستيلاء عليها من قبل، إلى قسنطينة التي التجأ إليها يحيى وإخوانه وعائلة أمه. وإثر معركة طاحنة كانت فيها الغلبة للمغيرين، قرّر الأمير الاستسلام. وتفاوض في هذا الشأن وفدٌ يضمّ أحد إخوان يحيى (لعلّه الحسن) وشيوخًا من صنهاجة وقسنطينة. وقد تحوّل ذلك الوفد إلى بجاية حيث خُصّ بأحسن قبول ثم رجع إلى قسنطينة التي فتحت أبوابها في وجه الموحّدين.

ولمّا تحصّل الحسن وأفراد عائلته على الأمان، تحوّلوا إلى بجاية للقاء عبد المؤمن الذي عاملهم معاملة حسنة. وقد لاحظ ابن الأثير أنّ يحيى وابن عمّه الحسن قد اجتمعا عند الخليفة. «وكان يحيى قد فرح لمّا أُخِذَت بلاد إفريقيّة من الحسن بن عليّ، فَرَحًا ظهر عليه، فكان يذمّه ويذكر معايبه. فلم تطل المدّة حتى أُخِذت بلاده»[36]. ثم ما لبث أن وجّه الخليفة الأميرين إلى مرّاكش وأجرى عليهما جرايات ذات بال. ولكنّ المصادر لم توضّح متى تمّ ذلك[37].

---

33) **الكامل**، المصدر السابق.

34) يقول ابن خلدون (**العبر**، 236/6) : 18000 قتيل، ولا شكّ أنّ هذا الرقم مبالغ فيه.

35) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، **الكامل**، 71/11؛ **رحلة التجاني**، 344؛ المراكشي، 147–148؛ **الحلل الموشّية**، 113.

36) **الكامل**، المصدر السابق.

37) التجاني، المصدر السابق. وذكر المراكشي أنّ الحسن عاد إلى مراكش صحبة الخليفة بعد فتح مملكة بني حمّاد وضمنيًّا بعد معركة سطيف.

وبعدما تخلّص يحيى من هموم المُلْك، تفرّغ لرياضته المحبّبة إليه. فقد وصفته لنا بعض المصادر[38]، وهو يقتنص أسودًا بواسطة شباك من حديد، ثم أهداها إلى عبد المؤمن الذي لم يتأخّر عن مكافأة آخر ملوك بني حمّاد، وقد أصبح يزوّده بالوحوش. كما توسّع الإخباري الموحّدي المراكشي، على سبيل المجاملة - حسبما يبدو - أو ربّما بشيء من المبالغة، في وصف حياة البذخ التي كان يعيشها بنو حمّاد في مراكش، بفضل سخاء الخليفة. وقد اشتكى يحيى ذات يوم، بمحضر عبد المؤمن، من الصعوبات التي يلقاها هو وأفراد عائلته للحصول على كسور النقود[38م] اللازمة لقضاء حوائجهم. فسلّم إليه الخليفة ثلاثة أكياس مملوءة نقودًا، وأكد له أنه سوف لا يحتاج إلى أيّ شيء ما دام في بلاطه.

وفاة يحيى[39] :

«فلمّا كانت سنة ثمان وأربعين (1153 - 1154م) وصل الخليفة إلى سلا واستصحب يحيى معه، فأسكنه بها في بعض قصور بني عشرة[40]. وأقام بسلا إلى أن مات هناك (سنة 557هـ / 1161 - 1162م) ودُفِنَ في مقابرها الجوفيّة ممّا يلي البحر»[41].

انتفاضة صنهاجة[42] :

وفي بجاية اضطرّ عبد المؤمن إلى قمع انتفاضة بربريّة، كانت أولى إشارات القلق الذي أثاره فتح المغرب الأوسط. «فقد تجمّعت صنهاجة في أمم لا يحصيها إلاّ الله تعالى. وتقدّم

38) **الحلل الموشّية**، 113.

38م) أنصاف درهم وأرباع وأثمان درهم، وخرارب (1/16) (ج. خرّوبة).

39) **رحلة التجاني**، 344؛ **مفاخر**، 51؛ **العبر**، 177/6.

40) حسب التجاني، وفي **العبر**: بنو عشيرة.

41) **رحلة التجاني**، 344.

42) **الكامل**، 71/11 وفيه رواية مفصّلة. وفي البيذق، 115، إشارة خاطفة. وحسب ابن الأثير جرت هذه الواقعة في الفترة الفاصلة بين احتلال بجاية واحتلال القلعة. أما البيذق فهو يؤكّد أنها جرت أثناء الحملة التي انتهت بمعركة سطيف. وقد فضلنا رواية المؤلّف الموحّدي المعاصر لتلك الأحداث على رواية المؤلّف المشرقي المتأخّر. ونقل النويري رواية ابن الأثير بحذافيرها مع قراءة: «أبو قابسة» عوض «أبو قصبة». **القرطاس**، 126: مكث الخليفة شهريْن في بجاية.

عليهم رجل اسمه أبو قصبة[43] واجتمع معهم من كتامة ولواتة وغيرها خلق كثير وقصدوا حرب عبد المؤمن. فأرسل إليهم جيشًا كثيرًا ، ومقدّمهم أبو سعيد يخلف وهو من «الخمسين».

[هذا ما رواه ابن الأثير عن ثورة صنهاجة][44]. وبالعكس من ذلك ، أكّد البيذق أنّه لم يبق إذ ذاك في المدينة مع الخليفة إلاّ أتباعه من «أهل الدار»، مع مجموع الخدم. فهيّأهم للقتال وسار معهم إلى المتمرّد قائلاً : «ضعوا الرمح في يدي». ولم يسبق له أن أمسك مثل ذلك السلاح منذ «سنة البُحَيْرة». ثم أضاف قائلاً : «اهجموا على العدوّ بعون الله تعالى». فانقضّ على خصومه وهزم أبا قصبة وكبّد بني زلدوي خسائر جسيمة ونصره الله بعزّه وقوّته[45]. ثم اتّجه جند الموحّدين إلى القلعة ، فجرت المعركة في سفح الجبل شرقي بجاية. وانهزم أبو قصبة وقُتِلَ أكثر مَن معه ونُهِبَت أموالهم وسُبِيَت نساؤهم وذراريهم[46].

ثورة الأعراب ومعركة سطيف[47] :

بعدما ملك عبد المؤمن بلاد بني حمّاد ، قفل راجعًا. وما إن وصل إلى متيجة ، حتى بلغه خبر قيام الأعراب بانتفاضة هائلة ، لا يكفي لإخمادها وجود الجنود الذين تركهم في إفريقيّة لمراقبتها.

وحسب ابن خلدون[48] ، فان المخاوف التي ساورت أعراب إفريقيّة كانت ناشئة عن استيلاء عبد المؤمن على قلعة بني حمّاد. إلاّ أن الانتصارات السابقة التي أحرزها الموحّدون تكفي وحدها لتبرير تلك المخاوف. ومن حسن الحظّ فان الرسالة التي وجّهها الخليفة من تلمسان إلى أهل مراكش والمؤرّخة في غرة ربيع الأوّل 548هـ / 26 جوان 1153م ، تؤكّد

43) حسب ابن الأثير.

44) **الكامل**، 71/11.

45) البيذق ، 115.

46) وحسب ابن الأثير، هجم الموحّدون بعد ذلك على قلعة بني حمّاد الحصينة. أمّا النويري فقد ادّعى أنّ أبا سعيد يخلف قد تحوّل إلى قلعة بني حمّاد بعد انهزام أبي قابسة.

47) ليفي بروفنسال ، المرجع المذكور، الرسالة رقم 9 ؛ البيذق ، 114–115 ؛ **الكامل**، 83/11–84 ؛ **العبر**، 20/6 ، 236 ؛ رحلة التجاني ، 343–344 ؛ **الحلل**، 249/1.

48) **العبر**، 236/6.

المعلومات التي قدّمها كلّ من ابن الأثير وابن خلدون وتسمح لنا بتوضيح الوقائع وضبط تسلسلها .

فقد تمّ إجلاء الأعراب من المغرب الأوسط إلى الصحراء ، أمّا الذين استسلموا ، فقد قدّموا شواهد إخلاص تبعث على الريبة ، وبعد احتلال القلعة واستسلام قسنطينة لاحظت العساكر الموحّدية التي بقيت في إفريقيّة لمراقبتها ، أنّ الأعراب الذين عرفوا إلى حدّ ذلك التاريخ كيف يتفاهمون مع بني زيري وملوك الطوائف ، بل تلاءموا حتى مع الاحتلال النرماني ، قد أدركوا أنّ الموحّدين بعد استيلائهم على قسنطينة سوف يوجّهون أنظارهم لا محالة إلى إفريقيّة العاجزة عن مقاومتهم مدّة طويلة . وشعورًا منهم بالخطر الذي يهدّد كيانهم وإيمانًا باستحالة التوفيق بين السّلم الموحّدية المتوقّعة ونمط عيشهم ، تشاوروا فيما بينهم ووجّهوا نداءات وصلت حتى إلى طرابلس ، بل حتى إلى الإسكندرية . وتحالف العرب ، وهم بنو هلال والأثبج وعدي ورياح وزغبة وقرّة[49] ، على التعاون والتظافر وتعاهدوا على الاتّحاد ومناصرة «ملكهم» يحيى بن العزيز[50] . وعزموا على لقاء عبد المؤمن بالرجال والأهل والمال ليقاتلوه «قتال الحريم» .

«واتّصل الخبر بالملك رُجَار (الثاني) صاحب صقليّة ، فأرسل إلى أمراء العرب ، وهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسى بن حسن وغيرهم ، يحثّهم على لقاء عبد المؤمن ، ويعرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم ، على شرط أن يرسلوا إليه الرهائن . فشكروه وقالوا : ما بنا حاجة إلى نجدته ، ولا نستعين بغير المسلمين»[51] .

وزحف الأعراب على منطقة قسنطينة ، قادمين من منطقة باجة التي تجمّعوا فيها . واستجابةً للتعليمات التي تلقّوها ، تراجع الجنود الموحّدون الذين ضيّق عليهم العدوّ الخناق ، إلى أن وصلوا إلى وادي العقيق في ناحية سطيف . فأخبروا عبد المؤمن بالوضع وأعلموه بعزمهم على خوض المعركة في ذلك المكان . فوجّه إليهم الخليفة الذي كان موجودًا بمدينة متيجة امدادات هامّة التحقت بهم على جناح السرعة قبل خوض المعركة . وكانت تتمثّل في ثلاثين

49) **الكامل** : بنو هلال ، الأثبج ، عدي ، رياح ، زغبة ؛ **العبر**: الأثبج ، زغبة ، رياح ، قرّة .
50) **العبر** ، 236/6 .
51) **الكامل** .

ألف فارس بقيادة عبد الله بن عمر الهنتاتي وسعد الله بن يحيى[52]. وكانت الجيوش المكلفة بالتصدّي للأعراب تحت قيادة عبد الله بن عبد المؤمن الذي كان قد طلب إلى أبيه توجيه الإمدادات إلى ساحة القتال[53]، ولا شكّ أنّ الثلاثين ألف فارس يمثّلون معظم رجال الجيش الموحّدي المصاحب للخليفة عند عودته إلى المغرب الأقصى.

إلاّ أنّ عدد الجنود الموحّدين، بالرغم من الإمدادات الواصلة إليهم، كان أقلّ بكثير من عدد رجال العدوّ. وبناء على ذلك فقد تراجع الجيش الموحّدي وتبعه الأعراب، إلى أن وصلوا إلى سهل سطيف المحاط بالجبال. وصباح يوم الخميس أوّل صفر 548هـ/ 28 أفريل 1153م[54]، حمل عليهم الموحّدون على حين غفلة. وقد فاجأ ذلك الهجوم المباغت الأعراب الذين كان ينقصهم العتاد والانسجام وكانوا عرضة لضربات جيش منظّم ومنضبط. فالتقى الجمعان ودامت المعركة كامل اليوم وانتهت بتقهقر الأعراب الذين تركوا للمنتصرين «جميع ما لهم من أهل ومال وأثاث وأنعام».

وأخبرنا البيذق أنّ أحد أمراء العرب، وهو ديغل بن ميمون، قد استسلم، ربّما قبل اندلاع المعركة، وأنّ الخليفة قد أعطى إلى جنوده التعليمات التالية: إذا سمعتم العرب يقولون: «إلى الوراء»، فالحقوهم ولا تأبهوا بالغنائم![55]

وبالفعل فقد لاحق المنتصرون الفارّين طوال يوم وليلة على مسافة تتراوح بين 40 و50 ميل[56]. ومن بعد غد[57] انقسم الجيش الموحّدي إلى عدّة فرق، كلّ فرقة تعمل في قطاع معيّن. وقد لاحقت بعض الفرق الأعراب على مسافة بعيدة مدّة أربعة أيّام أو أكثر، وامتدّت الملاحقة إلى تخوم إفريقيّة. وتجمّعت الكتائب المكلّفة بجمع الغنائم والأسرى واتّجهت إلى ناحية تلمسان للالتحاق بالخليفة.

وفي رسالته[58] المؤرّخة في غرّة ربيع الثاني 548هـ/ 26 جوان 1153م، أعلن عبد المؤمن أنّ طلائع الجيش المنتصر بدأت تصل إلى تلمسان.

---

52) حسب **الكامل** والنويري: أبو سعيد بن يخلف، عبد العزيز وعيسى من أولاد أبي مُعاذ.

53) **العبر**، 236/6.

54) النويري: نظريًا يوم الثلاثاء؛ **الكامل**، صفر 548هـ؛ **العبر**، 236/6؛ حوالي 546–547هـ.

55) البيذق، 114–115.

56) نفس المصدر.

57) حسب ابن خلدون (**العبر**، 20/6، 236) دامت المعركة ثلاثة أيّام كاملة وبدأ التقهقر في اليوم الرابع.

58) ليفي بروفنسال، المرجع المذكور.

«وقسّم جميع الأموال على عسكره. وترك النّساء والأولاد تحت الاحتياط ووكل بهم من الخدم الخصيان من يخدمهم ويقوم بحوائجهم وأمر بصيانتهم. فلمّا وصلوا إلى مراكش أنزلهم في الأماكن الفسيحة وأجرى لهم النفقات الواسعة وأمر ابنه محمّدًا أن يكاتب أمراء العرب ويعلمهم أنّ نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة وأنه قد بذل لهم الأمان والكرامة.

«فلما وصل كتاب محمّد إلى العرب، سارعوا إلى المسير إلى مراكش. فلما وصلوا إليها (ربّما في سنة 549هـ / 1152 — 1153م)[59]، أعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأحسن إليهم وأعطاهم أموالاً جزيلة، فاسترق قلوبهم وأقاموا عنده»[60]. ثم رجعوا إلى إفريقيّة محمّلين بالعطايا.

وحسب رواية البيذق، ترك الخليفة بعض الغنائم والأسرى في فاس، والبعض الآخر في مراكش وسلا. ولكنّه قاد إلى مراكش «سلاطين» العرب ونساءهم : وهم ديغل بن ميمون وحبّاس بن الروميّة وابن النهّاس وابن زيّان وأبو قطران وأبو عرفة والقائد ابن مطرّف. فردّ الخليفة إلى هؤلاء القوّاد نساءهم وقدّم إليهم الهدايا وأرجعهم إلى بلادهم. فقالوا له : «هل تأمرنا بأن نعود إليك من بعد؟». قال : «نحن الذين ستتوجّه إليكم». ثمّ أرجعهم مع نسائهم وكلّف القبائل بنقلهم[61].

والجدير بالتذكير أنّ ديغل بن ميمون قد استسلم، حسبما يبدو، قبل اندلاع المعركة. أمّا الأمراء الآخرون المشار إليهم أعلاه، فالغريب أننا لم نجد من بينهم أيّ واحد من الذين حثّهم رُجّار الثاني على محاربة عبد المؤمن.

وقبل مغادرة المغرب الأوسط، عهد عبد المؤمن بولاية بجاية وقلعة بني حمّاد وما والاهما إلى ابنه عبد الله[62]. وقد ارتحل الخليفة دون أن يستولي على عنّابة (بونة) التي غادرها واليها الحارث بن العزيز بن حمّاد وهرب مع أخيه عبد الله إلى صقليّة[63].

59) حسب العبر، مع تعويض 547هـ بتاريخ 549هـ (الخلط بين سبعة وتسعة).
60) الكامل، 83/11.
61) البيذق، 116.
62) حسب المراكشي (147) الذي أكّد انه استعمله على بجاية.
63) الكامل، 71/11.

فهل رأى عبد المؤمن من باب الحذر إهمال فتح ذلك الميناء القريب جدًّا من إفريقيّة ذاتها التي لم يفكّر بعدُ في فتحها، وبدأت فيها بلا شكّ الاستعدادات للانتفاضة الهلاليّة المقبلة؟

استيلاء النّرمان على مدينة بونة (عنّابة)[64] :

كان رُجَار الثاني الذي حاول التحالف مع بني هلال ضدّ عبد المؤمن، ينتظر رحيل الخليفة ليهجم على عنّابة. ولا شكّ أنّ ثورة جربة التي تمكّن من إخمادها منذ عهد قريب، قد لفتت انتباهه إلى شرق بلاد المغرب. وقد بدا له بلا شكّ أنّ الاستيلاء على عنابة أمر ميسور ومفيد جدًّا في صورة استئناف الموحّدين لمشاريعهم الهجوميّة. أليس من الطبيعي، بعد استيلائه على سواحل المغرب الشرقيّة أن يسعى إلى تمديد نفوذه في اتّجاه الغرب؟

وفي سنة 548هـ/ 1153م، «سار أسطول رُجَار إلى مدينة بونة، وكان المقدّم عليه فتاه فيليب المهدوي، فحصرها واستعان بالعرب عليها، وأخذها في رجب (22 سبتمبر – 21 اكتوبر 1153م)، فسبى أهلها وملك ما فيها، غير أنه أغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا بأهليهم وأموالهم إلى القرى، فأقام بها عشرة أيّام وعاد إلى المهديّة وبعض الأسرى معه، وعاد إلى صقليّة.

«فغضب رُجَار عليه لِمَا اعتمده من الرفق بالمسلمين في بونة. وكان يقال إنّ فيليب وجميع فتيانه مسلمون يكتمون ذلك. وشهدوا عليه أنه لا يصوم مع الملك وأنه مسلم.

«فجمع له رُجَار الأساقفة والقسوس والرهبان، فحكموا بأن يُحْرَق، فأُحْرِق في رمضان (548هـ/ 20 نوفمبر – 19 ديسمبر 1153م)»[65].

والجدير بالذّكر أنّ الخصيّ فيليب المهدويّ كان قد عُيّن أميرًا للبحر إثر وفاة رفيقه أو مخدومه جرجي الأنطاكي. وقد أُطْلِق عليه اللّقب المذكور، لأنّه من مواليد المهديّة، أو لأنّ أبويه من أصيلي تلك المدينة. أمّا بالنسبة لظروف محاكمته، فقد بيّن أماري أنّ شهادة المعلّق على كتاب رمولد السّالرني[66] تؤيّد رواية ابن الأثير، وأكّد أنّ انشغال بال رُجَار الثاني

---

64) **الكامل**، 84/11؛ **البيان**، 313/1؛ الإدريسي، 117.

65) **الكامل**، المصدر المذكور.

66) «Romunald de Salerne».

بالأمور الدينيّة قد جعل منه، على حدّ تعبير شالندون، «ملكًا شبيهًا بالملك فيليب الثاني الحريص أكثر من اللزوم على خلاص نفسه بواسطة الإعدام بالحرق»[67]. وبناء على ما كان يظهره صاحب صقليّة دومًا وأبدًا من تسامح إلى حدّ ذلك التاريخ، أنكر شالندون الرأي الذي أبداه أماري في شأنه، واعتبر أنّ فيليب المهدوي المُعْتَنِق للديانة الإسلاميّة لم يُحرَق من أجل أفكاره الدينيّة، بل لأنّه خان بلاده أثناء الحملة العسكريّة ضدّ عنّابة. ولا يسمح لنا المقام بإعادة النّظر في هذه القضيّة.

ومن ناحية أخرى، فإنّ الإدريسي[68] الذي كان يحظى برعاية رُجَار الثاني، وقد أهدَى إليه كتاب الجغرافيا الذي فرغ من تأليفه في سنة 548هـ، قد صرّح بأنّ المدينة المذكورة التي ضعفت وقلّ عدد سكّانها، كان يحكمها باسم ملك صقليّة عامل من بني حمّاد، وهو الحارث بن العزيز أخو يحيى[69] الذي ربّما أرجعه فيليب المهدويّ إلى منصبه السابق. إلاّ أننا لا ندري متى ولا كيف خرج النرمان من تلك المدينة.

استيلاء النرمان على جزيرة قرقنة[70]:

أشار الإدريسي إلى أنّ النّرمان، بعد استيلائهم على عنّابة، أعادوا احتلال جزيرة قرقنة في نفس تلك السنة، 548هـ/ 1153م. ممّا يدلّ على أنّ تلك الجزيرة كانت قد ٱفْتُكَّت منهم. ولكن لا ندري متى ولا كيف تمّ ذلك.

وتوفّي صاحب صقليّة رُجَار الثاني[71] يوم 26 فيفري 1154/ 10 ذو الحجّة 548هـ، وعمره ثمان وخمسون سنة، وترك لابنه غليوم مملكة ممتدّة الأطراف يسودها الأمن والسّلام.

---

67) شالندون، 104/2.

68) الإدريسي، 117.

69) العبر، 177/6؛ شالندون، 166/2.

70) الإدريسي، 127؛ ستوريا، 432/3-433؛ الكامل، 85/11، وقد جاء فيه ما يلي: «في سنة 548 (29 مارس 1153 - 17 مارس 1154م) وصلت مراكب من صقليّة، فيها جمع من الفرنج فنهبوا مدينة تنيس بالديار المصريّة». وقد افترض أماري (ستوريا، 433/3) أنّ الأمر يتعلّق بمدينة تنس بالجزائر. ولكن نلّينو (ستوريا، 433/3، الهامش 3) بيّن أنّ هذا الافتراض غير صحيح.

71) الكامل، 84/11؛ ستوريا، 447-448؛ شالندون، 166/2.

محاولة استيلاء الموحّدين على مدينة تونس[72] :

حوالي سنة 551هـ/ 1156م، «وجّه عبد المؤمن (القائد) عبد الله ابن سليمان في قِطَع من أسطول سبتة، وأمره بالكشف عن تونس وقوّتها والمجاورين لها من الأعراب»[73].

وبعد ذلك بعام (552هـ/ 1157م)[74] هجم أبو محمّد عبد الله بن عبد المؤمن على تونس على رأس جيش عظيم من المصامدة والأعراب وغيرهم. وكان قد قام قبل ذلك بغارات في إفريقيّة تطبيقًا لتعليمات أبيه، وقطع الميرة عن مدينة تونس. ويبدو أنّ الخليفة قد أمر بالقيام بتلك الحملة إثر الطلبات التي قدّمها إليه أهل إفريقيّة حول تجاوزات الأعراب[75]. وقد أبدت تونس مقاومة مستميتة. «وأخذ المغيرون في قطع أشجارها وتغوير مياهها»[76].

ودخلت إلى تونس فرقة من الأعراب بقيادة محرز بن زياد الرياحي أمير المعلّقة[77]. وبمساعدتهم، إن لم نقل بفضلهم، تمكّن أهل المدينة من الخروج والانتصار على القائد الموحّدي الذي «أقلع عنها إلى بجاية». ولئن يصعب علينا، لافتقارنا إلى الوثائق، توضيح كيفيّة تدخّل محرز بن زياد حليف الحسن، إلاّ أنّنا لا نتردّد في التأكيد أنه، لولا ذلك التدخّل، لما انهزم ابن عبد المؤمن ولربّما استطاع الاستيلاء على مدينة تونس، لا سيّما وهو يتصرّف في قوّات عسكريّة لا شكّ أنّها تفوق من حيث العدد والعُدَّة القوات التي سمحت، قبل ذلك بحوالي ثلاثين سنة، للقائد الحمّادي مطرّف من احتلال تلك المدينة. فهل كان ينقص الجيش الموحّدي الانسجام؟ إذ أكّد المراكشي أنّه كان يضمّ «الأعراب وغيرهم». وهل تخلّى هؤلاء عن القتال عندما رأوا أنفسهم يواجهون بني جنسهم، سكّان المعلّقة الرياحيّين؟ أفلم يحاول محرز فرض سلطته على أهل تونس وإقصاء عبد الله ابن عبد العزيز بن

---

72) **البيان**، 316/1؛ المراكشي، 162–163؛ التجاني، 345؛ **الحلل**، 249–250؛ **العبر**، 164/6–165.

73) حسب **البيان** لا غير.

74) في **البيان** 553هـ، والصحيح ما أثبتناه.

75) **العبر**.

76) حسب المراكشي لا غير. وعلى كلّ حال فانّ مدينة تونس لم تكن تُفتقر إلى الماء الصالح للشراب بفضل آبارها ومواجلها، كما أكّد هذا المؤلّف أنّ الأمير الخراساني كان يحكم تونس باسم رُجَار الثاني صاحب صقليّة. أنظر: **ستوريا**، 435/3–437.

77) حسب ابن خلدون لا غير. وقد أشار المراكشي إلى وجود كوكبة هامّة من الخيّالة في صفوف أهل تونس. ولعلّه يشير إلى خيالة محرز بن زياد.

خراسان؟ كلّ هذه الأسئلة تبقى بلا جواب ، لأنه ليس لدينا حول تلك الفترة من تاريخ مدينة تونس سوى بعض المعلومات المقتضبة التي قدّمها ابن خلدون ، ومفادها أنّ عبد الله ابن عبد العزيز كان قد توفّي أثناء تلك الحوادث وخلفه ابن أخيه علي ابن الأمير الخراساني الثالث أحمد بن عبد العزيز ، الذي اضطرّ بعد ذلك بخمسة شهور إلى الدخول في طاعة عبد المؤمن .

وهناك نقطة واحدة لا يعتريها أيّ شكّ ، بفضل وثيقة محفوظة بأعجوبة في أرشيفات مدينة بيزة . ومفادها أنّ عبد الله ابن عبد العزيز قد أخبر رئيس أساقفة بيزة في آخر يوم من شهر جمادى الأولى سنة 552هـ / 10 جويلية 1157م ، بالانتصار الذي أحرزه منذ قليل على المصامدة ، أي على ابن عبد المؤمن . ولا يمكن الشكّ في صحّة تلك الوثيقة التي تؤكّد أهمّ ما جاء في معاهدة تجاريّة بين بيزة وتونس من بنود قد تمّ ضبطها شفاهيًّا . وقد نشر أماري النصّ العربي لتلك الرسالة مع شرحها الوارد بين السطور باللغة اللاّتينيّة . كما نشر دي ماس لاتري ، نقلاً عن سجلّ الوثائق البيسانيّة ، ترجمة لاتينيّة أخرى مطابقة للشرح المذكور[78] .

وبعدما رُفِع الحصار على مَدينة تونس تحوّل ابن الخليفة إلى بنزرت ، حيث أكرمه صاحبها عيسى بن مقرب بن طراد بن الورد . ولم يكتف بذلك ، بل قدّم إليه شواهد الطاعة والتمس منه إبقاء ضابط من ضبّاطه في بنزرت بصفة «حافظ» . وقد أعرب له عبد المؤمن فيما بعد عن رضاه (555هـ/ 1159م) ، فمنحه إقطاعًا وأثبت اسمه في سجلّ موظّفي الدولة[79] .

ورجع أبو محمّد عبد الله إلى بجاية مع من تبقّى من جنوده ، وأعلم والده بالخيبة التي مُنِي بها في تونس .

ويبدو أنّ ابن خراسان لم يكن تابِعًا لملك صقليّة ، كما ادّعت ذلك بعض المصادر المسيحيّة والإسلاميّة[80] . ذلك أنّ الأمير الخراساني الذي أبرم معاهدة تجاريّة مع بيزة سنة 552هـ ، كان يتصرّف تصرّف الملك المستقلّ .

---

78) أنظر الباب العاشر من هذا الكتاب .

79) العبر ، 170/6 .

80) Robert du Mont Saint Michel : احتلّ جيش ملك صقليّة مدينة تونس في سنة 1152 . Dandalo : جعل رُجّار ملك تونس تابعًا له (على ذكر غزوة سنة 1148م) . المراكشي : عندما استولى الموحّدون على تونس سنة 1159 كانت تابعة لرُوجّار الذي كان له فيها عامل اسمه عبد الله ابن خراسان . أنظر : ستوريا ، 435-437 .

تعيينات في القيادة الموحّديّة العليا[81] :

منذ كارثة سطيف أصبح أمراء العرب يتردّدون مرارًا وتكرارًا على الخليفة الموحّدي الذي كان يغمرهم بنِعَمِه. وفي رسالة رسميّة وجّهها عبد المؤمن إلى أهل سبتة وطنجة، ويمكن تحديد تاريخها بسنة 551هـ، أخبرهم أنّ أمراء العرب بإفريقيّة قد التمسوا منه تعيين ابنه الأكبر أبي عبد الله محمد واليًا على إفريقيّة ووليًّا للعهد. ولئن كان الأمر غير مستبعد، إلاّ أنّ الخليفة قد اتّخذ بعض الإحتياطات الخطابيّة لتبرير الاقتراحَيْن المذكورَيْن، ولا سيّما الاقتراح الأخير. أفلم يكن الطّلب الذي تقدّم به أمراء العرب موحًى به إليهم بصورة أو بأخرى؟ وهل لم يحرص الخليفة على إقصاء بعض الموحّدين لفائدة ابنه، لا سيّما أبو حفص عمر الهنتاتي، الذي تعطيه التراتيب الموحّديّة الأولويّة في ولاية الأمر بعد عبد المؤمن؟

وفي رسالة ثانية موجّهة من الرباط إلى أهل سبتة في 12 ربيع الأوّل 551هـ/ 5 ماي 1156م، أخبرهم عبد المؤمن أنّ أعضاء وفود القبائل الهلاليّة والقسم الشرقي من المملكة قد أعلموه، بأنّ الأمير أبا عبد الله محمد، تبعًا لتعيينه وليًّا للعهد، لا يمكن أن يكون واليًا على بلادهم وألحّوا عليه بأن يوجّه معهم أحد أبنائه ليتولّى مهمة توحيد البلاد حول شخصه وإرجاع الطمأنينة إلى تلك الربوع. فوافق كبار القادة الموحّدين على ذلك الطلب. وأعرب عن نفس تلك الرغبة ممثلو منطقة تلمسان والغرب الأوسط وغيرهما. وبعدما عيّن الخليفة الخطوط العامّة للتقسيم المقترح، ودون أن يعيّن أيّ واحد من أبنائه، صرّح بأنّ كلّ واحد منهم سيستعين بمجلس شورى.

ومن بين التسميات المصرّح بها، نشير إلى تعيين أبي محمّد عبد الله عاملاً على بجاية وأعمالها، وأبي حفص عمر عاملاً على تلمسان.[82].

وفي سنة 552هـ/ 1157–1158م «ملك الموحّدون مدينة المرية من الفرنج وانقرضت دولة المرابطين بالأندلس»[83].

---

81) ليفي بروفنسال، المرجع المذكور، الرسالتان 13 و14؛ **الكامل**، 94/11–95؛ النويري، 207/2؛ لوتورنو (Le Tourneau)، «**من الحركة الموحّديّة إلى دولة بني عبد المؤمن...**» تحية جورج مارسي، 111/2–116. أنظر أيضًا، علي مراد، المرجع المذكور أعلاه.

82) **العبر**، 170/6.

83) **الكامل**، 95/11.

ثورة إفريقيّة على النرمان :

أسباب هذه الثورة[84] : لقد شهدت صقليّة فترات صعبة في عهد غليوم الأوّل الذي كان «فاسد التدبير» ، [على حدّ تعبير ابن الأثير] ، حتى لُقِّب «بالفاسد» ، وفي عهد وزيره أمير البحر ماجون الباري. ولا شكّ أنّ الاضطرابات التي جدّت في إيطاليا الجنوبيّة حوالي 1155–1156 قد كانت لها انعكاسات في إفريقيّة. ففي صفاقس التي ستعطي إشارة الانطلاق للثورة ، أكّد ابن خلدون[85] أنّ النصارى أخذوا في اضطّهاد المسلمين. والجدير بالملاحظة أنّ هذا التأكيد القريب من الواقع صالح أيضًا بالنسبة إلى المدن الإفريقيّة الأخرى التي أقلع ولاتها النرمان عن سياسة رُجّار الثاني المُتّسمة بالمرونة والعدل والتسامح . وأخذوا في استغلال المسلمين واضطهادهم. وسنرى أنّ الثورة ستندلع في طرابلس على الأقلّ لأنّ النصارى الذين أصبحوا يتدخّلون في الشؤون الدينيّة بعدما كانوا يتحاشون ذلك من قبل ، قد أمروا أهل المدينة بذمّ الموحّدين[86] .

ويتّضح من ذلك أنّ القسوة التي أبداها الصقليّون تجاه أهل إفريقيّة ، في الوقت الذي كان فيه الخليفة الموحّدي يتأهّب لاجتياح تلك البلاد ، هي التي تفسّر بالطبع اندلاع الاضطرابات . إلاّ أنه يحقّ لنا أن نتساءل هل أنّ تصلّب السياسة النرمانيّة لم يكن ناشئًا – ولو جزئيًّا – عن تشنّج أعصاب الإفريقيّين؟

ثورة صفاقس[87] : استمرّ عمر الفرياني منذ سنة 543هـ/ 1143م في الاضطلاع بمهامّه كعامل على صفاقس. في حين لا يزال والده أبو الحسن رهينة في صقليّة . وقد أسلفنا أنه أمر ابنه قبل رحيله «بأن يخالف متى أمكنته الفرصة في الخلاف على العدوّ» ، وأن يعتبر أباه قد مات فعلاً .

ويقال إنّ صفاقس قد شهدت ذات ليلة مجزرة حقيقيّة ، ولكن يبدو، من سوء الحظّ ، أنّ وقائعها قد أضيفت عليها مسحة خياليّة . [وقد رواها ابن الأثير على النحو التالي] :

---

84) نفس المصدر.

85) العبر، 169/6.

86) رحلة التجاني ، 242.

87) الكامل ، 91/11–92 ؛ العبر ، 169/6 ؛ مقديش ، الزركشي ، الحلل ، 139/1–140 ؛ ستوريا ، 478/3–480 ؛ شالندون ، 236/2–237 .

«لما وجد عمر الفرصة ، دعا أهل المدينة إلى الخلاف وقال : ليطلع منكم جماعة إلى السور ، وجماعة يقصدون إلى مساكن الفرنج والنصارى جميعهم ، ويقتلونهم كلّهم . فقالوا له : إنّ سيّدنا الشيخ والدك نخاف عليه . قال : هو أمرني بهذا ، وإذا قُتِلَ بالشيخ ألوف من الأعداء ، فما مات . فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم»[88] .

والجدير بالملاحظة أنّ ابن الأثير قد روى هذه الحادثة في سياق الحديث عن أحداث سنة 551هـ / 25 فيفري 1156 — 12 فيفري 1157م . وختم حديثه قائلاً : «وكان ذلك أوّل سنة إحدى وخمسين وخمسمائة» . وكنّا لا نتردّد مع بعض المؤلّفين[89] في الاعتقاد أنّ تلك الواقعة قد جرت في اليوم الأوّل من السنة (الهجريّة) الجديدة ، أي في الليلة الفاصلة بين 30 ذي الحجّة 550 وأوّل محرّم 551هـ ، لو لم يدرج الراوية الصفاقسي المتأخّر (القرن السابع عشر م) ، محمود مقديش[90] ، ضمن روايته المنقولة عن المصادر القديمة (ابن الأثير والتجاني وابن خلدون) ، معلومات غريبة قد استقاها من الروايات الشعبيّة التي ربما كانت رائجة في عصره . وهذا نصّها :

«وكان ذلك أوّل السنة المذكورة (أي أوائل يناير)[91] . وما قاموا عليهم حتى جعلوا صهريجًا تحت الأرض شرقي المسجد الأعظم في صورة مخزن للماء ، وصاروا كلّ ليلة ينزلون إليه لعمل السلاح ، وإلى الآن يسمّونه ماجل الصاغة ، وكان بابه مكشوفًا . فلما أحدثوا الساباط الشرقي من المسجد للموازين ، وجعلوا هناك حانوتًا صار بجانبه ، وهو تحت الطريق من جهة شرق المسجد . ولما جاءت ليلة يناير عيد النّصارى ، أظهروا معهم الفرح بموسم النّصارى ، وأمروا بطبخ الفول في كلّ دار ، وجعلوا جماعة يدورون على الدور في صورة شحّاتين يشحتون الفول ، وأمر كلّ صاحب دار أن يخرج من الفول بقدر ما عنده من الرجال ، فجمعوا ما تحصّل وعدّوه وعرفوا ما عندهم ، وأعطوا كلّ أحد من السلاح بقدر ما أعطاهم من الفول . وأحدثوا لَعِبًا سمّوه لعب ضرب النار ، وإلى الآن يلعب به الصغار . ولما أتقنوا وجه الحيلة مالوا على الكفرة ليلاً ، فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الكفّار عن آخرهم كما تقدّم»[92] .

---

88) **الكامل** ، المصدر المذكور.

89) أماري ، **ستوريا** ، 479/3.

90) [في الأصل : ابن مقديش ، والصحيح ما أثبتناه].

91) من التقويم اليوليوسي ، [أي التقويم الذي وضعه يوليوس قيصر سنة 46 ق.م.].

92) [مقديش ، **نزهة الأنظار** ، الطبعة الجديدة ، بيروت 1988 ، 491/1—492] ، الطبعة الحجرية ، 193/1.

والجدير بالذّكر أنّ طبخ الفول وضرب النّار بمناسبة رأس السّنة المسيحيّة حسب التقويم اليوليوسي من العادات البربريّة القديمة(92م). وبناء على ذلك، فان اغتنام فرصة الاحتفال برأس السنة لمباغتة النّصارى المحتفين بذلك العيد والسعي إلى إبادتهم، يعتبر خدعة بارعة. فليس من المستبعد أن تكون الأسطورة قد اعتمدت تلك الحادثة وحرّفتها تحريفًا يزيد أو ينقص. وليس من المستحيل حينئذ أن يكون قتل النّصارى في صفاقس قد تمّ في الليلة الفاصلة بين 31 ديسمبر 1155 وأوّل يناير 1156 (6 ذو القعدة 550هـ)(93).

تعذيب أبي الحسن الفرياني(94) :

«فلمّا اتّصل الخبر بغليوم(94م) ملك صقليّة أحضر أبا الحسن وعرّفه ما عمل ابنه. فأمره أن يكتب إليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعود إلى طاعته، ويخوّفه عاقبة فعله. فقال: «مَنْ قَدِمَ على هذا لا يرجع بكتاب»(95).

فسجن الملك رهينته وبعث إلى عمر برسالة يأمره فيها بالاستسلام ويتوعّده بقتل أبيه، إن لم يرجع إلى الطاعة. وقد نقل إلينا التجاني التقرير الذي رفعه الرّسول إلى سيّده عند عودته من مهمّته، [وهذا نصّه]:

«قال الرسول: فوصلت إلى صفاقس، فلم أُمَكَّن من النزول إلى البرّ. ولمّا كان من الغد سمعت في البلد ضجّة، ثم فُتِحَ باب البحر وخرج النّاس يكبّرون ويهلّلون، ومعهم نعش قد رفعوه على رؤوسهم، فحطّوه، ثم تقدّم عمر فصلّى عليه ودفنه وعزّاه النّاس وانفصلوا. قال: فاستدعيت الجواب فقيل لي: الشيخ مشغول بالعزاء في والده الذي بصقليّة، والنعش الذي قد رأيت نعشه. وقد عزم على موته والسلوى عنه وليس لك جواب إلاّ ما رأيت.

فلمّا بلغ ذلك طاغية صقليّة أمر بالشيخ أبي الحسن فسُحِبَ إلى المشنقة بوادي عبّاس، فشُنِق وهو يتلو كتاب الله، إلى أن فاضت نفسه رحمه الله»(96).

92م) روجي الهادي إدريس، **أعياد مسيحيّة**...، المجلة الإفريقيّة، 1954، 266–268.

93) من الجدير بالتذكير أنّ السنوات التي سبقت 5 أكتوبر 1582 كلّها سنوات يوليوسيّة بأتمّ معنى الكلمة. أنظر، H.G. Gattenoz، **جداول الموافقة**...، الطبعة الثانية، الرباط، 1954، المقدمة.

94) حسب التجاني، و**الكامل**، 11/91–92.

94م) [في **الكامل**: غليالم، وفي رحلة التجاني: غليام].

95) **الكامل**، 11/91.

96) التجاني، 75.

ثورة زويلة[97] :

لقد فكّر عمر الفرياني في استئصال النّصارى من المهديّة التي هي قاعدتهم الرئيسيّة في إفريقيّة ، فأرسل إلى أهل زويلة يحرّضهم على الثورة . ومن المعلوم أنّ النّرمان كانوا لا يقيمون بتلك المدينة ، حسب الاحتمال ، ولكن انتفاضة زويلة كانت ترمي إلى محاصرة المهديّة .

«فقدم عرب البلاد إلى زويلة ، فأعانوا أهلها على مَنْ بالمهديّة من الفرنج ، وقطعوا الميرة عن المهديّة» ، (وذلك في شوال 551 هـ / 17 نوفمبر — 15 ديسمبر 1156م)[98] .

«وأمّا أهل زويلة ، فانهم كثر جمعهم بالعرب وأهل صفاقس وغيرهم ، فحصروا المهديّة وضيّقوا عليها ، وكانت الأقوات بالمهديّة قليلة ، فسيّر إليهم صاحب صقليّة عشرين شينيًّا فيها الرجال والطعام والسّلاح ، فدخلوا البلد وأرسلوا العرب وبذلوا لهم مالاً لينهزموا وخرجوا من الغد ، فاقتتلوا هم وأهل زويلة ، فانهزمت العرب وبقي أهل زويلة وأهل صفاقس ، وركبوا في البحر فنجوا ، وبقي أهل زويلة فحمل عليهم الفرنج ، فانهزموا إلى زويلة فوجدوا أبوابها مغلقة فقاتلوا تحت السّور وصبروا حتى قُتِلَ أكثرهم ولم ينج إلا القليل ، فتفرّقوا ومضى بعضهم إلى عبد المؤمن ، فلما قتلوا هرب مَنْ سلم من الحرم والصبيان والشيوخ في البرّ ولم يعرجوا على شيء من أموالهم ودخل الفرنج زويلة ، فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والأطفال ونهبوا الأموال»[99] .

وكان ذلك في سنة 552 هـ / 13 فيفري 1157 — أوّل فيفري 1158م[100] . وحسب روبار رئيس دير جبل القديس ميخائيل ، أقرّ غليوم الأوّل النّصارى في زويلة وعيّن لهم رئيسًا للأساقفة[101] . ويرى شالندون أنّ ذلك يعني استعمال منطقة المهديّة ملجأ لجميع النّصارى بإفريقيّة خلال بضع سنوات .

---

97) **الكامل** ، 91/11—92 ك **البيان** ، 316/1 .

98) زيادة من **البيان**.

99) **الكامل** ، المصدر السابق .

100) **البيان** ، المصدر المذكور.

101) **ستوريا** ، 483/3—484 ؛ شالندون ، 238/2 ، يرى من الممكن أن تكون جزيرة قرقنة قد استُرْجِعَت (نوفمبر — ديسمبر 1157) .

عصيان طرابلس[102] :

أمام الخطر الموحّدي المتفاقم، وربّما إثر الاستيلاء على عنابة الذي لا نعرف تاريخه بالضبط[103]، رأى النرمان من باب الاحتياط التأكّد من ولاء مدينة طرابلس، رغم أنّهم لم يتعرّضوا هناك لأيّ عمل عدواني منذ اثني عشر عامًا. ولا شكّ أنّ إخماد ثورة زويلة لم يكن كافيًا لمنع أهل طرابلس من الاقتداء بصفاقس وجربة وجزيرة قرقنة التي فشل النّصارى في استردادها. وحرصًا منهم على الحيلولة دون قيام أي تحالف بين الموحّدين وطرابلس، أمر النرمان أهل المدينة «أن يصعدوا المنابر (ربما أثناء صلاة الجمعة) فيتكلّموا في جهة الموحّدين بسوء. فأعظم أهل طرابلس ذلك واجتمعوا إلى قاضيهم أبي الحجّاج (يوسف بن زيري) فسفر بينهم وبين النّصارى وأعلم النّصراني (أي رئيس النّصارى بطرابلس بدون شكّ) عنهم أنّه لا سبيل إلى نيل ذلك منهم، وأن الأمر إنما كان العقد بينهم أن لا يكلّفوا المسلمين بشيء يخالف دينهم وذكر أهل الدين بسوء، ممّا يخالف الدّين، فإن رضوا منهم بهذا وإلاّ سلّموا لهم البلد وخرجوا عنهم، فأعفاهم النصراني من ذلك. وأحدث الله عند أهل طرابلس عزمًا على القيام عليهم والتخلّص من أيديهم، فأسَرُّوا النجوى بذلك بينهم واتّعدوا لليلة معيّنة، ونصبوا تلك الليلة في الطّرقات خشبًا وأناشيط تمنع الخيل من الجري فيها وثاروا عليهم. فبادر النصارى إلى خيولهم وركضوها فلم تجد مجالاً، فأُخِذُوا قبضًا باليد، وعاد البلد إلى تملّك المسلمين. وكان هذا في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة (2 فيفري 1158 — 22 جانفي 1159م). وحكم على البلد شيخه أبو يحيى بن مطروح، وكان رجلاً شهمًا حازمًا، وصالح العرب المجاورين له فاستقام حاله»[104]. واستمرّ على ذلك إلى أن نزل الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى إفريقيّة.

102) التجاني، 242 وهي أكثر المصادر تفصيلاً؛ العبر، 168/6؛ الكامل، 91/11.

103) لقد اتبعنا الترتيب الذي أورده ابن الأثير، إذ تحدّث عن احتلال عنابة بعد ثورة قابس. ولكن هذا المؤلّف لا يحترم دائمًا التسلسل التاريخي، لا سيّما عند الحديث عن أحداث سنة 551هـ.

104) التجاني، 242.

ثورة قابس والاستيلاء على عنّابة[105] :

وفي نفس الفترة تقريبًا ثار محمد بن رُشَيْد في قابس وخرج عن طاعة النزمان ، ولعلّ ثورة طرابلس قد شجّعته على ذلك[106].

ورغم أنّنا لا نعرف بالضبط متى استولى الموحّدون على مدينة عنّابة ، فالغالب على الظنّ أنّ ذلك الاستيلاء قد تمّ أيضًا في نفس تلك الفترة ، مباشرةً إثر ثورة قابس.

«وخرج جميع إفريقيّة عن حكم الفرنج ، ما عدا المهديّة وسوسة»[107].

105) **الكامل** ، 91/11.

106) حسب ابن الأثير الذي أشار على التوالي إلى ثورة طرابلس ثم ثورة قابس. وأخيرًا استيلاء الخليفة الموحّدي على عنّابة.

107) **الكامل** ، 91/11.

الفصل السّادس
استيلاء عبد المؤمن على إفريقيّة
(554–555 هـ / 1159–1160 م)

المرحلة الأولى : الاستعدادات واحتلال مدينة تونس[1] :

منذ أن عاد عبد المؤمن إلى مراكش ، بعد أن فتح المغرب الأوسط سنة 548 هـ / 1152 م ، والأمير الحسن المخلوع المقيم بتلك المدينة يحثّه على الزحف على إفريقيّة . وإثر فشل ثورة زويلة ضدّ النصارى (552 هـ / 1157 – 1158 م) ، وفد بعض من نجا من أهل المدينة إلى عبد المؤمن وهو بمراكش يستجيرونه . فوعدهم الخليفة بالإعانة «ولو بعد حين» وأمر بإنزالهم ومنحهم ألفيْ دينار. وقد أسلفنا أنّ عبد المؤمن ما لبث أن وجّه جيشًا بقيادة ابنه أبي محمّد عبد الله إلى مدينة تونس التي كانت قد قاومت بنجاح سنة 552 هـ / 1157 م . فكان على الخليفة أن ينتقم لهذه الخيبة !

وحسب ابن خلدون[2] ، ارتحل عبد المؤمن إلى سلا سنة 553 هـ / 1158 – 1159 م ، وكان ينوي التحوّل إلى الأندلس ، حيث انتصر ملك النصارى على ابنه أبي يعقوب تحت أسوار مدينة أشبيلية . فلما علم بانهيار مملكة بني زيري بإفريقيّة واحتلال المهديّة[2م] ، جمع جيشه في سلا ثم غادر المدينة بعدما عيّن أبا حفص نائبًا عنه بالمغرب ويوسف بن سليمان عاملاً على فاس . وإثر قيامه بغارة خاطفة ، أجبر الصقليّين المقيمين بالمهديّة على الاستسلام سنة 555 هـ ، ولم يتحدّث أيّ مصدر آخر عن مشروع تنظيم حملة عسكريّة في الأندلس .

---

1) أ– **رحلة التجاني** ، 346–347 ؛ و**الحلل السندسيّة** ، 1/249–251 ؛ مقديش ، **نزهة الأنظار** ، 1/495–496 ، نقلاً عن ابن شدّاد .

ب– **الكامل** ، 108–109؛ والنويري ، 210–211 ، نقلاً أيضًا عن ابن شدّاد بدون ذكره .

ج– **العبر** ، 6/162 ، 237 ؛ **البيان** ، 1/316 ؛ **المؤنس** ، 116 .

د– مصادر موحّديّة بحسب أهمّيتها : البيذق ، 120 ؛ **الحلل الموشّية** ، 115–117؛ المراكشي ، 162 ؛ الزركشي ، 7–9 ؛ ابن صاحب الصلاة ، المكتبة العربية الصقليّة ، 197 ؛ **القرطاس** ، 128–129 .

2) **العبر** ، 6/237 .

2م) لعلّ الأمر يتعلّق بحركات العصيان ضدّ النصارى وفشل انتفاضة زويلة .

وهو مشروع يعيد إلى الأذهان بشكل غريب الفكرة التي نُسِبَت إلى عبد المؤمن قبل رحيله لفتح المغرب الأوسط منذ عهد بعيد. وربّما لا ينبغي أن نحتفظ من رواية ابن خلدون المقتضبة بغرابة، إلاّ بالمعلومات المتعلّقة بتعيين أبي حفص ويوسف بن سليمان، وحشد الجنود بسلا، كما أكّد ذلك صاحب **الحلل الموشّية**.

فقد ورد في هذا المصدر وصف طريف لمسيرة الجيش الموحّدي الذي انطلق من سلا ووصل إلى تونس في ظرف ستة أشهر، وقطع حينئذ مسافة يستطيع أن يقطعها أيّ فارس سريع في ظرف سبعين يومًا. وكان ذلك الجيش يضمّ 75 000 فارس و500 000 راجل، وهذه التقديرات مبالغ فيها لا محالة. وكان الجيش يتحرّك كلّ يوم بعد صلاة الصبح إثر قرع الطبول، وهو موزّع إلى أربع فرق عسكريّة، كلّ فرقة مدعوّة إلى الرحيل في يوم معيّن والحلول بمكان معيّن قرب عين ماء. والمقصود بذلك بلا شكّ أنّ تلك الفرق كانت تنطلق على التوالي في أيّام محدّدة من قبل. وعندما يمتطي الخليفة صهوة جواده، يحيط به قوّاد الجيش، وبعد الدّعاء ينطلق مسبوقًا من بعيد بكوكبة من الفرسان تضمّ مائة فارس، ويسير وراءه الجنود والبعير الحامل لهودج تزيّنه أربع رايات حمراء ويحتوي على تابوت مرصّع بالجواهر، به مصحف الخليفة عثمان بن عفّان، الذي أتى به عبد المؤمن من قرطبة. ويسير الخليفة الموحّدي متبوعًا بأبي حفص[3]، وبوليّ عهده أبي عبد الله المتقدّم على إخوانه الآخرين، ووراءهم البنود والطبول ورجال الدولة، ويتحرّك الموكب في نظام تامّ. وتتوقّف كلّ فرقة عسكريّة في المكان المعيّن لها. وقد وُضِع على ذمة الجيش كلّ ما يحتاج إليه في السفر، وذلك بالخصوص بفضل الحرفيّين الذين وفّروا له جميع أسباب الراحة. ولتموين ذلك الجيش العظيم الذي قدّر ابن الأثير عدده بمائة ألف مقاتل وبعدد مماثل «من الأتباع والسوقة»، أمر الخليفة «بعمل الرّوايا والقِرَب وما يحتاج إليه العساكر. وكتب إلى جميع نوّابه في الغرب، وكان قد ملك إلى قرب تونس، يأمرهم بحفظ جميع ما يُتَحَصَّل من الغلاّت ثلاث سنين، ونقلوها إلى المنازل وطيّنوا عليها، فصارت كأنّها تلال. وبلغ من حفظه لعساكره أنّهم كانوا يمشون بين الزروع، فلا تتأذّى بهم سنبلة. وإذا نزلوا صلّوا جميعًا مع إمام واحد بتكبيرة واحدة لا يتخلّف منهم أحدٌ كائنًا مَنْ كان»[4].

3) حول أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، أنظر: البيذق، الترجمة 50.

4) **الكامل**، 108–109.

وبما أنّنا نجد الجملتين الأخيرتين في الفقرة المأخوذة من **تاريخ** ابن شدّاد والواردة في **رحلة** التجاني ، فالغالب على الظنّ أنّ ابن الأثير قد استقى أغلب معلوماته من ذلك الكتاب.

وعلى غرار التجاني ، سنعطي الكلمة لابن شدّاد ليعلمنا بما يلي : «كانت مقدّمة هذا العسكر اثنيْ عشر ألفا ، قد كلّفوا بحفر الآبار في الطريق واستخراج المياه. فكانوا يمتدّون قبله بيومَيْن ، فلا يأتي إلاّ وقد هُيِّئَتْ له الغلاّت ومُلِئَت الأحواض بالمياه. ولولا هذا التدبير لم يقدر على قطع هذه المسافة البعيدة بهذه الجيوش العظيمة. وكان كلّما مرّ بأرض فيها عرب ، بادروا إليه فاستصحب أعيانهم معه ، وقد كانت وقعة سطيف أذلّتهم»[5].

«وكان أسطوله في البحر سبعين مركبًا[6] ، قوّادها محمّد بن عبد العزيز ابن ميمون من البيت المشهور في قيادة البحر وابن الخرّاط وأبو الحسن الشاطبي ، وغير هؤلاء ممّن هو مثلهم في المعرفة والشهرة»[7].

وكان عبد المؤمن مصحوبًا بالحسن بن علي. ويسهل علينا أن نتصوّر ما كان يشعر به الأمير المخلوع من غبطة لعودته إلى مملكته. وأكّد ابن الأثير أنّ الخليفة «قد قدّمه بين يديه». فهل يمكن أن نستنتج من ذلك أنّ عبد المؤمن قد وضع ببراعة الحسن في مقدّمة الجيش لإقناع النّاس بأنّ غرضه من فتح إفريقيّة إنّما هو إرجاع الصنهاجيّين إلى الحكم؟

وفي طريقه استصحب الخليفة ابنَيْه أبا حفص عامل تلمسان وأبا محمّد عبد الله عامل بجاية[8]. والغالب على الظنّ أنّ ذلك الجيش العظيم قد تجمّع في باجة في نفس المكان الذي سبق أن تجمّع فيه الأعراب قبل هزيمتهم في سطيف. إذ أكّد التجاني أنّ عبد المؤمن قد استعرض جيشه في باجة ، «فكانت الخيل أَزْيَدَ من مائة ألف فارس وأمّا الرجّالة فلا يُحصون كثرةً». وأثناء هذا التوقّف الذي لا نعرف مدّته بالضبط ، ولكنّه على الأرجح كان قصير الأمد ، «وجّه الخليفة إلى أهل تونس بالتأمين والعفو» ، لحثّهم على تسليم المدينة إليه. وقد كان يرغب بدون شكّ في إعلامهم بأنّه لا يضمر لهم أيّة ضغينة من أجل الهزيمة التي ألحقوها بابنه قبل ذلك بسنتين.

---

5) تدلّ هذه الإشارة على أنّ أفواجًا غفيرة من أعراب المغرب الأوسط وإفريقيّة ما انفكّت تعزز الجيوش الموحّدية إلى أن وصلت إلى تونس.

6) في **الكامل** : «سبعين شينيًّا وطريدة وشَلَنْدِي».

7) **رحلة التجاني** ، 346–347.

8) حسب ابن صاحب الصلاة.

«فارتحل عبد المؤمن من باجة ونزل على طبرية وأعاد إلى أهل تونس الترغيب والترهيب ، فلم يقبلوا ، فارتحل إلى تونس» .

وكان عبد المؤمن قد غادر مراكش يوم أوّل شوّال 553 هـ/ 26 أكتوبر 1158م ، أو بعد ذلك بقليل[9] . وحسب رواية ابن الأثير ، «سار من مرّاكش في صفر من هذه السنة ، فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة» . في حين أكّد التجاني ، نقلاً عن ابن شدّاد بلا شكّ ، أنّ نزوله بتونس كان يوم السبت 10 جمادى الأولى 554 هـ[10] . فمن المحتمل أن يكون حصار تونس قد دام شهرًا ونصف الشهر[11] .

وحسب المصدر المذكور ، «اتّصلت الأخبية من الحنايا[12] إلى حلق الوادي ، وعاين أهل تونس أمرًا عظيمًا وأيقنوا بالهلاك . وأقام العسكر ثلاثة أيّام لا يقاتلون . فنزل على عبد المؤمن أشياخ لطلب السلم من أهل تونس ، منهم بنو عبد السيّد عمر ومعاوية وعبد السيّد ، ومنهم ابنا منصور بن اسماعيل وابن عمّه عتيق ، ومنهم الخارجي محمد وحمزة ابن حمزة وعبد العزيز القمودي ، وغيرهم ، وكانوا اثنيْ عشر رجلاً»[13] . وكان بنو السيّد من الأشراف الهاشميّين ، وبهذه الصفة على الأقلّ كانوا ذوي نفوذ كبير. وقد نُشِرَت قبريّة واحد منهم ، وُصِف بالفقيه والإمام ، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد السيّد الهاشمي المالكي المتوفّى في العشر الأواخر من شوّال سنة 528 هـ/ 1113م[14] .

9) **القرطاس** ، 120 : ارتحل في العشر الأوائل من شوال 553 هـ/ 26 أكتوبر– 4 نوفمبر 1158م. ابن صاحب الصلاة : سار في أوّل شوال 553 هـ/ 26 أكتوبر 1158م واتخذ عبد السلام بن محمد الكومي وزيرًا له ووصل إلى سلا.

10) وذكر مقديش التاريخين.

11) أماري (**ستوريا** ، 487/3) استخلص أن عبد المؤمن بعد هجومه على تونس التي أبدت مقاومة (ماي 1159) ، تحول إلى القيروان وسوسة وصفاقس ثم رجع إلى تونس يوم 13 جويلية 1159. **القرطاس** ، 129 ؛ **المؤنس** ، 116 : «وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة تحرك عبد المؤمن من مدينة مراكش وقصد إفريقيّة بأمم لا تحصى فوصل الزاب وبلاد إفريقية فقتل من عصى وأمّن من استأمن إلى أن وصل مدينة تونس فحاصرها ثلاثة أيّام وارتحل عنها وترك جيشًا محاصرًا لها وسار إلى القيروان ففتحها وفتح سوسة وصفاقس وارتحل إلى المهديّة فحاصرها سبعة أشهر» . **البيان** ، 316/1 : «ونازل تونس ثم أقلع عنها وحاصر النصارى بالمهديّة» ، وهو ناقص وربما محرّف. ويؤكّد البيذق ، 120 أنّ احتلال تونس سبق ارتحال الخليفة إلى المهديّة.

12) وهي بلا شكّ حنايا باردو.

13) **رحلة التجاني** ، 345 .

14) سليمان مصطفى زبيس ، **نقائش** ، 1 ، عدد 49 ص 73 .

«فوصل الأشياخ إلى عبد المؤمن وطلبوا العفو منه فأُسْعِفُوا به، بعد مكابدة شديدة وامتناع عظيم من عبد المؤمن»(15).

ورغم تطابق رواية ابن الأثير مع الرواية السابقة، فانها تختلف عنها في بعض الجزئيّات. فحسب هذا المؤلّف، «أقبل أسطول عبد المؤمن في البحر إلى مدينة تونس، فلما نازلها أرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته، فامتنعوا، فقاتلهم من الغد أشدّ قتال، فلم يبق إلاّ أَخْذُها ودخول الأسطول إليها. فجاءت ريح عاصف منعت الموحّدين من دخول البلد، فرجعوا ليباكروا القتال ويملكوه، فلما جنّ الليل نزل سبعة رجلاً من أعيان أهلها إلى عبد المؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدهم»(16).

والجدير بالملاحظة أنّ التجاني وابن الأثير متكاملَيْن ومتّفقَيْن تقريبًا حول الشروط التي فرضها عبد المؤمن على أهل تونس. «فقد اشترط مسالمتهم في أنفسهم ومشاطرتهم في رباعهم وأموالهم كلّها للمخزن، ما عدا ملبوس رقابهم، وغير أهل تونس من قراها وسائر بلادها، يُشَاطَرون في أموالهم». وأمّا صاحب تونس علي بن أحمد بن خراسان(17) الذي خلف عمّه عبد الله ابن خراسان(18) قبل ذلك بخمسة شهور، فقد اشترط عليه، علاوة على دفع نصف أمواله مثل بقيّة أهل تونس، «الخروج من تونس والانتقال إلى بجاية. فوقع الشرط على ذلك وتسلّم عبد المؤمن منه تونس وخرج ابن خراسان منها من يومه، فمات في الطريق»(19).

«وعرض عبد المؤمن الإسلام على مَنْ بتونس من اليهود والنّصارى، فمن أسلم سَلِمَ ومن امتنع قُتِل».

ومن ناحية أخرى، هل يمكن تصديق الرواية التالية التي أكّد صاحبها أنه استقاها من مصدر آخر غير ابن شدّاد؟ وهي رواية تكتسي صبغة خرافيّة، حسبما يبدو. فقد قال التجاني :

«ومن غير كلام ابن شدّاد، أنّ عبد الله بن عبد المؤمن لمّا فعل به أهل تونس ما فعلوا حين نزل عليهم قبل هذا، حلف أن يدخلها بالسيف ويقتل جميع من تقع عينه عليه من

---

15) التجاني، المصدر المذكور.

16) الكامل، المصدر السابق.

17) حسب رواية ابن خلدون، العبر، 165/6 وتسمّيه بعض المصادر خطأ (البيذق وابن الأثير) : أحمد بن خراسان.

18) اسمه الكامل : عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحقّ بن عبد العزيز بن خراسان.

19) رحلة التجاني. 346.

أهلها ، فأمر النّاس أن يدخلوا دورهم ولا يخرج أحد منهم حتى يسمع النداء ليدخل عبد الله إلى البلد . فدخلها وسيفه في يده ، فلم يلق إلاّ شيخًا قتله وانصرف ، وقد برّت يمينه »[20] .

وأثناء الأيّام الثلاثة التي قضاها عبد المؤمن بتونس ، «منع العسكر من دخولها وأرسل أمناءه ليقاسموا الناس على أموالهم »[21] . ثم عهد بالمدينة إلى نائبه أبي محمّد عبد السلام الكومي . وقد نسب البيذق إلى هذا الوزير القيام بدور بارز في الاستيلاء على مدينة تونس . ومن المحتمل أن يكون قد أشرف على سير العمليّات وساهم مساهمة فعّالة في المفاوضات .

وخلال هذه الفترة أعيد بناء القصبة ببروجها المثلّثة الزوايا وتمّ فصلها عن المدينة بسور»[22] .

وكان يساعد عامل المدينة «أشياخ من الموحّدين لاستخلاص الأموال من أهل تونس . فوقع البحث عن أموالهم ودُخِلَت دورهم فحُمِل جميع ما فيها وبيع ما أمكن بيعه من رباعهم وأملاكهم »[23] .

وحسب رواية ابن الأثير ، «أقام أهل تونس بها بأجرة تُؤْخَذ عن نصف مساكنهم » . ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بمساكن بعض الأثرياء القادرين على دفع رسوم تساوي قيمتها نصف القيمة العقاريّة لمساكنهم . ومن الممكن أن تكون طريقة توظيف تلك «الأجرة» مختلفة بحسب الحالات الخاصّة . ولعلّ الموحّدين قد اجتنبوا إخراج النّاس من مساكنهم ، لا سيما وأنّ بيع العقارات بالمزاد العلني سرعان ما تجاوز إمكانات المشترين المحتملين . وقد كان بودّنا أن نعلم هل أنّ هؤلاء المشترين هم من أهل المدينة ، أم كان يوجد من بينهم بعض الموحّدين .

ومن المحتمل أن يكون مثل هذا الإجراء قد طُبِّقَ على سائر البلاد المفتوحة . إذ أكّد التجاني «أنّ الأمناء قد خرجوا إلى سائر بلاد إفريقيّة لمشاطرة الرعيّة في جميع ما بأيديهم ، حتى لم يبق من إفريقيّة بقعة إلاّ عمّها ذلك»[24] .

---

20) نفس المصدر.

21) **الكامل** ، المصدر المذكور.

22) برنشفيك ، **الدولة الحفصيّة** ، (الترجمة العربية) ، 373/1 .

23) **رحلة التجاني** ، 346 .

24) نفس المصدر.

المرحلة الثانية : الاستيلاء على المهديّة[25] :

إنّنا نجهل الطرق التي سلكها عبد المؤمن في رحلته إلى المهديّة ، وقد وصلها «ضحوة» يوم الأربعاء 12 رجب سنة 554هـ/ 30 جويلية 1159م[26] ، ثم التحق به الأسطول الموحّدي الذي كان «يحاذيه في البحر» . وتمّ حصار المهديّة برًّا وبحرًا ، كما كان الشأن بالنسبة إلى مدينة تونس .

ونزل الخليفة بزويلة ، وقد أخلاها العدوّ . فكان يقضي النهار في خيمته ويبيت في إحدى الدور بزويلة . وفي لمح البصر امتلأت المدينة بالعساكر وأهل الأسواق وأصبحت معمورة بين عشيّة وضحاها . «ومَنْ لم يكن له موضع من العسكر ، نزل بظاهرها ، وانضاف إليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الإحصاء»[28] . وتعني عبارة «أهل البلاد» إمّا أهل زويلة أو أهل المهديّة . ذلك أنّ النصارى المعرّضين للحصار الوشيك لم يكن من صالحهم أن يتركوا في المهديّة أناسًا سيكونون عالة عليهم ، ولذلك فانهم لم يحاولوا منع المسلمين من الخروج من المهديّة بل ساعدوهم ، إن لم نقل أجبروهم على ذلك .

«وأقبل النّاس يقاتلون المهديّة مع الخليفة ، فلا يؤثّر ذلك فيها لحصانتها وضيق مأخذ القتال منها ، لأنّ البحر دائر بأكثرها»[29] . وكان يقيم بالمهديّة آنذاك ثلاثة آلاف فرنجي[30] .

---

25) أ- **رحلة التجاني** ، 347 نقلاً عن ابن شدّاد وهو شاهد عيان ؛ و**الحلل السندسيّة** ، 1/251–252 ؛ ومقديش ، 1/495–496 .
ب- **الكامل** ، 109–110 ، اعتمد هو أيضًا ابن شدّاد دون ذكره . والنويري ، 2/211–213 .
ج- **العبر** ، 6/237–238 ؛ **البيان** ، 1/316 ؛ **المؤنس** ، 115–116 .
د- البيذق ، 120 .
هـ- ليفي بروفنسال ، **سبع وثلاثين رسالة** ، هسبيريس ، 1941 ، 43–45 .
و- **الحلل الموشّية** ، 117 ؛ المراكشي ، 162–163 : **القرطاس** ، 117 ، 129 ؛ الزركشي ، 8

26) حسب التجاني نقلاً عن ابن شدّاد ، نظريًّا يوم الخميس . باستثناء ابن الأثير الذي ذكر تاريخ 18 رجب (وهو خطأ في القراءة ، ثامن عوض ثاني) ، ذكرت جميع المصادر بما في ذلك النويري ، التي نقلت حرفيًّا ما أورده ابن الأثير ، تاريخ 12 .

27) **الكامل** والنويري : «أهل البلد» .

28) **الكامل** والنويري .

29) **رحلة التجاني** ، 347 .

30) **الحلل الموشّية** ، 117 .

وكان الموحّدون يستعملون بعض الأسلحة الحربيّة كالمجانيق وقاذفات الصّواريخ[31].

«وكان الفرنج يخرجون من المهديّة، فينهبون أطراف العسكر. فأمر عبد المؤمن ببناء سور بين عسكره والمدينة يمنعهم من الخروج».

«وركب عبد المؤمن في شيني، ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها، وطاف بها في البحر، فهاله ما رأى من حصانتها وعلم أنها لا تُفْتَح بقتال برًّا ولا بحرًا، وليس لها إلاّ المطاولة. وقال للحسن: كيف نزلت عن مثل هذا الحصن؟ فقال: لقلّة من يُوثَق به وعدم القوت وحكم القدر. فقال: صدقت وترك القتال. فلم يمض غير قليل، حتى صار في العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير»[32]. إلاّ أنّ ذلك لم يمنع من غلاء المعيشة[33].

وحاول ملك صقليّة تخليص المهديّة، فاستدعى أسطوله الذي كان قد عاث فسادًا في سواحل الأندلس، بقيادة الخصيّ بيدرو، ونهب جزيرة يابسة[34].

«فلمّا كان في يوم الاثنين لثمانٍ بقين من شعبان 554 هـ/ 7 سبتمبر 1159م[35]، جاء أسطول صقليّة في مائة وخمسين شينيًّا غير الطرائد»[36].

«فحضر (ابن ميمون) مقدّم أسطول عبد المؤمن (الذي لم يكن يضمّ سوى 70 مركبًا) بين يدي الخليفة (وربّما كان مصحوبًا بكبار القوّاد)، فقال له: إنّ هذا الأسطول قد أقبل ولا يصل إلاّ متفرّقًا بحكم النّوء، فلتأذن لنا في الخروج إليه. فسكت عبد المؤمن، فاغتنموا سكوته وبادروا إلى القِطَع فملؤوها بما احتاجوا إليه من العُدَد وخرجوا واصطفّت عساكر

31) ويدّعي ابن أبي زرع صاحب **روض القرطاس** أنّ المعارك البحريّة والبريّة تواصلت بلا انقطاع ليلاً ونهارًا وتداولت القبائل الموحّديّة إلى أن تمّ الاستيلاء على المدينة ومات عدد كبير من النّصارى. وتحدّث البيذق أيضًا عن المجانيق.

32) **الكامل**، المصدر السابق.

33) حسب المراكشي بيعت ثلاث حبّات الفول بدرهم مؤمني (1/2 درهم قانوني).

34) وضع ابن الأثير الذي لم يحترم مرة أخرى التواريخ، احتلال أو استسلام صفاقس وطرابلس ونفوسة وقصور إفريقيّة قبل وصول الأسطول النرماني. والحال أنّ هناك رسالتين رسميّتين موحّدتين، الأولى مؤرّخة في 20 ذي القعدة 554 هـ/ 4 ديسمبر 1159م والثانية غير مؤرّخة ولكنها صادرة بعد الأولى بقليل، تفيدان بأنّ سقوط قفصة وقابس على الأقلّ قد تمّ بعد هجوم الأسطول الصقلي الذي أشار إليه التجاني، دون ذكر التاريخ الذي أورده ابن الأثير، مباشرة بعد المحادثة التي جرت بين عبد المؤمن والحسن.

35) حسب النويري، وفي **الكامل**: «ولمّا كان في الثاني والعشرين من شعبان» وهي قراءة يبدو أنها مستمدّة من الجملة التي أوردها النويري: الاثنين 22 شعبان/ 8 سبتمبر 1159م، نقلاً لا محالة عن **الكامل**.

36) **الكامل**، المصدر المذكور؛ وفي **الحلل الموشّية**، مائة جفن محمّلة بالطعام والمؤونة.

37) حسب التجاني: «فحضر مقدّمو (بالجمع) أسطول عبد المؤمن». وقد فضّلنا استعمال المفرد، وفقًا لما ورد في المخطوط. ومن المحتمل أن يكون ابن ميمون مصحوبًا بكبار القوّاد، **ستوريا**، 490–491.

المسلمين على الساحل. قال الحاكي[38] : كنت حاضرًا وعبد المؤمن يبكي ويسجد في الأرض ويقول : اللّهمّ لا تضعضع دعائم الإسلام!

«ولما قرب أسطول الفرنج من دار الصناعة، خرجت إليه من المهديّة قطعة لتلقّيه. فبادر ابن ميمون إلى أخذها. وكانَ بعض أسطول الفرنج أيضًا قد حطّ قلعه، فأعجله أسطول المسلمين عن الدخول واستولى على ثمان قطع منه[39]. فاجتمع بقيّة الأسطول وولّوا منهزمين.

«فسجد عبد المؤمن شكرًا لله تعالى وفرّق في غزاة الأسطول اثني عشر ألف دينار مؤمنيّة»[40].

والجدير بالملاحظة أنّ رواية فلكان[41] (Falcand) الذي أكّد أنّ الخصيّ بيدرو قد خان وأعطى الإذن بالتراجع، بلا سبب، بل بلا قتال، تبدو بعيدة عن الواقع. ذلك أنّ هذا الإخباريّ الصقليّ المنحاز إلى أبعد حدّ قد أراد اتّهام قائد الأسطول النرماني بالخيانة. ورغم ما شعر به النّصارى من خيبة أمل إثر هذه الهزيمة، فقد قاوموا حتى أواخر ذي الحجة 554هـ/ أوائل جانفي 1160م، وأخيرًا قبلوا التفاوض في شأن الاستسلام.

وقد زعم فلكان[42] أنّ الخصيان الموجودين في البلاط الصقلّي كاتبوا عبد المؤمن، مؤكّدين له عدم توجيه أيّ مدد إلى المهديّة وملتمسين منه استخدام النصارى المُحَاصَرين أو إرجاعهم إلى صقليّة. ويقال إنّ الحامية قد طلبت إلى الخليفة السماح لها بجسّ نبض غليوم، وتعهّدت بتسليم المدينة إليه إذا يئست من النجدة. ويبدو أنّ رسولهم قد اتّصل بالبلاط الملكي في بلرمو، ولكنه لم يتحصّل على أيّ وعد. ذلك أنّ الوزير ماجون قد أقنع غليوم بأنّ المهديّة ليست في حاجة إلى المؤونة. وتبعًا لذلك، أرغمت المجاعة النّصارى المحاصَرين على الاستسلام. ولكنّ أماري رأى أنّ هذه الرواية بعيدة عن الواقع.

ورغم ما يثيره تحامل فلكان على بيدرو الخصيّ والوزير ماجون، من شكوك حول صحّة تلك الرواية، فهل يكفي ذلك لرفضها رفضًا باتًّا؟ فمن الممكن أن تكون قد جرت اتّصالات

38) من المحتمل جدًّا أن يكون هذا الحاكي هو ابن شدّاد.

39) حسب التجاني، وفي **الكامل** «سبع شواني». وأضاف ابن الأثير: «ولو كان معهم شواني لأخذوا أكثرهم». ونقل مقديش هذه الجملة كما يلي: «ولو كان معهم قلوع لأخذوا أكثرهم».

40) **رحلة التجاني**، 348–349.

41) **ستوريا**، 491/3؛ شالندون، 240/2.

42) نفس المصدر.

من هذا القبيل قبل استسلام المهديّة، لا سيما وأنّ ذلك لا يتنافى مع ما جاء في الرواية الواردة في المصادر الإسلاميّة، والتي اعتبرها كلّ من أماري وشالندون أصحّ من الرواية السابقة.

وقد أكّد التجاني وابن الأثير، بالاعتماد دائمًا على ابن شدّاد – حسبما يبدو – أنّ النّصارى قد فنى قوتهم حتى أكلوا الخيل. «فنزل حينئذ من فرسان الفرنج عشرة[43] وسألوا الأمان لمن فيها (المهديّة) من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم».

«فعرض عليهم (الخليفة) الإسلام ودعاهم إليه، فلم يجيبوا وتردّدوا إليه أيّامًا بالكلام الليّن وقالوا: ما عسى المهديّة وما فيها من الفرنج بالنسبة إلى مُلْكِك العظيم وأمرك الكبير، وإن أنعمت علينا كنّا أرقّاءك في بلادنا. فرأى منهم كمالا في الأجسام وتؤدة في الكلام فأعطاهم ما أرادوا»[44].

وأكّد ابن الأثير «أنّ صاحب صقليّة قد قال: إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهديّة، قتلنا المسلمين الذين هم بجزيرة صقليّة وأخذنا حرمهم وأموالهم».

وأعطى الخليفة إلى النّصارى سفنًا لترحيلهم إلى بلادهم. «فركبوا وساروا وكان الزمان شتاء، فغرق أكثرهم ولم يصل منهم إلى صقليّة إلاّ النّفر اليسير»[45].

ودخل عبد المؤمن المهديّة التي ظلّت اثني عشر عامًا خاضعة للنصارى، يوم عاشوراء الموافق للعاشر من محرم سنة 555هـ (21 جانفي 1160م)، وسمّى تلك السنة «سنة الأخماس». وبفضل براعة الخليفة وصبره المتّسم بالحذر، كادت الخسائر الموحّديّة تكون منعدمة. فقد أكّد البيذق أنّ الموحّدي الوحيد الذي قُتِلَ أثناء اقتحام المهديّة هو أبو عبد الله ابن أبي بكر بن إيغيت.

إتمام فتح إفريقيّة:

أثناء حصار المهديّة الذي دام ستة أشهر[46]، تمكّن عبد المؤمن من فتح إفريقيّة بتمامها وكمالها تقريبًا. ومن الصعب استعادة مراحل ذلك الفتح الذي اكتسى جانب منه صبغة

43) مصدر واحد «الحلل الموشّية» يذكر 8 عوض 10.
44) رحلة التجاني، 349.
45) الكامل.
46) المراكشي، 163: دام الحصار سبعة أشهر إلاّ بضعة أيّام.

سلميّة. والجانب الآخر صبغة حربيّة. لأنّ المصادر لم تذكر تلك المراحل بنفس الترتيب ولم تُشِرْ إلى تسلسلها الزمني[47].

ويبدو باديءَ ذي بدء أنّ بعض المدن الهامّة قد أذعنت للخليفة بالطاعة، ولا سيما سوسة وصفاقس وطرابلس التي يظهر أنّها انضمّت إلى الموحّدين في تواريخ متتالية ولكنّها متقاربة.

سوسة :

من المحتمل أن تكون سوسة التي لم تزل هي والمهديّة في قبضة النرمان ولم تحاول الثورة عليهم، قد اقتفت أثر المدن الساحليّة الأخرى، منذ وصول الجيش الموحّدي، وربّما بعد مدّة قليلة من فشل أسطول الخصيّ بيدرو.

«فلمّا وصل عبد المؤمن إلى إفريقيّة واستنقذ المهديّة من يد النصارى وقام كلّ أهل بلد على مَنْ عنده منهم، امتثل أهل سوسة ذلك ورحل أشياخهم إلى عبد المؤمن، ورحل إليه أيضًا جبارة بن كامل بن سرحان بن أبي العينين. فقدّم على أهل سوسة حافظًا [عاملاً] من الموحّدين يُعرَف بعبد الحقّ بن علناس الكومي، فطرقهم أسطول النصارى ثانية وهم على غرّة، فاستولى على البلد وقتل من أهله من قتل وسبى من سبى وخرّب البلد تخريبًا عظيمًا لم يبن على الإقامة فيه وأسّر الحافظ المذكور وأهله وولده وتوجّه بهم إلى صقليّة فأقاموا بها مدّة ثم افتدوا بعد ذلك ورجعوا»[48].

صفاقس[49] :

لمّا استولى عبد المؤمن على المهديّة، «وصل إليه عمر بن أبي الحسن الفرياني (بطل ثورة إفريقيّة على النرمان) مع جماعة من أشياخ صفاقس، فأذعنوا له بالطاعة وعيّن لهم عبد المؤمن حافظًا من الموحّدين وأمر عمر بالرجوع إلى بلده وأن تكون الأشغال المخزنيّة تتصرّف على يده، فأقام على ذلك إلى أن توفّي وخلفه في ذلك ولده عبد الرحمان بن عمر»[50].

47) البيذق، الترجمة 201.

48) رحلة التجاني، 30، والحلل السندسيّة، 117/1، أما بقيّة المصادر فلم تشر إلى هذه الواقعة.

49) رحلة التجاني، 36؛ الحلل السندسيّة، 1/139–140؛ مقديش، 497/1؛ الزركشي، 8؛ العبر، 169/6.

50) رحلة التجاني، 76.

طرابلس[51] :

«لمّا نزل الخليفة عبد المؤمن إلى إفريقيّة وافتتح المهديّة ، وصلت إليه وفود البلاد ، وكان من جملتهم وفد طرابلس وشيخه ابن مطروح . فبايعوا عبد المؤمن الذي قدّمه على أهل بلده ، فلم يزل محمود السيرة فيهم إلى أن عجز»[52] .

نفوسة وقصور إفريقيّة[53] :

يبدو أنّ استسلام جبال نفوسة وقصور إفريقيّة (أي الرُباطات والحصون الساحليّة أو بالأحرى المواقع المحصّنة في جنوب البلاد) ، قد تمّ دون التعرّض لصعوبات جمّة .

الجـريد[54] :

وجّه الموحّدون حملة عسكريّة ضدّ مدن الجريد : توزر وقفصة ونفطة والحامّة . ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بحملة أبي محمّد عبد الله ، ابن الخليفة ، الذي قام بدور بارز في تهدئة البلاد .

قـابس[55] :

وهو الذي أخذ قابس من يد آخر مَنْ ملكها من بني جامع ، وهو مدافع بن رُشَيْد بن كامل ، شقيق محمد بن رُشَيْد . «وقد كان عبد المؤمن بن علي لاطفه واستدعاه بأشعار خاطبه بها وتلوّم عليه ، فامتنع من جوابه . فلما وصل إلى حصار المهديّة ، أنفذ إليه عسكرًا ،

51) نفس المصدر ، 243 ؛ **العبر** ، 168/6 .
52) **رحلة التجاني** ، 243 .
53) **الكامل** ، 109/11 ؛ النويري ، 212/2 .
54) المراكشي ، 163 ؛ **العبر** ، 237/6 ؛ **القرطاس** ، 129 .
55) **العبر** ، 167/6 ؛ ليفي بروفنسال ، المرجع المذكور. وفي الدينار المضروب بقابس سنة 551هـ باسم «الإمام عبد الله أمير المؤمنين». يمكن أن نقرأ : «الأمير الرشيد بن الرُّشَيْد».

قائده ابنه عبد الله. فلما علم مدافع بإقباله جمع أهله وعشيرته ومن انحاش إليه وفرّ. ولقيه عسكر عبد الله، فاتّبعته شرذمة منه، فواقفهم ساعة ثم انهزم وقُتِلَ جماعة من أهله وعشيرته».

«وكان له أيّام ملكه وزير يُعْرَف بسلاّم بن فرحان [القابسي] بذل نفسه دونه يوم خروجهم من قابس وقاتل عنه إلى أن قُتِلَ (أواخر شعبان 554هـ/ أوائل سبتمبر 1159م)»[56].

وقد نقل إلينا صاحب **خريدة القصر**[57] قطعة من قصيدة أنشدها في مدح سيّده. كما نقل هذين البيتين من قصيدة أخرى، قيل إنّه ارتجلها يوم قتله:

[كامل]

[أكـذا أموتُ ومـا بلغتُ مرادي بين الصّوارم والقنـا الميّـادِ
حيث العيون لوامح وطوامح مـا بين أحبـابٍ وبين أعـادي]

«وتوغّل مدافع في الهرب، فاستجار بأعراب طرابلس فأجاروه. وكان شاعرًا حافظًا للسيرة والأخبار، عالمًا بالأنساب. فلما أتى عليه عامان طريدًا شريدًا، استشار عشيرته في اللّحاق بعبد المؤمن فأشاروا عليه بذلك، فسار إليه فلقيه بمدينة فاس[58]. فرضي عنه وأسكنه هنالك. فتوفّي بها وقد ناهز التسعين»[59].

ونقل صاحب **الخريدة** أبياتًا[60] في ذكر أيام بني جامع الذين حكموا قابس مدّة تسعين سنة، نظمها أحد أفراد تلك الأسرة، وهو أبو ساكن عامر بن محمد بن مكن[61] بن كامل بن جامع الذي فرّ إلى دمشق، كما أورد أبياتًا أخرى من نظم ابنه ساكن بن عامر الذي كان موجودًا بدمشق سنة إحدى وتسعين وخمسمائة / 1195م.

وفي حاشية رسالة وجّهها من المعسكر الموحّدي بظاهر المهديّة يوم 20 ذو القعدة 554هـ/ 3 ديسمبر 1159م، أخبر عبد المؤمن أهل غرناطة أنه تلقّى طلب الأمان من

56) رحلة التجاني، 100–101.
57) نفس المصدر.
58) في الأصل «قابس» والصواب ما أثبتناه.
59) رحلة التجاني، 101.
60) نقلها التجاني في رحلته، 102–103.
61) في الأصل «مكي» والصواب ما أثبتناه.

الأعراب الفارّين إلى قابس. كما أعلمهم بنبإ الإستيلاء على مدينة قفصة وأحاطهم علمًا بأنّه قد وجّه إليهم في نفس الوقت رسالة خاصّة حول تلك الوقائع وبأنّه قرّر الرجوع إلى المغرب(62).

قفصــة :

وفي رسالة أخرى(63) موجّهة من عبد المؤمن بن علي إلى أهل قرطبة من داخل مدينة قفصة ، ولكنّها غير مؤرّخة بسبب نقص في الوثيقة ، نجد رواية مفصّلة للعمليّات التي أفضت إلى إخضاع تلك المدينة. إلاّ أنّ الإخباريّين لم يشيروا إلاّ إلى إذعان آخر أمراء بني الرند الذين حكموا قفصة منذ سنة 445هـ/ 1053–1054م. الأمر الذي يجعل من الصّعب التحقّق من صحّة البيانات الواردة في ذلك الإعلان الرسميّ المحرّر بغرض الدعاية في الخارج. ومن المستبعد ، رغم الإشارة إلى توجيه الرسالة من داخل مدينة قفصة ، أن يكون الخليفة قد تحوّل إلى تلك المدينة قبل مدّة قليلة من استسلام المهديّة. ومع أنّ هذا الاحتمال ليس مستحيلاً إلى حدّ ما ، أفلا يكون من الأفضل أن نفترض أن عبد المؤمن قد نقل فحوى رسالة موجّهة من قائد الحملة ، ابنه أبي محمد عبد الله الذي نسبت إليه فقرة من كتاب **العبر** الاستيلاء على قفصة(64).

وقد جاء في تلك الوثيقة أنّ أحد المتمرّدين قد اتخذ تلك المدينة مركزًا لقيادته العامّة وجمع بها عصابة من المغامرين الأعراب ، ثم أخذ في شنّ الغارات وقطع الطرقات ونشر الرعب والدمار. ولما وصل الخليفة إلى إفريقيّة أعلم مراسليه بضرورة إخضاع قفصة وأخبرهم بزيارة أشياخ العرب ودخولهم في طاعته. فتقرّر حينئذ حشد القوّات العسكريّة الموجودة في إفريقيّة والزحف بها على قفصة. وكان أصحابها مقتنعين بمناعة مدينتهم الحصينة ، ولهم الحقّ في ذلك ، نظرًا لوجود عدّة تحصينات عتيدة بها ، علاوة على موقع تلك المنطقة الصعبة المنال والمحاطة بالصحراء من كلّ جانب ، وانعدام المؤونة في المناطق المجاورة لها وصعوبة جلبها إليها ، بحيث يستحيل على أيّ جيش عظيم أن يقوم بحصار طويل الأمد ، لافتقاره إلى الطعام

---

62) انتظر احتلال المهديّة ولم يرجع إلى مراكش إلاّ في أوائل الصائفة الموالية.

63) ليفي بروفنسال ، المرجع السابق.

64) ابن خلدون ، العبر ، 273/6.

والشراب. فعزّز الخليفة عساكره باستقدام الجنود الموحّدين المقيمين في بجاية وإفريقيّة، وتحرّك الجيش في اتجاه القيروان التي لم يقع التعرّض لخبر احتلالها حتى بمجرّد الإشارة. ورغم أنّ الطرقات كانت خالية شيئًا ما، فقد وصل الجيش إلى قفصة، دون أن يحتاج إلى أيّ شيء. وفي الحين نصب مضاربه خارج أسوار المدينة التي شرع في حصارها وأخذ في بناء مخازن الحبوب. ومن الغد تصدّى لهجوم قام به أهل قفصة المحاصَرون وأجبرهم على الاعتصام بالمدينة. وتسهيلاً لمهمّة حصار قفصة وتضييق الخناق على أهلها، قام الجيش باتلاف الزرع وهدم المباني المحيطة بالمدينة. كما تمّ حفر الخنادق وسدّ الممرّات الموجودة تحت الأرض. وإثر ذلك قرّر الموحّدون إخضاع المدينة بالهجوم عليها بواسطة آلات الحصار، فنصبوا المجانيق، وقد ساعدتهم على صنعها صدفة ملائمة. ذلك أن النصارى، خلافًا لعادتهم، كانوا قد أنزلوا في تلك السنة في سواحل إفريقيّة كميّة كبيرة من الخشب الصالح للبناء، فتمّ جلبها عن طريق الصّحراء.

ولمّا أوشكت الاستعدادات على النهاية وأصبح الجنود يتلهّفون على اقتحام المدينة، رأى الخليفة من واجبه أن يمنح العدوّ فرصة أخيرة للتوبة. فوجّه إليه وفدًا من الشيوخ والطلاّب الموحّدين والأعراب، ليعرضوا عليه الأمان، إذا سلّم المدينة وأذعن بالطاعة.

ولمّا أُجيب الوفد بالرفض، شنّ الموحّدون غارات عنيفة متتابعة، وأخذت الآلات المنصوبة قبالة الأسوار في قذف الصّواريخ، في حين قام المغيرون بردم الخندق المعدّ لحماية السّور. وقد مكّنهم هجوم ناجح من الاستيلاء على الستارة وهدم البرج وجزء كبير من الستارة ذاتها، مع تكبيد العدوّ خسائر فادحة. فرأى صاحب قفصة عدم جدوى مواصلة المقاومة وخشي القتل، لو استولى الموحّدون على المدينة بالسيف. فوجّه وفدًا من الأشياخ والأعيان لطلب الأمان من الخليفة، مقابل استسلام المدينة. ورغم سوابق المتمرّدين الخطيرة، فقد منحهم عبد المؤمن الأمان، وأسرع زعيمهم إلى الرحيل مع أهله، وقد غمرته الفرحة لتمكّنه من النجاة بنفسه، واستقرّ الموحّدون بالمدينة.

وقد أحسّ الخليفة بالحاجة إلى تبرئة ساحة أهل قفصة، إلى حدّ ما، فأعطاهم الأمان، باعتبارهم قد تعرّضوا للاضطهاد والإرهاب من قِبَل شرذمة من المغامرين العديمي الذمّة الذين جمعهم زعيمهم. وطوال مدّة الحصار تسلّم الموحّدون كمّيّات ضخمة من المؤونة، رغم قلّة المحاصيل الزراعيّة بإفريقيّة في تلك السنة وفراغ المخازن من الحبوب. وقد أشار عبد المؤمن في رسالته إلى ما تكتسيه قفصة من أهميّة استراتيجيّة، إذ أنّها تتحكّم في كامل الجهة التي وهبها الله لها وتحيط بها مناطق بالغة الخصوبة وبساتين ومياه جارية.

وقد ظلّت تشغل بال الخليفة القضيّة التي سبق له أن خاطب مراسليه في شأنها ، أعني إجلاء أعراب إفريقيّة إلى الأندلس قصد تشريكهم في الجهاد المقدّس ، للتكفير عن ذنوبهم. ومهما يكن من أمر فان تهدئة مثل تلك المنطقة المشهورة بصعوبتها الفائقة ، قد أصبحت شيئًا مفروغًا منه.

ومن البديهي أن تحاول تلك الرسالة الرسميّة تمويه الحقيقة ، شيئًا ما ، وتمجيد أعمال الخليفة المحبّ للعدل. وقد سعى عبد المؤمن إلى تبرئة ساحة أهل قفصة الذين كانوا في الواقع ضحايا المغامرين ، أكثر ممّا كانوا متواطئين معهم. كما حاول اتّهام أولئك الأشخاص وزعيمهم ، وغضّ الطرف عن مساهمة بني هلال في «ثورة» قفصة المزعومة ، تلك المساهمة التي كانت على الأرجح فعّالة.

ومن الواضح أنّ الخليفة قد راعى الأعراب ، لأنّه كان يأمل في استخدامهم فيما بعد في الأندلس ، في محاربة النصارى.

على أنّ المصادر الأخرى(65) قد أوردت رواية مختلفة حول إخضاع صاحب قفصة الذي اضطرّ إلى رئاسة الوفد المكلّف بالتفاوض في شأن تسليم المدينة إلى الموحّدين.

وقد كان هذا الشخص المدعوّ يحيى بن تميم بن المعتزّ [بن الرند] ، يحكم المدينة بالفعل ، مكان الحاكم الاسمي ، وهو جدّه عمر المعتزّ الذي كان شيخًا هرمًا وأعمى ، لا يقدر على مباشرة الحكم.

«وكان (يحيى) بطلاً مشهورًا ، وولده كذلك ، وهما من مغراوة سكّان نفزاوة»(66).

«فتوجّه يحيى بن تميم بن المعتزّ(67) ، صاحب قفصة مع جماعة من أعيانها وقصدوا عبد المؤمن. فلمّا أعلمه حاجبه بهم ، قال : قد اشتبه (الأمر) عليك ، ليس هؤلاء أهل قفصة. فقال الحاجب : ما اشتبه عليّ. فقال عبد المؤمن : كيف يكون ذلك والمهدي يقول : إنّ أصحابنا (أي الموحّدين) يقطعون أشجارها ويهدّمون أسوارها. ومع ذلك نقبل ونكفّ عنهم»(68). فأرجعهم إلى بلادهم مصحوبين بجماعة من الموحّدين من بينهم زكري بن برمون(69) الذي عيّنه عاملاً عليهم.

---

65) **الكامل**، 109/11؛ النويري، 212/2؛ الزركشي، **القرطاس**، 129؛ **الحلل الموشّية**، 117.

66) [الزركشي، 12].

67) في **الكامل**، ابن المعزّ، والصواب ما أثبتناه.

68) **الكامل**، 109/11؛ ومقديش، 497/1–498.

69) النويري : نومون، فهل ينبغي أن نقرأ تلك الكلمة : «البِرْذَوْن»، البيذق، 124 : عمر البرذون.

ولمّا دخل أهل قفصة على الخليفة ، «أنشده شاعرهم أبو محمد عبد الله بن أبي العبّاس التيفاشي قصيدة امتدحه بها ، أوّلها :

[بسيط]

أهزّ عطفيه بين البيض والأَسَلِ مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

فوصله بألف دينار، وأشار إليه عند ذكر هذا البيت أن اقتصر»[70].

ولمّا وفد صاحب قفصة يحيى بن تميم بن المعتزّ على الخليفة عبد المؤمن ، «أكرمه ووصله وأمره بالانتقال إلى بجاية بحاشيته وأهله. فأقاموا بها برهة من الدهر. وتوفّي المعتزّ الأعمى ، ثم عاد مَلِكُهم (يحيى بن تميم) إلى قفصة»[71].

وحسب ابن خلدون[72] ، وجّه عبد المؤمن بعد استيلائه علس قفصة في سنة 554هـ جميع أفراد عائلة ابن الرند إلى بجاية ، وقد توفّي بها المعتزّ في سنة 557هـ / 1162م ، وعمره أربع عشرة ومائة سنة أو تسعين سنة. وتوفّي حفيده يحيى بن تميم بعد ذلك بقليل.

المدن الأخرى[73] :

استولى ابن الخليفة أبو محمّد عبد الله على التوالي على قابس وقفصة وزرعة وطبرية وجبل زغوان والكاف والأربس[74] ، أثناء حصار المهديّة وربّما خلال حملة واحدة. ووضع حدًّا للفوضى التي كانت سائدة في إفريقيّة منذ زحفة بني هلال. وأذعن للسلطة الموحّدية كافّة المغامرين والمرتزقة ، مهما كان شأنهم ودخلوا في طاعتها[75].

فقد كان احتلال المهديّة مرفوقًا حينئذ بغزو إفريقيّة وانهيار الهيمنة النرمانيّة على تلك الربوع نهائيا ، ويبدو أنّ غليوم الأوّل ، بعد فشله في محاولة تخليص المهديّة ، اضطرّ إلى التفويت في جميع ممتلكاته في إفريقيّة ، شعورًا منه لا محالة باستحالة مواجهة القوّة العسكريّة

---

70) **الكامل**، 109/11.

71) **الزركشي**، 12.

72) **العبر**، 166/6. وحول الثورات التي دبّرها فيما بعد ضدّ الخليفة الموحّدي أبو يعقوب المسمّى يوسف بن علي بن المعتزّ، ولعلّه عمّ يحيى بن تميم بن المعتزّ. انظر: **العبر**، 166/6؛ و**المراكشي**، 218؛ و**القرطاس**، 139.

73) **العبر**، 169/6–171.

74) **نفس المصدر**، 237/6.

75) **نفس المصدر**، 169/6–171.

الموحدّية بنجاح ، سواء في البرّ أو في البحر. كما يبدو أنّ هذه السياسة الواقعيّة المُوعَز بها من طرف الوزير ماجون الذي حمّله معاصروه مسؤوليّتها ، قد أملتها على ملك صقليّة ضرورة التفرّغ لمقاومة الامبراطوريّة الألمانيّة(76) . ذلك أنّ صقليّة المهدّدة في كيانها ذاته كانت غير قادرة على التصدّي للسلطنة الموحّديّة وهي في عنفوان قوّتها. وحتى لو كان ذلك ممكنًا ، فإن انقاذ المهديّة لا بدّ أن يكون تمهيدًا لحملات عسكريّة جديدة مخطرة وطويلة الأمد.

«وأقام عبد المؤمن بالمهديّة عشرين يومًا ، فأصلح ما ثلم من سورها ونقل إليها الذخائر من الأقوات والرجال والعُدَد ، وولّى عليها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومي» ، وترك معه الحسن ابن زيري للشورى. وأسكن الأمير الصنهاجي السابق زويلة(77) وأعطاه دُورًا بالمهديّة وأقطعه ضيعتَيْن(78) وأجرى جرايات على أبنائه وعبيده. وحسب ابن خلدون(79) ، أسكنه المهديّة وأقطعه وحيص (أو رُخَيْش؟).

«وولّى عبد المؤمن على إفريقيّة ولده أبا إسحاق إبراهيم ، وعلى تونس الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي يرفيان الهرغي ، وولّى على أعمالها المخزنيّة أبا حفص عمر بن فاخر العبدري»(80) .

ردّ فعل بني رياح ومعركة جبل القرن (555هـ/ 1160)(81) :

«لمّا فرغ عبد المؤمن من أمر المهديّة وأراد العود إلى المغرب ، جمع أمراء العرب من بني رياح الذين كانوا بإفريقيّة وقال لهم : «قد وجبت نصرة الإسلام ، فان المشركين قد استفحل أمرهم بالأندلس واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين ، وما يقاتلهم أحد مثلكم ، فبكم فُتِحت البلاد أوّل الإسلام وبكم يُدفَع عنها العدوّ الآن ، ونريد

76) شالندون ، 2/240–241 .

77) رحلة التجاني ، 349 .

78) حسب ابن خلّكان ، 2/241 ؛ وفي البلدان ، 1/304 : «أقطعه قريتين».

79) العبر ، 6/162 .

80) الزركشي ، 13 ؛ وفي الحلل الموشّية ، 113 ، 115 : «ولّى الخليفة أبا محمد بن أبي حفص على إفريقيّة والسيد أبا محمد على بجاية».

81) الكامل ، 11/110–111 ، والنويري ، 2/213–215 ؛ العبر ، 6/165 ؛ ليڤي بروفنسال (المرجع السابق ؛ جورج مرسي ، «العرب في بلاد البربر» ، 181–187 .

منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل الله». فأجابوا بالسمع والطاعة ، فحلّفهم على ذلك بالله تعالى وبالمصحف ، فحلفوا ومشوا معه إلى مضيق جبل زغوان وكان منهم إنسان يقال له يوسف بن مالك وهو من أمرائهم ورؤوس القبائل فيهم . فجاء إلى عبد المؤمن بالليل وقال له سرًّا : إن العرب قد كرهت المسير إلى الأندلس وقالوا ما غرضه إلا إخراجنا من بلادنا وأنّهم لا يفون بما حلفوا عليه . فقال : يأخذ الله عزّ وجلّ الغادر. فلمّا كانت الليلة الثانية هربوا إلى عشائرهم ودخلوا البرّ ولم يبق منهم إلاّ يوسف بن مالك ، فسمّاه عبد المؤمن يوسف الصادق ، ولم يحدث عبد المؤمن في أمرهم شيئًا وسار مغرّبًا يحثّ السّير حتى قرب من قسنطينة فنزل في موضع مخصب يقال له وادي النساء ، والفصل ربيع والكلأ مستحسن ، فأقام به وضبط الطرق فلا يسير من العسكر أحد البتّة ، ودام كذلك عشرين يومًا ، فبقي النّاس في جميع البلاد لا يعرفون لهذا العسكر خبرًا مع كثرته وعظمته ويقولون ما أزعجه إلاّ خبر وصله من الأندلس ، فحثّ لأجله في السير. فعادت العرب الذين جفلوا منه من البريّة إلى البلاد لمّا أمنوا جانبه ، سكنوا البلاد التي ألفوها واستقرّوا فيها . فلمّا علم عبد المؤمن برجوعهم جهّز إليهم وَلَدَيْه أبا محمد وأبا عبد الله في ثلاثين ألف مقاتل من أعيان الموحّدين وشجعانهم فجدّوا السير وقطعوا المفاوز ، فلمّا شعر العرب إلاّ والجيش قد أقبل بغتة من ورائهم من جهة الصّحراء ليمنعوهم الدخول إليها إن راموا ذلك . وكانوا قد نزلوا جنوبًا من القيروان عند جبل يقال له جبل القرن[82] وهم زهاء ثمانين ألف بيت والمشاهير من مقدّميهم أبو محفوظ محرز بن زيادْ (الفادغي)[83] ومسعود بن زمام البلاط وجبارة بن كامل وغيرهم . فلمّا أطلّت عساكر عبد المؤمن عليهم اضطربوا واختلفت كلمتهم ، ففرّ مسعود وجبارة بن كامل ومَنْ معهما من عشائرهما وثبت محرز بن زياد وأمرهم بالثبات والقتال ، فلم يلتفتوا إليه ، فثبت هو ومن معه من جمهور العرب ، فناجزهم الموحّدون القتال في العشر الأواسط من ربيع الآخر من السنة (555هـ / 20–30 أفريل 1160م) . وثبت الجمعان واشتدّ العراك ، فاتفق أن محرز بن زياد قُتِلَ ورُفِع رأسه على رمح[84] . فانهزمت جموع العرب عند ذلك وأسلموا البيوت والحريم والأولاد والأموال ، وحُمِل جميع ذلك إلى عبد المؤمن وهو بذلك المنزل ، فأمر بحفظ النساء العربيّات الصرائح وحملهنّ معه تحت الحفظ

82) وقد شهد هذا الجبل عدة معارك شهيرة .

83) صاحب المعلّقة وأمير بني علي من قبيلة رياح .

84) حسب ابن خلدون ، العبر ، 165/6 ، ألقي القبض عليه فقتل وعلّقت جثته في مشنقة نُصِبَت على سور القيروان .

والبرّ والصيانة إلى بلاد الغرب وفعل معهنّ مثل ما فعل في حريم الأثبج. ثم أقبلت إليه وفود رياح مهاجرين في طلب حريمهم كما فعل الأثبج، فأجمل الصنيع لهم وردّ الحريم إليهم...، وجُمِعَت عظام العرب المقتولين في هذه المعركة عند جبل القرن، فبقيت دهرًا طويلاً كالتلّ العظيم يلوح للناظرين من مكان بعيد»[85].

وقد أوحى هذا الانتصار الباهر الذي يقيم الدّليل مرّة أخرى على عبقريّة عبد المؤمن العسكريّة، إلى قاضي تونس أبي الحسن بن أحمد الأبيّ بقصيدة مطلعها:

[بسيط]

[ولّى الشّبـاب أمـام الشّيب منهزمًـا فـذا يصول وذا يشتدّ في الهرب][86]

وفي طريقه إلى المغرب، وجّه الخليفة يوم الاثنين 24 ربيع الثاني 555هـ/ 3 ماي 1160م[87] من متيجة رسالة إلى طلاّب فاس. ومن مزايا هذه الوثيقة أنها تؤكّد ما جاء في روايات الإخباريّين. فقد ورد فيها أنه قد تمّ القضاء على قوّة رياح التي كانت تتحكّم في أقاليم إفريقيّة، وقد وصلت إلى الخليفة طلائع الجيش المنتصر مصحوبة بغنائم وافرة وبعدد لا يحصى من الأسرى وأعلنت عن تخليص إفريقيّة بتمامها وكمالها من نير الأعراب. كما أعادت الرسالة إلى الأذهان نبأ انضمام قائد بني محمّد إلى الحظيرة الموحّديّة. والجدير بالملاحظة أنّ هذه الطائفة التي لم تقم قبل ذلك التاريخ بدور بارز، رغم كثرة عدد رجالها، قد بقيت في حالة انتظار، ربّما لأنّ انضمام قائدها للموحّدين قد اكتسى صبغة شخصيّة. وبعد ذلك التحق بنو محمّد بأجمعهم بالجيش النظامي للمشاركة في الجهاد. وكانت قبيلة جُشام العتيدة قد قامت منذ قليل بنفس العمل، وقبلت الاستقرار بالمغرب. أمّا الأثبج وبنو زغبة، فقد قدم أعيانهم للاستفسار حول شروط الصّلح. وبعدما علموا بالشروط التي فرضها الموحّدون وعدوا بالتفكير في الموضوع والتزموا ببعض التعهّدات. فان أوفوا بعهودهم، سوف لا يجنون إلاّ الخير، كما صرّح بذلك الخليفة. وأمّا الآخرون فلن يفلتوا من العقاب المنتظر.

تلك هي وضعيّة بني هلال، كما وصفها عبد المؤمن، إثر هزيمتهم النّكراء التي لم تبلغ إلى علمه، حسبما يبدو. ولا داعي لإنكار صحّة هذه الرواية.

---

85) **الكامل**، 11/110–111.

86) **الزركشي**، 13.

87) حسب الرسالة المشار إليها أعلاه، ص 121.

ومن ناحية أخرى، فإن الأثبج الذين سمح لهم الصنهاجيّون ببسط هيمنتهم على القبائل العربيّة الأخرى في المغرب الأوسط، قد أوهنتهم الخصومات الداخليّة قبل قدوم الموحّدين[88].

والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد، إنّ إفريقيّة التي تخلّصت من النزمان لم يتمّ فتحها فحسب، بل أنها أوشكت أن تصبح «آمنة ساكنة»، بفضل إخضاع بني هلال وإجلائهم إلى المغرب. كما أنّ مبادرة الخليفة بدعوة الهلاليّين إلى التحوّل إلى الأندلس للمشاركة في الجهاد، تشبه المناورة التي قام بها الأمير الأغلبي في سالف الزمان للتخلّص من بني تميم الطائشين، وذلك بتوجيههم إلى غزو صقليّة. وقد آتت تلك السياسة الحكيمة أكلها وأراحت شرق المغرب من الحضور الهلالي. وحسب رواية ابن الأثير، «لم يبق في إفريقيّة خارجًا عن طاعة عبد المؤمن إلاّ مسعود بن زمّام البَلاّط وطائفته في أطراف البلاد»[89].

ورجع عبد المؤمن إلى مرّاكش عن طريق بجاية وتلمسان وتاجرة، مسقط رأسه، حيث استعرض جيوشه التي كانت تحمل 500 راية و200 طبل[90]. وحسب رواية البيذق، لمّا وصل الخليفة إلى سلا مصحوبًا بأمراء العرب وحريمهم وذراريهم، عيّن لهم أماكن للإقامة بها في جميع أرجاء المغرب، ثم ارتحل إلى مرّاكش وأقام بها سنتين.

أمّا الحسن بن علي، فقد أقام بالمهديّة وزويلة إلى أن توفّي عبد المؤمن بسلا في جمادي الثانية سنة 558هـ/ 7 ماي – 4 جوان 1163[91].

ولا ندري لماذا أمر خليفة عبد المؤمن أبو يعقوب يوسف الأمير الحسن بالارتحال إلى المغرب، فلعلّه أصدر ذلك الأمر من باب الاحتياط. وبناء على ذلك «فقد طلع الحسن بأهله وولده وحاشيته، وذلك في سنة 566هـ/ 1170–1171م. فلمّا وصل إلى الموضع المعروف بتامسنا (في جنوب الرّباط)، توفّي هناك ببقعة تعرف بآبار زلوا، وقبره هناك. وكانت وفاته في شهر رجب من العام المذكور (10 مارس – 8 أفريل 1171)[92].

* * *

88) **العبر**، 22/6. كان بنو دريد يسيطرون على بني كرفة وبني عياض وبني قرّة.

89) **الكامل**، 111/11.

90) المراكشي، 165–166؛ البيذق، الترجمة، 202.

91) البيذق، الترجمة، 205–206.

92) **رحلة التجاني**، 349–350 و**الحلل السندسيّة**، 252/1: أقام الحسن بزويلة عشر سنوات. وبالعكس من ذلك يؤكّد ابن خلدون، **العبر**، 162/6: أنّ الأمير أقام بالمهديّة ثماني سنوات وتوفّي سنة 563هـ/ 1167–1168م. وينبغي اعتماد التاريخ الوارد في **رحلة التجاني**.

وهكذا انقرضت الدولة الصنهاجيّة من شرق الغرب الإسلامي في سنة 555هـ/1160م، إذ لم يقدر، لا آخر ملوك بني زيري في المهديّة، ولا أمراء بني حمّاد في بجاية على إنقاذ دولتهم التي أصابتها الفوضى الناشئة عن غزوة بني هلال في الصميم. وحتّى لو حاولوا ذلك بتظافر جهودهم عوض التناحر، فالأرجح أنهم ما كانوا ليحرزوا أيّ نجاح. ذلك أنّ العراقيل التي وضعها الهلاليّون كانت جسيمة إلى أبعد حدّ، وقد تفاقمت من جرّاء التنافس بين رياح والأثبج، وبين خصومهم النرمان والموحّدين، ذوي القوّة المفرطة والروح الفتيّة التوسّعيّة.

ويبدو وكأنّ الأمر يتعلّق بمأساة ثلاثيّة[93] يتحكّم فيها القضاء والقدر وتسيّرها حركيّة حتميّة.

فعندما يُرفَع الستار على إفريقيّة في مطلع القرن الخامس هجري، يبدأ الفصل الأوّل من المأساة (ولاية كلّ من يحيى وعلي)، فتبدو إمارة المهديّة وكأنّها في حالة انتظار، لا تقدر على تحسين وضع ميؤوس منه، كان الأمير تميم بن المعزّ قد حاول معالجته مدّة طويلة بدون جدوى. فلم تستطع ردود فعلها المتذبذبة تدارك ضعفها الذاتي. وفي حين أخذ الملك النرماني يسدّد إليها الضربات الواحدة تلو الأخرى، يمرّ شبح ابن تومرت العظيم المنذر بخطر رهيب. فتتعقّد الحوادث بصورة محتومة.

وفي الفصل الثاني، بعد ظهور بصيص من الأمل (واقعة الديماس)، يصوّب رُجَار الثاني سلاحه نحو إفريقيّة، بينما يتجاسر ابن حمّاد على التقدّم لنيل حصّته من الغنيمة.

ويبدأ الفصل الثالث بنجاح آخر أحرزه بنو زيري (احتلال قابس)، ولكنّه ينتهي بسقوط المهديّة والسواحل الشرقيّة. وتختم المأساة بفرار الحسن وانتصاب الحماية النرمانيّة.

ثم يتغيّر المشهد ويظهر المغرب الأوسط على الركح. فيزحف جيش عبد المؤمن زحفة ساحقة ويخضع بسهولة الأمير الحمّادي الذي أصبح في وضع ميؤوس منه (الفصل الأوّل). وعندئذ يشعر الهلاليّون بالخطر المحدق بهم فيتحالفون ضدّ البربري الغازي الذي تمكّن من الانتصار عليهم (الفصل الثاني). وفي الفصل الثالث ينجح فيليب المهدويّ في الاستيلاء على عنّابة، معلنًا عن قرب المواجهة بين الموحّدين المسيطرين على المغرب الأوسط وبين النرمان الذين بسطوا حمايتهم على سواحل إفريقيّة. وينزل الستار على وفاة رُجَار الثاني وتولية غليوم. ويمكن التكهّن وقتئذ بخاتمة الصراع.

93) [الثلاثيّة عند قدماء اليونانيّين هي مأساة ذات ثلاثة أقسام].

ويرجع بنا القسم الثالث من المأساة إلى إفريقيّة ، حيث يمكن مشاهدة التطوّرات التالية :

1– محاولة الموحّدين الاستيلاء على مدينة تونس.

2– ثورة عدد من المدن التي يحتلّها النرمان ، بحيث لم تبق خاضعة لسلطتهم سوى المهديّة وزويلة وسوسة التي تنتظر مَنْ سيحرّرها.

3– الفتح الموحّدي : استسلام مدينة تونس ثم حصار المهديّة والاستيلاء عليها ، وأخيرًا التهدئة العامّة.

4– آخر انتفاضة يقوم بها بنو هلال بلا جدوى. وهي تشبه إلى حدّ بعيد الانتفاضة التي تلت فتح المغرب الأوسط.

وبذلك تختم الملحمة الصنهاجيّة. ذلك أنّ شرق الغرب الإسلامي ، بعد تخلّصه من الفوضى الهلاليّة والاحتلال النرماني ، سيشهد السّلم الموحدّية التي لم تستطع – ويا للأسف – بعث **الحضارة القيروانيّة** من جديد ، أي ذلك الازدهار الغابر الذي رفعته دولة بربريّة حازمة قبل انقراضها إلى أعلى علّيين.

ولم تبق للصنهاجيّين سوى ذكرى مآثرهم الخالدة ، علاوة على هذه السلوى غير المجدية : فقد قضت الغزوة الموحّديّة على سلطة الزناتيّين ، أعدائهم الألدّاء بالمغرب الأوسط وإفريقيّة ، مثلما قضت على سلطتهم ذاتها وعلى سلطة الغزاة الهلاليّين المتسبّبين الأصليّين في هلاكهم. فأصبح أولئك وهؤلاء المتنافسون أشدّ التنافس منذ عهد بعيد ، سواء كانوا مقيمين أو رُحّلاً ، موجودين جنبًا إلى جنب في صفّ المهزومين.

المــراجع

1- المراجع العربيّة

ابن الأبّار: **كتاب الحلّة السيراء في أشعار الأمراء**، نشر M.J. Muller، الطبعة الثانية، مونيخ 1866 – 1878.

– **تكملة الصّلة**، نشر Codéra، مدريد 1887 – 1889، **الذيل**، نشر A. Bel وابن الشنب، الجزائر 1920.

– **إعتاب الكتّاب**، تحقيق صالح الأشتر، غير منشور.

ابن الأثير: **كتاب الكامل في التاريخ**، 14 مجلّدا، طبعة القاهرة 1301هـ.

إدريس (الهادي روجي): **مناقب أبي إسحاق الجبنياني**، تأليف أبي القاسم العبيدي، و**مناقب محرز بن خلف**، تأليف أبي الطاهر الفارسي (تحقيق وترجمة)، تونس 1959.

الإدريسي: **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق وترجمة Dozy و De Goeje تحت عنوان: «*Description de l'Afrique et de l'Espagne*»، ليدن 1866.

الإصفهاني (عماد الدين): **خريدة القصر وجريدة العصر**، مخطوط دار الكتب الوطنيّة بباريس رقم 3330 (الجزء 11) ورقم 3331 (الجزء 12).

[قسم شعراء المغرب (3 أجزاء) تحقيق محمد المرزوقي ومحمود العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، نشر الدار التونسيّة للنشر، تونس 1966 – 1972، ط. 3، 1986].

الاصطخري: **كتاب المسالك والممالك**، نشر De Goeje، ليدن 1870.

أمين (أحمد): **ظهر الإسلام**، الطبعة الثانية، القاهرة 1365هـ/1946م

الأندلسي (سعيد): **طبقات الأمم**، ترجمة ريجيس بلاشير، باريس 1935.

البرزلي: **جامع مسائل الأحكام**، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب (لا يتضمّن الجزء الأوّل).

– مخطوط الجزائر، الجزء الأوّل من نفس الكتاب، المكتبة الوطنيّة بالجزائر رقم 1333.

– مخطوط الرباط، الجزء الثاني، مكتبة الرباط رقم 210.

– **المختصر**، تلخيص لنفس الكتاب، دار الكتب الوطنيّة، تونس.

ابن بسّام: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، القسم الأوّل، الجزآن 1 و 2، القاهرة 1939 – 1942. القسم الرابع، الجزء الأوّل، القاهرة 1945.

[الطبعة الجديدة (8 أجزاء) تحقيق إحسان عبّاس، نشر الدار العربيّة للكتاب، تونس – ليبيا، 1981].

ابن بشكوال : **كتاب الصلة في تاريخ أيمّة الأندلس...**، نشر Codéra، المكتبة العربيّة الإسبانيّة، 1–2، مدريد 1883.

البكري (أبو عُبَيْد) : **المسالك والممالك**، تحقيق دي سلان الذي نقله إلى الفرنسيّة بعنوان « *Description de l'Afrique septentrionale* »، الجزائر 1911، الطبعة الثانية، الجزائر 1913.

البيذق : **كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحّدين**، تحقيق ليفي بروفنسال، باريس 1928.

التجاني : **الرحلة**، طبعة تونس (أنظر أيضًا الطبعة الثانية، تونس 1958، مع الفهارس، تقديم حسن حسني عبد الوهّاب).

ابن تغري بردي (أبو المحاسن) : **النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة**، طبعة القاهرة، 1929.

ابن الجزري : **غاية النهاية في طبقات القرّاء**، نشر G. Bergstrasser (جزآن)، ليبزيغ – القاهرة 1352–1353هـ/ 1932–1933م.

ابن جلجل : **طبقات الأطبّاء والحكماء**، تحقيق فؤاد السيّد، القاهرة 1955.

الجودي : **تاريخ قضاة القيروان**، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب.

حاجي خليفة : **كشف الظنون [عن أسماء الكتب والفنون]**، اسطنبول 1310 – 1311هـ.

ابن حزم : **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق ليفي بروفنسال، سلسلة ذخائر العرب، 2، القاهرة 1368هـ/ 1948م.

حسن (حسن إبراهيم) وطه أحمد شرف : **المعزّ لدين الله**، القاهرة 1367هـ/ 1948م.

– **عُبَيْد الله المهدي**، القاهرة 1366هـ/ 1947م.

الحُصْري : زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق زكي مبارك، (4 أجزاء)، القاهرة 1344هـ/ 1925م.

ابن حمّاد (= ابن حمّادو) : **أخبار ملوك بني عُبَيْد**، تحقيق وترجمة Vonderheyden، منشورات كليّة الآداب بالجزائر، السلسلة 3، الجزء 2، الجزائر – باريس 1927.

ابن حمديس : **الديوان**، نشر Schiaparelli، رومة 1897.

الحُمَيْدي : **جذوة المقتبس**، القاهرة 1952.

ابن حوقل : **المسالك والممالك**، نشر J.H. Kramers (جزآن). ليدن 1938 – 1939.

ابن حيّان : **المقتبس**، نشره ليفي بروفنسال في كتابه *Fragments historiques sur les Berbéres du Moyen Age*، الرباط 1934. ص 5 – 15.

ابن خاقان (الفتح) : **قلائد العقيان**، طبعة بولاق 1283هـ.

ابن الخطيب (لسان الدين). **كتاب أعمال الأعلام...** . تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب (مائوية أماري). بلرمو 1910. 2. 427 – 494.

– **رقم الحُلَل في نظم الدُّوَل**. تونس 1316هـ.

- **الحلل الموشّية في ذكر الأخبار المراكشيّة**، تونس 1329هـ/ 1911م، نشر علّوش، منشورات معهد الدراسات العليا المغربيّة، 2، الرباط 1936.
- **الإحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة مختصرة، القاهرة 1319هـ.

ابن خلدون: **كتاب العبر**... (7 أجزاء)، طبعة بولاق 1284هـ [وطبعة بيروت 1958]. ترجمة دي سلان، بعنوان «تاريخ البربر» (4 أجزاء»، الجزائر 1852–1856، الطبعة الثانية، نشر كازانوفا (3 أجزاء)، باريس 1925–1934، والجزء الرابع نشر كازانوفا وهنري بيريس، باريس 1956.

ابن خلّكان: **وفيات الأعيان**، (جزآن)، القاهرة 1310هـ.

ابن الخوجة (مَحمّد): **تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد**، (الطبعة الأولى)، تونس 1358هـ/ 1939.

[الطبعة الثانية، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى وحمّادي السّاحلي، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985].

ابن خَيّر: **الفهرست**، نشر Codéra و Ribiera Tarrago، المكتبة العربيّة الإسبانيّة، 9–10، سرقوسة 1894–1895.

ابن أبي دينار (القيرواني): **المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس**،

[ط. 1، تونس 1286هـ/ 1869].

ط. 2، تونس 1350هـ/ 1931.

[ط. 3، تحقيق مَحمّد شمّام، تونس 1967].

الذهبي: **تذكرة الحفّاظ**، (4 أجزاء)، حيدرأباد 1333–1334هـ.

أبو الربيع: **كتاب السّير**، مذكّرات نقلها حسن حسني عبد الوهّاب عن مخطوط من هذا الكتاب.

ابن رشيق: **العُمْدَة في صناعة الشعر**، جزآن في مجلّد، القاهرة 1344هـ/ 1925.

- [**أنموذج الزمان في شعراء القيروان**. تحقيق محمد العروسي المطوي وبشير البكّوش. تونس 1986].

الرّقيق [ابراهيم بن القاسم القيرواني]، **المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور**. مخطوط دار الكتب الوطنيّة بباريس. [طُبع هذا الكتاب في تونس سنة 1976. تحقيق عبد الحفيظ منصور].

زبيس (سليمان مصطفى): **دولة بني خراسان بتونس**. مجلّة الندوة. 1–2، تونس 1953.

ابن أبي زرع: **كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس**. نشر Tornberg. أوبسلا 1843.

الزركشي: **تاريخ الدولتين الموحّديّة والحفصيّة**، تونس 1289هـ [الطبعة الثانية. تحقيق محمد ماضور. تونس 1966].

زمبور: **معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي**. نقله إلى العربيّة زكي محمد حسن باي

وحسن أحمد محمود ، القاهرة 1370هـ / 1951 .
ابن أبي زيد (القيرواني) : **الرسالة** ، نشرها ونقلها إلى اللغة الفرنسيّة L. Bercher ، المكتبة العربيّة الفرنسيّة ، الجزائر 1945 .
ابن سحنون (محمد) : **كتاب آداب المعلّمين** ، تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب ، تونس 1350هـ / 1931 . [الطبعة الثانية ، مراجعة محمد العروسي المطوي ، تونس 1972] .
السخاوي : **الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التأريخ** ، دمشق 1349هـ / 1930 – 1931 .
السقطي : **كتاب أندلسي في الحسبة** ، تحقيق ج . س . كولان وليفي بروفنسال ، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية ، 21 ، باريس 1931 .
السّيوطي : **بغية الوُعاة في طبقات اللغويّين والنّحاة** ، طبعة القاهرة 1326هـ / 1908 .
– **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة** ، (جزآن) ، القاهرة 1321هـ / 1903 .
ابن الشبّاط : **صلة السِّمط** (شرح تسميط **الشقراطسيّة** ، من نظم المؤلّف) ، (جزآن) ، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب .
ابن شرف : **رسالة الانتقاد** ، تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب ، دمشق 1320هـ .
الشمّاخي : **كتاب السِّير** ، طبعة حجريّة ، القاهرة 1301هـ / 1883 – 1884 .
أبو الصّلت (أميّة) : **الرّسالة المصريّة** ، نوادر المخطوطات ، 1 ، القاهرة ، 32 – 40 .
الصفدي : **كتاب الوافي بالوفيات** ، اسطنبول 1931 و 1949 ودمشق 1953 و 1959 (4 أجزاء) .
الصّيرفي ، كتاب **قانون ديوان الرسائل** ، تحقيق علي باي بهجت المصري وترجمة هنري ماسي ، نشريّة المعهد الفرنسي للآثار الشرقيّة ، 11 ، 1914 ، 65 – 115 ، القاهرة .
ابن الصّيرفي ، الإشارة إلى من نال الوزارة ، نشريّة المعهد الفرنسي للآثار الشرقيّة ، 25 ، القاهرة 1924 .
الضبّي : **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس** ، نشر Codéra ، المكتبة العربيّة الإسبانيّة ، 3 ، مدريد 1885 .
الطّبري : **أخبار الرّسل والملوك** ، نشر M. De Goeje ، 15 جزءًا ، ليدن 1879 – 1901 طبعة القاهرة ، بدون تاريخ ، 13 جزءًا .
ابن عبد الحكم : **فتوح إفريقيّة والأندلس** ، تحقيق وترجمة A. Gateau ، المكتبة العربيّة الفرنسيّة ، ط . 2 ، الجزائر 1948 .
العبدري : **الرحلة** ، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب .
عبد الوهّاب (حسن حسني) :
– **الجُمانة** ، منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقيّة بالقاهرة ، نصوص عربيّة ودراسات إسلاميّة ، 9 ، القاهرة 1953 .
– **خلاصة تاريخ تونس** ، ط . 2 ، تونس 1344هـ / 1918 ، [الطبعة الثالثة منقّحة ومصحّحة ، تونس 1953 ، والطبعة الرابعة ، تونس 1968] .

– **الإمام المازري**، تونس 1955.
– **بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق**، تونس. [الطبعة الثانية صدرت بتونس سنة 1970، بعناية محمد العروسي المطوي].
– **المنتخب المدرسي من الأدب التونسي**، الطبعة الثانية بالقاهرة، 1944. [وصدرت ثالثة بتونس سنة 1968 بعنوان: **مجمل تاريخ الأدب التونسي**].
– **شهيرات التونسيّات**، الطبعة الأولى، تونس 1934 [والطبعة الثالثة، تونس 1966].
– [**ورقات عن الحضارة العربيّة بإفريقيّة التونسيّة**، (3 أجزاء)، تونس 1965 – 1972].
– **العناية بالكتب وجمعها في إفريقيّة التونسيّة**، جامعة الدول العربيّة، معهد المخطوطات العربيّة، 1، القاهرة ماي 1955، 72 – 90.

ابن عذاري: **البيان المغرب في أخبار المغرب**، نشر ج. س. كولان وليڤي بروفنسال، 1 – 2، ليدن 1948 – 1951، الطبعة الثالثة، ليڤي بروفنسال، باريس 1930.

أبو العرب: **كتاب طبقات علماء إفريقيّة**، منشورات كليّة الآداب بالجزائر، (جزآن) باريس 1915 – 1920.

العزيزي (أبو علي منصور): **سيرة الأستاذ جوذر**، تحقيق كامل حسين وعبد الهادي شعيرة، سلسلة مخطوطات الفاطميّين، 11، القاهرة 1954.

ابن العماد: **كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، (8 أجزاء)، القاهرة 1350 – 1351هـ.

عياض: **ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك**، مجموعة حسن حسني عبد الوهّاب.

الغبريني: **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق ابن الشنب، الجزائر 1910 [وظهرت طبعة ثانية بالجزائر سنة 1981، تحقيق رابح بونار].

أبو الفداء: **تقويم البلدان**، نشر Reinaud و De Slane، باريس 1840.

ابن فرحون: **الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب**، القاهرة، 1329هـ.

ابن الفرضي: **كتاب تاريخ علماء الأندلس**، نشر Codéra، المكتبة العربيّة الإسبانيّة، 7 – 8، مدريد 1890 – 1891.

ابن فضل الله العمري: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، موسوعة في 27 جزء، الجزء 17، مخطوط المكتبة الوطنيّة بباريس رقم 2527.

فكري (أحمد): **المسجد الجامع بالقيروان**، القاهرة 1936.

ابن القفطي: **إنباه الرّواة على أنباه النّحاة**، القاهرة 1369 – 1371هـ / 1950 – 1952.

ابن القلانسي: **تاريخ دمشق**، نشر Amedroz، ليدن 1908.

القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، 14 جزءًا، القاهرة، 1913 – 1920.

ابن القنفذ: **كتاب الوفيّات**، نشر هنري بيريس، الجزائر، 1939.

الكُتُبي (محمد بن شاكر) : **فوات الوفيات** ، (جزآن) ، القاهرة ، 1299 هـ / 1882 .

ابن كمّاد : **الرّسالة** ، تحقيق عبد السلام هارون ، نوادر المخطوطات ، السلسلة الثالثة ، القاهرة 1373 هـ / 1953 عدد 14 .

ليفي بروفنسال : مذكّرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة المسمّى **بكتاب التّبيان** ، سلسلة ذخائر العرب ، 18 ، القاهرة 1955 .

ماجد : **السجلاّت المستنصريّة** ، القاهرة 1954 .

المالكي (أبو بكر) : **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيّة ...** ، مخطوط المكتبة الوطنيّة بباريس رقم 2153 . الجزء الأوّل ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة 1951 .

[وصدر الكتاب في 3 أجزاء عن دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1983 ، تحقيق محمد العروسي المطوي وبشير البكّوش] .

الماوردي : **الأحكام السلطانيّة** ، القاهرة 1298 هـ .

مخلوف (محمد) : **شجرة النّور الزكيّة في طبقات المالكيّة** ، (جزآن) ، القاهرة 1350 هـ .

المراكشي (عبد الواحد) : **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، نشر دوزي ، ليدن 1847 ، الطبعة الثانية ، 1881 .

ابن مريم : **البستان...** تحقيق ابن الشنب ، الجزائر 1908 .

المسعودي : **مروج الذهب** ، نشر وترجمة Barbier de Meynard و Pavé de Courteille (9 أجزاء) ، باريس 1872 — 1877 .

المقري : **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، (4 أجزاء) ، القاهرة 1302 ، الطبعة الثانية ، القاهرة 1368 هـ / 1949 .

المقريزي : **الخطط المقريزيّة** ، 4 أجزاء في مجلّدَيْن ، القاهرة 1324 — 1326 .

— **اتّعاظ الحنفاء بأخبار الأيمّة الفاطميّين الخلفاء** ، القاهرة 1367 هـ/1948 .

— **النقود الفاطميّة** : في **ثلاث رسائل** ، اسطنبول 1298 هـ/1880 .

مقديش (محمود) : **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار** ، (جزآن) طبعة حجرية تونس 1321 .

[وصدر الكتاب سنة 1988 في جزأين عن دار الغرب الإسلامي ببيروت ، تحقيق علي الزواري ومحمّد محفوظ] .

المكّي (محمود علي) : التشيّع في الأندلس ، مدريد 1954 .

المؤيّد في الدين ، داعي الدعاة ، **الديوان** ، تحقيق كامل حسين ، القاهرة 1949 .

— **سيرة المؤيّد في الدين** ، تحقيق كامل حسين ، القاهرة 1949 .

ابن مُيَسَّر : **الخلفاء الفاطميّون** ، نشر هنري ماسي ، منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة 1919 .

الميمني : **كتاب النّتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف** ، القاهرة ، 1343 هـ / 1924 — 1925 .

ابن ناجي : شرح رسالة ابن أبي زيد، (جزآن)، القاهرة 1914.
— **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، (4 أجزاء)، تونس 1320هـ/1900.
[الجزء الأوّل، تحقيق ابراهيم شبوح مكتبة الخانجي (القاهرة) 1968؛ الجزء الثاني، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي (القاهرة) والمكتبة العتيقة (تونس)؛ 1972، الجزء الثالث، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة (تونس)، 1978].
النّعمان (أبو حنيفة) : **دعائم الإسلام**، I، نشر Fyzee، القاهرة، 1370هـ/1951.
— **كتاب الهمّة وآداب اتباع الأيمّة**، تحقيق كامل حسين، القاهرة (بلا تاريخ).
النّويري : كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، حقق وترجم إلى الاسبانيّة الفصول المتعلّقة بالمغرب الإسلامي Gaspar Remiro، (جزآن)، غرناطة، 1917–1919.
النيفر (محمّد) : **عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسيّة من عالم أديب**، (جزآن)، تونس 1351هـ.
ابن هاني : الديوان، القاهرة 1352.
الوزير السرّاج : الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة، قطعة من الجزء الأوّل، تونس 1287هـ/1870–1871، والجزء الثاني بأكمله، مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس عدد 20R.
[صدر الكتاب كاملاً (3 أجزاء) سنة 1985 عن دار الغرب الإسلامي ببيروت، تحقيق محمّد الحبيب الهيلة].
الونشريسي : المعيار، (12 جزءًا)، طبعة حجريّة، فاس 1314–1315هـ.
[الطبعة الجديدة صدرت سنة 1981 في 13 مجلدًا، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف د. محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981].
اليازجي (ناصيف) : **كتاب العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب** (المتنبّي)، بيروت 1305هـ.
ياقوت : معجم البلدان، (8 أجزاء) القاهرة 1906.
— **معجم الأدباء** (20 جزء)، القاهرة 1936–1938.
اليعقوبي : كتاب البلدان، الطبعة الثانية، نشر De Goeje، المكتبة الجغرافية العربيّة، 7، ليدن 1892.

2- المراجع الأجنبية

Abdul Wahab (H.H.), «Coup d'œil sur les apports ethniques étrangers en Tunisie», *R. T.*, 1917.

—, «Deux dinars nomades de Sicile» *R.T., 1930,* 215–218.

—, «Les Steppes tunisiennes (région de Gammouda) pendant le Moyen Âge, *C. T.*, n° 5, 1945, 5–16.

—, Note (sans titre), *Bulletin archéologique du Comité*, 1922, CXLVIII–CLI.

—, «Villes arabes disparues», *Mélanges William Marçais*, Paris, 1950, 1–15.

Abu Zakariya, *Chronique*, trad. Masqueray, Alger 1878.

Amari (M.), *Bibliotheca arabo-sicula, textes arabes*, Leipzig, 1857, appendice 1875 et 1887.

—, *I Diplomi arabi del real archivo fiorentino*, Florence 1863–1867.

—, *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 2e éd., revue par C.A. Nallino, 3 tomes en 7 vol., Catane 1937–1939.

André Julien (C.), *Histoire de l'Afrique du Nord*, 2e éd. 2 vol; 1er vol. revu par C. Courtois, 2e vol revu par R. Le Tourneau, Paris 1951, 1952.

Azizi (Abu Ali al-Mansour), *Vie de l'Ustadh Jawdhar*, trad. M. Canard, Publications de l'Institut d'Etudes orientales de la Faculté des Lettres d'Alger, Alger 1957.

Basset (R.), «Les Sanctuaires du Djebel Nefoussa», *J.A.*, mai-juin 1899, 437–470, juillet-août 1899, 88–120.

—, «Un épisode d'une chanson de geste arabe sur le seconde conquête de l'Afrique septentrionale par les Musulmans», *Bulletin de correspondance africaine*, 1885, 136–148.

Beaussier (M.), *Dictionnaire pratique arabe-français*, 2e éd., Alger 1931.

Bel (A.), «La Djazia, chanson arabe précédée d'observations sur quelques légendes arabes et sur la geste des Beni Hilal, extraits du *J.A.*, mars-avril 1902 et mars-avril 1903, Paris 1903.

—, *Les Benous Ghanya, derniers représentants de l'empire almoravide, et leur lutte contre l'empire almohade.* Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger, Paris 1903.

Ben Ali Fekar, *La commande (El qirad) en droit musulman*, Lyon–Paris 1910.

Ben Milad (A.), *L'Ecole médicale de Kairouan*, Paris, 1933.

Blachère (R.), *Extraits des principaux géographes arabes du Moyen Âge*, Bibliotheca arabica, VII, Paris–Beyrouth 1932.

—, *Le Coran, Traduction selon un essai de reclassement des sourates*, collection Islam d'hier et d'aujourd'hui, III, IV, V; *Introduction au Coran*, Paris 1947, II et III, Paris 1949–1951.

—, *Un poète arabe du IVe siècle H., al-Motanabi*, Paris 1935.

Blancard (L.), *Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen Âge*, 2 vol., Marseille, 1884–1885.

Boisonnade, « Les relations commerciales de la France méridionale avec l'Afrique du Nord ou Maghreb du XIIe au XVe siècles», Extrait du *Bulletin de la Section de Géographie*, Paris, 1929.

Braudel (F.), *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Pris, 1949.

Brockelmann (C.), *Geschichte der Arabischen Litteratur*, 2 vol., Weimar 1898–1902, 2e éd. avec références à la première, 3 vol. de suppléments avec renvoi à la 1ere éd., Leyde, 1937–1942.

Brunschvig (R.), « *Considérations sociologiques sur le droit musulman*», *Studia Islamica*, III, 1955, 61–73.

—, *Coup d'œil sur l'histoire des foires à travers l'Islam*, Recueil de la société Jean Bodin, V, La Foire, Bruxelles, 1953, 43–74.

—, « Fiqh fatimide et Histoire de l'Ifriqiya», *Mélanges G. Marçais*, II, Alger, 1957, 13–20.

—, *La Berbérie orientale sous les Hafsides*, 2 vol., Paris 1940, 1947. [Traduit en arabe par H. Sahli, Beyrouth, 1988].

—, *La Tunisie dans le Haut Moyen Âge, sa place dans l'histoire*, Conférences de l'Institut français d'Archéologie orientale, Caire 1948.

—, « Mesures de capacité de la Tunisie médiévale», *R.A.*, 3e–4e trim. 1935, 86–96.

—, « Sur les mesures tunisiennes de capacité au commencement du XVIIe siécle», *A.I.E.O.*, 1937, 74–87.

—, « Un aspect de la littérature historico-géographique de l'Islam», *Mélanges Gaudefroy-Demombynes*, Caire 1935–1945.

—, « Urbanisme médiéval et droit musulman», *R.E.I.*, 1947, 127–157.

—, « A propos d'un toponyme tunisien du Moyen Âge», *R.T.*, 1935, 159–155.

Cahen (C.), « *L'Histoire économique et sociale de l'Orient musulman médiéval*», *Studia Islamica*, III, 1955, 93–115.

—, Un texte peu connu relatif au commerce oriental d'Amalfi au Xe siècle, estratto dall' *Archivio Storico per le Province Napoletane*, Nouvelle série, XXXIV, 1953–1954, Naples 1954 (tiré à part 8 p.).

Canard (M.), « La procession du Nouvel An chez les Fatimides», *A.I.E.O.*, X, 1952, 364–398.

—, *Le cérémonial fatimide et le cérémonial byzantin, Essai de comparaison*, Byzantion 1951, 2e fasc., 355–420.

—, « L'Impérialisme des Fatimides et leur propagande», *A.I.E.O.*, VI, Paris 1942–1947, 162–199.

—, « Une famille de partisans, puis d'adversaires, des Fatimides en Afrique du Nord», *Mélanges G. Marçais*, II, 33–49.

—, *Une lettre du calife fatimide el-Hafidh à Roger II*, Palerme 1955, 125–146.

—, *L'Autobiographie d'un chambellan du Mahdi Obeidallah le Fatimide* (trad. de la Sirat Jaâfar al-Hajib), *Hespéris*, 1952.

—, «Un vizir chrétien à l'époque fatimide: l'arménien Braham», *A.I.E.O.*, 1954.

Cattenoz (H.G.), *Tables de concordance des ères chrétienne et hégirienne*, Rabat 1953.

Cazès (D.), «Antiquités judaïques en Tripolitaine», *R.E.J.*, xx, 1890, 86–87.

—, *Essai sur l'histoire des Israélites de Tunisie*, Paris 1888.

Chalandon (F.), *Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile*, 2 vol., Paris 1907.

—, «*L'Etat politique de l'Italie méridionale à l'arrivée des Normands*», *Mélanges d'Archéologie et d'Histoire*, xxi, 1901, 411–452.

Chiandano (M.) and Moresco (M.), *Il cartotare di Giovanni Scriba*, 2 vol., Turin 1933.

Cohen (M.) et Leriche (A.), «Zenega – Senhadja – Sénégal», *Bulletin des Etudes arabes*, n° 38, 118–119.

Courtois (C.), «Grégoire VII et l'Afrique du Nord, Remarques sur les communautés chrétiennes d'Afrique au XI^{e} siècle», *Revue Historique*, Avril–juin 1945, 97–122, guil.-sept., 1945, 193–226.

—, «Remarques sur le commerce maritime en Afrique au XI^{e} siècle», *Mélanges G. Marçais*, ii, Alger 1957, 51–59.

Cumston (G.G.), *Histoire de la médecine du temps des Pharaons jusqu'au XVIII^{e} siècle*, trad. Dispan de Floran, Paris 1931.

Cusa (S.), *I Diplomi greci ed arabi di Sicilia*, Palermo 1868.

Darmesteter (A.), «Le Talmud», *R.E.J.*, xviii, 1889 (Actes et Conférences, 381–442).

De Beylié (Général L.), *La Kalâa des Beni Hammad, une capitale berbère de l'Afrique du Nord au XI^{e} siécle*, Paris 1909.

De Cenival (P.), *Le prétendu évêché de la Kalâa des Beni Hammad*, Hespéris, 2^{e} tr. 1932, 1–14.

De Mas Latrie, *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Âge*, 2 vol., 1er vol. Paris 1866, avec une introduction paginée à part, 2^{e} vol., Paris 1872, Supplément et tables.

Despois (J.), *La Tunisie orientale; Sahel et Basse steppe*, Paris 1940.

—, *Le Djebel Nefoussa*, Paris 1935.

—, *L'Afrique du Nord*, Paris 1949.

Dozy (R.), *Dictionnaire des noms de vêtements chez les Arabes*, Amsterdam 1845.

—, *Suppléments aux dictionnaires arabes*, 2 vol., 2^{e} éd., Leyde–Paris 1927.

Encyclopédie de l'Islam, 4 vol. et 1 suppl., Leyde–Paris 1908–1942, 2^{e} éd. à partir de 1954.

Encyclopaedia Judaïca, 10 vol., Berlin 1928–1934.

Ettinghausen (R.), Early realism in islamic art, *Studi orientalistici in onore di G. Levi Della Vida*, i, 61–82.

Fagnan (E.), *Extraits inédits relatifs au Maghreb*, Alger 1924.

—, *Additions aux dictionnaires arabes*, Alger, 1923.

Farmer (H.G.), «A Maghribi Work on musical instruments», *J.R.A.S.*, 1935, 339–353.

Farrugia de Candia (J.), «Articles de numismatique», *R.T.*, 1936, 333–372, 1937,

89–136, 1948, 103–131; *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (année 1950)*, Paris 1953, 119–123.

Féraud (L.C.), *Annales tripolitaines* publiées avec une traduction et des notes par Augustin Barnard, Tunis–Paris 1927.

Ferron et Pinard, «Céramiques musulmanes à Carthage», *Cahiers de Byrsa*, IV, 1954, 41–65.

Fikry (A.), *La Mosquée az-Zaytouna à Tunis*, Proceedings de la Société égypyienne d'études historiques, II, 1952, Caire 1953, 27–64.

Fischel (W.J.), «*Jews in the economic and political life of mediaeval Islam*», *Royal Asiatic Society monographs*, XXII, Londres 1937.

Fournel (H.), *Les Berbères*, 2 vol., Paris 1857–1875.

Gabrieli (F.), *Ibn Hamdis*, Mazara 1948.

—, *Indice alfabetico di tutte le biografie di al-Safadi...*, Rendiconti della reale academia dei Lincei, classe de scienze morali storiche e filologiche, senia quinta, Rome 1913–1916.

—, «La origine del movemento almohade en una fonte storice d'Oriente», *Arabica*, 1956, 1–7.

Garcia Gomez (E.), Unas «ordonanzas del zoco» de siglio IX..., *Al-Andalus*, XXII, fasc. 2, 1957, 253–316.

Gardet (L.) et Anawati (M.M.), *Introduction à la théologie musulmane*, Paris 1948.

Gaudefroy-Demombynes (M.), «Notes sur l'histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam», *R.E.I.*, 1939, 109–147.

—, «Un magistrat musulman: le mohtasib», *Journal des Savants*, 1947, 33–40.

Gautier (E.F.), *L'Islamisation de l'Afrique du Nord, les siècles obscurs du Maghreb*, Paris 1927, 2e éd.; *Le Passé de l'Afrique du Nord, Les Siècles obscurs*, Paris 1937.

Gobert (E.G.), «Les Références historiques des nourritures tunisiennes», *C.T.*, 1955, 501–542.

Goitein (S.D.), *From the Mediterranean to India: Documents on the trade to India, South Arabia and East Africa from the eleventh and twelth centuries*, The medieval Academy of America, Cambridge, Massachussets, *Speculum*, XXIX, April 1954 nº 2 part I, 181–197.

—, "Glimpses from the Cairo Geniza on naval warfare in the Mediterranean and on the Mongol invasion", *Studi Orientalici in onore di G. Levi Della Vida*, I, 1956, 393–408.

—, *Jews and Arabs*, New York 1955.

—, "*The cairo Geniza as a source for the history of muslim civilisation*", *Studia Islamica*, III, 1955, 75–91.

—, "The last phase of Yehuda Haleṿi's life in the light of the Geniza papers", *Tabriz Quaterly*, XXIV, 1954, 1–24.

Goldziher (I.), *Le dogme et la loi de l'islam*, trad. Arin, Paris 1910.

—, «Le Rosaire dans l'Islam», *Revue de l'Histoire des religions*, XXI, 1890, 295–300.

—, *Mélamges Judéo-Arabes*, XVII, R. Nissim b. Jacob moutaẓilite, *R.E.J.*, XLVII, 1902, 179–186.

—, *Le livre d'Ibn Toumart*, Alger 1903.

Golvin (L.), *Le Maghreb central à l'époque des zirides, Recherches d'archéologie et d'histoire*, Paris 1957.

—, «Note sur quelques fragments de plâtre trouvés récemment à la Qalâa des Beni Hammad», *Mélanges G. Marçais*, II, 75–94.

—, *Recherches archéologiques à la Qalâa des Beni Hammad*, Thèse secondaire (dactylographié) pour le Doctorat ès Lettres présentée devant la Faculté des Lettres d'Alger (année 1953).

—, «Contribution à l'étude des nattes à décor épigraphique au Moyen Âge», *A.I.E.O.*, 1959, 213–231.

Conzalès Palencia (A.), *Rectification de la meute, tratado de logica par Abusalt de Denia*, Madrid 1915.

Graetz (H.), *History of Jews*, vol. III, Philadelphie 1894.

Hadj Sadok (M.), *Description du Maghrib et de l'Europe au IXe siècle*, Bibliothèque arabe française, VI, Alger 1949.

Hartmann (M.), Die Beni Hilal-Geschichten, Zeitschrift für afrikanische und oceanische Sprachen der Deutschen Kolonien, IV, Berlin 1898, 289–315.

Hazard (H.W.), «*The numismatic history of late medieval North Africa*», *Numismatic Studies*, n° 8, The american Numismatic Society, New York 1952.

Heyd (W.), *Histoire du commerce du Levant au Moyen Âge*, trad. Furcy Raynaud, 2 vol., Leipzig 1936.

Hilty (G.), «El libro complido en los indizios de las estrellas», *Al Andalus*, XX, 1955, 1–74.

—, *Aly Aben Ragel, El libro complido de los indicios de las estrellas*, Traduction en la corte de Alfonso al Sabio, Madrid 1954.

Hrbek (I.), Die Slarven in Dienste der Fatimiden, *Archiv Orientalni*, XXI, Prague 1953 (4), 543–581.

Huici Miranda (A.), *Historia politica del Imperio Almohade*, primera parte, Tétouan 1956.

—, «La Historia y la legenda en los origines del imperio almohade», *al-Andalus*, XIV, fasc. 2, 239 seq.

Idris (H.R.), *Analyse et traduction de 2 textes de l'époque ziride*, 70e Congrès de l'A.F.A.S. (Tunis mai 1951), fasc. 3, 209–216.

—, «A propos d'un extrait du Kitab al-Mihad d'al-Mazari al-Iskandarani», *C.T.*, 1953, 155–159.

—, «Contribution à l'histoire de l'Ifrikiya dp. le Riyadh en-Nufus d'Abu Bakr el-Maliki», *R.E.I.*, 1935, cah. 2, 105–178, cah. 3, 273–305, cah. 1, 45–104.

—, «Contribution à l'histoire de la vie religieuse en Ifriqiya ziride», *Mélanges L. Massignon*, II, Damas 1957, 327–359.

—, «Deux juristes Kairouanais de l'époque ziride: Ibn Abi Zayd et al-Qabisi», *A.I.E.O.*, XII, 1954, 122–198.

—, «Essai de datation de la maqsura de la grande Mosquée de Kairouan», *Arabica*, III, mai 1956, 214–215.

—, «Essai sur la diffusion de l'acharisme en Ifriqiya», *C.T.*, 1953, 126–140.

—, «Deux maîtres de l'école juridique Kairouanaise sous les Zirides: Abu Bakr Ahmad b. Abd al-Rahman et Abu Imran al-Fassi», *A.I.E.O.*, 1955, 28–58.

—, «Fêtes chrétiennes célébrées en Ifriqiya à l'époque ziride», *R.A.*, n° 440–441, 1954, 267–276.

—, «La vie intellectuelle en Ifriqiya méridionale sous les Zirides d'après Ibn al-Chabbat», *Mélanges G. Marçais*, II, 95–106.

—, «Le crépuscule de l'école malikite Kairouanaise», *C.T.*, 1956, 494–507.

—, «Mesures de capacité de l'époque ziride», *C.T.*, 1956, 119–126.

—, «Note sur l'identification du dédicataire de la Risala d'Ibn Abi Zayd al-Qayrawani», *C.T.*, 1953, 63–68.

—, «Quelques juristes ifriqiyens de la fin du X^e siècle», *R.A.*, n^{os} 446–449, 1956, 349–373.

—, «Une des phases de la lutte du malikisme contre le chiisme sous les zirides (XI^e siècle); al-Tounisi; juriste Kairouanais et sa célèbre fatwa sur les chiites», *C.T.*, 1956, 508–517.

—, «Sur le retour des zirides à l'obédience fatimide», *A.I.E.O.*, XI, 1953, pp. 25–39.

—, «L'Ecole malékite de Mahdia: L'Imam al-Mazari», *Mémorial E. Lévi-Provençal.*

—, «Problématique de l'épopée sanhadjienne en Berbérie orientale», *A.I.E.O.*, 1959, 243–255.

Idrisi, *Description de l'Afrique et de l'Espagne*, éd. trad. Dozy et De Goeje, Leyde 1866.

Khatchatrian, «*Le tracé de la lanterne d'al-Mu^cizz à Kairouan et ses liens avec la basse Antiquité et l'Arménie*», *Arts asiatiques*, II, 1955, fasc. 2, 137–144.

Kindi, «Governors and Judges of Egypt», *Gibb Memorial*, XIX, Leyde 1912.

Lacour-Gayet (J.), *Histoire du commerce, II, Le commerce de l'Ancien Monde jusqu'à la fin du XV^e siècle*, Paris, 1950.

Lane (E.W.), *An arabic english lexicon*, 8 vol., Londres 1863–1893.

Leclerc (D^r L.), *Histoire de la médecine arabe*, 2 vol., Paris 1876.

Le Tourneau (R.), «La révolte d'Abu Yazid», *C.T.*, 1953, 103–125.

—, «*Al-Ghazali et Ibn Toumart se sont-ils rencontrés?*» *Bulletin des Études arabes*, 1947, 147–148.

—, «Du mouvement almohade à la dynastie muminide: la révolte des frères d'Ibn Toumart de 1153 à 1156», *Mélanges G. Marçais*, II, 111–116.

Levi Della Vida (G.), Un' altra versione islamica dello «stratagemma della Vergine», estratto da «Silloge Byzantina» in onore di Silvio Giuseppe Mercali, Rome 1957, 287–293.

Levi-Provençal (E.), *L'Espagne musulmane au X^e siècle*, Paris 1932.

—, *Fragments historiques sur les Berbères au Moyen Âge*, Extraits inédits d'un recueil compilé en 712/1312 et intitulé Kitab Mafakhir al-Barbar, Rabat 1934.

—, *Six fragments inédits d'une chronique anonyme du début des Almohades*, éd. trad., *Mélanges René Basset*, II, 117–120.

—, *Réflexions sur l'empire almoravide au début du XI^e siècle*, cinquantenaire de la Faculté des Lettres d'Alger, 1932.

—, *Histoire de l'Espagne musulmane*, 3 vol., Paris Leyde 1950–1953.

—, *Trente sept lettres officielles almohades*, éd. Rabat 1941, analysés par lui dans *Hespéris*, 1941.

Lévi (R.), «notes on costume from arabic sources», *J.R.A.S.*, 1953, 64–157.

Lewicki (T.), *Etudes ibadites nord africaines*, partie I, Varsovie 1955.
—, «Le Culte du bélier dans la Tunisie musulmane», *R.E.I.*, 1935, cah. 2, 196–200.
—, *Les Ibadites en Tunisie au Moyen Âge*, Academia di Scienze e Lettere, Bib. di Roma, Conferenze, fasc. 6, Rome 1959.
—, *La Répartition géographique des groupements ibadites dans l'Afrique du Nord au Moyen Âge*, 1ere partie, *Rocznik orientalistyczny*, XXI, 1957, 301–343.
—, «*Les Subdivisions de l'Ibadiya*», *Studia Islamica*, IX, 1958, 72–82.
—, «*Notice sur la chronique ibadite d'ad-Dargini*», *Rocznik orientalistyczny*, XI, 1936, 146–172.
—, «Quelques textes inédits en vieux berbère provenant d'une chronique ibadite», *R.E.I.*, 1934, cah. 3, Paris 1935, 275–296.
—, Une chronique ibadite «Kitab al-Siyar», *R.E.I.*, 1934, cah. 1, 59–78.
—, *Une langue romane oubliée de l'Afrique du Nord* (Memorial Tadeusz Kowalski), Cracovie, 1953, 415–480.
Lewis (A.R.), *Naval Power and trade in the Mediterranean*, Princeton, New Jersy, 1951.
Lewis (B.), "The Fatimids and the route to India", *Revue de la Faculté des sc. économiques de l'Université d'Istanbul*, XI, 1949–1950.
Lezine (A.), «Deux Ribat du Sahel Tunisien», *C.T.*, 1956, 279–288.
—, «*Le Ribat de Sousse*», Direction des Antiquités et des Arts de Tunisie, Notes et Documents, XIV, Tunis 1956.
Lombard (M.), *Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane (VIIe–IXe S.)*..., Bibl. générale de l'École Pratique des Hautes Études, VIe section, Paris 1958, 53–106.
—, L'or musulman du VIIe *au XIe S.*, Annales Economies, Sociétés, Civilisations, II, av.–juin 1947, 143–160.
—, *Une carte du bois dans la Med. mus.*, ibdem, av.–juin 1959, 234–254.
Lopez (R.S.) et Raymond (I.W.), *Medieval trade in the Mediterranean World*, New York 1955.
Magalhaes Godinho (V.), «Mediterraneo saarino e as caravanas do ouro», *Revista de Historia*, Sao-Paulo, Brésil, no 23, juil.–sep. 1955, 74–134; no 24, oct.–dec. 1955, 307–353; no 25, janv.–mars 1956, 59–107.
Mann (J.), *The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimids...*, 2 vol., Oxford University Press 1920–1922.
Marçais (G.), *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Âge*, Paris 1946.
—, *Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe S.*, Constantine–Paris 1913.
—, *Manuel d'Art Musulman*, 2 vol., Paris 1926–1927; remanié sous le titre: *l'Architecture musulmane d'occident*, Paris 1954.
Marçais (G.) et Poinssot (L.), *Objets Kairouanais*, Notes et Documents, XI, fasc. I et II, 2 vol., Tunis 1948–1952.
Marçais (G.) et Golvin (L.), *La Grande Mosquée de Sfax*, Tunis 1960.
Marçais (W.), «Comment l'Afrique du Nord a été arabisée», *A.I.E.O.*, IV, 1938, 1–23, 1956, 5–17.
—, *L'islamisme et la vie urbaine*, comptes rendus de l'Académie des Inscriptions, 1928, 86–100.

Marçais (W.) et Guiga (A.), *Textes arabes de Takrouna*, Paris 1925.

Merad (Ali), « Abdel Mou'min à la conquête de l'Afrique du Nord », *A.I.E.O.*, Alger 1957, 109–163.

Mercier (M.), *Le feu grégois: les feux de guerre depuis l'Antiquité – la poudre à canon*, Paris 1953.

Miles (G.C.), *Early arabic glass weights and stamps*, Numismatic notes and monographs, nº 111, New York, 1948.

—, *A supplement*, Numismatic notes..., nº 120, New York, 1951.

Monchicourt (R.), *La région du Haut Tell en Tunisie*, Paris 1913.

Montagne (R.), *La civilisation du désert*, Paris 1947.

Motylinski (A.), « Bibliographie du Mzab... », *Bulletin de correspondance africaine*, III, Alger 1885, 15–72.

—, *Le Djebel Nefoussa*, Paris 1899.

Muquaddasi, *Description de l'Occident musulamn au IVe–Xe siècle...*, éd. trad. C. Pellat, Alger 1950.

Nallino (C.A.), Raccolta di scritti editi e inediti, V, Astrologia, Astronomia, Geografia, A cura di Maria Nallino, Publicazionni dell' Instituto per l'Oriente, Rome 1944.

—, « Venizia e Sfax nel secolo XVIII secondo il cronista arabo Maqdish », *Centenario M. Amari*, I, 306–356.

Nicholson (R.A.), *A Literary history of the Arabs*, Cambridge 1930.

Nuwayri, *Historia de los Musulmanes de Espanà y Africa* (Extrait de la *Nihayat al-arab*), éd. trad. espagnole Gaspar Remiro, Revista del Centro de Estudios historicos de Granada y su Reino, 2 vol., Grenade 1917–19.

Obermann (J.), "The arabic original of Ibn Shahins's Book of Confort Known as the Hibbur Yaphe of R. Nissim b. Yaâqobh », *Yal oriental series researches*, XVII, New Haven 1933.

—, *Two Ely'ah stories in judeo arabic translation*, Hebrew Union College Annual XXIII, 1950–51, 387–404.

Pellat (Ch.), « Ibn Hazm bibliographe et apologiste de l'Espagne musulmane », *Al-Andalus*, XIX, Madrid 1954, 53–102.

Pérès (H.), « Glanes historiques sur les Moulok al-Tawaïf et les Almoravides dans les 'Oalaïd al-Iqyan' d'al-Fath Ibn Khaqan », *Mélanges G. Marçais*, II, 147–152.

—, *La poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle*, 2e éd., Publications de l'Institut d'Etudes orientales, Faculté des Lettres d'Alger, V, Paris 1953.

Pernoud (R.), *Histoire du Commerce de Marseille*, 3 vol., Paris 1949–1951, tome I, 109–375.

Pirenne (H.), *Histoire économique de l'occident médiéval*, Bruxelles 1951.

Pirenne (J.), *Les grands courants de l'Histoire universelle, II, De l'expansion musulmane aux traités de Westphalie*, Neuf Châtel, Paris 1950.

Poinssot (L.), *Castella (Qastiliya)*, Bulletin archéologique du Comité, 27 mai 1940, V-IX, 1938–1940, 415–422.

—, *Inscriptions arabes de Kairouan...*, Publications de l'Institut des Hautes Études de Tunis, II, fasc. I-II, Paris 1950 et 1958.

Pons Boignes (F.), *En suyo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles*, Madrid 1896.

Poznanski (S.), «Kalâat Beni Hammad», *R.E.J.*, t. 58, 1909, 297–298.

Quatremère (N.), «Mémoires historiques sur la dynastie des Khalifes fatimides, vie d'El Moïzz», *J.A.*, 3e sèrie, août 1836.

Renouard (Y.), *Le rôle des hommes d'affaires italiens dans la Méditeranée au Moyen Âge*, Revue de la Méditerranée 1955.

Rice (D.S.), *Studies in islamik metal work, V, B.S.O.A.S.*, xvii/2, 1955, 206–231.

Rizzitano (U.), *Ibn Charaf al-Qayrawani e la sua Risalah al-Intiqaad*, Rivista degli studi orientali, Rome 1956, 51–72.

Sajeda Shukri, *Sumer, A journal of Archeology in Iraq*, x, Baghdad 1951.

Salama (P.), *Les voies romaines de l'Afrique du Nord*, Alger 1951.

Sarton (G.), *Introduction to the history of science*, 3 tomes en 5 volumes, Baltimore 1927–1948.

Sauvaire (H.), «Matériaux pour servir à l'histoire de la numismatique et de la métrologie musulmane», extrait du *J.A.*, 7e série, xv, 1880.

Sauvaget (J.), *Intoduction à l'histoire de l'Orient musulman*, Paris 1943.

Sayous (A.E.), *Le commerce des Européens à Tunis depuis le XIIe siècle jusqu'à la fin du XVIe*, Paris 1929.

Schacht (J.), «Bibliothèques et manuscrits abadites», *R.A.*, 1956, 375–398.

—, *Esquisse d'une histoire du droit musulman*, trad. Arin, Paris 1953.

—, «*New sources for the history oh Muhammadan theology*», *Studia Islamica*, i, 1953, 40 seq.

—, «Sur la transmission de la Doctrine dans les écoles juridiques de l'Islam», *A.I.E.O.*, 1952, 399–419.

—, *The origins of Mohammadan jurisprudence*, Oxford 1950, 2e éd. 1952.

Schaube (A.), *Handesgeschichte der romanischen Völker des Mittelmeergebiets bis zum Ende deer Kreuzzüge*, Munich–Berlin 1906.

Seston (W.), «Sur les derniers temps du christianisme en Afrique», *Mélanges de l'École de Rome*, liii, 1936, fasc. i–iv, 101–124.

Simon (M.), «Le judaïsme berbère dans l'Afrique ancienne», *Revue d'Histoire et de Philosophie religieuse*, xxvi, 1946, 1–31, 105–145.

Solignac (M.), *Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VIIe au XIe S.*, Publications de l'Institut d'Etudes Orientales de la Faculté des Lettres d'Alger, xiii, Alger 1953.

Stern (S.M.), «Three North African topographical notes», *Arabica*, I, 1954, 343–345.

—, *An Original Document from the Fatimid Chancery concerning Italian marchants*, Studi orientalistici in onore di G. Levi della Vida, ii, 1956, 529–538.

Sudhoff (M.K.), *Archeion, organe officiel du Comité International d'Histoire et Sciences*, xiv, n° 3, août–sept. 1932.

Talbi (M.), «Quelques données sur la vie sociale en occident musulman», d'après un traité de Hisba du XVe siècle, *Arabica*, 1954, 294–306.

Terrasse (H.), *Histoire de Maroc*, 2 vol., Casablanca 1949–1950.

—, *L'art hispano-mauresque des origines au XIIIe siècle*, Paris 1932.

—, *La Mosquée des Andalous*, Paris, s.d.,

Thorndike (L.), *A History of magic and experimental science*, 6 vol., New York

1923–1941; vol. I, 4e éd. 1947, 743–754.

Trabulsi (A.), *La critique poétique des Arabes jusqu'au Ve siècle H.*, Damas 1956.

Tyan (E.), *Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam*, 2 vol., Paris 1938.

—, *Institutions de droit public musulman, I, Le Califat*, Paris 1954.

Vajda (G.), Le commentaire Kairouanais sur le « livre de la Création », *R.E.I.*, Nlle série, VII, 1–62, X, juil. 1949 – dec. 1950, 67–92.

—, *Galien – Gamaliel*, Annuaire de l'Institut de Philosophie et d'Histoire orientales et Slaves, XII, 1953, *Mélanges Isodore Lévy*, 641–652.

—, *Introduction à la pensée juive du Moyen Âge*, Paris 1947.

Vonderheyden (M.), *La Berbérie orientale sous la dynastie des Benou l-Aghlab*, Paris 1927.

Zambaur (E. de), *Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam*, Hanovre 1927.

Zbiss (S.M.), « Le Musée d'art musulman de Sidi Bou Khrissan à Tunis » *Bulletin économique de la Tunisie*, nº 77, juin 1953, 96–100.

—, *Le Ribat, Institution militaro-religieuse...*, Comptes rendus de l'Académie des inscriptions, 1954, 143–147.

—, « Mahdia et Sabra–Mansouriya », Nouveaux documents d'art fatimide d'occident, *J.A.*, 1956, 79–93.

—, *Note sur les cimetières musulmans de Tunis...*, Extrait du 70e congrès de l'A.F.A.S (Tunis, mai 1951), fasc. 3, tiré à part.

—, *Corpus des inscriptions arabes de Tunisie*, 1ere partie, Tunis 1955; 2e partie, Tunis 1960.

Abrévations:

A.I.E.O. = *Annales de l'Institut d'Etudes orientales de la Faculté des Lettres d'Alger.*

C.T. = *Les cahiers de Tunisie.*

J.A. = *Journal asiatique.*

J.R.A.S. = *Journal of the Royal Asiatic Society.*

R.A. = *Revue Africaine.*

R.E.I. = *Revue des Études Islamiques.*

R.E.J. = *Revue des Études Juives.*

R.T. = *Revue Tunisienne.*

فهرس المواضيع



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون 340131 - 340132 - ص ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P..113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم : 1992 - 3 - 2000 - 203

التنضيد : مؤسسة الخدمات الطباعية (حسيب درغام وأبناؤه) المكلس

الطباعة : دار صادر - بيروت

HADY ROGER IDRIS

La Berbérie orientale sous les Zirides

Xᵉ - XIIᵉ siècle

TRADUIT EN ARABE
PAR
HAMADI SAHLI

Tome I



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

Série
Universitaire

HADY ROGER IDRIS

La Berbérie orientale sous les Zirides Xe - XIIe siècle

TRADUIT EN ARABE
PAR
HAMADI SAHLI

TOME I



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI